

عِلْمُ الْأَجْتِمَاعِ السِّيَاسِيِّ

وقضايا التخلف والتنمية والتحديث

دكتور قتيبي محمد اسماعيل

أستاذ علم الاجتماع
مدير الأبحاث والبحوث بالجامعة

الناشر: دار النشر بالجامعة

جبلال حنزي وشركاه

عِلْمُ الْأَجْتِمَاعِ السَّنَاءِ سَوِيٌّ
بِحُسْنِ التَّحَلُّفِ وَالْقِيَمَةِ وَالْعَدْلِ

أهداءات ٢٠٠٠

أ.د. قناري محمد اسماعيل
أستاذ الاجتماع بأحاديث الإسكندرية

علم الاجتماع السياسي

وقضايا التخلف والتنمية والتحديث

دكتور قتيبي محمد اسماعيل

أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر // دار الفكر

جمال حنري وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض »

« لهدمت صوامع وبيع »^(١)

« صدق الله العظيم »

(١) - سورة الحج الآية ٢١ .

السلطة

«كنا بالأمس نقساء : أين نضع السلطة؟»

«أما اليوم، وقد تعلمنا ماهي المسؤولية..»

«فقول : لا ينبغي أن نأل : أين نضع ..»

«السلطة ؟ بل كيف نمارس السلطة؟»

«وفي ضوء هذا المعنى أهني هذا الكتاب ..»

إلى كل مسئول يمارس السلطة

دكتور قباري محمد اسماعيل

تصدير

«الخطبة التي به نستعين ، وبكلمات رسوله ،
«ننتهي ونقتضى ، حين يكشف القدر المحمدي في ،
«إبداع عن معان لا حصر لها ، وبصوغها في ،
«روعة وبراعة ، تصف بهما وتفرد وجدها ،
«دون غيرها ، عبقرية السياسة الفذة، فيقول :
«كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ،
(صلى رسول الله ...)

وبعد ...

هذا كتاب في «علم الاجتماع السياسي وقضايا التخلف والتنمية والتحديث» ،
دفعته به إلى المطبعة ، بعد أن جمعت أصوله ، وحذت أبوابه وفصوله . ولاشك
أن دراسة في «سوسيولوجيا الظواهر السياسية» ، إنما تباين تماماً ، عما نعرفه
على نحو تقليدي ومتواتر بل وشائع ، في سائر المسائل والفلسفات والقيادات
السياسية . كما ويعدنا منهج البحث في «علم الاجتماع السياسي» ، تماماً عن فهمنا
لطبيعة الظواهر السياسية ، حيث لا يهتم الباحث السوسيولوجي بسيائر أشكال
ومنتظورات الفكر السياسي ، بقدر ما يهتم بالتجربة السياسية في ذاتها ، ولذلك
يستند منهج البحث في علم الاجتماع السياسي إلى وعيها بما هو تجريبي ، وحرمة
الوقائع السياسية Political facts ، بالرجوع إلى الملاحظة العلمية ، اعتياداً
على روح البحث الوضعي أو ما يسمى بالتجريب experimentation ، حين

يطبق على تلك الظواهر السائدة في سائر البنيات والأنساق السياسية .

وقد يطبق علم الاجتماع السياسى ، منهجاً فينومينولوجياً في دراسة
قولات الفيلسوف ، على اعتبار أن الشعور الإنسانى ، إنما يتص كل ما يدور في
تيارات السياسة من صراعات . فليس الشعور الإنسانى خالياً من الموضوعات
وإنما يحتوى على رولب تاريخية ذات مضامين سياسية ، حين تمثل
التصورات السياسية بالاحساسات والمشاعر الجمعية *Collective feelings* ، يمكننا
قول لنا ، فينومينولوجيا السياسة ، . ولقد كان هيجل *Hegel* ، هو أول من
وجه الأذهان نحو الفينومينولوجيا والوصى السياسى ، حين شاهد بعين رأسه
جيوش نابليون وهى تهرب من مدينة *Jena* ، لى قرر مصير الدولة
البروسية فتهاوى وتسقط ؛ ولذلك يرفض هيجل في كتابه *فينومينولوجيا العقل*
Phenomenology of Mind ، صورية الفكر الكاظمى ، فالصورى منفصل
عن الواقع ، فبقي خالياً بلا مضمون ، ولذلك يرفض هيجل ذلك النوع من
النطق الذى يضحى بالعصوبة والحركة والتاريخ ، من أجل التزام الضيق
الصورى ، فأكد هيجل على المضمون التاريخى لفكر ، وربط العقل بعجلة
التاريخ (١) ، حين يرتبط الماضى بالحاضر ، والمستقبل في تيار شعورى تاريخى ،
وبين منطق العودة ، ومنطق الفوضى نستطيع حصر « الشعور الحضارى أو
التاريخى » وسر غوره ، وضبط حركته واتجاهاته .

فصبح الفينومينولوجيا السياسية على ما يقول دلتى ، فلسفة من فلسفات
التاريخ ؛ بمعنى أن تاريخ الفينومينولوجيا أصبح هو بالفروقة تاريخ الشعور
الإنسانى الجمعى ، ولا قصد هنا قصداً دوركيميا في فهم أو تفسير الشعور الجماعى ،

(1) Hegel, G.W F., *The Phenomenology of Mind*, Trans
by J. Baillie, London. New York. 1931.

ولكن الفينومينولوجيا تدرس الشعور الجمعي، على أنه شعور مثالي ينبض بالحياة، بل إنه «فلسفة الحياة ذاتها»، حين تجري في تيار الشعور الذي يواجه حضارة، ويميش تجربة حية، كما وقد باتت أزمة من أزمات العصر.

ويذهب «ولم دلتى Wilhelm Dilthey إلى أن الفينومينولوجيا، هي منهج يقوم أصلاً على أفاض «أزمة العلوم الانسانية»، تلك التي صمدت مع كتابات «هوسرل» في الفلسفة، ودراسات «جورفنتش» في ميدان علم الاجتماع. فقد إلتقت الأنظار في الوقوف أمام التيار الدركي الموضعي الذي يؤكد على ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء *Comme des choses* وهي في الواقع لا تنصف بالشيئية، فهي ليست كالظواهر الطبيعية؛ لأنها «كيف بحث» على ما يقول برجونسون Bergson لا يوضح الحكم والمقارن، كما لا يمكن التنبؤ به مقدماً.

ولاشك أن الموضوعية التي إبتناها «دوركايم» و«كوت» وغيرهما من سائر الوضعيين، هي السلبية بعينها، فهي تحيل علماء الاجتماع أنفسهم أن يتغلوا موقفاً خاصاً، حين يقف عالم الاجتماع من ظواهر الانسان والمجتمع والتاريخ، موقف «المشاهد السابي»، لكل ما يقع أو يحدث أو يظهر.

وأغلب الظن أن «دوركايم» بزعمة الشيئية، قد وقف فقط عند «سطح الظواهر» دون أن يتعمقها أو يسبر غورها. وهنا ينبغي أن نميز بوضوح وجلاء بين «مبدأ التفسير» و«مبدأ الفهم»، فن المعلوم لدينا أن «التفسير» يتصل بتطليل الوقائع والظواهر في سياق عديد، بمعنى أن التفسير إنما يبحث من الخارج عن العلاقة بين تابع الظواهر أو تراترها داخل أنساق إجتماعية. على حين أن «الفهم» يتصل بإدراك «معنى الظواهر» من الداخل، ولا يستطيع الانسان أن يتخذه موقفاً حيادياً بالنسبة للظواهر الاجتماعية، فإنها ليست بالأشياء الخارجية

أو المستقلة، كما توهم دور كايم، وإنما هي مرتبطة بعقل الإنسان وإرادته، متعلقة بروحه ونفسه.

وليس من شك من أن الزمان التاريخي، هو إطار سيطوي ممتلئ بالتجارب الجموعية^(١). ويحاول « المؤرخ السياسي » أن يسجل الأحداث والوقائع السياسية التي مضت واقتضت، كما يسجل أيضاً عالم الاجتماع السياسي، ويرصد كل ظواهر السياسة، فيدرس ويصف ما يحدث، ويسبر غور السلوك السياسي، بين الدول والأمم، ويفسر كل ما يوجد « هنا والآن » Here and now . على مسرح الأحداث السياسية الدولية، ويربط ما عن له من ظواهر، كما ويمالج وقائمه في ضوء الماضي السياسي، كما ويصفها في ضوء الحاضر من حيث تحققها وثباتها ودوامها^(٢).

وهكذا يلقي « التاريخ الاجتماعي »، ضوءاً على ماضي « الثورات »، بتحليل أيديولوجية « الطبقات »، ووصفها الطبقي؛ وأشكال التنظيمات الدينية والسياسية، التي تبرز ملامح التركيب الاجتماعي لفئات وطوائف وطبقات المجتمع، موضوع الدراسة.

وإرتكناً إلى هذا الفهم، يؤكد عالم الاجتماع السياسي « بونومور Bottomore »، على ضرورة المزاوجة بين « ظواهر السياسة » و « وقائع التاريخ »، كما يؤكد هذا العالم البريطاني نفسه، على وجوب الجمع بين علم المؤرخ الاجتماعي Social Historian وميدان البحث في « علم الاجتماع التاريخي Historical Sociology » لدراسة البناءات الاجتماعية الحضارات القديمة؛

(1) Blondel, Charles, Introduction à la Psychologie Collective; Armand Colin, Paris, 1946.

(2) Nadel, S F., 'Foundations of Social Anthropology', London. 1961.

والكشف من التحليلات السياسية والسيولوجية للطبقات والطوائف
والثورات (١).

وختاماً أرجو أن أكون قد أضفت شيئاً جديداً ، إلى المكتبة العربية ، فقد
تابعت في هذا البحث واتجهت ما ينبغي ، نحو القارئ العربي ، وفقنا الله وأعاننا
على تحقيق الغاية المنشودة .

المنيرة البحرية

١٠٣

يوليو ١٩٨٠

(1) Bottomore, T.B., *Sociology, A Guide to Problems and Literature*, Unwin University Books, London. 1963. PP. 45 — 68.

الكتاب المقدس

البيانات الأولية للتفكير السياسي

- تمهيد
- السياسة كبحث من مباحث الفلسفة
- فلسفات طوباوية
- الفكر السياسي وروح العصر
- كروت ، والسياسة الوضعية
- قواعد المنهج في علم الاجتماع السياسي

المقدمة :

تكمين « أصول الفكر السياسى » بيئته فى باطن الثقافات القديمة لآسيا
هندية ، وحضارات شرقية ، ونظم صينية عتيقة ، صارت عنها كتابات كوفوشوس
Confucius ، حيث صدرت الطلائع الأولى لتبشير الفكر السياسى العتيق منذ
ماضى بعيد ، بدأ فيه الإنسان ككائن اجتماعى يصنع ثقافته ؛ ويشيد حضارته ،
ويكتب تاريخه .

البدايات الأولية للتفكير السياسى :

ولقد كانت البدايات الأولى للتفكير السياسى القديم ؛ بمثابة محاولات وتطلعات
الإنسان وردود أفعاله ونظمه البدائية ، بقصد التكيف اجتماعياً وفيزيقياً فى « بناء
اجتماعى » يواجه ظروفًا بيئية قاسية بل وصارمة .

ولما كان ذلك كذلك — فإن من يمرض لمساائل الفكر السياسى القديم ،
كان لزاماً عليه أن يطرق أبواب الفكر الشرق العتيق ، حيث تفتح حضارات
المهند والصين ، ليجد الباحث فى باطن تلك الحضارات أصولاً فكرية نصبه لمجدور
بعيدة الغور تمتد فى ماضى التفكير الاجتماعى . ونحن نبحث عن « الأصول »
ونفتش عن « المصادر » ينبغى أن يتطرق « مؤرخ علم الاجتماع السياسى » إلى
حضارات اليونان والرومان ، وهى إمتداد طبيعي لحضارات الشرق وبخاصة
« حضارة مصر الفرعونية القديمة » .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ؛ لم ينشأ الأدب اليونانى القديم على سبيل العطفرة
ولمّا سبقه إلى الوجود ذلك « الخيال الفرعونى » الحصب ، حين ظهر الكاتب
المصرى القديم وسجل أدياً إنسانياً رائعاً ، ما زال يضح حتى الآن عن نفسه ؛
ويحبر عن تصورات الدينية العميقة ، فكانت هذه المحاولات والبدايات ، بمثابة
التوافد الأولى التى بدأت الانسانية تطل منها على العالم وتلمس أول معالم الوجود ، إلى
الدرجة التى فيها يقول أفلاطون فى عاودة « قيدون » على لسان كاهن فرعونى
يتخاطب يونانياً بقوله : « إنكم مشر اليونان أطفال ، وستظلون كذلك ، فليست
لديكم أية حضارة ، وبذلك سجل أفلاطون الحقيقة والتاريخ ، أن « المصرى »

هو الذي علم ، اليوناني ، فالأول أسبق إلى الوجود وإلى الحضارة والتاريخ .
وبالاحاطة إلى كل هذه المصادر الأولية القديعة لتاريخ الفكر السياسي ، فإنا
إذا ما أرخنا لأصول ومصادر علم الاجتماع السياسي ، نفسه ، فوجدناه ابن
الثورة البورجوازية التي اندلعت في فرنسا ، والتي نجم عنها كل حاضنته هذه
الثورة الكبرى من تحولات اجتماعية وتغيرات سياسية ، وما صاحب ذلك من
تغير هائل في النظم والمبادئ ، وتطور واضح في قيم الأخلاق ومظاهر الفكر
الحري الخلاق .

الثورة كعبرة سياسية :

ولقد أحدثت تلك الثورة الكبرى التي اندلعت في قلب المجتمع الفرنسي ،
الكثير من التحولات الجذرية ، فقلبت البناء السياسي رأساً على عقب ، وتطورت
حركة التصنيع لاني فرنسا وحدها بل في المجتمع الاوربي برمته . وكان من نتائج
هذه الثورة الاخلاقية ، تحطيم العادات والنظم القديعة ، وتدمير التقاليد القطاعية
الرجسية وإزالة الصور النمطية المقتة ؛ والامحاط السلوكية المتينة ، تلك التي أسف
عليها الدهر ، أي أنها كانت ثورة على القديم ، وحركة مضادة لكل ما هو بالعتيق ؛
حيث كانت أوروبا في ذلك الوقت تتردى في حالة من الفوضى السياسية والاجتماعية ،
وعاش المجتمع الاوربي في حالة من التفكك وعدم النظام ، وهي حالة فرصة لم
تحتاج أوروبا منذ بحرية « حركة الإصلاح الديني ، أو حتى منذ سقوط روما .

وإذا كان علم الاجتماع السياسي ، هو ابن الثورة الفرنسية ، فإنه أيضاً ابن
الفكر الاجتماعي برمته ، حيث صدر عن الفلسفة الاجتماعية منذ ظهرت وصدرت
عند أفلاطون ،^(١) و د أرسطو ، حيث اختلطت كتابات علم الاجتماع الأولى ،
وامتزج الفكر الاجتماعي العتيق بالأخلاق والدين والسياسة والميتافيزيقيا .

(١) كتبت المقدمات السياسية القديعة غارقة في تأملات الميتافيزيقيا ، وأجلام الفكرين
وكان أول مؤلف فلسفي منظم معبر في الفكر السياسي ، هو يرمونيلا أفلاطون ، التي حاول
أن يمجتها في « الجمهورية » حيث يتولى الفيلسوف مسئولية السلطة السياسية ، استناداً إلى
دكتاتورية الفكر التي يدير شؤون الناس ويحكم بجمع الجمهورية .

إلا أن علم الاجتماع السياسي عند كورت ، قد أحدث ثورة في الفلسفة ، وصارت الوضعية حركة مضادة للبياتيزم مقيمة العلم . فخلب علم الاجتماع أوضاع الفلسفة التقليدية رأساً على عقب ، حيث حلت النسبية Relativity محل المطلقات absolutes ، وكان الاهتمام بما هو كائن ؛ ورفض ما ينبغي أن يكون وظهرت الحاجة الماسة إلى وجهة النظر التقديرية ، وإنكار وجهات النظر الميادية ، مع اتباع منهج الملاحظة ؛ والأخذ بفكرة « القانون Law » ، والابتعاد كلية عن منهج « الاستنباط » ، أو الأخذ بفكرة « العلية Causality » .

وإذا ما أرشنا الفكر السياسي والاجتماعي ، فإنا أولاً وقبل كل شيء سنحاول بالضرورة أن نتعالج مسألة تاريخية ، تتصل بالبدايات الأولية لصدور مثل هذا اللون من الفكر الذي يقسم بطابع حضارى ، كما ويرتبط بأصول ثقافية ومصادر يفسية أو طيبية . ولاشك أن بداياته التاريخية الأولى ، هي بدايات حضارية ترتبط أصلاً بظهور أو تكوين « مجتمعات » ، حيث بدأت بها حضارة الإنسان ، وانبثقت بفضلها الطلائع الأولى لاشكال التفكير الاجتماعي وصورة . وهذا هو السبب الذي من أجله نكمن أصول الفكر الاجتماعي وجذوره - كما قلنا - في باطن الثقافات وجوف الحضارات .

التطور الحضارى للتفكير السياسى :

إذا ما درسنا نظام « الحكم الفرعونى القديم » لوجدنا أن فراعين مصر ، قد ابتكروا طوال عهود المملكة القديمة والوسطى والإمبراطورية الحديثة ، مبدأ الرقابة ، كما أعطوا « التنظيم المركزى » حيث تركزت السلطة السياسية في الحكومة المركزية ، التي فرضت السلطة المحلية عن طريق الولاة ، لتنفيذ تعليمات « فرعون مصر » .

وظهرت « إمبراطورية بابل » في حوض دجلة والفرات ، واتحدت بفضل جهود « حورابى » كل مدن الرادى ، واستتب الأمن ، واستقرت موازين القضاء ، وسادت هدنة القتلون ، في مبيعات البيع والشراء والتجارة وشئون الأسرة ، وتحديد الحد الأدنى للاجور وفرض مبدأ الرقابة وتحديد أو تنظيم المسئولية ،

حيث يعلم مثلاً تاجر الخور الذى يأوى فى بيته جماعة من المشايخين ، كما ويحكم قانون « حورابى » بقطع يدى الطبيب الذى يجرى جراحة بمضغ من النحاس فيسبب فى موت المريض ، أو فى فقد عينه ، ويقضى القانون بقتل الممرضة التى تعبد إلى ممرضة أخرى لتربية الطفل دون موافقة أبويه ، كما ويقضى بإعدام حامل البناء الذى يبنى بيتاً يتهدم على ساكنه ويقتله (١) .

ولقد استخدم حورابى منهج الصح واستعان بمبدأ المشورة الإدارية ، كما استخدم الشهود فى أغراض الرقابة . ولذلك يعتبر قانون « حورابى » من أقدم القوانين المعروفة فى العالم ، وشهدت بابل فى عهد نبوخذ نصر ، حقبة من الزواج والأزدهار ، بفضل انتشار مصانع النسيج ، واستخدام خيوط انزل المونة ، لاستخدامها السريع ولتشغيلها اليومى كما استخدمت الألوان فى تزيين البكرات وصباغة المنسوجات ، وذلك لسهولة الرقابة على سير العمل . مع الاهتمام بتشديد صوامع الغلال وتخزينها بمد كل حصاد ، حيث يعا التمتع فى جرار ضخمة من الطين ، وفى فوهتها بلئت قصبه ملونة ، يتغير لونها كل عام ، بحيث يمكن معرفة سنة الحصاد لأول وهلة .

وظهرت عند العبرانيين ، مفاهيم التنظيم ، ومبادئ الاستثناءات والتدرج الهرمى hierarchy ، وكان سيدنا موسى عليه السلام من زعماء العبرانيين ، واشتهر بالقدرة على الحكم والتشريع كما وسجل وصاياه العشر على ألواح اشتهرت باسمه . كما أدرك الصينيون الحاجة إلى التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة ، والاعتراف بمبدأ التخصص ، كما استخدم ملوك الصين المستشارين والوزراء للاستفادة من خبراتهم وبما لديهم من حكمة وموهبة . فاستخدم الملوك مبدأ الشورى ، وأصبح هذا المبدأ من التقاليد المرعية فى حكومات الصين ، إلى الدرجة التى معها عمل رئيس وزراء أحد ملوك « أسرة شانج » على تنحية الملك من الحكم لمدة ثلاث

(١) كلود ، جورج الابن . تاريخ الفكر الادارى ، ترجمة الأستاذ احمد حويدة ،

سنوات ، وذلك لأنه لم يأبه بنصح مستشاريه . ولم ينترد الامبراطور مرشيه إلا بعد أن نعم وتاب وأتاب ، واحترم مبدأ الشورى كتقليد صيني عتيق . ولقد استعان الاسكندر الأكبر ، أيضاً على غرار الصين بالمستشارين ، وكان على رأسهم معام الاسكندر الفيلسوف اليوناني « أرسطو » . ومع ظهور المسيحية ؛ صدرت فكرة « القيادة الروحية » كقاعدة ذهنية ، تستند إلى إرساء مبادئ العلاقات الانسانية ، كما تعبر في نفس الوقت عن مبدأ « وحدة القيادة » .

ولاشك أن نظم الهند القديمة ، وحضارة الصين التي صدرت مع تعاليم « كونفوشيوس » ، إنما تؤكد حقيقة تلك الجهود الجمية ، التي صنعت مثل هذه المحاضرات الكبرى ، والتي شادت مثل تلك الثقافات الحصنة . كما أن الفلسفات القديمة هي الاخرى ما هي إلا « مرآة » ، تعكس نظماً وأنساقاً كانت قائمة ، أو أنها « عصة لامة » لكل ما يدور أو يقع ويحدث داخل إطار تلك التيارات الاجتماعية العتيقة .

ولذلك كان لازماً علينا ، أن نتبج أصول أو ماضى التفكير السياسى ، من خلال دراسة أنساق المجتمع الهندى القديم . ونظم الحضارة الصينية العتيقة ، مع التركيز على فهم « اتجاهات الفكر الشرقى » ، و « فعوى فلسفات اليونان » باعتبارها جميعاً بمثابة المقدمة الضرورية التي لا ينفك عنها فهم البدايات الاولى لصور التفكير الاجتماعى .

الفلسفات الطوباوية :

لا شك أن العالم الاجتماعى هو المحور الاساسى لتأملات الانسان ، وبمبتعد عن كانه ومبسط فلسفاته وفهمه لطبيعة الأشياء من حوله . وفي سياق الفكر الانسانى . وطوال تاريخ حضارة الانسان ؛ صدرت الكثير من « الفلسفات الاجتماعية » ، و « Social philosophies » ، وفى فلسفات من نوع خاص ، مثل ظهور

الفلسفات الدينية والأخلاقية كالفلسفة الكونفوشية *confucionian* القديم .
وهي فلسفة صينية ، تعد من الفلسفات الاجتماعية الكبرى التي صدرت في الشرق
القديم ، بل ولعلها الفلسفة الشرقية الوحيدة ، التي تعبر خير تعبير عن طبيعة
العلاقات الاجتماعية في البناء الصيني القديم .

إذ أن الكونفوشية كفلسفة اجتماعية ، إنما هي مرآة تنعكس عليها صور
الحياة الاجتماعية ، أو هي « بؤرة » يجمع في طياتها كل سمات وملامح
الاجتماع الصيني القديم بثقافته العتيقة التي انبثقت وتبلورت خلال القرون العابرة
ولقد كشفت الديانة الكونفوشية عن مفهومات أولية للمنى النظم الدينية والعلاقات
الاجتماعية .

فالكونفوشية ، بهذا المعنى ، مثال واضح ، من أمثلة الفلسفات الاجتماعية
التي مهدت فعلاً لظهور علم الاجتماع ، والتي طالجت مسائل سوسيولوجية من الدرجة
الأولى ، ولعل فلسفة المبقرى العربى « عبد الرحمن خلدون » هي أيضاً إحدى
الفلسفات الاجتماعية الكبرى ، حيث اتفق علماء الاجتماع وأجمع الكتاب
للمعاصرون على أن كتابات « ابن خلدون » الاجتماعية ، إنما تعتبر بشيراً لطلائع
الدراسات العلمية للبكرة في « علم العمران » ، الذى هو علم الاجتماع عند ابن
خلدون ، وبخاصة حين أشار ذلك الرائد العربى ، فى مقدمته المشهور إلى خصائص
« العمران البشرى » .

وليس من شك في أن الفكر اليونانى الفلسفى ، كان مهبطاً للكثير من
التصورات الاجتماعية ومصدراً أساسياً من مصادر الفكر الاجتماعى ، حيث انتحبت
« النظرية الاجتماعية » إلى حد كبير بتلك الأفكار اليونانية القديمة . تلك الأفكار

الاجتماعية الأولى التي التهمت بكتابات « أفلاطون Plato »^(١) ودراسات
« أرسطو Aristotle » .

وفي العصور الوسطى نستطيع أن نشعر على مظاهر أولية وناعية للفكر
الاجتماعي عند « سانت أوغستين St Augustine » ، أما في الفلسفات الحديثة
فيمكننا أن نستشهد بكتابات « جون لوك Locke » و« توماس هوبز Hobbes »
و« جان جاك روسو Rousseau » و« فريدريك هيجل Hegel » .

ولكن هذه « الفلسفات الاجتماعية » ، قد ظلت زمناً طويلاً غارقة في التأملات
المتافيزيقية ؛ بمعنى أنها لم تكن تعنى حدود المستوى النظري ، فلم تخرج عن
النطاق التأمل الخالص . ومن هنا ارتبط التفكير الاجتماعي بعجلة الفلسفة ، ولم
يستطع علم الاجتماع في هذه الحقبة من تاريخه أن يتخلص من تأثير التفكير
المتافيزيقي ، حيث اختلطت الكتابات الاجتماعية المبكرة وامتزجت بمشكلات
المتافيزيقيا كما اندمجت دراسات علم الاجتماع في صلب مباحث الفلسفة .

وبالإضافة إلى ذلك ، إستندت الدراسات السوسيولوجية في مراحلها الأولى
إلى ما يسمى في الفلسفة ، بوجهة النظر المعيارية Normative ، حيث إستمر
التفكير الاجتماعي فيما يجب ، واشغل أرائل الكتاب الاجتماعيين فيما ينبغي أن
يكون What Ought to be عليه « المجتمع » ، بما يحويه من نظم ومواقف
اجتماعية .

(١) قسم أفلاطون دولة الجمهورية إلى طبقات ثلاث وهي الطبقات الحاكمة والممارسة
والعامة ، كما بين أن أفلاطون في أسلوب فلسفي ومثالي كيف تتعامل هذه القوى الطبقية
وتتوظف في بناء الجمهورية . كما حاول أفلاطون في اليوتوبيا utopia أن يرفع علم السياسة
إلى أعلى منزلة بين العلوم ، ويعبر « السياسي » أو « رجل الدولة » هو أكثر من الرجل
الذي يمارس من الأعمال .

ولما كان ذلك كذلك — فقد انشغلت الفلسفات الاجتماعية بمسائل مجردة abstract ؛ حيث تساءل فلاسفة المجتمع : ما هي اللبائى التى يقوم عليها المجتمع السياسى ؟ وإلى أى حد يمكننا أن نحدد مختلف الملاح والسيات المميزة للمجتمع الصالح ، حتى تتحقق ملكة الله Kingdom of God على الأرض ؟ وما هي التزامات الفرد لإزاء الدولة ومثوليائه حيال المجتمع ؟

تلك هي المسائل التى شغلت أذهان الفلاسفة الاجتماعيين منذ « أفلاطون ، حتى « هيجل » . ولكن علم الاجتماع السياسى بمعناه الوضعى ، باعتباره دراسة علمية وموضوعية فهو يبحث بفضل مناهج العلوم فى النظم الاجتماعية ؛ كما يدرس ظواهر المجتمع السياسى دراسة علمية ، ويماثل التغير الاجتماعى social change ؛ الذى يطرأ على مختلف الظواهر الاجتماعية السائدة فى بنية المجتمع بمعنى أن علم الاجتماع السياسى إنما يدرس ما هو كائن بالفعل ، أو ما هو قائم « هنا والآن Here and now » على حد تعبير الفلاسفة ، ومن ثم يندمج عالم الاجتماع السياسى فى صلب الحياة الاجتماعية بشعبها ولحبا ، كما تمثل وظيفة علم الاجتماع المعاصر فى معالجة الموقف الاجتماعى الراهن Actuality of Social Situation . فلقد ظهر علم الاجتماع السياسى الحديث تحت وطأة الأزمات المجتمعية societal crisis ولقد صدرت هذه الأزمات فى الواقع ؛ عن إنزلاق الثورة الكبرى ؛ التى هي الثورة البروجوازية الفرنسية ، ولقد نجمت أزمة المجتمع السياسى الحديث عما خلفته هذه الثورة البائدة من التغيرات الاجتماعية والسياسية ، وما صاحب ذلك من تغير فى النظم والمساير ، وتطور فى قيم الأخلاق وظواهر الفكر الحر .

ولعل من الثورة الاجتماعيه الكبرى ، التى تمنحس عنها ظهور علم الاجتماع قد أحدثت ثورة علمية أخرى حيث قدمت بمناهج علوم الطبيعة ، كما ظهرت

بفضل جهود « لافوازييه » ، أصول الكيمياء الحديثة . وبفضل هذه الثورة السياسية إقلمت قواعد السياسة وخطورت موازين الاقتصاد ، فحدثت التغيرات الباقية ، لا في تاريخ فرنسا وحدها ، بل وفي تاريخ أوروبا بأسرها . حيث قلبت هذه الثورة البناء السياسي الأوروبي رأساً على عقب .

ومثل هذه الثورة الكبرى التي إندمجت في قلب المجتمع الفرنسي ؛ والتي أدت إلى تحولات جذرية عميقة في باطن الحياة الاجتماعية الفرنسية ؛ وبالإضافة إلى ذلك ؛ أحدثت هذه الثورة دفعة هائلة — سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر — كان لها رد فعلها في تطوير حركة التصنيع في المجتمع الأوروبي بمرته . وكان من نتائج هذه الثورة الأخلاقية ، تعطيل العادات والنظم القديمة ، وتدمير القوانين العنيفة والنظم العتيقة التي أغشى عليها الدهر ، أي أنها كانت ثورة على القديم وحركة مضادة لكل ما هو بال حقيق ، أو هي زجاجة اجتماعية كبرى صدرت لتحدي كل ألوان الظلم الاجتماعي ، فقد كانت أوروبا في ذلك الوقت تتردى في حالة من الفوضى الاجتماعية ، وعاش المجتمع الأوروبي في حالة من التفكك وعدم النظام Disorganization ؛ وهي حالة فريدة لم يحتاج أوروبا منذ تدمير حركة الإصلاح الديني ، أو حتى منذ سقوط روما .

ومنى ذلك أن وطأة هذه الثورة ، قد كانت سبباً في بلورة « الفسكرة الاجتماعية » ، فصدر علم الاجتماع كي يعبر عن نشأة هذه الازمة الفكرية ، ولكي يقوم بحل هذه الازمة وما نجم عنها من مشكلات ، حيث إنصرف العقل في بركة الثورة فظير . « علم الثورة » ، الذي هو علم الاجتماع .

وإستناداً إلى هذا الفهم فقد أبلج الفكر الاجتماعي المعاصر تحت وطأة الازمة ، واعتبى علم الاجتماع السيلس من الفكر الثوري التغيري بعد إنصهار تحت عاكس التجربة الفرنسية القاسية . فقد كانت هذه الحركة الثورية التي إنتمت منذ

١٧٨٩ حتى عام ١٨١٤ ؛ كانت هذه الحركة الثورية مبنياً في إطارها البنائى الاوروبى
الذى ظل « إستاتيكية Statique » طوال دهور طويلة ، حتى بلغت تلك الثورة
الديناميكية ، فأزالت « النظام الإجتماعى التيق Old Social Order » ،
ولقد رد « سان سيمون Saint Simon » هذا الحل الاجتماعى القائم في
البناء السياسى الاوروبى إلى أسباب عقلية وتصورية وفلسفية ؛ وأرجع
الاضطراب الاجتماعى ، إلى تلك التغيرات الجذرية العميقة التى طرأت على مختلف
وجهاث النظر ، بمعنى أن « الإضطراب الاجتماعى » عند سان سيمون ، إنما
صدر أصلاً عن « الإضطراب العقلى » .

فلم تكن الثورة الفرنسية عند « سان سيمون » ثورة سياسية Political
Revolution ، بقدر ما كانت ثورة فكرية أو عقلية Intellectual Revolution
على اعتبار أن الثورة الفرنسية ، لم تكن ثورة على أوضاع سياسية ، بقدر
ما كانت ثورة ضد أنساق فكرية ، فطالب الثوار الفرنسيون بأنساق عقلية جديدة
new Intellectual Systems على اعتبار أن « النسق الاجتماعى Social
System » ، لم يكن فى طبيعة أمره إنساقاً من الأفكار والعادات .

ولقد اندلعت الثورة الفرنسية ، لتحطيم وتدمير تلك الإنساق الفكرية
القديمة ، وتخليق الإنساق المتحررة الجديدة ، فحطمت الثورة كل الأفكار
القديمة التى منها صدرت الإنساق والنظم الاجتماعية العتيقة .

بمعنى أن الثورة الفرنسية ، كانت ثورة على العقل ، كما كانت ثورة فلسفية ؛
قلبت فكر العصور الوسطى ، وانتقلت بالعصر الإنسانى إلى فكر العصر الحديث
فكانت الثورة البورجوازية الفرنسية ، قلباً لفكر العصور المظلمة Dark Ages
والانتقال به إلى درجة الفكر المتحرر الحديث . تلك هى النظرة الاساسية التى
يقول بها « سان سيمون » ، حيث قامت الأفكار المتحررة الحديثة ، تلك التى

إنبثقت عن « الروح العلمي Scientific Spirit » ، وأتى عنها صدور النظرة التقدمية لإعادة تنظيم المجتمع Societal Reorganization :
 وفي هذا الصدد — اقترح « سان سيمون » ، علماً A science ، يستطيع به أن يجمع الكثير من الدراسات المرتبة ، ويكرس اتجاهاته نحو التحديد الاجتماعي العلمي للنهج . وبذلك إقترح « سان سيمون » ، علماً منظماً للظروف والحالات الاجتماعية social condition ، وهذا هو « علم الاجتماع » ، الذي اقترح « سان سيمون » ، ضرورة قيامه ووجوده ، بقصد تنظيم وإعادة تكوين المجتمع الأوروبي .

ومعنى ذلك — أن « سان سيمون » ، قد نبه الأذهان إلى ضرورة خلق أو إكتشاف بعض المجالات الجديدة في ميادين الدراسة الاجتماعية ، مثل ذلك الميدان الذي يطلق عليه « سان سيمون » اسماً « الفيزيولوجيا الاجتماعية Physiologie sociale » .

ولكن « سان سيمون » ، على الرغم من ذلك ، لم يحدد « منهجاً A method » لهذا العلم المقترح ، كما أنه لم يشيد بناءً فكرياً منطقياً أو حتى ميثاقياً ، لما في رأسه من شئ الفكر والمشروعات المتعددة . فلم يستطع « سان سيمون » ، أن يبلور كل هذه الأفكار والمشروعات في علم منهجي منظم .

علم الاجتماع العلمي والشكالات الاجتماعية :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ظهرت الكثير من المشكلات التي نجمت عن الحرب ، وانجبت الأفكار نحو دراسة « المشكلات الاجتماعية » ، وازدادت الاهتمامات بمعالجة المجتمع ، نظراً لما حدث فيه من تغيرات الاجتماعية الواضحة التي طرأت على البناء الاجتماعي الأمريكي . فكان من نتائج شدة الحرب العالمية الأولى ، أن اندلعت الثورة في علم الاجتماع الأمريكي :

ولاستناداً إلى هذا الفهم — فقد مهدت ظروف الحروب العالمية الأولى، وهي ظروف إقتصادية واجتماعية، أدت إلى وجود تغيرات، أو مشكلات، تحتاج إلى حلول. فالتجبت الأذعان نحو علم الاجتماع، لمعالجة هذه المشكلات التي هي مشكلات المجتمع الأمريكي نفسه، وبذلك صدرت بذور الاتجاه الاميريقي والعمل في علم الاجتماع الأمريكي، نتيجة لتلك الظرفية الوضعية، ونتيجة لتلك الشروط الموضوعية التي ظهر فيها علم الاجتماع الأمريكي المعاصر، من أجل دراسة وفهم ومعرفة طبيعة المشكلات الاجتماعية التي تختلف عن الحروب العالمية الأولى، مع بذل المحاولات العالمية وتضافر الجهود الأكاديمية لحل هذه المشكلات وضبط هذه التغيرات، التي طرأت على البناء الاجتماعي الأمريكي. ومن هنا أعلنت التوبة في علم الاجتماع الأمريكي، وقامت الحرب ضد مشكلات المجتمع، كمشكلات البطالة والفقر والكساد الاقتصادي التي تجمعت عن الحرب العالمية الأولى، وبذلك الجهود من أجل حلها، وكانت صيغة الحرب التي التفت عندها أذعان علماء الاجتماع الأمريكيين، هي ضرورة أو وجوب إعطاء علم الاجتماع أرضاً إمبريقية صلبة، حتى يستطيع علم الاجتماع بفضلها أن يقف على قاعدة عملية متينة. وكانت التقنية المتفق عليها والتي أعلنها علماء الاجتماع الأمريكيين **Give Sociology a Solid Empirical and**

• Practical Footing

ولكي تتوافر هذه الارضية الامبريقية كقاعدة عملية وصلبة لعلم الاجتماع أنكر علماء الاجتماع الأمريكيين ذلك الاتجاه الأكاديمي الخالص؛ وخرج علم الاجتماع الأمريكي عن نطاق التقليد الكلاميكي، ورفض البحث النظري البحت في الدراسات السوسيولوجية. ونادى بالإنصال كلية من الفلسفة؛ بل وخص علم الاجتماع الأمريكي، العنة على أصحاب الاتجاهات النظرية والفلسفية في علم

للإجتماع . وحاول علماء الإجتماع في أمريكا أن يحرروا — على حد زعمهم — علم الإجتماع من آثار وجباة الميتافيزيقا ، ومن ثم يؤكد علم الإجتماع الأمريكي على النظرة الوضعية بكل حذافيرها .

ولقد ساد هذا الاتجاه « اللافلسفي » حتى الآن في كتابات علم الإجتماع الأمريكي ، إستناداً إلى « فرضية وضعية » وهي توجيه الأذهان نحو فهم المجتمع وتدعيمه ، وهنا يصبح علم الإجتماع في خدمة المجتمع ، وتتجلى حقيقة « العلم للمجتمع » ، مع رفض ادعاء « العلم للعلم » ؛ حيث يكون في هذا الادعاء نزعة أنانية خالصة ، كما أنها دعوة حقيرة جوفاء ولا ينبغي ثمار .

وإذا ما أتيحت الفرصة لعلم الإجتماع أن يثبت أقدامه ، كي يصبح علماً بمعنى Science ، فليدأ أن يبدأ أولاً ما يبدأ بدراسة المجتمع ، ومعالجة « طبيعة المشكلات الاجتماعية The nature of Social Problems » ، والنهوض بحلها ، والعناية بمسائل الخدمات والرعاية الاجتماعية ، ودراساتها دراسة علمية ، وهنا يصبح علم الإجتماع « علماً وضعياً » ، وقائماً بذاته ، ويكون له دوره المحلّط ، ووظيفته في دعم وضبط الحياة الاجتماعية وإزالة عوامل الضعف التي تصيب البناء الاجتماعي ، ومعالجة الظواهر الاجتماعية المريضة أو على حد تعبير « دور كايم » ، تلك الظواهر المعتلة ، التي تنسب في خاتم المشكلات الاجتماعية ومن هنا يصبح علم الإجتماع « علماً علاجياً » له ضرورته الاجتماعية في تطوير وتغيير المجتمع ، بقصد الإصلاح والتقدم ، حتى تتجه بذلك نحو حياة أفضل .

وتلك هي المهمة الرئيسية التي تقع على كامل « علم الاجتماع السياسي » ، الرامن ، والتي يستمد عليها المجتمع اعتماداً كلياً ، ولذلك لم يكن علم الاجتماع السياسي بالعلم النظري أو التأمل المحالصر ، وهذا هو السبب الذي من أجله تحول علم الاجتماع الأمريكي إلى « علم تطبيقي Applied science » .

ولعل هذا الاتجاه التطبيقي في علم الاجتماع الأمريكي ، هو الذي أدى إلى تكوين ذلك التبادل للتبادل بين « علم الاجتماع ، من جهة ، و « الفلسفة ، من جهة أخرى . ولذلك وقعت الفلسفة بمعزل عن « العلوم الاجتماعية Social Sciences ، على ما يقول « رولو هاندي Rollo Handy ، وبخاصة في مقاله المشهور الذي كتبه في مجلة « فلسفة العلم Philosophy of Science ، والذي نشره هاندي تحت عنوان « Philosophys' Neglect of the Social sciences »^(١) وفي هذا المقال المركز ، أكد « هاندي ، عزلة الفلسفة عن ميدان العلوم الاجتماعية إلى الدرجة التي معها ، يجداصرار فلاسفة العلم على عدم الانشغال بعلم الاجتماع ، فلم تلتفت « فلسفة العلوم ، إلى مجال علم الاجتماع ومكتشفاته وتحديد منهجه ، من وجهة النظر للشيودولوجية البحث . على الرغم من أن فلسفة العلوم ، إنما نجدها تنشغل إشتغالا كلياً بتلك التطورات التي تصيب مناهج « العلوم الفيزيائية physical science .

ويحاول « ادوارد تيريكيان Edward Tiryakian ، في كتابه « الوجودية والنزعة السوسيولوجية sociology and existentialism ، أن يقيم تألقاً مشتركاً بين الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، وأن يوفق ما بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، وأن يجمع الشمل حين يؤلف بين ما تنافر من دراسات سوسيولوجية وما تناثر من كتابات ميتافيزيقية .

ولله اتجاه له وزنه ؛ وأمر يستوجب الاهتمام ، من جانب الفلاسفة وعلماء الاجتماع معاً .. وهو أمر يشسر بتحقيق الكثير ، فيما يتعلق بمستقبل علم

(1) Handy, Rollo: 'Philosophy's Neglect of The social sciences, article from, Philosophy of Science, April 1958 pp. 117-124.

الاجتماع والفلسفة .

ولمنا نقياً أن تظهر إلى الوجود الكثير من الكتابات المأداة المخلصة التي
تعالج مسألة محاولة التوفيق بين مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع ، وهي محاولة
لا شك أننا سنجد فيها الكثير من التماز . حيث أن محاولة الفصل بين علم
الاجتماع والفلسفة ، إنما تؤدي بلا شك إلى قصور واضح في دراستنا ، كما وينجم
هنا أيضاً القصور البين في نتائج تلك الدراسة .

فليس من شك في أن لفلسفة مجالها الفضفاض الواسع ، حيث تحاول
التوصل إلى المعرفة الشمولية الكلية أو العالمية ، وأن تطلق التعميمات الواسعة ؛
حين يصدر الفيلسوف على « الوجود » بعض القضايا المطلقة التي يفرضها على
« العالم الطبيعي » ، فرضاً ، فتصبح هذه القضايا أحكاماً تحاول أن تبلغ أقصى
درجات « التعميم Generalization » .

ولكن الفلسفة على الرغم من تلك المحاولة ؛ لم تحقق موضوعيتها ، حيث
أن الفلسفة بتعميماتها ونظراتها المجردة ، إنما ترتبط رغم تجريدها ، بأصول
اجتماعية ، ووجود ثقافية ؛ حيث أن الفلاسفة ، قد صدروا أصلاً عن مجتمعات
وتشاوروا في أحضان الثقافات ، ولم ينفصلوا عن هذه الأصول كي يعيشوا في عزلة
أو أبراج عاجية ، فليست الفلسفات في أنفسها إلا « حالات اجتماعية » تحتسبها
ضرورة التطور العقل للمجتمعات الانسان ، وهذا المعنى يعبّر ظهور الفلسفات في
ذاتها ، من مراحل انتقال اجتماعية تحتسبها فلسفة التاريخ ؛ على حد قوله أوجست
كوت « .

كما أن الفلاسفة إنما يجهزون عن الانسان ، فكلهم موثقه للعليا ، على الرغم
من أن هذا الانسان « لا يعيش في فراغ in Vacuo » ، كما أن فكر الانسان
وأدوات إدراكه ، ومثله العليا ؛ إنما هي ثمرات جناحها الانسان من حياته

الاجتماعية .

لذلك كان فهم الانسان بعيداً عن أوضاعه الاجتماعية ، هو فهم لا يتم من شيء . وتلك هي الثغرة القائمة في كتابات الفيلسفة ، والشرح الواضح في نظرات الفلاسفة ؛ كما أنها هي نفسها نقطة الضعف الشديدة التي تعاني منها مباحث الميتافيزيقا ؛ والتعميمات الفلسفية التضخامة ؛ حيث أننا ينبغي أن نربط بين الانسان ، و المجتمع ، كي نصل إلى فهم أوفى وأحق ، كما يمكننا أيضاً أن نتفهم طبيعة المعرفة ، والادراك الحسي ، وأن نصل إلى منطق الانسان وفلسفته ومثله العليا ؛ على اعتبار أنها من وحى الحياة الاجتماعية التي يعيشها الانسان نفسه .. وهذا هو ما فهمناه من جهود وكتابات « ورنر ستارك » Werner Stark ، في ميدان « دسوسيولوجية المعرفة » Sociology of Knowledge⁽¹⁾ .

ولمنا نستطيع أن تقدم في هذا الصدد ؛ بعض التبريرات والأخبار من وجهة نظر جمهور الفلاسفة ، حيث أن ميدان العلوم الاجتماعية social sciences قد كان مطلقاً طوال عصور الفلسفات الكبرى ، إذ أننا نجد أن العلوم الاجتماعية هي علوم حديثة ؛ نسبياً ظهرت وتطورت ونضجت ، خلال قرن أو حتى نصف قرن من الزمان . ومن ثم لم يعاصرها أصحاب الفلسفات الكبرى ؛ وأضحى بها فلسفات أفلاطون ، وديكارت ، وكانط ، ولذلك لم يأخذ هؤلاء الفلاسفة في إعتبارهم ، ضرورة الاهتمام بالظروف والأبعاد الاجتماعية في دراسة « المنطق ، أو في معالجة « نظرية المعرفة » .

ولكننا إذا ما قمنا بتقديم تلك الأخبار والتبريرات لكبار الفلاسفة القدماء .. فيمكننا أن نقاسم .. وكيف يبرر الفلاسفة للمعاصرين مسلكتهم في عدم الاهتمام

(1) Stark, Werner., Toward A Theory of Social Knowledge
Revue internationale de philosophie, IV July; p. 307.

بالأبعاد السوسولوجية وكيف يقدمون مختلف الأعداد بصدد علم اللغات إلى مصادر المعرفة ، والمقولات واكتشاف منطق الانسان وفكره ومثله العليا ، في ضوء نتائج علم الاجتماع والاشروبولوجيا الاجتماعية ١٩٤ .

وبالاضافة إلى ذلك يمكننا أن نتساءل أيضاً بالنسبة لموقف علم الاجتماع من الفلسفة .. السياسية فنقول ما هي النتائج التي نجت من انفصال علم الاجتماع عن أمه الفلسفة ١٩ .

في الواقع ينبغي أن نقرر أن علم الاجتماع السياسي قد أصبح في نهاية المطاف ، وبعد أن انفصل عن الفلسفة الاجتماعية ، قد أصبح علماً وضعياً ، ولقد مكنت تلك الوضعية من أن يصبح علماً أكاديمياً وقائماً بذاته ، حين تحدد تماماً من مشكلات تبعية للفلسفة وخضوعه للتيار التأمل الميتافيزيقي . وسينطلق علم الاجتماع الفلسفة (١) منطلقاً محدداً بمجاله الخاص ، ومبدأه المستقل بعيداً عن مشكلات الميتافيزيكا . ومسائل الفلسفة الاجتماعية ، وهنا يحق لعلم الاجتماع أن يدعى بحق أنه علمي ومتبع للطرق العلمية ، ومن ثم يصبح علم الاجتماع السياسي علماً امبيريقياً empirical science .

ولكن علم الاجتماع ، إنما يعاني الكثير من الصعوبات في إقامة نظرية سوسولوجية Sociological Theory ، إذ أن علم الاجتماع المعاصر ، إنما يميل فقط إلى التركيز على دراسة وبحث المشكلات الجزئية المحددة بالذات ومعالجة الجزئيات التفصيلية لهذه المشكلات الاجتماعية ، بأسلوب منهجي منظم ، وعلى المستوى العلمي الميكروسكوبي ، وأغنى به المستوى المجهري العفوي .

microscopic Level

ولذلك لم يبالغ علم الاجتماع الأمريكي المعاصر ، المشكلات الاجتماعية الكلية ، ولم يترض علماء الاجتماع السياسي بمعناه الوضعي لتلك المسائل التي تسم

(١) لم يطلق علم الاجتماع لفظة طلائعاً تاماً وكاملاً ، وإنما هو « خلاق مؤت أو بائن » ، وذلك حين يتوقف علماء الاجتماع على مسائل معينة معينة : حسن علي ، هيدان « الميتا سوسولوجيا Meta-Sociology » ، وهنا يظهر علم الاجتماع التفكير النظري الحالي ، ويؤيد إلى أمه الفلسفة ، لكي يقدم مختلف الحلول للاثمكلاء النهج والنظرية .

بالشمول والانتفاع على نحو فضفاض ، وإنما تعرضوا فقط لمعالجة المسائل السياسية الجزئية ، وحاولوا حلها بتقديم مختلف الحلول الاقتصادية والاجتماعية .
ولعل علم الاجتماع المعاصر ، هو في ميسر الحاجة إلى إزالة تلك الصعوبات الثقافية أمام قيام النظرية السوسيولوجية ، حتى يمكنه معالجة ما يعانيه من قصور منهجي واضح ، وقصور شديد في تشييد الأساس النظري .

كما أن علم الاجتماع لسياس المعاصر إنما توجه في ميسر الحاجة أيضاً ، إلى معالجة للمشكلات الاجتماعية ، وبخاصة تلك المشكلات ذات الأهمية والكلية والشمول ، حتى يمكنه معالجة هذه المشكلات ، وبحسبها على مستوى من التحليل يتسم بالعموم والشمول ؛ ووضعها على درجة من التجريد السياسي ، ونزعها عن ملامستها الحسية وخصائصها الجزئية المشخصة ، حتى يحقق علم الاجتماع تلك النظرة الكلية الشاملة وتلك ضرورة عليية ومنهجية ، فادراً ما يأخذ بها علماء الاجتماع السياسي بمعناه الواسع .

ومن الملاحظ أن علم الاجتماع الواسع المعاصر — وأقصد به علم الاجتماع الأميريقي الأمريكي بالذات — لا يأخذ في إعتباره تلك النظرة الكلية المجردة ، ولعل السبب في ذلك هو إبتعاد علماء الاجتماع الأمريكيين عن تلك الشطحات الفلسفية ، خشية الوقوع في التعميمات الميتافيزيقية المفضاضة ، أو مخافة الانزلاق في متاهات فلسفية أو تفاسير كلية النزعة ، تنقسم بالاتجاه إلى المصادر ذات الصبغة المعيارية .

الامر الذي أدى إلى تعرض علم الاجتماع السياسي المعاصر ، لمعالجة المشكلات الاجتماعية الجزئية ، مع عدم التعرض لتلك المشكلات التي تنقسم بالكلية والشمول بما أدى أيضاً ، إلى تراكم المشكلات والمشروطين . مما حث على تقديم النظرية في علم الاجتماع ، حيث أصبحت هذه النظرية ، وغير ذات موضوع ، فلم يتوصل علم

الاجتماع السياسى إلى تحقيق العمومية أو «الشميم Generalization» الأمر الذى يروق تقدم وتطور ميدان الدراسة في علم الاجتماع على العموم حيث أن طبيعة النظرية السوسيولوجية ، ما زالت حتى الآن تقسم بالغموض والابهام ، نظراً لوجود نقص الواضح والتصور البين ، في ذلك التركيب الداخلى الذى يؤلف فيما بين الفلسفة والاجتماع ، أو في ذلك الالتئام أو «الانساق الباطنى internal coherence» ، الذى يصل النظرة الفلسفية المجردة بالنظرة السوسيولوجية الممتلئة بالتجربة والواقع ، وهو ما ينبغي أن يتوافر في دراسات علم الاجتماع ، لتحقيق العمومية generalization وبناء النظرية السوسيولوجية sociological Theory في علم الاجتماع .

وليس من شك في أن علم الاجتماع ؛ هو علم كثير المناهج ، قليل النتائج على حد قول «هنرى بوانكاريه Henri Poincaré» ، في كتابه «العلم والمنهج Science Et Méthode» ، ولذلك وجدنا علم الاجتماع ، من وجهة نظر علم المناهج Methodology ، هو في ميسر الحاجة إلى منهج وحيد ، يحدد موقفه المضبوط ؛ وسط جوابب الدراسة النظرية والتطبيقية .^(١)

وإن كان ذلك كذلك - فينبغى أن يتوفر ويتوحد المنهج في علم الاجتماع ، كي يستعين به كنهج وحيد ، يتوسط «النظرية البحتة pure theory» و«للمادة الامبيريقية Empirical Matter» ، ومن هنا يحقق علم الاجتماع وجوده «روحاً» و«جسداً Corpus» ، ونظراً لضرورة التقدم والتطور ، لا ضرر إطلاقاً - حين يصل علم الاجتماع إلى حالة من الكفاية - من أن يأخذ علم الاجتماع مبدأ تضافر العلوم ، في سبيل إتمام الحقيقة ، إذ أن التعاون بين العلوم هو أمر مفروض مقدماً ، إذ أن الحقيقة هي المطلوب الأول والأخير . كما أن هذا

(1) Poincaré Henri, Science Et Méthode. Flammarion Paris 1927 pp. 12-13.

التضافر أو التعاون بين العلوم . إنما يؤدي إلى الفائدة المرجوة ، حيث يعني منها .
تختلف العلماء كثيراً من الثبوت ، كما تحقق قدما مباشرا يلحق كل علم منها على حدة .
وعلى هذا الأساس يصبح موقف العلوم الطبيعية وغير الطبيعية ؛ هو في ذاته موقف
تكافلي symbiotic ، يؤدي في النهاية إلى مبدأ « وحدة المنتج » بين سائر العلوم .
ولعل علم الاجتماع السياسي ، هو أكثر العلوم الإنسانية حاجة إلى مثل هذا التكافل
والتضافر فيما بين العلوم ، حتى تنتج دراسات علم الاجتماع العام . بهذا القاء للتبادل
بين مختلف العلوم ، الأمر الذي منه تزداد الحقيقة السوسيولوجية ثراء على ثراء
بشرط ألا يفقد علم الاجتماع « ذاته » ، أو « شخصيته » ، في خضم هذه العلوم .
ويمكننا أن نحدد موقف علم الاجتماع السياسي ، بالنسبة إلى سائر العلوم الطبيعية وغير
الطبيعية ؛ استناداً إلى تقسيم العلوم برمتها إلى علوم مجردة abstract وعلوم طبيعية
natural ، وعلوم إنسانية أو « إنسانيات Humanities » .

ولاشك أن العلوم المجردة ، إنما تقسم إلى علوم نظرية بحتة ، كالفلسفة
والمنطق وما وراء العلم والرياضيات ، وما يتصل بهذه الدراسات من علوم مجردة
فرعية ، أما العلوم الطبيعية ، فهي علوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، وأخيراً
تتعلق إلى العلوم الإنسانية أو الانسانيات Humanities وهي علوم النفس
والاجتماع والانثروبولوجيا . على اختلاف أشكالها وفروعها الجزئية .

الفصل الأول

• الفلسفة السياسية

- تمديد
- السياسة كبحث مع مباحث الفلسفة
- فلسفة السياسة .. ما هي وكيف تكون ؟
- فينومينولوجيا السياسة
- التفكير السياسي بين اليونان والرومان
- عصر النهضة في أوروبا
- مكيافلي
- توماس مور Moore
- توماس هوبز Hobbes
- مونتسكيو Montesquien

مفهوم:

عركت الفلسفة دعراً ، وانتشلت بها زعماً ؛ واخترفتها سنوات ، ثم
 انقطعت عنها فجأة ، كي أعود إليها ، لكي أتم ما كان قد انقطع بيني وبينها من حوار.
 ولقد أصبحني ما في د الفلسفة العامة ، من مراقب وأنظار، ومدارس تصارع
 كلها من أجل الحقيقة ، تلك التي تبتثق مع حرارة الجدل والمناقشات الحامية ، فان
 أدورع ما في الفلسفة هو حماس الفكر ، والتزام العقل ؛ وحس الحق ، وأمانة
 البحث ، ونبل الغاية والتقصّد . فلا شك أن كل فيلسوف إذا ما نظرنا إليه من
 وجهة النظر السيكلوجية ، لوجدناه صادقاً وشجاعاً ، وذكياً وبارعاً ، حيث
 اجتمعت في الفلسفة ، عظمة العقل ، الملتزم بالامانة والصدق ؛ والشجاعة
 والبراعة ، وتلك هي القيم التي يتحل بها كل فيلسوف ، بكل ما في هذه الكلمة
 من امتلاء .

وإذا كان مذا هو حال الفلسفة العامة ، فما بالنا بالفلسفة حين تصطدم
 بالسياسة ، فتصبح فلسفة سياسية ، وهي ما يسمى أيضا ، في الدوائر العلمية
 والأكاديمية بفلسفة السياسة .

في الواقع ، لقد أصبحني ما في الفلسفة السياسية من «قوة التأثير» ، فهي
 تأخذ بنا أحيانا ، كي نحلق بنا بعيداً في «يوتوبيا utopia» ، المدن الفاضلة . أولكي ندور
 بنا في أغلب الأحيان ، بين أجهزة الديمقراطية ، و«التنظيم والادارة» ، وقد تنطلق بنا
 فلسفة السياسة نحو «سيكولوجيا الجماهير» ، وتحلل لنا شخصية الزعيم ، أو القائد
 الكارزمي charismatic leader وترسم لنا الملامح العامة لمتافيزيقا الحكم المثالي ،
 كما تحلل لنا فلسفة السياسة ظواهر «الادارة» ، و«السلطة» ، و«القيادة» ، و«صائص
 الرابطة» ، وتسجل لنا ما يدور حول شخصية الحاكم من حيلمان للسلطان .
 نؤمن هنا صحيح د فلسفة السياسة ، ترجمة صادقة لكل مراقب الحياة

Life-situation بمعنى أن علم الفلسفة السياسية ، هو عالم مفعم بالصنوب ، كما أنه حياة خافتة بالضجة بين مختلف الفرق ويسبر عنها كل فريق ، تبهر أعاصير به وبظروفه ومواقفه وقد يقف معها أو ضدها ، أو يثير الضجة في صف فلسفة يمينها ، فينبذ النقاش ، حول مسائل الفكر الحيوية والمعرفية ، وقد يدور حول موضوعات سوسيولوجية أو سيكولوجية أو حتى منطقية (١) . وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية على حد تعبير أوجست كومت Comte ، هي أكثر تعقيداً وتركيباً من الظواهر الرياضية والفلكية والطبيعية والكيميائية والبيولوجية ، فإن الظاهرة السياسية ، هي أكثر الظواهر الاجتماعية تعقيداً ، لأنها تستند إلى كل ما يدور في البناء الاجتماعي من نظم وأنساق Systems وعلاقات ؛ بالإضافة إلى كل الأجهزة السائدة في البناء الإداري للدولة . إذ يعتمد السياسي على تنظيم يستند إلى القانون ، لأن رجل الدولة ، هو التطبيق الواقعي لرجل القانون ، فالسياسي يعتمد حقيقة في كل سرقة أو فعل أو سلوك على جهاز له تنظيمه الذي يدعمه القانون ، لأن القانون كما يقال هو سيف العدالة وهو كما يقول هاملت Hamlet ، أيضاً ، « سيف السلطان » .

السبابة كبحث من مباحث الفلسفة :

ولاشك أن السياسة ، هي بحث من مباحث الفلسفة ، يوضح لنا كيف تناس ، المدينة الفاضلة ، أو دولة المدينة ، ولقد بدأت فلسفة السياسة ، باليوتوبيا utopia الأملطونية التي اشتهرت منذ صدرت والجمهورية ، وصل رأسها « صفوة Elite » تتحقق في حكومة الفلاسفة ، ، وهم طبقة الحكم ، التي تحكم ولا تملك أو حتى تعمل . فهناك طبقة والعمل ، وتتألف من المييد والرعاع ، كما يدخل فيها طبقة الكادحين من الفلاحين وأصحاب الحرف ، وهذه الطبقة العاملة هي التي تتخلف بوظيفة يمينها فهي تعمل ولا تحكم أو حتى تحارب . لأن هناك طبقة المجدد ، التي تحارب ولا تعمل أو تحكم .

وإذاً تنأى إلى هذه التصورية الطبقة المثالية ، ليورقراطية الحكومة الأملطونية

(1) Mannheim, Karl., Ideology and Utopia, Kegan Paul, London. 1940

وهي أول بيروقراطية فلسفية وحالة تفرض نفسها في دوائر الفكر السياسي، وهي بيروقراطية عقلية مثالية، لم تتحقق في العصر الإفلطوني، وسوف لا تتحقق على الإطلاق نظراً لشدة مثالياتها وشطحاتها وخصوبة خيالها، بالإضافة إلى تعقد للتغيرات الثقافية، وتبدل «روح العصر»، وغلبة التكنولوجيا والتصنيع.

واستناداً إلى هذا الفهم — يمكننا أن نقول إن «السياسة» قديماً بالفلسفة، ونحاول أن ننتهي إلى الوضعية *Positivism*، كما تنبأ لها «شيخ علماء الاجتماع» ومُصاحب الفلسفة الوضعية، الفيلسوف الفرنسي «أوجست كومت *Comte*».

ومن هنا بدأ الفكر السياسي، نحو التعلم واكتساب خصائص العلم، والاعتماد على «التجربة السياسية» التي قد تعطي في خصوصية الكثير من المعطيات *donnés* التي قد تصل بتفذية الكثير من «الأنساق *Systems*، والنظم *institutions*»، فالتجربة السياسية، ليست بأحداث معزولة أو وقائع منفصلة، يطلق عليها قضايا جزئية *Singular* وإنما نجد أن التجربة «السياسية» هي تجربة كلية تصل بكل ما يدور في نظم وأنساق البناء الاجتماعي. فكل نظام رد فعله في النسق أو البناء الذي هو جزء فيه. بمعنى أن التجربة السياسية، ليست بسيطة، وإنما هي غاية في التعقيد *complexity*.

ولما كان ذلك كذلك، فالسياسة ليست مجرد «حديث صحفي»، أو «أخبار شائعة»، أو «وقائع *Facts*» جزئية يكون لها صداها الدولي والعالمي. وإنما قد تشمل «اقتصاديات السياسة» على «بروتوكولات»، و«أحداث اقتصادية» صحفية، كما يتحقق القرار السياسي الرشيد، بصدد وقوع أو حدوث «وقائع سياسية حاسمة»، مثل قيام «ثورة مظفرة»، أو ظهور «صراع عسكري عفاجي»، أو عملية تأميم ناجحة مثل «تأميم بترول إيران» أو تأميم «قناة السويس» فقد كان القرار السياسي، في كل حالة من تلك الحالات أو التجارب السياسية، جزءاً «قرار رشيد» مبني على الفحاسة المتأنية؛ والعلم بموازن القوى، والنتيجة السليم، بمواقف ومتغيرات. قد تنشأ نتيجة لمثل هذا القرار السياسي،

الذى لا يصدره سوى « قائد » أو « زعيم » أو « رجل دولة » (١).

التفكير السياسى ومصادره فى النشأة والتاريخ :

يسجل لنا تاريخ الفكر الاجتماعى خلاصة جهود العلماء والفلاسفة، التى تمثل فى الحقيقة شعراً هاملاً ، من شتى الدراسات وعتف الكتابات والأبحاث ، ولقد بدأت « طلائع الفكر الاجتماعى » فى محاولاته الأولى منذ صدرت شمس الفكر، فى حضارات الشرق القديم ، وانطلقت أشعتها وانتشر ضياؤها على أرض اليونان لكى تتحقق فى أنساق الفلسفات القديمة . ولذلك كان التفكير الاجتماعى مصادره فى الفلسفة ، وسنحاول أن نتبع تطور هذا التفكير خلال التاريخ . ولنبدأ أولاً وقيل كل شيء بحقبة هامة فى التفكير الاجتماعى ، وهى التى تتعلق ببداية ظهور « الفكر الشرقى القديم » :

أ — الفكر الشرقى القديم :

لقد ظهرت الحضارات الآسوية القديمة فى ربيع الهند والصين ، حيث صدرت نباشير الفكر الاجتماعى المتقن كما تتجلى فى صوره الأولى ، وفى سالة البداينة الأولى .

فى الهند ؛ كان المجتمع القديم عبارة من « وحدات ذات طبقات متمايزة » واستناداً إلى مبدأ تلاحم الأعضاء وتساند الأجزاء كانت هذه الطبقات تقوم بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع الهندى القديم .

(١) حدث بعد تأميم قناة السويس ، أن ثارت المناكفات المأمية ، فى مجلسى العموم البريطانى ، بعد الزواجر السياسية التى أثارها « أنتونى ايدل » و « جيمس وزرا » بريطانيا وممثل البين اليودجوازى المتطرف - وتليد « ونستون تشرشل » ، نجم الحرب العالمية الثانية ، وصاحب الفداء السياسى المشهور - أن وقت حشر « آتلى » رئيس حزب العمال وقتها ، وقاله قوته المشهورة : « ان سكنت بمعتقد يا ايدل أننا لن غابة لنا فى القناة أقوى وحوش » .

من أياً النظم الاجتماعية في الهند القديمة فكانت مترابطة تراجلاً عضوياً ، بمعنى أن النظرية السياسية الهندية القديمة كانت متكاملة بنائياً ، وكان للدين في الهند القديمة هو حجر الزاوية في المجتمع السياسي الهندي برمته ، حيث اتصلت بكل النظم الهندية ، من سياسية واقتصادية وزواجية. ثم بدأ الدين في الانفصال والانسلاخ عن سائر النظم الهندية ، ولقد عبرت العقيدة البوذية عن ذلك أصدق تعبير حين دافعت عن فحمة السلوك الخلقي، ودوره الاجتماعي، وفصلت العقيدة البوذية فصلاً كاملاً بين الدين والسياسة .

أما المجتمع الصيني فكان عملياً ومنظماً ، غنياً بمؤسساته الدينية والمخاضية كما كان مستقراً بتراته حريصاً على تقاليده وأساطيره . ولقد درس الفيلسوف الاجتماعي الصيني « كونفوشيوس Confucius » كل ما يتصل بترات وأساطير وقيم وتقاليد الصين ، لكي يتمكن من بناء التنظيم الاجتماعي ، القوي المستند إلى الفضيلة . ولقد كان كونفوشيوس عدواً للحكم المستبد أو المطلق ، ولذلك هلم كونفوشيوس الناس الفضيلة ، كما أعطى المرتبة الأولى لفضيلة الإقناع ، واحترام العلاقات الاجتماعية (١).

ولقد أشار « كونفوشيوس » في تعاليمه إلى وظيفة الدين في المجتمع ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول في أمانة ، إن فكرة « الوظيفة Function » ، كما تستخدم في علم الاجتماع وفي الأنتروبولوجيا الاجتماعية ، ليست وليدة الفكر الاجتماعي الحديث ، وإنما هي قديمة قدم الفكر الشرقي السياسي القديم كما ترتد جذورها

(١) أسس كونفوشيوس في نظريته الشهيرة العلاقات الاجتماعية، على علاقات رئيسية خمس، منها علاقات مالية وأسرية وهي علاقة الأب بابنه ، والأخ الأسير بالأسير وعلاقة الزوج بزوجه، ومنها علاقات سياسية وأخرى اجتماعية مثل تعميم ملة « الحاكم برجله » وتعظيم وليطه « المسمى بالمسمى » .

إلى الفلسفات الدينية الصينية القديمة ، فلقد حدثنا أحد شراح المدرسة الكونفوشية وكبار أساتذتها وأخى به « Hsu Tzu » .

حين كتب منذ ذلك الزمن الحقيق في القرن الثالث قبل الميلاد ، عن وظيفة الدين والطقوس الدينية في حياة المجتمع فلقد أشار إلى هذه الحقيقة العلمية في كتابه الذي أصدره تحت عنوان « كتاب الطقوس Book of Rites » (١) .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، فإن الفلسفة الكونفوشية فلسفة ديموقراطية ، اعترفت بمكانة الفرد وقيمه ، دون النظر إلى طبقة أو طائفة ، بل ولقد شجع كونفوشيوس على الانتقال من طبقة إلى أخرى وكتب الكثير من الكتابات لتحقيق المجتمع المثالي ، وأشار في كتبه إلى مختلف نظم الإدارة والحكم ، وبذلك كان الفكر الاجتماعي الصيني تحريراً في كل جوانبه ، أخلاقياً ومثالياً في كل اتجاهاته يطالب في سائر تماثيله بالفضيلة ويؤكد على العدالة ، ويهاجم استخدام القوة والعنف .

ب — الفلسفة اليونانية

كان المجتمع اليوناني القديم ، يتألف من طبقات ثلاثة : طبقة المييد ؛ وم الطبقة الثالثة التي خلقت للخدمة والعمل . وطبقة الأجانب الذين كانوا يشتغلون بالتجارة والحرف الفنية الدقيقة . وهم يشاركون المييد في هذه الصفة التي تملق بالهبة أو العمل ، إلا أن الأجانب يتنازرون عن المييد بالحرية . وهناك طبقة السادة أو الأحرار ، وهم يعملون في القيادات العسكرية والحرية ، كما يتولون أكبر المناصب الإدارية ويشاركون في السلك السياسي .

وكان التعاون الاجتماعي عند أعلاميون ؛ هو الذي يجمع حاجات الأفراد ؛ والانسان يحتاج إلى الآخرين حتى يمكنه أن يواجه الحياة . كما توقف أممية

(1) Radcliffe — Brown, A.R., Structure and Function in Primitive Society, London - p. 159.

الفرد الاجتماعية بمعنى بما ينتميه إلى مجتمعه ؛ لهذا السبب يؤمن أفلاطون بمبدأ تقسيم العمل واحترام التخصص . لأن المجتمع الذى يشعر فيه الإنسان الفرد بالعلمانية النفسية نظراً لتكيفه مع عمله وقيامه بوظيفته أو تخصصه حين يوضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب؛ ذلك هو المجتمع الفاضل الذى ينشده أفلاطون لتحقيق أكبر قدر من الانتاج الاقتصادى والتقدم الاجتماعى .

وفى دراسة ما ينبغى أن يكون عليه التنظيم الاجتماعى القديم؛ كتب أفلاطون كتابه «الجمهورية»، فكان بالنسبة لتفكير الاجتماعى اليونانى بمثابة الخلق الذهنى الرائع؛ كما كان أروع ما صدر عن الفكر الاجتماعى القديم . فلقد هاجم أفلاطون فى هذا الكتاب «الديمقراطية» الفوضوية التى قتلت أستاذه سقراط ؛ لحاول أن يقيم «اليوتوبيا» Utopia، أو مجتمع المدينة الفاضلة الذى ماثل فيه بين دقوى النفس العاقلة والغضبية والشهوية ؛ من جهة وبين تماثله لطبقات الدولة الحاكمة والحارسة والعاملة ، من جهة أخرى . ثم يبين لنا أفلاطون فى أسلوب فلسفى جدلى وبظرة مثالية خالصة؛ كيف تتفاعل هذه القوى وكيف تتوغل فى بناء الجمهورية فطبقة الحكام ليس لها أن تعمل؛ وطبقة العمال ليس لها أن تحكم . وطبقة الجنود عليها أن تحارب فلا تعمل أو تحكم . ولاشك أن التفكير الاجتماعى عند أفلاطون ؛ لم يصدر إلا عن رغبة مثالية أويوتوبية Utopian لتحقيق المدينة الفاضلة . ولا يعنى هذا التقسيم الذى فرضه أفلاطون وجود النظام الطبقي الصارم الذى يقسم بالجمود والانغلاق ؛ فالانتساب الطبقي هنا ليس وراثيا كالانتماء الموجود الآن بين طوائف الهند Caste ؛ حيث ينتقل كل مجتمع على ذاته ؛ وتتوقع الطاقة فى دغلة صارمة لا يرحمها أحد ، أو يقتضى إليها دخيل .

وإذا ما انتقلنا إلى استعراض الفكر الاجتماعى عند أرسطو ؛ لوجدناه يتعبد أولا وقبل كل شيء إلى أن الأسرة لم تكون إلا كتيبة متمية لاشباع

حاجات ضرورية يستشعرها الانسان ، كالحاجة إلى الطعام والأمن والحاجة إلى
الشريك الجنسي . والانسان عند أرسطو حيوان مياسى Zoon Politikon
بطبيعته لأنه يعيش في مجتمع ويحترم القانون ، ويخضع للقيم والتقاليد السائدة .
ويتألف المجتمع عند أرسطو من طبقتي السادة والعبيد ، أو من الأحرار
وغير الأحرار . لأن العبد ليس قادراً على حكم نفسه ، إذ أنه آلة ، أو أداة ،
تحت سلطان السيد الذي يوجهها كيف يشاء كلكية شخصية تؤدي منفعة خاصة .
ولقد رفض أرسطو (١) جمهورية أفلاطون وأنكر حكومة الفلاسفة ،
وسيادة الفيلسوف ، وأكد فقط على سيادة القانون ، فلا غنى للحكم عن القانون
لأنه من خلق العقل ، واحترام العقل واجب ضروري بل ومقدس ، وليس
لقانون عند أرسطو إلا العقل نفسه وقد تجرد عن العاطفة والرغبة أو الهوى
Reason unaffected By desire هذه هي ثقافة العصر الاغريقي ، التي
أفرزت فلسفات أرسطو وأفلاطون وأستاذهما سقراط ، تلك الفلسفات التي
احتقرت العمل اليدوي الذي يقوم به العبيد والرقائق ، ولذلك تحامل أفلاطون
على أصحاب الحرف والمهنيين ، وكذلك فعل أرسطو بالنسبة للمال والعمل ، مما
يدل على ضيق الأفق واهدار كرامة الانسان من حيث هو انسان .

٢ - الفكر السياسي عند الرومان :

حاول المفكرون الاجتماعيون في عصور الرومان أن يناقشوا مسائل أخلاقية
ورئيسية تختلف عن الفلسفات اليونانية الكبرى عند أفلاطون وأرسطو . ومن
هذه المسائل الرئيسية التي شغلت الفكر الاجتماعي الروماني : مسألة السعادة

(١) الدولة عند أرسطو ظاهرة طبيعية ، تتوكلت طبيعى ، فهي تتجاوز تطور
والانسان مخلوق أو حيوان سياسى ، وتصل الدولة كظاهرة ضرورية وطبيعية على جميع
شئون الانسان الفرد ، ومحاولة تحقيق وجوده كمنفرد أو كائن حى .

وهي ضرورية بالنسبة لحياة الإنسان الفرد مع إشباع رغباته الجنسية والفكرية والثقافية ، مع تحقيق الأمن والطمأنينة وإشاعة الغيرية وإنكار الذات ، مع تجنب العنف والظلم والحقْد ، ومن هنا يتحقق « السلام الاجتماعي » كما تدعى المدرسة الأبيقورية .

أما المدرسة الرواقية فحاولت إخضاع الرغبات غير الأخلاقية لحكم العقل ، مع إشاعة احترام القانون والعدل ، والأصرار على نشر الحياة الفاضلة كما تتمثل في مبادئ الواجب والمساواة ، واتجاه الإنسان إلى مجتمع أكبر من مجتمع المدينة الصغير المحدود ، إلا وهو مجتمع الإنسانية اللا محدود ، حتى يتحقق الكمال الإنساني في المواطن العالمي « Citizen of the World » .

ولاشك أن التفكير الاجتماعي الروماني لم يصد على سبيل الطفرة ولم ينشأ من العدم ، وإنما كان مكملًا لأنماط التفكير الفلسفي اليوناني ، إلا أن الجوانب العملية قد غلبت على الروماني الذي أقر النظام واحترام القانون ؛ ولذلك قلل كثيراً من دفاعه عن الحرية والديمقراطية .

وكان المجتمع الروماني يهتم كثيراً بالرق وصنع القلاع وبناء ثكنات الحرب كما ازداد الروماني القديم التجارة والاشتغال بها ، ولذلك سخر منها « شيشرون » وفسر سقوط قرطاجة وكورنثة لانتشار أهلها في الأرض سعيًا وراء التجارة . أما روما فقد امتازت بقنولتها المتعددة وقناطرها الضخمة وطرقها المستقيمة كما اشتهرت بالتخطيط المستطيل والأسوار والصواري ، والحصون والقلاع ، كما أخذ الروماني من اليوناني عشقه الجمال والفن والموسيقى والمسرح وفنامة المعابد والمرافق .

كما ظهرت في المجتمع الروماني القديم حالة من الاكتفاء الذاتي ، وانحصر الفكر السياسي وفلسفة الحكم في طبقة خاصة من قادة الحرب ورجال الدين

وملاك الأرض ، أما الطبقة الكادحة ، فكانت من الفلاحين والرقى من أسرى الحروب ، ووقعت عليهم جميعاً تبعات العمل البدوى الحثير .

القانون الرومانى :

لقد صدر هذا القانون القديم فى عهد الامبراطور الرومانى وجستيان^(١) فى القرن السادس الميلادى . لكن يطبق كل ما جاء فى الفكر السياسى الرومانى ، ولكى يحقق العدالة والأمن فى سائر انحاء الامبراطورية الرومانية .

ولقد ميز الرومان ، بين القانون الطبيعى ؛ وقانون الشعوب ، والقانون المدنى . أما القانون الطبيعى Jus naturale ، فلقد صدر بفضل شخصية الفكر الفلسفى السياسى لدى اليونان . وأكد ديكيشرون ، على أن القانون وأحكامه وتطبيقاته ، مستمدة كلها من الطبيعة ذاتها .

هذا عن القانون الطبيعى ، أما قانون الشعوب ، فان قواعده لا تطبق على سائر الكائنات الحية من انسان وحيوان ونبات وطيور ؛ كما أنه لا يستند إلى الفرائض المشتركة بين الانسان والحيوان ، كما هو الحال فى القانون الطبيعى . ولكن قانون الشعوب Jus gentium فهو عبارة عن مجموعة من قواعد القانون الرومانى ، تتعلق بالأجانب والمبيدوارق ؛ وبسائر الشعوب المقبولة . فلا تصدق على المواطن الرومانى ، وإنما يصدق قانون الشعوب ، على كافة الأقاليم والمناطق المغلوبة التى خضعت للرومان ؛ طبقاً لنظم الغزو والرق ، ونتائج الحرب والاستعمار .

ويتصل القانون المدنى Jus Civile بمجموعة القواعد القانونية الخاصة ، بكل مدينة ورومانية على حدة ، ويصدق على كل مواطن رومانى . وينقسم القانون من ناحية المصدر ، ومن حيث طريقة تكوينه إلى قانون مدون Jus Scriptum

(١) د. مولى حسن أبو طالب : الوجيز فى القانون الرومانى ، دار النهضة العربية

أو مكتوب ، وقانون غير مدون *fas non scriptum* ، والاول مشهود وكأنه دستور أو كتاب مسطور ، أما الثاني فهو قائم على العرف والتقليد *Tradition* مثل دستور الانجليزى ، فلقد أصبحت قواعده ومواده معروفة وموروثة ، وفي غير ما حلبة إلى نشر أو كتابة . ولقد ارتبط القانون الرومانى بالكثير من الشعائر والطقوس ، فاحتل القانون بداية الرومان حتى أصبح رجال الدين ، هم الذين يشرفون على تطبيق القانون ، فاشكر الكهنة صنع الدساتير القانونية .

ولقد امتزجت الاخلاقيات الرومانية التى سادت في مجتمعات الرومان في العصور الوسطى ، وتوافقت الأفكار والقواعد القانونية وامتزجت مع أخلاقيات وأعماط السلوك السائدة ، فالرومان شعب محافظ لم يألف التجديد ، وإسم القانون الرومانى بهذا الطابع الأبوي *Patriarchal* (١) المحافظ الذى يتفق وروح الشعب الزراعى .

ولقد انقسم الشعب الرومانى إلى طبقتين ، طبقة الاشراف *Patres* ، وطبقة العامة *Plèbeus* ، أما طبقة الاشراف فهم الطبقة الغنية التى تتألف من طائفتين ، طائفة النبلاء *nobilitas* وتتكون من أبناء طبقة الاشراف ومن سلاطة المحكم وأعضاء مجلس الشيوخ ، أما الطائفة الثانية من الطبقة الغنية ، هى طائفة الفرسان *ordo equestre* وتتكون من رجال الأعمال ، وكبار الملاك ، وذوى اليسار من التجار ، الذين كسبوا من استمرار الحروب . أما الطبقة الفقيرة ، فتتكون من صفاء الملاك الذين دمرتهم الحروب ، ومن العامة كالأحرار والمتقاع ، من العمال والصناع والسيد والأرقاء .

ولطبقة العامة عقاليدها ، وعاداتها السائدة بين عامة الشعب ، كما وتتألف طبقة الاشراف من سادة العشائر ، وتعتبر العشيرة وحدة اقتصادية وسياسية ، وتحمل كل عشيرة اسم مؤسسها الأول ، وتضم العشيرة إليها أفراداً بالتبني أو

(١) لقد أعطى القانون الرومانى لأهل الكثير من الحقوق على زوجة وأبنائه ، ومنها حق إعطاء الابن شرعية ، وورثته حتى ولو كان لبناً غير شرعى ، فأصبح اليوم من جارية أو ممتعة . وحين يولد الطفل الصغير ، يتركوه عند باب فرقة الأب ، فإذا خرج عليه الأب ، صار الابن شرعياً وإذا لم يخرج عليه ، صار الابن غير شرعى ، ولا يرث حتى لو كان من زوجة شرعية .

بمحرير العبد.

وقد حقق القانون الرومانى مبدأ المساواة بين الطبقتين، كما حدد أيام التقاضى وأباح الزواج بين العامة والأشراف، وأعترف بالحقوق المدنية، وبتقاليد وعادات العامة (١). ومن رؤساء المشائير يتكون مجلس الشيوخ *Senatus* وهو المجلس المختص سياسياً وبحكم الدستور، بإصدار كل قرار ادارى أو عسكرى أو حربى، كما ويصادق على قرارات المجالس الشعبية، وهى مجالس تضم سائر الأفراد والزمر والمجموعات التى تعيش فى مختلف الولايات والمدن الرومانية، التى يحكم كل منها حاكم رومانى، يختاره القيصير، كما جعل الرومان على رأس كل مدينة قناصلها *consules* وهم طائفة مختبة من المجالس الشعبية، بالإضافة إلى طبقة الرقباء *censores* ووظيفة المختسب، كما ويمرر العامة شغل هذه الوظيفة.

الفكر الاجتماعى المسيحى فى التصور الوسطى :

كان لإنتشار المسيحية أثره الكبير فى إثراء التفكير الاجتماعى، وكان لذلك صداه فى كتابات الرسول بولس، والقديس أوغسطين. فظهرت مبادئ الطاعة وتقديس السلطات العليا مع عبادة السيد المسيح عليه السلام، إعطاء ما لقيصر لقيصر، وما لله . . وذلك لأن السلطة العليا فى الفكر الاجتماعى المسيحى، هى سلطة دينية مقدسة، لأن الملوك هم ظل الله على الأرض.

وقد كتب أوغسطين كتابه "مدينة الله *City of God*"، ودافع به عن المسيحية، حين أكد على أن الانسان مكون من عنصرى الروح والجسد، ولذلك فهو ينتمى إلى وطنين هما السماء والأرض، وينتقل الانسان عند أوغسطين بأمور دينوية مستتابة الجسد والشهوات، وآخرى روحية ودينية ومصداها الروح والقلب والضمير.

ويطلق أوغسطين على مجتمع الأرض « مدينة الشيطان » حيث ينتشر المجتمع ونسود الانانية، ويتحكم حب التملك والرغبة في السلطان وجمع المال بأما المجتمع الديني ، فهو مدينة الله وملكة المسيح ، حيث تتغلب قوى الروح حين تتغلب قوتها عقلاها ، فتزول من مجتمع الانانية ما يسوده من جشع وزعينة في السلطان والجاه وجمع الاموال ؛ ولذلك ينبغي أوغسطين بأن مجتمع الخير سوف ينتصر دائماً على مجتمع الشر والباطل .

أما القديس « توماس الاكوينى Thomas Aquinas »، فهو أن الغرض من المجتمع هو تحقيق الخدمات المتبادلة التي تؤدي إلى تحقيق الحياة الفاضلة ، ومن هنا جاءت وظيفة « التكافل الاجتماعي »، حين تتعاون وتتكامل سائر الفئات والطبقات الاجتماعية في إطار من الحب والسلام الاجتماعي ، فالجندى يحارب كي يدافع عن الوطن ، ويعمل العامل ويكدح الفلاح لقيام بخدمات ضرورية لحياة المجتمعات ، وربما تأثر « توماس الاكوينى » في سائر كتاباته الاجتماعية والسياسية ، بتحليلات وكتابات الفلاسفة اليونانيين، وبخاصة بما جادت به قرايح الفيلسوف العظيم أفلاطون وأرسطو .

التفكير الاجتماعي في الاسلام :

هناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم تشير إلى إبراز دور الدين الاسلامي، كدين ينظم حياة الناس في الأسرة ، والأخلاق والسياسة والاقتصاد، كما تحدد الشريعة الاسلامية، نظم الملكية والزكاة والعنالة والمساواة ، كما وتتحكم في نظم الزواج والطلاق والميراث والتبني .

ينبغي في صدر الاسلام ، تكاتف مختلف شرائع الدين بخروجهم البارز في ارساء قواعد النظم الاسلامية سواء في نظام الخلافة ونظام القضاء والمراجع ، ونشوء بيت المال

وموارده (١)، وقد اشتهر الفاروق عمر ابن الخطاب بفتح باب الاجتهاد في الفقه والتشريع، كما اهتم بشئون المال والادارة. وعلى سبيل المثال فقد وقف عمر وهو يودع أحد الولاة فسأله: « بماذا تحكم لو جعلك الناس - يسارق أو يثأب. فقال: أضع يده يا أمير المؤمنين. فقال له عمر رضى الله عنه: إذن لو جاءني الناس بما اتبع أو هربان فيقطع عمر يديك... إسمع يا هذا... إن الله قد خلق هذه الأيدي لتعمل، فإن لم تجد في الطاعة عملاً وجدت في العصية أعمالاً، فأشغلها بالطاعة قبل أن تصفك بالعصية».

ولقد شجع بنو أمية وبنو العباس، العلم والعلماء، فظهرت طائفة ممتازة من الشعراء والأدباء قلما يجود بهم العصر؛ كما ظهرت الفرق الإسلامية والفلاسفة والمتكلمون والأخلاقيون من أمثال الكنتي، والغزالي، والفارابي، وابن طفيل وابن خلدون.

وكتب الفارابي «آراء أهل المدينة الفاضلة» متأثراً بالفكر الاجتماعي الأفلاطوني والأرسطي، الأمر الذي مكن اعتبار مدينة الفارابي الفاضلة، هي «البروتوتيا العربية الإسلامية» التي تمثل قدماً واضحاً في تطور ملامح التفكير الاجتماعي في الإسلام.

ابن طفيل (٢):

اشتهر في الفكر الإسلامي، وبخاصة حين كتب قصته «حي بن يقظان»، وأشار فيها إلى بعض الانظار الاجتماعية، كما جمع تصورات المسلمين وأفكار الفلاسفة العرب عن الإنسان الفرد وموقف المجتمع منه.

ولقد استلهم ابن طفيل «من الفيلسوف الإسلامي «ابن سينا» بطل رواية «حي بن يقظان»، حيث يرمز «حي» عند ابن سينا إلى «العقل الفعال».

(١) حسن إبراهيم حسن، «النظم الانشائية» ١٩٤٩، المطبعة الأميرية، صفحات

١٠٩ حتى ١٢٥.

(٢) ابن طفيل، هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن علي. قيل أنه ولد في الفترة ما بين سنتي ١٠٦٦، ١١١٠ في بلدة في جبل غرناطة بالإندلس، ونسب إلى قبيلة بني قيس القرية.

لأنه روح منزّه عن المادية ، بالاضافة إلى أن «حى» خالد لا يموت ، وهو يقظان ، بمعنى أنه دائم الاشرار والسوء .

هذه هي مقاصد ابن سينا ، ولكن ابن طفيل عالج القصة على نحو مختلف ، فلقد ارمأ حول «حى» ، تربيته واعداده ، بالنظر إليه ككائن بشري حافل ، وولده «يقظان» هو العقل .

وحاول ابن طفيل أن يعزل «حى» بطل قصته عن كل تأثير اجتماعى خارجى ، حتى يبدأ تربيته وعقله صفحة بيضاء ، عالية من كل علم أو معرفة أو إدراك . ثم بدأ ابن طفيل يروى لبطل روايته «حى ابن يقظان» قصة الجنس البشرى وكيف ولد الانسان الاول من غير أم أو أب ؛ حيث تولد من أمشاج عن طين وحرارة ويوسه ، وبرودة ورطوبة ، ثم تعلق به الروح باذن الله (١) .

وكان ابن طفيل من العلماء الاجلاء العارفين بعلوم المسلمين ، فلم يغفل علينا عن معلومات طبية وتشريحية تدور حول تكوين الجنين وتدخل جميعها في إطار علم «الاجنة embryology» .

وتربى «حى بن يقظان» في أحضان الطبيعة فكان يأكل الثمار ويهاكى الحيوان ، واتخذ من أعضاء الشجر حصيلاً يدافع بها عن نفسه ، وحين «تقف العصا» كانت البدايات الأولى للتفافة ؛ ثم امتدى «ابن يقظان» إلى النار ، وبدأ يألف الحيوان ويستأنسه ، ثم غزل الموف ، ونهى الكوخ وصنع الزمراع .

وفي مراحل متأخرة ، عرف «حى ابن يقظان» طبائع النبات وخواصه وأنواعه ، وتطلع إلى صور الحياة قسمها إلى أجناس وأنواع ، وإلى حركة النفس وكرويتها ، واستنتج فكرة السببية حين يفسر ما يقع أمامه وما يحدث . ومن هذه الفكرة توصل إلى وجود الله كخالق ، وصانع للعالم :

(١) تهذيب غزول ، (ابن طفيل) ، بيروت ١٩٦٣ .

ولكننا نسألك : وما الغرض من قصة حي بن يقظان ؟ لقد أخطأ بعض المفكرين حين ذهبوا إلى أن عملية إقصاء حي ، عن المجتمع ؛ هي عملية مقصودة حاول من خلالها ، ابن طفيل ، أن يؤكد لنا كيف يتفتح عقل الانسان بمزول من كل تأثير اجتماعي ، وهذا فهم خاطئ ، ؛ حيث أن ، عقل حي ، إنما يمثل عقل النوع البشري بجملة ؛ وابن طفيل لم يكن ليجهل أن هذا العقل مدين للمجتمع في كل تطوراتهِ وتصوراته ، فالاجتماع عند ابن طفيل كان ، أصل تطور البشر وتقدمهم ، ، ومن هنا ، فتفتح ، عقل حي ، وتطور باحتكاكه بالآخرين ، كما نشجت تصوراتهُ عن طريق العمل من أجل اشباع حاجاته ، ولواجهة ما حوله من أخطار ، ، ولما كانت الحاجة هي أم الاختراع ، ، تطور الجنس البشري وتقدم العلم وإزدياد دائرة المعارف .

ولقد أسهمت رواية ، حي بن يقظان ، لابن طفيل ، إسهاماً مباشراً في الفكر الاجتماعي ، فهو يبين أثر المجتمع على الانسان الفرد واكتسابه لآليات سلوكه في حياته الاجتماعية . ولغنه القصة أمثالها في حياتنا الواقعية ففي سنة ١٩٥٣ عثروا في سوريا على طفل يعيش بين الغزلان . كما عثر في مقاطعة البتغال في الهند سنة ١٩٢٠ على أسرة ذئاب ومعا بنت لا تتجاوز السنة والنصف من العمر ومعا أخت أخرى وتدور الاساطير في التاريخ القديم حول نشأة درولوس وديموس ، حيث رضعوا من حليب ذئبة على شرف غفاف التبر ، ولما بتأسيس روما سنة ٥٣٢ ق م (١)

عبد الرحمن بن مخلدون :

في كتابه : دراسة التاريخ ، يقول توينبي Toynbee عن ابن مخلدون : إنه المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي العظيم ، الذي انتج أعظم كتاب من نوعه ، أنه عقل

إنساني في أي زمان أو مكان (١) .

ويعتبر ابن خلدون بمثابة المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع، قبل خندوده في دروس الفلسفة التوضيحية عند أوجست كومت Comte، ولقد أطلق ابن خلدون اسماً لشيء به وحده دون سائر علماء الاجتماع؛ حين تكلم عن العمران البشري، وأطلق على علم الاجتماع اسم «علم العمران» وهذا بلغ ابن خلدون في الفكر العربي، بل وفي الفكر الغربي أيضاً مبلغ الرواد الأوائل من أساطين التفكير الاجتماعي الاسلامي، وبخاصة حين كتب «مقدمته» المشهورة باسمه، التي تعتبر مقدمة لعلم الاجتماع أو العمران على حد تعبيره.

ولقد سبق ابن خلدون الكثير من علماء الاجتماع المعاصرين حين سجل الكثير من نظرياته وآرائه، فهو يؤمن على سبيل المثال «بدور الحياة البيولوجية» تلك التي تحكم في مسار الحضارات والمدنيات. فلقد أشار في مقدمته إلى فصل تحت عنوان «فصل في أن الدولة أعمار طبيعية كالاشخاص» بمعنى أنه يطبق تلك النظرية القائلة بأن دورة الحياة المتدرجة في مراحل الميلاد والطفولة والشباب والرجولة؛ والشيخوخة والموت؛ إنما لا تنطبق فقط على أفراد الحيوان؛ بل إنها تصدق أيضاً على حياة الدول، والمدنيات، والحضارات.

وبذلك يرتفع الفكر الاجتماعي الاسلامي عند ابن خلدون، إلى درجة النضج والاصالة والمحسوبة أيضاً، حيث حاول أن يشيد علم الاجتماع على أسس وضعية وفرايد علمية تنظم المجتمع وتحدد مسار الظواهر الاجتماعية القائمة فيه؛ الأمر الذي معه يمكن أن نعتبر ابن خلدون هو أول مؤسس حقيقي لعلم الاجتماع

(١) يتحدث خلدون عن «العمر» ويقول للشيخوخة والجبريل لها من العرب والمسلمين واليهود ومن عاصره من ذوي السلطان الاكبر .

وللمسلة التاريخ (١).

عصر النهضة في أوروبا :-

ومن أقيم الكتب السياسية والإدارية ، التي ظهرت ، وسجلت الكثير من القرن الرابع عشر ، تلك الكتب التي نشرت ، فكان لها صداها وأثرها في وصف اقتصاديات عصر النهضة Renaissance ، ومنها كتاب « أندريا بربريجو : تاجر البندقية » وكتاب « سفن البندقية » وبناء السفن في عصر النهضة . -

ولقد أهدى هذين الكتابين ، المؤرخ الاجتماعي المعاصر « فردريك لين » ، ومن هذين الكتابين نستطيع أن نتعرف على الصور المبكرة أو الأولية elementary forms لأشكال الإدارة ، وأشكال الممارسة الإدارية ، ونجد في هذين الكتابين وصفاً مفصلاً لتقدم التجارة والصناعة في إيطاليا ، بحيث عصر النهضة ؛ ومصدر خصويته وقا عليه .

ويصف كتاب « أندريا بربريجو » أسواق تجارة البندقية ويسرد لنا سيرة رجل أعمال ، من كبار تجار البندقية ، وهو تاجر من الطراز النموذجي المألوف ، الذي يعرف كيف يستخدم المحاسبة كأسلوب إداري ، كما يعرف كيف يستخدم مبادئ علم إدارة الأعمال ، بطريقة عملية وسيكولوجية ، ولقد كان أسلوب المشاركة أو الشركة partnership ، وهو الأصل في كل مؤسسة اقتصادية أو شركة تجارية هو أحد الأساليب الرئيسية المستعملة في تلك الأعمال الإدارية والاقتصادية في البندقية . كما كان أسلوب المخاطرة المشتركة joint venture هو أسلوب آخر استعملته البنادقة كطريقة تقليدية في تجارة إيطاليا خلال عصر النهضة .

(١) د. ابن خلدون في أول رمضان (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢) في مدينة تونس .

ثم خوسه فركك بفر الجبلت في الجبلت والبلط وسائر العلوم البتية حتلا من لا كور

هد الرحمن بوى « مؤلفات ابن خلدون » منشورات المكنز القومي لبحوث ١٠٠

ولقد استخدم أسلوب المشاركة كأساس قانوني، لمنشآت أو تنظيمات
ومؤسسات بحارية. كما استخدم بحار البندقية أسلوب الخطاطرة المشتركة سواء
في ميدان الاستكشاف والمغامرة أو الفتح والاستثمار، أو بصد عقد الصفقات
للتفردة .

ولحماية تجارة البندقية الراجحة، ظهرت قوة البندقية البحرية وأسطولها للسلح لكي
يحمي التجارة والمصالح المشتركة . وهكذا تكونت ترسانة البندقية ، وبلغت دولة
البندقية وأسطولها في أوج قوتيهما ؛ كما أصبحت ترسانة البندقية هي أكبر مصنع
إنتاجي لرواج السلح . وكثيراً ما تدخل مجلس شيوخ دولة البندقية ، لكي يتولى
ويعارس بنفسه إدارة ترسانة البندقية .

صفة الاقطاع في العصور الوسطى :

حين ضعفَت الامبراطورية الرومانية، كانت الكنيسة هي الدولة القائمة داخل
الامبراطورية المنكسكة، وكانت دولة الكنيسة، تقوى يوماً بعد يوم، حتى سادت
تماماً، وصارت أقوى سلطة في العصور الوسطى، ولقد عرفت أوروبا نظام
الاقطاع بفضل انتشار تعاليم الكنيسة، والتي ظلت تزعم وترعاه، وفي هذا
العصر الاقطاعي الزميب، خضع كل فرد تحت سلطان أو سلطانين، إحداهما
إرادة تفرض نفسها، أو سلطة تستأثر عليه بجسده، وتلك هي سلطة د الأمير،
أو د البارون . أما السلطة الثانية، أو الإرادة الأخرى إنما تستأثر عليه حين
تؤمن على روحه، وتلك هي سلطة الكنيسة، التي تتولى إرادة أو سلطة الله، على
روح الانسان . فظهرت السلطة الزمنية، التي هي سلطة الملوك والأمراء
والبارونات، والسلطة الروحية، التي هي سلطة رجال الكهنة على أرواح الناس
كبابيبيير الملوك على حركاتهم وسكناتهم .

ويظل الناس في مجاز طويلاً راضين بهذا النظام، الذي ظل حتى أوروبا واستمر

أكثر من ألف عام . فالإنسان ، إما « فارس » أو « نيل » أو « رجل دين » ، أو « عبد » من ديق الأرض ، يرتبط باقطاعية النيل ، ولا يتركها ، وإنما ينتقل بعيد الأرض مع تلك الملكية من بارون إلى آخر .

وكان للفرسان واجب الطاعة ، وعلى الفلاحين ، أن يقيموا بتقديم كييات معينة مما تملكه الأرض ، وكان على الصانع واجب الاحترام والطاعة للفرسان والبارونات ، مع تقديم كييات معينة مما ينتجون ، أما بالنسبة لطبقة الفرسان *chevalier* ، فلقد كان لها دورها ووظائفها في المجتمع الاقطاعي ، فلقد كان على الفرسان البارونات واجب الخدمة العسكرية . كما كان على البارونات وفرسانهم واتباعهم واجب الخدمة العسكرية لللوك ، كان للوك وفرسانهم وصيدم من صناع وفلاحين ، واجب الخدمة العسكرية من أجل الدولة يرمتها ، هكذا كان النظام السياسي في العصور الوسطى ، فلم يكن في استطاعة أى انسان أن يفكر في تغيير وضعه ، لأن الله هو وحده الذى حدده لكل واحد من بنى البشر . وكانت طبقة الاتباع والارقاء ، هى الطبقة السفلى ؛ بعد طبقة النبالة وطبقة رجال الكنيسة ، وفى وسط هذا الجو السياسى الخافت ؛ أخذ الاتباع يهجرون الاقطاعيات ، إلى المدن ، حيث التجارة والصناعة ؛ حتى يتحرر الاتباع من التبعية ، حيث أنهم لا يتمتعون إلى الطبقات الممتازة ، فتقدم يفادون أسلادهم من النبلاء من أجل تحريرهم ، نظهر بعض المكوس المتفق عليها ، حتى يوقع السادة وثائق التحرير والخلاص ؛ للعبيد والارقاء .

وحول الأديرة والأبرشيات ، ظهرت المدن الحرة و« البلديات » ، وكما ظهرت طبقة جديدة ، هى طبقة « البروجوازيين » ، تلك التى خدمت فيها الكثير من أتباع الأرض ، وذرى اليسار من التجار والصناع . وبنات البروجوازية تشتري من النبالة الاملاك والمقاطعات ، فيها تحصل البروجوازية على ألقاب النبالة

ولكن تصبح الكنيسة الكاثوليكية ، في مركز أسمي من البورجوازية والنبالة والامراء الزمنيين ، وحتى تستطيع السيطرة على كل هؤلاء ، لا بد لها من أن تكشف عن « مبرر ديني » . ولقد وجدت ضالتها في ضرورة ممارسة حق ديني هو « حق مقاومة الظلم والجور » ، ومن هنا وجدت الكنيسة أن الأمر مكلف بمراعاة القوانين الإلهية لأنه يتلقى سلطانه من الله . والكنيسة في روما هي المكلفة بمراعاة القوانين الإلهية و « مراقبة السلوك السياسي للامراء » .

حيث أن الأمير ، حين لا يراعى تلك القوانين الإلهية ، إنما يعد ذلك خيانة عظيمة ، تفقده حتى السلطان الإلهي ، وفي هذه الحالة يصبح منه حق الحكم ؛ كما يحق للربايا أن يفرجوا على طاعة الأمير .

ولما كانت الكنيسة ، هي التي تباشر سلطات الله على الأرض ؛ فإنها تملك حتى خلق الأمير ، وأصبح هذا الحق سلاحا يشهره البابا ضد الامراء . فالكنيسة إذن ، هي التي توثق السلطة من تشاء ، وتنزع الملك من تشاء ، ولها السيادة على الامراء والملوك والاباطرة ، فاك كانت هي البيشة التي ولد فيها «توماس مور Moore» ، و «نيقولا ماكيافلي Machiavelli»^(١) ، حين كتب الأول كتابه «البيوتريا» ، وكشف فيه عن عيوب المجتمع الانقطاعي الانجليزى في عهد الملك هنرى الثامن ،

(١) ولد ماكيافلي عام ١٤٦٩ في أسرة صغيرة كانت من أميان فلورنسا فحصل على منصب في جامعة الولاية عندما بلغ التاسعة والعشرين . ثم برع في الكتابة ، وتجهأت له كتبهماني فرقة ملاحظة الناس ورصد سلوك الحكومات أثناء عمله ، واهتمت تقاريره التي يثبث بها إلى حكومتها دولة فلورنسا بالبنسكة والبراعة . ولله أثر كبير في ماكيافلي رؤسائهم كبرسلي ، وملا الدنيا وشغل الناس ، حينما أغفل اللامعون وما ورواها عليه ، كما أنكر الرباء والظواهر بالتقوى . ونجراً وكشف من أجرة دخلية مصارعة من أجل السلطة ، ظلت خلفه وراء حكومة الولاية .

يتنا كيب الثاني كتابه « الأمير The Prince » ، الذي يعبر غير تعبير عن فلسفة السياسة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر.

ولقد كان « توماس مور » و « نيقولا مكيافيلي » في الفكر السياسي ، وكانهما قرناً رمان ، فلقد عاش كلاهما في عصر النهضة ، وكان كلاهما على طرفي قوسين ، فاذا ما اعتبرنا « توماس مور » هو السياسي الداهية الطيب ، فإن « مكيافيلي » هو الداهية الشرير .

فالاول « نيقو » ، وهو فيلسوف فاضل طوباوى المذهب ؛ إنسانى النزعة Humanitarian ، والثاني داهية دميما ، وفيلسوف سياسى واقعى النتج ، لا أخلاق النزعة ، كثيراً ما يلتمس منه التباد ، ورجال الدولة ، شيئاً من الصح لما له من منزلة وحظوة واعجاب . وكان مكيافيلي في « علم السياسة » يؤلف ويصنف ، كما أبدع كثيراً فيما ألف وصنف ، فكتب كتابين خالدين هما « الأمير » و « المحاورات » . ولقد منصبه في عام ١٥١٢ في حكومة فلورنسا عندما طردت أسرة مديتشس Medici إلى الحكم ، فكرس عمره للكتابة ، وله مؤلفاته في الشعر والرسائل والتعليقات والتاريخ . أما كتاب « المحاورات » ، فهو تعليق على الأجزاء الستة من كتاب « ليني » ، « تاريخ روما » . ويعتبر كتاب « الأمير » المتكثف من المحاورات ، رسالة شاملة جامعة وماتعة ، وفيها مكيافيلي إلى أحد الأمراء الشبان من أسرة مديتشس في محاولة يائسة لاسترضائها . ومن سوء الحظ أن مكيافيلي قد كتب على مر السنين الكراهية وبالسمة البيئة ، حين استخدمه وليم شكسبير Shakespeare ، شخصيته كمدوذج الجشع والطمع والكره والاسلام الضمير ، حتى بات اسمه كسياسى داهية ، فأصبح عند أغلب الناس يسم عن الجشع والدماء .

سير توماس مور Sir Thomas Moore

كتب « مور » كتابه الأشهر « اليوتوبيا » أو « المدينة الفاضلة » ، وتخيّل فيها دولة مثالية ، فاضلة وخيرة . وكان « مور » فيلسوفاً وعلماً ، ومن رجال الفكر الديني ، ومياسياً عنكاً ، يذكرنا بالكاردنال ريشليو Richelieu ودوره السياسي في فرنسا .

ولقد درس « توماس مور » القانون ، وواجه الكثير من المموبات والمشكلات القائمة في مجتمعه ، وكشف عن أوجه القصور والفساد ، وانتشار النفاق الاجتماعي لمحاول أن يهرب من واقعه الاجتماعي المعض ، إلى واقع مثالي تخيّل « مور » وحلم به ، حين يتحقّق الخير الاسمي بسيف العدالة ، مع تطبيق القانون ، إستناداً إلى مبادئ الرحمة والانسانية . وكان مور رجلاً نبلاً وشجاعاً ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، فلحق مصرعه ، شيداً لمبادئه وفلسفته ، لأنه لم يستطع أن يوفق بين مبادئه المثالية ، ورجبات مليكه ، وإرادته الصلبة ، وسلطته القاهرة .

ولقد اشتهر « توماس مور » في التاريخ السياسي الانجليزي ، حينما أصمى الملك على طلاق زوجته « كاترين » ، وكانت تنسب إلى أسرة « أراجون » العريقة التي كانت تحكم مرش أسبانيا في ذلك الوقت . وشامت شہوات الملك الانجليزي الذي كتب عنه « شكسبير » ، أن يطلق زوجته رغم أنف الكنيسة الكاثوليكية ، ليتزوج ابنة الصنب الفتاة الجميلة « آن لويين » .

(١) . ولد توماس مور ، في لندن عام ١٤٧٨م ، ثم حاول أن يخدم الكنيسة الكاثوليكية فخدم في لندن ليكون أحد قناوسها ، إلا أنه فضل أن يدرس « القانون » ، فحصل على « دكتوراه » ، وعمر في وظائف القضاة حتى تولى أعلى المناصب القضائية ، فأصبح « قاضياً » في لندن ، ثم « قاضياً » في « قضائية » إنجلترا ، ونحو القضاة المشهورين الذين أثار غضب الملك هنري السابع ، حين حاضرت « هنري » منعه من أن يدخل في طلبه الملك .

ورفض «توماس مور» واستقال من منصبه كقاضى قضائية. انجلترا: وضرب المثل الأعلى في السجاعة وانكار الذات. فوجه إليه الملك الطاغية تهمة الخيانة، نظراً لتحدي الملك، وإدائه للاف الحكماء الانجليزية، واعتمد مور، وفصلت رأسه عام ١٥٣٥، لكن تظهر من بعده فلسفات سياسية لا أخلاقية صدرت مع كتابات ميكافيللى في إيطاليا، وتوماس هوبز Thomas Hobbes في إنجلترا (١).

وإذا ما ألقينا ضوءاً على التاريخ الاجتماعى، ليجو السياسى الذى طائنه «توماس مور»، لوجدنا أن سوء الإدارة كانت سبباً في وجود المناهب الاقتصادية، كما كان الشعب الانجليزى يعاني من استبداد الطبقة الحاكمة، ومن فساد الأمراء والنبلاء.

فكان «مور» يعتبر «الصدق» أو «النيل» من الكائنات الفنية غير المتبعة حين يعيش الأمراء، على عرق الأجراء، كما كانت تحيط بالنبلاء طاقة غير متبعة من الحاشية وهى طبقة الانتهازين، أو هم الرجال الخاؤون Hollow Men كما يسميهم «البوت Eliot»، وهى طبقة سليمة لم تحترف مهنة، ولا تعرف كيف تكسب حيشها. كما انتشرت في عصر «مور»، وتعددت «البطالة» و«الغلام»، وتقتضى الفقر والفناء والانقلام، حين أحال كثير من النبلاء مزارعهم إلى مراعى للماشية، وطرد الأمراء سائر الأجراء من أراضيهم، حيث يساق الأجير، إما إلى البطالة

(١) اشم. عصر توماس هوبز، بالحروب والمفاحات والمعارك وشهد بنى أول، إعدام الملك شارل الأول «ستيوارت» بعد النضال السياسى بين البرلمان والملك، وبين البروتستانت والكاثوليك، حتى ظن البعض أن «كتاب Leviathan» قد قدم بمثابة نصر جيترومويل، وانتصار الجمهورية في مقابلة البرلمان بدسحرب أممية بين الملكين والجمهوريين، فتحقق للنصر الجمهورية، وهى انتشرت بعد قليل.

والضياع ، وإما إلى السجن بتهمة التشرد ، رغم أن هؤلاء الأجراء ، لم يصفوا يوماً بالقرود والثورة ، بل كان يسعدم أن يقدموا أنفسهم وعيانتهم بأخص الأجر ، لو تيسر لهم العمل .

ولقد اقترح « مور » ، في دولته العنوباوية ، رفض الاسراف الفاضح ، فقد كان يصكره الافراط في الترف والسرف والطعام ، كما رفض « مور » ، أن يسمى الأجراء نحو الانحلال وبشرة ما كسبه يرفهم من دواهم في دور القمار وأماكن الميسر وحوائث الخمر والمخامرة ، أى أن دعوة « مور » كانت دعوة « اقتصادية وخلقية » لترشيد الانفاق في أفراح وأتراح الأثرياء والأجراء .

ولقد سخر « ميكافيللى Machiavelli » من مثالية « توماس مور » ، ومن « استراتيجة الحرب » التي تنادى بها « يوتوبيا الاقبياء » الذين يمارضون فكرة الحرب ، فيستأجرون جيدهم ، وغيرهم من سائر المرتزقة القيام بالدفاع والقتال ، نياية من أهل المدينة الفاضلة .

ليقول ميكافيللى Nicola Machiavelli :

حاول ميكافيللى في كتابه « الأمير » ، أن يبين ما ينبغي أن يكون عليه مساك الأمير السياسي أزاء رعيته ، وموقفه من أصدقائه وأعدائه من سائر الملوك

(١) كان ميكافيللى ، ينسب إلى أسرة هورجوانزة صغيرة ، واشتغل كسريعاً في حكومة الجمهورية الفلورنسية ، ولله أمان في هذا المنصب أن يترك بلده فلورنسا ، بل وإلى أن يسافر خارج إيطاليا نفسها ، الأمر الذي يفضله يرجع « ميكافيللى » إلى التشرد السياسي والديبلوماسية ، ولقد زار ميكافيللى فرنسا في عهد لويس الثاني عشر في مهمة رسمية كما زار ألمانيا ، وأمعب براءه منها وروح أهلها العسكرية ، وبهره هذا الأمر ، فطالب في بلده بتسكين حرس فلورنسى ، أو جيش وطنى يسمى « نجاة » و« صلابة » فلورنسا قليلاً ، حتى لا يقع تحت رحمة الصليبات والمرتزقة .

والأمراء ، حيث يعيش الأمير ، في جو من « المخاطر السياسية » من المخاطر والمخاوف الخارجية من الدول ، والامارات ، ومن ثم ينبغي على الأمير ألا يكون « طيب النية » على الدوام ، وإنما ينبغي أن يطرح « القيم الاخلاقية » جانباً وفق ما تقتضيه الضرورة (١).

وفي هذا الصدد يقول « موريس دوفرجيه » ، حين يميز بين الفلسفة السياسية عند أرسطو ويقارنها بموقف ميكافيلي في اللا أخلاقية السياسية ، وفي هذا الصدد يقول دوفرجيه (٢) :

« لقد ابتكر أرسطو العنصر الأول في علم السياسة ، وهو استعمال منهج الملاحظة ، كما ابتكر ميكافيلي العنصر الثاني ، وهو المنهج الموضوعي المتجرد من الاهتمامات الخلقية » .

واستناداً إلى هذا المعنى ، حاول ميكافيلي في كتاباته بصدد مبادئه وقواعد السياسة ، أن يستقل تماماً ، بلم السياسة ويفصله عن علم الأخلاق ، كما كانت الامبراطورية الرومانية هي مثله الأعلى ؛ فاتجه ميكافيلي نحو التاريخ ؛ ونظر إلى المنهج التاريخي للقارئ ؛ على أنه المنهج الوحيد والمجهرى في ميدان البحث السياسى الحديث .

وفي هذا الصدد أيضاً — ذهب ميكافيلي ، إلى أنه ما دام الشر من طبيعة البشر ، ومن خصال الانسان ، فإن « السلطة » التي تقيمه عواقب هذا الشر ، هي بالنسبة اليه خير قائم بناته . فالدولة تحمي الانسان من الشرور والاضرار . ولذلك يجب أن تستقل الدولة عن الاخلاقية ، ومن ثم لا تخضع السلطة لقواعد الخير والشر ، ولكن

(١) سباين ، جورج ، « تطور الفكر السياسي » ، المجلد الثاني : ترجمة الدكتور

رائد البراكى ، « دار المعارف » ، ١٩٧١ ، صفحات ٤١٥ - ٤٢٢ .

(2) Daviger, -Maurice, Istroduction to the Social Sciences, trans- by Malcolm Anderson, London. 1964.

السلطة إنما تخضع فقط للقواعد الموضوعية ، تلك القواعد التي تخرجها من المباح وجود الدولة أو السلطة ، ؛ حيث تعارض القواعد الموضوعية السلطة ، مع تلك القيم والفضائل الفردية التي يتعارف عليها الناس .

وعلم السياسة هو : علم السلطة ، الذي هو علم القواعد الموضوعية ، التي تكفل البقاء للدولة ، والسلطة لإرادتها التي تفرض نفسها ، فتحاول أن تبقى أبداً قواعد ما الفاضلة ، وتصح فيها تهدف إليه .

ومن هنا يدرس ميكانيكي السلطة والدولة والنظام ، على أنها جميعاً ظواهر سياسية قائمة بذاتها ، ويقول صاحب الأمير Prince ، أنه من المرغوب فيه ، أن يتحلّى الأمير بالفضائل ، فيكون كريماً محسناً ، قوى الإرادة ، شجاعاً ومقداماً ، وفيها بالمد . وهنا يقرر ميكانيكي أيضاً ؛ أنه من الضروري أن يكون الأمير حر النزعة ، دون أن يؤدي ذلك إلى كسب قلة من الناس . كما يتعلم على الأمير أن يعرف كيف يستعمل « الرحمة » ؛ كما ينبغي عليه أن يكون شديداً وقاسياً ، لأن « الرحمة غور في الطبيعة » ، كما قد تؤدي الرحمة إلى الاضطراب والفوضى ، ولا تفرض السلطة إلا بالقوة والبطش ، وتستطيع القسوة أن تقيم النظام وتحقق الرحمة ، وغالباً ما تقضى على الفوضى ، وبالتالي فإن القسوة ، قد تكون في صالح الجماعة ، والرحمة في غير صالحها .

فالناس يحبون الأمير ، إذا قام بتدبير مصالحهم ؛ وبالتالي فإن حبيب أو كرايمتهم ، هي أمور متغيرة طبقاً لتحقيق مصالح الناس أو عدم تحقيقها . ولذلك يجب أن يكون الأمير مهذب الجانب ، ويجب أن يخشى بأسه ، على أن يكون كريماً محبوباً ، حيث أن استناد الأمير إلى « سحرة الرحمة » ، إنما يعتمد في سلطانه على إرادة غيره ، بينما تقوم سلطة الأمير لسياسة على تخية الرعية على إرادة الأمير ، ومن ثم فإن تخية الرعية هي غير الدائمة والتي لا يثبت أن إرادة

الأمير هي مصدر السلطة ومبعث القوة ، كما أن علاقة جانبه إنما لاتستمر ؛ إذ هي قائمة ودائمة بغيرها علاقة العقاب التي يجب على الأمير بلا رحمة على أعدائه .

الغاية تبرر الوسيلة :

وفي السياسة الخارجية ، ينبغي على الأمير أن يجمع في تصرفاته بين أنساليب الإنسان ، وفضائل الحيوان . حين ينبغي أن يكون ثعلباً وأسدأ في آن واحد . فمن طريق المكر والذكاء يستطيع أن يبين الشباك التي تصب له ومن حوله ؛ ولذلك يستنعم الأمير الشجاعة أحياناً والمكر في أغلب الأحيان .

وفيما يتعلق بالوجود والتعهدات التي يعطيها الأمير ، يأخذ بها على نفسه ، ينبغي أن يكون ثعلباً فلا يراعي الضمير ، وإن كان من شأن مراعاة الضمير الاضرار به ، حيث أن الشرور تنتشر بين الناس ، فلا يرون وعدهم مع الأمير ومن ثم يكون الأمير أيضاً في حل من الأخلاق الفاضلة . وعلى الأمير أن ينجح في تحقيق الغايات مما كانت الوسائل ، فالغاية تبرر الوسيلة ، في سبيل المحافظة على الدولة .

وبهذه السياسة اللا أخلاقية ، حاول ميكافيلي أن يوحده ويعرر وطنه إيطاليا من السيطرة الأجنبية ؛ وتلك هي الغاية الكبرى التي يهدف إليها ميكافيلي من وراء دولة قوية ؛ وجيش وطني دائم ، وبذلك فصل ميكافيلي فصلاً تاماً بين الأخلاق والسياسة ، كما جرد فلسفة الحكم السياسي من قواعد الأخلاق ، حين جعل السلطة قائمة على فضيلة سياسية هي فضيلة الخداع والكذب . وبذلك كانت كتابات ميكافيلي ومبادئه وأخلاقياته سجلاً حافلاً ، يفيد طام الاجتياح السياسي بالذات ؛ حين يحاول أن يتعرف على مختلف الأنماط ومختلف الأساليب السياسية التي انتشرت في عصر ميكافيلي .

مبادئ الأمير وأهدافه السياسية:

ولعل أم المبادئ التي توصلت إليها الفكرة المكيافيلية في العلوم السياسية ، مبدأ الاعتماد على موافقة تأييد الجماهير ؛ وعلى الرغم من إمكان وراثة الأمير السلطة ، أو حتى إغتصابها حين يظفر بها ويفوز ، إنما باستخدام القوة ، أو عن طريق هراقة الدم ، والأصل النبيل ، إلا أن الشرط الجوهرى هو ضرورة تأييد غالبية الشعب .

ومن مبادئ المكيافيلية ؛ مبدأ الترابط والتسلسل في التنظيم ، حتى يضمن الأمير استمرار حيوية وبقاء الدولة ، عن طريق التسلسل بمبدأ الوحدة ، والسيطرة الحازمة على الأصناف ، ومراقبتهم فى حرص وحذر ، ثم استخدامهم لمصلحة الشخصية ، كما وينصح الأمير أن يعيش فى الاقليم الذى يفزوه ، حتى يستطيع أن يمارس الرقابة الحازمة على من يفزوه .

وبصد مبدأ القيادة ، ذهب مكيافيللى ، إلى ضرورة تدريب الأمير على كيفية ممارسة واكتساب السلطة ، إلا أن الشرط الجوهرى ، هو توافر الخصائص الذاتية والحصال الشخصية التى ينبغى أن يتميز بها القائد ، وقد يفضل الأمير رغم ما تلقاه من دونه وزيادة فى الخبرة ، نظراً لتقصان الحصال اللازمة للأمير كقائد أو كسياسى حازم ، يصدر القرارات الرشيدة ، ويرفع الروح المعنوية بين مواطنيه فى زمن الحرب والسلام ، وتقديم المنح والمكافآت للشجعية الفرسان والشجعان ، ولكل من يرفع من شأن المدينة أو الولاية . كما يجب أن يكون د الأمير ، حكيماً بصيراً بالأجواء من حوله ويسير الاحداث ، كما أن يكون أيضاً خبيراً بفنوس البشر ، قادراً على الاستفادة منها لمصلحته . بشرط ألا يتكاسل أو يتخاذل ، وإنما يلتفت إلى الأمير أن يتعلم كيف يصدر القرار عندما تنسج الفرصة ، وتسمح الظروف المواتية . ومن ثم يصبح الأمير قادراً على تقسيم الشعب الرعي ، ويدرك

الاجاهات الزمن، فيشأ لها، فلا يصدر قراره منه ما يأتي الراسخ، أو تنبئى الزمن
ويجب أن يكون الامير ذكيا يميز بين النبلاء، ويعرف من يخلص له، ويؤمل
الصالح منهم، طبقاً لدرجة ولائه للامير. فالرغبة في البقاء، واستمرار الدولة،
والحياة السياسية، هي غاية الامير وحده الاول. ولذلك ينبغي أن يكون الامير
كأرومان، يثقاً، جسوراً، مستعداً لمواجهة الاضطرابات، وان يتخذ التدابير
القاسية، ليقضى على كل تمرد في مملكته، ويغفل مبادئه الاخلاق والفطنة،
فيكون الامانة، إذا اقتضت الضرورة، فالغاية تبرر الوسيلة.

ويذكرنا موقف مكيا فيلى بالنسبة للامير، بموقف مستشار العلاقات
الانسانية، بالنسبة للدير الذي يحرص على مركزه فلا يتنازل، ويعنى بكل
من يحتل بهم، ويصدر القرار الرشيد، الذي يتماشى مع وقار منصبه، فيكون
محبوباً في مؤسسته كدير ناجح، فيصبح دقة صالحة، في حب الخير، حين
يعتمد على حب الناس له وتأيدهم، كذلك الحال بالنسبة لموقف الامير، وحسن
إدارته للدولة، واعتداده على تأيد الناس، وتماسك التنظيم، والرغبة في
التسلط والسيطرة والبقاء. هكذا تكلم مكيا فيلى مشيراً إلى أهم المبادئ التي ينبغي
أن يستند إليها الامير.

مبدأ الفصل بين الدين والدولة :

وختاماً - نقول باسم التحديث الحضارى Modernization وبصدا البقاع
عن موقف مكيا فيلى في فصل السياسة عن الاخلاق، فنحن نريد هذا الزعم، وهذا
لا يتعارض إطلاقاً مع الدين والقيم والمبادئ، على اعتبار أن رجل المبادئ،
والقيم، هو رجل أخلاق وليس بالضرورة هو السياسي الخشك، لسبب بسيط
جداً هو هو خطه الامير على نحو خاطيء، حين يمزج دون تمييز بين مسلكه
السياسي وهو أمر ديني، بحسب مسلكه الفنى والاخلاقي، وهو أمر لا يتصل

بشهرات الحكم والسُلطان ، كما يمكن أن يكون « الأمير » ، « طلياً » ، أو « متديناً » ، أو « أخلاقياً » ، في حياته الشخصية أو الخاصة ، وهذا لا يتعارض إطلاقاً مع سلوكه كرجل دولة ، لأنه في مجال السياسة ، إنما يسلك على نحو خاص ويميز في كل موقف من مواقف السياسة ، فهي مواقف موضوعية بحتة ولا ترتبط إطلاقاً من قريب أو بعيد بموازين قيمة أو ذاتية subjective ، لأن السياسة أمر « عام » ، و « جمعي collective » ، و « نافع utilitarian » ، و « ضروري » ، و وضعي positive . أما السلوك الذاتي ، فهو أمر « فردي individual » ، و « خاص » ، و « شخصي Personal » ، كما أن رجل « للمبادئ » ، و « القيم » ، و « الدين » ، إذا ما طبق مثل هذه الأساليب الشخصية والأخلاقية في ميدان العلاقات السياسية والدولية ، فلسوف يخطئ ، بالطبع ، لأنه يطبق « أساليب خاصة » في ميادين « عامة » ، كما يخطئ « الأمير » ، أيضاً ، إذا ما تمسك بالمبادئ والأخلاقيات والقيم ، في سلوكه السياسي ؛ نظراً لإمكان التنبؤ مقدماً بكل أنماط السلوك السياسي لكل صاحب مبدأ أخلاقي ، أو « مذهب ديني » ، نظراً لتمسكه بالمبدأ ، وتطبيقه للمذهب ؛ بما يتفق ويتطابق مع دعوى قيمة ، ينادى بها « الأمير » ، فيما ينبغي أن يكون عليه أمر « الدهوي » ، أو « المذهب » ، أو « العقيدة dogma » ، وبالتالي يكون لهذا « الأمير » ، الأخلاقي ، أو السياسي للدين ، أنماط سلوكه المروفة مقدماً . لذلك يؤيد « علم السياسة » ، مبدأ « فصل السياسة عن الأخلاق » ، فلا دين السياسة ولا أخلاق ، وهناك تمايز واضح بالقطع بين « عالم الروح » ، و « عالم الشهوات » ، فلنفصل إذن بين أمرين ، يتعلق أولهما بشئون الحياة « الدنيوية » ؛ والثاني يتعلق بشئون الحياة الأخرى .

ونحن لا نجحد « عالم الروح » و « عالم الدين » و « عبادته » ، بما يلهي في شئون الدنيا وروحيات الناس الحسية ؛ فهناك تاليف صالح ، وهي « متغيرة » ، و « هناك » ، « ما يرفع الناس »

وهو أمر نسبي *Relative* ، ومن هنا يجد «رجل السياسة» أن هناك وسائل وغايات ، ومشكلات وحلول ، ولا شك أن القرار السياسي ، إنما يحتاج بالضرورة إلى من يقتنع تماماً ، بما يحيط بالقرار ، فهناك ظروف وخيارات ، يختار منها «الأمير» ، على حد زعم مكيا فلي أنسب الوسائل والحلول والخيارات .

أما «المبادئ الخلقية» و«القيم الدينية» فهي دائمة وأبدية ومطلقة *absolute* ؛ ولذلك تتغير مواقف السياسي الدامية أو «الأمير المحنك» ، طبقاً لتغير «المصلحة الوطنية» أو لسياسة منافع وخيرات الناس . الأمر الذي يذكرنا فوراً بكلمة «نستون تشرشل *Churchill*» المشهورة ، حينما اتهمه هتلر *Hitler* ، بالتعاون مع شيوعية «ستالين *Stalin*» ، فصرخ في البرلمان الإنجليزي وصاح بأعلى صوته : «إنني مستعد أن أعاون مع الشيطان في سبيل مصلحة بريطانيا العظمى» ، فالتفكيرات الدولية ، وظروف الزمان التاريخي ، والمصلحة الوطنية ، كلها شروط ضرورية تتحكم في إصدار القرار السياسي الرشيد .

وبصد مبدأ الفصل بين الدين والدولة ، أشار الرئيس محمد أنور السادات ، وبكلمات قليلة وبليغة ، بقوله في مجلس الشعب المصري ، «لا سياسة في الدين» ، ولا دين في السياسة . فكل منها ينفصل عن الآخر تماماً كما ينفصل «عالم الروح» عن «عالم الشهوات» ، ولسوف نصير إلى هذا المعنى ، في الفصول التالية القادمة وبخاصة عندما نعالج «جداً عبادة البطل» ، وإن ضرورة تأسيس علم الاجتماع ، لأن هذا أمر يفرضه «طابع العصر» و«متغيراته» ، كما يأخذ به منهج العلم الوضعي ، ويؤيده «التحديث الحضاري *Modernization*» .

توماس هوبز *Thomas Hobbes* :

«إذا كان أرسطر ، يذهب إلى أن المجتمع نوع من الظواهر الطبيعية ، وأن الدولة نفسها وتتمو كبات طبيعي ، فليس المجتمع بالظاهرة الطبيعية ، هكذا قال لابس»

« توماس هوبز » ، وإنما تختلف المجتمعات عنه ، باختلاف الزمان والمكان ، حيث تباين النظم السياسية ، والقانون أمر نسبي *Relative* ، ولا يصلح القسود الواحد لكل النظم والدول والشعوب . ومن الحقائق التي توصلنا إليها منذ ألقى سنة ، أن الإنسان حيوان سياسي *Zoon Politikon* ، حيث يكتسب الفرد من المجتمع كل الصفات والخصائص الانسانية ، ونظراً لوجود التباين السياسي بين المجتمعات ، فهناك شرط ضروري وجوهري ، يتوافر في كل تنظيم سياسي ، هو شرط التوازن *Equilibrium* ، وهو شرط يضبط كل أجزاء التنظيم ، ويربطه على نظم التسمية والسلطة ، إستناداً إلى مبادئه وشروط التعاون والتضامن والتوازن .

وهوبز *Hobbes* فيلسوف سياسي من أنصار الحكم المطلق ، فلسفنا اللغويان في كتابه « التين *Leviathan* » ، وهو حيوان بحري هائل ، يمثله هوبز بالدولة وهو رمز الشر ، ولعل السبب في وجود هذا الحيوان الهائل هو ذكاء الانسان وأساليبه المتترة ، فصدت الدولة تهذيبه وتاديبه ، وتربيته واعناده ؛ لأن الانسان شرير بطبعه ، وهو أفتى ونقى ، ويعمر كل شيء من أجل مصلحته ، ولذلك نصحن هوبز بقوله : « تذاب قبل أن تأكلك الذئاب » ، فالانسان ذئب لأخيه الانسان ، وكما يقول ، وبأسلوب نفسي جشع « أنا وحدي وبمضى الطوفان » ، وكل شيء له ولولا ذلك على حساب الحلية أو الجماعة ، تلك هي طبيعة الانسان الفرد . هذا هو منطق هوبز السياسي ؛ ونزعة اللا أخلاقية النفعية ، فهو يحس النزعة يؤمن باكتساب المعارف وصعود المراتب من التجربة ، وشاهد في ذلك شان معظم الحسين في مدارس الفكر الفلسفي .

ولقد يكن هوبز يؤكد الحكم الملكي المطلق ، وأن الملكية هي أكثر أنواع الحكومات استقراراً وانتظاماً ، فكتب هوبز مقالة عن الطبيعة الانسانية

Human Nature ونشرها فردinand تونيز Tonnie ، تحت عنوان وأسس القانون الطبيعي والسياسي: Elements of Law, Natural and Politic ، ويؤكد «المؤرخ الاجتماعي» كلايدون أن مبادئ مذهب «هوبز» الشريرة ، كانت لا تتفق مع تصويرة «آل ستيوارت» في مفهوم الشرعية السياسية ، وأن «هوبز» قد وضع كتاب «التين» تعلقا لتأثير الانجليزى «كرومويل» (١) . ويؤكد «جورج جيلن» (٢) أن هذا غير صحيح ، إلا أن فلسفة «هوبز» لم تكن ذات دعابة طيبة ، لأنه كان مادياً وعلياً ، يدعم السيادة المطلقة ، وبهزته المادية العلية أصبح كما يقول فيه جاليليو : «صنع علماً جديداً من موضوع قديم» واستناداً إلى منطق القوة تقوم الفلسفة السياسية عند «هوبز» ، لأن القوة هي ميل عام لدى البشر ، وهى رغبة لا تنها ولا تتوقف إلا بالموت . ولا يخفى عن «هوبز» العبود والمعاملات ، فالعبد يغير السيف ليست سوى ألفاظ ، إذا لم تمنح القوة القادرة على التمتع . ولا شك أن فلسفة «هوبز» السياسية ، قد صدرت عن استمرار الحروب الأهلية الانجليزية ، تلك الظروف الاجتماعية القاتمة ، التى تحتاج إلى «القوة» و«الضبط» ، حتى يكتب الأمن والاستقرار ، بعد الفوضى والبربرية المنفعة والامانية ، حين كانت حياة الانسان الانجليزى على حافة: «مقبرة» ، «عقيدة» ، «كرينة» ، «جريمة» وقصيرة (٣) .

(١) كرومويل ، هو صاحب الثورة المبرورة ضد الملكية الانجليزية ، وأمام الحكم الجمهورى - إلا أنه أنفق في ارساء قواعد الحكم السياسى لى بناء جمهورية انجليزية ، وهو صاحب القول المشهور «دعنا مواطنين من أجل عشرة مكرهين» ، وما أهدب ذلك ؟ إذا كان المأسر ودهم مسلماً .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢٩ .

(٣) انظر فى هذا الصدد : «توزيع» «توريس» : فى الفكر الكاثولى - «وتجديد كور

بعضهم مثولى» «مفكرات» «هوفمان» «ميريت» ، لبنان ١٩٦٥ .

إلا أننا لا نقود «هوبز» ، ولا نقود الدكتور توريه ولو كانت غشيرة ، لأن الدكتور توريه تودى حتا إلى الطغيان ، وموقف الطاغية مماثل تماما ، « ذلك الشيء يجهت الشجرة ليتناول ما عليها من ثمار ، هكذا قال لنا مونتسكيو Montesquieu » .
في « روح القوانين » . (١)

مونتسكيو Montesquieu وروح القوانين :

هو أول فيلسوف ، ربط بين « مبدأ القانون » ، « مبدأ الطبيعة » ، في فلسفته الاجتماعية والسياسية ، والتي نشرها في « روح القوانين L'esprit des lois » ، فأعلن إمكان تطبيق « القانون الطبيعي » ، في دراسة المجتمعات ، عن طريق نقل التعميمات generalizations من مجال ظواهر الطبيعة إلى مجال ظواهر المجتمع ، فأصبح المجتمع طبقاً لهذه النظرة ، نسقاً من الانساق الطبيعية Natural System وهو ما أكده أيضاً الفيلسوف الاخلاق الانجليزى « دافيد هوم David Hume » ، بمعنى أن القانون الاجتماعي ، إنما يحكم ظواهر المجتمع وأنماط السلوك الانساني تماماً كما يحكم القانون الطبيعي ظواهر الوجود الطبيعي .

فالقانون له وظيفة في المجتمع كقاعدة أو كمييار السلوك البشرى لأن القانون وسيلة من وسائل الضبط Control ، بل هو أحد ميكانزمات الضبط الاجتماعي يقف إلى جانب الدين religion ، والالزام السياسي والاخلاق ، وسائر الجزاءات

(١) سبين جورج ، تطور الفكر السياسي ، الكتاب الثالث ، ترجمة الدكتور واحة الخراوى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ من ٦٢٠ .

(٢) هو مفكر سياسي ، ولد عام ١٦٨٩ في أسرة فرنسية نبيلة ، ودرس القانون في « بورفو » ، حتى أصبح مستشاراً ثم رئيساً لبرلمان بورفو ، بينما كان في الثانية والثلاثين من عمره ، وكان يميل إلى العزلة والبيت ، فهاجم منه كميشتوف ومالك ، وكفكر سبين ، واشتهر أيضاً بين الناس ، ككتاب وأديب .

الاجتماعية *social sanctions* التي تفرض على كل من يخدش القيم الثابتة والعامة ولاشك أن القيم نفسها ، ما هي إلا إحدى من جوارب السلوك البشري . .
 والبيئة الطبيعية رد فعلها الواضح وأثرها في تشكيل وصياغة ، نوع القوانين السائدة في المجتمع ، لأن ظروف البيئة الصحراوية أو الزراعية أو الجبلية ، إنما تفرض نفسها في تحديد الروح العامة *l'esprit général* للامة ، وبالتالي أثرها على تفكير المشرع في تطبيق «روح القوانين» ، حين تصدر نصوص القانون وتنبعث من الروح العامة للامة وأسلوب حياتها الذي تقرضه ظروف البيئة الطبيعية ، وأنماط الثقافة السائدة .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد أعلن مونتسكيو ، مبدأ النسبية *Relativity* في دراسة القوانين الاجتماعية ؛ وتمايزها طبقا لتنوع البيئات والثقافات ، وتقسام مونتسكيو أيضا ؛ حين ساعد على وضع البذور الوضعية *Positivism* في الفكر السياسي ، فحول الاذعان على حد تعبيره هو نفسه ، نحو التفكير ، فيما هو كائن ، وأدار ظهره لما ينبغي أن يكون ، طبقا لما تعمله عبارته التي أطلقها في كتابه «روح القوانين»^(١) ، وهي العبارة القائلة : *On dit ce qui est et non pas ce que doit être.*

ولما جانب «النسبية» ، والوضعية ، أكد مونتسكيو في فلسفته السياسية ، على مبدأ قانوني ، وأصل ديموقراطي ، اشتهر به وحده ، هو مبدأ «فصل السلطات» .

(١) كتب «مونتسكيو» كتاب «روح القوانين» الذي ذاع وانتشر حتى أصبح طبعة مرات تزيد على المئتين ولقد مرر مونتسكيو في كتابه هذا لقوانين الطبيعة والقوانين الوضعية ، كما أشار إلى الحكومات والنظم الديمقراطية والملكوتية والجمهورية ولما كان مونتسكيو من أملاء «الظلم والاستبداد» ، حالج في موضوعاته مسألة «الملك» كما فصل تماما بين سائر السلطات والمؤسسات السياسية والمعتنوية .

الدمتورية ، ؛ وهى السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ، حتى تحقق العدالة السياسية والاجتماعية ، بالفصل بين قوى forces ، أو سلطات ، لكي لا تستبد أى منها ، فستولى على السلطة برمتها ، ولقد اعترف مونتسكيو ، أن الصيغة التى وضعها لمبدأ فصل السلطات قد أخذنا عن روح الدستور الانجليزى ، عندما زاد مونتسكيو انجلترا .

وحطم مبدأ فصل السلطات ، طغيان السلطة المطلقة ، وهو مبدأ قديمى ووضعى ، يستكر كل للبائى الاوتوقراطية والنظم الاقطاعية المستبدة ، ولذلك حطم مونتسكيو كل المبادئ الرجعية المستندة إلى الملكية المقدسة divine Kingship التى تعتمد فى حكمها وسلطانها على الحق الالهى للملك . وبصدد الفصل بين قوى السلطات ، يقول مونتسكيو إن السلطة إنما تمنع سلطة أخرى من أن تستبد ، ولا توقف القوة سوى القوة Le Pouvoir arrete le Pouvoir .

ومع مبدأ فصل السلطات ، انتهت التصورية الاقطاعية ، لثقافة العصور الوسطى ، لى يبدأ عصر الاستارة enlightenment ، حيث مهد مونتسكيو لحركة التحرير الكبرى بفضل كتابات « فولتير » ، « جان جاك روسو » ، « رولسون » ، كما مهت جهودات مونتسكيو الرائدة لظهور الفلسفة البيروقراطية التى يمثلها توجو Turgot ، وصدور كتابات كوندورسيه Condorcet وأثرها فى دفع دينامية الفكر فى فلسفات التاريخ ، ولاشك أن مونتسكيو قد ساهم أيضاً فى تشكيل الفكر الوضعى عند « كونت » ، وصدور دروسه المشهورة فى الفلسفة

• Cours de Philosophie Positive الوضعية

الفصل الثامن

• قواعد المزج في عالم الاجتماع السياسي

- تمهيد
- التفكير السياسي والفلسفة الوضعية
- السياسة الوضعية
- الديناميكا الاجتماعية
- مونتسكيو والقانون الاول للاستاتيكا
- **First law of social statics** الاجتماعية
- التوافق والتضامن والنظام
- الاسرة والمدة والجنس
- علم السياسة والمنهج الفيزيولوجي

تمهيد :

تتطر مبادئ الفلسفة الوضعية *Philosophie Positive* ، عند راسخها .
 وأوجت كونت *Auguste Comte* ، إلى الظواهر السياسية على أنها لا أكثر
 وأشد الظواهر الاجتماعية تقدا وتكريما ، حيث أن الظاهرة السياسية على الضموم ،
 هي أكثر تقدا من الظاهرة الدينية أو الخلقية أو حتى التشريعية . ولما كان علم
 الاجتماع عند كونت هو أعقد العلوم ، استنادا إلى تطور نشأة عناصره وفلسفات
 العلوم ؛ من الرياضة إلى الفلك إلى الطبيعة ، ثم الكيمياء والفيزياء ، ثم أخيرا
 علم الاجتماع . إلا أن علم السياسة ، هو علم حديث نسبيا ، وهو أحدث من علم
 الاجتماع ، ومن حيث نشأته العلمية ؛ صدر علم السياسة منذ قرن أو يزيد الزمان ،
 وبخاصة بعد صدور الاتجاهات العلمية والنزعات الوضعية (1) .

التفكير العلمي والفلسفة الوضعية :

وإذا ما قلنا منذ البداية ، إن علم السياسة ، هو أعقد العلوم ، فما ذلك ،
 إلا لأن العلم السياسي ، إنما يعتمد مع ميادين أخرى غير سياسية ، فالظاهرة
 السياسية ، لا يمكن دراستها إلا من خلال هذا التركيب الاجتماعي المائل للموقف
 من الظواهر الدينية والأخلاقية والاقتصادية . حيث يعتمد على السياسة ؛ على
 علوم القانون والدين والاقتصاد ، كما يستند أيضا إلى علوم النفس والاجتماع
 حين يعتمد التنظيم السياسي ؛ على أسس أخلاقية وسيكولوجية ، كما يقوم البناء
 السياسي على أصول وقواعد اقتصادية وسوسيلولوجية .

ويتفق مؤرخو العلم السياسي ، على أن اليونان هم آباءه ورواده الأوائل .
 فحضارة اليونان ، هي مبعث الفكر السياسي . إذ أنها لم الحضارات الأوروبية .

(1) Comte, Auguste, Principes de Philosophie Positive,
 Paris - 1868.

كما أننا نستطيع أن نقول في عبارة يسيرة : نحن أبناء اليونان ،... فلقد صدرت
شئى الانظار والفكر من فلسفات أصدرتها حضارة اليونان ، إذ أنما إبتعاضات
الشرق الأدنى القديم . فلقد أشار ديمقراط الى ضرورة إقامة الدولة على شروط
جهورية تؤسس الحياة الأخلاقية الفاضلة .

ويعتبر أرسطو هو الفيلسوف السياسى أو الملم الأول ، الذى احال حكم
السياسة من مستوى المحاورة ، كي يرتقى به الى مستوى المحاكمة ، وانتقل
بالفكر السياسى ، من المنهج القياسى الافلاطونى ، الى استخدام المنهج الاستقراءى
وتطبيقه بصدد التفكير العلمى فى مجال التنظيم السياسى . ولذلك تعتبر الكتابات
الارسطية السياسية هى أولى الكتابات العلمية .

فلقد تساءلت فلاسفة اليونان عن مفهوم العدالة ، والمساواة ، وعن خصائص
بلدية الفاضلة ، وملاخ القانون الحق ، والشروط التى يجب أن تتوافر فى الحاكم
الصالح والامسان الحر السعيد .

وتلك هى المسائل الجهورية التى تدور رحاها حول محور الفكر الفلسفى
السياسى اليونانى ، وهى قضايا علمية ، تعبر عن نزعة الفكر الانسانى فى تحقيق
أسلم النظم السياسية ، وفى تحديد أنماط السلوك السياسى الحق ، حيث يتطلع الفكر
السياسى أصلاً الى العدالة والحرية والمساواة والسعادة وتحقيق السلام على الأرض .

وتلك كانت محاولة فلاسفة السياسة الاوائل ، ثم تطورت النظرية السياسية ،
طوال المصور التى مرت بها فى القرون الوسطى . وبخاصة عند سانت أوغستين
Saint Augustin ، الذى حاول أن يحقق مدينة الله ، على الأرض ، إلا أنها
محاولة طوباوية الأصل ، وتحاول تحقيق ماينبئ أن يكونه .

السياسة الوضعية Positive Politique :

ثم صدرت السياسة الوضعية ، لكن تؤكد الفئرية ، وترفض الانانية ،

بالعيش للآخرين *Vivre Pour l'autrui* (١) كما أن دراسة الأمر الواقع ، هي الدراسة الحققة . ولا يمكن أن نستعصم بالأمر الواجب ، بدلا من مجرد الاكتفاء بالأمر الواقع ، فاهتمت الوضعية السياسية بما يقع ويحدث ، ولم تلتفت إلى « ما يجب » ، وبذلك يتخلل د علم الاجتماع السياسي ، من فكرة « الضمير الفردي » كمصدر تستند إليه الأخلاق أو كمركز الحياة الخلقية *Le Foyer d'une vie morale* (٢) ؛ حيث تتركز في المجتمع السياسي كل السلطة الخلقية ، كما تصدر عن « الضمير الجماعي » ، سائر المثل الأخلاقية الجمية ، تلك التي تحقق « ملكة الله » على الأرض .

مصادر السياسة الوضعية ومبادئها :

ولقد حاول « كورت » ، منذ بداية كتابه الضخم « دروس في الفلسفة الوضعية *Cours de Philosophie Positive* ، أن يعلم الفلسفة ، وأن يفلسف العلم ، مما جعل الفلسفة الوضعية التي أعلنها كورت « فلسفة متعالة » ، ولذلك سميت هذه النزعة الاجتماعية الأولى في تحويل مسائل الفلسفة ، وتفسيرها من زاوية « العلم » ، باسم « السايترزم *Scientism* » ، إذ أن كورت قد انتزع منزعا علميا حين طبق مناهج العلم الوضعي عن ظواهر المجتمع ، فأصبح « متعالما » في موقفه ، لأنه طبق منهج العلم في غير ميدانه وموضوعه . كما أن كورت وسائر الوضعيين ، إنما حاولون إخضاع ظواهر الفكر العليا ، ودواستها تحت عاكس التجارب ، والتجارب هنا كما يرمع أصحاب النزعة الوضعية في علم الاجتماع ، هي « التجارب الاجتماعية » التي يحملها تيار التاريخ .

(1) Comte, Auguste., *Pensées et Préceptes*, recueillies Par Georges Dehermas, Paris 1924. p. 223.

(2) Durkheim, Emile., *Sociologie et Philosophie*, press univers. de France Paris. 1963, p. 127.

وبما لا شك أن الصلة الوثيقة بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، والفلسفة هي الدراسة المنظمة للعلاقة الإنسانية ، ويبحث علم الاجتماع عن « للفرقة الكلية » ، للالسان من خلال ظروفه الاجتماعية ومظاهرها الخاصة والعامة .

وليس من شك أيضاً ، في أن الغرض الذي من أجله ظهر علم الاجتماع وصدر ، إنما هو دراسة الإنسان ونظمه ، بمعنى أن « علته وجوده » *Raison d'être* وصدوره ؛ هي بحث مضامين تلك القضية الأرسطية القائلة : إن الإنسان حيوان اجتماعي ، بمعنى أن الإنسان لم يكن كاهو طبعاً من الإنسانية ، إلا بفضل مشاركته في المجتمع السياسي ومساهمته في تبار الحياة الاجتماعية ، أو على حد تعبير « إميل دوركايم » في كتابه الضخم « الصور الأولية للحياة الدينية » ، حين يقول في عبارة مشهورة : « إننا نتكلم لغة لم نصلحها ونستخدم آلات وأدوات لم نختراعها ، ونحن ونفرض حقوقاً لم نخلقها . إنه هو المجتمع الذي ندين له ، يختلف خبرات الحضارة . تلك الخبرات التي منحت للالسان سماته العامة التي تميزه عن سائر الكائنات والمخلوقات . إذ أن الإنسان إنما هو إنسان ، من حيث فقط أنه كائن متحضر » (١) .

من هذه العبارة الدوركايمة الرائعة ؛ يتضح لنا تلك الصلة الوثيقة التي تربط الإنسان بالمجتمع ، بل والتي تضي على الإنسان إنسانيته ، إذ أننا لو جردنا الإنسان من لغته ودينه ومستقبله وأزيائه ، فلسوف لا نراه إنساناً ، وإنما تنصوره وحشاً من وحوش الغاب ، حيث أن المجتمع هو العلة الأولية في تحويل الإنسان من حيث هو « كائن بيولوجي » ، أو كائن عضوي حيواني ، إلى الإنسان ككائن مثقف أو ككائن متدين ومتكلم ومتحضر . فالمجتمع هو علة الثقافة .

(1) Durkheim, Emile., *Les Formes Élémentaires de la vie Religieuse*. Félix Alcan. Paris. 1912.

ومصدر الدين ، ومبسط اللغة ومبسط المفردة .

وتحاول مبادئ الفلسفة الوضعية أن تدرس المجتمع في حالته الاستاتيكية الثابتة ، وأن تكتشف قوانين تلك الحالة الاستقرائية ، عن طريق فهم المجتمع أو دراسته كمجموعة من « الانساق ، أو « الظواهرات ، أو « العلاقات ، تلك التي تصف جميعا بالثبات والديمومة والبقاء ، ولا يفوتنا في الوقت عينه ، أن نتوصل إلى تلك القوانين الديناميكية بدراسة المجتمع في حالته التغيرية ، وما يطرأ على بنائه من سمات تطورية وظواهر قديمة (١) .

وبكلمات أكثر دقة نقول إننا فيما يتعلق بالاستاتيكا الاجتماعية ، إنما نلتفت إلى دراسة « البناء الاجتماعي Social Structure » ، وكل ما يتصل به من جوانب « فيزيقية ، أو « ظواهر إستاتيكية » ، يمكن أن ننظر إليها على أنها « وظائف ثابتة » ، وشروط ضرورية لوجود المجتمع .

الديناميكا الاجتماعية :

ولكننا فيما يتعلق بدراسة الديناميكا الاجتماعية ، إنما لا ندرس البناء الاستاتيكي الثابت للمجتمع ، وإنما نلتفت فقط إلى دراسة ما يسمى في الكتابات السوسيولوجية « بالتغير الاجتماعي Social Change » ، وكل ما يتصل بهذا التغير ، من جوانب « قديمة ، أو « ظواهر تطورية » ، بفضلها نكتشف وتوصل إلى تلك القوانين الديناميكية التي تحدد لنا حتمية التطور ، والتي ترسم الشروط الضرورية لتغير المجتمع ، وتلك هي الغاية التي يهدف إليها علم الاجتماع الديناميكي ، على اعتبار أن علم الاجتماع الوضعي عند كورت ، لا يقف عند حد الوصف الاستاتيكي ، وإنما يتطلب إلى الأمام ، بحركة « قديمة ، بقصد

(1) Tinschhoff, Nicholas., *Sociological Theory, Its Nature and Growth*, Random, New York, 1955. pp- 22-26.

تغير المجتمع . وإذا ما استغرنا لغة «كارل ماركس» ؛ فنقول ؛ ليس المهم أن نقف عند حد قيم المجتمع ؛ وإنما المهم هو تغييره أو تطويره ؛ ومن هنا يفتح لعلم الاجتماع الرضى أهدافه القومية ومبادئه التطورية التي تنادى بصيحة الحرب على كل ما هو يال عتيق ؛ من أجل تطوير الإنسان وتغيير المجتمع نحو حياة أفضل . إلا أن «ماركس» ، يتكلم عن التغيير الدموي بالطفرة ؛ أما «كوت» ، فيتكلم عن التغيير الديناميكي كعملية نمو مستمرة ودائمة .

وما يعنيها من كل ذلك ؛ هو أن «أوجيست كوت» هو الرائد الكلاسيكي الأول الذي تالج مشكلات النظام ، و«التضامن» *Solidarité* ، في ضوء نظريته في علم الاجتماع الاستاتيكي استناداً إلى دراساته المتعمقة في علوم البيولوجيا والتشريح . كما أشار إلى مسائل «التطور» *Evolution* ، و«التقدم في ضوء نظريته في علم الاجتماع الديناميكي ؛ استناداً إلى انشغاله الدائب بحركة التاريخ التطورية ، وإيمانه العميق بتلك القوانين الصارمة التي يضما منطلق التاريخ ، وممكننا جمع أوجيست كوت ؛ فيما يتعلق بدراساته الديناميكية والاستاتيكية ، بين موقف عالم الاجتماع الرضى من جهة ، وموقف فيلسوف من فلاسفة التاريخ من جهة أخرى .

إلا أننا إذا ما عدنا قليلاً إلى الوراء ؛ حتى نخضر طويلاً أهاق الفكر السوسيولوجي ، كي نعرض على تلك الأصول الأولية التي عنها صدرت كتابات كوت نفسه في ميدان الاستاتيكا والديناميكا . فنجد منتصف القرن الثامن عشر وضع الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي «مونتسكيو» *Montesquieu* ، وضع لنا ما نسميه «بنظرية النسق الاجتماعي الكلي» ؛ حين يفسر «مونتسكيو» معالم الحياة الاجتماعية ، وما يدور فيها من نظم تتعلق بالسياسة والاقتصاد ، والدين ، تفسيراً وطبيعياً ، ويردها جميعاً إلى ما يسميه «مونتسكيو» وما اشتهر عنه

باسم « الروح العامة L'esprit Général ، تلك الروح التي تنبع في المجتمع ؛
والتي تربط بين شتى العلاقات الاجتماعية (١) .

مونتسكيو والقانون الأول للاستاتيكا الاجتماعية :

ويميز « مونتسكيو » بين طبيعة المجتمع nature of society ، من جهة
وتبين « مبدأ المجتمع principle of society ، من جهة أخرى ؛ ويعني
مونتسكيو بطبيعة المجتمع ، أو يقصد بهذه الطبيعة الخاصة بالمجتمع ، بأنها هي
« ما يجعل المجتمع يبدو على ما هو عليه » . أما عن مبدأ المجتمع ، فيعبر عنه
مونتسكيو بأنه « ما يجعل ذلك المجتمع يعمل » أي أن طبيعته إنما هي « بتأوه
الاجتماعي » ؛ أما مبدأ المجتمع ؛ فأنما يعبر عن مجموع القيم Values التي تتفاعل
وتتوكل في هذا البناء .

ويذهب « رادكليف براون Radcliffe-Brown » ، إلى أن نظرية النسق
الاجتماعي الكلي ؛ عند « مونتسكيو » هي التي وضعت الركيزة الأساسية التي
يرتكز إليها « علم الاجتماع المقارن Comparative Sociology » كما يرى
رادكليف براون أيضاً ، أن نظرية مونتسكيو ، بالإضافة إلى ذلك . قد وضعت
الأسس النظرية لما يسميه « أوجيست كوك » ، بالقانون الأول للاستاتيكا
الاجتماعية the First Law of Social Statics ، ويتعلق هذا القانون
الاستاتيكي ، بتلك الارتباطات الداخلية للنظم الاجتماعية في علاقاتها المتبادلة ،
تلك التي تعدد ما يسميه رادكليف براون ؛ بشكل أو هيئة أو صورة الحياة
الاجتماعية Form of Social Life ، أو ما يسميه كوك أيضاً « بعلاقات

(1) Radcliffe-Brown. A.R., Structure and Function in
Primitive Society, Cohen and West, London 1956. P. 6.

التضامن (Solidarity). (١) .

تلك العلاقات التي ترابط تراجلاً وظيفياً ، فينصب كونت إلى أن الواقع الاجتماعية ، إنما تنقسم إلى مجموعات سياسية واقتصادية ودينية وخلقية ، وقيم فيما بينها علاقات وظيفية Functional Relations معينة ، وأن أي تغير يطرأ على إحدى هذه المجموعات ، إنما يسبب تغيراً مماثلاً في المجموعات الأخرى ، أي أن هناك نوعاً من «التناظر أو القسائد» والاعتدال المتبادل بين مجموعات الواقع الاجتماعية .

التوافق والتضامن والنظام :

ولاشك أن النظام الاستاتيكي الكلي للمجتمع ، إنما يرجع من وجهة نظر كونت ، إلى تلك النظم التي تفرضها القوانين الطبيعية ، فال توافق Consensus هو الخاصة الأساسية ، والرابطة الضرورية لكل عناصر ونظم المجتمع . والتوافق هو أساس «التضامن Solidarité» . على اعتبار أن التضامن الاجتماعي ، هو الركيزة التي يرتكز إليها «تقسيم العمل الاجتماعي» . ومن ثم فإن المجتمع يماثل الكائن العضوي إلى حد كبير ، من حيث البناء والوظيفة ، فهناك توافقاً واتساقاً في البناء ، كما يوجد تضامناً ، في الوظائف ، تعاوناً لمصلحة البناء العضوي ، الذي هو البناء الكلي .

وفي ضوء هذا المعنى ، يستخدم كونت فكرة المماثلة analogy العضوية ، على الرغم من أنه ينكر بشدة النظر إلى المجتمع على أنه كائن بيولوجي عضوي إذ أن هناك فارقاً أساسياً بين المجتمع والكائن العضوي ، ذلك الذي يحفظ هويته دون أن يتغير بناؤه العضوي ، فالخنزير لا يمكن أن يستحيل إلى فرس بحر بحال ، بينما نجد أن المجتمع قادر على التغير والتطور طبقاً لاستخدام مناهج العلوم

الطبيعية ، وفقاً لمبادئه علم الاجتماع الوضعي .

ويعتبر مبدأ تقسيم العمل الاجتماعي من للبادئ الجوهرية لفلسفة الوضعية (١) .
ويعتبر ذلك المبدأ هو السبب الرئيسي لنمو وتقدم المجتمع ، وهو علة التطور
التاريخي وأصل التغيير الاجتماعي . ولذلك فإنه كونه الأذهان نحو ضرورة دراسة
« التضامن » ، حين عبر عن هذا الاتجاه بقوله الأخلاقية للشجيرة « العيش للآخرين » .
ومن ثم فإن التوافق ، و « التضامن » ، وأفكارنا عن « الوظيفة » ، والبناء الاجتماعي ،
إنما تعتبر جميعها من الأجزاء الجوهرية التي يتشغل بها علم الاجتماع الاستاتيكي .

والفرد والأسرة والرابطة الاجتماعية ، هي عناصر متجانسة Homogeneous
في خلايا وأنسجة البناء الاجتماعي . حيث نلاحظ بينها مدى الدوام والرتابة في
الوظائف والمناشط الاجتماعية ، وهناك روابط اجتماعية ، جوهرية تربط الفرد
بالأسرة ، ولا يمكن دراسة كل منها منعزلاً عن الآخر .

والأسرة هي الخلية الأولى في البناء الاستاتيكي للمجتمع ، ولها درجة معينة
من الوحدة ، كما أن لها شخصية أخلاقية تجعلها تختلف من حيث السمات وللأصاح
من سائر الوحدات الاجتماعية الأخرى . فتقوم الأسرة على التسامح والتعاطف
Sympathy ، كما تنشأ عن الروابط الاجتماعية بين سائر الأسر مانسبه بالطلبات
الاجتماعية ، على اعتبار أن الاشكال المورفولوجية للأسرة ؛ إنما تتضمن وتغير
وتتباين ، من الصورة القروية إلى الصورة القبلية . ومن ثم تغير البناءات الاسرية
من القرية إلى القبيلة ومن القبيلة إلى المدينة ، وكلها أشكال مورفولوجية لبناءات
استاتيكية تستند إلى التوافق والتضامن .

(1) Comte, Auguste, *Principes de Philosophie Positive*, Paris

الاسرة والدولة والجنس :

يدرس علم الاجتماع الديناميكي ظواهر التغير والتطور evolution والتقدم progress ، فالديناميكا الاجتماعية عند كورت كوفت يمكن اعتبارها دراسة لتاريخ دون النظر إلى أبعاده الأبطالية ، إذ أن مهمة علم الاجتماع الديناميكي هي اكتشاف قوانين التغير الحشاري للمجتمع الانساني .

والتطور الاجتماعي هو دوام التقدم كبدأ يسود العالم الطبيعي ، مبتدأً بعام النبات ، حين تستمر سلسلة التطور الاجتماعي ، وتتصل بذلك الجامع الضوئية الكبرى ، وتطورت الطبيعة الانسانية إستناداً إلى قانون التطور الاجتماعي القائم على مبدأ يولوجي ، وهو مبدأ المدم والبناء . . .

حيث ردد كورت — فيما يتعلق بفكرة التطور الاجتماعي — بعض الأفكار الرئيسية التي أعلنها « سان سيمون » ، ومنها أن المبدأ المستحكم ظهر بوضوح بين الجديد والقديم ، وبين عوامل المدم والبناء ؛ وعناصر التدهور والتفكك ؛ فهناك حفظ وتغير ، وصيانة وتدهور .

وهناك بعض المراحل التي أكدها كورت ، وتعبير لها عن تطور الذكاء ، و « الحياة المادية » كما تظهر تغير أشكال الوحدات الاجتماعية ، وتعد نماذج للنظم الاجتماعية ، فن ناحية الذكاء الانساني ، فقد تطور أصلاً من اللاهوت إلى الميتافيزيقا إلى الحال الوحي .

ومن حيث تطور الحياة المادية ، فقد ظهرت الحالة الحربية العسكرية ثم الحالة القانونية الشرعية Legal ؛ وأخيراً الحالة الصناعية industrial ، ولقد تنبأت أيضاً أشكال الروابط والمواطف الانسانية ، من حالة التعلق attachment ، إلى حالة الاحترام والتوقير Vénération ، إلى حبة الانسانية وفصل الخير . أما عن أشكال الوحدات الاجتماعية ، فقد تطورت من الاسرة

Pamille ، إلى الدولة L'etat إلى الجنس Race . أما من ناحية قدم أشكال
النظم الاجتماعية ، فقد تحولت من العائلية domestique إلى الحالة الجمعية
collective ، إلى الحالة العالمية univrsel (١) .

ولكن ماذا يدرس علم الاجتماع السياسى ؟

يُدرس علم الاجتماع السياسى ، ظواهر المجتمع التى تتصل بالقيادة والسلطة
والسيادة ، ويرصد طبيعة الأناسى الاقتصادية والثقافية ويتابع ، التغيرات
السياسية ، ويحدد فعلها بين سائر النظم الاجتماعية السائدة ، فى البناء الاجتماعى
Social Structure ، ، ويسالج مشكلات ، التنمية ، و ، والتخلف ،
Underdevelopment ، والتخطيط Planning والتحديث Modernization
وكلها عنصريا العصر التى يثيرها علم الاجتماع السياسى ، مع تقديم كافة الحلول
الناجمة عن مشكلات الانسان وما يعانيه من ظروف وضعية قاهرة .

والظاهرة السياسية ، هى اعتد الظواهر الاجتماعية ، لأن مامو سياسى ،
لا ينفصل بالقطع عن الظروف الزمنية ، والواقع الاقتصادى ، ومطالب الوضع
الحالى ، ومتغيرات العصر السياسية ، وأصول البيئة الطبيعية ، والأوضاع الاقتصادية ،
والنشرية القانونى والدينى ، بالإضافة الى سيادة المكانة Rank والعرف ، كما هو
صريح فى المجتمعات القروية فى سائر الثقافات المختلفة .

صعوبات النهج فى علم الاجتماع السياسى :

إن الصعوبات التى يواجهها علم الاجتماع السياسى ليست أنظر بكثير من
من تلك التى يواجهها علم الاجتماع نفسه ، بل وسائر الانسانيات Humanities

(1) Comte, Auguste, Discours sur L'esprit Positif, société,
Positiviste-Internationale, Paris. 1923

التي تصل بفروع علم الاجتماع والسياسة ، فهناك نظريات سوسيولوجية وسياسية وليست هناك نظرية لعلم الاجتماع أو لعلم السياسة .

وعلى الرغم من فيض التحليلات والتجارب والتفسير ، فما زال الحقل يكرأ ، وما زال علم السياسة يجهو غروف أكثر وضعية وأغزر واقعية .
ومن هنا يبدأ علم السياسة استناداً إلى قاعدة أمبيرية وعلمية صلبة ، نظراً لوجود الأبعاد التاريخية *historical dimensions* للكلمة في الظواهر السياسية .

وقد عبط أول درس في علم السياسة ، مع مبادئه ، روح القوانين ، لمونتسكيو Montesquieu حين أعلن على العكس من كل الفلاسفة السياسيين من قبله ضرورة الإشارة إلى ما هو كائن ، وليس التمسك بأحلام ما ينبغي أن يكون ، بمعنى أن علم السياسة ، هو الذي يهبط بالفلسفة السياسية من السماء إلى الأرض فأذا بها حية تسمى ، حين تنبض الفلسفة بالحياة ، وتنب في أوصال الواقع الموضوعي .
وبصدد موضوعية علم السياسة كعلم وضعي ، نستطيع أن نقول إن علم السياسة إنه ليس هو العلم الوحيد الذي يقاس من « حاجس الموضوعية » Objectivity ، على حد تعبير « جان مينو » (١) . على إعتبار أن « علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge » إنما يبين لنا أن من البعث الإيمان سلفاً بمجاد الباحث ، فالباحث إنسان ، له طبقة ومجتمعة ومثله العليا ومعتقداته التي قد تتدخل كلها أو بعضها في أحكامه وإنقائه وقائه السياسية .

ولقد إمتاز علماء السياسة الأمر بئذ جهودهم البحث عن الوقائع Facts إلى حد الإيمان بمنهج متطرف يعتمد على الوقائع Hyper factuality أو حتى

(١) جان مينو : مفضل إلى علم السياسة ، ترجمة جورج بونسي منشورات هوخات
الطبعة الأولى بيروت نيسان (أبريل) ١٩٦٢ .

عن نزع منهجية مصغرة Miniaturisme وهناك خطأ إلتحق إليه كل علماء السياسة؛ وهو أمر ممرض للانتقاد، وهو الحرص على ألا تتخطى الموضوعية العلمية حدودها المحتمة، والمطالبة بأن يكون العالم حق الأدلاء بأحكام قيمة أو تقييمية Value Judgements (١) فلا يمكن أن يتحول علم السياسة إلى علم للأخلاق، فلا أخلاق السياسة ولا دين.

السلوك السياسى :

يقول معاوية ابن أبى سفيان ، وهو من دعاة الساسة الاسلاميين ، فى عبارة مشهورة تعبر أصدق تعبیر عن طبيعة السلوك السياسى حين صرح بقوله : « لو كان بينى وبين الناس شجرة ما إقتطعت ، لو شدوها أرغبتها ، ولو أرغوها شدتها » . بمعنى أن السلوك السياسى له قواعده وقواعده مجالته وشروطه ، وعلاماته ومتغيراته . ويدور السلوك السياسى حول فكرة ، أو قيمة ، أو مثل أصل ، وهناك شروط ضرورية ينبغى أن تتوافر فى السلوك السياسى ، منها أن كل سلوك سياسى ، إنما يتضمن فى ذاته طريقة إقتناع ، وأسلوب قيادة وحكم ، لأن السياسة كفن هى وفن اجتذاب الناس لكى يتعاملوا معنا » .

وهناك أنماط متمايزة للسلوك السياسى كالمط القيادى فى الأنساق القترية Kinship systems ، مثل سلوك رب الأسرة ، أو « رأس العشيرة » ، أو « شيخ القبيلة » ، فى المجتمعات التقليدية أو المتخلفة ، وفى بيئات بدائية « بدوية » أو صحراوية .

حين يظهر « رئيس القبيلة » أو « حكمة القرية » أو « محافظ المدينة » أو حتى

(١) - Durkheim Emile, Sociology and Philosophy, trans. P.F. Rossock, London, 1953.

« ديان السفينة »^(١)، ويمارس كل هؤلاء ألوان من الحكم والسلطة السياسية ؛ ويسلكون إزاء الناس أنماطاً من السلوك القيادي ، ولا شك أن السلوك السياسي ، هو سلوك قيادي وجماعي من الدرجة الأولى ، لأن السياسي هو الذي يتعامل مع الآخرين ، ويحل مشكلاتهم ، ويعمل على خدمتهم ، ويماني آلامهم و « سيد القوم خادمهم » ، هل ما يقول الحديث الشريف ، ولقد صدق رسول الله في هذه الكلمات السياسية الرائعة .

وينضج السلوك السياسي لقيم وميكانيزمات الضبط ، لأنه « سلوك فوقاني » ينظم سلوك الانسان الفرد ؛ حين ينتمى إلى « حزب » أو « تجمع مهني » أو « حرفي » أو ينسب إلى « طبقة » أو « نادي » أو « جماعة دينية » .

ويأخذ السلوك السياسي أشكالاً اجتماعية مختلفة ، فقد يكون سلوكاً دبلوماسياً على مستوى الدولة ، أو سلوكاً إدارياً أو تنظيمياً ، تنظمه وتفرعه الحكومة كجهاز بيروقراطي ، بحسب لادارة شؤون الدولة ، وقد يتحقق السلوك السياسي ؛ في قالب إقتصادي ، حين تخطط الدولة برنامجاً اجتماعياً جديداً للاوعية الضريبية ، أو حين تتجه نحو تكوين « أوعية إدخارية » من أجل زيادة الاستثمار .

ويرصد خبراء السياسة ، ظواهر السلوك السياسي بتسجيل ما يحدث داخل وعلاجه حدود الدول ، مع وصف ما يجري خلال الأجهزة والمؤسسات السياسية بمعنى أن ظواهر السلوك السياسي ، هي ظواهر داخلية *internal* وأخرى خارجية *external* .

ويتحقق السلوك السياسي ، في السلوك الانتخابي ، والتمثيل البرلماني النسبي ويسجل الباحث في علم السياسة ، سائر الأحداث والوقائع *Facts* السياسية الكبرى .

(١) ممر ديان السفينة على راحة أمواته ، وبذلك مهم سلوكاً خاصاً ، وبسط أنواء كالجذع و « باراد » ، فهو ربح الاسرة ، و « ليه تيجي البيون » ، وعلى « هوم للشيوعية » فهذا « جود السلوك القيادي » الذي يمانى مفككت السكل ويحاول حلها .

فلا شك أن عملية تأميم الشركة أو مؤسسة إنما هي عملية أو حدث سياسي، من الدرجة الأولى. فلقد كانت عملية تأميم شركة قناة السويس، بمثابة ضربة سياسية من طراز ذكي حين إمتازت بالحركة الفاعلية والسرعة، وهي كحركة نجدتها قد تمت في توقيت مناسب بما جعلها حركة ناجحة. وهذه هي سمات كل قرار سياسي رشيد، وقد يمنح السلوك السياسي إلى العنف والاستبداد؛ فهناك النقاشيست وغيرهم من النازقين والاستبداديين Tough minded، وهناك الطابع السياسي المحافظ، أو الديمقراطي المعتدل Tender minded ولا شك أن عبارة « أنا الدولة L'état C'est moi » التي أطلقها لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيمة، إنما تعبر لنا في بساطة عن سلوك السياسي الأوتوقراطي للتبذ، وكيف كان يسوس أمور ملته فرنسا، فقد كان يتخذ القرار السياسي بنفسه؛ دون الرجوع إلى استشارة مستشار أو، مجلس لشورى؛ فهو وحده صاحب الأمر والنهي.

قواعد المنهج في علم الاجتماع السياسي:

تتمثل أول خطوة من خطوات المنهج في علم الاجتماع السياسي، في جمع المعلومات données ولا شك أن اختيار المعلومات، إنما يتأثر بوجهة نظر الباحث وبمنوع موضوعه، ونمط الفكر، كما يتأثر بمنهج الباحث وأسلوبه المنطقي، بنظرته العامة للوجود.

وتسهم عملية جمع المعلومات بطريقة اختيارها في التوصل إلى الحقيقة، وذلك بفضل الملاحظة العلمية الدقيقة، ومن هنا تكتمل العناصر السياسية، طبقاً للمنهج العلمي وتطبيق القواعد الأميريكية في ميدان علم الاجتماع السياسي (١).

وتتحقق الموضوعية في علم الاجتماع السياسي، إلتقائاً إلى توافر شروط، منها الاختبار الأميريقي والاصل العقلاني، أي بالرجوع إلى الاستقراء والتقياس

(١) الدكتور محمد جوي، المنهج في علم السياسة، مطبوعات كلية التجارة بالاسكندرية ١٩٧٩.

والإختبار والاستنباط، ويمكننا في ضوء عمليات الاستنباط *induction* والاستقراء *deduction*، أن نحاول التوصل إلى مبدأ التعميم *generalization* بشرط أن تعتمد المعرفة على الجمع بين ماهو حسي *Sensual* وعقلي *intellectual* . ولاشك أن الأصل للعقلاني، هو في ذاته أداة منطقية للإختبار والتعميم، وهذا هو بالضبط ما يدعى بالاختبارية المنطقية *empirisme logique* .

والملاحظة *L'observation* مبدأ حسي من مبادئ علم الاجتماع السياسي، بشرط ألا ترتبط بالملاحظة بأفكار قبلية مسبقة *A Priori*؛ يكون لها رد فعلها على توجيه الباحث السياسي، بل أن يكون البحث السياسي مجرداً عن التزعمات الذاتية، ولا توجه سوى فروض *hypothesis* ثم دراسة الوقائع *Facts* و نجارب والظروف السياسية في ضوء مناهج الاستقراء والاستنباط وعند المقارنات الجزئية والكلية. وذلك لتمييز بين المقارنات المتقاربة *Comparaisons Proches* والمقارنات المتباعدة *éloignés*، (١) وذلك في ضوء نظرية البناء *Structure* والوظيفة *Function* والعملية *Process* وقد تستخدم مثل هذه المناهج البنائية والأمبيريقية للمقارنات لقيام بإجراءات التصنيف *Classification* والتفسير، وإيجاد علاقات توافق أو إرتباط *correlation* .

ويستخدم الباحث في علم الاجتماع السياسي، مبدأ التحليل الوظيفي والبنائي، كما يستند إلى فكرة النسق السياسي *political System* حين يتمدد على التوازن والتوافق والتكامل على اعتبار أن النسق إنما يتوازن لوجود قوى *Forces* تصارع في كل بناء سياسي ديناميكي، الأمر الذي يفرض علينا بالطبع دراسة التكامل من

(١): Duverger, Maurice., *Méthodes des Sciences Sociales*, Paris, 1964.

خلال منظور القوة واتصال القوة ، وهذه هي وجهة النظر السائدة في هذه الأيام ، بين أقطاب الرأي العام السياسي .

فالسلطة كما يقول Bureau في كتابه ومنهج في العلم السياسي *Méthode de Science Politique* ، إنما تألف من عنصرين قوة مادية *Force* من جهة ، وفكرة *idée* أو غاية ، من جهة أخرى ؛ بمعنى أن السلطة هي قوة مادية في خدمة غايات اجتماعية ، أو أفكار أو مبادئ ، وكلها قوى وعمرات توجه مجالات النسق السياسي .

المجال السياسي ولوائز القوى :

يمكننا أن نقول إن كل مجال سياسي ، وهو مجال جمعي *collective* دون شك ، وتتمدد فيه القوى *Forces* التي قد تتنافع إلى درجة الصراع العنيف ، فتغير خريطة المجال السياسي وقواه ، نظراً لظروف الجديدة التي تخلف عن « صراع القوى » التي صدرت ونشأت وانتصرت ، ثم تبدلت المتغيرات *Variables* التي كانت قائمة من قبل . وإذا كان « التغير » بسيطاً وبسيطاً سرمان ماتوازن القوى الجديدة وتتفاعل . وليس المجال السياسي استاتيكيّاً بل هو مجال ديناميكي متحرك الأمر الذي يفرض ضرورة وجود عملية « التفاعل *interaction* » المستمرة في كل مجال سياسي حتى تتوازن القوى وما يتصل بها من ظروف ومتغيرات وفي حالات الثورات والحروب يحدث التغير السريع والمفاجيء والمجذرى ، نظراً لحدوث الصراعات العنيفة التي قلب الأشياء والتصورات والقيم رأساً على عقب . وقد يسقط جهاز الدولة القديمة أولاً لكي يتحكم الجديد ويسود بكل قواه وطاقاته المستندة إلى أسس جماهيرية وقواعد شعبية وسرمان ما يتكيف المجال السياسي الجديد مع القديم ، وهنا تكون المحسوبة والمغيرة والتقدم نحو تنمية سياسية جديدة ، أدت إلى تطوير إقتصادي هائل وتغير اجتماعي جذري .

ولاشك أن « الحالة الثورية » إنما تؤثر تأثيراً بالغاً على صورة المجال السياسي

Form of political field ولغواه ؛ الأمر الذى يفرض الحاجة النظرية والضرورية الى التوازن بعد كل ثورة مظفرة ، وهذا أمر قد تقتصر إليه الآن ثورة إيران التى مازالت فى مسيس الحاجة الى حالة من التوازن equilibrium فى المجال السياسى داخل أو خارج إيران نفسها .

وبصد نظرية المجال السيكولوجى psychological field ، وتأثير الانماط الدكتاتورية والديموقراطية على طبيعة الأجواء السائدة فى كل مجال ، صدرت دراسات د كورت ليفين Kurt Lewin ، و د ليت Lepitt ، وهوايت White . وقاموا بتكوين بحوثات من أطفال المدارس فى سن الحادية عشرة وتخضع كل مجموعة لهم ديموقراطى أو ديكتاتورى أو فوضى ، على التوالى . مع المراقبة الشديدة للجماعات والملاحظة العلية الدقيقة لسلوك الأطفال ، ثبت وجود التمايز الواضح فى السلوك بين كل المجموعات تحت تأثير هذه الأجواء المتمايزة . ولقد ساهمت تجارب د كورت ليفين ، وأعرافه فى نظرية المجال السياسى ، وبخاصة فى دراسة أثر ، الأجواء الاجتماعية ، على روح الجماعات ، وردود فعلها على أنماط الشخصية . وذلك بعد القيام بالعديد من الدراسات النظرية والحقلية ، فى صور السلوك العدوانى وأسبابه الجماعية ، وباستخدام منهج العزل التجريبي لثلاث جماعات العمل (١) .

وما يتينا من كل ذلك ، هو أن هناك « قوى ومتغيرات » تحكم وتسد فى كل مجال سياسى . وإذا ما قنا بتحليل هذه القوى السائدة لوجدنا أن هناك ثلاثة أنماط من القوى أو لها قوة الدقة ، وهى قوة أخلاقية قاهرة ، وتلك هى السلطة السياسية ، وهناك قوى أخرى مثل سيادة أو قوة القانون ، وهى سيادة تختلف

(١) الدكتور لبارى عمه اسماعيل علم الاجتماع الصناعى ومشكلات الادارة ، مفادة

تماماً من « سيادة الدولة ، كقوة أو سيادة سياسية ، لأن سيادة القانون قد تضيف أو تزدل في كل دولة أوتوقراطية مستبدة . بينما قوى « سيادة القانون ، وتمثل في الدولة الديمقراطية أعلى مكانة ، وهذا واضح في كثير من الدول الكبرى الباقية سياسياً ، حيث يحكم القانون ويسود كيزان العدل يحقق للمساواة بين الناس . وعندهم سيادة ديموقراطية خلافاً لثبوت شعوبها ، وتمي وعيها ، وتحقيق آمالها .

وقد تعود المكانة ، في مجتمعات أخرى حين تربط المكانة بالصبيّة والقبيلة وقد تربط المكانة بالمال وسيطرة رأس المال على الحكم ، ويظهر ذلك ويتحقق في النوع الثالث من القوة power وهو « قوة التسلط والنفوذ ، مثل سيادة العرف في المجتمعات البدوية والصحراوية وسيادة قوى واتجاهات الرأي العام ، وبخاصة في سائر الحكومات والدول الرأسمالية حين تعود وتتحكم الديمقراطية ولاشك أن سيادة الدولة ، إنما تحمل في طياتها سائر القوى الكامنة فيها ، سواء أكانت قوى سياسية ، أو قوى تشريعية ؛ تتعلق بسيادة القانون ، أو قوى التسلط والنفوذ مثل استخدام رأس المال ، والأجهزة الديمقراطية وسيطرة اتجاهات الرأي العام السياسي .

ويذهب « جان مينو » الى أن الاتجاه السائد الآن في علم السياسة ، هو الاخذ بالنزعة الموضوعية Objectivisation ، باستعمال التكنولوجيا الحديثة وأدوات البحث العلمي ، وأجهزة الاعلام والاعلان وسائر برامج الاتصال communication المعروفة لاستخدامها في التأثير على أيدولوجيات الناس ؛ والسيطرة على اتجاهات الرأي العام القوى وقوية لنفوذ السياسى .

(١) مينو جان ، مفتعل الى علم السياسة ، ترجمة الأستاذ جورج بونس ، مطبوعات

علم السياسة والنهج الفينومينولوجي :

لقد نبه عالم الاجتماع الألماني ، كارل مانهايم Mannheim ، الأخذان نحو تأكيد الصلة بين الفينومينولوجيا وعلم الاجتماع ، حين حاول أن يقدم شرحاً قلم علم اجتماع المعرفة sociology of knowledge ، بالرجوع إلى أثر الوجود الاجتماعي ، في تشكيل الآراء وصياغة الأفكار والتصورات .

ويذهب ، كارل مانهايم ، إلى أن احتكاك الوعي السياسي بشره وانطلاقه من ، وآخر ، واتجاهه نحو الشعور ، وإدراكه أو وعيه في علاقته بالآخرين ، فيمثل الشعور كقالب بعلاقات الآخرين كضمون أو فعوى للشعور ، حين تتسلل العلاقات ، وينسرب الآخرون ، نحو تيار الشعور ، واحداً نحو الآخر ، ومن ثم يحتوى شعور الإنسان الفرد على الآخرين واستغراقهم فيه كفعوى أو كضمون .

وعلى هذا الأساس يؤكد مانهايم ، على شرعية قيام علم الاجتماع الفينومينولوجي ، الذي يعنى بالطبع شرعية وجود الوعي السياسي الجماعي ، كشعور كل جيل يحمل في ياره كل ما يتصل بمعتقد أو معارف وقيم أو ثراث ، أو آداب وفنون ، تتصل جميعاً بوجود الإنسان ، لا كفرد منعزل ، بل كعضو ينتمى إلى مجتمع وينخرط في أسرة أو زمرة ، ويذهب مانهايم إلى أن هذا الوعي السياسي الجماعي ، لا يصدر إلا عن نهر بتسياسية كلية وحية ، تحدث خلال التاريخ ، ويكون لها رد فعلها في وجدان المجتمع ككل ، حين يطرأ التغير والتحول على بقية برمتها .

واستناداً إلى شرعية قيام الوعي الجماعي ، يؤكد مانهايم على ضرورة دراسة علم النفس الفينومينولوجي ، والتاريخ الفينومينولوجي ، ومن هذه الزاوية أيضاً يمكن دراسة أبعاد الثقافة والدين والفن والقيم ، على نحو فينومينولوجي . وهذا هو السبب الذي من أجله يخلطنا د كارل مانهايم ، من أن نغالي ، أو

أن تتم بأثر الوضعية الاجتماعية ، في الانتاج الفكري ، على اعتبار أن البحوث
التجريبية وحدها هي التي تقرر أو تقرض القرار الحاسم بعد عقد الصلات بين
الفكر والواقع الاجتماعي .

والصلة بين الفكر والواقع عند «مانهايم» ، ليست صلة آلية تنبئ عن علاقة
ميكانيكية بمنتهى بين «العقل» و « الوجود » ، تلك التي تذكرنا بتلك العلاقة
للنطقية الصارمة التي فرضتها الفلسفة القديمة كراجل بين «الفعل» و «المعقول» ،
ولكن «مانهايم» يعبّر بوضوح عن موقفه ، فيقول أن الفكر يرتبط بالظروف
والأوضاع الاجتماعية ، بمعنى أن حيوية وفاعلية الوضعية الاجتماعية ، إنما تنبع
الحكر حتى لا يتوقف أو يتجمد ؛ وإنما يستبدل ويتبدل ، مع تنوع وتبدل الظروف
الثقافية والأوضاع التاريخية ، وليس الفكر آلياً ولا يعمل ميكانيكياً حتى يمكن
التنبؤ به مقدماً ، ولكن الفكر يتجدد طبقاً لتبدل حالات المجتمع وتغير ملامحه
الظرفية الوضعية .

فالصلة بين الفكر والواقع عند «مانهايم» ، هي صلة «انسجام» أكثر من
كونها «آلية» أو «جبرية» ، فليس هناك حتمية ، بل حركة تبادلية منسجمة
وحين تلتحم التصورات والأفكار بالظروف الاجتماعية ، تحدث المرفة ، وحين
يتصل الفكر بالظرفية الوضعية ، تتكون المقاسم وتأتف المصارف ، ولهذا
يكون المجتمع هو مصدر المرفة وتعالقها ، وبمقتضى الحقيقة ودراسها ، وعلى
هذا الأساس تصد المصارف والمقاسم عن الواقع الاجتماعي وعلى نحو مباشر .
وهنا يقترح «مانهايم» منهجاً في خطوات ثلاث ، تتصل الأولى بالانتاج الفكري
للنسيج المعاصر ، وتتصل الثانية بمقاربة هذا الانتاج الفكري للمشاكل المنسجمة
بأوضاع أخرى سابقة ، ويتصل الثالث في عملية الإصلاح أو التغير ،
فقد المتصورات المتغيرة الاجتماعية وأصول ثقافية .

واستناداً إلى هذا المنهج اعتبر « كارل مانهايم » ، منهج الاستقصاء التحريجي ، هو المنهج الوحيد لدراسة الصلة بين وضعية الحياة والانتاج العقلي ، فالعوامل والعناصر الاجتماعية هي المصادر الحقيقية لبؤرة الأفكار وظهور التصورات الجديدة ، ولا تؤثر العوامل الاجتماعية فقط على أشكال الفكر وبماذجه ، إنما تسمى هذه العوامل الاجتماعية نحو المحتوى والمضمون ، فتدخل في بنية الفكر ، وبذلك تصبح الفينومينولوجيا عند مانهايم من المناهج المطلوبة في دراسة ظواهر المجتمع والثقافة والتاريخ .

وجملة القول ، لقد اتجه علم الاجتماع المانهايمي نحو الأخذ بمنهج الفينومينولوجيا ، واتخذ موقفاً فلسفياً متأثراً بالنزعة الفينومينولوجية عند « هوسرل Husserl » ، الذي عكف على دراسته الكثيرون من علماء الاجتماع وخاصة « ماكس شلر Max Scheler » ، الذي استخدم المنهج الفينومينولوجي في ميدان علم الاجتماع (١) ، فدرس العلاقات والقوى الاجتماعية من زاوية الاتجاه الفينومينولوجي تماماً كما فعل « فيركاندت Vierkandt » ، حين أدخل تصنيفاً لمختلف أشكال البناءات والروابط الاجتماعية طبقاً للموقف الفينومينولوجي ، الذي هو « حسن أو إدراك مباشر للقيم » ، والظواهر الموضوعية بقصد الكشف عن مكنونها الجوهرى المميز (٢).

فينومينولوجيا جورفتش :

لقد تأثر « جورفتش » ، بكتابات علماء الاجتماع الألمان وبخاصة « فريدريش

(1) Gurvitch., Georges., The Twentieth Century Sociology., New York 1945. p. 609.

(2) Ibid p. 611.

تونيلى Tonnies ، حين ميز الأخير بين نوعين من الإرادة ، عضوية من ناحية ، وفكرية من ناحية أخرى .

أما الإرادة العضوية ، هى مصدر الطاقة ؛ ومبعث دوافع السلوك الفطرى ، ولكن الإرادة الفكرية هى الإرادة التى تنجم عن العقل والفكر ، وتوجه الدافع وتسيطر على الانفعال والانفعال ، وتنظم الطاقة نحو أهداف تحقق التوازن بين حاجات الانسان ، من أجل مستقبل أفضل ، وإذا كانت إرادة الفكر توجه نحو المستقبل ، فإن الإرادة العضوية تعبر عن الماضى ونتجه نحو الأنا .

ولذلك كانت الإرادة العضوية عند تونيز ، هى التى تخلق ، الحسد ، و ، الوجدان ، و ، العبقرية ، ، ومن هنا تتعارض إرادة الفكر مع الإرادة العضوية . الأولى تريد التوازن بين الغاية والوسيلة ؛ ونتجه الثانية نحو الحياة بحسبها ولحما ، الأولى أوجدت ، المجتمع gesellachft ، والثانية خلقت ، الجماعة gemeinschaft . فى الأولى يسود التنافس والغربة واستغلال الانسان لأخيه الانسان ، وفى الثانية تسود قيم الفضيلة والأخوة وروابط الدم والجوار ، فى الأولى كبس وضغط ، وفى الثانية حرية وخلق .

ومن الجماعة صدرت الأخلاق وروابط الأخوة والصداقة ، كما صبرت عن الانفعال المنفجر من الإرادة العضوية ، لان الجماعة مفهوم رومانتيكى ، وإرادة الجماعة هى إرادة الفضيلة ، أما المجتمع فيسوده التنافس والصراع و« الاقتراب alienation ، وتقاس العلاقات فيه بالقيم المادية ؛ بما يضعف من القيمة الحقيقية ، ومن المدنية تنتشر الشرور وتسم ، كما يستشري الفساد فى المدن ، ومن المجتمع الحضرى يصدر الاحتلال وتصبح الرذيلة .

وعلى غرار كونفوشيوس Confucius ، وب تأثير الفكر الشرق القديم ، هاجم تونيز ، مسألة الجماعة gemeinschaft فى ضوء العلاقات الاجتماعية الخمس

المشورة في الفكر المعنى العتيق ، وهي علاقة الأب بالابن ، والاخ الأكبر بالأصغر ، والزوج بزوجته ، والصديق بصديقه ، ثم صلة الحاكم برعاياه ، ومن هنا كانت صلات الجماعة عند تونيز ، هي صلات الدم والمكان والقرباة ، والمشاركة والشعور بالصدقة والولاء .

وبذهب رودلف هيرل Rudolf Heberle ، إلى أن نظرية تونيز ، في علم الاجتماع ، إنما تركز إلى محاور ليرتكز ثلاثة : أولاً : التحليل الفينومينولوجي ، لسائر العلاقات الاجتماعية ، كالقرباة Kinship والجوار ، والصدقة ، وللقايضة Barter والعقد contract . والمحور الثاني ينهاه البحث في طبيعة الإرادة الإنسانية ومضامينها الاجتماعية social implications أما المحور الثالث فهو ذلك التركيب المتداخل بين مستوى التحليل الفينومينولوجي ، وبين تحليل الإرادة الإنسانية ، بمعنى أن المحور الثالث إنما يربط بين المستويين الأول والثاني (١).

ويتباين شكل العلاقة الاجتماعية في الجماعة ، عن شكلها في المجتمع . فالأول جماعية وتقوم على الدين والعرف والسلطة المطلقة ؛ كما يسيطر الاقتصاد على الحياة الاقتصادية . هذه هي طبيعة العلاقة في الجماعة ، أما عن شكل العلاقة في المجتمع فتقوم على الفردية والمساواة ، استناداً إلى تدخل أنماط اقتصادية غير إقطاعية ، مثل الصناعة التي تفرض المساواة ، ومثل التجارة والعلم ووسائله كالطب والحمامة والصيلة والتدريس ، وسائر العلاقات المجتمعية التي تتميز المجتمع السياسي القائم على « contract » .

ويلتزم الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً بالتعاقد ، كما يضع لسيادة القانون

(١) - Tonnies, Ferdinand: 'Community and Society', trans by ch. Loomie Harper, New York, 1963.

الذي يعمل على العرف الذي كان سائداً في الجماعة . ومن المميزات الجوهرية التي كانت تميز الجماعة عن المجتمع ؛ ذلك التغير الواضح في قواعد التشريع القانوني بظهور أشكال جديدة من الجزاءات والنظم القضائية طبقاً لتنوع الحقوق وتعدد المسؤوليات .

فالجرمة مثلاً ما هي إلا إجراء ، أو فعل ، مضاد للشاعر العامة . تهدد الإنسان الفرد ، وتمسك الحقوق الفردية ، وتدمر روح الجماعة ، وتعلم قيم الضمير الجمعي ، بمعنى أن الجريمة هي فعل « غير اجتماعي » anti-social ، لا أخلاقي ، لأنها « ضد الجماعة » وتتناقض مع تعاليم الدين كما وتحشد المضار الأخلاقية (١) .

لذلك كان القانون والجزاء والعرف وظائفا في ميكانيزم الضبط الاجتماعي كما كان لها ضرورتها لحفظ الحقوق ، وسيادة الجماعة ، وسطوة الضمير ، ودوام المجتمع ، حيث أن وسائل الضبط الاجتماعي ، هي بمثابة عناصر أو مراكز قوة ، يستخدمها الضمير الجمعي لمقاومة كل الانحرافات أو « الفرد » أو « العصيان » وهنا يتطور الأمر عند « توفيز » وتحول العلاقات التلقائية Spontaneous Relations السائدة في الجماعة ، لكي تصبح علاقات ديناميكية متغيرة ، فتظهر علاقة « التعاقد » ، ويعمل القانون على العرف ، والمقدم من التلقائية ، والمسئولية الفردية محل المسئولية الجمعية .

ويؤكد « جورفتش » مع « دوركايم » ، على أن الحقائق الاجتماعية هي « أشياء chooses » كما أنها خارجة عن شعور أو ضمير الإنسان الفرد ، وأن الوجدان الجماعي ؛ إنما يسمو ويتفوق على الوجدان الفردي ، كما ويتغلب على ضمير الجماعة على

(1) Durkheim, Emile, "De La Division du Travail Social, Félix Alcan Paris. 1926.

ضمير الإنسان الفرد .

وبالإضافة إلى ذلك ، تؤكد فينومينولوجيا جروفتش ، على أن علم الاجتماع الخالي ، إنما يحاول أن يعمل على إقامة الروابط والعلاقات بين ثلاثة محاور رئيسية لا يمكن فصل أحدها عن الآخر، وذلك عن طريق الالتفات إلى محاور « الأنا ، و « الآخرين » و « نحن » .

والاجتماع عند جروفتش ، عبارة عن « شيء Chose ، من جهة ، و « أنا ، من جهة أخرى، ويمكن دراسة المجتمع من حيث هو « شيء » ، دراسة علمية وموضوعية ، وذلك لأن حقائق المجتمع هي أشياء منزلة ، ومستقلة عن مشاعر الأفراد وضمائرهم .

فالنهج العلمي يطبق عند جروفتش ، على المجتمع من حيث هو « شيء ، أو « جهاز ، أو « ميكانيزم ، يمارس ضغطاً أَل « قهراً ، كما ويلزم الأفراد بطاعته واحترامه ، لما له من دوام و « قس ، وسيطرة وجبرية .

هكذا عن حقائق المجتمع من حيث هو « شيء » ، ولكن حقائق المجتمع ووقائمه ، حين تصل بصورات الأفراد ، وتصلق بوجداناتهم ، وتدور في لحوى ضمائرهم وذاكراتهم وعيلاهم ، فإنها تصبح ذات طبيعة أخرى تختلف كل الاختلاف عن طبيعة « النية » ، أو « الميكانيزمية » القاهرة أو الضاغطة ، ومن خلال اختلاف تصورات الأفراد ، وتباين نماذج الواقع الذي يعايشونه ، يتأيز « الإدراك الفينومينولوجي » ، وتتغير التصورات بحيث تتأيز أشكال الفهم نظراً لتباين أنماط الفكر والوجود . ومن هنا يمكن دراسة المجتمع دراسة فينومينولوجية على اعتبار أن « فهم الواقع الاجتماعي » ، هو الأصل الذي يسهم في تكوين الإنسان الفرد والذي يخلق وجوده .

ولما كان الواقع الاجتماعي « من وجهة النظر الفينومينولوجية » يختلف

اختلافاً نوعياً وجوهياً ، استناداً إلى اختلاف «أنواع» أو «نماذج» الوجود الاجتماعي ؛ فقد ظهرت نتيجة هذا التباين في نماذج الواقع السياسي ، مختلف الزم ، والجماليات كما تعددت وتنوعت سائر الفئات والطبقات ، بشكل يتطابق مع اختلاف الأرضية الاجتماعية والثقافية ، تلك التي تكشف عن أنواع مختلفة من «الوجود الاجتماعي» .

وهنا يميز «جورفتش» بوضوح بين منهج «علم الاجتماع القانوني» ودراية أوفهم «فلسفة القانون Philosophy of Law» حيث يبحث الأول في وظيفة الواقع الاجتماعي وأثره وتركيبه ، على حين تدرس «فلسفة القانون» مدى التكامل والاتصال الذي يربط الروح بالمجتمع ، والعقل بالوجود ، بمعنى أن «الوجود الاجتماعي» هو الذي يفرض «القيم Values» ويضع التصورات ويصنع الضمائر كما ويخلق الأفكار . ولا شك أن القيم والتصورات والأفكار ، يمكن رفعها إلى مستوى الإدراك أو البحث الفينومينولوجي ، بالإضافة إلى ما يبدو في بنية الضمير الإنساني ولغواه ، هي ظواهر ضرورية توحى بروح القانون وتبصر عن فلسفته .

ولما كان ذلك كذلك - فلا يمكن من وجهة نظر «جورفتش» أن نفع ل علم الاجتماع القانوني ، عن فلسفة القانون ، استناداً إلى وحدة الأصل والمصدر ، حيث ينشأ كل منهما ويصدر عن الوصل بين الروح والوجود الاجتماعي ، أو المذج بين المجتمع وروحه ، وتلك هي فينومينولوجيا جورفتش التي هي بمثابة التعبير الجوهرى عن «سوسيولوجيا الروح» ، أو «روحية المجتمع» التي لا تغفل بين «ميكانيزم المجتمع» وتصورات وقيمه . تلك التي لا يمكن مزلما إطلاقاً عن «الأصول الوجودية» لروح العصر والمصادر الاجتماعية الكامنة في «روح القانون» .

الوجود الاجتماعي هو « حيث روح القانون » ، وهذا هو ما يقصده « جورفتش » بـ « سيولوجيا روح القانون » ، الأمر الذي لا يمكن منه فصل « روح القانون » عن الأرضية الاجتماعية ، كما ولا يمكن نزع القوى الميكانيكية المضاعفة من مصادرها الكامنة في الخلفية التاريخية لروح العصر ؛ وإلا تحول علم الاجتماع القانوني إلى شكل من « أشكال النزعة العقائدية العقلية *Rationalisme dogmatique* » .

وإنطلاقاً من « أرضية الوجود الاجتماعي » ؛ بدأ « جورفتش » دراساته في علم الاجتماع الفينومينولوجي ، استناداً إلى تحليل الإنسان الفرد ، ودراسة ما تراكم في شخصيته من ركائز اجتماعية ، وبقايا ثقافية ، ورواسب سيكولوجية .

ويحاول علم الاجتماع الفينومينولوجي ، اتخاذ السلوك الاجتماعي ، كأساس لدراسة المجتمع كله . ومن هنا يركز « جورفتش » اهتماماته على دراسة العلاقات والروابط الداخلية التي هي « أساس قيام المجتمع » ، وكلها روابط جزئية وروحية تتولد وتتوحد تلقائياً ، كي تبصر عن المحبة والتكامل والتضامن ، تلك الجوانب العقلية والشعورية القائمة في « روح الكل » ، والتي صدرت أصلاً عن « روح المجتمع » .

ولا يمكن أن نفسر منه الروابط الداخلية الروحية تفسيراً ميكانيكياً أو آلياً ، فليست هناك علاقات « فيزيكية » ، أو سببية ، ولا يربط فيما بينها روحياً سوى علاقات « الحب » ، و « التعاطف » ، من ناحية ، وعلاقات « الصراع » ، و « التنافر » ، من ناحية أخرى . وكل هذه العلاقات إنما تسبق الميول الأساسية كالشعور والحاجات ، ولا يمكن أن تتجسد تلك الروابط الاجتماعية أو تتحقق تلك الانتماءات الجماعية سوى في كل من « متفوق » ، يتضمن « يشتمل » ويتحقق فيه الروح السيولوجي ، الذي يتعالى ويتسامى على ميول ومشاعر وانتماءات الأفراد .

القصد الفينومينولوجي :

من المبادئ المشهورة في تطبيق أو دراسة المنهج الفينومينولوجي، من طريق الاتجاه نحو فهم الموضوحات أو الظواهر ؛ بمحاولة القيام « بقصد » أو « بجهد » . وفي هذا الصدد يجب أن تتجاوز حدود الأحكام والمدركات الحسية، وهو ما يسميه « هوسرل » بعملية « الرد الفينومينولوجي » *Reduction Phenomenologique* . وذلك بعد محاولة فهم الظواهر ووضع العالم « بين قوسين » .

ويتبر « القصد » ، عنصراً ضرورياً وجوهرياً في كل الأفعال القصدية *Intentional acts* ، كما ينظر « ماكس فيبر » Weber ، إلى عنصر القصد على أنه من أهم عناصر « الفهم » *Verstehen* . حين نحاول تحليل أو تفهيم الظواهر . وبذلك نطر « فيبر » ، إلى منهج الفهم على أنه الطريقة المثلى لدراسة التاريخ ووقائمه . وعلم الاجتماع كما يراه « فيبر » ، هو العلم الذي يحاول تحديد « الفهم التفسيري » *explanatory understanding* « للكشف عن طبيعة مواقف أو مجالات السلوك في ضوء أنماط الفعل الاجتماعي . ولا يصبح الفعل « اجتماعياً » عند « فيبر » ، إلا إذا كان « معناه الذاتي » *Subjective meaning* ، مرتبطاً بالفاعل الاجتماعي . حين يأخذ في اعتباره ، الأشكال المختلفة لتماذج المثالية *Ideal Types* . ومدى تطابقها مع أنماط السلوك السائدة والعامة .

ويرفهم « المعنى الذاتي » في علم النفس المعاصر ، بأنه يتضمن اتجاهات

(1) Weber, Max., *The Theory of Social and Economic Organization*, trans. by Henderson, Glencoe. 1947, pp 88-89.

وانظر أيضاً :

Weber, Max., *Basic Concepts in Sociology*, trans. by H. F. Seeber, Peter Owen, London, 1962, pp. 34-35.

و « مقاصد لاشعورية unconscious intentions » كما وقد يتضمن هذا الفعل في نفس الوقت ، بعض الجوانب والاتجاهات القطبية والشعورية .

و تستخدم الفلسفة الوجودية « مبدأ القصدية » ، وهو اتجاه الشعور محور موضوع ما ، بدونه لا يكون الشعور شيئاً على الإطلاق ، فينبغي أن يكون الفصل تاماً بين الشيئية chosisme « من جهة ، والحركة « الشعورية » من جهة أخرى على اعتبار أن كل شعور إنما هو شعور بشيء ما ، ولا يمكن تصور الشعور خالياً من الأشياء أو الموضوعات ، لأن الشعور هو تيار أو مجرى أو « عتري » لا يمكن تحليله إذا ما سلينا منه ما هو « مشعور به » . بمعنى أن « موضوع الشعور » لا يمكن فصله أو نزعهِ عن الصور والقوالب التي تتضمن محتواه القائم في تيار الشعور ، فليس هناك تيار شعوري بلا موضوعات . وحتى الشعور بالعدم ليس شعوراً فارغاً . لأن « العدم » في هذه الحالة ، سوف يصبح هو الموضوع الذي يشغل لحوى التيار الشعوري . فليست هناك على الإطلاق تيارات شعورية جوفاء لا تحمّل شيئاً أو لا تشمل على شيء ، وإنما لابد وأن يصاغ في لحوى الشعور « شيء » ، أو تجرى في مجراه « أشياء » ، ولأنك أنها « أشياء إجتماعية choses Sociales » تظهر كموضوعات للشعور وتعبّر عن محتواه الشعوري ، وما علينا إلا أن نقوم بمجهود أو قصد ، نحو فهم موضوعات الشعور وتحليلها وسبر غورها ، وهذا هو ما نسميه بالقصد الفينومينولوجي . ولأنك في لغة الفلاسفة ومصطلحات الميتافيزيقا وقولها ومقولاتها ، التي استخدمتها الفلسفة أثناء إلتحامها بمماركها العقلية والايديولوجية ، وبالالتفات إلى « مقاصدها وجودها الايجاميه المستمرة في « كثرة كيفية » والمتتابعة دوما طوال تاريخها ، الذي يعمل في طبائعه وخواه صراع الفكر ومجدياته وتناقضاته ، بايجامياته وسلبياته ، وبوعداته العنيفة لكل ما هو مظلم ، هي من زاوية علم الاجتماع الفينومينولوجي ، لغة ومصطلحات

شعورية . متعلقة من ديمومة الوجدان التاريخي ومنزعة من روح العصر ، لأنها قائمة في مختلف البناءات الثقافية السائدة في الوجود الاجتماعي ، ثم مبنية كل هذه الكثرة ، في قوالب واجتمعت كل هذه المحتويات ، في صور ومقولات فينيومينولوجية مستمارة ، من تجلي الفكر في قهقهة وجهوده القصدية ، وصراعه الالهاميكي التخيري نحو حياة أكثر غنى وفاعلية ، وخصوبة ورفاهية .

وفي ضوء هذه الملاحظات ، تصبح القصدية ، هي المحاولة الأساسية ، والضرورية في تطبيق المنهج الفينومينولوجي ، كما تصبح القصدية هي الشرط الضروري لامكان الرد Reduction أو الاختزال الفينومينولوجي ، وسيتخذ توصف الموضوعات بأنها ، أشياء مقصودة ، ويظهر موضوع الشعور بوصفه ، ما يقصد إليه ، ومن هنا يصبح الموضوع مقابلًا مباشرًا للشعور ، على اعتبار أن الموضوع هو الفعوى ، والشعور هو ، القالب ، وعلى هذا الأساس ينكر أصحاب المنهج الفينومينولوجي ، ما يسمى بالموضوعية الاجتماعية Social objectivity ، نظراً لوجود العوائق التي تحول دون قيام مثل هذه الموضوعية الاجتماعية .

ولعل التيار الفينومينولوجي كما نلحظه سائداً في الفلسفات والمذاهب الوجودية إنما يتخذ موقفاً مختلفاً ، حيث يؤكد المذهب الفينومينولوجي على وجود حقيقة بين الماهيات ، و الوقائع ، . وذلك لوجود أسباب متحدة ، فن يبدأ بحس بالوواقع لن يدرك الماهيات ، على الإطلاق .

على هذا الأساس ، أصبح لباب المنهج الفينومينولوجي يدور حول ، المعنى ، أو الفهم ، الذي تتوصل إليه حين قصد الأشياء ، ذاتها وتترفع منها المعنى . لأن أساس أو مبدأ القصد الفينومينولوجي هو ، حس الماهية ، .

وينكر المذهب ، الفينومينولوجي الوجودي ، تلك الفكرة القائلة بأن الحقائق

الاجتماعية هي « أشياء »، بمعنى أن الفلسفة الوجودية إنما ترفض الفكرة الدوكائية
التيية التي تركز على « وجوب أو خروجه معالجة الظواهر الاجتماعية على أنها
أشياء Comme des Choses » .

وبالإضافة إلى هذا الموقف، ترفض فينومينولوجيا الوجوديين تصور المجتمع
على أنه « كائن مستقل » يوجد خارج ضمير الفرد وشعوره ، حين يتعالى الوعى
أو الوجدان الجمعى ، ويتفوق على الوعى أو الوجدان السيكولوجى الفردى .
وإستناداً إلى هذا الفهم، تنكر الفلسفات الوجودية النظرة الدوكائية الروسية
من جهة ، كما تنعز أيضاً على النظرة المادية الموضوعية، من جهة أخرى ، حيث
يرفض المذهب الفينومينولوجى مبدأ « النسبية Relativity » ، كما لا يأخذ
أصلاً بتلك الموضوعية التي يتشقق بها العلم الوضى .

ويرتبط الفرد الوجودى بالآخرين لإرتباطاً جوهرياً ، وعلى علم الاجتماع
بالمعنى الفينومينولوجى أن يكشف الروابط الوجودية الأساسية القائمة بين
الأفراد . على اعتبار أن كل حمل يقوم به الإنسان للفرد إنما يتضمن في ذاته ،
ويصير في طياته إشارة إلى الآخرين . بمعنى أن جهودات وتصورات وأحكام
« الأنا » إنما تتضمن في ذاتها أيضاً جهود وتصورات وأحكام « الآخرين » ،
ومنا نستطيع أن نفهم ونستشبع بما يقوله هذا التصور الوجودى، وبكلمات مضحية،
حين يمر على نحو فينومينولوجى « وكانتى أسبح في بحر متلاطم من الأحكام
التي يحملها الآخرون لى » .

ومن ذلك يتبين لنا أن كل ما يحيط بالإنسان الفرد من حضارة مادية أو
معنوية ، إنما يجد في الواقع الاجتماعى الوجودى إلى كل ما يرتبط بالإنسان
الفرد من روابط وعلاقات وجودية ، فأبواب الوعى والوجدان مفتوحة دائماً
للآخرين ، وقد تتلحق فى حالات « الضجر » و « القلق » .

وتبدأ فينومينولوجيا الوجوديين بإحدى الخطوات الأساسية في الفلسفة الوجودية ؛ وهي عملية تحليل « الكوجيتو المنعكس Cogito Pre-Reflexif » وهنا يتجلى الفكر كما يتمكس عن واقعه هو نفسه ، أى يتجلى الفكر عن واقع الروح الموضوعي ، وهذا هو نفس الكوجيتو الذي قامت عليه فينومينولوجيا « هوسرل » على اعتبار أن الشعور هو دائماً الشعور بشيء ما ، ولهذا السبب نفسه ينظر الكوجيتو الهوسرلي إلى « الأنا » بوصفها الأساس والمصدر لكل « معنى » أو « فهم » ، كما أنها مبعث كل « رابطة قصدية » بالموضوع .

ويشب « الوجدان » دائماً إلى الموضوع وإلى العالم ، وهو سر وجود الكائن في العالم ، وعلة هذا الوجود فيدون الوجدان لا يتحقق وجود هذا العالم ، وهنا يتحقق الكائن الوجودي من أن الوجدان الحقيقي « هو الوعي » ، وأن الوجدان الوجودي هو « الوجدان بالعالم » ، أو الوجدان الكوني الشامل . ومن هنا يكون « الوجدان الاجتماعي » هو الشعور بوجود المجتمع « وضبطه وضبطه » .

وإذا كان الجسم في علاقته بالأنا ، إنما يشبه إلى حد بعيد علاقة الفرد بالمجتمع لذلك يكون الجسم مرة هو « الأنا Le moi » ، ومرة أخرى هو « الشيء » ، كما ويصبح المجتمع نفسه عند « جورفتش » ، تارة هو « الأنا » ، وتارة أخرى هو « الشيء chose » ، القائم كيكانيزم قهري خارج الأنا الذي هو « المجتمع » .

ويشبه الواقع الاجتماعي « الجسم » من حيث البنية الوجودية ، بمعنى أنني قد أوجد « إجتماعياً » تارة كما أنني قد أوجد « بدنياً » تارة أخرى ، ويعتبر هذا الوجدان الوجودي « واقعة أولية » ، ولكن الجسم وحيد ، أو هو شيء واحد ، أما المجتمع فهو مؤلف من طبقات متمايزة وفتات متعددة وتظيمات معقدة ، وهذا التعدد والتمايز والتفاضل والتعقد ، إنما يفسر لنا أصلاً تعدد وتمايز وتفاضل مصادر « الوجود الاجتماعي » المختلفة .

الْبَابُ الثَّانِي

النَّظَرِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ بَيْنَ الْتَجَرِبَةِ وَالْوَعْيِ

- تمهيد
- إنبات النظرية السياسية المعاصرة
- الفكر السياسي بين النظرية والتطبيق
- التجربة السياسية
- سوسيولوجية الثورة
- الفكر السياسي و «روح العصر»
- الأبعاد السوسيولوجية في الوعي السياسي

تمهيد :

الباق النظرية السياسية المعاصرة :

لقد ظهرت النظرية السياسية في أقوى صورها عند هيجل ، و د ماركس ، ثم تطور الفكر السياسي ، ونضجت النظرات السياسية وأثمرت عند كبار علماء السياسة المعاصرين ، من أمثال د هارولد لاسكي Harold Lasky ، و د موريس دوفرجييه Maurice Duverger .

ولكننا نقال .. ما هي المسائل الرئيسية التي يشغل بها الفكر السياسي المعاصر ؟ وكيف تعالج النظرية السياسية المعاصرة ، مثل هذه المسائل ؟ في الواقع ؛ هناك الكثير من المشكلات والمسائل التي يشغل بها الرأي العام السياسي والتي يبالغها المشتغلين بعلوم الاجتماع والاقتصاد ، ومثل مسألة الدولة .. ما هي ؟ . والسلطة .. كيف تكون ؟ . و د للرواثة الصالحة ما هي حدودها وملاعبها السياسية ، من حيث الحقوق والواجبات ؟ .. وإلى أي حد تتوزع حقوق الدولة وواجبات المواطن ؟ .

ونستخلص من كل هذه المسائل ، أن الفكر السياسي ، إنما ينظر إلى السلطة ، كما يمارسها الحاكم ، ويحدد شروطها السليمة ، على اعتبار أن السياسة برمتها ما هي إلا نشاط فكري إنساني ، محوره ، الإنسان ، ولا يدور فقط حول الدولة أو وحاصب السلطان . . وإنما يكون التفكير السياسي العلمي ، هو التفكير الذي يتعلق بتكتلات بشرية ومصالح جماعية ، بحيث يكون كل تفكير سياسياً ، هو تفكير من أجل الآخرين ، وهو التفكير النافع والمحدد والنسي Relative .

إذاً فإن علم الاجتماع يدرس العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان على العموم فإن علم السياسة ، إنما يدرس العلاقة بين الدولة ، و د المواطن ، أو الأمة التي

تربط الحاكم بالمحكوم . وهذه هي الخاصية المميزة للنشاط السياسى عن غيره من أنواع النشاط الانسانية .

ولقد أصبحت أم المشكلات التى يالجها علم الاجتماع السياسى ؛ مشكلة « السلطة ، وطبيعة العلاقة بين الحاكم ورعاياه ، أو « الدولة ، و « المواطن »
بمعنى أن علم السياسة ، إنما يبحث ويدرس صعداً من الظواهر السياسية المحددة بالذات ، مثل ظاهرة السلطة ، وكيف تكون الصلة بين الحاكم والمحكوم ، أو بين « الضاغطين ، و « المضغوط » . وبدون هذه العلاقة لا يمكن أن تتحقق فكرة السلطة التى يمكن تحريما بملاحة أولية قائمة بين « الدولة ، و « الفرد » ولكننا نقاسم . . . وما هى تلك « الدولة » التى شغلت وما تزال تشغل تفكير الرأى العام السياسى ؟ .

لقد أكد « سانت أوغستين » على ضرورة « الدولة » . . . وعلى وجود ظاهرة « السلطة » ، إذا أن الانسان الفرد ، فى حاجة إلى سلطة ، عليا ، تحكمه ، وتكبح ميوله ونزعاته الشريرة . فجاءت الدولة عند « أوغستين » ، تفسيراً من كبح أو ضغط ميول الانسان الشريرة ، بمعنى أن أصل الدولة عنده هو « الخطيئة الاولى » حين تمرد الانسان المخلوق على إرادة الخالق . فكان من الطبعى أن تكون الدولة هى « السلطة » ، التى تسيطر على رغبات الانسان أو « القوة » ، التى تضبط تمرد الانسان وتحكم سلوكه كما وتكبح جماح شهواته وأغراضه وأهوائه .

ولذلك كانت الدولة عند « تراز ماخوس » هى حكم الأقوى بمعنى أنها مصدر السلطة أو القوة . ولم تكن الدولة موجودة يوماً ما ، بالنسبة للانسان البدائى ، كما يظن « هيربرت سبنسر » ، ويزعم « كارل ماركس » ، قائلة عندها ، هى « كائن صناعى » ، مشوه ، لم يكن موجوداً من قبل . إذ أن الدولة عندها مخلوق غير طبعى ، وسيأتى اليوم الذى تزول فيه « الدولة » ، حين تسقط كأوراق

الحرف ، وتنتهى وتطيقها . ويعود الحال إلى ما هو عليه في الماضي ، وهذا ما يراه أتباع كل من « سبنسر » و « ماركس » .

وفي الحقيقة ، ليست الدولة « جماعة » أو « اتحاد association » ، بل إنها تكوين غامض ، ذو صفات ميتافيزيقية ، وخصائص خارقة للعلمية supernatural فالدولة عند ميجل ، هي « وحدة ميتافيزيقية مقدسة » تتسلط في ماسك صلب ، وهي وحدة كلية مطلقة ؛ تفرض نفسها على كل فرد ، فالدولة هنا ليست نوعاً من الاتحادات أو الجماعات القائمة في المجتمع ، وإنما تكون الدولة هي المجتمع السياسي نفسه ، بمعنى كامل التحول .

وليس للدولة وظيفة محددة داخل مجتمع سياسي أكبر منها ، بل لجمعتها هي نفسها تؤلف « المجتمع السياسي » ، الاسمي والاقوى ، أو « المجتمع الكلي » ، ككرة أخلاقية قاهرة ومطلقة .

والدولة ما هنا ، هي حارس أخلاق بأكمله ، وليست مجرد حامل من العوامل داخل عالم أخلاقي منظم ، فالعلاقات الأخلاقية ، إنما تفرض على نحو مسبق ، وجود حياة منظمة وأنماط سلوكية مرعية . فالدولة هي الضابط الأخلاقي الاصيل بهذا المعنى ، وليست عاملاً من العوامل القائمة في النسق الأخلاقي .

الفكر السياسي بين النظرية والتطبيق :

الانسان حيوان سياسي Zoon Politikon ؛ على ما يقول أرسطو ، فليس هناك أي جماعة إنسانية ، وجدت دون تنظيم سياسي أو دون سلطة ، وبذلك يمكن تعريف السياسة ، بأنها علم التنظيم السياسي Political organization . ولقد طورت النظرية السياسية ؛ من الاسطورة Mythe الاغلاطونية ، إلى الفكرة السياسية الميخيلية ، وفي الفكرة المطلقة ، أو متى غلب العقل الإلهي على الأرض ، كما تحرر العلم السياسي من الاسطورة الخالصة إلى واقع الفكرة

السياسة *l'idée Politique* ، ومن مجموع الأفكار السياسية ، تتكون النظرية السياسية .

والفكر السياسي القديم ، نجهده يعالج الظواهر السياسية من زاوية فلسفية معينة ، فلقد عالج أفلاطون الدولة من زاوية العدالة ، وعالجها أرسطو من ناحية أن الدولة ينبغي أن تحقق مبدأ الخير ، ولكن الانظار السياسية المعاصرة ؛ إنما تصدر على أساس وضعى ، وهذا هو الأساس الأول فى بناء النظرية السياسية بعد أن شاد لبابه الأولى كل من « مكيافللى » و « موفتسكيو » ، « كروت » .

ومن هنا ينبغي أن تؤكد أن الاتجاه الملى فى دراسة السياسة ، إنما يؤكد على ضرورة انطلاقنا من الواقع كأساس ؛ أو من الوقائع *Facts* ، حين تصدر الفكرة السياسية ، من أرض التجربة الاجتماعية . فالعلم السياسى ، هو علم وضعى يحقق تطلعاتنا السياسية تحقيقاً حلياً ، حين ينطلق الفكر السياسى من الواقع الاجتماعى ، وحين يستند إلى أوضاع الوجود السياسى .

ومن ثم ينبغي على دارس العلوم السياسية ، أن يفهم الظواهر السياسية ، على نحو موضوعى ، حتى يتوصل الى كتبها وحقيقتها وسبر غورها ، بالتعرف على فرائدها السوسولوجية العامة .

فانتمتع هو « المعمل » الذى فى أطاره تدور « التجارب السياسية » ، وعالم السياسة ، هو أشبه بالمهندس الاجتماعى *Social engineer* ، الذى يحاول أن يتوصل عن طريق فكره وعلمه ومنهجه الوضعى ، فيرسم لنا « هندسة سياسية واجتماعية *Social and Political engineering* » ، لتشكل المجتمع الذى يحقق الرفاهية والعدالة ؛ وكما يؤكد الحرية والسعادة . وبكلمات أكثر دقة ؛ نستطيع أن نقول « إن عالم السياسة هو المهندس الاجتماعى ، الذى يعمل فى المجتمع ، الذى هو « المعمل السياسى الأكبر » .

وفي الواقع لقد حدثت كل النظريات السياسية ، على الرغم من التزامها أخيراً
بالانجماحات اليوتورية والمثالية ، إلا أنها حدثت عن واقع التجربة الاجتماعية ،
فالفكرة السياسية كما يقال هي نتيجة التجربة الاجتماعية ، والفكر السياسي هو ما
هو زعين الواقع أو الوجود الاجتماعي .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن نظرية أفلاطون على الرغم من مثاليته ،
إلا أنها حدثت عن التجربة السياسية اليونانية . ونظرية «جون لوك» انطلق
من واقع التجربة الثورية البيوريتانية ، ودراسة نظرية مونتسكيو حول مبدأ
فصل السلطات ، وهو مبدأ موحى ، مأخوذ من ملاحظة مونتسكيو لنظام
السياسي البريطاني . ومن هذا المعنى أيضاً ، أكد لينين هذه الصلة الضرورية
التي تربط بين النظرية والتطبيق ؛ أودين الفكر والواقع ، وأعلن لينين ، استحالة
وجود ثورة ، دون نظرية ثورية ، أي أن التطبيق لابد وأن يستند إلى نظرية (١)
ولقد وضع مونتسكيو ، أسس التحليل العلمي في النسخة Relativism
والحتمية determinism ، وكان هذا التحليل العلمي قاصراً من قبل ، على ميدان
« الطبيعة la nature » ، ولم يمتد إلى الطبيعة ، كي ينطلق إلى المجتمع .

فبه مونتسكيو الاذهان ، نحو التركيز والتأييد على وجود الحتمية في سياق
المجتمع ، تماماً كما توجد الحتمية في سياق الطبيعة — ولذلك نجد مونتسكيو حين
يردد كلمته المشهورة في كتابه «روح القوانين l'esprit des lois» فيقول :
« إن القوانين هي الرابطة الحتمية ؛ التي تصدر عن طبيعة الأشياء ، وفي هذا
المعنى ، يكون لكائنات جميعها قوانينها » .

ولقد قلنا في نهاية الفصل السابق ؛ إن كل كتابات «مونتسكيو» السياسية ،

(1) Lenin, Selected Works., Vol : Progress Publishers,
Moscow, 1967.

ومجرده السوسيولوجية قد اتسمت بالروح الوضعية *Positivism*. تلك الروح التي تمثل قطرة الدرناك في المنهج العلمي. بمعنى أننا في دراسة العلوم السياسية، إنما نأخذ أصلاً بدراسة ما هو كائن بالفعل، ولا نفضل إطلاقاً عما ينبغي أن يكون، كما أكد مونتسكيو على «النسبية»، في دراسة الظواهر السياسية استناداً إلى نسبية الزمان والمكان.

وهو يقول مونتسكيو بمبادئ جوهرية للبحث العلمي، مثل مبادئه «النسبية»، و«الوضعية»، في دراسة الظواهر، فقد رفته تلك المبادئ إلى أن يجعله أوجسب كونت، نفسه، فاعتبره رائداً من رواد علم الاجتماع الفرنسي، وعالماً سوسيولوجياً أصيلاً، كانظر كونت إلى مونتسكيو، على أنه: «المؤسس الأول لعلم الاجتماع الاستاتيكي الوضعي».

كما يدرس علماء السياسة، كتابات مونتسكيو ويعدونه العالم السياسي الأول، ونظر إليه الآن باعتباره الفيلسوف السياسي، الذي أصدر مختلف الكتابات والدراسات الرائعة، حول معالجة الظواهر السياسية، باعتبارها ظواهر عامة، لا كمجموعة من «التواعد القاعدية»، أو «الحاوي المنهجية للبحث».

الفصل الثالث التجربة السياسية

- تمهيد
- ولكن هل البطل، هو محرك التاريخ؟
- دور الجماهير والجماعات السياسية
- سوسيولوجية الثورة الفرنسية
- التنبؤ بالثورة
- الكتل والتجمعات السياسية
- الصراع بين الثورة والكنيسة
- التجديد في بناء القيم
- تعقيب ومنتقد

تعليد :

وفي جنوس التحليل السياسي للوثائق والسجلات والوقائع ، يؤكد فوستل دى كولانج ، على أن الدين في المجتمع الروماني القديم ، كان حجر الزاوية الذي يستند إليه المؤرخ في دراسة البناء الاجتماعي الروماني ، إلى الدرجة التي معها تطبق صورة الدين تماماً على الصورة الواقعية أو التاريخية لبناء الاجتماع الروماني القديم . فلا يمكننا وأن نؤرخ ، لطبيعة النظم السياسية والقضائية للمجتمعات القديمة ، إلا إذا أخذنا في إعتبارنا ، الدين ، كركيزة أساسية تركز عليها أبنيتها الاجتماعية . وكان فوستل دى كولانج ، مغرماً بالتفسير الاجتماعي للتاريخ ، ويفترض أن علم الاجتماع إنما يستند أساساً إلى التاريخ كما يجعل التاريخ في رأيه بطريقة سوسولوجية (١) . وفي ضوء هذا الفهم أرخ د فوستل دى كولانج ، ودرس النظم الاجتماعية في المجتمعات الرومانية واليونانية القديمة ، وأكد على أن النظام الديني في المجتمع الروماني القديم ، كان مرتبطاً أساساً بالأسرة ، وبقرائين الميراث والحلافة ، وبنظم الزواج والملكية والسلطة الأبوية *paternal authority* . وفي هذا الصدد يقول فوستل دى كولانج في كتابه الممتع « المدينة العتيقة *La Cité Antique* » ، إن الدراسة المقارنة للمعتقدات والقوانين إنما تظهر أن الدين البدائي إنما يؤسس الأسرة اليونانية والرومانية حيث أن الدين هو أساس الزواج والسلطة الأبوية ، كما يثبت نظم العلاقات ويؤكد قسامة الملكية وحق الميراث (٢) .

ولا يمكن أن تقصر الظواهر السياسية إلا في ضوء الدراسة للوضعية الحقة لوقائع

(1) Lowie, Robert., *The History of Ethnological Theory*, V French Sociology. London 1937.

(2) Radcliffe - Brown., A. R., *Structure And Function in Primitive Society*, London 1969 pp. 161-162.

التاريخ وذلك لتحليل الوقائع في ضوء الظروف الحضارية والموافق الاجتماعية التي أحاطت بأحداث التاريخ السياسي . وبالتالي لا تفسر الظروف السياسية إلا بالاستعانة بعلم الاجتماع والاقتصاد والدين ، على اعتبار أن ظروف السياسة ليست تتأجأ مباشراً لمدافع فردية سيطرت على الأبطال ، و د القادة هو ذلك . بقدر ما تفسرها أسبابها الاجتماعية ، التي هي د العلة الحقيقية ، لكافة ذراء أحداث ووقائع التاريخ .

ولكن هل الأبطال هو محرك التاريخ ؟

ليس البطل هو د محرك التاريخ ، وليس التاريخ هو تاريخ الأبطال . و د الصفوة المختارة Elite ، على ما يذكر د توماس كارلايل Carlyle ، وفردريك نيتشه Nietzsche ، فإن أمتع ما يقرأ الباحث في التاريخ ، إنما لا يتصل بماضي الملوك والعظماء ، وتاريخ الأبطال وازعماء ؛ بقدر ما يتصل بدراسة د التاريخ الاجتماعي ، الذي يميل هؤلاء د الأشخاص ، وأحوالهم وأحداثهم . فينبغي أن لا ندوس الأحداث كأحداث ، والواقع كواقع ، وإنما علينا أن نلنفت فوراً إلى ما وراء الأحداث ، وما وراء التاريخ meta - History . من قوى اجتماعية ، تعمل على خلق الأبطال والأحداث كما تتابع على مسرح التاريخ . بمعنى أن الحدث التاريخي إنما لا يرجع إل الإنسان الفرد ، بل يتضمن من حركة الكتلة الجمية ، فليس التاريخ سجلاً للأبطال والفائزين والفرهاء ، وليس قاصراً على الملوك وحدهم ، بقدر ما هو دراسة للظروف والموافق التي تملأها د العوامل الاقتصادية والعمليات الاجتماعية والموافق السياسية . وليس البطل إلا د الفرصة الاجتماعية المؤانية ، لأنه وليد الظروف الاجتماعية الجمية . والزمان التاريخي ليس قاصراً على الأبطال ، فسجل الإنسانية حافل بالأحداث التاريخية الجمية ، حيث أن التاريخ هو الزمان الجمعي le temps Collective ؛

على ما يؤكد : دور كاييم (١) ، وهو الزمان الذي يصدر عن طبيعة الحياة الاجتماعية وما يتطلبها من تنابع مختلف الوقائع والأحداث ، بمعنى أن الزمان الجمعي لا يتحقق وجوده إلا في حياة المجتمعات ، إذ أن التاريخ ليس إلا تاريخاً للمجتمعات ، ومن يبرهن حركة الديمقراطية الكلية لحرى الحياة الجمعية (٢) .

دور الجماهير والمجموعات السياسية :

فلم يوضع التاريخ للأبطال ، وإنما التاريخ هو تاريخ البشر . وصراع الكتل الجمعية وماضى الطبقات ، بآمالها وأحلامها وغاؤها وأمكاناتها الموضوعية ، تلك الأعمال والخواف التي تنبثق عن ظروف وضعية يحددها السباق السوسيوتاريخي (٣) .

وليس معنى ذلك أننا نقول من حقبة الأبطال وننكر وظائفهم التاريخية وأدوارهم الاجتماعية ، وإنما قصص القول بأن الأبطال هم « منتجات » أو مصنوعات اجتماعية ، صدرت عن جماعات وبيئات وثقافات ، ومن هنا ينبغي أن ندرس هؤلاء الأبطال باعتبارهم وظواهر ، أو عناصر اجتماعية ، وأوجودهم التاريخي إنما يبرهن « روح العصر » ، كمرآة تنمك عليها علاج الحياة ومواقفها الكلية ، باعتبارهم التعبير الواقعي عن شعور الجماعة نتيجة لانتماء هؤلاء الأبطال لمواقف اجتماعية وتاريخية ، وصورهم مما يسمى بالوجدان أو الشعور الجمعي الذي هو « شعور المجتمع أو وجدانه » *Consciousness of Society* ،

(1) Davy., Georges , Emile Durkheim, Collection Louis-M'chaud Paris. 1927 P. 182.

(2) Durkheim, Emile, Les Formes Élémentaires de la vie Religieuse, Paris 1912 P. 631.

(3) Merton Robert, Sociology of Knowledge, the Twentieth Century Sociology, New York 1945 p. 374.

ولا يصدر هذا الشعور إلا عن «روح الخرافات»، وسيكولوجية الكتل والزمج الاجتماعي، بمعنى أنه يصدر عن ذلك التركيب الاجتماعي بتصوراته وعشائره ومكوناته الجمعية^(١).

وبعداً، هيجل Hegel، عن البطل ودوره أود وظيفته، التاريخية، حيث يحقق الأبطال من أمثال: الاسكندر، وديوليوس قيصر، ودي نابليون، إرادة العالم، وينفذوا حكم التاريخ، ويضربون حركة المطلق، فالأبطال عند هيجل هم الأدوات، التي تحقق إرادة العالم، وهم الآلات، في يد المطلق، حين تحقق هذه الوسائل للشخص مطالب المطلق ومنطق التاريخ، وبعد تحقيق هذه المطالب سرعان ما تتساقط تلك الأبطال وتنتهي، مثل تهايت أوداق الحريف.

منه هي خلاصة الفكرة الهيكلية عن مفهوم البطل وإرادته التي تحقق إرادة حركة التاريخ وروح العالم. وما أقرب هذه الفكرة التي يقول بها هيجل بنظرية ماكس فيبر Weber، عن مقولة «الكاريزما Charisma»، حين ينفصل اجتماعياً بعض القيم الدينية والروحية، فتتحقق السلطة في «الزعيم الروحي»، أو تتجسد «القوة»، في الرائد السياسي، أو قد تكمن في كيان المحارب البطل، فالقائد الكاريزمي Charismatic Leader عند فيبر، هو مبعوث النبوة الإلهية، وتحقيق الخيرات لشعبه وبجتمه^(٢).

وقد يلقي «التاريخ الاجتماعي»، ضوءاً على ماضي «الثورات»، بتحليل أيديولوجية الطبقات، وأشكال التنظيم الاجتماعي، ومظاهر الحياة الدينية والسياسية

(1) - Tiryakian, Edward, Sociologism and existentialism
Princeton Hall, 1962.

(2) - Weber, Max., The Theory of Social and economic
Organization, trans, by Henderson and Parsons, Glencoe
1967, p. 358.

التي تبرز ملامح التركيب الاجتماعي ، بفئات وطوائف و طبقات المجتمع موضوع الدراسة . ولذلك يؤكد عالم الاجتماع البريطاني ، بوتومور Bottomore ، على ضرورة المزاجية بين دراسة البناءات الاجتماعية الحضارات القديمة ، والكشف عن التحليل التاريخي للطبقات والثورات (١) .

سوسيولوجية الثورة الفرنسية :

هناك شروط ينبغي أن تتوافر حين تؤرخ لسوسيولوجية الثورة الفرنسية ، حيث ينبغي أن نخلد الذات Self ، حتى نسمح للظواهر والأحداث أن تفصح عن نفسها ، فيتجاشى الباحث تلك الأحكام المعيارية ، ولا يتخذ من نفسه كوسيلة لتأييد أو رفض نزعات معينة ، فيستجيب أو يستقبح ، فهو ليس دحاميًا يدافع عن قضية ولا قاضيًا ، يحكم بالاداة ، وإنما هو قاضي محقق ، يستند إلى المصادر الاجتماعية ، والوثائق البقية المؤكدة ، وهذا هو التصور الأخلاقي لواجب المؤرخ الاجتماعي والسياسي الذي يلتزم الموضوعية في التاريخ . ومن الخطأ أن ينظر عالم الاجتماع التاريخي إلى الماضي بمنظار الواقع الراهن ، حيث يؤول حياة الماضي عبر الزمن إلى حياتنا الراهنة ، إنما عليه أن يلتصق تلك المعايير الاجتماعية التي سادت ، روح العصر ، والحقيقة التاريخية ليست قائمة في عقل المؤرخ الاجتماعي ، وإنما هي حقيقة موضوعية ، صدرت عن صراع الكتلة الجمعية ، وحرب الطبقات و- احتكاك الإنسان السياسي بالواقع التاريخي - .

والواقعة التاريخية ، هي آخر ما يقع ، إذا ما نظرنا إلى ما وراء الواقعة من مرجليات اجتماعية ، ودوافع طبقية تدفع وقائع التاريخ . فعبثاً ، بمعنى أن هناك أسباباً ظاهرة للوقائع والأحداث ولكن الأسباب الحقيقية هي أسباب اجتماعية

(١) Bottomore, T.B., Sociology: A Guide to Problems and Literature, Uawin University Books, London, 1963.

«وبنائية» باطنة، تخفى وراء هذه الاسباب الظاهرة، فقد تحول على سبيل المثال في تحليل انفجار الثورة في فرنسا، إن الظروف كانت مواتية، فلم تكن الحكومة قوية، وكانت الطبقة العاملة تمر بمرحلة بطالة وحرمان، كما نشأ جيل من «الثوار الاحرار» نظر الانتشار المظالم وانعدام الحريات، وتدهك القامات القائم بين طبقات المجتمع الفرنسي. تلك هي الاسباب الاجتماعية، الباطنة، أو غير المباشرة، فليس إطلاق النار في شوارع باريس، هو السبب الحقيقي لثورة ١٨٤٨، وإنما هناك الكثير من الدوافع الاجتماعية والاسباب الجوهرية التي تجعل من إطلاق النار في شوارع باريس هو السبب الظاهري الاخير، وهو «قشة» التي قصمت ظهر البعير، فو أن إطلاق النار لم يحدث لما حال ذلك دون انفجار الثورة، وإذا ما حذفنا ذهنياً هذا الحادث الظاهري، فإن الاحداث الباطنة والسوايق الاجتماعية «الكامنة»، إنما تمثل في مجموعها الاسباب الحقيقية أو غير المباشرة في انفجار الثورة. أما هذا «السبب الظاهري المباشر» لإطلاق النار فليس سوى «الفرصة المواتية»، فينبغي أن نميز بين «الاسباب الاجتماعية» والاسباب الظاهرية التي تخلف للفرصة المواتية. فقتل أرشيدوق النمسا في «سراجيفو» عام ١٩١٤، ليس هو السبب الحقيقي لقيام الحرب العالمية الأولى، وإنما هو «السبب الظاهري أو الفرصة المواتية» لاشتعال الحرب.

ولقد صدوت الكثير من المدارس السوسيولوجية التي تقصر حركة التاريخ الاجتماعي، والتي تقترض الاسباب الحقيقية للوقائع التاريخية، فلقد أكد «ماركس» Marx، مثلاً على أثر العامل الاقتصادي ودوره في نشأة النظم وتقسيم الحركة الجدلية للتاريخ^(١). بينما يؤكد «ماكس» Weber «على العامل الديني

(1) Marx-Engels. Selected Works. Vol. 1-Fifth Impression
Moscow, 1962: p. 34.

في تفسير العلاقة بين ظهور الرأسمالية ونشأة البروتستانتية^(١) وهناك مدارس أو مذاهب اجتماعية أخرى تفسر انتشار الديمقراطية في القرن اثناعشر كمنفعة لصدور الحركات الثورية والوطنية ، ، وتربط هذه المذاهب الاجتماعية بين ظهور الرق عند الرومان ونشأة المسيحية ، أو بين التنافس في الاسواق وقيام الحروب العالمية ، وكلها مدارس في « التفسير الاجتماعي للتاريخ » ، إما من زاوية الاقتصاد أو الدين أو السياسة ، وكلها زوايا سوسيولوجية الاصل والمضمون .

تفسير الثورة :

وإذا ما حاولنا تفسير الثورة ، نجد أنها ضرورة اجتماعية وظاهرة مشروعة فمن حق الشعوب أن تتمرّد وتتنصر ، ومن طبيعة المجتمعات أن تتغير ، وتجهد نفسها ، . وتعبّر الثورة ، عن حالة من التفكك الذي يترى البناء الاجتماعي ، لوجود ظواهر مرضية ، تقبل إلى نظم المجتمع ، ولإزالة هذه الاعراض والصوب ، تقوم الثورة بعملية تغير « منوى لإعادة التكامل الاجتماعي وإحلال الصحة الاجتماعية ، واستعادة النظم والظواهر السليمة ؛ بمعنى أننا ينبغي أن نميز بين البناء الاجتماعي في حالة تفككه واضطرابه Social dysphoria ، وبين رجوع المجتمع ثانية إلى حالة الملائمة والتكامل Social euphoria^(٢) .

والثورة هي ، هزة جماعية ، وحركة اجتماعية ، بنائية ، ترفض الوضع الراهن ، وهي بالنسبة للبناء الاجتماعي تنبه « التشقق الجيولوجي ، بالنسبة لباطن

(1) Weber- Max, The Theory of Social and Economic Organization- trans-by Henderson and Parsons- Glencoe-1967.

(2) Radcliffe-Brown- A.R., Structure and Function in Primitive Society London 1956. p. 206.

الأرض ؛ حيث يتقطع في الثورات ذلك التسايع المستمر أو الرتيب لتطور الأحداث على مسرح التاريخ ؛ وتكون ، النظم ، في مديس الحاجة إلى التغيير والتجديد نظراً لتفرق الصلة بين طبقات المجتمع ، وإذا ما عقدنا المقارنات بين ظواهر الثورات ، وبين الميوب والميوب الميولوجية ؛ لوجدنا أن الظاهرة الميولوجية إنما تفسرها أسبابها الفيزيكية والأرضية ؛ نظسراً لتشقق الاسطح والطبقات وتغير الظاهرات الميومورفولوجية في باطن الأرض ، أما الثورة فهي نتاج أعمال وجهود البشر نظراً لتفرق الانسجة والحلايا الاجتماعية . فكما أن الانفجارات البركانية ، هي ظاهرة فيزيكية ولازمة لطبيعة باطن الأرض ؛ وهي طبيعة جيولوجية بحتة ، فإن الانفجارات الاجتماعية ؛ هي ظاهرة تاريخية ولازمة البناء الاجتماعي الانساني ، لزوم الانفجار البركاني للبناء الفيزيقي للطبقات الأرضية .

وقبل قيام الثورة الفرنسية ، كان المجتمع الفرنسي في القرون الوسطى ممثلاً إلى حد بعيد لكل ملامح البناء الاجتماعي الاقطاعي في أوروبا ، حيث كانت فرنسا هي مركز الاقطاع منذ عهد النهضة . وتاريخ فرنسا الاجتماعي وهو التاريخ الحقيقي لماضي الصراع الطبقي ، فقد كشف «ماركس Marx» ، في ضوء هذا التاريخ عن أيديولوجية الطبقات وعن قانون النضال الطبقي ، حيث صدت حل المسرح الفرنسي طبقات متفارقة المخطوط والامتيازات كي تتصارع وتضطرم ، وأتم الثوريون حكم البورجوازية الصرف في قفاه كلاسيكي على حد تعبير ماركس في مقدمة كتابه « الثامن عشر من برومير لويس بوناپرت » .

وقد ظهر أبطال الثورة الفرنسية من أمثال « دانتون Danton » ، و« روبسبير Robespierre » ، و« سانت جوست Saint-Just » ، و« نابليون Napoleon » هؤلاء الذين نسفوا بثورتهم الطامرة أصول الاقطاع . وحسدوا رؤوسه ؛

لإقتضار المباحث الثورية ، وكان شعاره دانتون ، الذي هو أكبر معلم عرفه التاريخ في التاكثيك الثوري . المرأة أيضا ، المرأة دائما . . (١) ولقد أتاح نابليون تلك الفرص والظروف التي ينسب فيها وحده ظهور المنافسة الحرة Free Competition وتوزيع الأرض المستغلة ، واستخدام الطاقة الإنتاجية والصناعية . ثم انطلق نابليون بعد ذلك إلى هدم النظم القطاعية فيها وراه الحدود الفرنسية ، إلى المدى الذي كان فيه ذلك ضروريا ، وذلك لتزويد المجتمع البروجوازي الفرنسي الناشئ باليشة الملائمة وسط القارة الأوروبية ، (٢) .

وإذا ما أرخنا الصراع الاجتماعي الذي ساد المجتمع الفرنسي ، لوجدنا أن العوامل الاقتصادية والدينية والاجتماعية قد انصهرت بوضوح في بوتقة الثورة الفرنسية ، فقد ظهرت الصراعات بين طبقة النبالة وسُلطان الحكم الملكي للطلق وشهد القرن الثامن عشر كفاح النبلاء ضد الملكية المتعادية ، وبينما تمتحنت الكنيسة بالسلطة الزمنية ، كانت طبقة النبالة تبيت بالمداة وقتل القانون ، وتغنى المنافسة ، وتوزع المناصب توزيعاً ظالماً ، بمعنى أن المجتمع الفرنسي كان منقسماً على حد ذاته ، حيث مزقت الصراعات الداخلية بين فئات النبلاء وجامعي الفلاحين . وكان النبيل يتشقق بمرآة أصله البيورجوي الممتد إلى غزاة الفرنجة ، أما السامة فتفتقر إلى هذا الدم الاسترطابي الذي يتوارده نبلاء السيف noblesse d'epes ، ونبلاء الرداء noblesse de robe . .

(١) لينين : « المحاضرات » المجلد الاول ، والمجلد الثاني ، دار النظم ، موسكو .

١٩٦٠ م ٥٧٩ .

(2) Marx Engels. Selected Works Vol. I. Fifth Impression Moscow, 1962 p. 247.

وتقوم طبقة النبالة على المعروف بخدمة الملك في الحرب، وحفظ النظام في الريف ولذلك تمتعت بالاعفاء من بعض الضرائب، وخصصت لها مناصب محددة، مثل قيادات القوات المسلحة، ومناصب السفراء، والمناصب العليا في الكنيسة، ولذلك كان نبلاء فرنسا يحتكرون أكبر المناصب والمراكز، بينما تقع نبلاء الريف بوظائف في المرتبة الثانية من الأهمية. وامتيازات النبالة، هي امتيازات إقطاعية، منها ما يتصل بالأرض، ومنها ما يتصل بالأشخاص، حين يحتكر النبيل، الطاحون ومصيرة التيد والخبز، كما يفرض سلطانه على دور المحاكم والقضاء فيحصل منها على مورد آخر من الدخل، وكل هذه امتيازات تتصل بالناس، أما امتيازات الأرض فتتصل بالتفاوض عن دفع الضرائب، حيث تمتلك طبقة النبالة نحو أراضى فرنسا. ومن حيث المنصب والوظيفة، تنقسم طبقة النبالة إلى من ينتمى إلى الاسر الحرة أو أعضاء البرلمان، فالاسر الحرة تحتكر كبار الموظفين وأعضاء البرلمان، وهؤلاء يحتكرون نبلاء المدن وسراة البورجوازيين الذين اشتدوا مناصبهم وألقابهم، ويقول المؤرخ الاجتماعي، نورمان هامبسن Norman Hampson في كتابه، التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية Social History of the French Revolution، أن شراء وظيفة قائد كتيبة عادية قد تكلف ٤٠٠٠ ليرة فرنسية، بينما تكلف قيادة عامة من قيادات الجيش أضعاف هذا المبلغ، (١) ومن هنا ظهرت فوارق المكافاة أو المركز الاجتماعي Prestige. فمقارنة الأصل والوظيفة الاجتماعية ودرجة الترتاب من البلاط كونه جميعها شكلا مقدما من المركز أو المكافاة كما تعبر جميعها عن سلسلة من الاختصاصات الداخلية تميزها درجة بنى، الإحتراف والاستيلاء. فنبلاء البلاط

(١) نورمان هامبسن التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية، ترجمة فؤاد أحمد عوض

ومراجعة الدكتور محمد أنيس ووزارة الثقافة دار الكتاب العربي ص ٢١.

يبدون الاحترار لنبله الرفيع والاقاليم ، نتيجة لتلك المركزية التي اتجهوا لئلا
الرامع عشر ، حيث ديمتار نبلاء البلاط من أسر نبلاء السيف المرموقة .
أما الكنيسة ، فكانت هيئة شبه مستقلة ، تملك معظم أراضي الإقطاع المغفرة
من الضرائب ، وتشرّف على مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية ؛ ويمسك على
برامج التعليم سيطرة كاملة ، وترائب الصحافة والطبوعات حماية للذين والأخلاق .
وكان رجال الدين يمثلون الطبقة الأولى التي تشرّف على تسجيل المواليد والوفيات
وترائب سجلات الزيجات ، فسيطرت الكنيسة على كل منى من مناحى النظام
الاجتماعى الفرنسى ، فكانت معدراً للمالقة فى الممان ؛ وفى مدارسها يتربى أبناء النبلاء
وكبار البورجوازين ، وفى كنائسها ينظم الصناع والفلاح عملهم طبقاً لحوايت
الصلاة والمباداة .

النتيجة بالقوة :

١ - فى هذا الجو الإقطاعى الرهيب ، تمجد المجتمع الفرنسى أشد التقيد ،
فسادت القيمات الطبقية واتسعت الفروق الاقتصادية وتوترت الحياة الاجتماعية
والدينية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وأصبح مألوفاً أن يقتبأ الناس بشورة
إجتماعية وشبكة . حيث ازداد وحى الطبقة الوسطى ومكانتها الاقتصادية النامية ،
فلقيت الارتباطية مقاومة شديدة من د البورجوازية المتطلعة إلى المكافاة ،
وشمرت جماعات الفلاحين يوطأة الانجهاامات الاقتصادية المعاكسة والناجاة من
ازجسية الإقطاعية ، ولوح شبح الثورة الاجتماعية الكبرى ، قبل حدوث الزوال
الثورى النيف الذى كان يحبه القدر لفرنسا (١) . فلقد زادت حدة التناقض بين
نظام المراتب الاجتماعية والبناء الاقتصادى الفرنسى ، كما أن مبادئ التوروقدم
الحضارة والصناعة ولزدياد الوعى الطبقي ، جعل من الثورة المعارمة أمراً عتوما .

(1) Marx, Karl, The Poverty of Philosophy, Moscow, 1966.
p. 152

ولقد اتسمت حركة التنوير *enlightenment* ، هجوم صائب على الكنيسة ، فأعلن كوندورسيه Condorcet ، في صالونات باريس الحرب على رجال الدين ، وكذلك فعل فولتير *Voltaire* ، حيث اقلب على اللاموت الكاثوليكي بسجونه اللاذعة ولجته العنيفة . وكان المدو الحقيقى لجماعه الفلاحين هو صاحب الأرض الذى يهدمهم جسمه بانزاع أرضهم ، وهذا هو السبب الذى من أجله لم يهجم الفلاحون عام ١٧٨٩ على غنائس النبلاء ، بل على « حقوق الملكية الإقطاعية » .

وبدأت النبالة بمركة دفاعية ضد الطبقة الوسطى وثراءها وطموحها ، حيث أدى بيع الوظائف المدنية والعسكرية إلى دخول وتسلل الطبقة الوسطى ، حين هجرت النبالة عن المنفع لترفها وإسرافها الكاذب ، وبدأ البورجوازيون يحملون على مراده النبلاء ورجال البلاط ولكي يوقف هذا التيار البورجوازي الضخم ، أصبحت جميع الترفيات لوظائف الأساقفة قاصرة على النبلاء في ظل حكم لويس السادس عشر فامتلاك الكنيسة بالأساقفة النبلاء . وغرقت الحكومة في القروض والديون ، فطالب كالون Calonne ، المراقب للمالى العام بزيادة الضرائب على طبق النبلاء ورجال الدين ، لتعزير مالية الدولة والوفاء بالقروض والديون . وانضمت الطبقة الأرستقراطية الممتدة في الكهنة والنبالة ، وتضافرت جهودها ضد كالون ، فمزله لويس ، وجاء بعده « برييه Brienne » ، وليس الأساقفة إلا أن هذا الأخير لم يستطع أن يجمع الأموال المطلوبة ، فقال « برييه » كلمته المشهورة ، « ما دام النبلاء ورجال الدين قد تخدوا عن الملك ، ساميهم الطيعي ، فلا بد له من الارتقاء في أوسنان العامة » (١) . وهنا سارت الأرستقراطية ضد

(١) نورمان هاميس ، « التاريخ الاجتماعى لثورة الفرنسية » ترجمة فؤاد انغوشا
ومراجعة الدكتور محمد أنيس ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٤ .

الملك وانتصرت في جولاتها الأولى ، وأحرق الباريسيون دمية تمثل دبرين ،
التي قدم استقالته لاختلال الأمن والنظام في المدينة . فطالب للثلاث بمضاعفة بمثل
الطبقة الثالثة في مجلس طبقات الأمة ، ، حتى تلبس طبقة العامة ، دورها عند
اتحاد النبالة والكهانة .

حماية الثورة :

ب — لقد شجر الصداق الذي تبرعته كلمات جورج صاند *George Sand* في
عبارتها الثورية الخالدة والحرب أو الموت ، الصراع الدموي *la lutte Sanguinaire*
أو العدم *le néant* ، ^(١) . ولم يكن الصراع بين الأرستقراطية والعامة سياسياً
أو اقتصادياً ، بل كان اجتماعياً ؛ حيث صمم النبلاء على الاحتفاظ بألقابهم
وامتيازات طبقتهم المنفصلة في كيان مجتمع المراتب ، تلك الامتيازات التي هي
دليله المكانة الاجتماعية ، أكثر منها مصدراً للثروة . ولذلك تمسكت النبالة بمحصل
الألقاب واحتكار الوظائف القضائية والمناصب العسكرية والبحرية ؛ وطالب
النبلاء بالعودة إلى تقاليد الفروسية القديمة وبإلغاء شراء الوظائف التي تخلع
ألقاب النبالة على من يشترونها ، مع تحريم شراء الضياع وأقطاعيات على
الطبقة الثالثة .

وعلى العكس من ذلك ، صممت الطبقة الثالثة ، على قلب مفهوم المجتمع
الذي التزم به النبلاء ، وطالب العامة أن تحمل الكفامة ، محل التاريخ البيولوجي
وعرقا الدم وأصله النسب ، وتمسكت جماهير البروليتاريا بمجتمع الفرص
المتكافئة في ميدان التربية والتعليم ، واستبدال العظم المتيقة بأفكار التنوير ، وإلغاء
الامتيازات الطبقة والتطلع إلى نصيب من السلطة السياسية . وكانت هذه المطالب

(1) Marx, Karl, *The Poverty of Philosophy*, Moscow,
Fourth Printing, 1966.

من نفسها أمدافاً وتطلعات الطبقة البورجوازية .

وتواترت الأنباء في ١٢ يوليو ١٧٨٩ عن قيام باريس بالثورة وإشعال النار في جرك البلدية ، ونهب مخازن السلاح ، ثم نصب القتال بين الجيش وجماعية العامة (١) . فلقد انتشرت المجاعة ونفذت الميزن وإرثع من الحزن ، وضاع محصول الغلال الذي أمناه البرد المتساقط ، فنهبت قوافل الطعام ، وأحيط كل غنير بمشود من الناس ، وعملت ودعاء المواصلات على تصديق الناس لأقرب الشائعات ، وتوهمها ، وبدأت البورجوازية في إتهاز الفرصة ، حتى قلب الحركة من دفقة ، إلى « ثورة » ، فكانت رجال الحرس الوطني الفرنسي وأمدته بالأموال والسلاح للبطرة على الموقف ، وتأييد مجلس طبقات الأمة ، فراح المتاريس ترتفع ، وحفرت الخنادق ، ووصل الثوار إلى عزن البارود في حصن الباستيل المشهور ، لمحاصره واستولوا عليه . وانتصرت جماعية البروليتاريا ، حين تهاوى الباستيل رمز الظلم والانقطاع ، وتنازلت الأرستقراطية عن سائر امتيازاتها العنقية في ليلة أغسطس المشهورة .

وإزاء هذه الضربات البروليتارية المظفرة ، حافظ الحرس الوطني البورجوازي على الأمن والنظام ، وصدد الأقرار الخاص ببيع أملاك الكنيسة التي قدوما « جارو Gerard » بنحو ثلاثة مليارات من الهئات الفرنسية . وسامت كل الطبقات في شراء ضياع الانقطاع الكسي ، وكان كثرة المشتريين من جماعية الفلاحين ، كما لم ينفر التجلاء من تجريد الكنيسة من أراضيها وامتلاكها (٢) .

الكتل والتجمعات السياسية :

٢ - في هذا الجو الاجتماعي المضطرب . ظهر أبطال الثورة ، من أمثال « اثون ،

(١) المرجع السابق ، التاريخ الاجتماعي لثورة الفرنسية ، ص ٨١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

و « روبسيير » و « مارا Marat » و « لافاييت Lafayette » ، و « لايجرون »
 من أنفسهم كأفراد ، وإنما يمثلون شرائح من « فرق وجماعات وكتل جمعية » ،
 حسدت عن طبقات مهنية جمعيتها وحدة الآلام والآمال ، فظهر « الجيروند »
 Girondin ، و « اليعاقبة Jacobin » وجماعات « الجبلين Montagnards »
 و « الصان كيلوت Sans-Culottes » ، وكانت « الكومونات » في أيدي اليسار (١)
 والقرى في أيدي أعداء الاقطاع ، والبلديات في أيدي البورجوازيين وطبقة
 الأغنياء من أنصار الملكية الدستورية .

ويمثل « دانتون » و « روبسيير » قادة اليسار من كبار اليعاقبة ، و « هم
 أكثر الطبقات الثورية تطرفا . أما « الجيروند » فهم جماعة من اقليم الجيروند كما
 يدل على ذلك اسمها ؛ وتضم المحامين ورجال الأعمال من الناب ، وكانت لهم
 صحافتهم الخاصة التي تهاجم فيها خصوم الثورة ، فكبت « مدام رولان Mme
 Roland » تقول : « إن الحرب الأهلية ستكون مدرسة عظيمة لفضيحة العامة » ،
 وأن السلام فيه نكسة لنا ، ولا سبيل أمانا لتجديد إلا سبيل الدم » .

وكان « الجبلين » ثواراً يشبهون الجيروند في إنجاعات العقيدة والفكر
 والمزاج ، والأصل الاجتماعي ، كلاماً متعلق بالثورة وبمبادئ الجمهورية ،
 وكلامها يكره الامتيازات ويساعد الاكثريوس ، وكلامها يعلم بالرفاقية الاجتماعية
 ويبناء فرنسا الجديدة وهي أكثر ثراء واستنارة وإنسانية .

أما « الصان كيلوت » فهم الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ، حتى
 بطولات الكرب ، لأنهم بسطاء أو « قوم وسط بين البورجوازية وصغار

(١) « الكومون La Commune » تسمى عاصمة ، وهي أدنى وحدة ادارية .
 كما أنها مركز تفرط السكان ، فقد تفتش في « قرية » أول « مينة » مثل باريس
 نفسها .

البروليتاريام، وم طبقة معصمة لامتلاك، وتمثل طبقة الصان كيلوت النصر
 الغالب من سكان حواضر فرنسا، وم طبقة وأصحاب الماكين والحرفين، ويمثل
 أصحاب الحرف انجما أكثر يسارية وتطرفاً في جماعة الصان كيلوت، لأنهم
 دخلوا ألفوا شغل العيش، وعانوا الكثير من ضراوة معاملة السلطة واستبداد
 النابغة ونسوة الامتيازات، فنادوا باعدام وابادة جميع أعداء الثورة.

ولقد آمن الجيروندي بأن «دوبسيير» وأتباعه من زعماء اليقانية إنما ينطلقون
 إلى دكتاتورية إرهابية دموية، وحدثت اختلافات هائلة بين سائر التجمعات
 والكتل والطبقات، فقبل الجيروندي معارضة الملكيين، وقبل الجبلين معارضة
 الصان كيلوت، ولم يخل النضال الثوري من عنصر الصراع الطبقي، حيث
 أن الانقسامات داخل المدينة لم تفسر إلا بأسبابها الاقتصادية، فقام الصان
 كيلوت والجبلين، «بالتشهير بحرب الفقراء ضد الاغنياء» (١).

وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢ وهو يوم مشهود في التاريخ الاجتماعي الفرنسي،
 تجمع الصان كيلوت، وجعلوا من أنفسهم «كوموناريون»، اشتهر في التاريخ
 الفرنسي باسم *La Commune du 10 Aout* حيث توجه الصان كيلوت،
 إلى قصر التويلري، ووقع بينهم وبين الحرس الملكي قتال دموي عنيف؛ انتهى
 باحتلال قصر التويلري، واستيلاء الصان كيلوت، على العربات من شوارع
 باريس، وطردها القضاء وضباط البوليس، وأقاموا المحاكم الشعبية وتصفوا
 أعداء الثورة.

وفي نفس هذه الفترة التاريخية، حاول الجيروندي أن يمنوا ثمار ما قام به
 الصان كيلوت، ففقدوا كل الوزارات عدا وزارة العدل التي تولها المعضو
 البيوتوني «دانون»، وأمر الجيروندي يوقف الملك وطرد الكتبة الصاغة واصدیان

النشريات لصالح جماهير الفلاحين. بينما طالب اليقافية بخلع الملك ، ومحاكمة من ساروا في صفه على يد محكمة ثورية خاصة. إلا أن الجيش البروسي كان قد عبر الحدود الفرنسية في ١٦ أغسطس ، حتى تشمل حركة ١٠ أغسطس الثورية ، وتقدم البروسيون نحو باريس لحاية « سلطان الملك المصلح الطيب » لويس السادس عشر ؛ وللتفاد من نظام حكمه الملكي ، واستولى الجيش الغازي على عدد من القلاع الحصينة على الحدود الفرنسية . وبدأت جماعة اليقافية في الاستعداد للدفاع المستميت عن باريس بقيادة مجلس الوزراء تحت زعامة « داتون » . وهب الباريسيون بمعدون السلاح ، وزحفن البروليتاريا دفعا عن الثورة ، واتفقت « جماعات المهرند واليماية والمان كيلوت » على القيام بحركة موحدة للدفاع الوطني ، وزحفن الأعداد الهائلة على تلال « فالمي Valmy » حيث كان اللقاء التاريخي الحاسم مع الجيش البروسي الغازي ، وهناك انتصرت الثورة ، وانسحب البروسيون بعد فالمي إلى الحدود ، وأعلنت « الجمهورية » .

ولقد أصبح « حكم الجمهورية » في نظر اليقافية هو « حكم الفضيحة » ، وأعلن روبيسييه الحرب ضد كل الشرور ، حيث تنوحد كل المجهود من أجل قضية الفضيحة فيحكم الشعب « بقانون العقل » ، ويحكم أعدائه « بقانون الارهاب » . وهكذا تحققت دكتاتورية البروليتاريا قبل ظهور الماركسية ، فرفضت الثورة الشعارات الباقية . ولا غرو ولا شفقة على الخيانة ، الأمر الذي مه ساد العنف والغضب وسفك الدماء ، وطالب اليقافية بأن يكون « الإرهاب هو البرنامج » ؛ بإعلان لليقاف على كل من تلعبه شبه المراء للثورة .

الصراع بين « الثورة » و« الكنيسة » :

د — ارتبط الدفاع الثوري الحمى بالدماء عند الكنيسة ، فخر « لا يترك لكل أيقونية سوى جرس كنيسة واحد ، وإن تصهر الاجراس الباقية لتضج المدافع

من معدنها، وأطلقت على المواليد أسماء دغور مسيحية، وألغيت الأعياد الدينية وظهر التقويم الثوري الجديد على أساس عشري؛ وحلت الأيام العشرة محل الأسبوع، وانخفضت أيام الآحاد، وشجر الصراع بين الثورة والكنيسة؛ بإصدار الأمر بـ «زواج القساوسة والرهبان»، وأن يبقى كل منهم طفلاً أو يمول شيخاً (١)، وهاجمت الثورة السلطة الدينية ونددت بالرهبة والتبتل وصدم الزواج، لأن الرهبة خطر على الفضيلة وإهانة الطبيعة، والكلار لواجب الانحجاب للإناث المحبين لوطنهم.

وفي عصر الارهاب، حلت عبادة الجمهورية والفضيلة، محل المبادات الخرافية والأوامر الغيبية، وجردت الكنائس من النافس والزخارف والآنية المقدسة، وأرسلت جميعاً إلى الخزانة القومية؛ وقامت البروليتاريا بحركة التحرير القسطنطينية على الأكايروس ليستقبلوا أو يزوجوا، وقام «السان كيلوت» بالمراكب الساخرة التي تهاجم بشعائر الكنيسة، حين يتقدم مراكب جيوش الثورة من يردى «برنس الأسقف» بينما يستخدم قارع الطبل «عصا الأسقف القرمزية».

وفي ظل الارهاب الثوري النيف، ظهرت التعاليم الجديدة في فلسفة الثورة الفرنسية، وصدرت المبادئ التي تؤكد الحرية وتعل من قيمة الفكر، وأصبح «العتل في الجمهورية هو الإله المنتظم للكون»، فالجمهوري الحق لا يؤمن بالخرافة ولا يجثوا أمام الأصنام؛ ولا يعبسوى الحرية، كما أصبح الصليب أمام الجمهوري شعاراً معادياً للثورة.

وباندحار النباله وتجرير الكنيسة، إذ دهرت البوردجوارية، وتمدت البروليتاريا من أنها كانت بمثابة «الأكباش الحديدية» (٢) التي استخدمتها

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥.

(٢) هورو ج: «أمول فلسفة الطبيعة الوسيطية» ص ١٢٠٠.

الظاهر، مطبعة الرباط، بنفاد ١٩٦٠ ص ٣٥.

البورجوازية لتحقيق أهدافها في تلك الحركة الثورية التي فيها أصبحت البروليتاريا ، ضحية هذا الانتصار المزعزع ، ، فشرع الصراع بينها وبين البورجوازية (١) ، حين ظهرت حركة « الشبيبة الذهبية » jeunesse dorée ، وم جماعة يمينية من أبناء البورجوازية الذين هربوا من الخدمة العسكرية ، وهاجموا يداي الأراهاب ونظامه ، واندوا بالقضاء قانون الاشتباه ، وبوقف اضطهاد الاشراف والاكثيروس والتمسك بسيادة القانون الذي يحمي كل الأفسراد والطبقات ، وبذلك تعبر فرنسا نفسها من الأراهاب الثوري العنيف ، باتتاه حمامات الدم ، وخلق نادي العاقبة مع إعدام قادتهم ، فيطر البين والجيروند والمتلون ، وبدأ عصر أعداء الأراهاب ؛ الذي سمي بعصر الأراهاب الأبيض .

التجديد في بناء القيم :

هـ - في نهاية المطاف تألفت ، جمهورية اجتماعية ، يترهما البورجوازيين وسقطت قلاع البروليتاريا في كل مكان ، وتركوأ مناصب السلطة كي يشغلها المتلون . وبذلك كان الأساس النظري للثورة الفرنسية ، يختلف تماماً بل ويناقض ذلك الأساس المادى الماركسي ؛ حيث نظرت الثورة إلى القيم الخلقية ، كأساس البناء الاجتماعي ، ولم تنظر إلى البنية المادية أو البناء الأسفل كأساس يمكن البناء الخلقية ، كما يدعى الماركسيون (٢) . ولم قلب الثورة شكل الملكية ونظامها رأساً على عقب ، لأن الأمر لم يكن سوى تعديلاً لنظام الملكية ، أو تسجيلاً لانحماات وجمعت فعلاً في ظل النظام القديم ، فقد قل عدد ضياع النبلاء ، وإزدادت ملكية الفلاحين ، وسادت الأفكار الممنعة والوسيلة ، لا الآراء الاشتراكية

(1) Marx, Karl., The Poverty of Philosophy. Fourth printing, Moscow 1966. pp 105-107.

(2) Marx Engels, Selected Works., Fifth Printing Vol : II Moscow 1962. p. 98.

المتطرفة، ولم تشرع الثورة أية تشريعات طبقية، وإنما حاولت إيجاد البناء الاجتماعي المنسجم الذي يضمن فيه كل فرد بمصلحته الاقتصادية الخاصة في سبيل رفاهية الجماعة، بالعمل على تخفيف شقاء الإنسان الكادح، وحماية رأس المال الوطني، وتوزيع الأرض، بحيث تصبح العدالة الاجتماعية وتصبح الحالة الراهنة «حالة قاضلة»، فلقد جردت الكنيسة وخسرت أملاكها، وسقط المجتمع الطبقي، واختفت المشائخ الاقطاعية التي كانت الرموز الخارجية للقضاء الاقطاعي، واختفاؤها هو التعبير المادي عن التغير الذي طرأ على شكل العلاقات الاجتماعية، مع ظهور الانحطاط الاقتصادي الجديدة.

وختاماً؛ فلقد كانت الثورة العانية، كاتسلة التي أكلت بنيتها؛ لحصدت القصة الثورية رؤوس أبطالها، ولم يتابع المسار ويخفى الثمار سوى «نابليون، البطل للتطلع الذي كان بمثابة حركة التقدم الضرورية في «جدل التاريخ». فكل ظهور نابليون هو لحظة التحول الحاسمة والاحتية في تغيير التاريخ الاجتماعي لأوروبا بأسرها. ولذلك نظر «ميجل» الى نابليون، على أنه «روح العالم على ظهر جواده». ولقد كان «ميجل» مسبباً بالثورة البورجوازية التي انتصرت في فرنسا، فقلبت النظم الاقطاعية القديمة، وهدم مدفع نابليون البناء الاجتماعي القديم، بعد أن كان يظن فيما مضى من المصور الوسطى، أن الاقطاع هو النظام الازلي الثابت، تعقيب ومناقشة:

إن كل ما يتيناغيا يتعلق «بموسولوجيا التاريخ»، هو أن كل العمليات والمواقف في التاريخ إنما تقوم على أساس الفكرة النسبية Relativity نظراً لتباين المتغيرات واختلاف المصور والثقافات^(١). كما تلزم فلسفة الموقف في

(1) Merton, Robert-, Social-Theory and Social Structure
Glencoe. New York 1962- p. 503

التاريخ بالمنهج الوظيفي Functional Method في تفسير الظواهر والاحداث التاريخية والاجتماعية وذلك هي « محاولة عالم الاجتماع التاريخي » في دراسته للاتجاه السوسيوتاريخي ، وذلك هي « وجهة نظره البنائية » في تحليل الوقائع الجزئية بالنظر إلى سياقها العام ، ودون عزلها أو فصلها عن ذلك البناء الكلي التي هي جزء فيه ، حيث يضيء البناء الاجتماعي والسياق التاريخي على مختلف التفصيلات والاحداث الجزئية وعفراها ومبناها (١) .

بمعنى أننا لا يمكن أن نفصل فصلاً تاماً بين وقائع التاريخ ، فإن واقعة إبحار نابليون بحملة من طرولون ، لا تنفصل إطلاقاً عن عملية غزو مصر ، كما أن دعوة محمد علي للماليات في القلعة لا يمكن عزلها عن عملية الغدو بهم ، فالوقائع التاريخية ليست منفصلة ، أو منفصلة الواحدة عن الأخرى كوقائع الطبيعة ، وإنما هي « معطاة ككل وظيفي » ، تتصل فيه الاحداث وتتراجل بحيث يضيء بعضها بعضاً ويفسر السابق اللاحق ، ويكشف المقدم عن التالى . فلا يمكن أن تتصور الاحداث والوقائع في عزلتها ، بانزاعها من بنائها الكلي ، وإنما تفهما فقط بالتحامها في سياقها التاريخي وإطارها الاجتماعي .

ولذلك نكاد إلى هذا الأساس ، سيطرت وجهة النظر البنائية على الاتجاه السوسيوتاريخي ، فلا نفهم أية فكرة جزئية إلا من خلال سياقها العقلي الكامن في بنية الحقيقة السوسيوتاريخية ، ، ناك التي لا تقسم بالثبات الاستاتيكي على ما تصور الفلاسفة ، لكنها حافلة بشتى « القوى » و « الصراعات » و « المتناقضات » المبنية أصلاً من دينامية العمليات والمواقف ، وما تحوى من دافعات محركة لمسار التاريخ .

(١) Mannheim, Karl-, *Essays on Sociology of Knowledge*,
Routledge, London. 1963. p. 9.

ونختاماً — فإن أحداث التاريخ وعملها ومواقفه لا يمكن فصلها عن سياقها الاجتماعي ، أو تفسيرها بعيداً عن « مواقف الحياة » *Life - Situations* ، فلماضى التاريخى هو جزء لا يتجزأ من الماضى الاجتماعى والتراث الثقافى ، كما أن « موقف الابطال » فى التاريخ إنما يتكامل مع طبيعة المواقف السوسيو تاريخية . لان التاريخ نفسه هو حركة جدلية لا يمكن نزعها عن الاطار الاجتماعى التى هى جزء فيه ، حيث تسيطر تلك الحركة الجدلية ، تماماً على مسار التاريخ الاجتماعى وبذلك لا يمكن عزلها عن مضمونها الذى يضئ على مسار التاريخ منطقته ومعقوليته كما وقد يعطيه أيضاً المعنى والسياق ، و « الفهم والفحوى » ، فيقبن لنا فوراً مغزاه ومبناه .

الفصل الرابع

الفكر السياسي وروح العصر

- تعميم
- سوسيولوجية الفكر السياسي
- منطق الانسان وتطوراته الاجتماعية
- من عصر الرق ، إلى عصر الصناعة ،
- علم الاجتماع السياسي يرصد ظواهر الفكر

تمهيد :

يقول د ليون برنشفيج Léon Brunschvicg : إن تاريخ الفلسفة ، هو تاريخ الذكاء البشرى وتقدمه ، وهو سجل يحوى في طياته أصول الوعي الإنسانى وتطوره (١) ؛ منذ تطلعاته الأولى التى صدرت مع شطحات د طاليس ، و د هرقليطس ، ، و تصورات د أرسطوبس Aristippe ، و د پارمينيس Parmenides ، ، حتى نتجت تلك البدايات والتطلعات في القرن العشرين وبلغت ذراها حين ظهرت آخر تطورات الوعي والذكاء ؛ في صورها وأشكالها المعاصرة عند د برتراند رسل Bertrand Russell ، و د جان بول سارتر Jean Paul Sartre ، (٢) و د هيربرت ماركيزز Herbert Marcuse .

وليست الأفكار وليدة العلم ، ولا تعلق التصورات فتسبح أو تعبد في فراغ in Vacuo ولكننا نجد أن لفكرة تاريخاً في النفس ، وتاريخاً في الوجود ، بمعنى أن لفكرة ماضيا الاجتهادى الخصب ، الذى يضئ عليها ممانها ومبناها كما ويضيئها في نفس الوقت فهماً أوفى وأدق . فلنفكر أصوله في جوف الماضي ، وجنوده التى تمتد بعيداً في باطن التاريخ .

وقد تشيخ الفكرة أو تعذب ، وقد يصيبها الهزال ، فتنتفى عن المسرح ، إلا أنها مع ذلك لا تموت ، فقد تظهر ثانية فتنبعث فيها الروح بروقوى وتجدد ، حين تنمو وتزدهر وتكيف مع روح عصر جديد .

(1) Brunschvicg, Léon, Le Progrès de la Conscience, Tome Second. Paris. 1963.

(٢) أنظر في هذا الصدد : الموسوعة الفلسفية المعاصرة ، ولجتها وأدرف على نعلها من الانجليزية الى العربية ، الدكتور دكي نجيب محمود ، سلسلة الاثنتاين ٢٨١ بمكتبة الايجل المصرية .

الفلسفة السياسية ومصادرها الاجتماعية :

إن الفلسفة بالرغم من تعدد اتجاهاتها ومدارسها ، وتقيد قضاياها ، وتجب فروضها وأحكامها وتميماتها *Generalizations* القضاة : لم تحقق بمد موضوعيتها .

وإستناداً إلى هذه القاعدة الصلبة ، نستطيع أن نؤكد في بداية منطقية ، وأن نعلن في قوة وبظرة واقعية ، أن الفلسفة بتميماتها ونظراتها المجردة ، إنما ترتبط رغم أنها متالية *transcendental* بأصول إجتماعية ومصادر ثقافية .

فلم تهبط للفلسفة علينا من السماء ؛ بل صدرت من الفلاسفة أصلاً عن مجتمعات ، ونشأوا في أحضان الثقافات ، ولم ينفصلوا إطلاقاً عن هذه المصادر الاجتماعية والمحضرية . فلا يعيش الفيلسوف في عزله ، ولا يحتل أبر يتأمل في برج عاجي أو في خلوة ميتافيزيقية ، تفصله تماماً عن أسرته ومجتمعه ، وليست الفلسفات في أنفسها إلا حالات إجتماعية ، نحتها ضرورة التطور الأيديولوجي والتقدم العقلي لمجتمعات البشر . وهذا المعنى ، يعبر ظهور الفلسفات في مركبتها عن مراحل إنتقال إجتماعية ، حتمتها الضرورة الديناميكية لتطور الرضى والذكاء خلال مسار التاريخ .

وإستناداً إلى هذا الأساس ، يصبح فكر الإنسان وعقله ، وأدوات إدراكه ومنه العليا ، بمثابة دُمرات ، جناها الإنسان ؛ وقطبها من شجرة المجتمع .

إلا أننا نصيب على الفلاسفة ، لهذا السبب نفسه ، حينما يجرحون عن الإنسان فكره ومنه العليا ، على الرغم من أنه يخزق لإجتماعى بطبعه ، له ثقافته وتراثه وتاريخه وماضيه . ولذلك كان فهم الإنسان بعيداً عن ظروفه وأوضاعه وحالاته الاجتماعية ، هو فهم أجوف ، ولا يتم عن شيء . وذلك هو الثغرة الأساسية في كتابات الفلاسفة ، والشرح الواضح في كل نسق فلسفي أو بناء ميتافيزيقي ، بالإجتماع

إلى نقطة الضعف الشديد التي تعاني منها مباحث الميتافيزيقا ، بجميعها الفضايلة ، إنما تكمن في عدم الالتفات إلى ضرورة الربط ببطء منطقياً وواقعياً بين الإنسان و« المجتمع » .

وإستناداً الى هذا الفهم - يمكننا أن نتوصل إلى « فهم أدنى وأدق » لهذا الإنسان من خلال ظروفه وإمكاناته وثقافته ، كما نستطيع أن نتعرف على أسلوب حياته وطريقة تفكيره ، وطبيعة معارفه وأحلامه ، وذكراته ومدركاته الحسية . وهنا نصل فوراً ؛ إلى منطق الإنسان ، ونلتبس فلسفته ، ونتعرف على قيمه ومثله العليا ، وكلها أمور مستوحاة من طبيعة الحياة الجمعية ، التي يفرض على الإنسان كل ما يتصل بأوضاعه وظروفه وحالاته الشمورية والوجودية .

فلقد ظل الفلاسفة سجناء أفكارهم ، ولعبوا بكرة العقل على أرض « فهم مشروعة » ، حين عاجلوا التصورات والاحساسات خارج حدود المجتمع ، فجاءت نتائج الفلسفة بحية للأمال . إلا أن « الأبعاد الاجتماعية » قد أكلت نفسها في تفسير « العقل والتصورات » ، على أرضية المجتمعات ، بما يفرض على جمهور الفلاسفة إعادة النظر في « طبيعة الموقف الفلسفي برمته » .

ولكن نعمل على سد هذه الثغرة القائمة في سائر أساق الفلسفة ، نستطيع أن نقدم شيئاً من التبريرات والمعاذير ، ومن وجهة نظر جمهور الفلاسفة على الأقل ، حيث ظل ميدان العلوم الاجتماعية مغلقاً طوال صوره الأيديولوجيا ، وظهرت الفلسفات الكبرى « العلوم الاجتماعية هي علوم حديثة نسبياً ، ظهرت وتطورت » ، خلال قرن أو حتى نصف قرن من الزمان . ومن ثم لم يباهر ظهور العلم الاجتماعي بأصناف الأساق الميتافيزيقية للشهيرة من أمثال « أفلاطون » ، و « ديكارت » ، و « كانت » . .

منطق الانسان وتصوريته الاجتماعية :

يستمد الانسان كل مقومات الفكر الأساسية ، كقولات الزمان والمكان والعلية والعدد ، وهي بمثابة الهيكل الذي يصوغ فيه الفكر قوالبه ، بما ينسكب فيها من فعوى ظروف التاريخ ، وبينة الثقافة وثرث المجتمع ، ومن ثم كانت الاطارات العامة ، لفكره من صنع المجتمع .

ففكرة الزمان مثلا ، قد أنت إلينا من إلقاء حركة الحياة الجمعية ، كما صدر المكان من مواضيع القبيلة ، كما لاتميز مقولة الجنس ومقولة النوع ؛ عن فكرة الجنس البشرى . فالتحادات والتبائلات هي أول الأجناس Genres ، كما كانت العنصر Class من أول الأرواح ، وبذلك صدرت الاطارات للتطبيق les Cadres logiques من أصولها السكينة في الاطارات الاجتماعية Les Cadres Sociaux^(١).

أما فكرة التناقض contradiction ، فقد أنت إلينا من أصول دينية ؛ حين يحدث التمازض الثقافي أو التمايز الديني ، بين ما هو مقدس sacré ، وما هو غير مقدس Profane . فاستلح الانسان أن يميز منطقياً بين الصواب والخطأ ، ومنه هي أمور نسبية واجتماعية ، فما هو حقيقة في الشئ ، قد يكون باطلاً وخلالاً في الجنب .

وليست المقولات الاجتماعية صوراً جوفاء وفارغة ، كذاك الصور والمقولات الكافية ، وإنما هي صور تمتلئ بالتفاهة ، ومقولات مشبعة بعناصر اجتماعية ، لم يعمل المجتمع على خلقها ، بل وجدها المجتمع في ذاته^(٢) حين نشأت كل

(1) Durkheim Emile-. De quelques formes Primitives de Classifications, L'annee Sociologique, Vol : VI, pp. 1-72.

(2) Durkheim, Emile-, Les Formes Élémentaires de la vie Religieuse, Paris 1912. p. 207.

(3) Ibid : p. 633.

التصورات وللقولات في جوف الدين .

وقد اثبتت التصورات الاجتماعية ، وسائر مقولات الفكر ، من تصورات دينية بحتة ، ولما كان الدين جماعياً وجمعياً فهو شيء اجتماعي *une Chose Sociale* فالدين ليس كمثل شيء يتصف بكونه اجتماعياً ، وكل ما هو ديني هو جمعي ، كما تصبح كل التصورات الدينية هي تصورات جماعية . فالدين أو المجتمع هو الأساس الموضوعي للفكر ، إذ أن للقولان ليست عارية عن كل قيمة موضوعية حيث يمكن الأصل التاريخي للقولان في الأصل الاجتماعي الذي صدرت عنه (١) . بمعنى أن الصور الاجتماعية ، هي الأساس الذي صدرت عنه صور الفكر . فحين لا نعثر على مقولات الفكر وتصورات العقل ، إلا بانزعاجها من تلك الصور أو التصورات الجماعية ، التي كانت كاملة في بنية المجتمع .

ولقد ذهبت الفلسفة التجريبية عند كبار مثليها من أمثال دجون لوك ، و د دايد هيرم Hume ، و د هيرت سبنسر Spenser ويمثل الأخير الاتجاه التجريبي في الميتافيزيقا ، كما ويمثل الاتجاه التطوري في علم الاجتماع . ولقد أجمع التجريبيون على أن المفولات والأفكار ، هي تصورات بعديّة *A Posteriori* تستند إلى أصول تجريبية ، وهناصر حسية أو شعورية . فقد تشتق التجربة من الاحساس والانفعال والخبرة والشعور . أو قد ترتد إلى عامل الوراثة ، حين نراكم نتائج التجربة الفردية وتواتر ، فيحدث التسميم من طريق تواتر الوراثة على ما يقول د هيرت سبنسر ، على اعتبار أن التجربة والتداعي لا يكتفيان لتفسير عمومية المعرفة ، وفسر التطوريون تلك العمومية بالرجوع إلى فكرة الوراثة في النوع ، واستبدل سبنسر « التجربة الفردية » بتجربة النوع الإنساني

كما استبدل فكرة التباعد بفكرة «المعادن الموروثة»^(١)، وعلى هذا الأساس أصبح هوبرت سبنسر، هو الممثل الحقيقي للنزعة التطورية في علم الاجتماع، وهي نفس النزعة التي أكلت المذهب التجريبي في الفلسفة.

ولكن المذهب التجريبي يلقى سلطان العقل؛ ويرى أن الإحساسات والطلبات الخارجية هي أساس كل علم، إلا أن التجربة ليست ممكنة، وليست كافية في ذاتها، حيث تعارض المطالبات الحسية؛ وتضطرب الحالات الجزئية والمشاعر الوقتية، نظراً لعدة تغيرها وعدم ثباتها ودوامها.

ومن هنا وقعت الفلسفة في حيرة بين قطبي «الذات» و«الموضوع»، و«العقل» و«التجربة»، فحكمت الميتافيزيقا على نفسها بالتنائية، وهي «ثنائية» بين «المثال» و«الواقع»، حيث أننا إذا ما أخذنا بالتجربة، كان في ذلك إلغاء لسلطان العقل. وإذا ما جهرنا بسلطان العقل والتأملات، فلسوف ينصف بالتالي إيماننا بالعالم الوضعي، ونحن إذا تنائية كاشنة في الإنسان نفسه، حين يصبح كائناً ثنائياً مزدوجاً، فهو من ناحية كائن فردي *un être individuel* ومن ناحية أخرى كائن اجتماعي *un être social* نظراً لإتلاء الإنسان الفرد إلى أسرة أو جماعة أو زمرة^(٢).

ولقد انحصرت الفلسفة بعدد المعرفة والميتافيزيقا في النظر إلى الإنسان على أنه «غاية الطبيعة» *Firai Naturae*، فهو الكائن الطبيعي النهائي، وهذا الخلق الذي ما يمسده خليقة، والحققة التي لا تتجاوزها أو تتعداها

(1) Janet, Paul & Séailles, Gabriel., *Histoire de la philosophie*, quatrième édition Paris. 1928. p 168.

(2) Davy, Georges, Emile Durkheim. Paris, 1927 p. 188.

حقيقة^(١)، وفي الرد على مزاعم الفلاسفة ، تقول ليس الإنسان غاية في ذاته ، ولكنه « المجتمع » ، الذي جمع في طبائعه وفحواه سائر الحقائق والأفكار ، فانصهرت في جوفه بكل المتناقضات ، حيث اجتمعت فيه قوى الخير والشر ، حين يصير المجتمع كل ما هو متعال ، وما هو متساقط ، كما لا يخلو في نفس الوقت عما يشهد الشهوات ، و « الذات » . فالمجتمع حقيقة جامعة وجمعية وقائمة بذاتها sui - Generis ومن نوع خاص ، وهو في ذاته قد يحقق كل الغايات .

ولكننا نتساءل : إلى أي حد تمبر الفلسفة السياسية عما يدور في سائر العصور ؟ وكيف تكون الفلسفة سجلاً لروح عصرها ، ومرآة صادقة تنعكس عليها كل سمات الثقافة السائدة في بنية المجتمع ؟

في الرد على هذا التساؤل : نقول على سبيل المثال لا الحصر ، لقد هب الفكر الفلسفي اليوناني من مصالحي طبقة قديمة سادت روح العصر الاستقرائي فعبرت الفلسفة اليونانية عن مصلحة « الأقوي » أو إمتياز « الصغوة Elite » ، فقد كانت الطبقة الارستقراطية بامتيازاتها ، فوق المصلحة العامة ، التي هي مصلحة الرعايا ، على حد تعبير أفلاطون ، على اعتبار أن كثيراً من « العامة » أو « العبيد » كانوا يقومون بوظائف « العمل اليدوي » الذي إحقره سادة أشراف اليونان وفلاسفتهم . فالعبد عندهم ، يقوم بالوظائف الدنيا ، إذ أنه « آلة بيولوجية » وهذه نظرة رجيية و « لا انسانية » ووصمه طارقي جين الفسكرك اليوناني . وهذه هي نقطة الهدف البارزة في فلسفات « أفلاطون » و « أرسطو » ، على الرغم من إشراق الفكر اليوناني وعظمته ، وأثره في حضارة الإنسان

(١) Durkheim: Emile, Les Éléments Élémentaires de la Vie Religieuse, Paris. 1912. p. 627.

وفكره ومثله العليا ، إلا أن هذين الفيلسوفين رغم كونهما من أساطين الفكر الإنساني على العموم ، نجدهما ينظران للاسف الشديد إلى العبد ، نظرة عامة ، فهو في نظرهما وآلة متكلمة ، خلقت للخدمة والعمل اليدوي الخفيف ، ومما في ذلك إنما يعبران عن روح العصر اليوناني الأرسطراطي ، غير تعبير .

فاللذة عند فلاسفة اليونان ، ليست إلا الطبقة الأرسطراطية التي تسعد بالنعيم والخيرات ، أما الحرمان ، و الفقر ، و التقشف ، و البؤس ، فطبقات الدنيا من عبيد الأرض ، أو التقطيع ، على حسب تعبير الفيلسوف الألماني Nietzsche ، (١) .

وما يستتبع من كل ذلك ، هو أن فلسفات اللذة والمتعة ، قد خلقت للسادة والأشراف ، أما فلسفات الواجب ، والألم ، والعمل ، فقد صدرت للعبيد والأرقاء ، وتلك قضية تعبر عن محصلة نماذج الفلسفة اليونانية ، كما صدرت عن روح العصر ، وهبطت إلينا بفعل حركة التاريخ ، وهي في واقع أمرها نماذج وأخلاقيات وفلسفات ، صبرت عن صور إجتماعية ، وعن قيم وأعياد ، منتزعة من الواقع اليوناني التاريخي التي مرت به ، فنحن نستلم للماضي في تفسير الحاضر ، كما قد يلي الماضي على الحاضر ضوءاً أو في وأدق . فإذا ما أردنا مثلاً أن ندرس أوضاع المجتمع اليوناني القديم وقيمه وأخلاقياته ، كان لزاماً علينا أن ندرس كتابات أفلاطون ، وأقوال سقراط Socrates ، ودساتير أرسطو ، والرواقين ، فإني تعبر جميعاً عن الإجماعات الإجتماعية للنبتة عن روح العصر اليوناني القديم .

(١) Martindale, Don. The Nature and Types of Sociological Theory. Routledge and Kegan Paul, London 1961.

الفلسفة وعصر الإيمان بالعظم :

إذا كان القرن السابع عشر هو عصر الإيمان بالعقل Reason فإن القرن الثامن عشر هو عصر الإيمان بالعلم Science ، فلقد انجبرت كل من فرنسا وإنجلترا ، بكل نتائج الحركة العلمية ، طوال القرن الثامن عشر ، وهو عصر الأيديولوجيا التجريبية ، أو الفلسفة الأمبيريقية *empirical Philosophy* . وهناك مقدمات فلسفية ضرورية ، قام بها كل من « ديكارت Descartes » و « بيكون Bacon » ، كتمهيد لسيادة العلم ، وسيطرة المنهج الوضعي فلقد وضع « ديكارت » القواعد الأولى للمنهج الحق و كطريقة لإحكام العقل *Méthode pour bien conduire la Raison* ، و « لبحث عن الحقيقة في العلوم Chercher la verité dans les sciences » (١) ولذلك كان المنهج الديكارتي رياضياً ، ومنطقياً ، لأنه منهج فكري هو « منهج عمل الفكر » ؛ إستناداً إلى قواعد الوضوح والتمييز والتحليل والتركيب والاحصاء *énumération* وتدور جميعها حول التيقظ من اليقين القائم في الأفكار طبقاً لعلامتي الوضوح والتمييز ، فلا قبل إلا القضية الواضحة *Proposition claire* ، والفكرة المتميزة *distincte* (٢) . وعلينا بصدد التحليل أن نقوم بتحليل القضية إلى جزئياتها ، أما في قاعدة التركيب ، فعلينا أن نسير بأفكارنا من أبسط القضايا حتى نصل إلى أكثرها تركيباً . وفي القاعدة الرابعة والأخيرة ؛ تقوم باحصاء ومراجعة شاملة لكافة الجزئيات ، حتى نتأكد من أننا لم ننفل شيئا .

(1) Descartes, René., Discours de la Méthode. Hachette Paris, 1957. p. 23.

(2) Ibid p. 53.

وإذا كان ديكرت قدمه العلم ، بما اكتشفه من قواعد للنسج كطريقة لإقتياد العقل نحو الحقيقة ، فقد أعلن « يكون Bacon » العرب على « أوريانوس أرسطو » ومنطقه وما يله به من أقيسة وقضايا ، في حتمات القياس الأرسطي « مصادرة على المطلوب » لأن المقدمات تضمن النتائج . فكان القياس هو نسق إستاتيكي تحليلي لتحصيل حاصل ، لأن النتائج تحوى المقدمات ومنضمة فيها . فليس هناك جديد في القضايا ، حيث يضر القياس ما نعلم دون أن يكشف عما نجعل ، فهو « لغو أجوف » ينمى قوة الجدل ولا يكشف عن شيء (١) .

ولقد حاول « يكون » في الأريانوس الجديد *novum organum* ، أن يحمر العقل من أوهامه *idole* ، كأوهام التبيية والكهف والسوق والمسرح وكلها يحرب في تركيب العقل ، نجعلنا نخطئ . في فهم الحقيقة ، ومن ثم يجب التحرر من هذه الأوهام . حيث تنشأ « أوهام التبييلة » من طبيعة الإنسان الاجتماعي ، ينما تصدر « أوهام الكهف » من الطبيعة الفردية الكلمة في كل منا بما تحويه من استعدادات فطرية أصيلة . أما « أوهام السوق » فهي لغوية أو لفظية ناشئة عن الألفاظ التي تتكون طبقاً للحاجات العملية ، فالبدائي مثلاً يجمع تصورات وألفاظ من محيطه الإجتماعي الضيق المحدود . أما « أوهام المسرح » ، فقد صدرت عن النظريات التقليدية والأساطير المتوارثة (٢) .

(1) Levy-Bruhl. *Incien., le Philosophie D'auguste Comte.*
Paris. 1921. pp. 110-118.

(٢) يوسف سكرم : « تاريخ الفلسفة الحديثة » ، دار المعارف ، مصر

سوسيولوجية الفكر الهامى :

لا شك أن الصلة وثيقة بين الفكر والعصر ، دعا الفلسفة لإنبات العصر ، ؛ امتدت جذوره فى بنية الثقافة والتاريخ ، وأنبئت أصوله فى أرضية المجتمعات .

فكل عصر حضارة ؛ ولكل حضارة فلسفة ، وليست هناك مسافة أو غلاء بين الفلسفة وعصرها ، وليست هناك فجوة أو ثغرة تفصل الفلسفة عن روح العصر . فالفكرة لا تتحقق إلا فى زمن ولذلك كانت الفلسفة من هيجل هى ؛ الزمن مدداً فى الفكرة *Temps Saisi en Pensée* ، (١) .

فالفلسفة هى الفكر والعصر معاً ، فلسفة المثل مثلاً تذكرنا بعصر أفلاطون و فلسفة الشك ، تذكرنا بعصر ديكارت ، ، والفلسفة الوضعية ، تذكرنا بعصر أوجست كومت *Comte* . ومن هنا تحققت كل فكرة فى زمن ، والتبست كل فلسفة فى روح العصر . فأصبح الزمان هو الوعاء الذى يحوى فلسفته ، وأصبحت الأفكار هى د فعوى الزمان ومضمون العصر . ، فإذا ما نكلمنا متلاً عن عصر النهضة ، فأنما تكلم عن حضارة النهضة ، وفلسفة عصر النهضة ، وإذا ما أشرنا إلى عصر التنوير *Enlightenment* ، فأنما تشير إلى حضارة الاستنارة ، وفلسفة وروح العقل التى انطلقت منها الأفكار الجديدة ، وقوالب الفكر التى صدرت عنها مبادئ الحرية والاخاء والمساواة .

ولقد مرت الفلسفة بمصور مزمنة وأخرى مظلمة . وعانت الكثير فى تلك المصور ؛ فهاضرت حضارات ؛ وقدمت وتطورت ، وعاشت

(1) : Cavillier. A., Introduction à la Sociologie. A. Colin-Paris. 1949. p. 17.

نكسات ، فنكست على حقيبي . فإ كانت ظننه وهما من الاوهام ، أصبح حقيقة
هينة واقعة . وما كانت تراه حقيقة واضحة ومتميزة ، إقلب نجاة وأصبح ضللا
من الضلالات ، فكانت الفلسفة متغاثة أحيانا ، متشائمة في كثير من الأحيان .

وقبل ميلاد الحضارات الكبرى ، وظهر الأديان السماوية ، مرت الفلسفة
بصور اليونان والرومان حيث تمجد العقل ، بصور حضارة ما زلنا ندين لها
بالكثير ، . فحن أبناء اليونان ، من زاويتي الفلسفة والثقافة على أقل تقدير
وبذلك كانت حضارة اليونان ومنجزات الرومان ، بمثابة الطلائع القوية التي
مهت ، كقدمات وقناطر فكرية ضرورية ، لصدور أعظم حضارات البشر
وأغنى بها الحضارة الموسوية ، والحضارة المسيحية ، والحضارة الاسلامية .

ومع تطور المجتمعات ، وتضج العقل ، واتساع الأفق ، مرت الفلسفة
بصور « الشك » ، و « العقل » ، وبصور « التجربة » و « اللبادة » ، ، والحس
L'instuition ، حتى بلغت عصر الإيمان بالعلم . وكلها صرور تاريخية وإيجابية
فلم يلجأ ديكارت Descartes الى الشك ؛ إلا حين حاول فقط أن يتمشى مع
روح عصره ، فديكارت عايش عصر الشك المطلق ، وعانى من موجة الشك
المزعمية ، فانتشر الشك في كل مكان ، وفي هذا الجو الاجتماعي المشحون ، والماخ
الفكري الممهد ، مبطت فلسفة ديكارت الشكية المنهجية البناءة .

ولقد عانت فلسفات الدين والسياسة والاقتصاد - وكلها فلسفات حضارية

(1) Mannheim; Karl., *Essays on Sociology of Knowledge*,
Routledge, London - 1952.

وأشر أيضا في هذا المصعد :

Merton. Robert., *Social Theory and Social Structure*, Glencoe,
Newyork. 1962.

وأناس اجتماعية ، الكثير من الصراعات والفن والحروب ، وكادت الميتافيزيقا ،
وعركت الفلسفة الأحداث الجسام والوقائع الكبرى .

والصراع قديم بين : الفلسفة والدين ، نظراً لوحدة الساحة العقائدية
وخصوبتها ، فنشبت بينها في تلك الساحة الأيديولوجية الصراعات والفن الخطيرة
والمريرة ، تلك التي بلغت في كثير من الأحيان ، درجة الحرب والصراع العسكري
المسلح ؛ وبخاصة فيما بين مختلف أتباع مدارس الفكر الديني ، ومذاهب الفكر
العقائدي . ولنحنى الحرب بالطبع ، بانتصار المنتصر ، وهزيمة المهزوم . أى تنهى
بغالب ومغلوب ، وضغوط ومضغوط ، بفكر قاهر ومذهب مقهور . وقد يحدث
التكيف والتدربان ، والاندماج amalgamation ، وقد يحدث التافر والتناحر
وقد تتردد فلسفات الحكم الديني فتصبح « سنية ، تارة ، « شيعية ، تارة أخرى ،
« علمانية ، طوراً ، « دينية ، طوراً آخر . وقد تأخذ الحكومة الدينية بمنهج الحقيقة
أحياناً ، وبمنهج « الشريعة ، في أغلب الأحيان .

وقد قدس فلسفة الدين ، النكل ، ومحترم العقوس والشعائر وقد تشور على
هذه التشرة الخارجية فتدعما تنكسر وتنحطم ، حتى تصل فوراً الى المضمون
الحقيقي ، ليرتوى المؤمن من ذلك التبع الديني الرقراق الذي يفيض بالمشاعر النقية
الأصيلية . وهذا هو المنهج الذي اتبعه المصلح الديني «مارتن لوتر Martin Luther »
حين حطم جمود الشكل الخارجي العقيدة الكاثوليكية طلباً لنقاء الديني الخالص .
أما فلسفات السياسة ، فهي فلسفات حكم أو سيادة ، وأنماط سلطنة أو قيادة ؛
تدور جميعها حول شكل « الدولة ، ككيان ممتري أو « بناء ميتافيزيقي ، قد
يتضمن فلسفات للصغوة Elite وهم فئات أو « طبقات ، أو صفوات قيادية
تمارس « السلطة السياسية ، أو « الضغط الديني ، أو « التحدي الاقتصادي ، حتى
يظهر في النهاية شكل « التنظيم Organziation ، الذي يفرض « السيادة ، أو

«السيطرة domination والسلطة Subordination من جهة ، كما وتصدر من جهة أخرى أمطاط من «الولاء» و «التبعية» .

ولذلك عاشت الفلسفة عصور النظم والحكم المطلق ، وطفان حكم الفرد فصدرت ، مذاهب «Hobbes» ، و «ميكافيلي Machiavelli» ، و «نيتشة Nietzsche» ، لكي تبهر عن عصور طفان الإنسان ، واستبداد «الأمير» ، وسيادة «الصفوة» . وكلها مذاهب تقنن للديكتاتورية ، وتصرع للاوتوقراطية ، وتقرض مبدأ عبادة الدولة . كما عاشت الفلسفة عصر القانون والعدل ، فأتى عصر الرق والعبيد ، وبدأ عصر تكريم «الذات الانسانية» ، ومع تهديس الحرية ، واحترام الانسان وحمايته من إستغلال أخيه الانسان .

ومن هنا دخل «تاريخ الاقتصاد السياسي» ، عصر أجديدا ، فعاشت الفلسفة عصور الحرية ؛ ومارست الدولة المعاصرة نظم الديمقراطية في الإدارة والحكم والتنظيم . ولقد عاشت فلسفات الاقتصاد الكثير ، وتناهت مدارس «التجارين» ، و «الفيزيوقراط Physiocrate» ، الى مذاهب «الرأسمالين» و «الاشتراكين» ، ، قدردت الفلسفة الاقتصادية بين اليمين واليسار ، بين «الاقتصاد الحر» ، والاقتصاد الموجه ، وتلك هي الثنائية ، التي وقعت فيها النظرية الاقتصادية . حيث يحدث التفرش والشجار بين إقتصاديات متصارعة ، وقد تقتصر مدرسة اقتصادية على سائر الانحماطات المضادة فتسود فلسفة إقتصادية بينها ، تمتشى مع روح عصرها ، والناس على دين ملوكهم .

وفي عصر الايمان بالعلم ، أحدثت كائنة ثورة في الفلسفة ؛ فتماما كما فصل «كرونيكس» ، في ميدان علوم الفلك - فلقد نظم كائنة بقدر المعرفة ؛ وعياشتها في سائر مدارس الفكر الفلسفي ، ورفض كائنة مواقف «المثقلين» و «الحسين» و «التجريبين» ، بل وسخر من هذه المواقف في مرآة ، الى أن وقف من

الميتافيزيقا نفسها موقفاً معادياً : وصيد نظرية المعرفة بالنلت عند كانط تصحج الميتافيزيقا خرافة فالمعرفة الحققة هي المعرفة التي لا تتم بالامدادات التجريبية وحدها أو بالتصورات القبلية الجوفاء ، وإنما يتحقق وبناء المعرفة حين يقوم الفكر الرابط أو الصانع ، ويدمج الامدادات بالتصورات وربط العمليات بصور قبلية في العقل الخالص La Raison Pure ، هي صور الزمان والمكان والعلمية ، وسائر مقولات الفكر الإنساني التي لا يمكن أن يتحرر الفكر منها أو يفكر الانسان بدونها .

هذه هي ثورة كانط في نظرية المعرفة بالنلت ، التي قد أحدثت في مدارس الفكر الفلسفي ، ما أحدثته الثورة الكوبرنيكية ، في علم الفلك (١) .

فقد كانت الفلسفات القديمة تنظر الى الحقيقة على أنها قائمة في تطابق العقل والوجود ، أو في إتفاق الفكر والأشياء ، *adaquatio rie et intellectus* ، التي جعلت مقولات منطق أرسطو ، هي حقائق وجودية ، وأفكار واقعية ، فقولات للمنطق الأرسطي هي « أجناس

(١) كان الفطن الحاطي القديم ، يؤكد على أن الأرض هي مركز الكون ، وأن بها الاجرام والكواكب انما تدور حول الأرض . ثم أعلن الفلكي البرلندي « نيدولا كوبرنيكس Copernicus خطأ هذا الاعتقاد الواعم ، وأثبت أن الشمس هي مركز الكون لا الأرض ، وأن كل الاجرام تدور حول الشمس هذه هي الثورة الكوبرنيكية التي حدثت في علم الفلك . ولند كان الفطن الحاطي القديم لي ميدان الفلسفة ، هو أن الفكر بحدوه وأن العقل هو حول الموضوع « الثابت والسكن ، وأثبت كانط أن ادل الموضوعات هي التي تتلوه حول الفكر « . فكان الفطن في الفلسفة القديمة هو الذي يدور حول « الموضوع » أو « الوجود » أو « الأشياء » . فصعرت فلسفات يونانية أو نظولوجية من زوايا الوجود ، ولي فلسفة كانط القديمة ، « دارت الموضوعات حول الفكر الرابط » وأصبح « الفكر الصانع » هو الحقيقة التي تدور حولها الأشياء ، فصعرت الفلسفات القديمة ، من « كونها » و « لا مكان » و « لا تدور » و « من غايه » و « لا غاية » من تحقيق للترقي وتخطي خط أمام القات الزمان في هذه المبرومة ، وممكنه هي الثورة الحاطية في نظرية المعرفة .

الوجود *Genre de L'être* ، حيث كان أرسطو واقعياً يرميه الأشياء في قائمة مقولاته ، وبالتالي ينظم بمنطقه كل ملاحج الوجود وجزئيات الواقع . بمعنى أن مقولات أرسطو هي « صورة متزعة من عضمتها الواقعي اليوقاني » .

ولقد تجملت الفلسفة منذ أرسطو حتى كانت ، بين قطبي الذات والموضوع ، وظل الفلاسفة سجناء أفكارهم ، لأنهم دخلوا عقرهم بالتطابق مع الأشياء ، كما أخذوا يفكرون بقوالب مستعارة من تاريخ الفلسفة ، فأصبحوا أيضاً سجناء هذه القوالب المستعارة من هذا التاريخ الميتافيزيقي الطويل . ثم جاء كلفطوحلم بشورته الكبرى ، ماجادت به مضامين النظرية التطابقية ، وقضى بصفة نهائية على تلك « الثنائية » التي عاشتها الفلسفة سجيئة بين قطبي العقل والواقع ، باقتصارها على ثنائية « الذات والموضوع » .

وإذا كان أرسطو واقعياً في تنظيم الكون والوجود ، فلقد كان كانت ذاتياً ، ينظم وظائف العقل والمقولات ، وليست قائمة المقولات عند كانت إلا قائمة عصرية ، أو صور حقيقة « لمقولات الفكر الأدبي » ، التي صدرت عنه وانبتت فلسفة كانت ، التي عقدت زواجا كاثوليكيًا بين مثالية الفكر الألماني وخصوبته ، وبين النزعة التجريدية الإنجليزية ؛ في فلسفة تقديدية واحدة ، تصف لنا مضامين ومحتويات الفكر الأدبي كله ، كما وصف كانت اتجاهات الحضارة الأدبية في القرن الثامن عشر برمه .

وعما يؤكد لنا « سوسيولوجية الفكر » ، هي حضارة كل فلسفة تتضمن أصولاً اجتماعية وجذوراً تاريخية ، فلا تثير الفلسفات على هامش الوجود ، ولا يمكن أن تسبح الأفكار في السديم ، أو تشطح الأنظار في قراع ، فكل مذاهب الفلسفة ، هي مواقف تاريخية ، يستلزم أن تؤكد مصادرنا . حيث أننا لا يمكن أن نقبل مذهباً أو فلسفة ، ألا بالرجوع إلى المصادر الأولى فلا تأخذ بأي موقف فلسفي

إلا بتقيسه ، على اعتبار أن الماضي إنما ياتي ضوءاً أوفى وأدق على كل مواقف الفلاسفة أنفسهم ، فالفلسفة لا يمكن قبولها إلا إذا ما قنا بمحاولة تقييم لها ؛ ويشتمل هذا التقييم Evaluation في مدى تطابق مواقف الفلاسفة وصورهم ، ومدى تأييد حركة التاريخ لكل مذهب من مذاهب الفكر ؛ حين يشيع المذهب بين الناس ويصبح « أيديولوجيا » ، متحركة ؛ على اعتبار أن الأيديولوجيا في حقيقة أمرها هي « فلسفة شائعة » ، تتحرك في عقول الناس وأفهامهم ، فتخلق القيم وتضع دافيات السلوك ، وترسم أو تسهم في تغيير أسلوب الحياة ، وتطور نمط الثقافة .

ولقد حيزت الفلسفة بصفة نهائية عن اكتشاف معايير مطلقة للصدق والخطأ تلك المعايير التي أثبت علم الاجتماع نسبتها ، حيث ترتبط بمعايير الصدق والخطأ بروح العصر ، الأمر الذي يفقدها عموميتها Generalization فتبقى نسبية Relative ، تتباير باختلاف الظروف الاجتماعية ، والتيارات الفكرية والمضامين التاريخية والثقافية ؛ وكل ظواهر الفكر التي تعبط بالمجتمع وتشكل روح العصر لأن الفكر نتاج تاريخي ، وافراز حضاري يصدر عن واقع اجتماعي ، ويفرض معايير السلوك ، وليس من شك في أن روح العصر هي نتيجة حتمية لمراحل تطورية وظروف تاريخية تشكل أنماط الثقافة ، وتحدد تيارات الفكر . وعلى هذا الأساس ، واستناداً إلى فكرة الحتم التاريخي ، ربط مانهايم بين « روح العصر » ، من جهة ، وفكرة الحتم الوجودي للفكر ^(١) Seinsverbundenheit des wissens ، من جهة أخرى .

(١) Mannheim, Karl, Essays on Sociology of Knowledge
Routledge & Kegan Paul London. 1952. P. 136.

كانط والواقع الموضوعي:

وإذا ما عدنا إلى موقف كانط، وفلسفته النقدية التي أختلت بالحساسية *Sensibilité*، ولقهم *L'entendement*، لوجدنا أن الحساسية، هي «درجة إدراكية» بمقتضاها يستقبل الانسان العارف المادة الآتية من التجربة الخارجية، أي أن الحساسية إنما تتأثر بالآشياء وتتقبل المعطيات *Donnés* أو الامدادات الصادرة إلى الفكر عن الموضوعات المعروضة في الخارج.

ولقد قلنا إن هذه «المعطيات» تعرض إلى الفكر «كادة» فحسب؛ كما ذهب «كانط» إلى أن هذا التأثير الذي تقوم به الحساسية حين تقبل آثار الأشياء، إنما هو وصى مباشر — أي أنه يتم دون واسطة — يعبر عنه «كانط» بأنه «حس *Intuition*»، على اعتبار أن وظيفة الحس الكانطي، هو وسيلة الفكر التي بفضلها يتقبل الأشياء، وما يتصل فكرنا بالموضوعات^(١). وهذا هو ما يسميه كانط «بالحس الحسي *L'intuition Sensible*»، وهو الحس الذي بفضل تم «المعرفة».

وبهذا المعنى الكانطي، تعتمد شروط المعرفة من حساسية وفهم؛ اعتقاداً متبادلاً، فلا تقوم المعرفة الترانستنتالية من طريق الفهم وحده دون حساسية، أو عن طريق الحساسية وحدها دون الفهم، حيث أن الحساسية «لا تبصر شيئاً دون فهم»، بينما الفهم دون حساسية، «هو أجوف وفاغ». ولا شأن أن هذا الموقف النقدي الكانطي في تحديد شروط المعرفة، إنما يلتقي ضوءاً «على موقف الانسان العارف عند كارل ماركس»، وبخاصة بصدد

(1) Kant Immanuel Critique de la Raison Pure., Traduction Fran. par A. Tremesaygues. et B. Fécand. Press. Univ. paris 1950. p. 54.

تمييز الماركسيين ، بين « الإحساس » من جهة ، وبين « الفهم » أو « الفهم الكلي » من جهة أخرى ، ثم اعتداد الإحساس على الفهم ، واحتياج كل منهما إلى الآخر في علاقة تبادلية أو « اعتداد متبادل » ، حيث أن الإحساس ، كما ذكرنا ، هو في حاجة إلى الفهم لتوضيحه وتمييقه ، كما أن الفهم هو الآخر في حاجة إلى الإحساس كتفئة لإبتداء وادراك .

إلا أن الماركسيين قد أساءوا فهم الموقف الكانطي من شروط المعرفة الترانسندنتالية Transcendental Knowledge ، فنظروا إلى كانط على أنه من الفلاسفة الرجعيين ، لأن كانط في زعمهم قد أنكر إمكانية إدراك « العالم Le monde » ومعرفة كجوه قائم بذاته .

وعن الماركسيون بذلك ، أن هذا الموقف التقدي من المعرفة ، إنما يصرّف الجماهير ؛ ويشغلهم عن « تفسير حركة المجتمع » وتحليل التاريخ . ولذلك كان كانط في عرف الماركسي « عدواً للثورة » ؛ وداعياً إلى المساومة والتفريق بين الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلية ، ولكن كانط ، لم يوفق بين العقل والتجربة ، ولم يوفق بين التصور والواقع ، كما لم يكن عدواً للثورة ، وإنما كانت الفلسفة القنطية في ذاتها « ثورة » ، « ثورة على اضطراب الفكر وتمدد الفلسفات . ثورة على القووس من أجل « النظام » ، ثورة الفكر من أجل تحقيق السلام . ثورة العقل من أجل المعرفة .

إلا أن الفلسفة الماركسية المادية ، حين تتعارض مع الكانطية ، إلا أنها تتفق معها في نفس الوقت حين تعتبر « الشعور هو مزمة الوصل بين الإنسان والعالم » ، وأن الإحساس هو المتعبرة ، التي لا يمكن عبور غيرها ، كي يشب الإنسان إلى « العالم بوجدانه » ، وبذلك يأخذ الماديون بالمذهب الحسي بكل خطائهم ، ويريدون لكن يرفضوا منه شيئاً .

ولقد تعرض كارل ماركس في كتابه «الأيديولوجيا الألمانية German Ideology» إلى النظر في ميدان الأخلاق ، حيث تمسك كانط بأخلاق الواجب ذات الإرادة الطيبة Good will ، حتى ولو بقيت لإرادة حرة Free will ، ولم ترجع إلى واقع ، وذلك هي الإرادة «الضرورية المجردة» التي يسخر منها الماركسيون والتي يتشغل بها كانط كفيلسوف قديم ، حيث يحاول بفلسفته في زعم الماركسيين ، أن ينقد البورجوازية الألمانية التي تنحورت في عصره ، ولذلك أصبحت الفلسفة القديمة الترانسندنتالية من الأسلحة الماضية التي تستغلها البورجوازية ضد الاشتراكية العلمية ، التي هي فلسفة الاتجاه المادي الماركسي .

الفلسفة وروح العصر انهيجل :

لقد عقد هيجل Hegel ، المقارنات ، بين ما يسميه «بالروح الثاني» وبين تقيضه الذي يمثل في «الروح الموضوعي» ، بالإضافة إلى حالة تحقق كل منها واندماجه في المركب الذي يجمع بينهما في «الروح المطلق» . بمعنى أن هناك تحولات في تاريخ الفكرة ، أو ماضى الوعي ، بين الثاني والموضوعي والمطلق . أ — والقضية الأساسية عند هيجل ، هي القضية القائلة «بأن كل ما هو واقعي هو مقول ، وكل ما هو مقول هو واقعي» . بمعنى أن العقل لا يتقدم أو يسبق التاريخ في الوجود ، وإنما يلتصم العقل بالوجود خلال حركة الزمان التاريخي ، فليس العقل سابقاً على الوجود الزمني التاريخي ، وإنما يدخل العقل إلى الوجود التاريخي للسبب ، ومن ثم لا يدفع العقل التاريخ إلى الحركة وإلى الوجود ، ولكننا نتوصل إلى العقل والتصورات بفضل حركة التاريخ ، ونذكر الفكرة من خلال الزمن . فنحن لا نحرف العقل إلا من خلال سياق التاريخ ، حين تتحول «الفراغ البدئية» و«سنة الأفعالات العمياء» إلى ما عسمية في منطق التاريخ بالإرادة الحرة أو الفكر الراجع ، بمعنى أننا نستمد من التاريخ شيئاً

نضيفها على سائر الأفكار والإدراكات .

وسين « هيجل » إلى « فكرة الروح الذاتي » حين يتعارض مع الموضوعي ويتحقق في المطلق ، إنما يعبر « هيجل » في الواقع عن مستويات جدلية تتجلى خلال حركة الفكر حين يتجسم في التاريخ . فالروح الذاتي مستوياته التاريخية ، التي يعبرها خلال حركة الجدل ، وهي الشعور والتفكير والوعي .

هذا عن طبيعة الروح الذاتي ، أما عن الروح الموضوعي *der objektive geist* ، فيتحقق في سياق زمني صارم ، حين يقبى لنا « الروح الموضوعي » ، ويتجسم في « القانون » و « الأخلاق » (١) و « الدين » . أما الروح المطلق فهو « روح الكل *allgeist* » ، أو « روح الشعب *Volkgeist* » ، التي عنه تصدر سائر القيم والمعايير والأساطير ، ولذلك يتحقق « روح الشعب » ، ويتأكد حين يتجلى في « الفن والدين والفلسفة » .

ب — والفكرة الهيجلية متمثلة بالخصوصية والحركة والنمو والتقدم ، كما أنها كاملة في الصيرورة والتغير ، ووليدة الصراع للقاء في الوجود ، والتناقض هو الذي يبعث فيها الحياة . ويقول « نيقولا هارتمان *Nicolaï Hartmann* » عن هيجل « إنه كولومبس جديد » ، فإن ما عثر عليه في أسماء « الروح » أو العقل ، وما رصفه بأنه فرق المعنوي *Superorganic* أو فوق الفردي *Superindividual* قد أدى بعلواء الاجتماع إلى « اكتشاف قارة جديدة للواقع » ، ذلك هو الواقع الاجتماعي *Social Reality* .

فإذا كان « كانت *Kant* » قد نظر إلى صور الفكر والمقولات ، فقد إنشغل

(1) Weing Hartmann, 'Trends in Philosophical Anthropology and Cultural Anthropology in Postwar Germany', *philosophy of Science*, Vol : 24, no. 1, January 1957. p. 48.

« هيجل Hegel ، بمادة الفكر وفهمى الصور ، فابتدع منطقاً يبحث فى مضمون الفكر ، ولا يقيم وزناً لصورية للقولات أو فراغها الكائى . وبهذا الفهم الهيجل يرتبط الفكر بالتاريخ ، وهذا ما اعترض به « هيجل » على أستاذه كانت ، ورفض لإرجاع الحقيقة إلى مجرد قرائن صورية فى العقل ، إذ أن الحقيقة المجردة عن الواقع وعن التاريخ ؛ إنما تصبح عند « هيجل » حقيقة غير ذات مضمون (١) ، ولكتنا نجد أن الحقيقة وجودها ومضمونها وحيويتها وبقائها ، حيث « أن الحقيقة تاريخياً فى النفس وتاريخياً فى الوجود » .

٢ - ولذلك رفض هيجل ذلك النوع من الفكر الذى يضحى بالمحصورية والحركة والتاريخ من أجل التزام الضيق الصورى ، وطاب هيجل على كانت حين يقول بمقولات فارغة جوفاء ، إذ أنها حارية عن المضمون والواقع . وبذلك أكد هيجل على « المحتوى الواقعى للفكر » والمضمون التاريخى للتصورات (٢) . حيث أن المحتوى التاريخى للمفكرة ، هو المضمون الذى من خلاله تعيش المفكرة وتنمى ، فالمفكرة قائمة فى التاريخ ولا تسبح فى فراغ ، وإنما تنتقل وتتحرك وتضجر لما يتميز بمحتواها من خصوصية وإملاء . ولا يتحقق الفكر إلا بارتباطه المستمر بالواقع واحتكاكه الدائم بحركة التاريخ ، فلقد صدرت « مثالية » الفكر الألمانى عن « واقع » الثورة الفرنسية (٣) .

(1) Hegel. O.W.F., The phenomenology of Mind, Trans By J. Baillie., second edition, London. New York. 1931 pp. 329. G 330.

(2) Marcuse, Herbert. Reason and Revolution. Hegel and the Rise of Social Theory., Beacon press Hill, Boston. 1960 p. 121.

(3) Ibid, p. 3.

وهذا هو المثال التاريخي الملى الذى أخذ به هيجل ، كى يؤكد لارتباط حركة الفكر بحركة التاريخ ، وكى يفسر صلة العقل بالواقع ، من حيث أن العقل هو بالضرورة « قوة تاريخية » ، يخضع لها كل من فى الزمان والمكان ، كما أن العقل هو باعث التقدم خلال تاريخ الفكر ، بمعنى أن التاريخ بمراحله وأطواره ليس إلا مراحل فكرية عامة (١) . فهناك حركة جدلية فى التاريخ ، وهى حركة مفقولة تسير وفقاً لمنطق محدد ونمط عقلى وعلى عام . .

فكرة الحرية وحركة التاريخ :

فكرة الحرية مثلاً تحققت خلال التاريخ فى مسار ثابت محدد وفقاً لمثلث جدل . بدأت الحلقة الأولى فيه باستعباد الفرد فى الامبراطوريات الشرقية القديمة ، حيث ساحت الضرورة والسلطة القاهرة ، وقد انسا انساناً فرداً عوامل الأمن والحرية والطمأنينة . وفى حضارة اليونان والرومان ، بدأت الحلقة الثانية بظهور النزعات الفردية الطاغية التى تعتبر عند هيجل هى حركة جدلية نحو القبض ، من السلطة المطلقة إلى الفردية الطاغية ، فظهر التناقض بين السلطة والحرية ، ولكن المركب بين التقيضين قد تحقّق فى المرحلة الثالثة فى حركة الجدل التاريخي حين تمثلت هذه المرحلة النهائية فى يروسيا الملكية ، التى تكونت فيها الصورة الكاملة لمثلث الجدل الميجلى ، حين تألف التقيضان ، فانتقلت الحرية والسلطة إلى مركب وحيد ، تغلب على الصراع بين الجزئ والكل ، وبين الذات والوحدى وفى هذا المعنى أطلق إنجلز Engels عبارة المشهورة « أنها عملية تحول الانسان وانتقاله من ملكة الضرورات إلى ملكة الحرية » (٢) .

. (1) Ibid. p. 10.

(2) Evans-Pritchard, op. cit. Essays in Social Anthropology. Farpe and Paper, london 1952 p. 33.

.. It is the ascent of man from the kingdom of necessity to the kingdom of Freedom.

ولذلك كان هيجل فيما يقول « كلرل مانهايم Karl Mannheim » هو الذى دفع بالفكرة الوضعية إلى الأمام ، حين ربط « المطلق » بعملية التاريخ ؛ والروح بسجلة تطور العالم (١) .

العقل الموضوعى ونمط الثقافة :

أ — ولا شك أن فكرة « العقل الموضوعى » عند هيجل ، إنما تشبه في أطوارها العام فكرة « العقل البنى » عند دور كايم ، كما توشى أيضاً بفكرة « الثقافة » كما يضيها علم الاجتماع الأمريكى ، وبخاصة عند « كروبير Kroeber » (٢) فإذا كان هيجل يذهب إلى أن « كل ما هو واقى هو مقول » ، فإن دور كايم وغيره من سائر اتباع المدرسة الفرنسية يذهبون إلى أن « كل ما هو اجتماعى هو مقول » وكل ما هو مقول هو اجتماعى . .

ويقول هارتمان Hartmann ، إن العقل الموضوعى قد تميز بالتكوين المتجانس Homogeneous Formation الذى يفرض على الانسان ويستطلع به الفرد . وما يسميه هارتمان بالتكوين المتجانس ؛ هو تماماً ما نجهه عند علماء الاجتماع المعاصرين بما يسمونه بالأنماط patterns .

ولذلك فإتينا يمكن التأكيد على نظرية العقل الموضوعى عند هيجل ، وهى التى تقترض أن الانسان لا يولد إلا فى « إطار عقلى عام » يستمد منه أنماطه

(1) Mannheim, Karl., Essays on Sociology of knowledge London, 1957, p. 175.

(2) Weis, Hermann., Trends in Philosophical Anthropology in Postwar Germany, philosophy of Science Vol. 24: N-1 January, 1957. p. 49.

السلوكية والثقافية وأساليبه الفكرية - وهذا هو ما يعني تماماً - رالف لنتون Ralph Linton ، وغيره من سائر علماء الثقافة ، حين يذهبون إلى أن الإنسان يولد في ثقافة يستوحى منها فكره ومنطقه ، بمعنى أن الإنسان لا يخلق لغته ، أو يصطنع أخلاقه ، وإنما يكتسبها اكتساباً من خلال ذلك ، الإطار العقل العام ، ويستوحىها من نمط الثقافة التي يولد فيها ويعيش (١) .

إذن فلسفة هيجل تعتبر عما نقطه هو نفسه من مجتمعه والمائيا ، وما كان يسود فيه من اتجاه عقلي وصارم ، حدد بل وفرض على الألمان ، نمط الثقافة .

ب - ومن ثم نجد أن نظرية العقل الموضوعي ، عند هيجل ، إنما تفسر كل النظريات السوسيولوجية للثقافة عند مختلف الأنثروبولوجيين الثقافيين من أمثال « كروبر kroeber » ، و « هرشكوفتزر Herakovitz » ، و « رالف لنتون » ، إلا أننا نأخذ على علماء الأنثروبولوجيا الثقافية ، أنهم وضعوا د تعاملاً ، وفرضوا د خلاه ، أو مفارقة بين الإنسان وثقافته ، على حين أننا لا نجد إلا انطباعاً كلياً أو نسقاً ميتافيزيقياً يربط الإنسان بالمجتمع ، ويصل الفرد بالثقافة .

ومعنى ذلك أننا من جهة نظر الفلسفة الأنثروبولوجية ، وهي تبحث فيما وراء الأنثروبولوجيا - anthropology - Meta ، لا نضع تعاملاً بين الإنسان ، من جهة ، و « ثقافته » من جهة أخرى ، فليس هناك مفارقة بينهما حيث أنهما وجهان لحقيقة كوزمولوجية واحدة (٢) .

ولقد اعترض « هيرمان Hermann Wein » الأستاذ بجامعة جوتنغن Göttingen ، على نظريات علماء الاجتماع في العقل والثقافة ، في مقالة نشرها في مجلة « فلسفة العلم philosophy of Science » ، تحت عنوان « اتجاهات

(1) Ibid. p. 50.

(2) Ibid. p. 56.

الفلسفة الأنثروبولوجية والأنثروبولوجيا الثقافية في ألمانيا بعد الحرب

« Trends in philosophical Anthropology, and Cultural Anthropology in postwar Germany ».

ويقول د هيرمان ، في هذا المقال ، إن كل ما يسميه علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية « Social » ، تارة ، وبخاصة في الأنثروبولوجيا البريطانية ، و « بالثقافي : cultural » ، تارة أخرى ؛ وبخاصة في الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية إنما ترجع جميعها إلى مقولة « العقل ، أو « الروح » ، التي أثارها « هيجل » .

العقل للوضوعي والالتزام :

تمثل الفلسفة عند هيجل في وعي الإنسان الفرد وبجذوره في كل العلاقات حتى يواجه نفسه ، ويشب إلى ذاته ووعيه الأصيل للتبثق عن تلك الجوانب الباطنة المشتركة للكافة في « الذات العميقة » ، بمعنى أي الفلسفة إنما تصدر عن وعي الإنسان أو « ذاته » ، فيواجه « الذات : Sujet » ، كبحت كل فكرة .

أما الوعي الموضوعي ، فهو وعي غير ذاتي ، لأنه وعي ؛ لا يتصف بالحرية وإنما هو وعي ملتزم ، لأنه وعي الإنسان المتشعب إلى مجتمع ، أي للخطر في زمرة ، حين يواجه نفسه بوصفه جوهرًا Substances اجتماعياً .

ولقد وصل هيجل في مضمون « الوعي الذاتي » ، وربط بين فكرة الإرادة من جهة ؛ وفكرة الحرية من جهة أخرى . بمعنى أن اتجاهات الوعي إنما تخرص كل الحرص على أن تكون متوافقة مع الإرادة ، ولما كان الوعي حراً بطبيعته ، فالإرادة حرة ، حيث أن الحرية هي خاصية جوهرية للإرادة ، وأن الحرية هي ما ينبغي أن تكون عليه الإرادة .

وعلى هذا الأساس ، فإن عودة الإرادة إلى ذاتها هي عودة حرة . أو أنها

محاولة الانتقال من الخارج إلى الباطن ، ومن ثم كان « الوعى » هو بمثابة عودة الإرادة إلى نفسها ، حين تبرز الشخصية الانسانية ؛ الواعية والحرّة ، مما تقتضيه الإرادة النابعة من « الذات العميقة » *le moi profond* .

واستناداً إلى هذا الفهم ، تحرص الإرادة عند هيجل ، على أن تكون كما يجب أن تكون ، « حين تصل الإرادة إلى هذا الحال ، فهي إرادة متطابقة أو متوافقة مع « ما يجب » . ومن ثم فهي إرادة واعية ، وبالإضافة إلى ذلك تتميز الإرادة بالحرية ، حين تتوافق الإرادة مع ذاتها ، فتصبح إرادة حرة . ومن هنا تحقق « فلسفة الوعى » عند هيجل ، فكرة الإرادة التي تصدر عن أحوال النفس الباطنة وترتبط بمجرات الذات العميقة ، وتتصل بأغراضها ومقاصدها . وحين تتوافق الإرادة مع ذاتها ، فإنها تحقق فكرة « الحرية الأخلاقية » .

الضبط والالتزام الموضوعي :

فلنا إن الوعى الموضوعي ، هو وعى غير ذاتي ، وملتزم بكل الواجبات والمعايير التي فرضتها القواعد الاجتماعية ، والأخلاق الموضوعية ، مثل واجباتنا نحو الأسرة والمجتمع والدولة ، فهناك مصادر للالتزام الموضوعي ، « تصدر عن عارج الذات ، وهذا الالتزام الخارجى هو مبني « القانون والأخلاق والدين » ، وسائر مختلف « الضوابط الاجتماعية » .

وتستهدف الإرادة الواعية الحرّة في فلسفة هيجل ، الاتجاه نحو كل ما هو خير ، حيث يتوافق الخير مع اليقين الأخلاقي ، فالخير هو « جوهر الإرادة الذاتية » ، وينبئ أن تتطابق الإرادة الذاتية مع فكرة الخير ، وهذا الخير لا يكون إلا في الفكر وبالفكر وحده ، بمعنى أن « الخير الهيجلي » هو « جوهر الإرادة » ، كما أنه أيضاً « واجب مجرد دون حضمون » ، وينتج هذا الواجب المجرد لمثل اليقين بالأخلاق الذي يعين « في موضوع أو عملاً » ، ما يمكن حقاً أن يحدد ما يكون واجباً ، « فيسعدنا هذا « اليقين الأخلاقي » ، عن مصادر الخطأ أو الوقوع

في الشرور والآثام :

وينتق الوعى الموضوعى عند هيجل من «روح الجماعة» ، فينبع من ذلك «الروح المرضعى» الذى يتحقق فى القانون ، ووسائل الضبط الاجتماعى ، بما تفرضه من جزاءات ، يعتبرها هيجل مصادر خارجية للالزام أو الجزاء الاجتماعى Social Sanction . ومن ثم تقوم الرابطة بين «الالزام الاجتماعى» من جهة ؛ ومظاهر الحياة الواقعية من جهة أخرى . لأمر الذى معه يفصل الانسان الفرد عن «ذاته الواعية» ، ويتعدى جوانبه الباطنة الأصلية ، والمنبثقة عن تلك الذات التحتية العميقة ، ومن ثم يصبح الإنسان بفضل «الوعى الموضوعى» ، «جوهرًا اجتماعيًا» ،

ويتضح لنا من كل ذلك ؛ أن هيجل قد خرج بين «الحرية والواجب» ، بين الوعى والوجود ، بين الإرادة الفردية والإرادة الجمعية ، حيث تربط فكرة الحرية الهيجلية قيم ملزمة تصدر عن الخارج كما يصبح «عالم القيم الاجتماعية» ، هو عالم منفصل من عالم الذات ، ويصدر عن عالم الموضوعات القائمة فى بنية المجتمع . وتعتبر هذه القيم الموضوعية ، هى قيم ملزمة من جهة ، كما أنها قيم تحرر الشخصية الانسانية من الخضوع لساو النزعات والأهواء ؛ من جهة أخرى .

ويحدد هيجل دور الإرادة الموضوعى بأنه يقوم بوظيفة التوافق أو التطابق بين الإرادة الذاتية الفردية ، والإرادة الكلية للطلقة ، ومن ثم يطابق السلوك الفردى مع الواقع الموضوعى . لأن هذا الواقع الموضوعى ، هو بمثابة ذلك «الواقع الاجتماعى» الذى يخلقه مجموع الأفراد ، ويتحقق فى ذلك الواقع الكلى المشخص كما يتمثل فى واقع «الأسرة والمجتمع والدولة» :

ولما كان ذلك كذلك ، فإن الأخلاق الموضوعية عند هيجل تواف حتمًا جدياً أصلاعه ، الأسرة التى تمثل «الفكرة» فى الحقيقة الجدلية ، فنظر إليها على أنها

الموضوع أو الفكرة . أما المجتمع فهو الضلع الثاني الذي يمثل « تقيض الفكرة أو نقي الموضوع » ؛ والدولة هي ذلك ، المركب الكلي ، الذي يجمع بين التقيضين . ويؤلف ما بين الأسرة والمجتمع ، أو الفكرة وتقيضها ؛ ومن ثم صدرت « الدولة » كي تحقق الضلع الثالث والنهائي في الحقيقة الجدلية ، حتى يكتمل « هذا الثالث المؤلف من الأسرة والمجتمع والدولة في مثلث وحيد » .

والأسرة عند هيجل ، هي بمثابة الروح الاخلاقية الموضوعية ، أو المباشرة . والمجتمع هو مصدر الازام والجزاء . أما الدولة فهي « الحقيقة البنية المشخصة » التي تفرض قيم الاخلاق الموضوعية ، كما تفرض السلطة في المجتمع السياسي . ومن ثم كانت الدولة عند هيجل هي شخصية أخلاقية مقدسة ، أو هي « وحدة ميتافيزيقية متعالية » ، تلزم بالقيام بوظائف العقل والدستور كما تأخذ بالحكم الملكي المستنير ، القائم على العدل بالاشراف على السلطة التنفيذية ، ووضع القيود التي تحد سلطان الملك المستنير ، ولذلك يحقق الدستور والبرلمان حالة التوازن بين حاجات الدولة ، وحاجات المواطن ؛ وهذا هو السبب الذي من أجله نظر هيجل الى « النظام الملكي البريطاني » على أنه المثل الأعلى للنظم الدستورية في العالم .

وما ينبغي منا من كل ذلك ، هو أن الأخلاق الاجتماعية ، تنقسم عند « هيجل » الى أقسام متكاملة تربط بين الفكرة والتقيض والمركب بينها . فهناك أخلاقيات للأسرة وللمجتمع والدولة . والأسرة هي المظهر الأول للحياة الاخلاقية ، لانها نواة المجتمع ؛ وهي كؤوسة إجتماعية تعتمد على نظم أسلية حتى الزواج والملكية والميراث والنزعة education . . .

والزواج كظام إجتماعي هو واجب خطي وبداية اجتماعية . بمعنى أنه لإيجاد زوجين زوجين ، ينبغي ألا يخضع الاثنان للفرقة والعزلة والانعزالية ، ولذلك لا يمكن أن يكون هيجل على الزواج المونوجامي Monogamy ، الذي هو زواج الرجل الواحد

للرأى الواحدة ، ويرفض الزواج بالعدد المزدوج الذى يقول به أستاذه . كانت
 Kant ، لانه زواج ، لا أخلاقى ، كما أنه أنانى يقوم على النزوة والهووى . أما
 الزواج الاخلاقى الحق ، فهو دوحدة ووحية ، يتنازل فيها كل زوج عن أنانيته ،
 ومن هنا كان الزواج الميجل فعلاً أخلاقياً ، وليس مجرد إشباع لشهوة بيمية .

تلك هى الجوانب الروحية والاخلاقية للأسرة ، أما المجتمع المدنى عند
 ميجل فهو دوعاء ، أكبر ينتقل اليه الإنسان الفرد ، بعد التربية الاخلاقية التى
 يمر بها داخل الإطار الصغير للأسرة ، حيث تظهر وتمتد العلاقات والمصالح فى
 المجتمع ويرتد الانسان الى ذرة إجتماعية ، تعيش فى خضم هائل هو المجتمع
 بشاته وطبقاته التى تشجع حاجات الفرد الفسيولوجية ، كما تشجع حاجته الى الامن
 وهى ضرورات سيكولوجية وأخلاقية .

أما الدولة ، وهى المركب بين الاسرة والمجتمع ، فهى التحقين الفعل للفكرة
 الاخلاقية ، حيث تعارض الدولة كل الاهواء والنزوات الفردية ، ولذلك كانت
 الارادة الحقيقية للانسان الاخلاقى عند ميجل وهى تلك الارادة التى تصل الى
 تحررها الكامل داخل إطار الدولة .

وهناك بعض نقاط الضعف الشديدة ، التى تمنعنا منها وجهة النظر
 الميجلية ، فلم يوفق ميجل بين الحرية الفردية والارادة الجماعية ، كما أن العقل
 الذى يوجد فى التاريخ ، لا يستتبع التأكيد على أن يكون التاريخ مقولاً دائماً ،
 فقد تسيطر على التاريخ قوى وإرادات ، لا مقولة ، وبالإضافة الى كل هذه
 الانتقادات ، نجد أن إقراض الارادة العقلية للدولة والمحاداة مع الارادة الخلقية
 للذات الفردية ، إنما هو إقراض حيتافيزيقي ، وهو دتجاوز ميجل ، لا يؤيده
 الواقع أو التاريخ . وختاماً ، فقد أكد تاريخ النظرية الخلقية أن فلسفة ميجل ونظرته
 الاخلاقية والسياسية ، قد تمحضت وصدرت عنها ، أشد النظم السياسية الادارية

استعداداً ونمكماً ، فقد تمثلت سمات الديكتاتورية وملاعها بوضوح في النظم
الفاشية والنازية .

مثلث جدل التاريخ :

لقد بدأ مثلث جدل التاريخ في التطور ، بداية نقدية Critique وترسدت تالية
في ميتافيزيقا كانط ومقولاته الصورية ، ثم تطور ، مثلث الجدل ، عند هيجل
الذي اصطلم بالمنطق الكانطي الصوري ، ورفضه وأنكره حيث لم يلتفت كانط إلى
تاريخ الفكرة وفحواها ، وإنما التزم فقط بصورتها وفراغها .
فأصبح « المثلث الهيجلي » ، جدلياً Dialectique ملتزماً بنسوية التاريخ
وصحوى ماضى الفكرة . وهنا يصطلم هيجل بفكرة ضرورة إشتقاق المقولات
بعضها من بعض ، إشتقاقاً ضرورياً ، يلزماً بتتابع منطقي لها يحصلها تفجير واحدة
بعد أخرى ، بقوة المنطق وحده .

ولقد ميز كانط ، بين « الحكم التحليلي » ، و « الحكم التركيبي » ، و « الحكم
التركيبي الأول » . أما الحكم التحليلي فهو « لا يضيف شيئاً جديداً ، إلى الموضوع
أى أنه حكم « غير مخصب » ؛ ولكنه حكم « ضرورى necessary » .

وعلى العكس من ذلك ، فيضيف الحكم التركيبي إلى موضوعه جديداً ؛
وذلك استناداً إلى التجربة ، ومع ذلك فإن الحكم التجريبي « حكم غير ضرورى » ،
في حين أنه « مخصب » ، أما « الحكم التركيبي الأول » ، فيجمع بين ميزتي التزمين
السابقين ، وهما الضرورة والاختصاص ، في وحدة أعلى هي التركيب بين ما هو
« ضرورى » ، في الحكم التحليلي ، وما هو « مخصب » ، في الحكم التركيبي ، فأصبح
الحكم التركيبي الأول ، ضرورياً ومخصباً .

وتمتلك كل فكرة ذاتها بما ينفيها ، فإن « الانا المطلقة le moi absolue »
منه « فنته Fichte » ، وهي الذات الالهية ، التي لا يمكن أن تحقق وجودها

كاملة ، إلا بأن تعارض ذاتها بما ينفبها ، أى «بالأنا Le moi» ، ومكنا
خلقت الذات المطلقة ، العالم المحدود ، مصدر الوجود النسبي ، عن الوجود
المطلق .

ولقد جعل إثنان من كبار معاصري هيجل ، وأهمهما ، شلنج Schelling ،
و«فخته» Fichte ، من ثالوث الفكرة والتقيض ، إلى ما يتغير منها وبقيض ؛
وهو المركب بين الفكرة والتقيض ، فجعلنا من هذا الثالوث إطاراً نظرياً لما
إتخذناه من أنظار وأنساق ميتافيزيقية .

ولا مشاحة في أن ماركس ؛ قد استفاد من إكتشاف هيجل لمقولة التناقض ،
ولفكرة المركب Synthese ، حين يأتلف الضدان في وحدة أعلى ، وأكثر
خصوبة . وربما إستفاد هيجل أيضاً من «كانط» ، حين فتح أمام المنطق طريقاً
جديداً ، عندما أكد أستاذه «كانط» ، إمكان الإئتلاف بين الضدين في وحدة أعلى .
من عصر «الرق» ، إلى عصر «الصناعة» :

ولاشك أن هيجل هو فيلسوف من فلاسفة التاريخ ، فهو مكتشف عقولة
التناقض وأثرها التطورى في الحركة الجدلية ، ودفع عجلة التاريخ ، من أجل
تحقيق فكرة المثلث وأصلاعه . ولكي يطبق هيجل نظريته في المثلث الجدلي
الحال بين الفكرة وتقيضها والمركب بينهما (١) . حاول أن يؤكد على أن منطق

(١) ومثال هيجل على ذلك ، ما علم به الفكر الألماني الكانطى ، حين ألب
وجع بين الفكر الفرنسى العلى ، والفكر الانجليزى الامبيرى ، في فلسفة تندية
وحيدة تجمع بينهما . وبسوق هذا المثال المؤرخ الميجل اليسارى «هيربرت ماركوز»
«Herbert Marcuse» في كتابه «العقل والثورة Reason and Revolution»
والذى أسمر له عنواناً ثانوياً ، «هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية Hegel and The
Rise of Social Theory» ولقد مثل هذا الكتاب المنع إلى اللغة العربية ، الدكتور
فؤاد زكريا .

التاريخ هو محرك العدل ، ومنطق التاريخ هو بساطة منطق الأحداث ،
ومنطق الحركة الاجتماعية التي تتحدد منطق الانسان ، وتعرض تماثله ،
وترسم أسلوب حياته .

وإذا كان الانسان في منطق التاريخ هو مجموع رغبات وإرادات وشهوات
حية ، حيث تميل الطبيعة الانسانية نحو التسلط والرغبة في التملك ، حتى يصبح
الانسان معترفاً به وبإرادته وقوته ، وبطبيعته وبمخائله ، حين يتبين الانسان
أو يعلو بالنسبة للآخرين وفي نظرم ، بكيانه وذاته ووجوده . .

والانسان يريد السيادة ، التي يعترف بها الناس ، وملك ، أو أسلوب
السيادة ، هو ملك التفضال ؛ أما أسلوبها فهو أسلوب الصراع ، وينتهي
التضال والصراع والحرب ، بقضاء فريق على آخر وسيادته وتسلطه ، فيعترف
المغلوب بسيادة المنتصر ، كما يرضى المهزوم بالمهزومة ، لكن يضمن حياته ،
فيفضلها على الغلبة والسيادة .

والانسان الحر إذا ما حكم عليه بالمهزومة والقهر ، حتى يستطيع أن يعيش
ويستريح وينعم ، يصبح « عبداً » ، حين يرضى بواقعه ، ولا يخاطر من أجل
السيادة أو الحرية . ومن هنا تظهر طبقة السادة وطبقة العبيد . . وتصل الأولى
بدافع القهر ، . وتصل الطبقة الثانية بدافع الخوف . .

ومع تطور حركة التاريخ ، يبدأ الصراع بين السادة ، و « العبيد » ، حين
يشعر العبد بعبوديته وإذلاله ، فيطالب بالحرية ، وفي نفس الوقت يشعر العبد
بالسيادة ، ويطالب بالاعتراف الدائم بصلفه وكبريائه واستعلاؤه .

ولاشك أن اعتراف العبد بسيادة السادة ، إنما يقتضى منه القيام
بخدمتهم ، حين يكلف العبد بالأعمال . وليست « الخدمة » هي مجرد بذل
المجهود للقيام بأعمال لها ضرورتها الحيوية والاستهلاكية في الحياة اليومية ،

بل من شأن « الخدمة » أن تصبح في يوم ما « عملاً Work » ، أو حتى « صناعة industry » .

وهنا يكون من شأن « العبد » أن يتحول في يوم ما ، إلى « عامل » أو « صانع » . وهذا هو بالضبط ما حدث بالنسبة للزواج المولود في الولايات المتحدة الأمريكية ، وبخاصة في ولايات الجنوب ، حين تحول « الإنسان الأبيض » من حالة الاسترقاق ، لحظم حاجز العبودية ، فلم يعد الأبيض يشعر بنفسه كمبدأ اشتراه سيده ، بل كعامل أو كصانع يعمل سراً بهرق جبينه .

فقد بدأ التحول والثورة في باطن العبودية والاسترقاق ، كما بدأ الصراع والجدل ، فنتج عن هذا « الصراع الباطني » منطق جديد لتاريخ حين يشعر العبد « بالثورة الداخلية » وعندئذ فقط تتحول « خدمات » العبد إلى « عمل » منظم . وقد يشور العبد ويستمر في الثورة ، حتى تتحول « الحرف البسيطة » التي تدور حول تربية الخيول و « المهن السكادحة » كالحداثة وصناعة العربات ، تلك التي سادت وانتشرت ، ثم تطورت إلى أعمال يدوية مريحة وآلية . ولقد استمرت الثورة فعلاً ، فخر العلم Science « العمل والعمل » حين أحال « العلم » العمل الآلي إلى « صناعة industry » و « إنتاج Production » :

فالحرية كانت هي المحرك الأساسي لتطوير « طبقة الخدمة » إلى « طبقة العمل » ، وبالمثل تحرر « العبد من الخدمة » .

فقد كان العمل هو ثمن الحرية ، وكانت الحرية هي ثمرة العمل ، فدفع العبيد من أجورهم ما يسيطرون وثيقة الحرية . فلقد كان العبد فيما مضى ، « خادماً للسيد والطبيعة » ، إلا أنه اجتهد وكافح لكي يصبح « عاملاً » أو خادماً للطبيعة بحسب . وهو الآن كامل إنما يقوم بأعمال ، لا تتصل به أو بأغراضه . وقد لا تشيع حاجاته أو لذاته الشخصية ، بل وقد لا ترضيه هو نفسه ، فهي أعمال تحقق أغراض

الآخرين ، وترضى السادة « من ذوى الياقات البيضاء » من « أصحاب ومدبري العمل » وتشبع نهمهم وحاجاتهم ولذاتهم الشخصية .

والعبد في أثناء خدماته وأعماله ، ومن خلال جهوده وسعيه ، إنما ي مجرد ذاته من رغباته الطبيعية ، ومن طبيعته الحيوانية . لكن يحصل على إرضاء « السادة » حين يقوم بتحويل الأشياء وجعلها قابلة للاستهلاك ؛ وهنا يظهر العبد « نوع من السيادة على الطبيعة » ، يشعر « بنوع من الحرية » ، وبخاصة حين ينظر العبد إلى العمل ، وإلى نتائج عمله وصناعته ، وهو حر أيضا في إمكان تحسينه وتقدمه وتطويره . فيحاول أن يتقن الصنعة ، فيحترف المهنة ؛ وقد يصبح « صانعا دقيقا وماهرا » ، حين يتحضر العبد وينبى « العامل » ، ويعمر ويشيد المصانع ، فيدخل العمل « مرحلة الصناعة ».

وما يفتينا من كل ذلك هو أن هيجل ، يعالج على نحو جليل ذلك التناقض القائم بين « السيد » و « العبد » ، فشرحه في كتابه « فينومينولوجيا العقل The Phenomenology of Mind » الذى كتبه هيجل في مدينة « يينا Jena » ، يينا تلك مدافع نابليون ، معاقل العبودية لتحرير الانسان ، وتطبيق مبادئ الحرية والاخاء والمساواة . وكلها قرارات اتخذتها الثورة الفرنسية ، فكتب هيجل ، عن احتمالات تحرير العبد من استغلال الانسان . حيث أن مدافع نابليون التى جاء بها من أجل التحرير ، هى من صنع « الهال » . « فالصناعة هى التى تحرر الانسان ، وتؤسس الدولة للعاصرة ».

وقوم « الدولة المصرية » على الحرية والصناعة ، ولا تظهر الحقيقة عند هيجل ، إلا بفضل تلك الحركة التقدمية المتفائلة التى أدت إلى حصول العبد على الحرية . والفارق الجوهرى بين هيجل من جهة ، والماركسيين أو اليساريين من جهة أخرى ، هو أن هيجل يرى فى الصناعة وسيلة لقيام دولة « حديثة » ، بينما يرى

« اليساريون في الصناعة ، وينظرون إليها ، كجمال الحرية وليست وسيلة لها ، وبخاصة حين نظروا إلى دولة العمال والصناع ، على أنها « دولة الأحرار » .

علم الاجتماع السياسي يرصد ظواهر الفكر :

لا شك أن نظرية كانط في أشكال الأحكام هي التي أعلت الجدل الميجلي ؛ الذي يستند إلى ما ينجم من الفكرة وتقييمها وما يؤلف بينها ، ولا مشاحة في أن كانط بفلسفته النقدية وأحكامه التركيبية الأولية أو نزعه الصورية الترسنتيالية قد دفعت بالجدل الميجلي إلى الظهور على مسرح الفكر الفلسفي . ولقد اكتشف ميجل التناقض الذي يعمل في قلب الوجود ، كحركة معادة للهوية والذاتية . فاكتشف بذلك دور التناقض في تطور الفكرة وتاريخها . ففي مقدمة « فارست » ، لمجره ، نجد أن دور « ميستوفيل » هو دور الروح الشريرة المدمرة ، كما نلاحظ جوته حين يقول « إن دور هذه الروح المدمرة التي تنق وتهم ، إنما هو في نفس الوقت دور « تقدم » و « تطور » و « بناء » .

ولقد ظم ماركس بتطبيق مكتشفات « ميجل » و « جوته » ، كما حاول بالنسبة لمتناقضات الاجتماعية ، أن يوفق بين « الأنانية » و « الغيرية » ، كما أكد دور التناقض بالنسبة لتطور المجتمعات وتاريخها ثقافياً وحضارياً . وفي نفس الوقت أكد ماركس على وجود « هذا التناقض الاجتماعي والاقتصادي » ، ودوره في الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية .

والامر عندى ، يتمثل في أن علم الاجتماع حين يرصد ظواهر الفكر ، إنما يؤكد على أن النزعة التقليدية الكانطية ، كانت مصدراً خصباً في بحث النزعة الميجلية ، كما أصبحت الميجلية هي المفتاح الرئيس الذي بفضلها نستطيع أن نطرق أبواب الماركسية . على اعتبار أن الفكر الميجلي هو الطريق الوحيد الذي

يوصلنا إلى باطن الفكر الماركسي، فكانت الهيكلية مبعثاً لظهور قضايا علم الاجتماع الماركسي.

فلم يكن «ماركس» إلا «هيجل» نفسه، وقد تجرد عن «رداء المثال»، وتخلص من «قشرة الشكل»، وأبقى بظواهر صور الأفكار، والنصت للماركسي فقط إلى مضامينها التاريخية وعقرياتها المادية.

ولم يكن «هيجل» مثالياً، إلا لأنه قد أدار حول الفكرة «فلسفة الديالكتيكية»، وبذلك أقام الجدل في إطار مستوى الفكرة، وفي داخل نطاق المنطق الجدل. أما تلميذه النقيب «كارل ماركس»، فقد أقام جدله على أرضية الواقع الصلب، حين تصدر الجدلية الماركسية «هادية الأصل والفعوى»، فقد أخرج ماركس «الجدلية الهيكلية» من نطاق العقل المحدود، فاذا بها «حية» تسعى في دنيا المجتمعات، وأصبح الجدل اجتماعياً وطبقياً وثقافياً، وتبدل تقدم الفكر إلى تطور المجتمعات التي يحكمها جميعاً مثلث الجدل، بما يحويه من صراع يعمل في قلب الوجود الاجتماعي.

ولقد رفضت الماركسية القول بروح التاريخ، كما رفضت المطلق *absolute* وأنكرت النهاية *Final* والمقدس *Sacred*، فليس هناك في الديالكتيك الماركسي إلا الحركة الدائمة التي لا تنقطع، حركة الدمار المحتوم على كل شيء وكل فكرة وتلك هي حركة الصيرورة *Becoming* والفناء، التي هي حركة التصاعد أبداً. ودون توقف، مما هو أدنى إلى ما هو أعلى.

وإذا ما عقدنا المقارنات، بين «هيجل» و«كانط»، فيما يتعلق بموقفهما من «نظرية المعرفة» أو «الإبستمولوجيا»، نقول: لقد «أبهر» هيجل المعرفة، بينما «شيد» كانط في عقله، حيث شاهد هيجل المعرفة وهي تتبنى وتتسكون خلال عملية التدرج بانثاقها وصورها كنتاج إنساني *Human Product*، إلا

أن كانت حينئذ نظريته للمعرفة ، لم يلتفت إطلاقاً إلى « حركة الإنسان » في مساره وإطلاقه ، في قدمه وصراعه أثناء تدفق زمان التاريخ . وهذا ما ميز فلسفة هيجل وجعله فيلسوفاً للصراع والجدل والتاريخ .

فلم يأخذ كانت في اعتباره « تجربة الإنسان » ، ولم يدخل في حسابه « تاريخ البشر » ، بينما اهتم هيجل بهذا التاريخ كل الاهتمام . فالقصة مثلاً كنسق من التصورات ؛ ولكنها أداة يستخدمها الناس ويتناقشونها كوسيلة للاتصال والتفاهم . بالإضافة إلى أنها تتيح احتكاك الإنسان بالآخرين ، ولقد بلغ هيجل إلى أبعد الآمال أثناء مشاهدته لتجربته ورؤيته لواقعه ، وفي اعتباره المعرفة كتأرجح التجربة الإنسانية . وذلك حين تصور « الواقع » معقولا ؛ على اعتبار أن « الروح Spirit » إنما يكشف عن ذاته ، وأن الواقع الخارجى ، هو من اسقاط Projection الروح الموضوعى ، وغالباً ما يكون هذا الواقع الخارجى هو الصورة التى تبرز فى إطارها « عالم الثقافة World of Culture » ، هذا العالم الذى يخلقه « روح الشعب Volksgeist » ، الذى عنه تصدر القيم والأساطير وتنبثق التقاليد والتصورات (١) .

وبذلك وضع هيجل فى اعتباره ، الالتفات إلى التاريخ ، والنظر إليه كعملية process ، بمعنى أن يكون التاريخ فى فلسفة هيجل ، هو العملية التى بفضلها يتقدم الإنسان وينمو الجنس البشرى ويتطور ، ففى التاريخ توجد كل محاولات الإنسان ونجاحاته ، حتى يمكنه من خلال تجاربه أن يؤكد ذاته وأن ينمى قدراته وطاقاته . والتاريخ ماضى ، هو « تاريخ الروح » ، أو ماضى العقل ، حين يحقق ذاته ويظهر قواه وطاقاته ، ويكشف عن واقعه الخارجى باسقاط الروح

(1) Blandel, Ch., Introduction à la Sociologie Collée. A. Colin Paris 1925. p. 51.

للموضوعى على ذاته ، وبالتالي يربى الإنسان نفسه بنفسه ، ويعلم ذاته ؛ فيسلك سلوكاً اجتماعياً مقرولاً يتفق مع علة الخارجى ، الذى هو عالم الثقافة Culture وفى هذا العالم فقط ، يستطيع الإنسان أن يسلك ككائن عاقل ، فلا يمكن أن تتصوره وجود المجتمع ، أو قيام الثقافة ، دون وجود إنسان ، أو قيام كائن عاقل مسبق . حيث أن الإنسان العاقل هو مصدر كل ثقافة ؛ كما أن الثقافة هى أيضاً نتاج مباشر لوجود الإنسان العاقل . ولم يشر هيجل على ما فعل ماركس إلى «الوعى Consciousness» ، أو حتى إلى «الوجود الاجتماعى Social existence» ، وإنما ركز فقط على «الروح الموضوعى objective Spirit» ، ويتضمن ذلك الروح الموضوعى كل ما يتصل بقواعد المجتمع والنظم الاجتماعية Social institutions ؛ وما يتعلق بالأساليب التقليدية السلوك Conventional modes of behaviour .

هذا عن الروح الموضوعى ، أما عن «الروح الذاتى Subjective Spirit» فيتألف من طرق الفكر واتجاهات العقل والوجدان . ويؤثر كل من الروح الموضوعى والروح الذاتى على نحو تبادلى ، فلا يبنى أحدهما دون الآخر ، كما تربطها علاقة تساند وتعاود من جهة ، وتأثير متبادل من جهة أخرى . حيث يؤثر الشعور السائد في قواعد ونظم المجتمع ، كما تؤثر بالتالى أساليب السلوك التقليدى في اتجاهات العقل وأنماط الفكر . وإذا كان أفراد المجتمع يستلعبون الحياة في علاقات اجتماعية متبادلة ، وإذا استظاهروا أن يكتفوا بمضى الأهداف والمقاصد المشتركة ، فلا بد أن يتوافر عنصر الانسجام Harmony ، الذى يحقق التكامل والانساق بين الروح الموضوعى والروح الذاتى ، وليست العلاقة بينهما «عابثة» ، وليس الانسجام أبدياً ، فهناك عناصر الحدم والتفهد ، تلك التى تنشأ من تناقضات Contradictions تقوم بين سائر العناصر والأجزاء ،

ويته التناقض دائماً نحو الحل Solution ، عن طريق إزالة الصراع وحل التناقض أو رفع التعارض .

ومن هنا يحدث التقدم بعد أن يزول التوتر Tension ؛ ويتوقف الصراع والجدل . إذ أن الجنس البشرى إنما يتطور ويتقدم ، بحسب التناقض ، ونظراً لوجود التعارض والصراع . ولأنك أن التطور البشرى ، هو في واقع الأمر تقدم « جدل dialectical » ، أو هو تطور « حركى نشط » ويعبر هذا التقدم عن ذاته في شكل نشاط إجتماعية Social activities ، تكون مستمرة أبداً ، كما وتدفع حركة التطور دوماً نحو الأمام .

ولقد رفض الماركسيون تصورية « هيجل » عن « الروح اللاتهاقي » ، في عملية التحقق الذاتي ، نظراً لما فيها من تجريدات ميتافيزيقية ، ومناهات فلسفية ، بينما وافقوا على الأفكار الأساسية للنظرية الهيكلية ، مثل الجدل والتناقض ، كما وافق الماركسيون على موقف هيجل بصدد الإنسان والمجتمع والتاريخ ، فن المتفق عليه مثلاً بين الماركسية والهيكلية ، أن قدرات الإنسان — التي تميزه عن سائر الحيوان — هي قدرات متطورة بالضرورة ، حين تتغير وتبدل على مر الزمان ، نظراً لاحتكاك الإنسان الدائم بالطبيعة ، وإتصاله الدائب بالحياة والمجتمع خلال تقدم حركة التاريخ .

ومن المؤكد مثلاً ، أن الأساليب التقليدية لسلوك الإنسانى ، هي نتاج نشاط الإنسان وقدراته ، كما أنها أيضاً نتيجة حتمية لاتصال الفكر المستمر بالواقع الاجتماعى واحتكاكه بالبيئة الطبيعية . ولأنك أن التمييز الذى وضعه هيجل بين « الروح الذاتى » و « الروح الموضوعى » ؛ إنما يتصل إلى حد بعيد بذلك التمييز الماركسى الذى يفصل بين « الوعى » و « الوجود الاجتماعى » حيث يستخدم هيجل كلمة الروح Spirit ، كى تصدق على النظم وأنماط السلوك من جهة ، ولكن

تصدق أيضاً وفي الوقت عينه ، على سائر المعتقدات والتصورات والمشاعر العامة بمعنى أن هناك رابطة جوهرية بين الروح الموضوعي والذاتي ، حيث أن النظم هي ، أنماط من السلوك ، من جهة ؛ كما أنها من جهة أخرى ، قوالب من الفكر والمشاعر ، قد صيغت في قواعد مرهية وعامة ؛ بالإضافة إلى أننا نجسد في كل نوع من النشاط الاجتماعي ، إنما يتوافر لدينا عنصر « الوعى » ، وهو نوع من التفكير المرتبط بالأشياء والمحصل بالوجود .

هيجل والأيديولوجيا :

إلا أن هيجل لم يستخدم اصطلاح « الوجود الاجتماعي » الذي يتحكم في الوعى . ولم يحدثنا اطلاعا عن مفهوم « الأيديولوجيا » تلك الكنية التي اصطفتها ماركس وألح عليها كل الإلحاح باعتبارها المفتاح الوحيد لفهم الانسان والمجتمع والتاريخ . ولكننا نلاحظ أن التصورية التي استغرقت جانباً كبيراً في فلسفة هيجل ، هي « التصورية العالمية » ، أو ما يطلق عليها هيجل اسم *weltanschauung* ليقصد بها معنى « التصورية الكلية للعالم » (١) . ولا يمكن أن يحصل على هذه التصورية الكلية المطلقة سوى « كائن عاقل مفكر Rational Being » حيث أن فهم النظم وتحليل الأفكار في ضوء علاقتها بعضها بعضاً ، ودراسة ماضيها ، وكيف نشأت وتطور ، كل هذه جوانب تدسّر من أخص خصائص الانسان من حيث هو « كائن مفكر » .

بمعنى أن النظرة الكلية للانسان وموقفه من العالم ، وتفسيره التاريخ ؛ إنما لا يتحقق كل ذلك ، إلا بشروط « الوعى » تلك التي تتوافر في الانسان من حيث هو كائن « يفهم » ، و « يحكم » ، و « يدعى » ، ويستخدم أفكاره ويحدد أهدافاً

(1) Mannheim, Karl, *Essays on Sociology of Knowledge*, Routledge and Kegan Paul, London, 1952 p. 38.

خاصة يستطيع تحليلها وتعليلها وتفسيرها ، من زاوية موقفه ونظرته الكلية للعالم .
إذ أن هناك تصويرة للعالم ؛ أو نظرة للوجود ، يستطيع الانسان من خلالها
أن ينع نظاماً للأشياء . ومن شأن هذا النظام التصوري للوجود ، يرتبط برباط
وثيق بنسق الفكر واللغة language . حيث أن الفكر يصبح بلا وظيفة إذا لم
يتصل بالعالم أو يرتبط بالأشياء ، كما تصبح اللغة ناقصة عرجاء إن لم تتش
بحركة الوجود وتلتحم بتيار التاريخ الاجتماعي .

وبهذا المعنى أصبح الفكر البشري ظاهرة تاريخية ؛ وتحتاج جمى يتوقف على
شروط البيئة وظروف الثقافة Culture ، كما يستند الفكر أيضاً إلى مواقف
اقتصادية تؤكد المصالح المادية ولذلك كانت « المنفعة » هي الخلفية الأصلية التي
تتحقق وتستمر وراء سائر الأيديولوجيات الانقطاعية والبورجوازية ، ويمكن أن
ترفع هذا الستار النعني الجشع ، حتى تكشف تلك الأيديولوجيات ، وهذا هو
أسلوب الماركسي في دراسة الأيديولوجيا ، بالكشف عنها ، حين تفصح عن
نفسها ، وتصبح حارية عن ظاهرها الفكرى ، ولا يكشف لنا في أيديولوجيا
البورجوازية « سوى باطنها النعني » ، ويرى الماركسي في النعنية « فلسفة
للخنازير » ، على حد تعبير الفيلسوف نيتشه Nietzsche ، حيث تتميز النعنية
بالحرص المزوج بالجبن لتحقيق المنافع والمآرب .

وعلى العكس من ذلك ، فقد أثبتت كتابات هانهايم أن « المنافع » ليست
هي الدوافع الوحيدة للسلوك والمواقف البشرية ، وأن « المصلحة » ليست هي
القطرة القليلة التي تصل العقل بالوجود ، والفكر بالواقع ، ففي ميدان الفن
مثلاً ، نجد أن المنفعة ليست من عناصر « المحلى الحقى » ، ذلك الذى تتوافر فيه
قطب بعض « القواعد والشروط الصادرة عن ظروف المجتمع والتاريخ » . على
اعتبار أن الفن مهما خلق بعيداً في عالم الخيال ، لوجدنا أن العناصر الاجتماعية

كامنة بالضرورة في عملية الخلق الفني ، بمعنى أن ، الانسان والمجتمع والتاريخ ، هي عناصر ضرورية لتكوين اتجاهات الفن ومذاهبه .

فكرة النسبية والايديولوجيات :

لقد رفض التاريخيون فكرة الانسان الصوري أو للمنزل ، وأنكروا تصويرية كإفاد غير الواقعية ، تلك التي تنظر إلى الانسان على أنه كائن مجرد abstract ، وإلى عقله على أنه عقل خالص ، على حين أننا لا نجد إنساناً بدون تاريخ ، ويستحيل علينا أن نجد « عقلاً خالصاً » . فلا يوجد سوى « الانسان المشخص » ، الذي يحثك بالآخرين ويتأثر بالقيم وبشكل عقله بالترية وتصاغ شخصيته في قوالب اجتماعية وصور ثقافية .

فالانسان الواقعي سواء كان فيلسوفاً أم فناناً ، ليس كاتباً وحيداً منزلاً و « كأنما أني في هذا العالم » . على ما يقول الوجوديون ، كما أن الانسان ليس كاتباً غريباً يعيش خارج جدران المجتمع أو حدود التاريخ ، فإذا ما تناولنا وفلسفة الفيلسوف مهما كان في عزلة ، وإذا ما عللنا الخلق الفني لموسيقار أو أديب أو نحّات مهما خلق بعيداً في برج عاجي ، لوجدنا أن الفن قد إلتصق بالطابع الاجتماعي . وأن التناج الأدبي والفلسفي قد امتزج بالكثير من العناصر الثقافية والاجتماعية .

ولما كان ذلك كذلك — فقد ذهب التاريخيون والايديولوجيون إلى أن الحقيقة نسبية Relative وليست مطلقة ، لأن الحقائق إنما تتغير فقراً من عالم الواقع الاجتماعية والأحداث التاريخية ، ومن هنا كانت نسبية الحقائق التي لا تظهر « بشعماً ولحمها » ولا تتكرر بنفس الصورة ، هي نفسها ، أو بكلمات أخرى لن تتواتر فعري الظواهر بنفس الشكل وينفس الموضوعية في مجتمع

آخر ، أوفى ثقافة أخرى^(١).

وهناك الكثير من الكتابات السوسيولوجية التي تؤكد على الفكرة النسبية ، مثل ظهور كتابات لوسيان ليفي بريل Lucien Lévy-Bruhl ، التي تفصل بين منطق الفكر البدائي ومنطق الفكر المتحضر ، ونظرت إلى العقلية البدائية على أنها « سابقة على الفكر المنطقي »^(٢).

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، « حين تقلب سفينة في بحر عاصف ، يظن بحارتها ، وهما أن الموترة سوف تأتيم في الحال . بينما يعتقد البدائيون أن « روحاً خبيثة » قد قلبت السفينة ، حيث ينظر البدائي إلى الكون نظرة خاصة^(٣) كما يحلل الأحداث والوقائع الفيزيكية تحليلاً « غيبياً » mystique ، وتلك هي ملامح ومحات العقلية البدائية . والبدائي كم هو في مسبب الحاجة إلى تفسير الظواهر ، وتحليل الأحداث الطبيعية بمعنى أن البدائي لا يلجأ إلى « الغيبيات » إلا لأنه يخفق في معرفة الملل الحقيقية ، فهو كالتحضر يستطيع أن « يقارن » وأن « يفسر » بنفس الطريقة مستخدماً نفس المقولات والقوالب .

على اعتبار أن العقلية البدائية ؛ إنما تحمل نفس التصورات والمقولات المطفية ، فهي عقلية حاصلة على « الزمان والمكان والعلية Causality » ، ولكنها تفسر وتحمل بطريقتها الخاصة ، ووفقاً لأساطيرها وتصوراتها الجمعية . فقد

(1) Stark, Werner., The Sociology of Knowledge, Routledge, London. 1960. p. 27.

(٢) أنظر في هذا المعنى — مكتوب لباري عبد اسماعيل « علم الاجتماع والفلسفة » الجزء الأول ، صفحات ٩٢ ، ٩٦ دار الكتاب العربي .

(٣) أنظر « نظرة البدائيين إلى الكون » لمكتوب أحمد أبو زيد ، مجلة علم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الثالث ، ديسمبر ١٩٧٠ .

تلقى المعتقدات البدائية ضوءاً على معنى الوجود، ومغزى الأشياء، فليجأ البدائيون إلى قصص القدماء وأساطير الأولين، حتى يجدوا تفسيراً للأشياء والموجودات.

ولم يكن ماركس وحده، هو أول من بشر بالفكرة الأيديولوجية، وما يتصل بها من نسبية، وخاصة حين تربط الفكرة بأصولها الواقعية ومصادرها الاجتماعية. فقد كان باسكال Pascal فيلسوفاً أخلاقياً، عالماً ورياضياً، إلا أنه في الوقت نفسه، قد عبر في حق وإسالة عن نسبية الفكرة الأيديولوجية، حين قال: «إن ما هو حقيقي في شبال البرانس pyrenees، هو خاطيء في جنوبها، وسين أعلن باسكال هذه القضية، لم يكن يفكر في نظريات وأفليس، الهندسية، أو حتى في مدار كوبرنيكس Copernicus وأنظاره الفلكية، وإنما كان باسكال يفكر فقط في قواعد الأخلاق وقوانين السلوك الاجتماعي. وفي هذا الصدد يسخر لينين Lenin، بقوله: «لو أن البديهيات Axioms الهندسية كانت تصطبغ بمصالح الناس، لسعوا بكل تأكيد إلى دحضها. كما اصططعت نظريات الطبيعة بأوهام الملامح القديمة» (١).

وبهذا المعنى الساخر، قد تتأثر بديهيات الهندسة ونظريات الرياضة، بالنظرة النسبية، لو أنها اصططعت بمصالح الناس، فالنسبية لنا دأمر إنساني بحث، يصدر عن مجتمعات الناس وطبقاتهم حين تصطبغ بمصالحهم وأيديولوجياتهم. تلك هي النسبية الاجتماعية، التي انطلقت منها ماركس ومانهايم، بالرجوع إلى البعد الواقعي للفكر والتصورات، على اعتبار أن التطاير والاحداث الاجتماعية، إنما تنضج عند ماركس لجلد الواقع وقوانينه. الأمر الذي جعل ماركس ينظر

(1) Lenin, Selected Works., Vol : 1- Progress Publishers
Moscow. 1967. p- 46.

إلى القانون والأخلاقي وما يتصل بهما من قواعد ومعايير السلوك الخلقى ، على أنها أجزاء متكاملة ومتساندة في البناء الأيديولوجي الأعلى .

الأيديولوجيا والفلسفة السياسية :

لقد اشتهر « كارل ماركس Marx » بقدر المقارنات ، بين « البناء الأسفل » و « البناء الأعلى » ، حين ربط التاريخ بالمادة ووصل « البناء الأيديولوجي ideological substructure » بالأساس المادى أو الأسفل ، وحين وصل أيضاً « الوعى Consciousness » بتلك الشروط الاجتماعية للوجود ، وإذا ما عدنا إلى الوراء لوجدنا أن الفلاسفة الألمان قد أصدروا قبل ماركس ، عدداً من الأفكار والأنظار الفلسفية لتفسير « الفكر Thought » وتحليل « المعرفة Knowledge » . فقد هؤلاء الفلاسفة زواجاً مقدساً بين « الفكر والواقع » ، فوصلوا بين العقل والوجود ، أو بين « الفلسفة » و « التاريخ History » بحيث نستطيع القول ، أن « الأيديولوجيا » بمعناها الواسع ، هي إبنة هذا الزواج الشرعى بين « الوعى والمجتمع » ، أو هي وليدة خصوبة الفلسفة التى نصحت وأثمرت حل أرضية التاريخ الاجتماعى ، « فالأيديولوجيا هي الفلسفة الشائعة ، بين عامة أو أوساط الناس . وهي الفلسفة حين تنحى على الأرض وتمرح في عقول البشر ، وتتحقق في أنماط السلوك ، فالأيديولوجيا إذاً هي « بناء عقلى intellectual structure » يتصل بأفكارنا ومعتقداتنا ، وأساليب حياتنا ، كما وقد تتضمن الأيديولوجيا أيضاً ، ما هو أكثر من ذلك حين تشمل كيفية تنظيم المجتمع organization of society » .

وقد تكون الماركسية واللينينية Leninism والنازية Nazism ، وحتى البروزية Buddhism وهي أخلاقيات بلادين ، أو دين بنف « إله » وكلها

(1) Durkheim., Emile , Les Formes Élémentaires de la vie Religieuse, F. Alcan-Paris 1912. P. 42.

نماذج من الأيديولوجيات ، ideologies ، أو الفلسفات الشائعة ، التي يكون لها رد فعلها على سلوك الناس وتصوراتهم . فلقد كان الراهب البرغي ، إلى عهد قريب ، يحرق نفسه حياً ، لكي يظهر تفرده ، ورفضه أو اعتراضه السياسي (١) . ومن هنا تغير الأيديولوجيات عن تصورات الواقع ، ودنطق الوجود الاجتماعي ، ، وما يسود في الفكر الشائع بين الناس . فالماركسية واللينينية مثلاً من الأيديولوجيات التي تحققت في الواقع السياسي السوفيتي ، وفي روح المجتمع الصيني المعاصر ، فأصبحت الأيديولوجيا اللينينية مذهباً في الحياة ، يلبيح سرفاق مادته بين مختلف الملل والتحل .

وتصلق الأيديولوجيا بالفكرة الشائعة التي تلحح بالمعتقدات ، وتصل بالاعتقاد إلى حد الإيمان . ولذلك سيطرت الأيديولوجيات على خيال الناس وتصوراتهم الروحية ، فأصبحت الأيديولوجيات ، هي قوى فكرية موجبة ، ولها صفة التمسك ، ود القهر ، ود الضغط ، فهي قوى فكرية عنيفة ومشاعة ، ، ومارست الأيديولوجيا في نفس الوقت د وظائف اجتماعية Social functions ضرورية كمراحل الضبط control والجزاء Sanction ، فخلقت الأيديولوجيات بذلك أعماطاً من التقليد والتبعية ، ، لما كان على الناس سوى د الولاء والطاعة .

وحين تصبح الفلسفة ، أو تسود المذمبية والعقائدية بين سائر الناس ، تصبح الفلسفات والمذاهب والعقائد من الأسلحة الأيديولوجية التي يكون لها صدامها في د اتجاهات الرأي العام ، ، حيث تسود وتنتشر وتختلط بالتصورات الخرافية collective representations ، ويكون لها أثرها ورد فعلها في تحييط الثقافة

(1) Corbett, Patrick. ideologies, Hutchinson, 1965. p.

وفي تحديد أنماط السلوك .

وتلك حقيقة يؤكد عليها علماء الاجتماع الثقافي والصناعي والديني والسياسي ، كما يؤكدونها في نفس الوقت ، علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge ومن هنا يمكننا أن نقول في الرد على «كارل ماركس» ، أن السلاح الأيديولوجي الفكري هو أقوى الأسلحة وأمضاهما ، فليس الأساس المادي Infra-Structure أو البناء الأسفل . هو الاصل في التغيير الاجتماعي ، وليس «الجوع» هو الدافع الحقيقي للثورة ولكن الفكر هو في واقع أمره «السلاح الثوري الرهيب» ، فوداء كل ثورة وفلسفة ، لتفسير الواقع ، أو مذهب يحرك العقول ، أو دعوى ، تتحكم في مسالك الجماهير .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد أصبح الأيديولوجيا ؛ هي الدعوى الدينية أو الخلقية التي تمجد القيم فتتحقق في الفكر الذي يحرك الجماهير ، أو المذهب السياسي الذي يغير السلوك ويبدل الجماعات ، ومن ثم قد تصبح الأيديولوجيا أحياناً هي الثورة التي قلبت الأوضاع بتنمية الانسان ؛ وتطوير الآمال ، وتغيير الاتهامات والظلم .

فالأيديولوجيات لما خطر لها الذي لا ينكره عالم الاجتماع السياسي ، فيقدر حسابها بميزان دقيق . ولقد ظهرت «النازية» Nazism ، في أوائل ثلاثينات هذا القرن ، صدرت كدعوى أيديولوجية مدمرة ، ذات سلاح رهيب . فلقد استطاع «هتلر» في الحرب العالمية الثانية ، أن يقوم بمحاولة تطبيق أول «اختراع عصري» ، كما وضع عقيدة سياسية ، حين بدأ يخطط لتحقيق مبادئه الفلسفة النازية .

والنازية ، هي «أيديولوجية الصليب المحقوف» التي اكتسحت أوروبا بأسرها وبحلول «هتلر» بالنازية كأيديولوجية جرمانية معزاة لكل الاجناس ، أن

يكسح في شهور وباستراتيجية الحرب العسيرة والمخاطفة ، معظم الدول والشعوب الممتدة من باريس حتى ستالينجراد ، كما سيطرت جيوش النازي على هولندا وبلجيكا وفرنسا والنمسا ، بفضل عملية « تعريض » *enregimentation* ، الشباب الألماني كله ، تحت راية النازية ، وبسبب أيديولوجية متعصبة وحقة الأفق ، فالنازية نزع ذات صلف عنصري وكبرياء أجوف ، فهي كأيديولوجية عنصرية تصير تصير أ بليفاً عما يسمى « بخرافة الجنس النقي » .

ومن أجل تحقيق هذه الخرافة ، بشر هتلر في حرب خاسرة كل طاقات الشعب الشعب الألماني ، وبأختيار الايديولوجية النازية ؛ وبفضل تعاون العالم الديموقراطي المتحور ، كانت النهاية المأساوية للنازية ، حيث ضحت ألمانيا بالكثير ، وضحي الشباب والشعب بكل شيء ، حتى ألمانيا نفسها .

ولقد أخذت للذئاب النازية والفاشية ، وحتى الشيوعية ، مبدأ عبادة الفرد ، ونحن لا ينبغي أن نقدر المبادئ والمذاهب والأشخاص ؛ ففي هذا نتمحرو ونأخر . بل علينا أن نقدر فقط ، الإنسانية ، وأن نحترم الحرية ، ونصحح الذاتية . ومن الغريب أن يكون في مبادئ الحرية والاشتراكية والديموقراطية نفسها ، الكثير من العيوب وجوانب النقص ، فباسم الحرية سحقت القصة في ثورة فرنسا الكبرى ، رؤوساً ثورية كانت ذات قدر وزخامة ، مثل دالتون *Danton* ، و « روبسبير » ، وذبحت علناً كيرأ مثل « لانوازيه » ، الكيموي للدهور ، كما قتلت كانياً ثائراً ، مثل « ترولكه البروسي » ، حتى قيل يومئذ إن الثورة الفرنسية ، كالكرة التي أكلت منها في حافة ثورية وباسم الحرية . وكما لو تكبت الكثير من الجرائم باسم الديموقراطية والاشتراكية . ومن مبادئ براقة وتأخذ بالأبصار ، ويغني أن يكون شبابنا منها على قدر من حلو فلا تفت هذا حد تقديرها ، وإنما تقبلها بقلية مفتحة ، فلا تحيطها بهالة ثورية ؛ كمنعبد أو أنكر مبادئ إلينا

من طيين . وطينا ألا تأخذ بفكرة ما على أنها حقيقة نهائية ومطلقة ، فليست هناك فكرة عليّة تحمل كل الحقيقة ، ولذلك يجب أن تناقش كل فكرة ، وأن نتقد في موضوعية وأمانة كل مذهب . قرفض ما يجب رفضه ؛ وقبول ما يجب قبوله ، فن الديموقراطية ، ثلا نستطيع أن تأخذ مبدأ إحترام الانسان وتكريم الذاتيّة ، وهذا هو جوهر الفكر الديموقراطي ؛ أما إذا أخذنا بظاهر الديموقراطية ، فتلك هي الديكتاتورية المقتنة .

أما بصد الاشتراكية ؛ فعلينا أن تأخذ بمبدأ « الطعام لكل فم » ، وهذا هو أروع ما في الفكر الاشتراكي . ولكتنا ينبغي ألا نكتم أفواه الناس بالطعام فيصبح الانسان عبداً خاضعاً لمفتمته وشهواته . وبصد الحرية علينا أن تأخذ بمبدأ تحرير الفكر من الخرافة ، والعقول من معوقات التفكير السليم ، كالتعصب الديني الأعمى ، أو المنصرية وفكرة الجنس الثني . وكلها أكل مضادة للحرية ، فهناك خرافة الجنس الثني التي يجب أن يتحرر منها « أجناس البشر » ، فليس هناك أصفر أو أحمر ، ولا فضل لعربي على صميمي إلا بالقوى ، ولا تمييز لأبيض على اسود إلا بتكاثر الفرص وقنوات الذكاء وممات الشخصية ؛ اما الدين فلديان ، فلا فرق بين يهودي أو مسلم أو مسيحي ، ولا تمييز لمسلم على غير مسلم ؛ فكتنا بشر وكنا من خلق الله ، وكنا امام الخالق سواء ؛ ولو شاء الله تعالى لوحدنا بين الاقوام وسائر الملل والنحل .

وفي الرد على كل الاتهامات الجمعية Collectivism ومنها تعاليم النازية والقاشية ، نقول إن النزعة التصورية الجمعية إنما هتزل ملكات الانسان الذكائية كي تصح طريقاً يؤكد سلطة الكتلة الجمعية ، كي تسمع في طريقها أية صيحة من عقل ؛ أو صرخة من ذكاء . وينبغي ألا يخضع الفكر لسلطان خارجي ؛ سواء أكان سلطان المجتمع أو طغيان الطبقة . حيث أن روح الطبقة إنما تعمل على

بجود الفكر ، حيث يتعلق الفكر الطبقى على ذاته . ويحاط به بإيج نقي جشع ،
 بمعنى أن روح الطبقة أو عقل الجماعة ، كلاهما قيد لا يتفق وروح الفكر الخلاق
 وكلاهما حجاب لا ينسجم مع طبيعة الفكر للبداع ، بل وقد ارض النزعة النخبية
 والجمعية مع الموضوعية ، مما يصب منه التوصل إلى ستيقة أو يقين .

ففي كل القيود الجمعية والمحجب للماركية اللادية ، قضاء على كل ما يشتمع به فكر
 الانسان من أصالة ، ولا يمكن أن تنبثق الحقيقة ، عن د مجتمعات مغلقة ، أو
 نزعات طائفية ، أو مصالح طبقية ، فكلها مصادد خارجية ، تتنافى مع الموضوعية
 الحققة ، ولذلك فالبروليتاريا والطوائف اللبنة والمصالح الطبقية تعتبر جميعها من
 أعداء الفكر أفلا يمكن أن تصور صدور العرفة للموضوعية الحققة عن روح
 الطبقة .

فالحرية واقعة أولية ، والذات الانسانية تتميز بالوحى والاصالة والانفراد
 uniqueness ، ولقد قامت الفلسفات الوجودية (١) بهذا شاهد من تاريخ الفلسفة
 يرد فعل مباشر اداء النزعات الماركية والنازية والفاشية ، تلك التي تجعل
 من الانسان فرداً منخرطاً في طبقة أو متنبهاً إلى طائفة ، فرداً ينصرفون به ؛
 باسم الحركة التقدمية الجمعية ومن أجلها ، كما ينصرف بالأدوات ، إذ أن روح
 الجماعة إنما تقتل طبيعة الفكر ، بل وتربط بمستواه ، وتلك هي نقطة الضعف
 العديدة التي تعاني منها وجهات النظر الماركية والنازية ، كما أن الماركية في
 ذاتها فلسفة مادية ، تلتصق الى الجوانب الاقتصادية ، وحققت من الجوانب
 الروحية العليا ، وعالجت حياة الانسان وفكره ومثله العليا ، كما لو كانت حارية
 من الروح فأسدلت ستراً كيفاً يجب كل شيء ، فقد قضى ذلك الستار للمادى

(1) Tiryakian, Edward., Sociologism and existentialism
 Princton-Hall, 1962.

• والكيف والمانع : على الروح الانساني قضاء مبرماً .

عائلة

لقد حاربت «الفلسفة السياسية» بين شق المدارس والصور : حيث اضطرت مذاهب الفلاسفة منذ صدرت شمس الفكر في اليونان فظهرت فلسفات «الحق» ، و «الخير» ، و «الجمال» ، واختلطت هذه الفلسفات بنزعات «حسية» و«شطحيات» و«صوفية» ، فتمتدحت مدارس الفكر بين «الواقع» ، و «المثال» ، و تنوعت مواقفها حين تردد بين «السرطنة» ، و «النفطة» (١) ، وبين «العقل» ، و «الوجود» ، حتى صارت الفلسفة في العصر اليوناني شكلاً معقداً في وعاء ، يجمع بين جوابه تلك الأصول الأولى لكل ما جادت بين عقول الفلاسفة من «مثاليين» ، و «عقليين» ، و «تجريبيين» ، و «حسيين» ، فلقد جمعت خصوبة الفكر اليوناني بين أرسطراطية أفلاطون وواقعية أرسطو ، حيث توفقت فلسفات «الذنة والألم» ، و«معايير» «الخير» ، و «السعادة» كما عولجت قيمة «الواجب» ، و «المثل العليا» ، ودرست «الفضيلة» كغاية لكل سلوك انساني ليسل .

كما سادت في الفلسفة المعاصرة ، تلك النزعات «التجريبية» ، و «التفعية» ، عند جون ستوارت ميل J. S. Mill ، و «هربرت سبنسر» Spencer (٢) .

(١) نسبة الى عطف المواقف المتعارضة بين «سقراط Socrates» المؤسس المبدع لتلم الاخلاق ، وبين «الارسطائيين» الذين رفضوا المايير للارسطائية لقيم «الحُر» و «العدالة» ، حيث يرد سقراط هذه المايير الى مبادئ كلية وعامة تضر في ضوئها سائر الافعال الحقة ، ولكن السوفسطائيين يرون أنه لا يوجد في العقل المحدود من هذه المايير الكلية حيث أن الاحكام الحقة تجزئية كما أنها متغيرة مع الظروف والمواقف .

(٢) انه دأبت فلسفات الانطاع في القرون الوسطى حول استاتيكية العبيد ،

والفضيلة الرئيسية عند أصحاب المنفعة ، هي تحقيق الرضاية ، أو اللذة ، أو السعادة ، لا لإنسان بيته ، ولكن لأكبر عدد ممكن من البشر ^(١) . ومن هنا صدرت علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة كلوم تمهيدية ؛ تخضع لها مسائل الظواهر للملاحظة والتجربة ، كما يطبق المنهج الاستقرائي بمدى دراسة الظواهر حتى يمكن التوصل إلى قوانين إمبريقية ، تخضع لها مسائل الحقائق والوقائع الاجتماعية . وبذلك يأخذ أصحاب النزعة الفعية *Utilitarianism* بنماذج التحليل والوصف والاستقراء .

الفلسفة التجريبية القديمة :

تبدأ الاخلاقيات الفعية ، بالتجربة كمصدر للمعرفة على اعتبار أن العقل ، صفحة بيضاء *Tabula Rasa* ، طبقة للبدا التجريبى القائل : لا شئ في العقل ، ما لم يكن من قبل في الحس ^(٢) *Nihil est in intellectus quod non ante fuerit in sensus* بمعنى أن التجربة هي مصدر ما نكتسبه من أفكار ومعارف ، ومن ثم كانت الأفكار الأخلاقية هي وليدة التجارب ، وترتبط بمشاعر وتقائيس عملية . وتربط هذه التجارب السلوكية ، فتكون العادات ،

وتبات القيم وسيادة العقل . وفرض الطبيعة والتجربة ، ويهدى الحق الأسمى للملك *The Divine Right of the King* ول عصر التنوير ، به التنوير البورجوازية التي أطاحت بالقطاع للفرنسي خاصة والاوربي عامة ، ظهرت الفلسفات التجريبية والفعية منه « جون ستيوارت ميل » و « هربرت سبنر » .

(1) Mill, John Stuart., *Utilitarianism*, edited by Mary Warnock, Collins. London. 1962. pp. 64-68.

(2) Durkheim, Emile., *Les Formes Elementaires de la vie-Religieuse*, F. Alcan. Paris. 1912. p. 106.

و «الواجبات» ، حيث أن «الواجب» ، عند النفى يمكن تحليله إلى عناصر «أولية بسيطة» ، فنجد أنه وليد التجربة العملية ، على اعتبار أن «الغيرية Altruism» ، عند نفى من أمثال «بنتام Bentham» ، ما هي إلا أنانية مقننة ، حيث لا تشهد إلا بعبودية الإنسان لمبدأ المنفعة ، فلا يمكن أن يقدم على فعل الخير للآخرين إلا متى ناله من هذا الفعل فغفر بحاجة أو «منفعة» ، أو فإز وأدرك «لذة» . فلقد خلق الإنسان عبداً لسيدین هما ، «اللذة والألم» ، يتحكان في كل فعل وقول ، ويصدران أمرهما لكل سلوك خلقي ، فاللذة والألم هما أساس «الواجب الخلقى» ، في سائر الفلسفات النفعية .

ولكن فيلسوف مثل «كانط Kant» يرى أن اللذة والأنانية والمنفعة لا يمكن أن تكون إطلاقاتاً غاية السلوك الإنساني ، وإلا سقط الإنسان عبداً عاجزاً لغزواته الحسية الزائلة ، فيقترب بالطبع من مستوى الحيوان ، وليست الإنسانية نزعة بديهية ، ففي هذه النظرة دونية ونقص ، ثم إن من اللذة ما يجلب الضرر ، ومن «الألم» ما يحقق النفع ، ولذلك رفض «كانط» مبدأ «اللذة والألم» ، وأنكر الأنانية والمنفعة ، وأكد على فكرة «الواجب» ، ونظر «كانط» إلى قانون «الواجب» على أنه القانون الخلقى العام .

حيث أن «القيم الكافية» ، لا تستند إلى التجربة أو الاحساسات وإنما تقوم فقط في بنية العقل الخالص ، وبذلك تجرد كل فعل خلقي من «الفرضية» ، أو الامواء النفعية . حيث أن «الواجب الخلقى» هو «امر مطلق وحشى» ، لا يخضع لضرور الوقت والمكان ، ولا يسمى «الواجب الكافى» وذاك لئلا أو متة مباشرة .

هذه التفاتة عاجلة لألوان من اللواتف المتصارعة حول مسائل الفلسفة ، وما يشتمل من هذا الاستعراض السريع هو موقف علم الاجتماع من هذه المسائل

فلقد استغل هذه الخلطات الفلسفية إستفلاك بارعا ، غلّصم معاقل «الواجب ، والقيم» ، بقصد إنتراعها ونجريد مسائلها من أسرارها العقلية والتجريدية والنفسية ، وتفسير القيم والمعايير الأخلاقية من وجهة النظر الموسيولوجية .

بمعنى أن علم الإجماع القيمي قد قلم على أقباض تلك الصراعات المتخاصمة بفلسفات الأخلاق ؛ وحاول أن يضيق طابعاً إجتماعياً على فكرة «الواجب» ، و«الارادة» كما أسهم في تحليل أعماط السلوك الخلقى طبقاً لمبدأ الإلزام الإجتماعى . فتناول دور كايم Durkheim ، فكرة الإرادة Volonté ، كما عالج مشكلة ، القيم والأحكام القيمية Juges de Valeur ، كما طرق لوسبان لينى بريل Lucien Lévy-Brahl ، قضايا «المعايير Normatif ، والنسبى Relatif» فى الأخلاق وناقش «مشكلة الضمير La Conscience ، وغاية السلوك الخلقى» كما ذهب «البربراية Albert Bayet ، بالوضعية والنسبية فى الأخلاق» إلى الحد الذى يسطع فيه مذهباً علمياً لدراسة الظواهر الخلقية على أنها «واقع معطى» ، لا يصح إغفاله . فلقد كانت هذه المعطيات données الأخلاقية هى تقطع البنية التى إنطلقت منها علم الاجتماع الأخلاقى . فتحوّل الأخلاق من مجال «الواجب» ، و«المطلق absolute» ، إلى مجال «الحادث» ، و«النسبى» .

هجوم على الفلسفات المعيارية :

لقد أخطأ جمهور الفلاسفة ، منذ أفلاطون وأرسطو ، وإزترقوا جميعاً إلى تقطع الضمير الضديّة التى تمنى منها كل أنساق الفلسفة على الإطلاق ، حين أدل كل فيلسوف بدلوّه ، فصالح كل مسألة ، وطرق كل باب من أبواب الملم والمعرفة ، وكان له بصدد كل دراسة جولة ، كما كان له فى كل موقف صولة . ولم يكن كل فيلسوف ، قد ألقى فى كل جولاته وصولاته ، بتجربته التاريخ . وبمجرى الزمان ، وبموقف المجتمع ، وبديناميكية الثقافة ، خارج ميدان الدراسة .

فدرس الفلاسفة العقل ، هل أنه شيء قائم بذاته *Sui-generis* ، هل الرغبة من أن العقل ليس شيئاً منفصلاً أو منفزلاً ، كما أنه ليس « صورياً » *Formal* ، يعمل بعيداً عن الواقع .

فلقد أثبت التاريخيون والأنثروبولوجيون ، وعلماء الاجتماع الثقافي والديني والمعرفي ، أن العقل ظاهرة تاريخية ، تتأثر ببنية الثقافة ونظم المجتمع ، حيث يستمد الناس من البناء الاجتماعي ، كل تصوراتهم ، كما تكسب حركة التاريخ في « لغوي العقل الانساني » ، الكثير من المحتويات الحسية ، فمن الخطأ البين أن ينزلق الفلاسفة ، ويقعوا فريسة التصيب الضيق الأفق ، حين يلعبوا بككرة العقل في « فراغ ميتافيزيقي » ؛ وعلى أرضية غير قائمة أصلاً ، وغير مشروعة لأنها تقع ببساطة خارج حدود المجتمع والثقافة والتاريخ .

وهناك معايير في الفلسفة وعلم النفس لتفسير السلوك الخلقى ، ومنها معيار العقل والواجب ، ومنها المعيار العملي البراجماتي حيث تؤكد الفلسفة البراجماتية *Pragmatism* على أن « العمل المنتج » هو هدف الحياة ، وأن العقل إنما يسخر لاستباح وغيات الانسان ، وتيسير حياته وحل مشكلاته العملية ، بمعنى أن البراجماتية هي مذهب المنفعة في صورتها العملية ومقياس المصائب عند البراجماتي هو ما يحقق النفع والنجاح ، وتتحول لفكرة الصائبة إلى سلوك ناجح ، لأن لأن الفكرة البراجماتية هي إما حل لمشكلة ، أو هي « خطة للتغلب على صعوبة » . ولعل هذه الفلسفة العملية البراجماتية ، إنما صدرت أصلاً عن الأخلاقيات السوفسطائية ، ولعل أخلاقيات مونتاني *Montaigne* قد ساهمت في الأخرى في إرساء أصول الفلسفة البراجماتية في الأخلاق ، فالرجل الحكيم عند « مونتاني » ليس هو الأخلاقي الرواقى الذي يحيل القلب البشرى إلى قطعة من الحجر ، وإنما يستمتع بحياة العملية في اعتدال ، ويتخللها من الرغبات والافكار التي

لا تناسب مع الظروف والأوضاع ، بمعنى أن الحكيم هو رجل على يعرف كيف يعيش وهذا هو الفيلسوف الأخلاقي الحقيقي عند مونتاني ، تأليفاً العملية عنده هي : فن تحقيق التوازن ، بين الرغبة من ناحية ، والظروف المحيطة من ناحية أخرى . والفضيلة هي أن يحب الإنسان الحياة ، ويستمتع بالجمال والصحة ، والواجب هو الاعتدال دون اسراف ، والسعادة هي التناغم بالامر الواقع حين نحصل على الأشياء ، وحين نعرف كيف نفقدها دون آلام أو حسرات ، فلتطرد من أنفسنا شبح الاحقاد ، ولا تنحسر إذا ما زالت النعم .

وليس هناك من أمراض البشر ما هو أشد وأفتك من الكبرياء الأجوف ، والادعاء الكاذب ، لأن الإنسان عند مونتاني ، هو كائن ضعيف يعيش في أحوال العالم ، ومع ذلك تخلق تخيلته فوق النجوم ، وكأنه مركز العالم ومحرك الكون ، حين يتخيل في كبرياء عقله أنه يضع السماوات تحت قدميه ، ولذلك تصدر جميع الشرور في عالم الإنسان عن هذا الكبرياء الذي يجعلنا عرضة للسخرية . فما زالت أحكامنا مريضة ، وما زلنا نفاق وراء أرواثنا الفاسدة ، ولا تحقق السعادة إلا في الصفاء الداخلي ، حين نشعر بالفرح العميق بتوازنا وباعتدالنا وبتواضعنا ، كما أننا نتوصل إلى الحقيقة الأخلاقية مع الإيمان بنبالة الدين وصحة الواجبات والقواعد الخلقية وقائمة النظم والقيم الاجتماعية ، فن الجمل أن ندعى العلم ، حتى لا تقع في مرض الادعاء الكاذب ، لأننا إذا ما عرفنا جهلنا لزدادنا طلباً وإيماناً . ولأنك أننا نجد في هذه النظرات الأخلاقية عند مونتاني طعماً سقراطياً واضحاً ، كما ينضح لنا نموذج الاخلاق الايقونية مؤكداً ، ولأنك أن أخلاقيات مونتاني قد ساهمت في تكوين طيفات - ديكارت Descartes ، (١)

(١) المبر عنه ديكارت والمرة وسبب العلم ، والأخلاق هي طب الجدل المنطقي .

و « باسكال Pascal » ، كما نجد فيها الأصول الأولى لمصادر النزعة البراجماتية العملية في دراسة الأفكار المفيدة ، والسلوك الاخلاقي الناجح .

وفي ضوء هذه النماذج المختلفة من الاخلاقيات المتباينة نستطيع أن نقول إنها نماذج متعارضة تمثل فيها خصوصية الفكر الفلسفي ، كما يتألف منها التراث الميتافيزيقي للاخلاق المبدئية .

ولعل السبب الذي من أجله يحتفظ علم الاجتماع الاخلاقي والسياسي بمحصلتنا جميع من تراث الفكر الفلسفي ، هو أن هذه النماذج الفلسفية ، لم تصدر في الواقع عن العدم ، وإنما صدرت عن « روح العصر » ، وهبطت بفعل حركة التاريخ ، بمعنى أن معايير الفلسفة الخلقية والسياسية ، هي « واردات » مشتقة من طبيعة الحياة الاجتماعية التي مرت بها الفلسفة طوال ماضينا الطويل ، ففلسفات القذة والالم والنسفة والواجب ، ما هي إلا « صور اجتماعية » منتزعة من الواقع التاريخي

== كل القدرات إلا بقدر مشغول ، والحكيم الذين كانوا هو الذي يكبر رغباء مع ظروفه وأحواله .

وتمثل المحسنة في الاحتمال والايان بالهكر والتزهر من المادة ، والتحكم بالنفسية باحترام الارادة وحرية الاختيار .

والعقل على العموم ، هي عنه ديكارت أحب بهجرة تمثل الميتافيزيقا أسرها وجنودها وتمثل الفيزيقا أو الطبيعة جذعها ، وعن هذا الجذع تصدر الانحاء التي تمثل كل العلوم ، كالكيمياء والطب والاخلاق ، ويصير ديكارت علوم الاخلاق بأنها « طب النفوس » . فإذا كانت علوم الطب تصون الاجسام وتصلح الابدان ، فإن الاخلاق تصون النفس وتحتفظ قوازنها واتجاهها وصق سعادتها ومسررتها .

أنظر في هذا الصدد : أنصريه كريسون ، تيارات الفكر الفلسفي ، ترجمة تهاد رضا ، منشورات موهبات ، بيروت ، حزيران ١٩٦٢ ، وأنظر أيضا ، عنوة الخنجر في فلسفة الائمة لترجمة القرية للقال من المنهج : الطبعة الثانية : ١٩٦٠ .

التي مرت به ، ولذلك يحتفظ بها علم الاجتماع الاخلاقي ، حتى يلجأ إليها في تفسير ماضى النظم الاخلاقية ، وحتى يستلهم هذا الماضى في تفسير الحاضر ، على اعتبار أن الماضى إنما يلقي على الحاضر ضوءاً أوفى وأدق ، فإذا ما أردنا مثلاً أن ندرس أخلاق المجتمع اليوناني القديم ، كان لزاماً علينا أن ندرس مكتابات أفلاطون وأقوال سقراط ودراسات أرسطو والروافين ؛ تلك التي تعبر جميعها عن الاتجاهات الاخلاقية للثقافة عن روح العصر اليوناني القديم .

ومن هنا لا يمكن أن تفصل « الاخلاق المعيارية » عن حركة التاريخ وماضى المجتمعات ؛ ومن ثم تخضع هذه المعايير الخلقية ، لشروط مستمدة من الماضى كما تتطور وفقاً لظروف التطور الاجتماعي وطبقاً لمنطق التاريخ . حيث « أن المثل الاعلى الرومانى ، القديم لا يمكن أن تقوم له قائمة في عصر اللدرواقصاوارخ . وبعده دراسة الظواهر الخلقية والاجتماعية على العموم ، لا يمكن أن توجد ملاحظته عليه دقيقه دون وجود فرض سابق لها ، ولذلك فان التفكير التجريبي الخالص تفكير عقيم ، بل ولا يمكن تصوره ، إذ أن الملاحظة لا تصبح علميه إلا إذا فسرت في ضوء « فرص » أو « قانون » ، إذ ان مجرد جمع الوقائع وتكديس الظواهر الاخلاقية لا يفيد شيئاً ، حيث ان العلم في الواقع إنما يتألف مع من القوانين لامن مجرد تلك المعلومات التي نجعلها بصورها من الظواهر (١) فلا ينبغي ان نقف عند وصف الظواهر وتكديسها ، وانما ينبغي على علم الاجتماع ان يتخذ اولاً بعض « الفروض الموجهه » التي يفضلها تتحقق فكرة « قانون » ، لان غايه العلم هي التفسير ولا يتحقق التفسير إلا في ضوء قانون يحكم سائر الظواهر والوقائع ومكناً يمكن التنبؤ Prediction ، وهو الهدف الجيد لكل علم من

(1) Comte, Auguste-, Cours de Philosophie Positive, Tome Quatrieme. Paris. 1908. p. 193.

العلوم فيما يقول ، كلود برنار ، في مقدمته للشهيرة لدراسة الطب التجريبي :

وهناك قاعدة أخرى ينبغي التركيز عليها في الدراسة العلمية لطواهر الفكر والمجتمع ، وهي قاعدة الإيمان بالحقيقة النسبية Relativity ، حيث أن موجودات العالم التي تحيط بنا هي أشياء موضوعية ، أما ما تراه أو ماتمثلة فهو « تصورات » أو أشياء ذاتية ، . ولا ينبغي إطلاقا أن نفرض ما « نصوره » على موجودات موضوعية ، وإنما يتحقق التوازن الحقيقي بين العقل والوجود ، في محاولة انضاع ما هو « ذاتي » إلى ما هو « موضوعي » . « حيث ترتبط تصوراتنا وأفكارنا بتصورات أخرى قائمه في بنية المجتمع ، كما تتصل أفكارنا بأفكار أخرى وردت من سركه التاريخ . واستنادا إلى « بنية المجتمع » من جهة ، وإلى « روح العصر » من جهة أخرى ، صدرت « كل الحقائق » على الإطلاق ؛ وأصبحت كل المعارف والأشياء والتصورات « نسبية Relative » .

الفصل الخامس

الأبعاد السببية في الوعي السياسي

- تمديد
- الشروط الاجتماعية للوعي
- التمايز بين الوعي والعدم
- ولكن كيف يتكون الوعي الطبقي؟
- سيكولوجية الطبقة
- بنية الوعي الطبقي
- لوكاتش والوعي الطبقي

المهيت :

قد توسى دراسة في « سيكولوجية الوعي الطبقي » بأنها دراسة نفسية ، حين يتبادر إلى ذهن القارئ فوراً ولأول وهلة ، بأنها دراسة خاصة بميدان « السيكولوجيا » ، ولكنها دراسة في « علم الاجتماع الطبقي » ، أو فيما يسميه « جان كلود باسبرو Jean-Claude Passeron » ، « بوسولوجيا العقليات Sociologie des intellectuels » حيث أنها دراسة لشاعر جماعة وطبقة وهي أدخل إلى ميدان علم الاجتماع « نها إلى ميدان علم النفس » .

ولقد بدأت الاحتمالات بدراسة « الوعي الجماهيري » مع صدور فلسفة هيجل ، وبخاصة فيما أسماه بالمثل الموضوعي *der objektive geist* . وفي هذا الصدد يقول نيكولاى هارتمان Nicolai Hartmann ، « إن هيجل هو كروموسون جديد ، باكتشافه لفكرة « روح الشعب Volkgeist » ، أو « روح الكل allgeist » ، فإن ما أثر عليه هيجل ، قد أدى بطلان الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ، إلى اكتشاف فكرة جديدة للواقع ^(١) .

فن هذه المقدمات الفلسفية المهيمنة ، صدرت في علم النفس الألماني « نظرية تركيب حالات الوعي » عند « فونت Wundt » ، ولقد أكدت تعاليم مدرسة فونت على وجود ما تدعيه من التفاعل فيما بين العقول الفردية ، وأغلب الظن أن « دور كايم » قد تابع ذلك الاتجاه الألماني في مدارس علم النفس ، وتطورات هيجل في « تكوين بنية روح الشعب » ، فجاء « الفكر الفوريكي » ، بنظرية « العقل الجمعي » .

(1) Wein, Hermann , Trends in Philosophical Anthropology and Cultural Anthropology in Postwar Germany, Philosophy of Science, Vol. 24 No. 1. January 1957. p. 49.

ولقد صدرت مقولات « الثقافة Culture » و « الأنماط Patterns » ، مما يسميه ميجل « بالتكوين المتجانس Homogeneous Formation » ، ويقصد به ذلك الأطوار العقل العام الذي يولد فيه الإنسان ، ويستمد منه أساليب السلوك والفكر والحياة .

« لافريس » و « ستينثال » :

وهناك دراسات و نفس اجتماعية ، أو بدايات « سيكوسوسيولوجية » مشهورة قام بها ، العالم الاثروبولوجي « لازارس Lazarus » ، ومعه العالم الفكري « ستينثال Steinthal » ، منذ عام ١٨٦٠ لغرامة ، سيكولوجية الشعوب . ومع البدايات الأولى لصدور علم الاجتماع ، أشار « مونتسكيو Montesquieu » ، إلى ما أسماه « بالروح العامة للأمة » ، كما إنشغل « جوستاف لويون Le bon » ، بالكشف عن « سيكولوجيا الحشود » ، فأصدر عام ١٨٩٤ كتابه « السنن النفسية لتطور الأمم » ، وذلك بعد محاولات متعددة كتب فيها « لويون » ، وأطنب ، في حضارات الهند وحضارة العرب ، ثم أصدر في عام ١٨٩٥ كتابه « روح الجماعات » ، وفيه يدرس سيكولوجيا الجماهير Psychologie des foules ، بالنظر إلى ما يميز الجماعات من « القابلية للإيحاء Suggestion » ، و « العدوى الانفعالية Contagion » ، و « الوحدة العقلية L'unité mentale » .

« الجماهرة » ، عن « جوستاف لويون » :

لقد هاصر « لويون » ، انتقال « البناءات الاجتماعية » ، و « الجماهير » ، بعد الثورة الصناعية ، من الحالة البيروقراطية و اقترابها من النظم الاشتراكية . فاقم بدراسة « الجماهرة La foule » ، بظهور طبقات العمال ، ودور الجماهير في العمل السياسي ومع عصر الجماعات ، وصدور الصناعات ظهرت العلاقات الاقتصادية التي تسيطر على نظم الأجور و مشروعات العمل وتنظيمه .

ويذهب «لويون» إلى أن «النفس الجمعية» *L'ame Collective*، أو روح الجماعة، إنما تمتاز بانفصافها وخصبها؛ وباستمدادها التصديقي، وإلهامها الثقتين، وبالثقل، وعدم التسامح. ويقسم «لويون» الجماعات إلى قسمين: جماعات متجانسة، كالفرق والطوائف والطبقات. أما القسم الثاني فهو الجماعات اللامتجانسة كجماعات الحلفين والمجالس البرلمانية. كما أشار إلى الجوانب و«الأبعاد الإشتراكية والإقتصادية» التي لها أثرها الواضح في تكوين «روح الجماعات» (١).

وقد أدت كل هذه المقدمات النظرية والأصول الفلسفية، إلى الانفصال بما يدور حول هذه المصادر الفلسفية المحسنة، فلقد صدرت عن «نظرية الروح الجمعي» أو «الروح الموضوعي الكلي» (٢)، فكرة الأصول الأولى التي منها إلتصقت التقاليد والتصورات، حيث ولدت القيم ونشأت الأساطير الشعبية في أحضان العقل الموضوعي، ونظراً لوحدة الأصل والمكان والاشتراف في العرق أو الأنساب، تتشابه وتماثل أنماط الفكر والسلوك بين سائر الأفراد؛ حيث يعبر روح الشعب عن ذلك. التضامن الاستاتيكي الثابت، بين أنساق اللغة والدين والفن والأدب والعادات والقانون.

ومنذ انطلقت هذه المبادئ، نهت الأذهان فوراً نحو مقولة الثقافة، وسمات الشخصية *Personality*، فالإنسان هو حامل ثقافته، حيث يؤثر نمط الثقافة على التركيب الدينامي لكل إنسان يعيش في ثقافة، فتلقفها وتكيف معها كل

(١) لويون، جوستاف: «روح الجماعات» ترجمة عادل زعتر، دار المعارف

بمصر ١٩٥٥.

(2) Blondel, Ch., *Introduction à la Psychologie Collective*, Armand Colin, Paris, 1952, p. 51.

شخصية عن طريق التربية والتلقين والتثنية أو التطبيع الاجتماعي. الأمر الذي أجهت به دراسات ماركس Marx، وجنزبرج Ginsberg، ولوكاتش Lukacs، في علم الاجتماع نحو دراسة «الوعي الطبقي»، و«سيكولوجيا المجتمعات»، وما تحمله أنساق الطبقات ووعي الجماعات، من معارف ومضامين، تحدد نظام التربية، وتقرض أنماط السلوك، وتضع أسلوب التطبيع الاجتماعي^(١).

والدراسة التي نحن بصددنا الآن، تعالج «سيكولوجيا الطبقات»، في ضراحيها واحتكاكها ووعيها وبأمانها وعافوها وإمكاناتها المرضية، ولسوف نقد المقارنات أولاً بين طبيعة كل من «الوعي والوجد» ، حين نميز «الوعي الحق» ، عن «الوعي الكاذب» ، مما يؤدي بالضرورة إلى تحديد الشروط الاجتماعية للوعي Consciousness، لكن نصل في النهاية إلى ما يسمى بالوعي الطبقي Class Consciousness الذي يتضمن في لخواه أيديولوجية الطبقة، بكل سماتها وملاحظاتها.

الشروط الاجتماعية للوعي :

ويميز ماركس بين «الوعي Consciousness» من جهة ، والشروط الاجتماعية أو ظروف الوجود الاجتماعي من جهة أخرى، على اعتبار أن الثاني هو مبعث وجود الأول ، بمعنى أن «الوعي» هو نتاج مباشر الواقع الاجتماعي ، وهذا هو السبب الذي من أجله أكد «مانهايم Mannheim» على الأصول التاريخية لفكر ، حين ينظر إلى الفكرة كظاهرة تاريخية ، فالفكر لا يصدر عن العلم ، ولا يعمل في فراغ ، وإنما يتجلى كفكر دائماً على أرضية الوجود الاجتماعي

(1) Ginsberg, Morris., The Psychology of Society., seventh edition, London. 1949.

الذى هو أرضية كل فكرة أو اتجاه أو مذهب^(١):

وليس الإنسان كائناً مجرداً abstract على نحو ما أشار كانط وفلسفته عن متعلق العقل الخالص وموقف الإنسان المصورى Formal، ولكن الإنسان هو «كائن من لحم ودم»، لا يعيش كآلة أيقورية «فيما بين السورم»، وإنما يعيش ويفكر طبقاً لما يمليه «روح العصر»، ويقولاب مستعارة من تلك الروح التي سرت في دمه وتسلطت إلى طيه وعظامه^(٢).

وهذه النزعة، رد علم الاجتماع الماركسى، كل المذاهب الفلسفية إلى «أصول وجودية ومصادر مادية»، إذ أن ظهور «الفلسفات» في أنفسها ما هو إلا مراحل اجتماعية تختمها فلسفة التاريخ، فلا يصدر الفكر خبط عشواء، وإنما يصدر الفكر أصلاً عن الوجود التاريخى، بمعنى أن كل مذهب فلسفى إنما يرتبط بعصر تاريخى، و«لا تسبح أنساق ومذاهب الفلسفة في فراغ ميتافيزيقى»، فلقد ظهرت كل الفلسفات لكي تؤكد على وجود أيديولوجيات معينة، أو الدفاع عن مصالح طبقية، أو لتأكيد وتأييد مواقف سياسية خاصة.

وبالتالى يمكن تسمية الأفكار والأيديولوجيات، بالنظر إلى طبيعة الموقف الاجتماعى العام، ذلك الموقف الذى يحدد إطارها، والذي يبنى عليها مغزاهما ومبناها، فتصبح «الأيديولوجيا» بهذا المعنى ظاهرة فكرية عامة، فيقال مثلاً «أيديولوجية العصر»، أو «أيديولوجية الطبقة»، بمعنى مجموع للتلاحم العقلي السائدة في ذلك العصر، أو الخصائص، النحبة الكامنة في روح

(1) Mannheim, Karl., *Ideology and Utopia*. Second Impression London, 1940.

(2) Gavillier, A., *Introduction à la Sociologie*. Collec. A. Cotin Paris, 1949, p. 90.

الطبقة ، وقد يقال إن الايديولوجية هي مجموع الأفكار التي تكون « النظرية ،
أورد المذهب ».

ويذهب « جيفتش Gurvitch » إلى أن الايديولوجية الماركسية ، إنما
تتضمن أحكاماً في الأخلاق والدين ، وذلك باستنادها إلى الأساس الاقتصادي ،
كي يصبح الوضع المادي الطبقة ، هو المصدر الوحيد الذي يفسر المضمون
الأخلاقي ومحتواه الداخلي (١).

وفيما يتعلق بقيم الأخلاق ونسق الدين ، فقد أدخلهما ماركس في إطار
ما يسميه « البناء الايديولوجي الأعلى » . على اعتبار أن هذا البناء الأعلى ؛
إنما يستند في وجوده إلى الأساس « المادي الأسفل material Substructure »
الذي هو مصدر كل المناشط الانسانية والمواقف الاجتماعية .

ولقد انشغلت الفلسفات السياسية في مختلف دول أوروبا منذ القرن الثامن
عشر ، بمسألة « أصل الدين » ، ومنشأ المعتقدات الدينية ، فالتفت الفلاسفة
من رواد النظرية السياسية ، إلى مصادر الفكر الديني ، فاتهموا نحو نظريات
اللاهوت ، ومذاهب الملحدين و « المنميين » ، فدرسوا مختلف الفرق والمذاهب ،
وبخاصة تلك الملل والتحل « اثنقائية » ، أو الشيع التي اقتصمت واضطربت حول
قبول أو رفض الآلة على الوجود الإلهي ، تلك المسألة التي حلت زمناً بين
الفلاسفة فمن آمن وإتقى ، ومنهم كفر وفجر ، ومنهم من عدل وبذل .

ولعل السبب الذي من أجله انشغلت الفلسفة والسياسة في مسألة تأصيل
الدين والمعتقدات تتمثل في أن الدين ، إنما يشجع حاجة الناس إلى « الامن
والسكينة والايمان » ، حتى يزول عنهم ذلك الحرف المشوب بالهبة والجهالة

(١). Gurvitch Georges., *Twentieth Century Sociology.*,
Philosophical Library New York. 1945. 372.

ولقد مر الفكر الديني ، بمراحل تطورية وتاريخية متعددة ، منذ بدأ الإنسان يشير عدداً من الآسنة والقضايا ، ثم يضع أو يصطنع لها هدفاً من التماسير والحلول ، ومن هنا بدأت الصور الأولية للحياة الدينية ، بطرقها ومعتقداتها ؛ حين أجابت الطبيعة على ما أثاره الإنسان من قضايا غيبية منذ فجر أو طفولة الفكر الانساني ومع تطور طلائع الجنس البشري ، فلباً الإنسان القديم إلى عدد من التصورات « التوتمية Totemique » والتعليلات البدائية^(١) . ولم يكن الإنسان في هذه الحقبة البسيطة يستطيع التمييز بين « المادة » و « الروح » ، أو بين « الحي » ، وغير الحي ، حين كان ينسب إلى الحيوان وغير الحيوان ، القدرة على « السلوك الفاضل » ، بما يحويه من تفكير ومشاعر .

والدين بمعناه القديم كان صلاة يقوم بها الإنسان لينجذب شروق الأرواح والآله . وحين إردادت المعارف وبثت العلوم ، تعلم الإنسان كيف يضع أسئلة أكثر تقدماً وتقدماً ، إلا أنها كانت زائفة ومضللة ، فلباً الإنسان إلى إجابات أكثر ريباً وحلول أكثر خللاً ، ثم أصبح الدين في نهاية المطاف أكثر تماسكاً وأغزر مقولية ، حين استند التفسير الديني أخيراً إلى مصادر سيكولوجية وأصول علمية . ومن هنا بدأ التفسير الاجتماعي أو السوسيولوجي للفكر الديني ، منذ النصف طالم الاجتماع الفرنسي « مونتسكيو Montesquieu » ، إلى وظيفة الدين الاجتماعية ، ووصفه بمصادر وشروط ناجمة عن ظروف البيئة تلك التي تحلل وتطل ظهور الدين وتطوره^(٢) .

وعلى سبيل المثال ؛ يعتقد مونتسكيو أن السبب في إنتشار الاسلام بين

(1) Durkheim, Emile., Les Formes Élémentaires de La vie Religieuse., Felix Alcan. paris. 1912.

(2) Plametz, John., Ideology., Macmillan , 1971. p. 85.

العرب وغيرهم من العجم والبربر ، غر تشابه البيضة الجغرافية الذي أدى إلى تشابه في النظم والمبادئ بينما تعطل أو توقف إشتداد الاسلام في أوربا ، نظراً لاختلاف أساليب السلوك وأنماط الفكر ، فلم يكن الاسلام في ظن أو زعم مورتسكيو ملائماً للبيئة أو الواقع الأوربي .

وفي عصر التنوير enlightenment هاجم الفلاسفة الأحرار طبقة رجال الدين المسيحي ، وسخرت فلسفة التنوير من التساوية الذين يصنعون على عقول الناس بصكوك الغفران ، بمعنى أن فلاسفة التنوير لم يهاجموا الدين في ذاته ، ولم يسخرُوا من الكنييسة ؛ بقدر ما أتهموا التساوية باستغلال بساطة الناس وسذاجتهم بنشر الخرافات ، والإيمان بالمزعوبات بين غير المتقنين من الناس . وبذلك حاول رجال التنوير التأكيد على حرية الفكر وتربية وتنمية عقول الناس ، وتحريرها من الأوهام والأخايل ، فهم لم ينكروا الدين ولم يحاولوا نقضه واتقاده أو إنكاره وتجرئحه ، بقدر ما حاولوا منع إساءة إستعمال الثمور الدينية ، أو إستغلال رجال الدين لنفوذهم الروحي ومراكزهم الإقطاعية .

وإزاء هذه الحركة المضادة للكنهوت anti-ciricalism التي قام بها للفكرون الأحرار ضد الفكر الأكليريوس الإقطاعي بتقاليد المعرفة لتتطور الاجتماعى ، قامت حركة أخرى تأخذ بفكرة أكثر تحرراً وقدماً ، وتمسك بالدين بمعناه العميق ، حين تمتد آثاره وتتسلل في جوانب الوجدان وخبايا الشعور ، فيكون لها صداها ورد فعلها في محيط الفكر والتصورات . وهنا تصبح الدين وظيفته في حياة الإنسان وموقفه من العالم . وهذا ما أكدته الفيلسوف الفرنسي « باسكال Pascal » ، في كتابه الأشهر « الأفكار Les Pensées »^(١) .

(١) لم تكن مذكرات هذا الكتاب كلمة ، حيث لم يكتبها باسكال ثم نشرت الاسلوب المخطوط به وفاته .

وفي هذا الكتاب ؛ ذهب باسكال الى أن الانسان في ميسر الحاجة الى الدين والشعور الديني ، ذلك الشعور الغريب الذي يعطيه « الرضا » ويضفي عليه ذلك الاحساس بالوجود ، قالدن هو همزة الوصل بين الانسان والعالم ، وهو الذي يشعر بمكانته فيه ، ويضفي عليه « انسانيته » تلك التي تميزه عن « الحيوان » . كما تمنحه احساساً « بهويته his own identity » ، فيشعر بالرضا عن نفسه ، ولاشك أن الانسان بدون هذه المشاعر والاحاسيس الدينية الضرورية ، سوف يفقد نفسه ويهرب من « ذاته » .

قالدن يشجع حاجة ضرورية للانسان ، وهي الشعور بالأمن بعد خوف ، وبالرضا والايمان بعد بأس وضلال ، ومن هنا يشعر الانسان بوجوده ، باعتباره كائن مفكر وحياته ، هي الاساس الموضوعي لفكره ؛ حين يتأمل وجوده المحدود في عالم « لا محدود » ، فإذا ما أحس الانسان بأنه بلا هدف ، يفسر حياته ، أو « سبب » يعلل وجوده ، فانه سوف يشعر بالطبع بأنه « كائن ضائع » أو « موجود زائل ضعيف » ، يعيش هائماً كخشة أو ريشة في هب الريح ، أو كشعاع خافت وضعيف يضيئ في حتمة سالكة ، وهذا هو « الضياع » للقيم ، حين يتخبط الانسان الملهود في ظلة الليل البهيم^(١) .

ولقد كان « باسكال Pascal » رغم ايمانه بعلوم الرياضة والطبيعة ، يخشى طغيان والعنصر الآله على الفكر ، وسيطرة الوجود الجامد الممانع وهو الوجود « للمادى الكيف » ، حين يحاول أن يفرض نفسه على الوجود الروحي الخلاق ، الأمر الذي يؤدي الى شيوع الحتمية *determinism* باسم القانون العلمي

(١) لقد انتشرت فتات وجاهلت « الهبيز » بين شباب دول أوروبا ، فعصروهم بالفراغ الوجودي ، وبحرقاء تقوسهم وتخرقهم ، فخرقوا ذهن الرمن للدهى وقسموا للراجلة الوجودية ففصلوا على غير هدى أو أمل أو رجاء .

Scientific Law ، وذبح السببية الآلية أو المجرية للمادية ، في عالم متغير مضطرب ، وفي حياة قلقة بين المحدود ، و . . . اللا محدود . . . ولذلك أكد باسكال على أن الدين هو الحل الحاسم لهذه المسألة حيث يقوم الدين بتقديم الحلول المريحة ، ، والتي تحيل اليأس إلى رجاء فينشيح الأمن ، ويستقر الرضا وتشرح الصدور ، وتطمئن النفس ، وهذا هو دور الإيمان ووظيفته .

ولمنا محمد في كتابات د روسو Rousseau ، آخراً واضحة لهذه النظرة الروحية العميقة التي خلفها باسكال بفكرته عن الدين ، حيث أعلن روسو أن الدين ، بالإضافة إلى تأكيده على أنماط السلوك الطيب والخلق الكريم ، فهو يمنح شعوراً بالوجود في العالم ، مهما كان الواقع مرأ ومعضاً ، وهذا أمر لا يستطيع العلم أن يمنحه للإنسان ، مما بلغ العلم من هدم يدعو إلى الجبر ويأخذ بالآليات .

ولقد كان روسو عدواً للعلم ، كما كان عدواً للجمتع ، فأكد الحرية الفردية ، وقاد حركة مضادة للجمتع Anti-Society ، ، حين أثار الكثير من القضايا التي تركت العروة إلى الطبيعة Back to Nature ، على اعتبار أن المجتمع هو مصدر الشرور والآثام ، وبعث الإفساد والاضلال ، إذ أن كل شيء جميل مادام من صنع الخالق ، وكل شيء يلحقه العمار إذا ما صنه يد الإنسان . .

وكانت مواقف د روسو ، و د فولتير ، الساخرة ، كنيئة بتكوين الأيديولوجيات الثورية المضادة ، فكانت كتابات أو كلمات ما قبل الثورة ، هي الكلمات والصيحات الثورية التي حملت الباستيل ، وأزالت طغيان النبالة والاتطاع ، وحسرت دول أوروبا من قيود المجتمع الاتطاعي وأغلاله ، بصور مبادئ الحرية والأعلام والمساواة ، فأنهز الاتطاع ، وزال الاستبداد السياسي ، وتحطمت مبادئ العصور الوسطى ، عين حطمت على أوروبا شبح

المصر الحديث ، بعد أن كانت تترنح في صورها الوسطى في ظلمة الحفارة والاسطورة ، حيث الجهالة والتأخر والاستبداد. وبذلك اصبحت فيها الكثير من القيم التمسكية في الدين والفن ، وانطلقت بكلمات «روسو» مبادئ الحرية والمساواة واحترام حقوق الانسان ؛ وهذه الميعة التي أطلقها «روسو» ، تأكدت وساجت الانسان إلى الدين ، التي هي أعمق وأقوى بكثير من حاجته إلى العلم .

ولقد كان «كانط» قبل «روسو» ، قد أعلن أنه لكي يكون الانسان سعيداً عليه أن يؤمن بثلاثة أشياء وهي : الايمان بالله ، وحرية الاداعة ، ونشود الروح ولا يستطيع العلم المادى أن يبرهن على صحة هذه الأشياء ، ولكننا تؤمن بها بالقلب ، ولشك أن ، القلب أسبابه التي لا يدركها العقل على الإطلاق

. La Coeur a ses raisons que la raison ne connaît point (1)

وبهذا المعنى الروسى العميق ؛ كشف باسكال Pascal عن وظيفة القلب ودوره في صدور «الحس الدينى L'intuition Religieuse» ، فهو منبع كل القيم التي لا يدركها عقل ؛ أو حتى يفضها ويتوصل إليها علم .

التمييز بين الوعى والوهم :

هناك فروق جوهرية بين الوعى والوهم ، فالوهم هو عدم الوعى ، لأن الوهم منفصل عن الواقع ، وهو الذى يؤدي بنا إلى عدم الالتفات إلى الأساس للوضوئى للفكر ، حين نفضل أو نبتعد عن عملية تأصيل الفكر للمنفصل عن الواقع ، فالوعى الكاذب هو «وهمي ضال ومضلل» ، ولا أساس له من الواقع كما أنه لا يتضمن أية «حقيقة» .

وفي تاريخ الفكر الفلسفى شواهد كثيرة تشير إلى مثل هذا «الوعى الكاذب»

(1) Garvitch, Georges., Morale Theorique et Science des Moeurs, Pressa-universa, de France Paris 1948: p. 45

ففي « الأورجانون الجديد » *Novum Organum* ، الذي كتبه « يكون Bacon » ، في الرد على « أورجانون » أرسطو صاحب للعقل ، شرح يكون نظريته للصورة من « الأصنام » *Idoles* ، فأشار إلى أوهام الكهف والقيّة والسوق والمسرّح ، ونظر يكون إلى هذه « الأوهام أو الأصنام » على أنها مصادر خارجية للخطأ ، بمعنى أنها مصادر معادة الفكر المنطقي الصحيح ، إذ أن الفكر الحق أو الواضح *Clear Thinking* ، ينبغي أن يتخلص نهائياً من هذه الأوهام الكاذبة ، والراصة في نفوسنا فتتلاقى التقدم العلمي ، وتقف حجر عثرة إزاء التوصل إلى المعرفة الحقة .

ولقد كشف علماء النفس عن دور « الأهواء » والعزائم أو العوامل الذاتية *Personal Factors* ، في الابتعاد عن الموضوعية *objectivity* ، على اعتبار أن الأهواء هي عناصر « خادعة » لا توصلنا إلى الحقيقة ، بما يذكرنا بفكرة « الشيطان الخادع » عند « ديكارت Descartes » ؛ الذي يقلب لنا الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، فهو ماركس ومضلل « ولا يؤدي بنا إلى حقيقة أو يقين » ، لانه هو « الظل الأسود » *Black Shadow* ، الذي لا يصدر عنه سوى الخطأ والهم والضلّال . وإذا ما عدنا إلى ماركس ، نجد أنه ينظر إلى الأيديولوجيا على أنها أوهام وكاذب . وغالباً ما يطلق عليها ماركس اسم « الوهم الكاذب » ، بمعنى أن الأيديولوجيا ، هي ذلك الفكر المروج للاحتاليل ؛ حين لا يعتمد على أي أساس موضوعي للفكر ، على حين نجد أن « الأفكار » هي تصورات مشروطة اجتماعياً ؛ ومرتبطة أصلاً بالوجود الاجتماعي *Social existence* .

ولذلك يشبه « الوهم الحق » عند ماركس من « الوهم الكاذب » ، حيث يخضع الأول للترابط الاجتماعي ؛ كدروسيد إلى مصادر وأصول اقتصادية ؛ بينما لا يصل الثاني إطلاقاً بالوجود الواقعي ؛ بالاحتكاك إلى اتصاله كلية من

أى أساس مادي ، والايديولوجيا عند ماركس هي «جزء من الوعى» ، الا
أن هذا الجزء يتدرج تحت مقولة الوعى الكاذب ، على اعتبار أن هذا الوعى
هو «وهم خادع illusion» ، ولكنه وهم يتميز بالثبات Persistence النسبي
والمعوم بين مجموعات محددة من الفئات أو الزمر الاجتماعية .

وما قصد ماركس بهذا الوعى الخادع ، أنه تصور محدد أو خاص يتميز
بأنه «كلى» و «عام» وله نتائج وأخطاره الاجتماعية ، وهو : يتألف من عدد
مترايط أو سلسلة من الازعاج الخادعة والتخيلات المغلوطة ، تلك التى تختار
بمبهمها وانتشارها بين مجموعة من الافراد عن يتشابهون اجتماعياً في مواقفهم ،
و «أدوارهم» .

وهل سبيل المثال لا الحصر ، يعتبر التصور البورجوازي للدولة مثال من
أمثلة «الوعى الكاذب» ، كما أن سائر المعتقدات التى يعتبرها ماركس من قبيل
الازعاج المغلوطة ، هي تلك الافكار المنصلة بالوظائف الضرورية للدولة (١) ،
وبالرغم من أنها أفكار ومعتقدات وهمية وكاذبة ؛ إلا أنها ضرورية ؛ ورغم أنها
تقوم بوظائف «صورى» ، وليست حقيقية ؛ إلا أنها وظائف ومعتقدات شكلية
تحتاج اليها الدولة ؛ حتى تستطيع أن تتحمل أعباءها وتحمى ذاتها ثم تقوم
الدولة بمد ذلك بوظائفها الحقيقية Real Functions .

واستناداً الى هذا التهم البورجوازي الكاذب ، لطبيعة الدولة ووظيفتها فقد
أكد الماركسيون أن مستقبل المجتمعات أو الدول «الشيوعية» ، إنما لا يحصل
في طبائعه أية تصورات خاطئة وأوهام خادعة ، وليس هناك مكان في المجتمع
الشيوعى اللاطبقى Classless Society لما يسمى بالوعى الكاذب .

(١) Lenin, Selected works, Vol., I, progress publishers.
Moscow 1967, p. 28.

فلسوف لا يقع الناس في مستقبل المجتمع الاشتراكي في مرحلة الشيوعية ،
تحت تأثير « الطبقة » ، تلك التي تحبب الرؤية الصادقة ؛ ولسوف تنضم الشعوب
نفسها وتعي ذاتها ؛ ويعرف الناس بطريقة عملية وموضوعية كل ما يتصل بالمجتمع
الشيوعي الذي يعيشون فيه .

ولسوف لا يصبح الناس في المجتمعات الشيوعية ، بعد أن تنهار « البنية
الطبقية » ، في حاجة على الإطلاق الى « دولة » ، يكون لها مثل مناهج القواعد الضاحقة ،
و « السلطان المفروض » ، . حيث لا يوجد في المجتمع الشيوعي اللاتيني مكان
« القانون » ، أو « الأخلاق » ، أو « السلطة » ، . بنفس المعاني التي تسود في « المجتمعات
البرجوازية *Bourgeois Societies* » ؛ ومن ثم فلامكان « للأوامر المفادعة » ،
ولا مكان للرعي الكاذب في مستقبل المجتمعات الشيوعية اللاتينية .

وتعتبر « الأخلاقيات » ، عند ماركس من التصورات التي تحصل عناصر
أيديولوجية ، حيث تعود الكثير من الأفكار الوهمية حول « القواعد الخلقية
Moral Rules » ، فيخطئ . الناس فهمها ومصادرها ، فتتشأ بسببها أوامهم وأضاليل
ولذلك تدخل الأخلاقيات وكل ما يتصل بالمعتقدات والديانات في زمرة
الأيديولوجيات ، حيث أن قيم الأخلاق ومعتقدات الدين هي أفكار منفصلة عن
الواقع ، ولا يستطيع العلم الأمبريقي أن يبرهن على مدى صحتها أو كذبها ، ولذلك
لقد أخطأ ماركس ، وبطريقة متصفة ، بصدقه تفسير ظواهر الأخلاق والدين ،
وكانت دراسة الأخلاقيات والقيم الدينية هي قسمة الضعف الشديدة التي يعاني
منها « المذهب الشيوعي » ؛ حين نظر ماركس الى الأخلاقيات على أنها مجرد
أخيلة « وهمية » .

وحين يقول « ماركس » ، « إن الدين هو وهم » ، وهو « أفيون الشعوب » ، نجد
أن الماركسية لم تنضم حقيقة الدين ، ولم تنمق في الممارات الروحية الباطنية ،

فلا يعرف ماركس فينومينولوجيا الشعور الديني ، بل لقد توقف ماركس عندناح
 الأساس الأسفل infra - structure و سطوح البناء الفوق supra-structure .
 ولقد عاش ماركس ومات ملحقاً متأثراً بمادياته التي حرمت تماماً من روعة
 الشعور الديني ، وتفلقه وإبداعه ، تلك التي كشف عنها وقبها ما كس فير
 Max weber ، هذا البروتستانت المتدين ، الذي كتب في حق من د القوى
 الروحية ، كدوافع ثورية وعمرات كإلزامية ، تغير من المجتمعات ، على اعتبار
 أن الدين في ذاته - وليس الاقتصاد - هو طاقة دافعة تصدر عنها قوة تطويرية
 خلاقة وعمرات للتاريخ (١) .

ولكن كيف يتكون الوعي الطبقي ؟

لا يصدر الوعي الطبقي على نفس النحو الذي ينطلق فيه ، وعى الإنسان الفرد ،
 حيث يولد ، الوعي الطبقي ، في د ماضى التاريخ الاجتماعي ، الذي يسجل لنا
 ظهور وتطور الزمر والطوائف castes ، ومختلف فئات التجمعات الاقتصادية .
 ويزداد وعى الطبقة بذاتها ؛ كلما مرت ظروفها بمراحل تطويرية ناجحة لخلال
 حركة مسارها التاريخي . وبالتالي يصبح الوعي الطبقي تاريخه وماضيه بينها
 تمتاز أسرار د الوعي الفردي ، بأنها حاضرة ومتقلبة كما أنها ، مباشرة ومتشعبة .
 وحيد نقد المقارنات بين الوعي الفردي والطبقي ، لوجدنا أن وعى الإنسان الفرد
 يتميز بأنه وليد الساعة وال لحظة ، فهو مؤقت وراهن ومباشر ، لا يولد الانتباه
 . Attention

أما د الوعي الطبقي ، فهو وليد التاريخ الاجتماعي ؛ لأنه منى وإقتصادى
 وجماعى ، كما يمتاز الوعي الطبقي أيضاً بأنه مرحل وانتقال وتطورى ، نظراً

(1) Weber, Max The Theory and Economic Organization,
 trans. by Henderson and Parson, Glencoe: 1967.

لتحول ظروف الطبقة للوحشية بتطور إمكانياتها الموضوعية، أما عن المصاعب
الطبعية فيمكن استحضارها هنا والآن *Here and now* ، على حد تعبير
العلماء . فلو فرضنا مثلاً أن اجتماعاً أو مؤتمراً سيقد بين كل الأطباء في مكان ما ،
فلسوف يتوافد على المكان سائر الأطباء يأتون من كل فج حقيق . وبعد أن يستقر
الجميع في أماكنهم وتبدأ أعمال المؤتمر ؛ فإنا نجد « تياراً شعورياً واحداً ، بين
سائر المجتمعين ، ويؤسس هذا التيار الشعوري الموحد أصلاً جوهرياً من أصول
الوعي الطبقي ، ثم تدرس مناقشات المؤتمر لكي تعبر عن ، مشكلات أو قضايا أو
جوابات تشغل مايسود بنية الوعي الطبقي للأطباء ، وقد يكشف المؤتمر عن طبيعة
الرأي العام الذي يسيطر على وجدان الطبقة .

ويمكننا أن تأتي بأشعة مشابهة « الوعي ، من طبقات العمال والفلاحين ،
فاذا كانت الطيور على أشكالها تقع ، ، فالتاس تتجمع بحكم الطبقة ، وتوافد
حول أفكار معينة ، وتترابط بمشاعر عامة ، باشتراكهم أو إعتاقهم لمجموعة
من المبادئ التي تدور حول مصالح مشتركة . وهذه المبادئ والمصالح هي شعارات
تشكل طبيعة الوعي الطبقي . وهنا تصبح الأفكار الطبقة بمثابة أسلحة الدفاع
عن مصالح الطبقة ، وهذه هي أيديولوجية الطبقة التي تستخدم مبادئ وأفكارها
كأسلحة *ideas as weapons* عن طريق المناقشات ، تلك التي تستخدمها الطبقة
للدفاع والمخاطبة لكي تعمل دائماً كوسيلة لحل المشكلات والمناقشات أو كبديل
لصراع الأفكار *conflict of ideas* .

ومن طريق الحوار الديمقراطي ، والمناقشة الحادة ؛ والمجدد البناء ، تعمل
المشكلات ، وتنظم جدال الأعمال فتتقن الأفكار وللشاعر والتصورات الطبقيّة،
الأمر الذي منه ، ينتج الوعي الطبقي ، ، وتصبح أفكار الطبقة أكثر وضوحاً
وتجديراً ، حين تتحقق أحلامها وتزول عتوفها وألوهامها .

وبصدد الديمقراطية مثلاً ، يسود اجتماعات الطبقة سائر المناقشات التي قد تكون حامية الوطن ، وبخاصة في عملية الانتخابات ، أو تنفيذ الزمامة ، أو القيادة ، حتى يصل الكل إلى اتفاق ، بعد صراعات ومناقشات ، وهذه هي سجلات الوعى الليبرالى الديمقراطى التابع من مناقشات الكل ، والذي يؤدى إلى «القرار الديمقراطى» الصادر من «مساهمات الكل» ، ففى الديمقراطية ، يكون «الكل» هو صاحب القرار ، ويعتبر الكل هذا القرار الصادر عنهم لأنه قرارهم منهم ولهم ، وهكذا يكون الانسان فى النظام الديمقراطى «سيداً لنظام» وليس عبداً للقوانين الجائرة التي فرضت عليه على نحو دكتاتورى وصاوم . والأشكال الديمقراطية هي الأشكال المثالية فى تنظيم الوعى الطبقي ؛ بل وفى سيكولوجية اتخاذ القرار ، الذى يمكن تسميته وفرضه لأنه تابع من «روح الكل» ، وصادر عن رأى الجميع ، ويبرهن حاجات الطبقة ومصلحتها ، ويعتق أهدافها وآمالها .

ويشتمل الوجدان الطبقي على مجموعة من التصورات الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية الخاصة بطبقة معينة بالذات . فقد تحدد الطبقة الاجتماعية طبيعة مهنة الإنسان أو حرفته ، ومن خلال «التقييم العرفى والتأخير المئى» ، يمكن تقدير درجة المهارة الفنية والمستوى التعليمى والثقافى ، كما يمكن أيضاً تحديد أو تكبير «الدخل» أو «الكسب» ؛ مع تقدير «الثروة» من خلال «نظام الأجور» و«معدلات الانتاج» . ويمكن أن تأخذ اعتبارنا أن درجة تقارب أو تفاوت «التأخير المئى» والفنى ، قد تتغير طبقاً لتغير المراتب الفنية والمجرات المهنية ؛ فالمنبة الواحدة لا يمكن أن تقيم لها أو أن «تثبت» لها «إطارات محددة وثابتة» من الدخل نظراً لتفاوت الواضح فى درجة المراتب الطبقة داخل «مرم المهارة بما يحويه من المراكز ومراتب المكانة Prestige والأدوار Roles التي تقوم بوظائفها

داخل إطار الطبقة من أدائها إلى أعلاما . ومن هنا وجدنا كيف يواجه الباحث الكثير من الصعوبات الاقتصادية والتنظيمية الهائلة التي تمنعه من ترتيب المهن وفقاً لترتيب درجات الدخل . ولذلك إتفق علماء الاجتماع الطبقي ، ، وعلى رأسهم « هالفنكس Halbwachs ، و « دايموند آرون Aron » ، على أن أهم ما يعين الوعى الطبقي ، هو أسلوب أو « نوع الحياة mode de la vie » ، التي يجاها أفراد الطبقة الواحدة ؛ وطبقاً لمبدأ نوع الحياة ، يمكننا أن نميز بين سائر الطبقات ، إستناداً إلى تمايز السلوك وإلى التباين في درجة الوعى ونوعه ، وتوجد فرواق في طبيعة الوعى ، تميز كثيراً بين مختلف أشكال الوعى الطبقي ؛ فهناك الوعى المهادى ، و « الوعى الطبقي بين الفلاحين » ، وهذا التمايز الطبقي بين الفلاحين والمهاد ، يشكل الفارق الجوهرى الذى يكمن فيما وراء « الصراع الأيديولوجى » ، الكبير بين مواقف الاشتراكية السوفيتية والاشتراكية الصينية .

وإذا ما قارنا بين « الوعى الطبقي » طبقاً لنوع الحياة ، بين طبقتى الفلاحين والمهاد على العموم ، لوجدنا أن الفلاح أكثر ميلاً إلى التدين والتقوى ، والمحافظة على التقاليد والعادات ، كما أن الفلاح أكثر إتصالاً بالأرض وإستقراراً ؛ وميلاً إلى التكامل المادى ، واحتراماً لكبار السن . أما المهاد فهم أكثر إستعداداً لتقبل الجديد نظراً لإهتمامهم في مناطق حضرية ، والعامل أوسع أفقاً من الفلاح ، لكثرة إحتكاكه بالآخرين فتزداد الخبرة ، كما وتصبح بين المهاد روح التحرر من قيود وقيم المجتمع فيقل إستمرار العامل للقيم الروحية ، والعامل أكثر إصرافاً من الفلاح التقوى المقتر ، حيث يتقارب الفلاحون في « معيشتهم وتصوراتهم » مما اختلفت ثرواتهم . ويغشى للفلاح التخميات المجرية التي قد تصيب المحصول ، أما العامل فهو أقل إحتراساً لمستقبله لاعتماده على عرق جيله من حرفته وعمله يديه ، ولا اعتماد بحرفة من غير الأيام ، ولذلك كان العامل أكثر من الفلاح ، ميلاً لتنظيم نفسه

داخل ، قنابات وتنظيكت ، واتحادات وأندية .

سيكولوجية الطبقة :

تتماز سيكولوجية الطبقة بمجموعة متجانسة من المصادر والتصورات الطبقيية بحيث يكون الوعى الطبقي هو العمود الفقري لبنية التصورات والمشاعر الكامنة فى سيكولوجية كل طبقة من الطبقات الاجتماعية .

وبتميز الوعى الطبقي بترافر عناصر اقتصادية وأخرى سيكولوجية ، وتدور أم عناصر الوعى الطبقي حول « للهنة » و « الدخل وقيمتة ومدى إنتظامه » ، وطريقة الكسب ان كانت تجارية أم صناعية ، ولذلك تندجم كل طبقة فى وعى متجانس متسق التصورات متحد المشاعر والذكريات ومن الكتابات السوسيولوجية ، التى لها رد فعلها فى تطور مفهوم الوعى الطبقي ، كتابات « فونت wuadt » و « دور كايم » و « جنزبرج Ginsberg » ، فالأول قد أشار إلى فكرة « التركيب أو التفاعل فيما بين العقول الفردية » ، فأخذ « فونت » بفكرة تركيب حالات الوعى (1) . أما دور كايم فهو صاحب نظرية العقل الجماعى حين يؤلف نسقاً من التصورات الجماعية التى حررها دور كايم تماماً من دكل الخصائص السيكولوجية والبيولوجية ، فتبدلت وتحولت إلى ظواهر قائمة بذاتها *Sui-generis* ولذلك أصبحت الحياة العامة عند دور كايم هى الأساس الذى تستند إليه بنية الوعى الجماعى ، ، وأضحى « التصورات الجماعية » ، هى ميط التصورات الفردية .

وليست التصورات الجمعية هى مجموع التصورات الفردية ، كأن العقل الجمعى ليس مجموع العقول الفردية ، إذ أن الكل على ما يقول « الجعظليتون » ،

(1) Ginsberg, Morris-, The Psychology of Society, Seventh Edition- London, 1949.

« ليس مجموع الأجزاء ، ، ولكل الكيماويات سماه وصفاته التي تنبأ عن خصائص الأجزاء ؛ فأصبح الكل هو أكبر من مجموع أجزائه (١) . هذه جوانب دور كايمة ، تلج فيما أرقى ، أو تصوراً أدق ، لطيفة الوعي الجماعي ، وإذا ما إنجمننا نحو الماضي البعيد ، لوجدنا جوانب أخرى قد طورت وعقت دور الطبقات الوسطى ووعيها ، بانتشار مفهومات الحرية ، والوعي بحقوق الإنسان فاك المفهومات المتحررة التي صدرت مع كتابات « روسو » ، وبخاصة بصدد « العقد الاجتماعي » ، و « إميل Emile » ؛ وأزرها في صياغة « إعلان الاستقلال الأمريكى » ، حيث تأثر بـ « كتابات روسو » ، الرئيس « توماس جيفرسون Jefferson » ، وهو أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية الذين اشتركوا في صياغة هذا الإعلان الأمريكى الشهير ، فلقد أثار « روسو » الوجدان الفرنسى حين تكلم عن « حقوق الإنسان الثابتة ، التي وهبتها له الطبيعة ، كحق الحياة ، وحق الحرية ، فلقد ولد الناس أحراراً وأحراراً ؛ متساويين في السعى وراء السعادة والرفاهية (٢) » ، وهذا التصور التحررى هو أساس بنية الوعي الجماعى أو العتيق .

ولا يمكن تعريف « الزمر الاجتماعية Social groups » (٣) أو تحديده

(1) Durkheim, Emile., Individual and Collective Representations, Sociology and Philosophy, London- 1958. p. 24.

(٢) سول ، جورج : « المذاهب الاقتصادية الكبرى » ترجمة الدكتور راشد البراوى ، مكتبة النهضة ١٩٦٥ ، ص ٥٢ .

(٣) تعرف الزمرة الاجتماعية بأنها جماعة من الأشخاص تربطهم مصالح وأغراض خاصة وتوجد بينهم مشاعر وانتماءات معينة ، كما يتميز بمجموعة من الحقوق والالتزامات ويشاركون في عمل جمعى عند تحقيق أهداف مشتركة ، كما ويتضمن الكل في مجالات ومناطق مميزة .

مفهوم الجماعات ، إلا في إطار ما تقوم به من جهود أو أعمال ، تلك التي تسمى في علم الاجتماع باسم «الناشط الاجتماعية Social activities» ، ولا شك أن «العمل» أو «النشاط» حين يكون جماعياً ودائماً ، لا بد وأن يخلق في الجماعة أو الزمرة الاجتماعية ، مجموعة من «الامتيازات» أو «المصالح» ؛ تلك التي تصدر عنها الأفكار *ideas* ، ومن خلال «العمل» و «الاحتكاك الاجتماعي Social contact» المستمر بين أفراد الزمرة أو الطبقة ؛ تنشأ مجموعة من التصورات أو الأفكار الأساسية ، ولكن هناك أيضاً مجموعة من الأفكار الثانوية *Secondary ideas* لا تنجم عن الاحتكاك أو النشاط الجمعي ، بقدر ما تنصل بما يدور داخل إطار الزمرة أو الطبقة من آراء وما يسود فيها من تصورات ومعتقدات وأيديولوجية الطبقة هي مجموع الأفكار الثانوية السائدة في بنيتها ويا يندرج داخل الإطار الطبقي من «أفكار أيديولوجية *ideological ideas*» .

ولذلك تحتوي أيديولوجية كل طبقة ، على مجموعة الأفكار والانتهاجات الثورية التي تصدر عن الوعي الطبقي ، مما يؤكد أن هذه الأفكار إنما تعبر عن السمات العامة للعابقة ، والتي تعنى عليها شخصيتها ووجودها . بمعنى أن أيديولوجية الطبقة إنما تعبر عن ما يجمع أفرادها من «انتهاجات وعلاقات» ، وما يشتركون فيه من آمال وعقائد ومصالح ، وما يقومون به من «أدوار طبقية» ، وهذه كلها هي شروط «الوجود الطبقي» .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لقد ثار جدل قديم بين «العبد والسيّد» ، وكان لكل منها طبقة ومعتقداته وأنماط سلوكه وأساليب تفكيره ، ولقد شبه هيجل «مقولة السيّد» بأنها تعبر عن «الوعي بذاته» الذي يمتاز بالذوق والاستقلال عن الطبيعة ، وتلك هي سمات «السيادة» ، أما العبد فيعمول للعمل ، مشغول بالطبيعة مرتبط بالماله ، ثم أصبح يدرك التاريخ ، وكان له حيلة للعائد لا تحسم

إلى طبقة المييد ، فالعبد هو الذى ينتسب إلى سيده ، كما تنسب الزوجة إلى زوجها ، على الرغم من الفروق في المواقف والادوار الاجتماعية . حيث يخلق نظام الانقطاع أيديولوجيات وطبقات ، بينما لا يخلق نظام الزواج أية تصورات طبقية ، وإنما يمثل الزواج نسقاً من العلاقات الصورية Formal ، أو المقولات الاجتماعية .

ويميز ماركس الطبقة طبقاً لنوع الملكية وشكلها ، كما يحدد مدى فاعلية تلك الطبقة وتأثيرها في النسق السياسى وفقاً لتقدير ثرائها وأهميتها بما يضمن عليها طامعاً يعطيها فرصتها أو دورها القيادى في البناء السياسى . ولكل طبقة آمالها وتطلعاتها ، فطبقة الملاك تريد الثروة وجمع المال ، ووطبقة الانقطاع ، الثرية تبغى السلطة والسيطرة على الحكم بمزيد من القوة والسلطان السياسى ، أما طبقة العبيد ، فتأمل في التحرر من الظلم الاجتماعى والتخلص نهائياً من إستغلال الانسان لانيته الانسان .

هذه هي المرحلة الاجتماعية Social map التى تبرز اتجاهات الطبقات ، حيث نجد الكثير من التعارض في الخطوط العامة ، وعدم تطابق الاتجاهات ، إذ أن خطوط التقسيم ، بين سائر الطبقات إنما تتعارض ولا تتحدد أو تنفق . ولذلك أكد ماركس على أن ديكتماتورية البروليتاريا ، سوف تزيل هذا التعارض ونحل التناقضات . ولقد أعلن « ماوسى » تونج ، عدم الإذعان للاتجاه الماركسى الكلاسيكى نظراً لعدم صلاحية في معالجة مشكلات « بروليتاريا الفلاحين » ، وإنما أكدت ديموقراطية الصين الجديدة على دور الدكتاتورية المشتركة التى تضم طبقات الفلاحين والمنتجين وكل الطبقات للمادية للاستثمار (١) . وذلك هي الأيديولوجية

(١) سيجورث ، بول « أيديولوجيات الأمم المختلفة في القرون » دار القومية لطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٤ .

الصينية ، المضادة ، للاشتراكية السوفيتية الماركسية .

وفيا يتعلق بطبيعة الأفكار الطبقة ومساعدتها ، يسأل الزعيم الصيني الراحل
« ماوتسى تونج » ، في هذا الصدد بقوله :

« من أين تنبع الأفكار السديدة ؟ ! أتقول
« من السماء ؟ .. لا . وحل هي فطرية في العقل ؟
لا إنما تنبع من الممارسة الاجتماعية وحدها ،
« تنبع من ثلاثة أنواع من الممارسة الاجتماعية :
« النضال من أجل الإنتاج ، والصراع الطبقي ،
« والتجربة العلمية . » (١)

من هذا النص ، يتضح لنا أن « ماوتسى تونج » ، إنما يعبر تعبيراً واحداً
ومتميزاً عن طبيعة أيديولوجية الطبقة ، حيث ذهب ماركس إلى أن الأيديولوجيات
والأفكار إنما تنجم عن مظاهر الحياة الجمعية والاقتصادية ، كما أكتت الأيديولوجيا
الماركسية على العناصر الاجتماعية في صدور الفكر وفي إثبات المعرفة .

وفي ضوء هذا الفهم للماركس ، يهدف علم اجتماع للفرقة ، إلى دراسة العناصر
الاجتماعية والطبقية في التفكير ، ووظيفة تلك العناصر في تكوين صور عامة للعقل
داخل إطار الواقع الاقتصادي (١) . ولقد نجمت فكرة الأيديولوجيا أصلاً في
لتفكير للماركس ، وصدرت عن أنها إنعكاس الصراع السياسي والاقتصادي

(١) مقتطفات من أقوال الزعيم ماوتسى تونج . وكالة المصنف العالي ، الطبعة

الثانية للتلعة ١٩٦٧ ص ٧١٦ .

(2) Stark, Werner., The Sociology of Knowledge, Second
impression. Kegan Paul: London. 1960.

والاجتماعي ، الذي يتحكم في الفكر الطبقي ، فتعبر الأيديولوجيات عن تلك المواقف والارتباطات العامة التي تتعلق بصراع الجماعات والطبقات عبر التاريخ^(١).

وإستناداً إلى ذلك الفهم ، يرد دماركس ، الأيديولوجيات والأفكار إلى تلك المشكلات الاجتماعية التي تفتش من داخل بنية الطبقة ، على أساس أن الفكر لا يتوقف على مجرد الوضع الاجتماعي ، للفرد ، ولكنه يتوقف أصلاً على الوضع الاقتصادي ، ويصدر عن الموقف الاجتماعي والسيكولوجي للطبقة برمتها ، من خلال صراعا وآمالها ومخاوفها^(٢) ، وإمكاناتها الموضوعية ، تلك الآمال والمخاوف التي تفتش عن ظروف وضعية يحددها السياق السوسيوتاريخي .

فإننا حين نتعرف على أيديولوجية العصر أو الطبقة ، وحين نحاول أن نفهم حقيقة جماعة من الجماعات أو الزمر السوسيوتاريخية ، فإننا نمي بذلك أن نتعرف على خصائص وتكوين البناء الكلي لروح العصر ، أو فكرة الطبقة ، أو عقل الجماعة ، ؛ ذلك البناء الفكري الناجح ، الذي يتألف من مجموع التصورات والآراء والظروف المنبثقة عن نفس الأفكار والقيم الاجتماعية . وبتعبير أدق إن ذلك البناء العقلي لروح العصر والطبقة . إنما يعبر على العموم عن موقف الحياة Life-Situation ويفسر الوضع الراهن ، حيث تعبر تلك الأفكار العصرية والطبقية عن وظائف وجودها في الوسط الاجتماعي^(٣) .

ويرى د. ميرتون Merton ، أن الاتجاه الماركسي إنما يعد عموراً أساسياً من

(1) Mannheim, Karl., Ideology and Utopia., London 1948 p. 36.

(2) Merton, Robert., Sociology of knowledge, The Twentieth Century Sociology. New York. 1945. p. 574.

(3) Mannheim, Karl., op. cit 49-50.

محاور الأرنكز في « علم إجماع المعرفة » ، حيث فسر ماركس « الاطارات
الوجودية Existential Basis ، للحرفة والايديولوجيات ، تشبهاً اقتصادياً
بصورها عن بنية الفكر الطبقي . حيث التفت ماركس إلى عوامل الانتاج ،
باعتبارها الأساس الحقيقي أو « البناء الأسفل Infra - Structure ، التي إليه
يستند البناء الأعلى Supra - Structure » (١) .

وينبثق الشعور أو الوجدان الطبقي عند ماركس - عن مجموع التصورات
الاجتماعية (٢) ، التي ترسب في أحشاق الطبقة ، ومن ثم كانت التصورات الجماعية
لكل طبقة ، تتصل بمسألة « الأحكام التقييمية Jugement de Valeurs » ، تلك
الأحكام التي تعطيها مكانتها في سلسلة القيم الطبقيّة .

وإن كان ذلك كذلك — فإن الطبقة لدى أصحاب الاتجاه الماركسي هي
تقطة البدء في مستوى التحليل السوسيولوجي في علم إجماع المعرفة ؛ إذ أن
الأفراد داخل إطار الطبقة إنما تتحقق لدى كل منهم مقولات الفكر التي ترسب
في أذهان الفكر الطبقي ؛ كما يتولد الفكر عند ماركس « من ذلك الكفاح بين
الطبقات ، « طبقات العمال ، أو « البروليتاريا » ، في صراعها مع « البورجوازية » ،
و « الاستقراطية » ، وعن ذلك الصراع الطبقي ، تصدر التصورات المنطقية
التي تربط بينك المشاعر والمصالح الاقتصادية والملاقات الطبقيّة .

وبصد سيكولوجية الطبقة الكلدسة ، لم يغفل علم الاجتماع الماركسي من
قيمة الثقافة ، بل وأكده على وجود علاقة تبادلية ، بين « بنية الأساس التنقي
Infra - Structure ، و « بنية الأساس التنقي Supra - Structure » ، وهو

(١) Merton, Robert., op cit. p. 373.

(٢) الأستاذ الدكتور محمد ثابت النعني: « الطبقات الاجتماعية » - دار الفكر العربي

ببادل أو تفاعل حتمى يربط الايديولوجيا بالأساس الأسفل ؛ ويصل بين الجوانب العرقية ، كالثقانون والسياسة والفلسفة والفن ويربطها جميعاً بالجوانب الاقتصادية التحتية .

بمعنى أن ماركس قد إلتحق مع صديقه انجلز Engels في نهاية المطاف ؛ على رفض قبول فكرة الاستقلال الكلى ، حين يتفضل التركيب الأسفل ؛ من المظاهر العليا في حياة المجتمعات ، كما يبر عنها البناء الفوقى الأعلى . حيث تم طوال التاريخ ، ويدفع حجة التطور الاقتصادى ، (١) علاقات تبادلية ؛ بين الظواهر والأيديولوجية ، ومصادرها التى تدعم البنية الاقتصادية . كما أشار ماركس الى الاهتمام بوظيفة الفكر ودوره الأيديولوجى في بناء الوعى وللشاعر والتصورات وتركيبها جميعاً في البناء الطبقي .

بناء الوعى الطبقي :

يتألف « بناء الوعى الطبقي » ، من أنماط تصورية ، وأبعاد مهنية وحرفية ، حيث تقوم بنية الوعى الطبقي ، على أسس إقتصادية ، طبقاً لوحدة المهنة أو الحرفة و « نوع الحياة *mode de la vie* ، ونماذج أنماط الفكر والسلوك والتصورات الطبقيّة ، تلك التى تستند جميعها الى الوحدة العقلية *unité mentale* وتشابه الأفكار والنماذج التصورات .

وتستند بنية الوعى الطبقي ، الى شروط إجتماعية ؛ وأبعاد تاريخية ، ومحتويات ثقافية ، وإمكانات موضوعية . أما الشروط الاجتماعية الوعى ؛ فتستند إلى الأساس للوضعى الفكر ، على اعتبار أن لكل فكرة أو مذهب أو عقيدة أو اتجاه مصادر إجتماعية وأصول ثقافية . ونعزى الابداع التاريخي

(1) Gurwitsch, Georges, 'Twentieth Century Sociology', New York 1945, p. 281.

الوعي ، تلك التطورات المرحلية ، الوجدان الطبقي ، خلال ماضى الوعي ، أما الامكانيات الموضوعية ، فتتبدى على الظروف الوضعية الطبقة ومركزها ودورها في الهرم الطبقي ، ويلتقط الشعور الطبقي من بنية الطبقة ، كل ما فيها من تدفق وحركة ، وما تحويه من تنوع متطلع ومتدفع نحو المستقبل ، ولاشك أن الثقافة Culture هي بعد جوهري في بنية الوعي الطبقي ، لأن الثقافة والفكر والتصورات ، هي أنساق تصورية وضرورية تؤسس الوعي الطبقي ، فإذا كان الفكر هو وعى الوعي ، أو الوعي بذاته ، وإذا كانت الثقافة هي نوع من أنواع الوعي ، فالفكر هو وعى الثقافة ، والثقافة هي مضمون الفكر ، والفكر هو القالب الذى يلتف ما في الثقافة من معنويات وأخاطو أساليب السلوك والمقل الاجتماعي ، ولقد كنا نفقد مضمون الثقافة لو لم يكن لدينا الوعي ليحمه ، على حلى اعتبار أن الثقافة هي الفحوى ، والوعي هو الوعاء أو الإناء ، ولقد كنا نفقد الفحوى لو لم يكن لدينا الإناء لتألاه .

ويسجل الفكر والوعي كل ما يطرأ على الجماعة من تغيرات حضارية أو اجتماعية ، ومن ثم كان الفكر عند علماء الاجتماع الثقافي والصناعي والاقتصادي هو جهاز أو دترمومتر ، على درجة عالية من الفقة والحساسية ؛ لانه يمسك ما يدور في بنية الوعي الطبقي ، فقد تزل الطبقة بحكم القانون ، ولكن الوعي أو الوجدان الطبقي لا يزال باقياً ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد ثار زعماء فرنسا على طبقة النبالة Noblesse ، وأطاحت بامتيازاتها وألقاها وحرقها ، كما تنازل أصحاب الانقطاع والامتيازات عن حقوقهم ليلة ؛ أغسطس المشهورة ، إلا أنهم رغم ذلك كانوا يحتفظون اجتماعياً وسيكولوجياً ، بما كان لهم من قيمة اجتماعية ومركز مرموق ومكانة ممتازة ، فتمسكوا بألقابهم وعلاقاتهم السائدة وما يربطهم من قيم قائمة في الوجدان الطبقي ، رغم زوالها باسم القانون .

وعلى هذا الأساس ، تتميز الطبقات بوجود « الوعى الطبقي Class Consciousness » ، ذلك الذى يبرز معالمها ويضئ عليها وجودها ، بمعنى أن وعى الطبقة ، هو « روح الطبقة » ، ولقد أشار ماركس فى الثامن عشر من برومير Eighteenth Brumaire إلى كلمة مشهورة « لويس بوناپرت » ، فقال « من جموع الفلاحين الفرنسيين ، حين تولى سلطانه كرئيس لجمهورية فرنسا : « إنهم طبقة ينقصها الوعى الطبقي ، مما يؤكد ضعفها وسلبيتها فى ذلك العهد » .

ومن خلال ما يصدر عن الوعى الطبقي من تصورات مشتركة ، يتعامل أعضاء الطبقة الواحدة ويتحدون فى « ربط » أو « زمر » ، وكان السادة فى المجتمعات القديمة يتعاملون لاعتبارهم ، « سادة Masters » ، بل باعتبارهم « طبقة » ، وتنافع الطبقة من وجودها وأهدافها ومصالحها ، فيقع الصراع الأيديولوجي مع الطبقات الأخرى . ويحصى السادة مثلاً أنفسهم من ثورة المييد فيدافون دائماً عن طبقتهم ويقتنون لمصالحها القرائين ، وكذلك يحصى زواج أمريكا أنفسهم من طينيان البيض ، حيث يميز المجتمع الأمريكى ويفرق بين الأسود والأبيض باسم « العنصرية » ، ولاشك أن منه التفرقة وصمة عار فى جبين مبادئ « العدالة والحربة والديمقراطية » التى تتصدق بها الولايات المتحدة الأمريكية .

وما يميز الطبقة عن الزمرة الاجتماعية Social group ، هو درجة الاتساع والشمول ، فالطبقة طالية لا وطن لها ، ، مثل طبقة العامل التى تمتد فى دواء الأمم والدول ، حيث يدخلها العامل فى كل مكان . كما وتختلف الطبقة عن « الطائفة Caste » ، ويمكن النظر إلى « طوائف » الناس و « منازلهم » ، على أنها تشمل على أنواع من الطبقات . إلا أن « الطائفة » هى « طبقة مغلقة Closed class » ، ولا تطلق إلا على الطوائف الهندية بالذات التى تمنع دخول الأفراد أو الخروج منها .

وقد يكون الطبقة أيديولوجيتها الخاصة ، دون أن يتوافر لديها الوعي الطبقي ، فقد تنفق الأفكار والارادات والرغبات ، وقد تنشأ المشاعر والآمال مع فقدان عنصر الوعي الطبقي ، وهذا هو السبب الذي من أجله يقول ماركس في الثامن عشر من برومير ، « كما قلنا تقلا عن لويس بولابرت ، إن طبقة الفلاح الفرنسي إنما ينقصها الوعي الطبقي ، ولقد حدد ماركس أسباب فقدان الوعي الطبقي بين فلاحي فرنسا ، ومنها عدم توافر عنصر التنظيم organization ، بينهم ؛ ذلك العنصر الذي يؤكد مصالحهم الطبقية ، ويشجها ويوجهها ، ومنها أيضاً أنهم لا يتعاملون فيما بينهم كطبقة وحدة العالم ، نظراً لإندام توافر الأهداف المشتركة Common purpose ، سواء أكانت اجتماعية أم سياسية ؛ بمعنى أنهم ليسوا على علم تام ودراية حقيقية بوجودهم الطبقي ، ولا يحرصون على تأكيد هذا الوجود وتدعيم المصادر الحقيقية و الأساس الموضوعية ، التي تدعم مصالحهم الطبقية وتسدنها .

لوكانش والوعي الطبقي :

ومعنى ذلك ، أن إنكار ماركس لوجود الوعي الطبقي بين فلاحي فرنسا في عصره ، مبني على أنهم لم يكونوا على دراية بمصالحهم أو وجودهم الطبقي ، ولقد ذهب ماركس إلى ما هو أبعد من ذلك ، حين يشك في إمكان وجود الوعي الطبقي بين الفلاحين على العموم ، ، حين ينظر ماركس إلى طبقة البروليتاريا والبورجوازية ، على أنها الطبقتان الوحيدتان الحاصلتان على عنصر الوعي الطبقي ، ؛ ولقد اقترب لوكانش Lukacs ، من هذا الفهم الماركسي للوعي الطبقي في كتابه « التاريخ والوعي الطبقي History and class Consciousness » حيث أكد في هذا الكتاب ، على أن البروليتاريا ، إنما تتميز بكتابة أكثر وطاقة أغزر من الوعي الطبقي ، منها بالنسبة للبورجوازية .

وينتقد « الوعى الطبقي » من ثورة البروليتاريا خلال صراعاتها مع البرجوازية فتكتسب الكثير من التجربة وتحقق الأمان والآمال الجديدة، فتصبح بذلك حاصلة على « الوعى » من طريق الكفاح الثورى ، كما تصبح على دراية تامة وكاملة بمصالحها الطبقية ، ومن هنا يتطور « الوعى » خلال النضال ، حيث تتحول آمال الماضى وتقبل ، وتصبح الأمان الجديدة مختلفة عن أمانى الآباء والاجداد ، وبذلك يتعلم البروليتارى من تجربته الثورية ، وكفاحه المستمر ، أنه لن يحصل على أمانه ، ولن تحقق آماله إلا باحلال الاقتصاد الاشتراكي محل الممّشع الرأسمالى - وقد يكفح البروليتارى فى شراسة ، وبكل الوسائل باستخدام القوة ، أو بالصراع الدموى ، حتى يتم له تحقيق « الدولة » التى تدعم « الوجود البروليتارى » ، حين يحصل العمال والشعب على الحكم ويمحقون أمانهم وأهدافهم ، وهنا فقط « يتحقق الوعى » ، وتصبح طبقة العمل واعية بذاتها (١).

ولا شك أن نظرية « ماركس » عن « الوعى الطبقي » وخاصة ما يقصده بالوى البروليتارى ، قد تطورت عند « جورج لوكاش Georg Lukacs » ، حين أشار الأخير إلى تفوق واستملاء الوعى البروليتارى على كل أشكال الوعى الطبقي ، ويتفق لوكاش مع ماركس على أن الوعى الطبقي البرجوازى ، إنما هو صورة من صورة « الوعى الكاذب False consciousness » ، ولقد أنحلّ البرجوازيون للأسف فهم مصالحهم الطبقية التى يدعمها نظامهم البرجوازى ،

(١) يجب الاشتراك بكونه أجبرولوجية الثورة ، وأجبرولوجية الإصلاح ، الأولى بروليتارية ، والثانية رأسمالية ، حيث يؤكّد زعماء الإصلاح الديمقراطىة الشعبين والتضرر والاضتراف ، مكانة الفرد السياسية والاقتصادية ، وقد يستنعم الرأسماليون وسائل الاغراء من طريق التبادلات المعنوية التى تنادى بالقدم والتعليم للجنح ، بتجقيق معروحات الإصلاح الاجتماعى .

ولم يدركوا المقصود من وجوده، أو التناقضات Contradictions الكامنة فيه ،
ومن ثم لم يعملوا بالطبع على حلها ، وهم لا يدركون أن الأسئلة ، على حد
زعم الماركسيين « إنما تحمل بذور هدمها » ، حيث أنهم لن يستطيعوا رفع
التناقضات إلا برفض النظام نفسه وبرسته ، ولكنهم يتمسكون بوجودهم العلبقى
المؤقت ، الذي يبقى بقاء النظام البورجوازي ويستمر باستمراره .

الباب الثالث

الأيديولوجيا واتجاهات الرأي العام

- تمديد
- ماهي الأيديولوجيا ؟
- اتجاهات الرأي العام
- شغل الفراغ
- ثقافة ذوي الباقات البيضاء

المهيد :

إن التقدم علم الاجتماع السياسي، بالأيديولوجيا لم يكن منة بل الصدقة العمياء وإنما هو لقاء حتمي فرضته الظروف ، حيث أنا إذا ما سارنا الانتماءات إلى تلك الملامبات ، الوضعية والظرفية ، التي أحاطت بهذا اللقاء التاريخي الحاسم ، لوجدنا أن ميلاد علم الاجتماع نفسه في فرنسا ، قد ارتبط بالأيديولوجيات ارتباطاً عضوياً ، فهو ابن الثورة البروجوازية التي أطاحت بالانقطاع الأوربي . ومع كتابات « كوندريك Condillac » ، و « باسكال Pascal » ، ومجهودات جان جاك روسو Rousseau ، و « سان سيمون » ، و « أوجست كومت Comte » ، يمكننا القول بأن علم الاجتماع قد ذاع وانتشر ، منذ صدر أولاً كعلم أيديولوجي للوفد والبيئة والمناخ .

فلقد كان البناء الاجتماعي الفرنسي في القرون الوسطى ، مثلاً إلى حسد بعيد لكل ملامح البناء الاجتماعي في أيديولوجيته العامة التي سادت أوروبا . حيث كانت فرنسا هي مركز الانقطاع منذ عهد النهضة ، ثم قامت في ثورتها الكبرى بهدم قلاع الإقطاع الملكي والكهنسي ، وأقامت البرجوازية في لقاء كلاسيكي ، هل حد تعب « ماركس » في مقدمة كتابه « الثامن عشر من برومير لويس بوناپرت » (١) . وهناك سلسلة يسلّم بها الإنسان تسليماً دون مناقشة ، حين يؤكد المؤرخ الاجتماعي ، بأن كل عصر من العصور إنما يخضع لاسلوب خاص من الحياة ونمط معين من السلوك ، كما يتميز بسيادة بعض التيارات العقلية ووجود اتجاهات عقائدية أو فلسفية أو مذهبية . الأمر الذي يفسر لنا علة ما تشاهده في كل عصر من عصور التاريخ ، حين تظهر نماذج معينة من الفن والادب والفلسفة . كما

(1) Marx, Engels., Selected works. Vol : 1-, Fifth Impression-Moscow. 1962. p 245.

وتتطلب على تلك التنازع بعض السبل أو الخصائص الكلية الملحة التي تنتم بها ،
وتصدر عنها أنماطاً من السلوك والاندفاعيات motivations ، تلك التي جعلت
لدى الوجود بفضل صدور القيم Values واتجاهات الرأي العام التي تخلق سائر
« معايير الفكر » ، وتحدد إهتماماته وتعرض اتجاهاته ، وتلك هي الأيديولوجيا
بمعناها الواسع .

ويميزه النسق الأيديولوجي ، في المجتمع بالاستاتيكية والنظمية الثبات ، لأنه يتعلق
بالفكر والتصورات ، ومن الصعب تغييره لتحكمه وسيطرته على معتقدات الناس
واتجاهات الرأي العام ، ولذلك كان النسق الأيديولوجي هو آخر ما يتغير في
« أنساق البناء الاجتماعي » . كله . على الرغم من تغير أنساق أخرى لاتتحكم في طبائع
البشر ، وهذا هو السبب الذي من أجله تسرع الانساق التكنولوجية في التغير
في المجتمعات البدائية والبدوية والقروية ، نظراً لسهولة تطبيقها بالمادة ولسهولة
التحكم فيها وضبطها والانتفاع منها . أما الأيديولوجيات فلا تتحكم في المادة ،
ولمّا « تتحكم فيها » ، لأنها تخضع فيها وراء سلوكنا ، كحلل أو كدافع .
فالأيديولوجيا هي « ما يحرك اتجاهات » ، وهي ما يرسخ في أذهان الناس من فلسفات
ومذاهب ومعتقدات تلك تخلق بين الناس تياراً شعورياً واحداً . بمعنى أن
الأيديولوجيات على العموم هي موجّهات السلوك التي تدفع الناس دفعا ، فهي كل
ما يوجه الرأي العام ويؤثر على أفعال الناس ومداركهم وأذواقهم .

وتدور الأيديولوجيات حول « أفكار » ، أو « موضوعات » لها جاذبيتها الخاصة ،
وتتم بالقبول الاجتماعي ، كما ترتبط في الوقت نفسه بمذاهب الناس ومشاربهم .
مثل التصورات والأحكام العامة والقيم الاجتماعية الشائعة ، تلك التي تسيطر على
أنماط السلوك الثقافي والتقليدي طبقاً لأنساق القيم والثقافة والدين ، ووفقاً لما
يسود في بيئة المجتمع من المعتقدات والمعتقدات والفنون والآداب . ولما كانت

الأيديولوجيا تحمل بالفكر وترتبط بالاعتقاد الذي قد يصل إلى حد الإيمان، فلتد سيطرت الأيديولوجيا على خيال الناس وتصوراتهم الروحية، كما كان لها صفة «القسر» و«التبر» و«الضبط» لما فرحت من «قوى فكرية» مارست الضبط والجزاء فخلقت «أنماطاً من التقليد والتبعية»، فأكان على الناس «سوى الولاء والطاعة».

فن الواضح لكل ذي عينين، أن يكون ما يحدث الآن في طهران، وما يجري بين ربيع قرى إيران، هو تجربة جماعية أو عقائدية، «استعلت حكومة علمانية، كي تنادي بحكومة شيوعية». فما يحرك «التجربة الإيرانية» الآن هو «حرك أيديولوجي شيوعي». وقد يهتم عالم الاجتماع السياسي برصد ما يدور حول «التجربة الشيوعية الإيرانية» من ظواهر وما يوجهها من حركات ومعتقدات، وقد يشغل عالم الاجتماع الديني، بمعرفة «دور القيم» و«الحركات الدينية» في «التغير الاجتماعي». حيث يعتبر الدين من أهم العوامل الأيديولوجية والثورية التي أحدثت طوال العصور تغيرات جذرية واسعة.

والكتاب الذي بأيدينا الآن، يعالج موضوعاً شائكاً وصعباً، حين يناقش قضية «علم الاجتماع والأيديولوجيات». حيث أهل علم الاجتماع بدلوه في عالم «الفن والادب» وسام، وسام، وسام بسم وأفر في دنيا الأساطير والمعتقدات وما قد يكون فيها من سحر أو خرافة، كما كانت له صولاته في «سوسيولوجية القيم» وجولاته بين مختلف «الفلسفات» و«الذاهب» و«الحركات العقائدية».

ولقد كتب «روبرت جراهام» مراسل «الفاينانشيال تايمز» ما شاهده من أحداث إيران ونظام السلطة وبداية «ثورة آية الله الخميني» على الرغم من الانتماءات الاقتصادية، وتحقيق «فترة العسكرية الطهران والبحرية للآيرانية» فكان حنف القيادة الرسمية التي تبرهن فلسفة «الشاه» هي «فترة المادية وسيادة أسرة «مرومي»».

قالا هو وسيلة لا تعاش، الاستقرار والتقدم، وبفضله يمكن أن يعيد لإيران أجداد وكسرى، وحضارة فارس.

ومن أجل تأكيد الأجداد الكسروية والحضارة الفارسية التي مزجها بتكنولوجيا إيران الحديثة، أقام شاه إيران مأدبة كبرى، يبعد فيها عظمة الماضي وتراث إيران القديم، فاستضاف الملوك والرؤساء والأمراء، وأنفق الكثير في بذخ غير مألوف بين ملوك القرن العشرين، فأحضر لهم الطواويس المحشوة فوق عادية تاريخية كبرى، ثم ظهرت «الثورة المضادة»، حين طغت المعروفات على مسار حركة التنمية في مجتمع إيران الذي يغلب عليه «الطابع الرقيق التقليدي»، كما لم توفر الدولة المستوى المقبول لساتر المحاضرات الإيرانية والمند التي هاجر إليها أهل القرى.

ولقد بدأت عمليات التخطيط والتنمية على نحو تطوري وعادف، منذ عام ١٩٥١ بمصادق، عام ١٩٥١ بتأميم صناعة النفط وتسويق البترول الخام وتشغيل حقول النفط وتكريره. وكان مصدق برلمانياً قبل أن يكون رئيساً للوزراء في إيران، وقام بتطهير إيران من السيادة الأجنبية، وقاد حملة قوية في البرلمان ضد الشركة الانجليزية الإيرانية، إلى أن أمها، ومنح امتيازاتها إلى شركات أخرى جديدة.

ولقد كانت قضية مصدق هي قضية مبدأ، ولم تكن قضية خلاف شخصي بينه وبين الشاه، ولم يكن الشاه يمثل في نظر مصدق المصالح الأجنبية، وإنما كانت القضية تصل بالمصالح الحيوية العليا لإيران وشعب إيران، وفي ذلك المصالح والحفاظ على سيادتها، وممارسة تلك السيادة.

ولقد اكتسب التأميم الذي قام به مصدق طابعاً قومياً، جعله موضعاً حاداً لاعتداء الأجنبي لتحقيق الاستقلال الاقتصادي لإيران، ووضع حد لاعتداء الأجنبي في استقلال أراضيها واستقلال ثروتها، وشاه محمد وحاجاه كم يستهتر تلقى تعليمات

الخارج ؛ وفتحت أمامه الآفاق ؛ وكان موضع إعجاب الجميع ، لأعجابه المتقطع
بالتفاهة والتكنولوجيا ، مع التثبت بالتحديث Modernization والأنظمة
الغريبة ، وإتقانه بالتقاليد والتمسك أوالثبث بالقيم ، وسفقت حكومة مصدق
بعد إقلاب ناجح عاد فيه الشاه إلى الحكم .

ومن الأخطاء الأساسية التي يقال إن حكومة الشاه قد وقعت فيها « أسلوب
الحياكل الحاوية » في نظام الحكم ؛ بحيث يكون الظاهر ديمقراطياً عالمياً ، والباطن
ديكتاتورياً بحتاً . فهناك مناصب وأدوار بيروقراطية تشغلها « الحكومة »
و « الوزراء » وكلها مناصب وهياكل حاوية في ظاهرها ، أما باطنها فربل من
رجل البلاط الامبراطوري ينفذ التعليمات للطلوية . فيوزع الشاه وجهه بين سائر
القنوات الإدارية ؛ ومن أم أخطاء أبيه القليلة كما يقول الشاه نفسه : إن أباه اهتم
على دائرة صغيرة من المستشارين الذين كانوا يهابون الشاه الاب « رضا جلوي » فكانوا
يشملقونه بدلا من أن يقولوا له الحقيقة ، أما الشاه الآن « محمد رضا » فقد حاول
أن يدهم في دولة إيران ميزان العدالة الذي يحقق المصلحة العامة .

ولقد نعلم الشاه الكثير منذ إقلاب مصدق ؛ لجل مناصب رئيس الوزراء .
هو مجرد منصب إداري بحت ، وجرّد الشاه رئيس الوزراء من كل سلطاته ، لحكم أمير
عباس مويبا منذ عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٧ . ونظراً لضغوط البوجوفازية
الايرائية ؛ أعطى الشاه حكمه نوحاً من الليبرالية ؛ وكان الناتج هو تغيير شخص
رئيس الوزراء ، الذي حركة الشاه ، ونحاه عن منصبه ؛ ثم وضعه على قمة تنظيم
نيناخي ليكني برأس الحزب الذي يكونه الشاه . استناداً إلى الإيمان بالمستورذ
والمملكية والثورة البيضاء . ولقد شيد الحزب على أساس تعاون ثلاثة هي تعيين
للناتخات ، وتوطيد الادلة وتكوين الجوليس الشعبي ، ومنظمات « شبكات » التي ترافق
الاسمار ؛ كما تكونت مجموعات « الولاء » بين الطلبة والمهال لتنظيم المظاهرات الاحتفائية

التجمعات الدينية والسياسية، المناوئة لحكم الشاه، ومنها التنظيم الشيوعي الموالي لآية الله الخميني .

ومن الأخطاء الثقيلة التي انزلت اليها حكم الشاه ، هي القضاء المسبب على الاستقلال المروء لثلاثة السلطة القضائية ، فقد تمكن الشاه من استيعاب القضاء داخل السلطة التنفيذية ، وأصبحت إرادة القضاء هي إرادة الحكومة ، وهذا خطأ سياسي بالغ يضر بالصالح العام ، وبنزاهة الحكم لأنه يمس كل ويحطم مبدأ واستقلال القضاء ، وهو أعلى جهاز تنتمي في الدولة ، يعبر عن ميزان الثقة وليس غريباً أن يكون جهاز العدالة هو جهاز القضاء وهو حكم القانون .

وفي مجلس البلاط ، جعل الشاه من رئيس المجلس على قدم المساواة مع رئيس مجلس الوزراء ، وفي أغلب الأحيان يكون رئيس مجلس البلاط من قدامى رؤساء الوزراء السابقين .

ولقد أخذ على نظام الشاه ، موافقه غير الدستورية حين يقيم أو يصدر جهاز المفتش الامبراطوري ، وهو جهاز بوليسي رهيب يستخدمه الشاه ضد كل أعدائه ، وله سلطة التحري والتحقيق ، وحين التفتيش دون سابق اعلان . وأجهزة الامن هي حيرن الشاه وقبضته ، فلولا ذلك لاستصل كل من لا يدين له بالولاء والتبعية ، ويمثل «إسكاف» رأس الرمح في أجهزة الامن التي ترافق كل سلمي وانهادي ، ويقوم جهاز الاسكاف بالقبض والتحري والسجن ، كما يقوم بدور المخابرات ويبدو البوليس السياسي ، ولا شك أن انسحاب القوات البريطانية من الخليج العربي في ديسمبر من عام ١٩٧١ ، كان له أثره على تحرك الشاه ، لأنه كان يمثل النجوة والصلف . الى الامم المتحدة التي فيها احتلت قوات إيرانية خاضعة ثلاث جزر بالقرب من مضيق هرمز ، وهي جزر أبو موسى و بعض جزر أخرى تابعة للسلطنة . وراس الخيمة . .

ولقد بنى الشاه احتلاله لجزر الخليج استناداً الى ادعاء تاريخي، لاسنده من التاريخ؛ واستاداً الى الحاجة الاستراتيجية؛ والى الاستقرار الاقليمي، وتلك هي نفس المبررات التي بررت بها السلطات السوفيتية غزو تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، كما بررت أمريكا في عهد كيني صلكها، حين فرضت الحصار على كوبا في بداية الستينات .

ولقد تصور الشاه بعد خروج القوات البريطانية من الخليج، أنه أصبح الشرطي الجديد للمنطقة ولقد ساندته الولايات المتحدة الامريكية في ذلك من البداية؛ بل وشجعت على القيام بهذا الدور لتحقيق أهداف السياسة الامريكية لوقف التيار وارحف أمام التوسع السوفيتي، فأنشأت انولايات المتحدة الامريكية القاعدة الجوية والبحرية على بعد مائة كيلو متر من حدود باكستان، وكل هذه أسباب ظاهرة وقوية لمبوب رياح الصراع الشديدة التي تصاحب الانواء الدينية في جو ايران المشبع بالاضطراب الديني والسياسي.

الفصل السّاوي

... ماهي الأيديولوجيا؟

- تحديد
- موقف علم الاجتماع من الأيديولوجيا
- كيف صوّرت كلفة الأيديولوجيا؟
- المفهوم الماركسي للأيديولوجيا
- الأيديولوجيا ووظيفة التصنيع في المجتمعات
- الباقية

تمهيد :

ليس من السهل أن نتعالج مسألة شائكة وعصية كسألة الايديولوجيا
 Ideology ، وبخاصة طبيعتها ومصادرها ، ما هي ؟ وكيف تكون (١) ؟

وينبغي حين تتبع مصادر الايديولوجيا وأصولها أن نخلق ببداً في سموات
 الفكر الفرنسي ، وخاصة في مقدمات « كوندياك Condillac » ، ونظرات
 « باسكال Pascal » ، وشطحات « جان جاك روسو Rousseau » ، المتفائلة .

كما وينبغي أيضاً ، أن نشاهد وأن نتابع ونسجل كيف هاجرت تلك المقدمات
 الفرنسية الى ألمانيا ، حيث فضجت وأثمرت في باطن الفلسفة الالمانية ، فتمخض
 العقل الالمانى المحصب عن صدور فلسفات « كانت Kant » ، و « هيجل Hegel » ،
 تلك التي تابستها دراسات « ماركس Marx » ، و « كارل مانهام Mannheim » .

والايدولوجيا كقولة اجتماعية ، هي محاولة ربط الفكر بالواقع ووصل
 العقل بالحياة ، ودمج المنطق بالوجود الاجتماعى ، لتوصل الى ما يسميه عالم
 الاجتماع الفرنسى المعاصر « أندريه لاموش André Lamouche » (٢)

(١) لم ترد الإشارة الى هذا البحث العلمى ، أو حتى نهرأى جزء منه قبل عام
 ١٩٧٦ ، حيث وردت مادة هذا البحث العلمى الجديد ، تحت عنوان « دين السوبولوجيا
 والايديولوجيا » فى كتابنا « قضايا علم الاجتماع المعاصر » الذى صدر عام ١٩٧٦
 من منشأة المعارف . وذلك ابتداء من ص ٤٠٦ حتى ص ٤٨١ . ومن تلك الصفحات ،
 حاولت اقتباس هذا البحث وقد لزم للتوفيق .

(٢) انظر فى هذا الصدد :

Lamouche, André, Sociologie de la Raison, Dumod, Paris.
 1964.

Gurvitch, Georges., Les Cadres Sociaux de la ...

« Sociologie de la Raison العقل بوسولوجية »

وقد ظهر هذا المصطلح الاجتماعي في الوقت الذي رفع فيه الفلاسفة من قيمة الشروط أو « الظروف الاجتماعية Social conditions » ، فلم يتم الباحثون يربط الفكر بالتاريخ ، ودمج الماضي بالحاضر ، ووصل المقدمات السابقة بالواقع الراهن . فن المؤكد أن « المرافف الاجتماعية » هي التي تخلق الفكر ، وأن التاريخ هو الذي يصنع المقولات Categories ، تلك التي تصدر عن ظروف التجربة السياسية ، وتنتجلى على أرضية الوجود الاجتماعي (١).

وعلى نحو مسبق ، يسلم المؤرخ الاجتماعي ، الفكر بأن كل عصر من عصور التاريخ ، إنما ينضج لأسلوب خاص من آداب السلوك ، أو لسيادة نمط معين من الفكر ، يتميز بوجود بعض التيارات أو الاتجاهات العقلية ؛ الامر الذي يفسر لنا عما نشاهده في كل عصور التاريخ ، حين تظهر نماذج معينة من الفن والادب والفلسفة ، وتطلب على تلك النماذج بعض السمات أو الخصائص الكلية العامة التي تخلق « معايير الفكر » ، وتحدد اتجاهاته وتلك هي « الايديولوجيا » ، بمعناها الواسع .

واستناداً الى هذا الفهم ، لا يكتب الناس أفكارهم ، أو يشيرون أنظاتهم الا بقول مستمدة من طبيعة البناء الاجتماعي من عالم التصورات الخيالية . وهذا هو السبب الذي من أجله تختلف الافكار والتصورات من مجتمع الى آخر

= Connaissance, Press univers, de France. 1966.

Gurvitch, Georgen.; Dialectique Et Sociologie, Flammarion Paris. 1962.

(1) Mannheim- Karl, Ideology and Utopia, Kegan Paul, London. 1940. p. 240.

كما تتغير أنماط التفكير وتبدل ، خلال ديمومة الزمان كما نفسال ونستدق حين نجرى ونستحق في « حركة التاريخ » .

وهناك اختلاف في وجهات النظر حول مفهوم الايديولوجيا بين الفلاسفة علماء الاجتماع ، حين ينظر الفلاسفة الى الايديولوجيا ، على أنها مجموع التصورات والأحكام العامة التي تسود مجتمعاً من المجتمعات في أى عصر من العصور . وقد يستخدم هذا الإصطلاح في معان أخرى أكثر تحديداً أو ضيقاً كي يشير فقط الى بعض النماذج أو « الأشكال من الأفكار والمعتقدات » ، تلك التي تعلق فقط بجماعة أو « زمرة اجتماعية Social group » ، وتلك هي الايديولوجيا بمعناها الضيق .

موقف علم الاجتماع من الايديولوجيا :

أما علماء الاجتماع فينظرون الى الايديولوجيات على أنها « وقائع Facts » ، ينبغي دراسة ماضيها ونشأتها وتطورها ، ثم محاولة تفهيم القوانين التي تحكم في مسارها . على اعتبار أن الايديولوجيات هي ظواهر عاضمة للشروط الاجتماعية بمعنى أنها « مشروطة اجتماعياً Socially Conditioned » . وبالإضافة الى ذلك فإن تلك « الايديولوجيات ideologies » إنما تتباين وتتصارع ؛ حين تتداخل في البناءات والتنظييات فتؤدي الى الصراع بين الأفكار Conflict of ideas ، حين نعتبر الأفكار كأسلحة ideas as weapons ^(١) وتنظر اليها من خلال التحامها الايديولوجي ، إلا أنها تقوم في نفس الوقت ببعض « الوظائف الاجتماعية Social Functions » ^(٢) .

(1) Corbett, Patrick, « Ideologies », Hutchinson, 1965, p. 61-72.

(2) Mannheim, Karl, Essays on Sociology of Knowledge,==

ولسوف نحاول أن نقدم مرصاً لمجموع المفاهيم المتعارضة ، التي تزخر بها النظرية الاجتماعية ، حيث أصبح للايديولوجيا مسان فلسفة متقدمة نجدتها قد اختلطت وامتزجت ، بمفاهيم اقتصادية ومصادر سيكولوجية ، (١) . إلا أن المحور الأساسي إنما يدور أصلاً حول المفهوم الماركسي للايديولوجيا ، على اعتبار أن «ماركس» هو أول من وضع هذا المصطلح واستخدمه في علم الاجتماع ولسوف لاقتصصر على المفهوم الماركسي فحسب ، بقدر ما سنحاول في نفس الوقت أن نقوم بقصد المقارنات بين سائر المفاهيم الايديولوجية المتصارعة والآراء المتشابهة حيث اختلف حولها سائر الفكرين ، ونجمل من ذلك الكثير من المشكلات الحقة والإجهادات المتعارضة.

وإذا كانت المذاهب قد اضطرت على مسرح الفكر الإيجابي والسياسي حول مسألة الايديولوجيا وما تثيره من مشكلات وقضايا إلا أننا سنحاول التيسير والتبسيط ، ولسوف لا نقصد المسألة بقدر ما نشرح ونعالج طبيعة الايديولوجيا ، فحواها ومعزاهما ؛ دون الإشارة الى ما دار حولها من الاختلافات المنهجية ، إلا ما يلحق فقط ضوءاً أوفى وأدق ، على جوهر المسألة الايديولوجية ، ، فزداد لنا وضوحاً وتميزاً .

وتسهم دراسة الايديولوجيا في ميدان علم الاجتماع السياسي ، مساهمة جادة وسنحاول منذ البداية التركيز على مختلف الاحتمالات الخاصة لكلمة «الايديولوجيا» ، كي نكشف عن كيفية اختلاف كل استعمال منها عن الآخر ، بقصد ازالة الغموض الذي قد يحيط بالكلمة . ولا يفوتنا الإشارة الى معنى تأخير

= trans. by Paul Keeskametti, London. 1952.

(1) Corbett, Patrick., Ideologies, Hatchinson. 1965

p. 23.

الفلسفة الألمانية في بحث المصطلح ، حين شيد ، كانت Kant ، نظريته في المعرفة تلك التي أنكرها وعدها ثم أعاد بنائها المبقري الكانطي النجيب ، فردريك هيجل Hegel ، كما لا يفوتنا أيضاً مناقشة وجهة النظر السوسيولوجية - حين يؤكد علماء الاجتماع على الشروط الضرورية للفكر ، على اعتبار أن كل فكرة هي بالضرورة ، مشروطة أو محددة إجتماعياً Socially Determined ، وبالإضافة إلى ذلك ينبغي التركيز على تلك الفرضية القائلة ، بأن الأيديولوجيا إنما تتألف من مجموع المعتقدات التي يكون لها دورها ووظائفها في التأثير على السلوك وتبرير أشكال النزوع البشري . وينبغي التركيز أيضا على التصورية الماركسية الخاصة بتحديد ، أيديولوجية الطبقة Class ideology ، وما يجترها من « تصورات ومشاعر وآمال وخاوف ، تردد في حركة وقاطبة وخسوبة ، داخل إطار الوعي الطبقي . وينبغي في النهاية ألا يفوتنا أن نقارن بين مختلف الاستعمالات السياسية للكلمة .

كيف صدرت كلمة الأيديولوجيا ؟

١ — إذا كان الفكر الألماني يمتاز بالصورية والصرامة والتجريد ، فإن الفكر الفرنسي يتصف بالخصوبة والحيوية والسخاء ، وبين ألمانيا وفرنسا حارت كلمة « الأيديولوجيا » ، لجمعت بين الصورية والخصوبة . وفرنسا هي مهد الكلمة ، فصدرت « الأيديولوجيا » ، كنتاج لفلسفة « كوندياك Condillac » ، تماما كما صدرت كلمة « سوسيولوجيا Sociologie » ، كنتاج لفلسفة كونت الوطمية .

وإذا كان القرن السابع عشر هو « عصر العقل age of Reason » ، فقد مرت أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر بعصر « الأيديولوجيات age of ideologies » ، حين تدفقت النظريات المتشابهة لتدرس « طبيعة الإنسان » وموقفه من المجتمع ، كما شهدت تلك القرون الأخيرة ، ثورات سياسية عارمة

أطاحت بنظم إقتصادية، وتهدمت قلاع الصور الوسطى ، فتخدر البناء الاوربي وحل المجتمع الصناعي بازدياد البوردجوازية واندثار الاقطاع (١) .
وكانت الايديولوجية البوردجوازية الناشئة هي أيديولوجية ثورية ووطنية ، تدعو إلى المساواة المطلقة . والاعتراف بحقوق الانسان ، كما كانت أيديولوجية العصر في تلك الفترة هي ذلك الاطار الفكري المنسق الذي يدور حول حياة الانسان وبمجتمعه وحضارته .

ومن ناحية الاصل التاريخي والقوى ، نحن كلمة أيديولوجيا ، علم دراسة الافكار ، ، إلا أنها كانت تستخدم في البداية للدلالة على كل فلسفة من الفلسفات المضادة للبينافيزيا ، ، التي كانت تفسر صدور الافكار باشتقاقها عن الاحساسات Sensations .

و كوندرايك ، هو أشهر فيلسوف فرنسي يعبر عن الاتجاه الحسي أصدق تعبير ، إذ أنه تربى في أحضان الفكر الانجليزي التجريبي ، حيث أكدت المدرسة الانجليزية ذلك المبدأ التجريبي القديم القائل « لا شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس » Nihil est in intellectu quod non ante Fuerit in sensu . (٢)

لقد أصبح الايديولوجيون بهذا المعنى ، هم هؤلاء الفلاسفة الذين أكدوا « الأساس الحسي أو للمادى للتصورات والافكار ، ولكن عبارة iréologue لم تصدر على وجه الدقة عن كوندرايك ، نفسه . بقدر ما طبقت وذاعت وشاعت

(1) Marx, Karl. The Poverty of Philosophy, Moscow, 1966.

(2) Durkheim, Emile, Les Formes Élémentaires de la vie Religieuse, F. Alcan. Paris. 1912. p. 103.

هند اتباعه ، حيث صدرت وأنتشرت من بعده .

تلك هي البدايات الأولى للكلية وقد انحصرت فقط في محيط الفلاسفة ، إلا أنه يحكى أن « نابليون Napoleon » ، قد أطلق على المعارضين لحكمه ، وعلى الفلاسفة « السليين » الذين ترددوا لإزاء فتوحاته وغزواته ، ولم ينجسوا إنجازاته العسكرية ، فوصفهم « بالأيديولوجيين » أى « اللاواقعيين » الذين يعيشون في أبراج من عاج ، وقصور من الفراغ « حيث الأوهام للكلية » ، والتأملات الجوفاء .

وما يتينا من كل ذلك ؛ هو أن كلمة « أيديولوجيا » من الكلمات القريبة للمصدر ، التي استقرت في مهدها فرنسا بضع عشرات من السنين قبل أن تكتسب الجنسية الألمانية بجهرتها وانتقالها إلى كتابات « كانط Kant » ، و « هيجل » ، وفي ألمانيا طرأ على معناها الكثير من التغير ، بحيث استخدمت كي تشير إلى عدد متكامل متسق من الأفكار والمعتقدات ، أو مجموع السمات والانجازات السائدة في « جماعة أو طبقة » .

وفي الفلسفة الألمانية ، قد تطلق كلمة الأيديولوجيا على ما يدعى « ماتاييم » ، *weltanschauung* أو « الإدراك الكوني » ، الذي يطلق بالنظرة العالمية *world-view* (١) . وهي نظرة كلية نستطيع بمقتضاها وفي ضوئها أن نتعرف على « أنماط التفكير السائدة في الواقع الاجتماعي » ، وتلك هي النظرة الأيديولوجية العامة ، وتميل الأيديولوجيات المحافظة يورجوازية كانت لم اقتطاعية ، إلى الدفاع عن بقائه الظروف الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية الرامنة ، ولذلك فقد توحى هذه الأيديولوجيات إلى تعميم الموقف أو إلى تنويه الحقائق

.. (1) Mannheim: Karl, *Essays on: Sociology of Knowledge* Routledge & Kegan Paul, London, 1952. pp. 13-14.

عن مدح حق تلائم مصالحها ، وهذا هو المعنى الذى استعمله « كارل مانهايم » فى تعريفه للايديولوجيات على أنها تشويه أو « إخفاء متعمد ، لحقيقة المواقف الاجتماعية .

وتقسم الايديولوجيات الى قسمين : أيديولوجيا جزئية ، وأيديولوجيا كلية *Total ideology* . أما الأولى فتقتصر على الجوانب السيكولوجية البهتة حين تركز على تصورات أو مواقف تثير الشكوك من ناحية المصوم أو أصحاب التصورية المضادة ، ويبدو أن أغلب الايديولوجيات فى صراع نظرا لما قد تحويه من تناقضات ، وما قد يثور بين من الأفكار من تعارض أو عناد أو تضاد ، إذ تصل جميعا بأجزاء محددة ومتعارضة من الواقع الفكرى ، ومن ثم تستخدم الكلمة للإشارة إلى قطاع خاص من الفكر ، وليس للفكر كله أو الواقع التصورى برمه ، بمعنى أن الايديولوجيا تكون « جزئية » أو « ناقصة » حين تقتصر على مجموع الأفكار والاتجاهات الخاصة بجزء من الواقع الاجتماعى الكلى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، حين يحدثنا الماركسيون عن « أيديولوجية الطبقة *Class-ideology* » ، فهم يقصدون بالطبع التركيز على أجزاء محددة أو دوائر خاصة من واقع الفكر الجمعى ، حيث أن أيديولوجية الطبقة ، لا تستطيع أن تشمل كل الأفكار التى تدور فى دؤوس كل أفراد المجتمع (١) .

أما القسم الثانى من الايديولوجيات فيتمثل بالجوانب الكلية التى تتسع فى مداها لتشمل « مجموع التصورات والنيات السائدة فى أى عصر من عصور التاريخ » ، فإذا كان المفهوم الجزئى للايديولوجيا يستند إلى أصول سيكولوجية ويعتمد على مصادر نفعية ، فإن الايديولوجيا الكلية إنما تقوم على أسس

(1) Merton, Robert, *Sociology of Knowledge*, artic. The Twentieth Century Sociology, New York. 1945, p. 374.

منطقية وعقلية ، استناداً إلى ما يميز اتجاهات التفكير الكلي السائدة في «روح العصر» ، أو «وحى الطبقة» (١) .

ومع البدايات الأولية للزعة النفعية Utilitarianism صدر المفهوم الجزئى للايديولوجيا ، حين إرتبطت تباشير الايديولوجيات منذ البداية عند ما كيا فلي ، و « ديفيد هيوم David Hume » ، واختلطت بالاتجاهات النفعية في علم النفس الأمر الذى فرض عليها أن يُلَبِّقَ مبادئ السيكولوجيا النفعية أو الانانية ، في مبادئ السياسة والإقتصاد ، ومن هنا اتصلت الايديولوجيا الجزئية إتصالاً وثيقاً « بسيكولوجيا المنافع » .

المفهوم الماركسى للايديولوجيا :

ب — وإذا كان هذا المفهوم الجزئى للايديولوجيا قد صدر مع ظهور الزواد الأول للزعة النفعية ، فإن المفهوم الكلى للنظرة الايديولوجية العامة قد واکب تقدم التكنولوجيا . وظهور الطبقة البورجوازية القوية ، الأمر الذى فرض على البروليتاريا ضرورة التسلح بأيديولوجية معضادة للظلم البورجوازي . وبذلك تطورت التصورية النفعية ذات الأساس السيكولوجى الفردى ، كى تظهر التصورية الجمية ذات الأساس المادى أو الإقتصادى .

و للايديولوجيا الطبقات ، مصادرها التاريخية ، وأصولها الاقتصادية والاجتماعية ، فهناك نظرة ايديولوجية مشتركة بين أفراد الطبقة ، حين تجمعهم مشاعر واحدة في الوجدان الطبقي . ولقد أكد ماركس على وجود صراعات طبقية في باطن الماضى التاريخى ، وكلما توغلنا في هذا الماضى ، واتجهنا بحركة

— (1) Mannheim, Karl, *Ideology and Utopia*, Fourth Edition, Trans. by Louis Wirth and Edward Shils, London 1948. P. 49-50.

تقدم إلى الوراثة لوجودنا سائر الصراعات القديمة وقد نشبت بين أمراء الانقطاع وهيد الأرض ، وصدرت بين « فرسان روما وعامة الشعب » ، كما ظهرت أيضاً بين التجار ورؤساء الحرف artisans .

ويؤكد التاريخ الاجتماعى لطبقات فرنسا على قيام « علاقات أو صلات أيديولوجية » ، قد نشأت بين طبقة رؤساء الحرف ، وتلاميذهم وصبيانهم . وكانت هذه الصلات ملقها الاحترام إلى حد الرمية والتقدسة . ولقد اطلق ماركس على هذه الرابطة اسم « النشاء الأيديولوجى *vetement idéologique* » كرابطة روحية مبمشا الخضوع والطاعة من ناحية التلاميذ الضنية أو الذين يتلقون أسرار الحرفة على أيدي الرؤساء .

ولقد تغيرت هذه النظرة الروحية ، حين تطورت البورجوازية وظهرت الصناعة الكبيرة بدخول أعداد هائلة من العمال كبراد أول الصراع الأيديولوجى بين مصالح البورجوازية القوية والبروليتاريا الصاعدة (١) . ولذلك حاول الماركسيون أن يؤكدوا أن هذا « النشاء الأيديولوجى » الذى تمزق قد كانت له أصوله الطبقية ، فراحوا يفسرون « الصراع الطبقي » ، وصدور « الوعي » أو « الفكر البروليتارى » ، بالرجوع إلى أصوله المادية الكامنة فى « علاقات الانتاج » و « حجة الماركسيين فى ذلك » ، أنه فى كل المجتمعات يستخدم البورجوازي والبروليتارى نفس التصورات ونفس اللغة ؛ وهذا هو نمط التفكير السائد فى كل الصور ، حتى فى أشد المجتمعات أنحداً بالاتجاه الرأسمالى . ولذلك وجدنا للبورجوازية سماتها الطبقية التى لا تضحى الا فى اطار فلسفة أو أيديولوجية عامة لهذه الطبقة .

(١) مسطور محمد ثابت القيسى « الطبقات الاجتماعية » دار الفكر العربى ،

وحين نسمع ماركسيا يتحدثنا عن طبيعة «الأيديولوجيا البورجوازية» *Bourgeois ideology* ، فالتا نعرف فوراً ما يقصد من الفكر أو من بعينه من الناس ، وما هو مدار تفكيرهم ومستواه . وقد يسلك البورجوازي «الفرد» مسلماً بتأثير كلية من مسلكه كعضو في «طبقة» ، ولكنه يمارس نشاطاً اقتصادياً أو جمعياً معيناً .

حيث أن البورجوازي الفرد ، هو في الواقع انسان أو «فرد هادي» لا يختلف إطلاقاً عن الإنسان البروليتاري الفرد ، وخاصة حين يتجرد كل منهما عن صورة الطبقة ؛ ويتخل عن إطار الأيديولوجية ، فيصبح كأنه إنسانياً عادياً متحرراً من «قيود الطبقة» أو تصوراتها الجماعية .

ورغم هذا التشابه الواضح في «فردانية» و«انسانية» كل من البورجوازي والبروليتاري ، بالنظر إلى كل منهما ككأب ، أو «كزوج» أو كواطن ، إلا أنهما يتمايزان من جهة أخرى ، من حيث أن البورجوازي إنما يتخذ موقفاً خاصاً في عملية الانتاج *Process of Production* . الأمر الذي يخلق أيديولوجية تمايز عن أيديولوجيا البروليتاريا *Proletarian ideology* . تلك التي تصمد في ضوء ذلك التباين الواضح الذي يمكن تمييزه وتحديد به بسهولة ، حين نميز بين العامل «المنتج» أو الإنسان الكادح من جهة ؛ وبين «صاحب العمل» أو البورجوازي الذي يملك مشروعات الانتاج وأدواته ، من جهة أخرى .

بمعنى أن «النشاط الانتاجي» هو العنصر الجوهرى الذى يميز أيديولوجية البورجوازي عن فكر البروليتاريا ووعياها ، ولأنك أن النشاطات الانتاجية *Productive activities* ، هي نشاطات جمعية *Collective* ، بالإضافة إلى أنها «عامة» *Common* .

فالنشاط الانتاجي عند البورجوازي ، هو نشاط إيجابي ؛ ولا يخص فرداً

بالذات . ومن ثم : كانت الأفكار والتصورات الصادرة عن أى نشاط انتاجى جمعى ، هى بالضرورة أفكار وتصورات جماعية . حيث تتولد عن مناشط الانتاج الجمعى مجموعات من الأفكار التى تصدر عن طبيعة النشاط نفسه ، ثم تنتقل هذه الأفكار ، عن طريق « العدوى Contagion » ، بين أفراد الكتلة البشرية المنتجة ، كى تشيع فى بنية الوعي الطبقي وتصبح عامة .

ولا يمكن أن نحدد طبيعة أى نشاط جمعى ؛ إلا فى إطار الأفكار الصادرة من الكتلة البشرية ، صاحبة هذا النشاط . وكما أن الطيور على أشكالها تقع ؛ يتجمع الناس ويتوافدون البشر ، حول اشترائهم فى أعمال خاصة والتفافهم حول أفكار معينة (١) . فالفكرة ولادة الاحتكاك الإنسانى ومن خلق المناشط الجمعية . والفيلسوف الجوهري ، بين كل من البروليتارى ، والبورجوازي إنما يمثل فى موقف كل منهما فى عملية النشاط الانتاجى ، ولاشك أن « نوع النشاط هو الذى يحدد وحدته ، تدخل كل منهما وبفرض طبيعته ومستواه الاقتصادى .

وهذا هو المفهوم المادى للايديولوجيا الذى وضعه كل من « ماركس » ، و « إنجلز Engels » ، بالنظر الى مستوى دخول الفرد ؛ والطبقة الاقتصادية التى ينتمى إليها ، ودوره فى « هرم النشاط الانتاجى » ، بالنظر إليها جميعا على أنها مصادر أساسية تحدد اتجاهات الفكر وتنظم مساراته .

ولقد كشف ماركس وإنجلز عن مضمون كلتا أيديولوجيا ، من زاوية تحديد الصلة الجوهرية التى تربط « مناشط الانسان » بمعتقداته واتجاهاته وتؤكد على أفكاره وتصوراته العامة . ولاشك أن هذه النظرة ليست ماركسية خالصة ، فلقد استندما ماركس فى الواقع من قراءاته المثأية للمادة لفلسفة أستاذه « هيغل

(1) Corbett, Patrick, Ideologies, Hutchinson. 1965.

Hegel ، تلك القراءات التي تنظر إليها هل أنها من المصادر الأصلية الفلسفة للاركية ، فقد اخترع هيجل معظم للبادئ والأفكار لئلا ركية ، فهو عثرع الجدل والصراع والتناقض ، إلا أن هيجل لم يخترع ولم يبتكر عبارة « الأيديولوجيا » ولم يستخدمها ، ومع ذلك نستطيع في تأكيد على ، أن قول إنه كان مبشراً لها ، كما كان نذيراً ، بما تحويه من تناقضات وصراعات .

ومن الاستمالات الشائعة للأيديولوجيا ، هي أنها ذلك الإطار الفكري للنسق الذي يدر حول حياة الإنسان ومجتمعته وحقائقه ، كما أنها تطلق لتعني الإشارة إلى مجموع المعتقدات والنظريات التي تحدد لنا مضامين الفكر البورجوازي وتستند إلى التركيز على أنماط وأساليب السلوك السائدة في حياة الطبقة البورجوازية ، وهذا هو السبب الذي من أجله يشار إلى « البورجوازيين النظريين » ، على أنهم من « الأيديولوجيين *Ideologists* » ، على اعتبار أنهم من مؤيدي « الأيديولوجية البورجوازية » ، ودعاتها .

الأيديولوجيا ووظيفة التصنيع في المجتمعات البدائية :

— إلا أن كلمة أيديولوجيا هي غلاق ماركسي ، صدرت وابتقت من الفكر الأوروبي للنشغل بالصناعة والتقدم التكنولوجي ، فمبصر عن وهي عتلف « فئات ، الإنتاج الاقتصادي وأنماط طبقاته ، ولذلك يبدو أن يستخدم مثل هذا الاصطلاح لتعبير عن اتجاهات ومعتقدات « الشعوب البدائية *Primitive People* » ، ونادراً ما يستخدم علماء « الأنثروبولوجيا الاجتماعية *Social anthropology* » كلمة الأيديولوجيا ؛ إلا في حالة واحدة فقط ، وهي دراسة « وظيفة التصنيع على المجتمعات البدائية ، التي تنتشر فيها «لنتاجم وصناعة التعدين ، في المناطق النائية بالمراد الخيام .

وفي هذا الصدد — حاول « دانزجر *Danziger* » ، دراسة « الأيديولوجيا

واليوغوتيا ، في مجتمعات جنوب افريقيا ، وذلك بالتركيز على دراسة « التغيير الاجتماعي ، الذي ينبجم عن « مهنة التصنيع ، و « وطأة التكنولوجيا على أنساق بدائية متخلفة ، وكيف يواجه البدائي البسيط ، تكنولوجيا معقدة ومتقدمة عليه بقرون طوال ؛ ومدى تأثيرها على أنماط الثقافة الاستانيكية والتنظيمات البدائية للشجاسة ، وعلى درجة انحلال أو تفكك البناء الاجتماعي ، مع إلقاء الضوء على العنصر الانساني إذاه المواقف الاجتماعية الجديدة ، التي هي من خلقه المجال السيكولوجي البشري ، ولعل « دانزجر ، في هذه الدراسة إنما يشايح اتجاه أستاذه « كارل مانهايم Mannheim ، (١) .

وفي حالة دراسة الأيديولوجيا ووطأة التصنيع والتكنولوجيا في المجتمعات البدائية ، يشير علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى « نسق المعتقدات Belief-System ، على أنه التعبير الملائم لمضمون « الأيديولوجيا ، عند البدائيين . إذ أن التمييز بين المعتقدات الظاهرة والمضمرة ، إنما لا يصدق فقط على المجتمعات البدائية ، فلا يوجد في هذه المجتمعات الأولية من ينشغل بالكتابة ، أو صنع النظريات ، وصياغة الأفكار ، ونشر الأيديولوجيات ، ولكن هناك فقط من يمرر عن مجموع المعتقدات في « نمط سلوكي خاص ، أو أسلوب معين من أساليب الحياة ، ولذلك يمكن اعتبار الأيديولوجيات في أوسع معانيها ، هي دراسة « أساليب الفكر السائدة ، بما فيها من معتقدات الشعوب البدائية ، وأنساق القيم السائدة في سائر أبنيتها التي يدرسها علماء الاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية .

(1) Danziger, K., Ideology and Utopia in South Africa, The British Journal of Sociology, March. 1963. p. 64.

الفصل السابع

... اتجاهات الرأي العام

- تمديد
- قياس شدة الرأي
- سيكولوجية الاشاعات Rumours
- طبيعة العلاقات العامة
- العلاقات العامة والأعلام
- صور العلاقات العامة
- استراتيجيه العلاقات العامة

تقديم :

ترتبط الايديولوجيا بالرأى العام ارتباطاً عضوياً وثيقاً ، فالرأى العام هو الفكر الشائع والنمط العقلي السائد ، الذى يحدد نواح الافكار والميول والاتجاهات ، بل ويكشف تفضيلات الناس الاجتماعية والسياسية .

شدة الرأى العام :

إن الامر الاساسى والمهم ، فى دراسة وقياس الرأى العام ، هو ضرورة اختيار عينة ، ومثالنا على ذلك هو أن مجلة المختار Readers Digest ، قد أشارت إلى إحدى مؤسسات قياس الرأى العام فى أمريكا ؛ ناك التى حاولت أن تتنبأ بنتيجة الانتخابات الأمريكية الرئاسية ، فأرسلت اختباراً إلى عشرة ملايين من الأشخاص وانتهت نتائجها إلى خطأ نهائى مقداره ١٩٪ وهذا الخطأ يسهل تفسيره ، إذا أخذنا فى اعتبارنا هذه الحقيقة ، وهى أن هؤلاء الأشخاص قد تم اختيارهم من الدليل السئوى للتليفون ، مما يجعل العينة محصورة فى طبقة خاصة بالأشخاص الذين لديهم تليفون . ولا شك أن مشكلة اختيار العينة فيما يتعلق بالرأى العام هى مشكلة انتخاب وتحديد كى النسبة التى يمكن بمقتضاها التنبؤ بنتائج الانتخابات وقياس درجة النجاح أو الاخفاق^(١) .

وحى تكون العينة مثله وذات قيمة علمية ، يجب أن يتوفر فيها شرطان ، هما تمثيل المجموع وكفاية الحجم . وبذلك تصبح مثله لكل هؤلاء السكان ؛ فائدة تنوق على حجم العينة المثلى ، الجغرافى والمهني ، كما ينبغى أن تشمل سكان الحضر والريف ، وأن يتوافر فيها عنصر السن حين يوزع إلى ما فوق ٤٠ سنة أو ما تحت ٤٠ سنة ، ولما على ثلاثة أقسام ، أصغر من ٢٠ سنة ؛ ومن ٢٠ إلى ٤٠ سنة ، وفوق ٤٠ سنة ، ، ويستند حجم العينة إلى بعض الخصائص التى

(١) قامت جامعة كورنيل Cornell University عام ١٩٤٢ بحث اتجاهات الرأى العام الأمريكى ، بصدد موقف الحكومة الأمريكية إزاء منظمة اليونسكو ، وصرحت الاستة فى هذا البحث من العام General إلى الخامس Special على شكل Funnel ، وذلك حتى يتحقق الهدف الموضوعى من دراسة اتجاهات الرأى العام .

تؤدي إلى النتائج الاحصائية السليمة ، و د بتناسب حجم العينة قريباً مع المنجز التريعي لمجموع السكان ، كما يجب أن يتوقف حجم العينة على مدى التقابلية للتغير في العامل للندروس . فإذا قيس مثلاً طول الطفل ، من سن عشرة إلى سن أربعة عشرة ؛ فليس من الضروري الحصول على عينة كبيرة العدد في حين أنه لو أردنا قياس الطول لجميع السكان ، لوجب أخذ عينة ضخمة ، كما ينبغي أن يستند حجم العينة بالاضافة إلى ذلك عدد المتغيرات التي يعمل حسابها في التوزيع الطبقي ، فهناك د معامل ارتباط ، في الواقع بين التوزيع الطبقي وحجم العينة ؛ أما إذا ما كان لدينا دجاعة سكانيه شديدة التجانس ، فيكفي أخذ عينة محدودة ، وعلى العكس من ذلك ، فإن إجماعه السكانيه للتغايرة في الفروق بين أفرادها ، من حيث الدخل والمستوى الاقتصادي ، أو الانتساب لطبقه منهيه أو دينيه أو بالانتماء لفقه من فئات السن أو الجنس .. فليسوف يضطرنا هذا التغاير إلى أخذ عينة أكبر حتى يكون لدينا عدد كاف من الأشخاص لتمثيل كل طائفة .

قياس درجة الشدة في الرأي العام :

يمكن اتباع بعض الطرق لقياس درجة الشدة في الرأي العام ، وعلى سبيل المثال ذلك الاختبار الذي تم إجراؤه لمعرفة اتجاهات الرأي العام الأمريكي ، في امكان التدخل intervention ، أو عدم إمكان التدخل في الحرب ، فكان السؤال هو : هل من الأفضل أن نبقى بمنزلة عن الحرب ؟ أم أن نساعد انجلترا مساعدة فعالة حتى ولو تعرضنا للدخول في الحرب ؟ هذا هو السؤال الرئيسي في الاختبار ، أما فيما يتعلق بتحديد درجة شدة الرأي ؛ فيطلب من المختبر أن يضع إجراءاته بإحدى البوابات الآتية ، كما هو الحال فيما يلي :

١ - أتى لست مقتنعاً باللمرة في هذا الموضوع .

٢ - أتى اقترض أن هذا هو خير ما نفعل .

٢ — أنى مقتنع تماماً بأن هذا هو ما يجب عمله .

وهناك طريقة أخرى غير تلك ، لقياس درجة شدة الرأى ، حين يطلب من المختبر أن يحدد درجة شدة رأيه على ترمومتر مدرج ، يبدأ من درجة صفو يأتى إلى درجة مئة . حيث تمثل درجة الصفو أقصى درجة فى « شدة الرأى المعارض » ، بينما تمثل درجة مئة أقصى درجة فى « شدة الرأى المؤيد » .

ومن هنا يجب أن يقدم للمختبرين صورة ترمومتر حتى تسهل عملية الرسم وحتى لا يشعر المختبر بأية صعوبة فى استخدام التدرج (١) .

الإشاعة Rumour والرأى العام :

هناك خصائص عامة تنسب لها الإشاعة حيث تنتشر الإشاعات دائماً فى ظروف الأزمات ومواقف الاضطرابات ، وقد تدور الإشاعة أيضاً حول حدث هام أو مشير ، وغالباً ما تنتشر الأكاذيب الضخمة بصورة أغزر وأكثر ، من انتشار الحقائق الصادقة . ومن هنا كانت للإشاعة جوانبها السيكولوجية التى يدرسها علماء النفس الاجتماعى .

ويصير عالم النفس الاجتماعى « البورت Allport » ، عن سيكولوجية الإشاعة فى لغة رياضية بالمعادلة الآتية :

$$Rumour = Fc (Imp \times ambi) (a \times g)$$

الإشاعة = دالة (الأهمية × الغموض) $ambiguity \times importance$

Rate, R = function (importance \times ambiguity)

ويصير « البورت » ، بمدد تلك المعادلة ، على النظر إلى هذه العلاقة على أنها منهجية وليست عددية ، لأنه إذا لم يكن الرافعة ، أهمية اجتماعية ، فإن غموضها

(1): Cicourel, Aaron, V., Method and Measurement in Sociology, Free Press of Glencoe, London. 1964.

لن يكنى وحده لإحداث أشاعات ، وغالباً ما تعبر الأشاعات عن « معرفة ناضجة بالوقت ، ولقد وصفت « إدارة الأنباء الأمريكية » ، تلك الخاصية في زمن الحرب وحاولت أن تمنح من تولد الأشاعات عن طريق « إعلام الجمهور اعلاماً تاماً وبقدرة الإمكان » .

ولكن الاعلام الدقيق ، لا يزال الاشاعات ، ومثالنا على ذلك ما لوحظ من تكرار الاشاعات وانتشارها وترددها بعد نشر أنباء الحسائر في « بيرل هاربور » حيث دمر اليابانيون معظم قطع الاسطول الأمريكي ، فالاشاعة لا تتبع فحسب الحاجة إلى الاستطلاع المرفى ، ولكنها تتولد أيضاً من الاتجاه الوجداني للناس حين ينتقل إليهم الخبر أو الحدث فيكون لهذا الحدث الجسم أثراً عميقاً في نفوس الناس ، وتكثر حول هذا الحدث سائر الأقاويل المتضاربة ؛ والاتجاهات المتعارضة إما إلى المبالغة وإما إلى الإنكار .

وللأشاعات أسبابها الوجدانية والسيكولوجية في انتشارها وتداولها فقلما تتميز الاشاعة مثلاً بالعقل والاعتزان والحياد وإنما تتميز دائماً بالغرابة والاثارة وهذا هو السبب السيكولوجى الذى من أجله تنتشر الاشاعة كما تنتشر « عدوى Contagion المرض » ، وفي أوقات الحروب يقع الناس في أزمات ويجنون أنفسهم في مواقف حرجه ويشعرون بحالة من القلق ويسعون إلى طريقة نفسية لتخفيف حدة القلق ، ومن هنا تطلق « الأشاعات » .

(1) Allport, F. H., Social Psychology., 1924.

Institutional behavior. 1933.

ونظر أيضاً ، في هذا الصدد :

Krech., D. and Crutchfield., Theory and Problems of Social Psychology, 1948.

الدعاية والرأى العام :

الدعاية Propaganda أمرها الكبير في توجيه الرأى العام ، وهناك وسائل تتعلق بأبراز عنصر الدعاية وتأكيده من طريق جذب الانتباه ، وأهم هذه الوسائل والأساليب ، هى التكرار ، مع التبسيط والارضاء والمكافأة gratification^(١) ففما يتعلق بعنصر جذب الانتباه ، ينبغى فى الدعاية التركيز على الصورة الواضحة والمثيرة . كما ينبغى بعد ذلك تكرار الصورة والإعلان بكل الوسائل الممكنة والسهلة المؤكدة ، كإعلانات الحائط والإذاعة .

فالتكرار Repetition هو الذى يلزم الناس ؛ وعلى الرغم منهم ، أن يفكروا دائماً فى موضوع الإعلان ، فثلا فى الإعلان عن « صير التفاح » من الأفضل كثيراً استخدام أى إعلان الحائط يمثل امرأة رائحة الجلال ، أو رجلاً مبهجاً وقوياً يشرب كأساً من صير التفاح بدلاً من الإعلان الساذج ، الذى يمثل صورة ثمرة من ثمار التفاح ، حتى ولو تكن هذه الثمرة رائحة ورائقة الجلال والإحمرار والنضج .

وبالإضافة إلى عنصرى جذب الانتباه ، والتكرار ، يجب تبسيط العرض جهد الانتفاع ، لتكئين الناس من الحفظ فى « سرعة وسهولة » ثم ينبغى أيضاً الاستعانة بعنصر الارضاء gratification فكل دعاية يجب أن تعدنا بأشياء سارة حيث أن رؤية هذه الأشياء السارة هى خير - سبيل إلى تصديق الدعاية ، ومثلاً على ذلك ، تلك الاعلانات التى توضع على سيارات الأوتوموبيل ومركبات القرام حيث نجد أن هذه القوالب الإعلانية إنما تتعلق كلها بالقوازم والأدوات المنزلية « كالمصابون المخصص للغسيل » على اعتبار أن الأشخاص الذين ينتظرون

(1) Beuge, Eugene, 'How to manage for to-morrow.'
U S-A. 1975

الأوتو ريس في مختلف المحطات سوف يحتمون النظر في تلك الاعلانات وهذه طريقة ناجحة من طرق الدعاية لمختلف السلع والمنتجات .

وهناك بعض الدراسات العملية التي صدرت في ميدان الدعاية وخاصة الدعاية السياسية الألمانية النازية *Nazy Propaganda* بالذات في أثناء الحرب العالمية الثانية ، فهناك مثلاً دراسة عن معسكر ألماني لاسرى الحرب الفرنسيين ، وكان المعسكر الذي نصب عليه الدراسة ، وهو معسكر يضم الصولات من الاسرى الفرنسيين في عام ١٩٤٢ . ونحن نعلم أن الصولات إنما يقومون في ترتيب الوظائف بين الضباط وصف الضباط ، وبسبب عدم تحديد الكادو بالنسبة اليهم لم يقبل الالمان وضمهم في معسكرات الضباط ، ولم يكن ممكناً مع ذلك وضمهم في معسكرات الجنود ، حيث أن الصولات إنما يتصرفون كما لو كانوا ضباطاً ؛ فسيروا بعض الاضطرابات في المعسكر ، وحدثوا ازعاجاً هائلاً للسلطات الألمانية (١) ، وكانت العقوبة السائدة هي عقوبة الشباب الذكي من تغلب عليهم « الثقافة » ، ومن ينظمون معارضة دائمة ويحصلون من « الاوامر الاوتوقراطية المشددة » من فيل « الاوامر الديكتاتورية الجوفاء » . فأوقعت « السلطات الألمانية » جنرالاً فرنسياً من الموالين للالمان ، فأخذ حل عاقبه اصلاح هذا المعسكر بتحسين النظام وتغيير للعامة وتوجيه الدعاية الناجمة باذخار ، الاصلاحات المادية ، وتغيير الجو الاجتماعي ، السائد فهبطت « ظروف الاسرى النفسية » حين حل رؤساء فرنسيون المعسكر بدلاً من الرؤساء الالمان .

وكان هذا النظام هو بمثابة محارة لانشاء نظام الحكم الذاتي ، ويستخدم الالمان أسلوب الدعاية والاشاعة ، فأشاعوا بين صولات المعسكر أن الجنرال

(١) Merton: Robert , *Social Theory and Social Structure* ,
Amertind 1968.

الفرنسي هومبوث، المارشال بيتان، وخلق هذا الإجراء أول الأمر موجه من
البعثة، واسكن، السلطات الألمانية، أنعت الأسرى الفرنسيين بكل لباقة بأنه
مادام يحكم فرنسا رجل عسكري، لا رجل سياسي، فان على كل هؤلاء الصولات
أن يدينوا بالطاعة لتقدم العسكري. كما نظمت محاضرات تهففة عامة يلقبها
أشخاص مثقفون من الألمان والفرنسيين على السواء. وجملة القول أن هناك
تبشيراً عقائدياً منتظم فيه قبل كل شيء، وروعي عامل التكرار، فكل شيء
يصبح حقيقياً حين يتكرر على يدي أشخاص عتلقين بينا تربطهم قضية واحدة (١)
على اعتبار أن الاكثوية قد تصبح صادقة مع دوام تكرارها؛ ومن أشخاص
عتلقين. ومن خصائص من إحترف الكذب، أو الكاذب المحترف،، هو أن
هو أن يظل يكذب، ويكذب، حتى يصدق الناس.

وهناك بعض الخصائص العامة التي تؤدي إلى الدعاية الناجحة تلك التي
نستخلصها فيما يلي:

- ١ - ضرورة الاعتماد على الحاجات والظروف الوجدانية، عند هؤلاء
الذين تستهدف الدعاية اقناعهم، وتنبئ خلق هذه الحاجات إذا لزم الأمر.
- ٢ - إن للواقف، الغامضة وغير المحددة، إنما تعتبر تربة خصبة للدعاية.
- ٣ - ضرورة مجاراة المستندات والتقاليد القائمة، من قبل، كما ينبئ
الاستعانة بالأنماط الجامدة السابقة.
- ٤ - ضرورة تعديل modification الإدراك الخاص بالموضوع أكثر
من مهاجمة الموضوع في ذاته.
- ٥ - ضرورة الاستعانة بالتميزات التي تجتذب الإدراك، كما ينبئ الاستفادة

(1) Duvierge, Maurice., Introduction to the Social Science,
trans. by Malcolm Anderson, 1964.

من «الدعاية للفساد Counter-Propaganda»، وذلك لتنبؤ قديماً بالاضرابات،
والاخذ بالحيلة والحذر، تضادياً لحديث المقاومة Resistance. وتستعمل نظم
طرق الدعاية في ميدان السياسة، تماماً كما تصلح «أساليب الاعلان والتسويق»،
في ميدان التجارة والمال.

استراتيجية العلاقات العامة :

من المعروف أن إدارة العلاقات العامة، إنما تتوقف لوضع المخطط والاهداف
والبرامج الخاصة بالمشروع الاقتصادي أو الصناعي — كما تضع الخطة وتحدد
استراتيجية المؤسسة، استناداً إلى فهم ساحة الجماعات وسيكولوجية الجماهير،
ودراسة الاتجاهات الاجتماعية والتفضيلات النفسية والحلقة السائدة بين مختلف
الثقافات Cultures والشعوب.

وقد تقوم الجهود الإيجابية في إدارة العلاقات العامة بتحقيق مقاصد مثالية
واقصادية، حين تقصد إستراتيجية العلاقات العامة « تنمية ثقافة الشعوب »؛
ورفع مستواها ذوقياً وجمالياً، باستخدام أفضل الوسائل الممكنة للاقناع،
وتقديم أحسن الفرص السهلة والعملية الممكنة والمتاحة للحياة، إضماراً على الأداء
الناجح والنافع، والاعلام الصادق والنفيد، والابتعاد عن الدعاية الكاذبة،
والشعارات الزائفة.

والعلاقات العامة، هي وسيلة كل إدارة أو مؤسسة ناجحة؛ لنشر كل ما يتعلق
بالمؤسسة من مناشط activities إنتاجية، وعلمية، وتسويقية، وأقسام فنية،
وورش مهنية، وبرامج ترفيهية ورياضية، تضم أهدافاً غنطلة، يكشف عنها جهاز
للعلاقات العامة بصورة واضحة ومبسطة وواقعية Real حتى يكون لها صداها
في اتجاهات الرأي العام بين جماهير الانتاج داخل المؤسسة، وجماهير الاستهلاك
خارج المؤسسة.

وللبل أهم الاهداف التي تحققها برامج العلاقات العامة في المؤسسة، هو هدف
استراتيجي سيكولوجي، يتعلق بتبني الرأي العام واعداده لتقبل ما يوجه إليه

من «نوجيات» أو «أخبار» أو «معلومات» كما نقل التليجات والآرام والنوابط والنوامي، بحيث تقوم استراتيجية العلاقات العامة على ضبط والربط، باستخدام وسائل الأعلام information والإتصال communication، طبقاً لاستراتيجية منظمة وعنقدة، تصل برامج العلاقات العامة، وترشد وظائفها الاقتصادية، حتى لا يضيع على المؤسسة الكثير من الجهد والمال، ويتوفر الوقت الاقتصادي، ولا يذهب كل هذا سدى.

ولأنما تتوحد الجهود وتتضافر، عن طريق نقل المعلومات الصحيحة؛ واستخدام الاتباع الواضح الرشيد، كوسيلتين ضروريين من وسائل التكيف الناجح، بفضل تقديم وسائل الاتباع وتقديم فن الإعلان، مع تمتع الرأي العام للمشاركة في حل المشكلات الراهنة، كل ذلك باستخدام أفضل أعلام ممكن، توصل إليه الخبراء في ميدان «اقتصاديات الاتصال والعلاقات العامة».

وعلى سبيل المثال لا الحصر، لقد ثبت أن «السكريات» أو «الزوجات الموظفات»، يستخدمن جوارب سرية التزق، فحاول خبراء العلاقات العامة في إحدى مؤسسات القطن، أن يؤكدوا أفضلية «الجوارب القطن» نظراً لمتانة القطن الطبيعية، التي تتأخر تماماً، وتتفوق على نوعية «الجوارب النايلون»، فيعمل خبراء العلاقات العامة لمؤسسة القطن، عن طرح أو بيع كميات من «جوارب القطن» التي تفرق السوق لأنها أشد احتمالاً من «النايلون».

وينبغي ألا يفوت «خبراء العلاقات العامة» أن يتوافر في الإعلان إستغلال العناصر والدوافع السيكولوجية، التي تتوازن في النساء، عن طريق إثارة المرأة وجذب انتباهها، فن ننصتاً مثلاً، ألا يأخذ الإعلان في إعتباره «زمو النساء» وغرورهن المتبد، ومن الأمثلة التي استخدمها خبراء العلاقات العامة لشركات ومؤسسات القطن، انتخاب سترى لاجل خاتمة مصرية، يطلق عليها لقب «ملكة

جمال الفطن ، وتمنح تذكرة سفر حول العالم ، وهي قرعدي الآلة التقنية الفاخرة
ف تكون أفضل سفير ، وأفضل عرض ؛ يقدمان أفضل إعلان عمن ؛ لتسويق
للمنتجات التقنية .

طبيعة العلاقات العامة :

حول ، منطق الاقتناع ، و هندسة الموافقة ، تدور مشكلات ومساائل
العلاقات العامة ، فالإقناع كفن ، والموافقة كهف ، كلاهما يعبر عن ملاح
جوهرية الخصائص الكلية لدور العلاقات العامة ، في كل مؤسسة اقتصادية ، أو
تنظيم صناعي .

والعلاقات العامة ، طبيعة وظيفية Functional nature فلاشك أن الوظيفة
الجوهرية ، أو الدور الأساسي الذي يلعبه قسم العلاقات العامة في المؤسسات
الصناعية هو التكيف النفسي والاجتماعي ، ومدى استقطاب جماهير المال ، داخل
المؤسسة و جماهير المستهلكين ، خارج المؤسسة .

ولقد شرحت المؤسسات الصناعية والاقتصادية بأهمية الاتصال بالجماهير ،
لرواج المنتجات وتوفير الخدمات ، ولذلك تقوم برامج العلاقات العامة الناجمة
Effective Public Relations بنقوية الروابط بين المؤسسة والمجتمع ، مع
لإيجاد نمط معين من الاتصال ، يساعد كل جماعة على تنمية العلاقات بينها وبين
سائر الجماعات الأخرى . يبحث قسم العلاقات العامة أساساً بالكشف عن الاتجاهات
والاحتياجات والميول والاهتمامات ، مع الاستفادة من موارد البيئة ، ومن ذوي
الخبرة ، وبذل الجهود باستخدام التكنولوجيا الحديثة من أجل إثارة اهتمامات
الرأي العام ، بالشرح والصورة المعبرة ، وتجارب المبيعات ، وبرامج الدعاية
Propaganda الصادقة ؛ خوفًا من بلية الأفكار ، واستخدام أساليب الهجوم
المضاد ، والمخبر والمناقعة ، وتحويل الاتجاهات من أدوات هدم إلى

وسائل بناء (١).

وتقوم أقسام العلاقات العامة في سائر المؤسسات وأشركات ، على إيجاد نوع من التكامل والمشاركة Participation والتكيف والاتصال الاجتماعي ، بين مختلف القطاعات الموزعة ، وبين سائر أقسام وورش المصانع ، ومهمة العلاقات العامة ، هي الربط بين مختلف الأجزاء والتنسيق بينها ، ومحاولة تيسير الإتصال بين كل أطراف المصنع ، وأنشطة الإنتاج فيه .

ويقوم د. نجباء العلاقات العامة ، بوضع البرامج الخاصة بعلاج ما ينشأ من ظواهر التجديد innovation ، تلك التي تسم بالحركة المستمرة مع التغيير والتعديل والتبديل ، حتى يواكب الإنسان الصناعي تقدم التكنولوجيا السريع ، وحتى يستطيع أن يواجه تيارات التصنيع وتناججه ، وما ترتب عليها من تغييرات في ظروف الأسرة وملاخ القرية ، وما أصابها من عوامل الانحلال والتفكك ، الأمر الذي يؤدي إلى ازدياد المستمرة في التنمية والتحديث Modernization فتغير الانماط الحضرية ، وتتطور الانماط القروية ، وتظهر الايكولوجيا الحضرية urban ecology ، عن طريق التنمية القائمة لبيئة ecodevelopment وتطور الاشكال الاجتماعية ، وتصنيف الاحجام ، وصور العلاقات ، عن طريق ما يسميه د. إميل دوركايم Durkheim ، د. موديس هالفنكر Halbwachs ، بالمورفولوجيا الاجتماعية La morphologie Sociale (٢).

ومع تطور التكنولوجيا السريع ، وتعدد ظواهر التصنيع والمبكنة

(١) العلاقات العامة الناجمة . ترجمة مصطفى حسن علي ، لشراف الدكتور مهاد

الدين لسمائل ، سلسلة العلاقات الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٥ .

(٢) Durkheim, Emile, Division du Travail, Bóliez Aican
Paris 1926.

Auten ation انتهى عصر التكامل العائلي والتماسك القرابي Kinship والصينية العشائرية ، والتباغم القبلي . ولقد اتهمت وظيفة الأسرة الممتدة extended family ، التي كانت تضم الأب والأم ، والجد والجدة وتحررت الإدارة التقليدية Traditional من التماسك القرابي ، فهناك ظروف جديدة ، تحررت معها الأنماط التقليدية للإدارة ، بالإضافة إلى أن نمو المشروعات الاقتصادية قد ساعد على وجود مشكلات التسويق والاعلان التنافسي بين مختلف المؤسسات الصناعية والإقتصادية ذات الانتاج الواحد . فتلحق كل مؤسسة من قيمة وأهمية منتجاتها بالكشف عما يميزها عن سائر السلع commodities والمنتجات Products الأخرى ، مما أدى إلى الاهتمام الفوري والضروري بوسائل الاتصال والاعلام information وهي الركيزة الأساسية التي تستند إليها كل وظائف العلاقات العامة . وبالإضافة إلى عنصر المنافسة بين أصحاب المؤسسات الرأسمالية ، وما صاحبها من تقدم في وسائل الاتصال الجماعي ، وبالإضافة إلى هذا العنصر التنافسي الدعائي ، وفي مجال الصناعة بالذات ، صدرت الطلائع الأولية لمختلف فئات وطبقات المال في المجتمع الرأسمالي مما كان له نتائجه في وجود نوع من الصراع الفئوي بين جماعات العمال ، فكانت المهمة الجوهرية للعلاقات العامة ، هي أنسنة العلاقات وتخفيف حدة التوتر ، لازالة العاراض والتناقض والكراهية ؛ بما زاد من أهمية برامج العلاقات العامة (١) .

ومعنى ذلك أن مهمة العلاقات العامة ، هي مهمة دعائية ، ؛ إلى جانب أنها تديم بتوثيق الصلات بين فئات الانتاج وفئات الإدارة ، وتخفيف الحساسيات وتقليل المسافات ، وبخاصة بعد الأزمة الاقتصادية العالمية المشهورة التي اجتاحت

(1) Ellenson, Ann., Human Relations, Printice-Hall 1973.

أوروبا منذ أواخر عام ١٩٧٩ ؛ حيث انتشرت البطالة ، وانخفضت أجور العمال وقلت الموارد ، وتكدست المنتجات ، فكان الكساد العالمي ، الذي لفت الأنظار نحو توظيف العلاقات العامة ، والاستماعة بالجمهور ، من أجل تيسير الصلات وترشيد العلاقات ، وإشراك العمال في الأرباح وإصدار القرارات وبرمجة الأمن الصناعي والعلاقات الانسانية ؛ وتخفيف حدة البطالة ، وعودة العمال إلى مصانهم .

فكان علم العلاقات العامة ، هو العلاج لحل الأزمة ، وإزالة الصراخ الفئوي والطبقي بين فئات العمال بعضهم بعضاً ، وبين طبقة العمال وطبقة الادارة وإعادة الثقة إلى الجميع ، وإبعاد شبح الثورة ، فكان علم العلاقات العامة ، كما يقال هو « ابن المصلحة القومية » ؛ فقامت أقسام العلاقات العامة في سائر الشركات والمؤسسات .

ولكن هل تقتصر برامج العلاقات العامة ، على المجتمعات الرأسمالية ، وحدها ؟ ألا يوجد ما يشابه هذه البرامج من العلاقات العامة في سائر الدول الاشتراكية ؟ في الرد على هذه المسألة يقول الدكتور ميلر Miller (١) وهو أستاذ العلاقات العامة في جامعة هارفارد الذي يعبر رأيه عن وجهة نظر الكثير من العلماء الأمريكيين حين يرى أن العلاقات العامة إنما وجدت لتعطي المؤسسة الرأسمالية وتؤكد الصلات الحسنة بين سائر المؤسسات الاقتصادية وجمهور العمال ؛ وبين المؤسسة الاقتصادية وموظفيها ، وبين المؤسسة وفئات المجتمع في الخارج ؛ فالعلاقات العامة إذن في الزعم الأمريكي مقصورة فقط على النظام الرأسمالي ولا توجد إلا لخدمة أغراض المؤسسات الحرة وفي القطاع الخاص ، أو في الاقتصاد الذي ينحصر نحو الفردية Individualism والرأسمالية ، ولكننا

(1) Hall, Michael., The Sociology of Public Administration
Michael Hall, 1972.

لا نأخذ بهذا الزعم الغريب ؛ حيث أن العلاقات العامة ، دراسة الإنسانية Humanitarian وجدت لخلق الجوهر الانساني ، وتأكيد العلاقات الانسانية ، ، أى القيام بعملية أنسنة للعلاقات وعلى أساس روعى متين ، يوطد الصلة بين المؤسسة وعاملها وجمهورها وينخف من حدة التوتر بين العامل والآلة ؛ وبالتالي يكون للعلاقات العامة ، جذورها القائمة فى علوم النفس والاجتماع والادارة ، وأصولها الصادرة من الانسانيات Humanities .

وإذا كانت هذه هى وظيفة العلاقات العامة ، فالتا يمكن أن تصور وجود مثل هذه العلاقات العامة ، تحت ظل الاقتصاد الحر ، القائم فى الدول الرأسمالية ، كما تصور وجودها أيضاً تحت ظل الاقتصاد الموجهة economie dirigé وهو نمط الاقتصاد القائم فى كل دول الكتلة الاشتراكية ، والدول الشيوعية ، حيث نجد نفس الاتجاه وتطبق نفس الأساليب ، وبذلك تستخدم مكاتب العلاقات العامة ، فى وظائف متعددة منها ما هو سيكولوجى ، ومنها ما هو ثقافى ، حيث تهتم مكاتب العلاقات العامة ، فى الدول الاشتراكية بالعنصر الانسانى فى عملية الانتاج . أما فلسفة التخطيط فى النظام البورجوازي أو الرأسمالى فلا يعنىها سوى الاهتمام بكيفية الانتاج وترشيده .

وظيفة العلاقات العامة :

تشير العلاقات العامة ، إلى مفهومات متعددة ، فقد يقال مثلاً : إنها فن دعوة الناس لكى يتعاملوا معنا ، ؛ ولذلك تقوم العلاقات العامة فى المؤسسة بخلق الوسائل التى يكون من شأنها التقريب بين الناس ، والتكثيف معهم ، من طريق التفاعل والتكامل .

ومنهى الوظيفة الجوهرية للعلاقات العامة ، التى تتمثل بعملية إدراج عناصر انتبه والطعامينة إلى سيكولوجية العامل أو جمهور المستهلكين ، ومن ثم

يصعب فصل مجال العلاقات العامة **Public Relations** عن مجال الإعلام **information** والدعاية **Propaganda** ، وكل ما يتصل بالإذاعة والتلفزة ، والإعلان **Advertisement** ، في الصحف والمجلات والنشرات الدورية . والفارق الجوهري الذي يميز « العلاقات العامة » عن الإعلان أو الإعلام ، هو أن العلاقات العامة ، هي علاقات رسمية **Formal** وموضوعية **objective** وترعى الصالح العام ، أما الإعلام أو الإعلان أو حتى الدعاية ، فلا ترمى سوى « الصالح الخاص » .

وينبغي ترشيح الإعلام في المؤسسات ، حين يصبح الإعلام مفيداً وصادقاً ، وحين يستند إلى الحياد وعدم الانحياز في عملية الإعلان ، التي قد تغالى في إبراز أهمية أو قيمة العمل الذي تقوم به المؤسسة الاقتصادية ، مع ضرورة اعتماد النفس والهدأ الذي يلحق بالمؤسسات التجارية ، عن طريق استخدام الإعلام الكاذب ، مما يؤدي إلى فقدان الثقة .

فالعلاقات العامة هي فن أمين ونزيه ، ينقل المعلومات الصادقة عن المؤسسة بلا إضافة أو تمويه ، فلا يتأثر الناس ببرامج الدعاية الطنانة ، فلقد أحدثت الدعاية البوجوازية ما يسمى « إليها ؛ وما يسمى » إلى مكاتب العلاقات العامة ، حين تحولت إلى « أرباق » للإعلان ، من أجل المائد المجرى ؛ من جراء التسويق ورواج السلع ، وزيادة الدخل ؛ فاستغل البوجوازيون هذه المكاتب استغلالاً أغانياً وجشماً ، وبالتالي أساء الرأسماليون إلى « فن العلاقات العامة » . حيث أن وظيفة العلاقات العامة لا تتعلق بنشر الإعلان الكاذب أو غير الحقيقي ، بل تؤكد الصورة الصادقة ، وتعلن الوضع الحقيقي ، وتشر على الناس ما وراء « الميزانية » من مشروعات ؛ وما حقته المؤسسة الاقتصادية من تقدم قى أو تكتولوجى ، **هم «الصالح العام» .**

وتتوافر في الماعلين ومواطني مكاتب العلاقات العامة ، بعض الخصائص
البيكولوجية والثقافية ، ومنها سمة الأفق والثقافة والمرونة ، وسرعة البديهة
والذكاء ، وينبغي أن يكون «غير العلاقات العامة» مخلصاً لوظيفته ؛ جاداً في
أداء مهته ، ذكياً في صلاته وعلاقاته بالناس .

ويذهب « تافرنير Tavernier » ، وهو أحد المؤسسين الأوائل لبيئة
الفرنسية للعلاقات العامة ، إلى أنه ليس من الصدفة أن تنشأ العلاقات العامة أولاً
في الدول «الانجلوسكسوية» ، لأن هذه الدول قد كان يسودها المذهب
« البروتستانتي للمسيحي » ، بينما سادت « الكاثوليكية » الدول اللاتينية ، والفساد
الجوهري بين « البروتستانتية » و « الكاثوليكية » هو أن المذهب الثاني ، كان
يحقر الثروة ، ولا يهتم بالمال ، ويعتبريراً دينياً للفقر والفقرى ، فلم يكن رأس
المال ، محل إعجاب الكاثوليك ، بل كانت الثروة في الدول ملائمة هي محل حمد

(١) يمتلك فرنرزمبارت Zarnhart ، على العكس من « ماكس فير » أن اليهود
هم المصدر الحقيقي للرأسمالية الحديثة ، وأشار في ذلك إلى نجاح يهود هولندا
وفرانكفورت والبندقية ، في نجاح المراكز التجارية والمالية وتطورها إلى الانشاس
والزواج الاقتصادي ، كما كان طرد اليهود من بعض دول أوروبا سبباً في إفساد
والكون في عالم التجارة والمال . ولكن « فير » يرى على العكس من ذلك ، أن
اليهود لم يسببوا نمواً اقتصادياً أو رأسمالياً ، بسبب ما أسسه بالاختلاق التزدوجية ، حين
حار اليهود موردودوا بين «أخلاقيهم الخاصة» وبين ألوان الانضباط والتفريق والكرامياء
التي كانوا يملكونها أثناء حياتهم غير السخرة ، حين ثارت ندمهم « أخلاقيات البلدان
الأوربية » .

ولقد وافق « ستانلاف أنمارسكي » أستاذ علم الاجتماع في جامعة ردينج في إنجلترا
على موقف « ماكس فير » ، واتفق معه ، على أن اليهود لم يلعبوا دوراً أساسياً في بنت
«روح الرأسمالية الحديثة» .

وكتب «ماكس فبر» في هذا الصدد، بعض الدراسات السوسيولوجية، التي تدور رحاها حول أصول «الفكر الديني البروتستانتي» وبعد عقد المقارنات المستفيضة، بين البروتستانتية والكانتوليكية، وديانات الهند والصين، ودول شرق آسيا، حاول «فبر» أن يرد على الزعم الماركسي، حين رفضه وأنكره، وأكد على أن الدين هو «العنصر الثوري التغييرى» وليس الاقتصاد، كما أثبت «فبر» أن وظيفة النسق الدينى، هى وظيفة تغيرية، تؤثر على تحويل الأنظمة الاقتصادية، وتطوير الفكر المادى فقلب بذلك «الفلسفة الماركسية» رأساً على عقب، ورفض «ماكس فبر» للمادية الجدلية والتاريخية، بمعنى أنه رفض جدل التاريخ، كما رفض أيضاً جدل الطبيعة *dialectic of Nature*، على حد تعبير «انجلز Engels» .

«المفاسة» ومكاتب العلاقات العامة :

وإذا ما عدنا إلى دور مكاتب العلاقات العامة؛ لوجدنا أنها تتدخل أيضاً في خدمة جمهور المستهلكين، حين تحاول أن تقدم السلعة *Commodity* بأقل سعر، مع ترشيد تكلفة الانتاج إلى أفضل ترشيد يمكن بتخفيض التكاليف الاجمالية، والحصول على أفضل كمية وكيفية بصدد الانتاج ومستوى الانتاجية؛ مع تخفيف حدة المنافسة *Competition* التي قد تبلغ أحياناً إلى درجة الصراع *Conflict* التي قد يؤدي إلى المنافسة القاتلة *Cut throat Competition* . من طريق لإغراق *Watering* السوق بسلع رخيصة، مؤكدة الغشارة عند البيع، حتى تطرد من السوق، مؤسسة أخرى تنتج نفس السلعة، فتسحب من ميدان المنافسة بعد أن تكبد الخسائر القاسية. وتوجه «مكاتب العلاقات العامة» إليا بانية نحو المنافسة الشديدة بين سائر المؤسسات، طبقاً للبدأ القائل «السلع الرخيصة تطرد السلع الغالية» .

وفي ألمانيا يقرم نظام « الكارتل Cartel » ، حين تتفق مكاتب العلاقات العامة على « توحيد سعر البيع » ، أو التوزيع الجغرافي السوق وتقسيمه فيما بينها ، وقد تتفق أيضاً على « كم الإنتاج » المقترح إنتاجه لغزو السوق ، وبذلك تقل حدة « المنافسة » بالاتفاق على شروط الإنتاج والتسويق ، والاتفاق على سعر السلعة وتقسيم السوق طبقاً للاتفاق ، على توزيع المنطقة جغرافياً لترويج السلعة .

وظهر في أمريكا نظام « الثقة trust » ، بقدا لاتفاق بين المؤسسات والشركات الاقتصادية والصناعية التي تعمل في « ميدان إنتاجي واحد » ، والتي تشترك في « عائلة سلمية » ، محددة ، لإحتكار السلعة والتحكم في سعرها في السوق ؛ وهنا تستولى المؤسسات الكبرى ، على أصوات مجالس الإدارة في المؤسسات الصغرى ، وتحقق المؤسسة الكبيرة مصلحتها على حساب المؤسسة الصغيرة ، وتسيطر كلية لمنفعتها ، واحتكار المؤسسة الكبرى لكل الأسناف ، وذلك بالسيطرة على كل إنتاج المؤسسات الصغرى ؛ وتسيطر كلية لمصلحة المؤسسة الكبرى ، مع احتكار « الصنف » ، أو استغلال سلعة من السلع ، ورفع سعرها في السوق (١) .

ولقد ظهرت الآن الاتجاهات الجديدة في مكاتب العلاقات العامة ، والتي تتشرب مع الرأسمالية الحديثة Neo-capitalism ، كما تأخذ بمذاهب الاقتصاد الموجه guided economy . ويدار هذا النوع من الاقتصاد ، لاصصلحة الرأسمالية الخاصة ، بل للصصلحة الوطنية والقومية ، ولقد تخطت الرأسمالية الحديثة عن نفعية « المذهب الليبرالي » ، وجعله ، في سبيل المصلحة العامة ، الأمر الذي يخفف ويقلل من حدة الصراع والمنافسة ، كما ويحمي العمال بما يندم ؛ من ظروف البطالة والسجن والشيخوخة .

(١) الدكتور حسن همامه سلطان ، دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي ، ص ١١٢

البحر والدراسات العربية ، المجلد الثاني ، ١٩٧٠

العلاقات العامة والإعلان :

هناك الكثير من الوسائل التي تستخدمها « العلاقات العامة » ، كالنشر والندوة فلاشك أن عمله النشر ، هي عملية اعلامية يقصد بها إظهار الحقيقة بمظهر جذاب ، حيث تعمل « إدارة العلاقات العامة » على توثيق الصلة بالجمهور ، وعملها المؤسسة وإصدار مجلة أو جريدة ، توزيعها مجاناً ، بشرط ألا تنهم هذه المجلة بمجرد إصدار « اعلانات النشر » ، وإنما تقتصر مهمتها فقط على شرح المنتجات Products ، ونوع السلع ، وكيفية استخدامها ، مع الإشارة إلى خصائص هذه السلع وميزاتها . بمعنى أن العلاقات العامة ، إنما تنطوي « اعلاناً صادقاً » ، « وواقعياً لا زيف فيه » ، بينما تحاول « إدارة النشر » أن تقدم الاعلان في شكل مثير ومبالغ فيه .

وهناك ميزات أخرى تميز « إدارة العلاقات العامة » ، من الدعاية Propaganda حيث تقوم الدعاية على « الضغط القوي » ، أو « فرض تغيير الرأي » بطرق أو وسائل متعسفة ، تستطيع أن تؤثر على التصورات العامة وتوجه الرأي العام ، ولا يمكن أن تستخدم العلاقات العامة مثل تلك الأساليب التي تستخدمها الدعاية ، على نحو متعمد وناشط ، وإنما تستخدم العلاقات العامة الأسلوب الذي الهادئ والمقتنع والرشيد ، وبذلك تحقق مكاتب العلاقات العامة أهدافها ؛ بطريقة لاحتف فيها أو قسر .

ولقد استخدمت « النازية » و « الفاشية » أساليب الدعاية السياسية ، التي اشتهر بها « هتلر » و « موسوليني » و « جويكر » ، حين لا تترك الدعاية السياسية في النظم الأوتوقراطية المستبدة ؛ للفر دسرية الاختيار وإنما تضع أمامه الخلقائق في صورة مفروطة ، أو حملية تجعله مجبراً على القبول معها ، بينما تقوم مكاتب العلاقات العامة ، بشرح للمبادئ وتقدمها للوطنيين ، وهم أحرار بذلك في اختيار ما يرون ، أو الاتجاه مع ما يتصورون أنه الصحيح .

ظهور العلاقات العامة :

تقسم العلاقات العامة ، إلى نوعين ، أما النوع الأول فهو العلاقات العامة الداخلية internal Public Relation والنوع الثاني هو العلاقات العامة الخارجية external .

وتقسم العلاقات العامة الداخلية، في المؤسسات الرأسمالية إلى ثلاث أقسام : يتعلق القسم الأول منها بسائر المساهمين في نطاق الشركات المساهمة ، ويتصل القسم الثاني بتلك العلاقات التي تربط المؤسسة بالمتعهدين ، أما القسم الثالث فيصل بين المؤسسة وسائر الموظفين والعمال ، بمعنى أن العلاقات العامة الداخلية ، إنما تتعلق بالمساهم والمتعهد والمستخدم ، ومن ناحية الموظفين والعمال ، نجد أن المسألة تختلف ؛ حيث أنها علاقة ذات وضع خاص ، فهناك لاسف علاقات عامة ، مع كبار الموظفين ، وعلاقات عامة مع صغارهم ، وعلى أي حال ، هناك نوع من الاتصال Communication بين المؤسسة وموظفيها وعمالها .

كما يجب أن تكون العلاقة بين كبار الموظفين وصغارهم ديمقراطية ؛ وأن تظهر هذه العلاقة بشكل إنساني لا استعلاء فيه ؛ وينبغي أيضاً أن تفتح الأبواب لكل طائفة حتى يتمكن المروءسون من الاتصال بكبار رؤسائهم في جو من الألفة والطمأنينة ، ويمكن إيجاد هذا الجو الديمقراطي في المؤسسة بوسائل مختلفة منها إصداره جريدة للصنع ، أو مجلة للشركة حيث تؤدي هذه الجرائد والمجلات وظيفة جوهرية وهي ربط الصلات بين الموظفين والعمال من جهة ، وبين صغار المستخدمين وكبارهم من جهة أخرى ، مما يؤدي إلى نتائج موفقة ، كما ينبغي أن تدرس المشروعات التي تقوم بها المؤسسة وأن تكون هذه المشروعات ذات قيادة واضحة وإدارة حازمة ، ووفق خطة هادئة وعامة تؤدي إلى نتائج مفيدة داخل المؤسسة نفسها ، وهناك أمثلة متعددة تستخدمها الشركات الحديثة من أجل زيادة

التعاون بين الإدارة والعمال ، ومنها تقديم مكافآت مالية ، لتشجيع العامل المنتج في مناسبات عامة ورفع المستوى التقني واسطة لقاء المحاضرات وأبحاث البحوث ، والمراسلات التطبيقية ، والقيام بمقد الندوات الجماعية والخاصة (١٩) .

وللجالات والمصنف للمهنية التي تصفها للتؤسسة ، كما هي الحال في تحسين الاتصال بين الموظفين والتؤسسة وبين التؤسسة والمجهر ، فمن وضع رئيسو Remants ، السيارات في فرنسا لا يوجد عامل لا يعرف مدير المصنع ، أولاً يطلع أو يعرف كل كبيرة وصغيرة عن التؤسسة ، حيث أن الأمر الملم في دول العلاقات العامة الداخلية هو : إيجاد جو من الثقة والعمل للثمر الجاد ، وإحلال العلاقات الإنسانية على المحقد والكرامية .

وكثيراً ما تلجأ بعض التؤسسات الرأسالية والاشتراكية ، إلى تحريب القوارق بين فئات العمال والموظفين ، عن طريق البرامج الرشيدة التي تقوم بها : إدارة العلاقات العامة ، مثل : إقامة المآدب ، اللوسية ، والحفلات الترفيعة ، مما يربط من درجة اتئله العمال للتؤسسة ، وقد تثار للشكلات في حوار ديمقراطي خللاق ، وتناقش في جو من الألفة على مواعيد الطعام ، تماماً كما يقوم : السلك الدبلوماسي ، بحل أحوصل للشاكل السياسية باقامة للآدب ، فتناقش للشكلات في جو دبلوماسي وحفا حوما تعارفت عليه كل الأنظمة في كل الدول ، وهو ما يسمى بالديبلوماسية ، وهو أمر أخذت به آداب الاتيكيت في : السلوك السياسي .

العلاقات العامة الخارجية :

تشرعنا إلى دور العلاقات العامة الداخلية ، وأنفسانيا وعلاقتها مع أصحابها ،

(٢٠) العلاقات العامة الخارجية ، ترجمة منقول حسن علي ، منشورات الدكتور محمد علي ، لايتجمل سلسلة العلاقات الانسانية ، طبعة للمهنية العامة في كتابه ١٩٧٠

وعرفنا أنها تتصل فقط بكل ما يدور داخل المؤسسة الاقتصادية . أما العلاقات العامة الخارجية ، فتتجه نحو خارج المؤسسة ، وتتصل بالجمهور ، وتختص بقيم ودراسة سوق الاستهلاك المحلي والعالمي .

ولاشك أن دجلة للبنية ، التي تصدرها المؤسسة ، إنما تهدف إلى إطلاق أكبر حجم ممكن من قطاعات اتصال ، والتوصل إلى كل قسم وإدارة حتى يطلع عليها كل موظف ، وعامل ، واداري . .

فصحيفة المؤسسة هي أكبر وسيلة مستخدمة في إدارة العلاقات العامة الخارجية كما ينبغي أن تسمح مكاتب العلاقات العامة ، بزيادة معرفة الجمهور للمؤسسة أو الشركة وقيام أصحاب المؤسسة ، برحلات خارجية وإقامة الحفلات العامة الخارجية ، باصالات مباشرة بالجمهور الخارجي ، عن طريق المسابقات ، وتقديم الأفلام السينمائية والتلفزيونية ، مع إصدار بيانات دورية ، لاسر الصحف والمجلات واعداد كتيبات ونشرات خصوصاً حول نشاط المؤسسة وميزانيتها العامة ، تلك التي تطلع جمهور المساهمين القليلين والاحتاليين . وتقوم برامج العلاقات العامة الخارجية بتشجيع الرابطة والتمسك باعتبارهما من أهم أدوات ، الاتصال الاجتماعي ، وفي هذا الصدد أقامت العلاقات العامة الخارجية ، مراكز الخدمة العامة ، والتدريب والتوجيه ، كما استخيمت العلاقات العامة الخارجية الأجهزة الخاصة بالأبحاث في ميدان الاتصال الاجتماعي ، وإقامة التجارب التطبيقية ، والاحتكاك بمجرباء ومعايد قياس الرأي العام (١) التي تسجل مؤثراتها

(١) في دراسة عن الاتجاهاات السياسية في فرنسا ، أجرى المعهد القومي الفرنسي لدراسة عن الاتجاهات السياسية في فرنسا عام ١٩٥٠ . حيث يصرحنا السيد كوكو للأبحاث السياسية بحقيقة كانت (م. برونو) كوكو يقوم في مختلف الدول بحملات لبيان الرئية التي تتجلى في

اتجاهات الناس وميولهم ، مثل ما قام به المهد القرمي الفرنسي عن اتجاهات
الرأى العام فى فرنسا عام ١٩٥٠ .

= طريقة الاستخبار مثل « لجنة بحث اتجاهات الرأى العام الأمريكى » .

American Association for Public opinion Research

أظهر فى منا الصيد :

Cicourel, Aaron V., Method and Measurement in Sociology,
Free Press of Glencoe, London. 1964.

الفصل الثامن

ثقافة ذوي الياقات البيضاء

- ولكن كيف تكونت طبقة ذوي الياقات البيضاء ؟
- ثقافة الإدارة المتعاقبة
- أنماط من ذوي الياقات البيضاء
- ثقافات حاشية Marginal Cultures
- الأحراب السياسية في القول التلمي
- أدوار ومستويات ذوي الياقات البيضاء

المعبر :

قد نجحت طبقة ذوى الياقات البيضاء ، من إقتضار وتشد طوائف التمتع والتكنولوجيا . وهى طبقة بيروقراطية تسود وتتحكم ، ظهرت كقوى صناعية ، فسادت كطبقة اجتماعية قائمة بذاتها ، وتحكمت كصفوة جديدة New Elite ، بحكم باسم القانون ، وبالنسطة على بناء الـ Power Structure ، داخل كل تنظيم صناعي أو اقتصادي . وقد صدرت ثقافة ذوى الياقات البيضاء ، مما أفرز عسكرة التكنولوجيا وانتشار ثقافة التصنيع ، كقوة عالمية . كما نجحت هذه الطبقة من ذلك ، بتأثير البيروقراطية - Bureaucratic Influence ، الحاسم في كل د بناء اجتماعي ، أو في كل د لمسئ صناعي ، ، والحادث في كل التنظيمات الاقتصادية السائدة في مجتمعات بني البشر (١) .

ولكن كيف تكونت طبقة ذوى الياقات البيضاء ؟ :

ولقد ساعد نمو البيروقراطية ، على زيادة حجم طبقة ذوى الياقات البيضاء ، وخاضف من سلطاتها ومهابتها ، حيث تركز في أيديها بحكم القانون كل ألوان السلطة السائدة في كل تنظيم إداري . كما ويرتبط تفرد طبقة ذوى الياقات البيضاء ، كما إزدادت وتشدت سمكيات إجراءات الضوابط البيروقراطية - bureaucratic controls . وقد أحدثت ثقافة الياقات البيضاء ، بين سائر وثقات وأدوار البناء التنظيمي للمصنع ، الكثير من « الفجوات الثقافية » cultural gaps ، « وفي هذا الصدد ، يقول د هالفاس Halbwachs ، إن العامل الملمر ، قد يتفق على عظمه أكثر من د موقف بيروقراطي كبر ، له نفس النمط والآخر والوضع الاقتصادي . كما يرى د هومانز Homans ، أن النمط والوظيفة قد يكونان إما أثرهما في تحديد الوضع الطبقي ، العامل الملمر ، هو الذي يعطي نتائج أكثر ، ويحصل دائماً على سائر أكثر ، فنتجراً بأنه أكثر أهمية وأعلى مكانة Rank ، فيحاول أن يتفوق من

(1) Mills, Wright, White Collar, New York, 1961.

أجره بنوع دولارات، فيدفع في أسلوبه الاستهلاكى قروشاً أكثر من غيره. حتى يشعر الآخرون بأنه أكثر، أفضلية إذا ما قورن بغيره (١).

وتد تأثر شخصية العامل لا تراكم فرق رأسه وعلى حساب أعضائه من سائر فئات الإدارة الوسطى middle management، من مهندسين ومديرين ومشرفين وأسطوات، وكلها طبقات إدارية ووظائف إشرافية، تراكت فوق طبقة الياقات الزرقاء، فيعرض العامل لنفسكين، وتضطرب شخصيته، وتهتز أناه، الأمر الذى يستوجب ضرورة الالتفات إلى تأثير الياقات البيضاء، وثقافتها المضاعطة الكابتة، ومحاولة تخفيف حدة البيروقراطية، عن طريق ديمقراطية السلطة والحوار والسلوك.

قال ديمقراطية سبيل ومنهج Mehed، لأنها طريقة حياة Style of life، أما أوتوقراطية النظام البيروقراطى، الذى تقوم به طبقة ذوى الياقات البيضاء، كجهاز يفرض القرار دون سابق إنذار، فى أوتوقراطية مستبدة، وقاهرة، على العكس من الديمقراطية، كأسلوب أو كطريقة لامعيار ما يرضى عنه الكل، consensus فهو قرار الكل، الذى يتصاعد بالمنافسة المفتوحة الواعية، فينطلق القرار الجماعى من قاعدة ذوى الياقات الزرقاء، إلى قمة ذوى الياقات البيضاء (٢).

وتطلق العلاقة الديمقراطية داخل جدران المصنع، عن طريق احترام الإنسان والأعراف بقيمته وفرديته، بدلاً من أن تتمسك طبقة الياقات البيضاء بما حرمها من نمطية السلوك وسلطان الإدارة وهيلان السلطان. فلتفتح فيمصاننا الترافد حتى

(1) Smelser, Neil, Sociology, An Introduction, Pakistan, India, 1967 P. 66-67.

(2) Selznick, P., Leadership in Administration, American Sociological Review.

تضيق العدالة ، ويسود للناس الديمقراطية للربح، والحو الإنسان للتعج والمفيد،
حيي يحدث التقلب بين طبقة الإدارة للثقفة ، أو طبقة العمل والمال من متوسطي
التعليم ، ومن ذوي الخبرة الفنية . فيزول التمازض ويذوب الصراع بين سائر
الفئات الحرفية والمهنية والفنية .

وقباً يتعلق ببنية الجماعات المهنية Occupational Groups لشر د كيت
براندى Kenneth Prandy ، (١) مقاله للشهيو عن د التكنولوجيا في المجتمع
الصناعي Technologists in industrial Society ، وفيها يقول ، كتب
براندى ، إن المهندس الذى يعمل ويشرف ويفتح في جماعة الإنتاج الصغيرة ،
هو شخصية مهنية غتارة للاشراف الفنى ، على جماعة أو جماعات مهنية ، وتتمثل
قرارات المهندس وترتبط بالخطة العامة للإنتاج . وقد يحدث الصراع الصناعي
بين رؤساء الجماعات المهنية Gang Boss من جهة ، وبين المهندسين من جهة
أخرى ، ، وهو صراع أيديولوجى وثقافى وصوى ، نظراً لوجود الفروق القرودية،
والمهنية ، ولاختلاف درجة الخبرة بحيث تعمل التكنولوجيا بصفة مستمرة على
خلق الصناعات الجديدة وتطويرها ، مما يرصع العمال غير المهرة أو يخل بتحقيق
أهداف الخطة ، كما ريموق حركة الإنتاج . ويقول د ميرتون Merton ، (٢)
إن قرارات المهندسين ، إنما يفنى أنما نم النظام Routine كما يفنى أن تكون
إنسانية ترضى العامل ، ولاشبه قلقة أو اضطرابه أو خوفه ، وهنا يقتصر الدور
الرئيسى للمهندسين على التوجيه الإنسانى ، والمتابعة الديمقراطية ، ورفع الروح
المعنوية بين عماله .

(1) Restivo, Sol, P., Christopher, K., Vanderpool, Comparative Studies in Science and Society, U.S.A. 1974. P. 165.

(2) Ibid: P. 167.

١-٣-١٠ الثقافة الصناعية :

قد أشار كارل مانهايم في كتاباته المتعددة إلى عدد من المسائل التي تتعلق
في حقل ، سوسيولوجيات ، الثقافة و المعرفة Knowledge ،
حل فيها وحل ، أثر سوسيولوجيات المعرفة في أساليب الدعاية Propaganda
والاتصال communication كما كشف عن أيديولوجية جديدة ، انبثقت مع
ظهور طبقة ذوى الياقات البيضاء (١) .

ويقول هيربرت ماركيز Herbert Marcuse ، إن طبقة العمالة قد دخلت
تحت وطأة التنظيمات الصناعية الحديثة ، فتفككت وتفتت وتسلست في مراكز
إشرافية ، وأدوار غيب ، فانقسمت العمالة على ذاتها إلى طبقات متنافسة ،
إصطرت مصالحها في هرم العمالة (٢) . ولقد كتب روبرت ميرتون Robert
Merton ، عن الآلة والعامل والمهندس the machine, the worker and the Engineer
، ووظائف الملاحظين والمشرفين (٣) .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو التأكيد على تفاضل بنية المصنع ، وإقسام
البناء الصناعي كنظيم as an organization إلى أدوار Roles ، أو
فئات من العمالة ، كالتفنيين من ذوى البلاطى السوداء Black coats ،
وكالعمال من ذوى الياقات الزرقاء Blue collar ، وكبار الموظفين والمهندسين
من ذوى الياقات البيضاء white collar بكل ما لهم من وظائف رسمية داخل
البناء التنظيمي للمصنع .

(١) Mannheim, Karl., Sociology of Knowledge, trans by
Paul Kecskemeti, Routledge & Kegan Paul, London 1952.
(٢) هيربرت ماركيز : كارل مانهايم ، ميرتون (٣) Merton, Robert (Sociology of Social Structure
American 1966 P. 616.

ولقد أساطت طبقة ذوى الياقات البيضاء، نفسها بهالة من اللمعة *Prestige* التي قد تشجع على نمو الشخصيات العقلية، التي تدور في تلك طبقة الإدارة العليا، وهذا هو المرض البيروقراطي الخطير، الذي يصيب الآن الإدارة الصناعية المعاصرة. فقد يحرم الرئيس أو الإداري من ذوى الياقات البيضاء، على إبقاء «مسافة قاسية» بينه وبين مرؤوسيه *to keep a distance*، وتبعد هذه الظاهرة السيكولوجية، فتنظر لنا عن جوانب مرضية تكشف عن حقيقة ثقافية ذوى الياقات البيضاء، وخطرها وأدوارها، وأثرها في عبوط الانتاجية لوجود حسابات معينة في ثقافة للمصنع، بين المال ورؤساء العمل، مما يؤدي إلى وجود فجوات في قنوات الاتصال. حين ينور حول كل إداري، بطانة أو «شدة» من العلاقات غير الرسمية *informal* التي قد تعجب عنه الرؤية الحقيقية للعمل (١).

ولاشك أن تعدد الإشراف الإداري والفني أثره على شخصية العامل، الأمر الذي يساعد على زيادة القسوط والكبرياء من جهة الإدارة، بينما يشعر العامل بالمرارة والحقد فيكون الناتج هو الفشل، وانفصال طبقة ذوى الياقات البيضاء، عن ذوى الياقات الزرقاء على الرغم من ضرورة التعاون بين المهنيين والعامل، حتى لا تضيع المسؤوليات *Responsibilities* فيحدث القسب والتصل من المسؤولية، على حساب التنظيم، و«الإنتاج»، فتقل الميزات ويرداد التراخي والاعمال والكسل.

ولقد اعتمد برامج المسلمات الإنسانية *Human Relation* بحل هذه المشكلات الإدارية، وتهذيب بيروقراطية ذوى الياقات البيضاء، حتى يحدث التقارب بين سائر وجهات النظر، لإمادة تنظيم *Reorganization* واحداث التكامل، وسد الثغرات الثقافية *cultural gaps* بين ذوى الياقات البيضاء

(١) Setmick, P. Leadership in Administration, *American Sociological Review*.

ومعتقد الملائمة ونشاط الجوهر الذي يعبر على من يخلط بين الإنتاج (٢).

فلا شك أن أدور فاعلية قوى الياقات البيضاء ، قد تحيل الجماعات الصناعية المتغيرة إلى جماعات عديدة aggregate groups وعنده بالطبع جماعات لا تخرج كأنها جماعات ولا إنسانية ، أما الجوهر الذي يعبر على ، وانتيقار السيل الإداري الخلاق creative Method فيحل كل جماعة عديدة ، إلى جماعة عضوية organic group وهي جماعة « إنسانية متحدة » ، بل وهي أكثر إنتاجاً وتفاعلاً ونشاطاً من الجماعات اللا إنسانية العددية . فالأول متماسكة ومتكاملة ، والثانية مفككة ومتقسمة . وهناك تعمل « فلسفة العلاقات الإنسانية » على تغيير النظرة الثقافية لطبقة قوى الياقات البيضاء ، لتطوير العمل ، وزيادة الألفة بين العامل والآلة ، مع التجاوب والتعاطف دون قهر أو إجبار (٣) .

ولقد أشارت « ماري فوليت Follet » في كتابها عن « التنظيم الصناعي Industrial organization » إلى ضرورة رفع مستويات العمال ، وتنمية شخصية العامل ، وتقوية الجمود والقنوات وتزويج العلاقات بين الياقات البيضاء والزرقاء ، وعنده حقيقة أولية من حقائق علم الإدارة والتنظيم ، ومن ثم تحرر الفكر الإداري من عادات فكرية متبعة ، وتقل حدة السلطة وتسمح ثقافة قوى الياقات البيضاء ، باحفاء جوهر الألفة والتعاون ، فيصبح العامل أكثر حرية في تفكيره ومناقشاته ، كما يصبح الإداري أكثر ديموقراطية في سلوكه وفي علاقته بالعمال (٤) .

(1) Hill, Michael, the Sociology of public administration, 1972

(2) Friedson, C., 'Industrial Society: the Emergence of Human-relation of automation, Glencoe, 1964.

(3) Follet, M., P-Friedson and co-ordination Management Publication, Trusts, London. 1949.

أنماط من ذوى الياقات البيضاء :

لقد ظهرت أنماط متباينة من ذوى الياقات البيضاء (١)، وصفت كلها من
 «تكنولوجيا العصر»، وارتكزت هذه الأنماط «وفاً لـ «بورجوازي» نظرية»
 واشتراكياً تارة أخرى حتى ظهرت في هذه الأيام «أيدولوجيات اليسار الجديد»
 كى تخلق لنا طبقة جديدة لها سماتها الثقافية، وتصوراتها الاقتصادية، وعلماؤها
 الاجتماعية، تلك هى طبقة الماركسية الجديدة Neo-marxism وهى تمثل جناح الفكر
 اليسارى المتفتح الذى خرج على «اليسار الماركسى» فى ثقافة الكلاسيكي، وعطوفه
 المهور، كما خرجت منه الطبقة ثقافياً وفكرياً، حل النمين البرجوازي محلها
 وحلّت طبقة «اليسار الجديد» بطريقة جدلية تذكرنا بكتابات هيجل Hegel
 فاستطاعت أن ترفضه أو تفسره ثالثاً، تخفف من حدة الحوارات تتم بين نظامها
 الاجتماع الماركسى من جهة، والزرعة النضمية utilitarianism البورجوازية من
 جهة أخرى. فعالم ماينور ويشند الحوار وتخدم المتناقضات الحادة، فى مختلف
 ميادين الفن والأدب والسياسة والاقتصاد، فكرونا «جهة ثالث» تحمل
 أيدولوجيات فنية وأدبية، وترتدى «أردية ثقافية» وسياسية بينها، تبلورت
 كلها وتوحدت تصوراتها، وتمثلت ظلماتها فى وحدة فكرة وفنية، تركزت
 فى صورة أيدولوجية بينها، وافقت نظراتها فى مصورات قديمة عفاها
 وحداثة، فاعتدت كلها ثقافياً واقتصادياً وفكرياً فى وحدة فكرة، تحققت فى
 «حياة اليسار الجديد»، تلك هى سادت الآن فى معظم دول آسيا وأفريقيا
 سائر المجتمعات الصناعية، والثقافات المتقدمة وفى معظم الاقتصادات الجارية سواء
 تقليدية منها أو النامية.

(١) Mills, Wright, White Collar, New York 1951.

صفوة القوة Power elite :

مع ثورة التكنولوجيا والادارة والتخطيط، ظهرت في هذا الأيام، طبقة تكنوقراطية معاصرة وهي طبقة متعلمة سياسياً، تتألف من كبار المديرين ورؤساء مجالس الإدارات، كما ويدخل في « طبقة تكنولوجيا العصر » طبقة الصفوة التكنوقراطية Technocratic Elite ، وطبقة الصفوة البيروقراطية bureaucratic elite . من كبار رجال الإدارة، وذوى الخبرة والمهارة التطبيقية، من العلماء والمختصين والمستشارين في عالم الاقتصاد والتشريع، وخبراء الصناعة والاعلام والاعلان^(١)، ولقد عانت « صفوة القوة »، المنشئة في الطبقة التكنوقراطية المعاصرة، كثيراً من آلام الحرب العالمية الثانية، وتمزقت أجيالنا وهانت كافة الأحرار من ولايات هذه الحرب الأيديولوجية المدمرة، التي ظمت وانتهت خلال فترات الطفولة المبكرة، تلك التي إنسحقت تحت ضغط الصراع الدولي بين معسكرين سياسيين، وازالت هذه الطبقة ثغاني من سياسة الصراع والتناوب، بين أيديولوجية العيين وأيديولوجية اليسار.

ولقد تمخضت « طبقة اليسار الجديد »^(٢)، عن ثورتها الماركسية المهددة، لأنها كطبقة قديمة، تأخذ بالتطور، إلا أنها في نفس الوقت، وقد أخذت بالاحمر الواقع، ورضيت هذه الطبقة بالوضع الراهن، وعلى نحر حيادى وإيجابي،

(١) لقد أطلق « رايت ميلز Wright-Mills » اصطلاح صفوة القوة Power Elite في كتابه « أسدود »، في نفس هذا المعنى وشرح « رايت ميلز » في جيبنا الكتاب « بناء القوة » ودور « الطبقات » ووظائف النخبة : « نخبة طبقة أو نخبة ذوي الياقات البيضاء »، أخطر في هذا الصدد :

Mills, Wright., The Power Elite, New York, Oxford university press 1956.

(٢) لقد أكد على وجود مثل هذه الطبقة كل من « بول باران Paul Baran » و « نيتشه Mannheimer » و « شارل جيلمان Bettelheim » .

واختارت لنفسها الموضوعة الثالثة . وعلى نحو حيادي وإيجابي ، فلا تنحى إلى اليمين أو إلى اليسار . وهنا هو : الحيد ، بمعناه الإيجابي ، لا : السلبي .

الخلاصة هامة :

وإذا ما أردنا أن نطلق مصداق الصقوة التكنوقراطية *technocratic elite* بعض الأحكام السو-بولوية ، فانا ينبغي أن نناقش موقفها من قضايا مصر في التنمية ، والتكولوجيا ، مناقشة موضوعية وواقعية ، وأقصد بالموضوعية هنا ، تلك الأحكام المستلثة بقيم الصدق والحق والعدل ، ويمكن أن يطلق عليها كلها اسما واحداً ، هو : الأحكام ذات النزاهة . فلا تحرف إلى يمين أو يسار .

ولا أقصد بالنزاهة هنا معناها الاقتصادي الساذج أو للأزف ، في لفتنا العامة ، فالعامل النزيه هو ما يطابق في تصورنا المصري الفارج نموذج الشخصية النزيهة ، التي تنفق دخلها المحدود عن سمه ، لكي تؤكد نفسها ، وتتم بظواهر الرجالة ، إلى الدرجة التي معها قد تنسحب بعض الفئات الهامشية بكل ما هو جديد في عالم الموضنة وتتمسك بظواهر النعمة والآية ، حتى تترقى طبقياً وتسلل إلى طبقات أهل ، وهناك ما يسمى بالإنسان الهامشي *Marginal* ، أو : النهمي . وهو المعروف في لفتنا العارضة ، بأنه الإنسان الذي يبطل عليه فحمة ثروة ضخمة ، ففوت الأموال الطائلة عن أيه : الكزى . وجده : البخل ، فإذا فعل هذا : النهمي ، أو ذلك الإنسان الهامشي البخل ، سوى التبذير بعد حقير ، والسعة بعد ضيق ، حيث يعيش وحياً في غشيه من القنور والكسل واللامبالاة ، ، فينفق ما في الجيب كي يأتيه ما في القيب . ، ولذلك قيل في الأمثال المصرية البلدية : مال الكزى النهمي . وهو الإنسان النافذ غير الطموح ، الذي يتأخر علماً عن : الرجل المكافح ، أو : الشاب الملتزم . . . فلازل : أمان ، حتى : الانق . . . ويمتاز بالمشغ والفضالة والخرابة . أما : الثاني فهو : الإنسان الناجح . الذي يتناول في لفته عمرات خبراته وطموحه :

وميش في وظيفة، وذلك ميزة طبقية، وسمة تفريقية، بين غالبية الحرفاء و«السحارين»، في مجال التكنولوجيا والصنيع، وكذلك بين عظم أصحاب المدين، ورؤساء مجالس الإدارات من ذوى الفئات البيضاء، حيث يؤلف هؤلاء، طبقة بيضاء، ذات أبعاد واحدة من زاوية الفكر والثقافة ونظم الحياة *in vivo* mode على حد تعبير «موريس هالفاكس» Halbwachs، وذلك هي نفسها، طبقة الصفوة التكنولوجية، التي يكون لها في كل مجتمع، مثلها وتطلعاتها، وتستند إلى دورها ووظيفتها، سواء في توجيه هذه السياسة الداخلية أو الخارجية للدولة، استناداً إلى مراكزها القوية في المنظمات الصناعية والمؤسسات الثقافية والأجهزة البيروقراطية التي تسيطر وتحكم في سائر أجهزة الحكومة والمؤسسة. ولأنك أن أجهزة التخطيط في كل دولة نامية، إنما يقوم بها قهواً التشريع والقانون، وخبراء الاقتصاد والصناعة، ووجهاء الفكر والثقافة، ويمثل كل من هؤلاء وأولئك الفئة الأساسية التي تحصل لسان للشروعات، وتشرع الحكومة كجهاز بيروقراطي، سائر التشريعات المنفذة مثل هذه «الخطط السياسية» و«الهندسات الاجتماعية» social geometrics التي يضعها أمثال هؤلاء.. من أجل تحقيق التحديث الحضارى Modernization أنى قيام الدولة النامية المعاصرة.

ولا أقصد بالطبع هذا المعنى الطبقي الاقتصادي لمفهوم الزمامة، وإنما قصدت معناها «المنطق الحقيقي»، الذي قد يتشعب مع «معايير» المنطق logic و«قوة» القانون law.. فالمنطق القوي هو الذي يحكم دون أى تأثير خارجي، ومن ثم يكون حكمه حكماً موضوعياً وأميناً ونزيهاً، وله سبحانه ويمسك هو «القوة»، اللزوم من المكائبة والقرينة، لأنه تعالى لا يتأثر بغيره، لأنه واحد سبحانه. فيلجئ كل المنطق القوي لا يتأثر بنوعه حتى تصبح أحكامه أحكاماً موضوعية ذات برهان وعلل للزمامة على حد كتابها هي ميزة جمهورية من عزمات «حليقة الدين المستطيلة» أو حتى «طبقة السائر الجديد»، لأنها كطليقة موضوعية لا تتأرجح بين الدين واليسار.

ولا تتأثر إلا بظروفها الوضعية ولا توجه إلا إلى مصالح شعوبها، ولا تحقق سوى آمال هذه الشعوب، وهذا هو الهدف البعيد من أهداف علم اجتماع التنمية .
ولعل المهرس الحقيقي الذي تطلت المجتمعات النامية من صدور أو خلق طبقة البائت البيضاء . حين سادت وتميزت بفضل خضوعها لتجربة اليسار وطرفه اليميني وجمعه ، فتكون اليسار الجديد ، وذاعت مبادئه ، في كل مكان، حتى وجد طريقه في قلب المجتمع الأمريكي نفسه، كي يسير عن «الثورة المضادة» أو رد الفعل كحركة مضادة counteraction ، لما يحتويه المجتمع الأمريكي من صراعات وتناقضات نجمت عن حضارة التكنولوجيا ، فظهرت «الأحزاب السياسية» ذات الاتجاهات المتعارضة، لكي تهضم ثقافة العصر ومتغيراته، أو حتى لكي تهدم أنماطاً تقليدية ومتخلفة ، وتعيد لها الأساق الحضارية ، بتحديث القيم Modernization of values وتطوير النظم ، وتغيير أروية الثقافة ، عن طريق التنمية الإدارية وثورة التخطيط .

الأحزاب السياسية في الدول النامية :

يفنى أن نعتبر الأحزاب السياسية في المجتمعات النامية ، من آمال شعوبها ومطلعات مجتمعاتها ، فتعدل هذه الأحزاب السياسية على وضع استراتيجيات للتنمية والتخطيط ، لتطوير مجتمعاتها ، وتغيير تصوراتها أو عاداتها الفكرية سواء بتعديل الوضع التقليدي السائد، وتبديله بما هو أفضل، أو عن طريق التخطيط العلمي الذي يحقق لكل دولة نامية وأفقاً أفضل، عن طريق برامج التنمية والتجديد تطبيق تكنولوجيا العصر واستخدامها ، لمحاربة التخلف والبدائية والبطالة .

وعلى هذا الأساس ، يعد كل حزب برنامجاً يميزه عن غيره من الأحزاب ، بحيث يشمل هذا البرنامج كل ما يسد على حل المشكلات الجماهيرية الراهنة ، واتجاهاتها ، بما يحقق صالح الاقتصاد القومي ، وبما يتفق وامكانيات الدولة ،

وبرامج الحطة التعليمية والسياسة ، التي ينادى بها الحزب ، ويخطط لها ، ويؤكد قضاياها بالشرح والتحليل ، وباستخدام أدوات الاتصال وأجهزة الأعلام.

وتفتش برامج الحزب السياسية والاقتصادية والتربوية ، عن ظروف وضعية تعمل هي نفسها على خلق الحزب السياسي نفسه . فلقد خلقت التكنولوجيا الأحزاب السياسية القوية في اليابان ، ويحقق كل منها مختلف البرامج العملية التي تعظم الحزب والدولة والمجتمع الياباني .

ولعل الظروف الوضعية والاقتصادية ، هي أقدر على خلق الأحزاب ، أكثر من الظروف أو الأحداث السياسية ، كما كان الحال في وحزب الوفد ، الذي صدر أصلا في ظروف تاريخية مهمة ، تتعلق « بالوفد السياسي » الذي كان يمثل مصر في المحادثات أو المفاوضات التي عقدها مصر مع إنجلترا ، برئاسة الزعيم السياسي الحالك « سعد زغلول باشا » ، حيث تفجرت « ثورة مصر المشهورة » باسم ثورة عام ١٩١٩ بعد عزل أو نفي سعد زغلول باشا ، مما أثار حفيظة المصريين ، فخرجت المظاهرات الشعبية الصاخبة تطالب بالحرية والجملاء وهودة « الزعيم الكاظمي » سعد زغلول .

إلا أن حزب الوفد قد تألف بعد ذلك ، من الاقطاع المتحالف مع العمال ، وحقق فلا بعض المشروعات الناجحة ، « كشروح العنان الجماعي » لتأمين الإنسان المصري ، من الفقر والفاقة ، مع صدور أول وزارة وفدية ومصرية الشتون الاجتماعية ، وأول وزارة وفدية ومصرية لتموين والتجارة الداخلية . كما تكونت الإدارات والمصالح التي تعظم « قضية القلاح » ، وتقدم له الخدمات الخاصة بالتسليف وتقديم القتاوى والأعلاى واليندور ، مما يعمل على تنمية دخل القلاح المصري ، إلا أن الأحزاب المطلوبة في دول العالم الثالث ، يجب أن تكون ذات أيديولوجية خاصة ، تعظم قضايا العمل والعمال . وتحل مشكلات

التكنولوجيا ، مع تقديم الحلول الناجمة والمريحة ، لسائر المشروعات الاقتصادية التي تسجل بالنمية الاجتماعية ، وتحقيق آمال الشعوب الكادحة في دول العالم الثالث .

شخصية انسان العالم الثالث :

يمكننا بحد الإنسان « الأفروآسيوي » الذي يعاني الآن من إقصاء الرأي حول الأيديولوجيات المعاصرة ، بين « شرق وغرب » كما قد يعاني أيضا من « الحياء » بين الدين واليسار ، فيقع الصراع بين الحياء السليبي ، والحياد الإيجابي ، وقد يتردد حتى في قبول « الحياء الفلسفي » ، ولذلك ينبغي أن نستخدم المنهج الفينومينولوجي Phenomenological Method من أجل تحليل السمات العامة لشخصية الإنسان « في المجتمعات النامية » .

ومع كتابات « زمرمان Zimmerman » و « بولنر Pollner » و « وايدر Wiedner » بدأت الاهتمامات المعاصرة بالعالم كظاهرة The World as a Phenomenon^(١) ونشأ علم الاجتماع الفينومينولوجي واضعاً برفض الحركة الوضعية Positivism والنزعة البنائية Structuralism والوظيفية Functionalism التي يقول بها بارسونز وميرتون ، والسلوكية Behaviorism التي يأخذ بها « هومانز » ، وظهر للنهج الفينومينولوجي في علم الاجتماع عند « روبرت أنطونيو Robert Antonio »^(٢) و « ألفرد شوتز Alfred Schütz » ، بسدد دراسة « فينومينولوجيا العالم الاجتماعي »^(٣) بالإضافة إلى وجود كتابات رائدة في علم الاجتماع الفينومينولوجي ، بدأت عند « ماكس فيبر Weber » و « ماكس شلر Max Scheler » و « كارل مانهايم Mannheim » ، ودراسات

(1) Antonio, Robert., Phenomenological Sociology, New York. 1973.

(2) Schütz, Alfred., the Phenomenology of Social World, Evanston, IL : North western university press 1967.

« جيفتش » (١) و « كازنيف » Cazeuve . ولقد دارت كل هذه الجهود حول تطبيق منهج « هوسرل » Edmund Husserl ، في دراسة الظواهر الاجتماعية والسيكولوجية ، بعد أن صاؤ « علم الاجتماع المعاصر » ذرعاً ، وهو يطل على مشارف القرن الحادى والعشرين ، بما يعانيه من نقاط الضعف الشديدة ، التى تمائ منها « النزعات الوضعية » و « السلوكية » و « الجمعية » (٢) . وغيرها من سائر ادعاءات علم الاجتماع في ميدان « النظرية الوظيفية والبنائية » .

لزمة الانسان الاثروآسيوى :

ويمكننا بفضل تحليلات « المدرسة الفينومينولوجية » والاتجاهات الماركسية الحديثة ، أن نقد زواجا « سوسيولوجياً غصبياً » قد يكون له نتائج ورواجه ، بعد سنوات قليلة . حيث أن المنهج المستخدم الآن في منظورات علوم التكنولوجيا وسائر علوم العصر ، هو المنهج الفينومينولوجى الانسانى المتحالف ضد الوضعية anti-Positivism ، مع خصوبة « اليسار الجديد » وقضاياها التى تمشى دائماً وبحساب دقيق مع قضايا التنمية ضد الفقر والحاجة .

ولعل أهم قضية من قضايا العصر ، هى « قضية التخلف » ، تلك التى نستطيع أن ننظر إليها من وجهة نظر الماركسية الحديثة من جهة ، ومن خلال معايير النزعة الفينومينولوجية السوسيولوجية من جهة أخرى ، فنقول « إن الانسان فى المجتمعات الثامية » ، يمكننا أن نضمه بين فكي الأمر الواقع من جهة ، والتحدى المستدر

(١) أظر مقالنا (علم الاجتماع الفينومينولوجى) الذى نشر فى كتابنا (تيارات مساصرة ل علم الاجتماع) الميزة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ - ص ١١٦ وما بعدها .

(2) Tiryakian, Edward., Existential Phenomenology, American Sociological Review 30 (october 1965).

(3) Tiryakian, [Edward, Sociologism and Existentialism, Prentice-Hall, 1962.

بارادة التنوير من جهة أخرى ، وهذه هي ظروف الأمان التام من وجهة نظر ،
 لنتج التكنولوجي وهي بمثابة ظروف الإنسان المتخلف ، التي فرضت عليه
 من الخارج ؛ وجعلت منه « سجيناً » يعيش واقعه ويعاني تحريره ، بحيث يكون
 « النقط القروى التقليدى أو للتخلف » هو جماع السبات أو « الظروف الوضعية »
 بالنسبة إليه كإنسان ، يعاني واقعه ، ويخلق بالتحدى المهائم توقعات ظرفيه مضادة
 ومتوازنة counterbalance ، تنير من واقعه الذى يتمثل في ظروف « إنسان
 العصر التكنولوجي » ، تخلق التوتر الذى يشعر بالاغتراب والاحباط Frustration
 بل وبالضياع أحياناً .

وهنا يحدث الصراع بين أيديولوجيا القديم ، والجديد ، بين نمط البداوة
 وغزو التكنولوجيا ، فهناك في كل عملية « تحديث » ، تعارض بين القرية والمدينة ،
 كما توجد مسافات وتفرقات هائلة ، يكون لها رد فعلها الحاسم على « شخصية
 الإنسان النامي » ، الذى يعيش في مجتمع مازال تقليدياً أو متخلفاً ، ويحاول
 بالتطوير والتنوير أن ينتج منبج « التبية » .

ويجمل « منبج التبية » كل سمات ثقافة المجتمع التقليدى من نمط استاينكي
 ثابت ، إلى نمط ديناميكي فعال ، يميز بين « البساطة » و « التعقيد » ، ويدفع
 التحولات التنموية المستمرة ؛ لتبديل نمط القرية الهادئة ، إلى نمط آخر تستكشفه
 صراعات التكنولوجيا التي تتلف صرخة وراه روح العصر ، الذى يدفع الحضارة
 civilization بحمل أقوى بكثير عما كنا تصور أو نتوقع .

ولعل السمة الرئيسية القائمة في بناء كل شخصية من ملايين البشر التي ما زالت
 تعيش وتعاين « تجربة العالم الثالث المظنون » ، هي تلك السمة التي تجمع بين « بساطة
 الريف التقليدى وسلاحه » ، و « سمات الإنسان المعاصر الزاخم » ، التي تتألف شخصية

بالتقاة والخلد والضمم الذكي. وهذا هو قدر «الإنسان المثقف» ودوره في مجتمعات العالم الثالث ، وما يعانيه من شظف العيش ؛ فيهاجر لبيع خمرته في دولة أخرى متقدمة ، وهذا هو «الزيرف» المستمر الذي لا ينقطع وهو ما يسمى الآن «بزييف الخبرة» .

دور التنظيمات الثقافية للضادة :

من أجل حل أزومات الإنسان الافروآسيوي ؛ هناك مقترحات عاجلة ومخططة ولاشك أن لكل مجتمع من المجتمعات النامية ، تجربته الاقتصادية الخاصة ، التي لا يمكن أن تتطابق مع تجربة مجتمع آخر وفي نفس الظروف . فكما توجد الفروق الفردية ، في درجة الذكاء وسمات الشخصية ، توجد الفروق الثقافية ، بين كل مجتمع ، فتباير المجتمعات في درجة الفهم أو التحضر التي تكشف عنها سمات الثقافة السائدة فيه .

فلكل مجتمع ظروفه الوضعية المفروضة ، ومشكلاته الخاصة ، تلك التي يعاني منها ، فيحاول أن يقوم بردود أفعال كلية ، ومناشط جمعية . من أجل « التنمية » وتغيير « الأمر الواقع » وحل المشكلات بمجهود بشري مضادة counteraction ، من أجل تعديل نمط الحياة ، وتخفيف حتمية الظروف المفروضة ، عن طريق التحدى المستمر لإعادة التوازن بعد التكيف مع الجديد ، فليس الإنسان في ذاته ، إلا جماع ظروف ، فرضتها بيئته الفيزيائية ، وحتمتها شروط طبيعية ، تركت بصماتها على شخصية الإنسان التقليدي ، فتميز فوراً بين « البداية » و« التحضر » والتخلف والتقدم ، حيث تكون لكل إنسان تجربته التي فرضت عليه من الخواص ، فماش حجيناً لها ، منحصرأ بين شرطي المكان والزمان ، وبقي كل واحد منا « حجيناً لظروفه » الفيزيائية ، التي فرضت علينا نوعاً خاصاً أو موقفاً بينه من مواقف

الحياة، مع ترجيح التوقعات المنتظرة من أنماط السلوك الاجتماعي .

واستناداً إلى كل هذا الأساس ، وإرتكازاً إلى فهمنا الواضح لازمة الإنسان والأفروآسيوي ، ينبغي أن تقوم مجتمعاتنا ، برودود أفعال مضادة عن طريق تكوين المخططات الثقافية المضادة ، من أجل احداث المنطقة ثقافياً ، وتهيئة البيئة ، وخلق الجو المناسب ، والمتاح أو الملائم لعملية التنمية والتطوير الاجتماعي . وهناك ردود أفعال أخرى تقوم بها المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، لمواجهة الأزمات الاجتماعية التي خلقتها أمراض التكنولوجيا وانتشار التصنيع ، من تفكك وانحلال ، وضيق . فقلد زادت الانحرافات ، وخفت حدة القانون ، واضطربت ميكانيزمات الضغط في سائر المجتمعات الصناعية . الأمر الذي يفرض على الدولة الرأسمالية ، تكوين تنظيمات ثقافية ، مضادة يجب أن تقرأ وتشتد وتعاون ، من أجل مواجهة التهديد المستمر لتكنولوجيا العصر وتنظيماتها المعقدة من « تلوث » ، في البيئة والطبيعة ، وانحرافات في الشخصية والسلوك ، ولذلك تقوم في الولايات المتحدة ، والتنظيمات الدينية ، القوية ذات المشروعات والبرامج والنفقات ، التي تقلل من حدة الضياع ، و « التفكك » ، وتزيد من درجة التكامل والتضامن .

فهناك « متغيرات » تكنولوجية لها صداها في علم الاجتماع المعاصر ، مما أدى إلى إثارة الكثير من المسائل والمشكلات الخاصة بالمجتمعات الصناعية نفسها ، مثل مشكلة التنظيمات الاجتماعية ، وردود أفعالها على أنماط الثقافة والشخصية - ، ومثل مشكلة البيروقراطية والديموقراطية ، ومشكلة التلوث وإيكولوجيا المصنع ، وأمراض الإنسان في البيئة الصناعية .

وتسود كل هذه المشكلات في سائر المجتمعات الصناعية المتقدمة ، ويتجاول بكل جهدها ، وكثير وقرائبات ناجحة ووشيدة ، أن تقيم الحلول القروية مثل هذه

للمشكلات، التي هي نفسها مشكلات قائمة أمام «ميروراطية العصر الصناعي»، التي تحاول أن تدفع حجة التكنولوجيا والالكترونيات بدرجة وهمية، وبسرعة مضخمة.

الأمر الذي يتطلب منا إيجاد البديل الذي يواجه هذا التيار التكنولوجي الجارف الذي قد يحتاج العصر كله فيجبه إلى حرب أو تأهب نووي، يؤدي إلى سلام كاذب، يقوم على الرعب والذعر، خوفاً من ضياع حضارة القرن العشرين. ولا شك أن الحل هو «التيار الايديولوجي المضاد، بالسلاح بقيم الدين، والتمسك بقواعد الخلق الرفيع، وتبجيل المثل العليا، وتنظيم قيم الحق والعدالة واللساواة. والاهوة إلى قيم التضامن والتفاسك والتكامل نظراً لوجود وحدة الثقافة السككية والشمولية». ولقد تحقق رد الفعل الايديولوجي في نتائج «علم الاجتماع الإداري» و«ظهور علوم الاجتماع الصناعي والسياسي للفرقة عن علم الاجتماع الاقتصادي»^(١)، حيث تقدم كل هذه العلوم مجتمعة، سائر الحلول العلمية لازمة «الانسان الافروآسيوي»، فكانت هذه العلوم هي المنقذ لنا من «أزمات العصر»، وهي التي تقدم لنا مختلف الحلول لمشكلات «التكنولوجيا». ولما كانت التكنولوجيا من العلوم الشمولية والتكاملية، اعتمدت «علوم العصر»، أيضاً، على تخصصات أخرى فرعية ودقيقة، مما أدى إلى التعاون بين العلوم من أجل ضخمة قضايا الانسان والتنمية، وحل المشكلات الناجمة عن افرازات عصر التكنولوجيا وتلوث البيئة.

«التكامل» و«البنائية» و«الشمولية».

لناك أن عملية الحياة Life-Process هي في ذاتها أم عملية، واستناداً إلى

(١). أنظر كتابنا «علم الاجتماع الاقتصادي» ومجالات الصناعة والتنمية» منشأة للطباعة ١٩٨٠.

منه المحبة ، تستند سطوة البناءات البيروقراطية للدولة ، فقد تقوى الأديار السياسية التي تقوم بها سائر أجهزة الحزب السياسي الحاكم من أجل إجراء وتنفيذ برامج خطة التنمية ، وتحقيق هذه البرامج العلمية ، بتغيير نمط الحياة ، على اعتبار أن عملية الحياة ، نفسها هي أم وأقوى من كل تلك الظروف الفيزيائية ، فتجسد حتمية البيئة ووضعية الظروف كما ونطق المتغيرات التي تساعد على تبدل نوع الحياة ، في المجتمع النامي .

ولاشك أن طبيعة المجتمع البنائية ، هي السبب في استقطاب العلاقات ، وتنبأك التنظيمات والأديار ، وتحدد النظم والأساق ، الأمر الذي أدى بدوره إلى تعدد مداخل علم الاجتماع ، نظراً لتعدد مداخل المجتمع نفسه ، ومع تعدد العمليات الاجتماعية ، كالمرامح والتنافس والتعاون والتكامل ، تعدد أشكال وصور المجتمع من تنظيمات ديدنية أو سياسية أو مهنية أو اقتصادية ويرجع كل تنظيم منها عن جهاز System يخضع لنظام institution ، فتعاون الأجهزة وتتساند مع النظم السائدة في البناء الاجتماعي .

ولما كان الشكل المادي ، هو الذي يظهر إلى البيان ، تتغير الأشكال التي نراها على سطح المجتمع ، فتظهر حقيقة الوجود الاجتماعي ، بداية ، وتختفأ أو تهدم ، فيتحل لنا المضمون الاجتماعي ، الذي يبرز لنا شكله الاقتصادي الذي يتبدى في الوجود الواقعي الشخص Concrete ، فيتحقق المجتمع ككثافة ، حين نشاهد أو نرى ديدية بدوية ، أو نمطاً زرعياً ، أو مجتمعاً قروياً ، يعيش على الصيد أو الفلاحة ، أو استقاصها ، له إيكولوجية وبيئته ، وتنظيماته ، وفي كل هذه الأشكال والصور الاجتماعية والمضامين الثقافية ، تتأجج نظماً غرائسية روحانية وأخلاقية وتضمنات قضائية ، ومقدرات دينية ، تنصهر عن نفسها في

أنماط سلوكية وثقافية، طبقاً لتأثير أشكال وصور الجماعات والزمرة لسيولوجية. الأمر الذي يفرض علينا في النهاية الاتجاه نحو التماسك والتفاعل interaction، عما يؤكد وجهة النظر البنائية والوظيفية functionalism التي تتجه نحو «التكامل» و «البنائية»، و «لشمولية Holism».

ويهاجم «هربرت ماركيز Marcuse»، الاتجاهات الجمية collectivism كما يهاجم «التوتاليتارية الجديدة» Neo-totalitarianism، وهي نزعة كلية، أو اتجاه أو «نظام سياسي كلي النزعة»، ويحتكر كل موارد الدولة (١).

فلقد سيطرت الثقافة «البورجوازية» على النظام الاقتصادي الجديد. وصحرت البورجوازية عن التوفيق بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، أو بين السعادة العامة والسعادة الخاصة. ولا شك أن السعادة هي هدف كل إنسان، لإشباع الطاقة أو تحقيق الذاتية، كما أن السعادة كتحقيق لكل الطاقات إنما تفترض الحرية. بل، إن السعادة في جذورها وباطنها الأصل هي الحرية نفسها. ولذلك ارتبطت المتعة البورجوازية بالحرية وبفكرة الفراغ Leisure بشرط أن تنفص في لذاتها إلى الحد الضروري، الحفاظ على إنسانيتنا وصحتنا، على ما يقول Spinoza ومن خلال «تسييس النظام البورجوازي»، خضع الفرد خضوعاً كاملاً لمطالب هذا النظام، وحين تحول البورجوازية إلى نظام سياسي واقتصادي فلسوف تصبح

(١) لقد ظهر الفكر «التوتاليتاري» وتبعه فييل الحرب العالمية الثانية «في النازية» و «الفاشية Fascism» فقد ظهرت في ألمانيا وإيطاليا، منذ ذلك الحين محاولات ليراليه وبورجوازية لمقاومة الشيوعية الروسية. والنزعة التوتاليتارية تزعج هيجل عذالة، أخذ بها الفيلسوف الإيطالي «جنتيل» وانضم إلى «موسكولني» زعيم الفاشية، كما أخذ يا «هيجر» الفيلسوف الوجودي؛ وانضم إلى «حظر» حيث «يمثل الواقع اللاقي وقانونه بالقومنة» على حد تعبير هيجر لللامية.

البورجوازية في النهاية ، تلك التي تنفذ بالبروليه ، أشد تحكما وتسليحا من
القرعة التوتاليتارية totalitarianism نفسها .

أدوار ومسؤوليات ذوى الياقات البيضاء :

ولاشك أن التخطيط Planning في ذاته ، هو عملية دراسة إمكانيات
المجتمع وموارده البشرية ، وطاقاته الفيزيكية والتنميدية ؛ وتنظيم كل هذه
العناصر ، لتحقيق هدف إجتماعى أو قومى ، بشرط أن يكون هذا ممكن التحقق
والبرمجة ، وبشرط أن يسبقه دراسة استطلاعية ، لتيقن من إمكانية تطبيق برامج
ومشروعات الخطة العامة ، على نحو رشيد ، وفي أقصر وقت ممكن .

ومنكأ تخطيط إختيارى ، وتخطيط إجبارى obligatory ، ويطبق الأول في
دول الغرب المنحرة كأمجلترا وفرنسا ، بينما يطبق الثانى في دول الكتلة الشرقية
الاشتراكية ، وقد يختلف التخطيط الإختيارى عن الإجبارى ، في درجة شمول
الخطة ، فالتخطيط الإختيارى هو تخطيط جزئى Partial Planning أما التخطيط
للوجه أو الإجبارى ، فهو التخطيط الشامل comprehensive Planning الذى
يتحقق على المستوى القومى وبكل قطاعاه الدولة الصناعية والاقتصادية .

ويمتاز التخطيط الرشيد بمنصر للركزية ، الأمر الذى يفرض وجود أو
وجوب ضرورة توافره طبقة عامسة التخطيط ، في كل إدارة أو مؤسسة ،
بالإضافة إلى ضرورة اتصال « طبقة التخطيط » طبقة أو أجهزة أخرى تنفيذية ،
حتى لا تتأثر الحركة الروتينية المأبغة والصاعدة ، ولا يموقها عائق يقف كحبة
كأدا ، فيما بين قوى التخطيط والتابعة والتنفيذ .

ولذا كانت طوائف المركزية واضحة في سائر المجتمعات الشيوعية ، عفاها
تقعة الصنف الشديدة التي تعاني منها « الإقارة » في الدول الشيوعية ، بالأحالة

إلى مآلاتها أيضاً من « طول مدة الخطة » ، إلى جانب المركزية الصارمة ، ولكن دورة شيوعية مثل « الصين الجديدة للمعاصرة » قد فضلت الخطط قصيرة الأمد Short term plan فلاشك أنه من المرغوب فيه التي تكون فترة الخطة من القصر بحيث يمكن التنبؤ Prediction ، أو التوقع الذي يسمح بوجود قدر من الدقة ، كما ويسمح أيضاً وعلى الأكل بوجود ما يؤكد « صحة تقديرات جزئية دقيقة ومطلوبة » ، إستناداً إلى مدى سلامة التخطيط ، وصحة توقعاته ، وصدق تنبؤاته .

ويحمل الإنسان الأفروآسيوي ، أو حتى الإنسان الاقتصادي العادي ، مجتمع الرفاهية الذي يظاع « حواجز اللغة واللون والعنصر » مع تكوين المقومات الاقتصادية ، للملاخ وسجات « البيت السعيد » لأسرة ناجحة ، في مجتمع نام يحارب الجوع والمرض ويعمل على احترام قيمة الإنسان ، مع تشجيع الذاتية ، والاحساس بالمسؤولية ، ويتوصل إلى قانون عادل ، ينصف المظلوم ويتطلع إلى الفكر السياسي الخلاق الذي يفلق المعتلات ، ولا يفتح السجون . هذه هي تطلعات أو قيم « الإنسان المعصر » ، المتفتح ، الذي يعرف كيف يؤكد ذاته في مجتمع سريع التغير ، ومتوازن القيم ، له معايير في الضبط والتنشئة الاجتماعية ، مع الأخذ بكل وسائل الرفاهية باستخدام تكنولوجيا الخدمات المنزلية ، التي تؤدي إلى « السعادة الاقتصادية » ، والرفاهية السلة ، التي تحل مشكلات الإنسان الكادح ، حتى يستطيع بمخزائه القليلة أن يشتري « التكنولوجيا الرخيصة » . وتختلف هذه الأسرة الكادحة بالطبع ، عن ثقافة أسرة أخرى ، تعيشها طبقة ذوى اليسار ، من ذوى « اليانغت البيضاء » (١) .

(١) تلمح كل أسرة وتطلع في أحلك سيارة قضة ؛ وبيت معمر محض ومكثف ويصح باستخدام الأجهزة الإلكترونية والآلات المتسيدة ؛ من أجل تقديم عطف « التسييلات Facilities » التي تمنح أفضل رفاهية ممكنة ، بتجميع الأثاثات ؛ وتغيير الظروف نحو حياة أهدأ وتسييلات اجتماعية أرق وأنيب .

المسئولية الادارية :

يقال : إن المسئول عن اتفاق اللابين ورسم السياسات الاقتصادية للمستلة ،
 هم طبقة ذوى الياقات البيضاء ، ، وهم يترجمون الآن على قة كل تنظيم إقتصادي
 أو مؤسسة بيروقراطية ، أو مشروع صناعي .

ولا يعمل المسئول الاداري ، في فراغ ، وإنما يعمل في تنظيم إنساني ،
 حيث يلحظ الباحث في علم الاجتماع الصناعي ، أنماطاً من السلوك داخل جدران
 المصنع ، كالسلوك المهني والحرفي ، والسلوك الفني والسلوك البيروقراطي ، إما بشكله
 الروتيني أو الرسمي Formal ، وإما بشكله الاداري النشط والمنتج .

وفي كل تنظيم صناعي ، أصبح القائد مسئولاً عن عمله وعن مدى تحقيقه
 للخطة ، وانجازها للنتاج ، كما أصبح مسئولاً أيضاً عن ، جو العلاقات الانسانية
 السائد ، ودرجة اكتسابه للمهارات الفنية والذكائية والرئاسية ، ولا شك أن سعة
 إطلاعه ، ودقة تحقيقاته ، وشمول نظره ، وعمق خبرته وقدراته الطبيعية
 والتطبيقية ، كلها سمات شخصية ضرورية في كل قائد إداري ، يقوم على رأس
 كل تنظيم .

وترتبط القيادة بموقف دائم بين القائد والمقود ، فتصبح القيادة ، حالة
 وعاسية دائمة ، تتمتع بالعلم والتخصص وسلطة فرض القرارات التي تصدر عن
 السلطة الرسمية في التنظيم . فلا شك أن هناك حركة تفاعل interaction دائمة
 بين الرئيس وأعضاء جماعته ، وتلعب تلك الحركة دورها بين كل رئيس
 ومروءيه ، أو بين كل قائد ، أو مسئول ، وتابع ، فيكون لهذه العلاقات :
 الإيجابية ودفعها في عملية الانتاج Production .

ولا شك أن واقع الاداري الناجح ؛ هو واقع اجتماعي ونفسي مريح ، وهذا

السلوك الإداري الاجتماعي ، هو في واقع الأمر « عمل سياسي » ، ولذلك تخرج في القامد الإداري ، والبيروقراطي التنفيذي صفات خاصة ينبغي أن تتوافر لقيام بعملية « سياسية وإدارية » ، في نفس الوقت ، على اعتبار أن « للشرعية السياسية لقائه ، إنما تتمثل في مسؤوليته إصدار وتنفيذ القرار الرشيد ، الذي يستند إلى الخبرة والفاعلية .

كما يؤمن القامد الناجح بالهدف ويعمل على دفع التنظيم ، وتطوير أجهزة « القيادة للأمم » ، لا للخلف ، ومن خصائص « القيادة الرشيدة قناذ البصيرة وعمق الخبرة » ، والقدرة على تحمل المسؤولية ، والتصرف السليم في المواقف الصعبة ، باستخدام أفضل أسلوب أو بواسطة حسن استخدام التصرف وسرعة البديهة حينما تسوء الأمور . مع مراعاته الفلسفة الإنسانية . والصلات الروحية العميقة بينه وبين مرؤوسيه ، حتى تزداد معدلات الروح المعنوية ، والمحاولات المجددة للإنجاح الرشيد نحو إصلاح أجهزة الإدارة .

الهندسة البشرية (١) :

ويضع « خبراء الصناعة » مختلف الخطط والسياسات التي تنظم علاقة العامل بالآلة ، أو بالآلات ، أو بالمديرين كما يضع المدربون الأسلوب الإنساني في أداء العمل ، وتحسين ظروفه ورفع معدلاته الكمية والكيفية ، بتسمية أساليب الأمن الصناعي ، والتأهيل المهني ، مع التدريب والكفاية الانتاجية .

(١) يدخل نظام تدريب واختيار الأفراد في الصناعة تحت ما يسمى باسم الهندسة البشرية Human Engineering حيث تسمى العلاقات الانسانية في الصناعة روح الصلوة بين الإدارة والمعلم فتوصل إلى أكبر إنتاجية ممكنة ، كما تقوم الإدارة بتجهيز العمل والتخصص في مهام التنظيم والتخطيط ووضع جدول الإنتاج ، مع التزام الأفراد والإمتثال للقرارد ، وتنظيم العمليات الإنتاجية دون إبطاء .

وقد برسم « علم الاجتماع الإداري Administrative Sociology » الخطوط العريضة والمنظمة لوظائف الإدارة وأساليب الرقابة والمتابعة والتنسيق ، والإشراف والملاحظة ، بالنظر إلى تقييم الوظائف في جوهر ديموقراطي مريح ، مع استخدام مبدأ المكافآت التشجيعية ، والأجور المالية والمزايا التي ترفع من مستويات العمال وطاقاتهم الإنتاجية ، تلك المواقف التي تدفع العامل إلى المزيد من الجهد والرغبة في الترقى والتثقل الوطني، نحو الصفوف الإدارية الأولى.

موقف الإدارة من ذوي الياقات الزرقاء :

لا شك أن نقطة الضعف العديدة التي انزلت إليها التنظيمات الصناعية في الرأسمالية المعاصرة ، هي تلك « البيروقراطية المبردة » التي خلقت طبقة من الإدارة من ذوي الياقات البيضاء White Collar (١) التي أطاحت نفسها بهالة من المهابة Prestige التي قد تشجع على نمو الشخصيات الطفيلية ، تلك التي تعلق على حساب الإنتاج ، جوّاً مشحوناً بالنفاق الاجتماعي ، المكثف الذي قد ينقلب طبقة الإدارة العليا ، مما قد يؤدي في النهاية إلى هبوط مفاجيء في الإنتاجية الكلية للعامة المشروع الصناعي ، وهذا هو « المرض البيروقراطي الخبيث » ، الذي يصيب « الثقافة الصناعية » المعاصرة . فعلى الرأسمالية الصناعية أن تعالج أمراضها للصنع وأن تدرس هذه المواقف المرضية والإدارية بحذف كل مراكز النفاق التي تتركز حول قيادات الإدارة البيروقراطية ، وعلى المخططين الإداريين أن يظهروا مراكز الإدارة العليا من التفوذ البيروقراطي واستغلال السلطات بالقضاء نهائياً على كل الإشكال المعاصرة لانحطاط البيروقراطية باعتبارها أفراسات صناعية مراكمة ، تنجم عن الالتحام بطبقة الإدارة بما يسوق بالطبع من قاطبة التنظيم ، ويكون له

(1) Mills, Wright, White Collar, New York: 1951.

دوره على معدلات الانتاج في « بناء المصنع » .

وهناك سمة صناعية ثقافية تسم بها المجتمعات الصناعية ، وهي حرص الرئيس في المصنع على إبقاء « مسافة قاصلة » بينه وبين رؤوسه *to keep a distance* وتعهد هذه الطائفة السيكلوجية لوجود حساسيات معينة في « ثقافة المصنع » بين العمال ورؤساء العمل ، مما يؤثر على معدلات الانتاجية ، كما يساعد بالتالي على وجود « فجوات في قنوات الاتصال » ، حين يحيط كل « رئيس » أو مشرف نفسه « بشلة » أو « مجموعة » من العلاقات الوثيقة التي قد تعجب عنه الرؤية الحقيقية للعمل (١).

وتغلب على هذه المسافات الفاصلة التي خلقها التنظيم والعمل ، يبغي القيام بمناقشات وإجتماعات دورية وعقد لقاءات ودورات تدريبية وحفلات ترفيهية ، ورحلات سياحية ، حتى يحدث التكيف السليم بين الرؤساء والعمال ، عن طريق الاختلاط بين العامل ورؤسائه من مهندسين وملاحظين ومشرفين .

ولكن عا هو دور الاختصاصي الصناعي ؟

يهم الاختصاصي الصناعي ، بدراسة سلوك العمال داخل المصنع وخارجه من خلال معرفته بشخصية العامل وظروفه وإنتاجيته ، في ضوء مدى تكيف العامل مع البيئة الصناعية ومدى فهم العمال لطبيعة الآلات ومرونتها أو قابليتها الانتاجية وضرورتها بالنسبة لزيادة الانتاج طبقاً لحالتها الفنية ، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة أرباح العمال .

(1) Seisnick, P., Leadership in Administration, American Sociological Review.

أظهر أيضاً في هذا السعد :

Hill Michael , The Sociology of Public Administration, 1972.

ويدخل نظام تدريب العمال على الآلات وتوجيههم مهياً لرفع معدلات الإنتاجية بين العمال ، تحت ما يسمى بالهندسة البشرية ، ، حيث يهدف الإداري الناجح في كل تنظيم صناعي إلى زيادة الاهتمام ببرامج التدريب ، بالإضافة إلى التوجيه أو الارشاد المهني *Vocational Counseling* .

وبغفل الاختصاصي الصناعي ، أولاً وقبل كل شيء ، بعلاقات العمل وحل مشكلات العمال ، ودراسة ظروف العمل الفيزيائية كالإضاءة والتهوية ، حتى يحسن العامل ويحرص على راحته ، كما يرفه عنه ببرامج الترفيه من رحلات ورياضة وغيرها من الطرق المختلفة لشغل الفراغ *Leisure time* .

مذا من ، المشكلات الفيزيائية ، للعمل ، وهناك مشكلات أخرى (إنسانية ، و صناعية ، يلتفت إليها عالم الاجتماع الصناعي ، حين يرصد ظواهر الصراع الصناعي ، و التنظيم ، و الإدارة ، والتكامل . في ضوء نماذج الاشراف الأدوموقراطية والبيروقراطية والديموقراطية ، كما يتابع في نفس الوقت أحدث الطرق المستخدمة في ميدان العلاقات الانسانية *Human Relation* ⁽¹⁾ .

وقد يصادف الاختصاصي الصناعي في طريقه حالات متعددة من حوادث العمل ، التي قد تؤدي إلى الجرح الكلي أو الجزئي ، وعليه أن يقوم بتأهيل مثل هذه الحالات تأميلاً مهنياً ومن هنا تستخدم دراسة التأهيل المهني *Rehabilitation* كوسيلة للأن الصناعي وبتركيب أعضاء آلية لمساعدة ذوي الإعاقات بدلاً من الأعضاء العاجزة ، مما يرفع من مستويات العامل فيرداد نشاطه وجهه للعمل بعد أن ضمن نفسه الأمن والأمان .

(1) William, Michael, Human Relation, Longmans 1967.

أخر أيضاً ل هذا العدد :

Krisman, Human Relation, Princeton Hall, 1973.

وقد يتطرق الاختصاصى الصناعى بطريقة فاعلة ومتعة ، إلى مجالات العمل فيكون له دور في زيادة معدلات الإنتاج حين يصبح الاختصاصى نشطا وعلما ومبتعا بمجالات العمل وبحل مشكلاتهم ، وبالإضافة إلى ذلك ، تكون ظروف العمل ، وصعوبات أو حل مشكلات الإنتاج ، هي أهم الوظائف الضرورية ، التي يقوم بها الاختصاصى الصناعى الذى يعمل دائما على تحسين الاداء والتهوية والالوان القائمة ، وكلها مصادر حيوية وأحيية في كل عملية إنتاجية ، وقد تتدخل في سرعة حلول التسبب والمثل إلى نفس العامل مما يقلل من إنتاجيته ويضعف من نشاطه وحيويته إذا ما أهملت الإدارة العناصر القيادية في ظروف المصنع الايكولوجية.

بنية المجتمع الصناعى :

تألف بنية المجتمع الصناعى من جماعات صناعية صغيرة ، وفئات مهنية ، ذات أيديولوجيات مختلفة ، قد تحدث فيها بينها فجوات ثقافية Cultural gap ، ومدرس علوم الإدارة الصلة الوثيقة بين تخطيط الإدارة العليا direction ، والإدارة التنفيذية administration داخل نطاق « بناء بيروقراطى » ، ينظم « عمليات الاتصال » للوصول إلى أهداف التخطيط ومتابعة إجراءات التنفيذ ، داخل نطاق المؤسسة الإنتاجية ، وتقيم الإدارة الهندسية لكل مشروع صناعى سائر للمهندسين على اختلاف تخصصاتهم للمهنة . وبالإضافة إلى ذلك ، تعدد الإدارة رؤساء الأقسام الصناعية ، وتنظم علاقاتهم بالإدارة للتوسعة ، تلك التي تتألف من صغار الإداريين ، ورؤساء العمل والعامل ، وصغار للشرفين والفنيين .

والبيروقراطية للعامة بما تحويه من مؤسسات وتطبيقات هي إفراز صناعى ، نجم عن انتشار ظواهر التصنيع والتكنولوجيا في سائر المجتمعات والثقافات . والبيروقراطية « تنظيم » organization ، كما أنها في ذاتها تنبسط Paternization ، إلى الدرجة التي ربما يمكن أن تقول إن « البيروقراطية »

تعمل في معناها البسيط بما يدور ويتواتر على نحو مستمر في حياتنا وحلاتنا ،
 بما ينبط أغطا السوك ، ويفرض أسلوباً أو نزوعاً خاصاً لا يحد عنه الإنسان
 الإجتماعى . وتلك الظواهر والضوابط التي تسهر على وتيرة واحدة هي ما يسميه
 رايمنند ماك Raymond Mack و جون بين John Pease بيروقراطية
 الحياة الإجتماعية Bureaucratization of Social life^(١).

التأثير البيروقراطى : Bureaucratic Influence :

ونجم التنظيم البيروقراطى عن « بناءات صناعية ، أو مؤسسات اقتصادية
 وإدارية كبرى ، تصاحبها أثناء نموها وتطورها ، زيادة مستمرة في حجم طبقة
 « ذوى الياقات البيضاء » ، مما يضاعف من ضرورتهم وسلطاتهم ومهابتهم في كل
 تنظيم إدارى ، وفي أية مؤسسة صناعية ، حيث تتكثف الأعمال الإدارية ، وتركز
 في أيديهم السلطة طبقاً لقانون ، الأمر الذى يزيد من أهمية هذه الطبقة ودورها
 ووظائفها كلما ازدادت أهمية « الضوابط البيروقراطية bureaucratic controls ».

ولاشك أن هناك « فجوة ثقافية cultural gap » بين سائر فئات وجماعات
 البناء البيروقراطى للدولة أو للمؤسسة الصناعية ، فهناك حساسيات واضحة بين
 « ذوى الياقات البيضاء » من جهة ، و « ذوى الياقات الزرقاء » من جهة أخرى .
 ويقول هالفباخس Halbwachs إن « العامل الماهر » قد ينفق على طعامه أكثر
 من موظف كبير من ذوى الياقات البيضاء white-collar Man ، نفس الدخل
 والاجر والوضع الإقتصادى . كما يرى « هومانز Homans » ، أن الدخل
 والوظيفة قد يكون لهما أثرهما في تحديد الوضع الطبقي ، فالعامل للماهر هو الذى

(1) Mack, Raymond & John Pease, Sociology and Social
 Life, Van Nostrand Company. 1973. p. 181.

يعطى في عمله أكثر من غيره ، ولذلك نَجده يحصل على « ما هو أكثر ، حتى يشعر بأنه أعلى مكانة Rank ، كما أنه يحاول في نفس الوقت أن يتفق بضع دولارات أكثر من غيره حتى يشعر الآخرين بأنه أكثر أهمية أو أفضلية ، إذا ما قورنَ بغيره (١)».

ومن هذا التأثير البيروقراطى الواضح في مختلف القطاعات ، تتأثر شخصية الموظف ، كما تتأثر أيضا ، شخصية العامل ، لما تراكم فوق رأسه ، وعلى حساب أصابعه ، سائر فئات الادارة الوسطى من « أسطوانات ، و «ملاحظين» من ذوى البلاطى السوداء Black Coats ، بالإضافة إلى « ذوى البياض البيضاء » من مهندسين ومديرين ، وكأها طبقات إدارية تراكم فوق العامل للسكين ، فتضطرب شخصيته ، وتعرض نفسه ، وتهتز أناه .

ولما كان الانتاج هو الهدف والغاية ، فينبغى أن نتم بنقطتين هامتين ، أولها : أن تخفف من حدة البيروقراطية وتأثيرها الضاغط الكابت ، بما يؤثر على صحة العامل النفسية . والثقة الثانية ، وتعلق بالصحة الجسمية والفيزيائية للعامل ، فلقد ثبت وجود معذلات الارتباط الواضحة بين مؤشرات « الانتاج » و « الصحة العامة » ، وثبت أيضا أن إنتشار « الأمراض » وتدهور الصحة ، وضعف العامل هي من العوامل البيولوجية التى تقود إلى إنخفاض « مستوى الانتاج » ، بالقسبة للمنع وحل مستوى « بناء العولة الاقتصادى » ، و « إنتاجية العامل » ، العادى ، ومقار مايفلح من المجهود . وفي جمهورية مصر العربية ثبت أن « مرض البلهارسيا » يأتى منه الفلاح المصرى ، في دلتا النيل وقرى الصعيد ، مما أدى إلى إنخفاض

(1) Snelser, Nejl, Sociology, An Introduction, Pakistan, India, 1967: p. 66 7.

الاتاجية العامة في جمهورية مصر العربية.

وعملية التنمية الصناعية ، هي في حقيقة أمرها عملية صناعية واقتصادية ، تستهدف بذل الجهود الذاتية والرسمية Formal ، من أجل زيادة متوسط الدخل الحقيقي للفرد . ولاشك أن التطوير الصناعي هو عملية مستمرة تستهدف تغيير الانسان ، كما تهدف أيضا إلى تغيير وتطوير سائر المجتمعات التقليدية . وفي كل دولة من الدول النامية ، تحتاج المشروعات الصناعية والرأسمالية ، إلى معدلات الاستثمار المرتفعة ، التي تؤدي إلى زيادة الأرباح والإنتاجية ، تلك التي تهمس بدورها كل المدخرات بما يدفع عجلة الاستثمار عن طريق الادخار ، نحو تطوير الصناعة ، وتنفيذ مشروعات ، تولف فيها بينها علاقات تكاملية ، في صناعاتها ، مما يؤدي إلى الوفورات الاقتصادية وإلى الحد من استيراد الواردات الخارجية ، الأمر الذي يقلل من النفقة ، عن طريق إنشاء وحدات إنتاجية محلية تحقق وتنتج ما هو أفضل من المطلوب لإستيراده من الخارج .

ولاشك أن المشروعات الصناعية ، في حاجة إلى ما يدعه من تشجيع الدولة مثل وضع باب القروض ، ، نظراً لفضالة رؤوس الأموال المحلية ، وضآلة الدخل الفردي . ولا يتحقق المشروع الصناعي الناجح إلا باستخدام الوسائل المحلية وتطبيقها في ميادين التنظيم ، والإدارة ، ورفع مستوى الإنتاجية والأداء في بنية المجتمع الصناعي .

طبقة العمل الصناعي :

تختلف بنية المجتمع باختلاف الطبقات الاقتصادية والصناعية ، وتختلف هذه الطبقات ، من حيث هي كذلك ، من الأمم ، فلم تنشأ الطبقات أولاً حتى تتولد عنها الأمم وتعبدها . ولما الأمر الحقيقي والواقعي ، هو صدور المشكلات

والأمم ، وفي قلب الأمم نشأت الطبقات وترعرعت .

وما يؤكد هذه الحقيقة في مفهوم الطبقة ومقارنته بمفهوم أكثر إنساعاً وهو مفهوم الثقافة culture ، وبخاصة تلك الأنماط القديمة التي كانت سائدة في الأندية والصالونات ، فنحن ما جاز نبلاء فرنسا بعد الثورة الكبرى إلى ألمانيا وروسيا وفرنسا ، لم يجد نبلاء فرنسا في « ثقافة الأندية والصالونات » ، جواً غريباً عنهم رغم انتقاهم وهجرتهم ، حيث أن طبقة النبالة كانت قد انتشرت كجموعة من التصورات وأنماط من السلوك وقواعد من الآداب . وما جرت من فرنسا إلى ألمانيا فتشابهت « العناصر الثقافية » لطبقة النبالة في أوروبا وتماثلت أنماط الفكر والسلوك والترف . فكان الاحتكاك الثقافي التاريخي الذي حدث بين النبالة الفرنسية والنبالة الألمانية ، حيث ما جرت ، الكثير من سمات الفن الفرنسي وثقافة قصور الانطاع كالروكوكو Rococo ، وهو يعتبر كنوع متطور من فن الباروك Baroque الذي ظهر في نهاية عصر النهضة ، ويعبر عن الفخامة والعظمة ودقة الزخرفة . ولذلك امتلأت بعد الثورة الفرنسية ، قصور النبلاء الألمان ، بنوع المائى ريك ، من « الروكوكو الفرنسي » الأصل والمولده والمحضرة .

وحين وجد نبلاء فرنسا في ألمانيا « وطناً طبقياً ، عاشوا بسهولة ، وسرعان ما تكيف الجيل الفرنسي تكيفاً واضعاً مع الثقافة الخاصة بأخيه الألمان . واستناداً إلى هذه الأسانيد الواقعية والتاريخية ، تقول « إن الطبقة لا وطن لها ، ولا تحدها حدود دولية فهي طبقة عالمية تشيع في الأرض لكي تشمل العالم كله ، ونصليق عليها كلمة Cosmopolite .

ومن الأخطاء الجسيمة التي إرتن لها علماء الاجتماع ، فيما يتعلق بالحرية في طبقات العمل الصناعي ، أن يظن علماء الاجتماع أن « النمو الصناعي » هو القوة

الجمهورية وراء كل تطور صناعي مفيد . فقد أدت الصناعة إلى تحرير العمال من الرق والحرمان ، كما أدى للتصنيع إلى خلق المساواة بين الناس ، حيث يعنىبق
 انمو الصناعات من ايجاد الحواجز المفروضة على المراتب الاجتماعية ، فيعمل على
 إزالة الحواجز ليتدفق ويخلق الفرص الجديدة والمراكز الجديدة والأعمال الجديدة .
 ومن هنا يشعر العامل بحرية الحركة ، في دينامية لشعة داخل التنظيم الصناعي .
 فيكون الحراك الاجتماعي مرنا وهفتوا - ومشروطا بشروط الخبرة وتحقيق انمو
 الصناعات المأمول . ولقد ظن علماء الاجتماع أيضا هذا الظن الخاطئ ، حين توقعوا
 عند فهم أهداف التصنيع وتوسيع نطاق التعليم وتقدم أدواته التكنولوجية ، حتى
 تخف بذلك حدة التناقض بين الفئات الدنيا .

إلا أننا في الرد على هذا الاتجاه ، نقول أن التصنيع لا يؤدي بالضرورة إلى
 مجتمع العدالة والمساواة . فهناك تفاوت اجتماعي واضح بين دخول العمال في الاتحاد
 السوفيتي استناداً لتطبيق سياسة الحوافز وهي سياسة إقتصادية منتجة لأن التصنيع
 السريع لا يحققه إلا الحافز المادي والروح أيضا ، الذي قد يرفع من درجة ذوى
 البياض الزرقاء إلى مستوى ذوى البياض (١) .

(١) لقد قصد رايت ميلز Wright Mills ، باسلاخ White Collar بأنها تفتقر إلى

الطبقة الوسطى ، وكل من يعمل في مون غير يدوية . ويطلق على العمال اصطلاح ذوى البياض
 الزرقاء Blue Collar Workers .

وإذا نظرنا إلى العاملين من ذوى البياض البيضاء ، لوحدنا ثم قد يصلوا إلى مستوى
 المراتب في الطبقة الوسطى ، إلا أنهم يتلون « الطبقة الوسطى الدنيا » أو أسفل الطبقات
 للوسطى . ويحاذ كل فرد من ذوى البياض البيضاء أنه لا يمكنه أن يفرض من الظروف
 ظالمه من الصناعات بعيد عن الملكية الشخصية ولا دخل له بالانسان الفرد أو الطبقة . فلهذا
 هناك مشكلة أو مشكلة خاصة بذوى البياض البيضاء . يعنى أن الكباريين والعاملين من

ولاشك أن التفاوت الشديد في دخول العمال وأجورهم يعد تطبيق سياسة:
 الحوافز في الاتحاد السوفيتي، قد أحدث ثمرات واضحة وبطلت عن درجة التفاوت
 الاجتماعي التي إزداد إنسائها بين فئات العمال ومطبقات العمل العنصرى .

== النقل والتسويق والأعلام والبيع بالإضافة إلى العاملين في المهن الفنية العليا، هم وكبار الوطنيين
 بالمؤسسة أو للصروح لا دخل لهم بملكية للصروح أو حتى المساهمة فيه ، ومن ثم فلا يسلط
 أحد منهم على الصروح أو يتحكم في إنتاجه أو إدارته .
 أظن هذا الصمد :

Mills, Wright., White Collar, New york. 1951.

الفصل الرابع

سُفل الفراغ

- إقتصاديات الفراغ والإنسان الاجتماعى .
- برامج الفراغ .
- الفراغ والطبقة الاقتصادية .
- الشباب والفراغ .
- إقتراح خطط .
- خاتمة .

تعهد :

تد تكون لمشكلة شغل الفراغ *Leisure* جانبها الاجتماعي ، إنما لا يفوتنا أيضاً وفي نفس الوقت دراستها الجانب الاقتصادي والسياسي ، بالالتفات إلى الرجال والرأسماليين والسائد بين طبقات الناس على اختلاف المذاهب والمشارب ، وكيف يقضون وقتهم في أعمالهم وأسرانهم ، فقد يتم السياسي بالدرجة الأولى بما يقضيه الناس ويشغلون فيه الفراغ سواء في جدم أو هزلهم ، ولهم وعيشهم .

الفراغ والانسان الاجتماعي :

لإن الشعور بمشكلة الوقت والفراغ ، هو شعور طبيعي ومألوف بين طبقات الناس على اختلاف مشاربهم وأذواقهم . ويشعر بها الإنسان منذ قديم الزمان ، فهي مشكلة مزمنة ، يشعر بها الراشد . والمراهق ، ويعانيها الكهل والطفل . وهناك دراسات خاصة في هذا الصدد تتصل بسيكولوجيا الأطفال ، وسوسولوجيا الشباب وتتناول بكيفية إستغلال الشاب لفراغه بأفضل أسلوب يمكن لقطع الوقت الاقتصادي .

فالمشكلة هي مشكلة كل فئات العمر من شباب وشيوخ ، وكل طبقات لمن من رجال وأطفال . فهناك فروع متخصصة في ميدان علم الاجتماع ، تدرس ما يسمى بسوسولوجيا الأطفال *Sociologie de l'enfant* ، وكيف تتكون جماعات الطفل الصغير ، وصدقاته ، ودراسة لحيه وألعابه ، وتحليل شخصيته من خلال جماعات اللعب ، ففيها ما يطل ميوله العدوانية حين يكون عدوانياً *agressive* ، وفيها ما يطل قدراته التعاونية ، وفيها أيضاً ما يضر علاقاته بالآخرين إما عن طريق الزعامة أو النتيجة ، والاستكدة .

وقد تناولت مختلف فئات الجنس من الرجال والنساء من مشكلة الفراغ ، وقضاياه

الوقت باستخدام وسائل الترفيه ، وبرامج التسلية ، كالعروض والمساحات الاستراحية ، والرقصات الجماعية ، أو التناء والسر ، وبمسك البهجة والنشاط والعبودية ، وقضاء الوقت للمتع ، طلباً للراحة ورغبة في الإستجمام والاستفادة من الأجازات على نحو على وسلم .

والرجل أسلوبه في شغل الفراغ ، الذي يتمايز تماماً عن المرأة ، كما تقضي الفتاة الصغيرة وقتها بطريقة خاصة ، قد لا تألفها المرأة الناضجة ، وقد لا تستبينها زوجة أو أم وإنما تتوافق فقط مع شابة عذراء . فكل سن أو مجلس ، ولكل فئة عمرية طريقته الخاصة اللاهية أو الجادة في الاستمتاع بالوقت المسمد السعيد ، حين يفتر الانسان البشر والبهجة فيسعد الآخرين من حوله بطريقة خاصة ، تتفق وأنماط الثقافة . وتتوافق مع الميول والانحماكات ، وتألفها كل الفئات الشبانية على اختلاف دخولها وطبقاتها .

ولاشك أن هناك ألوان مختلفه من برامج شغل الفراغ ، إما عن طريق السياحة أو الرحلات ، وإما بالقراءة الجادة الممتعة ، بمعنى أن هناك درجات من الترفيه والإمتاع والمؤامسة ، وسط جماعات تتقارب فيما بينها عناصر الثقافة ، وتتشابه أنماط الفكر والسلوك ، في فئات واحدة ، تجمع فيما بينها وحدة العمر فتتقارب الطبقات وتمتزج فيها الصداقات الوطنية بين شباب الجذسين ، في سلوك ديموقراطي وفي جو اجتماعي مريح ، يخلق روح الفريق المتعاون الذي يقضي وقتاً ممتلاً ومربحاً ، وتحت إشراف منضبط وموجه من الآباء والأساتذة .

ولقد أثبتت الدراسات السيكولوجية ، وفي ميدان علوم الصحة النفسية بالذات ، أن النجاح في استخدام الوقت وحسن إستغلاله ، إنما يتحقق فيما يشبه البهجة والتبته من جهة ، وفي الإشتغال بالنافع المفيد من جهة أخرى .

الفراغ والطبقة الاقتصادية :

ومن للأدرف أن تتأثر « الطبقة الاقتصادية » بطريقة شغل الفراغ؛ التي تختلف باختلاف درجات « الفنى والفقر » وتبايز « طبقات العلم والفكر » وأنماط « الثقافة والتخلف »، حيث نلاحظ في وضوح كامل أن البدائي والقروى والحضري، ألبابه وملاهيته، كما نلاحظ أيضاً أن للجهل والتعلم والثقافة أسلوبه، والفيلسوف والكاتب والفنان، طرائقه في الإشباع والامتناع .

وهناك مؤسسات لشغل الفراغ ، كاللهاى والمقاهى ودور السينما والمسرح والسيرك ، والنوادي الرياضية والاجتماعية ، وكلها أماكن لقضاء الوقت الصحى والمتنع ، وشغل الفراغ الاقتصادى ، وتختلف هذه المؤسسات الرياضية والاجتماعية، طبقاً لدرجة نمو المجتمع المهنى، وإستعداداته للتنمية والتطوير. واستناداً إلى دراسة ظواهر اللعب والبهو ، والتسلية والقضاء ، يمكننا أن نتوصل إلى السبب المباشر في وجود الفلكلور ، بكل نماذجه وأنماطه، حين نجد أن الشعوب والجماعات والثقافات ، فنونها وقصائنها ، الأمر الذى يؤكد لنا كيف ينبوع « الفن القومى الأصيل » من روح الشعب ، ويحمس آماله ، ويعبر عن آلامه ، ولكل فن طريقته في التعبير ، ففى فن الموسيقى مثلاً نجد كيف تعبر آلات الموسيقى ، عن كل ما يدور في المجتمع ، حيث تظهر الموسيقى في كل مجتمع لكي تجعل لنا وترصد أفراحه وأترابه . والقضاء فن يشارك الموسيقى الجادة أحياناً ، اللاهية في أغلب الأحيان . ولا شك أن الفن كفن اجتماعى حقيقى ، هو الذى يضر لنا ، ويعطل المصادر الأولية لفرصات الجاهلية التي كانت تعود يوماً ما حول « القوم » (١)

(١) « القوم » هو الميراث الميراثى ، الذى فيه تجسد أرواح الآلهة في العبادة الوثنية.

Totemism أنظر أيضاً في هذا السدد :

Durkheim, Emile., Les Formes Élémentaires de La vie Religieuse, Félix Alcan Paris 1912.

Totem ، وعلى مشهد من الكهنة الذين كانوا يرتدون الترابيل الدينية في شكل
ذغثاني غشع ، وفي نمط فكلوري مصحوب بأصنام من الموسيقى التي قد تضفي جواً
جاثوريا تارة ، أو دينياً ومقدساً تارة أخرى .

والكورس Chorus ، هو مشهد غشائي ، والكورال Choral هو
ترنيل ديني . ولقد صدرت أوائل الثقافات القديمة ، منذ صدرت الحضارات
الأولى ، في الهند والصين ، وأقيم المهرج التقديم أمام المنح ، وأعد رجال
الدين التماذج الأولى لصدور الفن في ميادين النساء والائتقاد الديني ،
والترانيل ، والقصائد الدينية المزروجة بالتعبد والتقرب والاسترخام ، طلباً
لعفو الآلهة ورضام .

ولقد أكد لنا ، إميل دوركايم ، في كتابه عن « الصور الأولية للحياة الدينية » ،
أن « الدين » ، كظاهرة إجتماعية ، هو أقدم النظم ، وأن تصورات الدين وطوقسه ،
هي أوائل التصورات والمقوس ، وأن « الإنسانية » برمتها ، قد أطلت على
الوجود من « هيون الدين » ، ونوافذ « العقيدة » . ففي جوف الدين ولد العلم
الفلسفة والفن . ولذلك صدرت كل فنون الرقص والتعبير الحركي ، والابتهاج
والباليه ، عن مصادر دينية وتصورات وعبادات ، وبذلك بدأت فنون الرقص
في المعابد ، حيث ظهرت مختلف الأنساق القديمة من الفنون ثم دخلتها سائر الممارسات
الشعبية على مر الزمان ، فأصبح « للتفكر الشعبي » ، حقيقة موضوعية في « دنيا
الفن والرقص الشعبي » ، بعد أن كانت هذه الفنون قد امتزجت من قبل ، بأشباح
من سحر ودين .

الشباب والفرغ :

وكم نحن في جمهوريتنا ، وفي سائر مدنها وقرانا ، في حاجة إلى تنمية عاجلة وسريعة ، وكم نحن في بلدنا نتطلع لفلسفة تربوية جديدة ، تبيد النظر في مشاكل وبرامج التنمية والتعليم ، وإلى تغيير جفري وتطوير جوهري في طرق ومناهج التدريس ، حين نخلف وراء ظهورنا ، تربية عتيقة ولا جعوى منها ، فهي تلقينا ضائقة عاتقة ، « تفرض مادة جامدة » وتخلق شخصية فارغة ومقصورة ، تنبؤ بأنها فائضة الذكاء ، فائقة الفهم ، فينبغي ألا نأخذ بتعليم ملقن ، يقضى على ملكات الإنسان ، ولا يخلف لنا سوى نماذج متجالة من بني البشر ، حين تتوارى وتدافع نحو التخرج كل عام ، وفي أعماط استاينكية دفعت فجأة وزائمة البصر ، وهي نماذج تحققت في صور عقلية متشابهة ، وصيغت في قوالب جامدة . فتوحدت جميعا في نفس الشكل والمضمون .

ونظراً لخطورة كل هذه الأسباب والنتائج ، فعلى رجال التعليم وعظمى التربية أن يعملوا على خلق المناهج وتطوير البرامج ، وتحرير الفكر ، وتشجيع القدرات الذاتية ، وإعاش ذكاء الإنسان ، وتنمية شخصيته ، بالكشف عن مواهب الفرد وإمكاناته ، ودفع طاقاته الخلاقة ، نحو العمل المنتج ، ونحو الإحساس بأهمية أو قيمة الزمن كنصر اقتصادي .

الاقتراح عظم :

١ - ولكي يحقق التعليم الهامى أهدافه ، علينا أن نسم برامج العمل ، وأن نحدد مجالات التطوير ، ونقسم إطاراً عظمياً يتجه العمل في مساره ، مع جعرة ونظم للأجراءات العملية والتطبيقية ، لتحقيق « الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية للجامعات » .

في جمهورية مصر العربية ، هناك قطاعات قروية وخضرية وبدوية ، وكلها محتاط ومواقع تحتاج إلى الكثير من الجهود في مبادئ الرعاية والثقافة والتنمية بفضل وسائل الإعلام السلبية والبصرية ، مع تنظيم الخدمات ، وتوجيه الطاقات ، وشحن المهتم ، بخلق وتنمية «القيادات» ، الأنشطة والمنتجات ، وبناء «الكوادر» الوطنية والمختصة .

ولاشك أن القطاع القروي في جمهوريتنا ، إنما يشكل القاعدة العربية الأساسية في الاقتصاد المصري . بالإضافة إلى أن «القرية المصرية» هي أكثر القطاعات على العموم حاجة إلى الرعاية والخدمات ، حيث تعاني القرى في مصر للكثير من صنوف النقص والتخلف على المستوى الزراعي والصحي ، وفي الميدان التعليمي والمهناري ، ومن ثم كان إلزاماً على جامعتنا أن تهتم بعد الكثير من جوانب النقص في للقرية المصرية .

وبالنسبة لطلبة جامعة الاسكندرية بالذات ، تعدد القرى المتاخمة ، التي تعيش كمجتمعات هامشية Marginal ، حيث تحاط الاسكندرية من كل جانب بمناطق زراعية وبيئات قروية ، على شكل «عزب صغيرة» مثل «عزبة سعد» أو «عزبة عبد اللّاه» أو «عزبة أبو سليمان» . ونظراً لقرب هذه العزب ، فيسهل على طلاب جامعة الاسكندرية ، التردد عليها أو القيام بالمسوح الزراعية والطبية والصناعية ، مع تقديم مختلف الحلول لتلبية هذه المناطق ، وحلّاج ما تعانيه من مشكلات اقتصادية واجتماعية وثقافية .

ب - واستناداً إلى هذا الاقتراح المخطط ، تتعاون كليات الزراعة والطب والهندسة ، ومعاهد الصحة والتربية ، وأقسام الاجتماع في كليات الآداب والقرية والخدمة الاجتماعية ، بالإضافة إلى جهود طلاب كليات التجارة والمقوقن .

في نشر الوعي الاقتصادي والثقافي ، وقد يشارك طلاب «مدارس المليون العامة» في بذل كل جهد في جمع المادة العلمية المطلوبة . وفي عمر الأمية وتعلم الكبار .

وما يستتبع من كل ذلك ، هو التأكيد على « وظيفة الجامعة ، وإلتحامها بالمجتمع ، وإلتحامها لحل المشكلات ، فخطط «مبانيات التدريس ، البرامج العلمية والتطبيقية ، لكيفية إستغلال هذه الإمكانيات ، والطاقت . بالإضافة إلى الأداة من ترابط الجهود وتكثيفها ، ومن أجل رفع مستوى الحياة في هذه المناطق ، وتمييزها زراعياً واقتصادياً وتربوياً وثقافياً ، فتتهد بالضرورة وبفضل هذا التخطيط ، «خريطة القرية ، إيكولوجياً وبيئياً واقتصادياً وسيكولوجياً ، فتتهد «ظواهر الحياة القروية ، تحو ما هو «أفضل ، وما هو «أشمل .

٢٢ — وهناك إمكانيات بشرية وعلمية ، وطاقت وخبرات يمكن أن توجهها الجامعة ، بإستغلال المعامل وأماكن البحث العلمي المزودة بأحدث نتائج تكنولوجيا وبالاستعانة بالآلاف من الشباب الجامعي الطموح وتتاح أيضاً ، جهود مكثفة بين كليات الجامعة ، يمكن أن تتعاون لكي تنظم لنا صفوف المشغولين من الطلاب ، وتحدد لجان النشاط وبعده ، لجنة القرية ، ولجنة تنمية المجتمع ، ولجان الرعاية الاجتماعية والخدمة العامة ، بالإضافة إلى لجان طبية وزراعية وعلمية واقتصادية .

ومن الإمكانيات الفنية القائمة الآن ، وجود إدارة الرعاية الاجتماعية في الجامعة ، التي قد تشارك في أنشطة رياضية وفنية وعلمية ، بإستخدام فرق الجراحة وتحريك طاقت الطلاب إلى أعمال «اقتصادية منتجة ومنظمة ، تحت إشراف هيئات التدريس بالجامعة . كل في نطاق عمله وبجمال تخصصه . وهكذا تكون وظيفة الجامعة في التنمية ، ودور الأستاذ في التوجيه والإشراف . ومن هنا يستطيع

• الطالب الجامعي ، أن يقوم بوظائفه العملية والاقتصادية ، فطالب الطب مثلا ، يشغل بالجوانب المرضية والعلاجية ، عن طريق التوجيهات أو الإرشادات الصحية . وطالب الآداب والتربية والخدمة الإجتماعية ، لا يفكر أو يدبر إلا في علاج مشكلة شائعة ، هي : تعليم الكبار ، عن طريق « محر الأمية » ونشر الوعي بين أهل القرى .

أما طالب الزراعة ، فيقوم بالتوجيه - الإرشاد الزراعي ، كما يعلم ويتعلم من الفلاح ، حين يصطدم بغيراته العملية ، فتبرز لظفراته العلمية ، ويضنف لإعائه بالنظريات المجافة التي فقدت الحياة . وهكذا يعمل ويفكر الطالب ، ويمارس بالفعل ، ما يفكر فيه ، كما يفتق حبلأ ما كان قد تلقاه من دروس نظرية . وهذا هو اقتراح مخطط ، للتعليم كعملية إنتاجية ، و « نموذج تصوري » ، قريبة بالممارسة والخبرة والتجربة ، « برنامج عمل » أرسو أن يحظى باهتمامات رجال التخطيط والاقتصاد والتربية في مصر .

وتوجه الأذهان في هذه الأيام ، نحو تغيير النظرة إلى التربية والتعليم بمنظور جديد يعالجها كعملية إنتاجية . لأن العناية التعليمية هي عملية اقتصادية ، لا تنتج إلا كراشمال مستثمر يظهر عائده في المستقبل القريب أو حتى البعيد ، ولعلها التمية لامتيازات بارزة بعمليات التربية والتثقيف والتعليم ، لأن مشكلة التمية في جوامعها هي مشكلة « إنسانية » قبل أن تكون « مشكلة اقتصادية » لها أصول إنتاجية وجذور مادية . ومن أجل هذا يقول السير بيرسي نون : Percy Nunn وهو من كبار اللربين : *Nothing good can enter the human world except in through the free activities of every man or woman* .

لا خير يمكن أن يصيب هذا العالم ، إلا عن طريق النشاط للطلق للأفراد ،

لنساء أو رجالا ،

أنت وهناك ضرورة تربوية ملحة في هذه الأيام ، تهمنى توظيف التربية والثقافة والتفكير الجامعي الخلاق من أجل دفع عجلة التنمية الاقتصادية . وعلينا أن نفكر في حق ، وفي ضوء ما تحليه تلك الضرورة في ظرف اقتصادي صعب ، فنعمل دوماً وبلا انقطاع . في ميدان التنمية مع ما يواجهها من تربة وتقيف . فننقطع به علماً أن التعليم دوره في حل مشكلات التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، ، وهذا ما يقوله خبراء التنمية والتعليم .

وترتبط التنمية بالتعليم ، حين ترابط الجهود العلمية ، وتعاون كل الامكانيات التربوية والطاقت الجامعية ، ويتخطيط على منظم ، من أجل تطبيق كل ما جلت به قرائع وخبرات علماء الاجتماع الثقافي والاقتصادي والتربوي والتنموي من شتى الدراسات النظرية والتطبيقية ، وعارة تلك الدراسات عارة عملية في الحقل الميداني .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نملا ذلك الفراغ القائم بين النظرية ، و التطبيق ، ، وبالتالي يمكن الاستفادة من العلم والتجارب في ميادين التنمية ، عن طريق تطوير العملية التعليمية ووظيفتها باحتياجات اجتماعية ، وتخطيط برامج التربية طبقاً لاحتياجات المجتمع ومطالب الهيكل الاقتصادي ، وسابجه .

ودعماً لبداية المشاركة العملية ، وبمنا روح المساهمة ، مع تعميق مفهوم العلم للمجتمع ، وتوسيع نطاق النشاط الممتدة في حقل التطبيق والتجريب . كان لزاماً على الجامعات ، كمثل أصيل من معادل الفكر ، أن تعمل وأن تتطرق وأن تبصق طريقاً للآلاف من الشباب لبذل الجهود في ميسادين التنمية والرباطية والأرشاد والخدمات العامة .

ب - ومن هنا ينبغي أن يتحول قادة التربية والفكر وخطوط التعليم المعاصر

فيجعلوا بكل طاقاتهم نحو دراسة مواقع حياتنا العملية بأسلوب علمي ومتكامل ، حين ينتشر طلاب جامعاتنا في دقراهم ، و دكفورهم ، وينتقل حلقاتنا إلى مختلف مراكز البحث العلمي ، وينطلق الباحثون والممارسون بين سائر المعامل ، و د المصانع ، و د المزارع ، حتى تؤدي الجامعة والمعاهد والمدارس ، دورها الاجتماعي الصحيح ، وتصبح مراكز أساسية للإشعاع الثقافي والفني والاقتصادي والصحي .

فلتأمنح الحياة التي نتمتع على الدراسة النظرية وحدها ؛ دون تجريب أي تطبيق ، تصبح نتائج سليمة وهرجاء ، إذ أن د النظرية ، لا تستطيع الوقوف على أقدامها ، حين لا تستند إلى د الممارسة العملية . وفي هذا المعنى يقول مئير-توفيل في مأساة د جوته Goethe ، المشهورة د فاوست ، إن النظرية ومادية اللون يا صديقي ، ولكن شجرة الحياة خضراء إلى الأبد . فالعزلة النظرية الجافة لا تمنح منها ثمار ؛ إلا إذا ارتبط العلم بالعمل ، والنظر بالتطبيق ، ومن هنا تصل القرية بالحياة ، وترتبط المدرسة والجامعة بالمجتمع ، وتستند الثقافة إلى أصول اقتصادية وجذور واقعية .

ولما كان ذلك كذلك ، فإن العزلة النظرية المجردة إنما تنحصر عن القيام بدورها الاجتماعي ، حين لا نحاول في حاس علمي وفي خبرة وطنية وروح قومية جليلة ، أن نعمل دوماً على فهم ودراة تلك الدراسات النظرية الزائفة ، ونطبقها في واقعنا الاجتماعي العلمي .

د — وإنطلاقاً من هذه المزاوجة بين الفكر والعمل ، والتكامل بين نشاطات الثقافة والقرية ، والنسبة والإنتاج ، نستطيع أن نقترح مشروعاً ، أو أن نخطط برنامجاً تكاملياً ، تقوم به الجامعة بأساتذتها وطلابها وبكل كلياتها ومراكزها ، فيشارك كليات الطب والعلوم والصحة والزراعة ، في مشروعات تنمية المجتمع ،

كما توظف معاهد الترفيه ومراكز الصحة العامة، في نشر الوعي الصحي، وبمقام
كليات الأدب والقرية ومراكز المعلمين، بكل أقسام الاجتماع والحكمة الاجتماعية،
في رفع المستوى التعليمي والثقافي ، بحسب الأهمية وتعليم الكبار في المناطق التي
تحتاج إلى مثل هذه الخدمات .

الوقت الاقتصادي :

مع صدور مشكلة الفراغ ، ظهرت السلبية واللامبالاة ، وانتشرت روح
التردد والتفكك ، وخفضت سطوة القانون ، مع فقدان المعايير ، فانتشرت فئات
وجماعات الميدين ، لشعورهم بالفراغ والحواء . ولعل السأم boredom والملل
monotony والضياع ؛ كلها ظواهر تدبر عن أبلغ درجات الفراغ .

والإنسان الذي يعرف قيمة الوقت الاقتصادي ، هو إنسان يحترم العمل
ولا يشعر بالملل والحواء ، لأن الفراغ دون عمل أو أمل ، يقلل من طموح
الإنسان وينصف من حاسبه . وشغل الفراغ باللعب والترويح Recreation
والقنينة والانشغال ، يصرف الطاقة الزائدة Surplus energy من الحاجة كما
يحقق النشاط الترويحوي، حالة من التوازن Equilibrium في حياة الإنسان النفسية
والاجتماعية فينفس الإنسان من الحبيس من الطاقة ، ويستهلكها فيما هو دافع ومفيد .
ويجتم ويحلم الاجتماع الثباتي ، ، يربط شغل الفراغ وتنظيم الرحلات
والسياحة . فليس الوقت فراغاً زمنياً ، وإنما هو شيء له قيمته الاقتصادية ،
تفاوتت لازم وجبروتي، وشروط في كل عمل ، ويعهود في كل سلطة، وقد ظهرت
الأهمية شغل الفراغ بعد أن ظهرت الانحرافات الواضحة في أنماط سلوك الشباب ،
سواء أكانت بين جماعات متطرقة دينياً ، أو عدلثة سياسياً ، الأمر الذي يفرض
ضرورة التخلص من أنماط السلوك الانحرافي ، بين الشباب .

ويحل علماء الاجتماع ، أن يواجهوا خطر الممارسات الثقافية الهدية والفسلفة

وأثرها على توجيه الشباب ، فتظهر أشكالاً من الاحترافات الدينية واللا دينية .
 وعلينا بالتوعية الملائمة ، والتوجيه الهنيئ السليم ، واحترام «نقاء الشعور الهنيئ»
 الخالص ، دون النظر إلى عامل سياسي أو دنيوي. ومن هنا يستطيع عالم الاجتماع
 الهنيئ والثقافي والتربوي أن يخلص شبابنا من الأيديولوجيات الضارة ، عن طريق
 إعداد البرامج في ميدان تنظيم «شغل أوقات الفراغ *Leisure*» .

٤ - مشكلة الفراغ الاقتصادي :

إذا كان «الوقت» من ذهب، كما يقول للثلث للمأوف، فانوقت ليس شيئاً ثامناً ،
 وإنما هوشية له قيمته، وليس الوقت فراغاً زمنياً ، وإنما الوقت دوره ووظيفته
 في تحقيق المصالح والآمال ، وقضاء حاجات الناس ومناشطهم . فانوقت لازم
 ومطروري كشرط يتوافر في كل عمل . والعمل هو الواجهة الحقيقية لكل نتاج
 إقتصادي أو فني، حيث يبدع الفنان ويخلق الأديب والفيلسوف، كما يعمل الفكر
 دائماً من أجل الحياة ، فتزداد الخبرة ، مع زيادة عمق النعم الحضري ، ومن هنا
 كان لوقت قيمته في الثقافات الغربية، بل وهو أكثر أهمية وقيمة منه في «الثقافات
 الاستاينكية» أو التقليدية . فلا قيمة للزمان وللكان عند البدائي والقروي
 والبديوي ، وفي دراسة عن الزمان عند الفلاح الجزائري في *Kabyie* ، قام بها
 « بورديه *Bourdieu* » . تبين أن « مفهوم الوقت هو مفهوم ثقافي وليس » .
 وليس لوقت عند الفلاح الجزائري أية قيمة إقتصادية . وإن كانوا في قرى
 الجزائر يوطنون بين الوقت ومناشط إقتصادية مثل فكرة السوق الذي يقام كل
 أسبوع في شتى القرى التي تختار كل منها يوماً لسوق التجارى . ولذلك حين يريد
 الفلاح الجزائري أن يبرهن مفهوم زمانى مستقبل يشهد إلى معنى الأسبوع القادم،
 فإنه لا يعرف معنى الأسبوع لغة، وإنما يقول لنا في «السوق القادم» ، « وفي هذا
 المعنى يتضمن الزمان تقوى الجزائري في «الواقع» ، تصورات استاينكية ومفومات

قندية ، ومقاصد اقتصادية (١).

وقد يسبب الملل والضيق والضرر ، كحالات نضبة تبعث على الاهتمام بالترفيه وتؤدي إلى دقت الوقت ، في ما لا ينفع ومن ثم إيهالك الإنسان وقته دون أى تقييم اقتصادى ، بل تقول إن وقت الملل ، هو ضايع بلا قيمة اقتصادية ، وهو وقت سيكولوجى ، وليس وقت عمل أو جهد مبدول أو قصد اقتصادى مقصود . ولا شك أن الفراغ هو السبب المباشر للاستهلاك ، ولذلك تحتل المقام فى أحياء المهال والفلاحين حيث تنتشر المخدرات ، نظراً لشدة الإحساس بالفراغ ، فيزداد الاستهلاك كلما إزدادت حدة الفراغ ، وشدة الإحساس به .

ولاشك أن الانتظار ، مثلاً هو حالة من الفراغ ، فيزداد الملل كلما إزدادت قوة الانتظار دون عمل أو مجهود ، فيكون للتغلب على الملل ، فيمضى الوقت وكأنه اجر ، فيزداد حقه واستهلاكه للتدخين وتناول الرطبات والأطعمة ، أثناء فترات الانتظار ، وفى حالات الفراغ من العمل فى أوقات الظهيرة وفى المساء .

وفى حالات الانتظار يمر الوقت قليلاً ، ولذلك تجمع المشروعات الاستهلاكية بجموع محطات القطار ، وفى كل أماكن الانتظار للأوتو ، وفى الطائرات العالمية . وقد يكون الوقت قيمة يوزن بها ولذلك يختلف قضاء الوقت بين طبقات الناس ومشاربهم . ومن هنا صدق المثل القائل « خبرنى كيف تقضى وقتك أخبرك من أنت » .

فنحن نعرف كيف يقضى العامل وقته ، الذى يتأخر عن كفيه قضاء الوقت بين الفلاحين ، وشتان ما بين أوقات الترفيه بين طبقات الادارة الجبروتية من

(1) Bourdieu, Pierre., The Attitude of the Algerian Peasant toward Time, article from, Mediterranean Country men, Mouton, 1963, P. 56.

جهة ، وبين طبقات العمالة للنفقة . من صغار الموظفين والشرعيين على المال . من جهة أخرى .

والإنسان في حالات فراغه وانتظاره أو في أجازته أو انقطاعه عن العمل هو أكثر استهلاكاً منه في حالات إنتاجه وعمله . بمعنى أن الفراغ من العمل هو السبب الحقيقي لكل عملية استهلاكية .

ولذلك يقال إن الفراغ مفسدة ، لأنه يزيد من شعور الإنسان بعدم الرضا والضياع ، إذا ما شغل الإنسان وقته بما لا ينفع الناس ، أو يعود بالخير عليهم . هذه حقيقة تؤكد ما دراسات سوسولوجيا الشباب ، وسوسولوجيا الأطفال Sociologie de l'enfant ولذلك علينا أن نشغل أطفال المدارس والشباب وطلاب الجامعات في أوقات فراغهم المصيبة ، بالعمل الناجح والمفيد ، فلنشغلهم بما ينفع ، بدلا من قضاء الوقت فيما يضر الصالح العام من انحرافات سلوكية قد يعاقب عليها القانون . فلنشغل الناس بقضاء وقت اقتصادي نافع وممتع ، بدلا من التزام ما لا يليق من السلوك الانحرافي وإرتكاب للمحامي التي تقضي إلى الجريمة والمناح . الأمر الذي يزيد من حدة التفكك والصراع مما قد يؤدي بدوره إلى التمرد والثورة . وإذا ما عرفنا قيمة الوقت الإقتصادي ، فهناك اختلاف قيمة هذا الوقت ، وتقييمه طبقاً لمحككات عامة نظراً لاختلاف لون الثقافة والإدراك والبيئة .

٥ - إقتصاديات شغل الفراغ Leisure Time :

ظهرت أهمية دراسات شغل الفراغ ، بعد أن ظهرت الانحرافات الواضحة في أنماط سلوك الشباب ، سواء أكانت بين سماعات متطرفة دينياً ، أو حداثة سياسية ، فينبغي أن نتخلص نهائياً من أنماط السلوك الانحرافي بين الشباب ، ولابد

من المحرة إلى « الضبط أو الانضباط » ، حتى ينوب هذا التطرف الديني أو السياسي ذوباناً ، داخل إطار من الفهم والوعي والحراسة والعلم . ومن ثم كانت مسألة شغل أوقات الفراغ .. بالنسبة للشباب هي مشكلة جوهرية من مشكلات علم سوسيولوجيا الفراغ Sociology of Leisure . ومن أجل الفهم نواجه كل وسائل الإعلام ، الفكرى وأدوات الاتصال الجماهيرى من خلال الكلمة المكتوبة والمسموعة وللدية بفضل جهودات « الصحافة وأجهزة الراديو والتليفزيون والقرن المستورد . » . وينبئ أن لشرح قضايا المجتمع ومشكلاته حين يتقبل الإعلام إلى القرية وإلى المدينة ، وحتى تظهر هذه المنطقة العربية كلها من التأخر الايديولوجى ، ومواجهة تلك الجماعات المحركة ذات « التمسك الدينى الواضح ، بالمناقضة والفهم ، لأنها من أخطر هذه الجماعات المتطرفة ؛ وأكثرها قسوة ويطشاً وأبعداً أثراً في نفوس الشباب تحت ستار الفتن وباستغلال طهارة الشعور الدينى النقي ، « في سبيل مصلحة » من وراء « هذه الجماعات القربية على الثقافة والحسنة ، » . والى لا يمكن أن تكون « جماعات معربة ، لأن مصر لم تخلق مثل هذه الجماعات الدينية المتطرفة ، على الاطلاق ، فلابد من وجود مصادر وثقافات أخرى ، غير معربة ، » . وراء هذه الجماعات الدينية المتطرفة :

وعلى أن نواجه خطر الجماعات الدينية المتطرفة على إجماعات الرأى بين الشباب المصرى ، وهو أمر من ناحية « الأمن الدولى » ، « خطر عالمى ومعروف ، » . ينتشر بين شباب العالم فتظير « أشكالاً من الإغرائات الدينية والادينية . » . ونحن كاساتذة في الجامعة وكأباء مثل هؤلاء الشباب ، ينبئ أن لنكون الحرب العلمية والفكرية ، ضد هذه الجماعات الدينية المتطرفة ، حتى يميز شبابنا بين الأصيل والدخيل ، بين الحقيقة والضللال . من أجل الحفاظ على قيم مصر ومثلها العليا ،

وحق لا تنحصر أخلاقيات الشباب وتضد أجيالنا بتسلسل الترهات المداومة والاتجاهات المنصيرية التي تسبب الاخلال الحقى .

لذلك كان على علماء النفس والاجتماع والمهن الاعتمام بمشكلة شغل أوقات الفراغ بين أجيال الشباب في الجامعة والمصنع ، في القرية والمدينة ، حتى تصاغ أنشطة الشباب وتصب في « فترات مشروعة دينياً واجتماعياً وخلقياً » .

ولذلك فإن نشر الوعي الهينى بين الشباب ، هو أمر مطاوب ، حتى يستطيع أن يقاوم التيارات المتطرفة ، وأن يدافع عن الدين الحق إزاء البدع والضلالات ، فكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . وهناك كتب دينية من نوع خاص تنتشر في مكاتب النشر كما وينتقل عليها الطابع الهينى المتطرف ، وعلينا أن نعيد النظر إلى هذه الكتب ، وأن نقرأ ما جله فيها ، حتى نقدم للشباب الصالح منها ، ونبعد عنه ما قد يشهده « البليغة » بفضل إنتشار الأفكار الهدية للترجمة عن الدين الإسلامى الخفيف .

وكم يكون طالب الجامعة ، في حاجة إلى قراءة الكتب الجادة التي تنفع ، وتمككه في الأرض ، أما ما لا ينفع فهو قبض الريح ، فيذهب كالربرد جفاء . والقرامة ممتة ، وترقية الفكر والمثاخر ، وهى وسيلة جهورية من وسائل شغل أوقات الشباب بين « جماعات الطلاب » ، وهى « مجال المصانع » ، فقد تحقق قراءة كتاب مفيد مستوفهما وتسلية ، بالنسبة للشغلتين في العمل الصناعى ، والمهن أو الحرف الفنية والصناعية ، التي قد تتطلب الراحة والترقية بعد مجهود العمل المضنى الذى يثقل فيه العامل مجهوداً جسمى وعقلياً . ومن هنا تصبح القرامة ضرورية للتسلية وترفيه وتثقيف العامل والتلاح والطلاب ، إذا إنتشرت الكتابات التي تثقف الإنسان

وتتمية ، بترية فكره وعقله ، وترقية مشاعره وذوقه وخلفه ، وتثمين الترامة حاجات الشباب النفسية والاجتماعية ، وتزويدهم فيها لديهم ودينام .

ولاشك أن مرحلة الشباب ، هي أم مراحل العمر بالنسبة للإنسان الفرد ، فالشباب هم ربيع المجتمع ، وأمله وقوته وعدته . هم الحلقة الحلقية الكاملة ، في كل مجتمع ، والتي هي في ميسر الحاجة إلى ما يوجبها نحو : المقيد والتافع ، من جهة ، كما ويبعدها عن السلي ، و الهدام ، من جهة أخرى . وحذا لو إنتشرت الكتابات الخسيلة لسائر العمال ، والتي تخاطبهم والتي تثقف الإنسان المعاصر ، وترقى من مشاعره وتثمي خطفه وذوقه ، وذلك لقضاء وقت فراغ مريح مع كتاب نصح ، وسيل ، ولسان العبرة ، يتذوقه العامل والمهني ، ويتغذى عليه بلغة القرينة إلى سيكولوجيا طبقات العمال فتشبع حاجاتهم ، وتزودهم فيها ووعياً . فكم يحتاج العمال كطبقة إلى ما يوجبها إلى النور ، وإلى ما يدفعها نحو النافع المفيد للعمل والوطن ، بعيداً عن كل سلبية أو انهزامية .

وعلينا أن نشجع العامل المثقف ، بقيمة شخصيته وقدراته وذكاؤه ووجهه ، ولاشك أن العامل المثقف أكثر إنتاجاً من العامل غير المثقف ، ومن ثم أصبح الثقافة ودورها الدفاعي بالنسبة لنتائج تربي الشعب العامل ، كالثقة بالنسبة للشباب ، حتى لا يتأثر العمال بحركات دخيلة أو نزوعات فرضية . وبالتقاء يصبح العامل أكثر وعياً ونشاطاً واعتداداً بذاته ، فلا يتصدق بكلمات بخارية لا يتفهمها ، ولا يواكب النزعات المتطرفة ، التي تقتل ملكات الإنسان الذكائية ، فيجمد فكره ، حين ينخرط في طبقة ، أو ينتمى إلى طائفة ، فيصبح العامل فرداً يتعرفون به باسم الحركة الشيوعية التقدمية ومن أجلها ، كما يتصرف بالأدوات . فأصبحت حياة العامل عارية عن الكروح حين أسدل عليها الضيوعون ستاراً كثيفاً ، قطن على الكروح الإنساني ، قسماً بمرء .

فالتفراغ كما تعلم حسنة ، والوقت كما درسنا كالسيف ، والكتاب نحو حديق لكل عامل وفلاح ، والقراءة كبدأ ومنف ، وكضرورة للنفس ، هي الحقيقة النهائية وللمستمرة التي لا تتوقف ، فلقد مات الملاحظ ، وعلى صدره كتاب .

ولكن ماذا يقرأ شباب العمال ؟

يبنى أن نحدد للشباب الصناعة ماذا يقرأ ؟ فأين هي صفات العمال ونصوص الشباب ، أين أدب العمال الذي يسمع حاجاتهم ، وأين كتب وبجملات ، وفلسفة الشباب ، على اعتبار أن مشكلة شغل التفراغ الصناعي ، هي مشكلة جوهريّة من مشكلات العمال اليومية .

الأيديولوجيات المضادة وتنظيم الفراغ :

يبنى أن يقوم خبراء الصناعة ، بتنظيم برامج ترفيهية لشغل الفراغ بين جماعات العمال . حتى تزداد قيمة الوقت بمناء الاقتصاد ، وتقارب وجهات النظر بين فئات العمال ، حين يشعر كل منهم بأهمية التعاون و « التضحية » و « التضام » ، و « الإنتاج » ، فيكون مثلاً الأهل هو العامل للتحقق للنتائج ، المذهب المذهب الذي يمرض كيف يقضى وقتاً طيباً نافعاً وحفيداً جيداً عن الأيديولوجيات المضادة والافتكار المدمرة .

وعلى الثقافات أين تهرم بدورها القوي بين جماعات العمال ، وتوجيه الأنظمة الثقافية وتحقيق البرامج الاجتماعية والرياضية . فالتفراغ هو الوقت الضائع دون منفعة أو طائد ، وبلا عمل منتج ، فهناك ساعات متعددة يقضيها العامل به إقتصاد فترة عمله اليومية ، فيفرغ من وقته الضروري للعمل ، ويضمن السكينة من الهدوء النادرة كالتدخين وتناول الحفلات .

والبطالة مثلاً ، لا تسمى فراغاً ، لأن البطالة فراغ إجباري ودون عمل .
ولكننا قصد بالفراغ ، هو حالة الخلو من العمل الضروري ، وانتفاء ساعات
العمل ، بوقت أكثر راحة وترفيهاً .

وبذلك يتأثر أسلوب شغل الفراغ من مهنة إلى أخرى ، فالتى يفرغ من العمل
الذهني أو الفكري ، لا يشغل وقته بنفس الطريقة التي يقوم بها من يفرغ من العمل
الآلي أو البدوي أو الميكانيكي والصناعي ، فكل مهنة أو عمل أو حرفة أسلوبها
المحاسن في قطع الفراغ والتسلية ، طبقاً لكون الثقافة والإدراك ، والاختلاف
الايكولوجي القائم بين الثقافة الحضرية والثقافة القروية (١) .

الشباب والسلوك الاجتماعي :

كثيراً ما يمنح الشباب وشعره ، فيحاول أن ينهض من أنماطه الاستاتيكية
للسلوك التقليدي . والسبب في هذا ؛ هو رغبة الشباب الملحة في التطوير والتجديد
وميل الشاب الطبيعي إلى الأخذ بالغريب والفاذ من أساليب الفكر والتزود .
وإذا ، درسنا السلوك الديني بين الشباب ، لوجدناه يميل إلى التطرف والتمسك
بأعذاب الدين ، وهذه جماعات دينية تتطرف نحو الأخذ بالتمسك من القواعد ،
بينما تأخذ جماعات أخرى بأنماط ولا دينية أو بالتحلل والابتعاد عن القواعد ،
الأساسية والقواعد الدينية وقواعد الأخلاق الفاضلة .

ومن ناحية الأمن العام ، وأمن الحركة ، علينا أن نواجه خطر الجماعات
الحضرية والدينية المتطرفة . فهو خطر عالمي معروف ، تنتشر سمومه بين سائر
فئات الشباب المربضة من شباب العالم ، ودراسة أسباب إنحرافاته الدينية
والإدبية .

(1) Anderson, Neils, The Urban Community, Routledge
Kegan Paul, London : 1962. pp. 347-370.

وشباب مصر، هم أمل مصر، كم هم في مسين الحاجة إلى رعاية، ؟ ومجال مصر، هم سواعد مصر، كم هم في مسين الحاجة إلى « تثقيف وتربية » خروفاً عليهم من التريب والشاذ من الأفكار والمعتقدات المستوردة من خارج مصر ؟ ! وعلينا إذاً أن نرعى أبناءنا بالفهم والتثقيف والعناية والهداية ، نحو طريق الخير، ونحو الثور، ونحو الحق ، وهذا هو حق الشباب على الآباء وحق طلاب الجامعات على أساتذة الجامعات .

فكيف لشغل وقت الفراغ بالنسبة للطلاب والعامل والفلاح ، بدلاً من ضياعهم بين خرافات أو خزعيلات نبياً للأفكار الرجعية المخربة ، وللانحماجات السياسية الهدامة. تلك التي تنتشر بين أبناءنا الشباب من طلاب الكليات والمعاهد، وفي المقاهي العامة بين شباب العمال، حيث يلتقي العمال دون أي رعاية أو توجيه، بل ويترك العامل نبياً لجهالة وإدمان المخدرات والاسراف على تعاملات المكيفات، حتى يذعن بعد ذلك كل الأفكار السياسية الهدامة والفوضوية . فعلينا كأباء وكأساتذة الجامعات أن نحارب « الانتهازية » ، ونرفض « الجفود العائذي » ، وعلينا أن نشجع العامل على المزيد من القراءة والثقافة، من أجل تنمية وتطويره . ولقد أصبحت الثقافة ، ضرورة لازمة في حياة العامل الشاب أو الفلاح الكادح ، لسبب بسيط جداً وهو أن حياة العمال من الشباب ، قد أصبحت في هذه الأيام هاربة من الروح ، حين أسدلت عليها « وطأة التكنولوجيا » ، و« الجماعات المنطرفة » على المستويين الديني والسياسي ، ستاراً كثيفاً حجب كل شيء ، فتمضي ستار المادية الكثيف والممانع على وضوح الرؤية فانهارت القيم .

ولكل هذه الأسباب ، أصبحت برامج القراءة والإعلام والتثقيف ، ضرورة لكشف الابديولوجيات الضارة . الأمر الذي يحمل من القراءة « غاية في ذاتها » أو « مبدأ أو شعار » ، يؤكد أننا دائماً على أن القراءة هي متعلق فهم بفسر لنا

حقيقة الأمر الآلهى الذى صدر فى القرآن الكريم مع الآية القائمة : اقرأ باسم ربك اسئ خلق . . . فى هذه الآية ما يكفى النظر إلى مبدأ القراءة كأبلى غاية ، تحقيق أهدافاً حضارية ومعرفية ، راقية ، لكل إنسان يحترم إنسانيته ، فليتنا بالقراءة دون كلل أو ملل ، فالقراءة هى غذاء الروح والقلب والذوق جميعاً ، كما وتحقق لنا فى نفس الوقت أهدافها البعيدة فى ميادين الاقتصاد والتنمية ، والتكنولوجيا والتربية .

ولا أقصد بالفراغ هنا ، الأرواح والترفيه ، وقضاء الوقت حول التليفزيون أو فى المنتزهات والحقول حيث الهراء تطلق . فهذا فراغ عيب إلى النفس ، بل وفراغ مطلوب إقتصادياً ، لأنه يقلل من النشاط والفاعلية ، فيقبل الإنسان بمنعاً على عمله فى شيء من النسيطة وانزباط والجدية والنشاط ، وهو يحتل حيويته ، فهذا فراغ إقتصادى مرغوب فيه ، أقصد معطوب ، لأنه فراغ له قيمة ودوره فى زيادة الإنتاج ، فنحن نرغب عن أنفسنا من أجل النشاط وزيادة الانتاجية ، وهذا هو « الفراغ الإقتصادى » ، الحق .

ولا أقصد بالفراغ هذا المعنى الإقتصادى ، وإنما أقصد بالفراغ الوقت الذى يضيع ويتمرب دون هدف يتحقق فهو وقت يمضى دون عمل أو أمل .

فنحن نقطع الوقت أملاً فى تحقيق الأمان الذى يشرعها الإنسان بالسعادة ، وكلما ارتفع مستوى الطموح aspiration عنده كلما لزدادت وترقت قيمة الإنسان ، وكلما لزداد معها أيضاً « مفهوم الوقت الإقتصادى » ، فزاد وعنى وخصوبة .

والفراغ الإقتصادى ، وهو فراغ دينامى ، يخلق للمجرات ، أما الفراغ الاستاتيكي الذى يتعنى كزمن بلا منعمون يتواتر على نحو متعاقب ، ويمضى فى شيء من الآلية ، أو النسيطة التى قد تؤثر على شخصية الإنسان ، فتقتل ملكاته ، فيمضى وقد فقد أحدهما بملكه ،

حين ينطلق الإنسان في حياته بلا معنى ولا هدف ، بلا قيمة للوقت ، بلا تحقيق للكمال ، بما يخلق فناءً ، الإنسان للتعدد ، أو الإنسان الذي يطلب ، للضمونه لانه لا يشعر إلا بالحواء .

وقد راغ الاقتصادى لا يمكن أن يؤدي بنا إلى الحواء والضياع ، بل إلى العمل والانتاج وزيادة لخلق والابتكار .

الاصب والترويح : Recreation :

ولا شك أن برامج التسلية ، والانعاش ، والتزه ، وبذل الجهد والحركة ، إنما يقصد بها بذي النشاط عن طريق الرياضة ، والسباحة بقصد الراحة ، وللتعة أو تجديد الخلايا بالجرى ، والأثولاق والقروسة ، ثم تظم برامج لأوقات اللعب والفر ثم تجديد أوقات الراحة والنوم . وكلها أمور مطلوبة وضرورية في دراسة سوسولوجيا بانشل أوقات الفراغ . حتى تجد نشاط الشباب يزداد حاسداً ووجهه لوظن ولا شك أن اللعب ، لنشاط ترويحى ملحوظ في حياة الأطفال أثناء مراحل نموم سواء في الطفولة للبكرة أو المتأخرة . . ومن الخطأ أن نحرّم الطفل من ألعابه ولعبه ، لأن لعب الطفل لنشاط له ضرورته لإعدادة للحياة . ولقد أثبتت الدراسات التجريبية والتربوية Pedagogique في علم نفس الأطفال Psychologie de l'enfant عند كلايارد Clapabide أن اللعب ضرورية في حياة الطفل وله قيمة وجدواه في تربية الطفل وتعليمه .

وليس للعب ظاهرة طفلية وحسب ، بل هو ضرورة للقلب المثقف والعامل فهناك ألعاب خاصة بالشباب كجموعات وفرق وفردى ، حيث يستطيع القلب أن يتفوق في السباحة أو المصارعة أو كرة القدم أو السلة ، وهناك فرق أخرى تهوى الفن والرسم والتثيل ، وجموعات إمتازت بالسمر والترفيه والقتناء والرقص الجماعي المنمّج بالفلكلور الوطنى والشعبى وكلها مصادر تصرف الطاقة الزائدة عن الحاجة Surplus energy بين الشباب (١) .

(1) Ellenson, Anne, 'How an Relations', Prantice-Hall. 1973.

ولا شك أن الشياح طاعة مدققة وحيوية ظاهرة ، وقد تفرأكم طلائع الشياح للتدققة ، في حالة إندام الحيوية والنشاط ، فلا بد من وجود أعمال وجهود مبدولة حتى يمكن إستهلاك هذه الحركات الحية والطاقات التراكمة ، من طريق الرياضة والنشاط للبذل في دنيا العبوالهرو وألوان الترويح وصنوف التسلية المجادة واللاعبة مثل « القزامة » وهي نوع جاد من التسلية ، أما السر والموسيقى والرقص والبناءه في نوع جاد من التسلية للاعبين الشياح للمأصرة وقد تكون فنون « الرقص الشعبي » من أشنع أشكال التسلية الشياحية اللاعبة ، وأكثرها مرحاً وبهجة وحياء في الحياة (١).

وقال إن اللعب نوع غير مكتسب *acquired tendency* ، (أوديل طيسم) بين الأطفال والشياح ، من أجل التعلم والاعداد للحياة للتحفة . فالتسلية للصنعة تتلم من اللعب بكرة الخط ، وتقوم بحركات بلوانية مختلفة ، تمكنها من معرفة الكيفية السليمة لاعدادها لصيد فأر أو صفور ، عن طريق الحركة والتخو ، ثم القفز واقتناص القرية .

وقد تقوم بإدارة السمك *Cross* بتعليم الحيوانات للنوحنة من الرئيسيات *Primate* الراقية وتدريبها على أعمال وحركات بلوانية معينة ؛ واكتساب الخبرة عن طريق اللعب كوسيلة لاعداد الحياة في السمك ، وتربية الخيول وتدريبه .

(١) فقد نجحت « طريقة التمية » في جبهة صحرى صحرى ؛ لأنها أولاد في حياتهم الجملاً ودماء ؛ ثم لأنها تأتيا قد مزجت بين « التسلية الكونية » من جهة ، و« التسلية البهائية » الأرسطوطلي من جهة أخرى ، فبذلك تلك الطريقة مبدولة تماماً عما نسب « بابلو تشي » إن مدلت القدمية ؛ لأنها وصلت ومرسقة ، تتزوج في قولها سبحانه وتعالى ، وقد كتبت لعل الثقافة العلمية الأصلية ، وهذه هي سيات « نحن الباسر » .

فالقالب هو عامل منوط لعملية النمو العضوي والمركبي والنسبي للأعضاء مع تهذيب الاستعدادات للورثة . وإذا كانت الوظائف Functions والأعضاء Organs ، والعمليات Processes ، هي محاور إرتكاز رئيسية في علم البيولوجيا Biology . فإن الوظيفة هي التي تحلق العضو ، كما ينضم العضو بضمور وظيفته أو بانهائها .

ولذلك يتدرب « عازف البيانو » دائماً لضبط حركة الأصابع بالترين ، وتدريب إستاتيكية الحركة المعصية أثناء العزف في مرونة وإتسياب ، بين ثغرات تقاربط وتفسج في لحن شجي ، يثير الذوق والوجدان ، ويكون له صداه في مجال الفكر والابداع والخلق Creation والابتكار .

وقد يكون اللعب والترويح والانشاء والتسلية ، هي كلها بمثابة وسيلة التعبير عن العواطف التي تسمى sublimation بالمدافع النظرية ، وتفرق بالفراغ والبولب الطبيعية ، حين تطرق عالماً له جوانبه الفوقية والجمالية التي تتماثل على عالم المادة والحر .

والنشاط الترويجي وظيفته الأساسية وهي تحقيق التوازن Equilibrium في حياة الإنسان النفسية والاجتماعية ، عن طريق التنفيس عن الطاقات الحسية واستهلاكها فيما هو نافع ومفيد للجسم والنفس ، وقد يميل الشباب للفرب والشاذ من الحركات غير للأوقه ، حين يركب أحد الشباب دراجته ، ويهرى بها ويقودها ، بحركة جلازانية سريعة ، ومنمنحة ، حين ينطلق الشباب بدراجته بينما يرفع بقية إلى أعلامون أن يوجه الدراجة .

علم الاجتماع الشبابي وتنظيم شغل الفراغ .
ومن أجل الشباب ينبغي أن تقوم بفعليه تنظيم لشغل الفراغ بين شغلها

وشيلب الليل والفلاحين ، حتى توداد قيمة الوقت بمضاء الانصاف ، ويعتري
الروح ، بين فئات الشباب ، فتقارب وجهات النظر ، وتحدد اتجاهات الرأي
بين الشباب ، حين يشعر بأهمية التعاون ، و التضحية ، و النصر ،
و المزيمة ، وكلها خصائص ضرورية ينبغي أن تتوافر كسات أساسية في
شخصية الشباب المصري الطموح للتف ، سواء أكان طالباً ناجحاً في دراسته ،
أو عاملاً ، مخوقاً في عمله ، أو فلاحاً يعرف كيف يستغل أوقات فراغه فيم هو
نافع ومفيد ، بعيداً عن الأيديولوجيا الضارة والهدامة .

وهناك أساليب مروفة ، لتنظيم وقت الفراغ ، حين يتم الشباب كجماعات
و فرق بالرحلات والسياحة ، وتنظيم برامج التثقيف بالمحاضرة ووسائل الإيضاح
السنية والبصرية ، وتعميق البرامج الرياضية و فرق البناء والوسيقى لتزويد
الأغاني والأناشيد الجماعية ، في ميوت الشباب والنوادي الرياضية والاجتماعية
والثقافية وربما كان هذا البرنامج الشبابي هو أحدث برامج الضبط الإيجابي ،
في دراسات و الأهراف ، وقدان للماير .

وما ينبغي من كل ذلك ، هو أن شغل وقت الفراغ ، أصبح ضرورة حتمية
ومشكلة اجتماعية ونفسية علينا علاجها ، كطماء إجتماع وكنجواء لتفريس الشباب
من جماعات الليل و فئات الغلاب في القرية واللدنية ، عن طريق نشر الوعي الجملي
والسلامي ببرامج عديدة تقوم بها الدولة ، أو الجامعة أو المدرسة ، أو الكتبية
أو للجد . وكلها مؤسسات اجتماعية و ضرورية مطلوبة من أجل الشباب ، وذلك
باستخدام أجهزة الراديو والتلفزيون لحل مشكلات الشباب ، وعن طريق المحاضرات
العامة من أجل الاستكارة ، و زيادة الوعي ، و تعميق القيم ، و رفع مستوى
الطموح والوعي . باستخدام النوادي الرياضية والاجتماعية والثقافية ، عن

طريق اللعب والترويح والسياحة والرحلات ، وكل وسائل الفن والتشويق ؛
زيادة للمهارات الترويحية بين الشباب ، بايمتاده عن الأيديولوجيات الضارة ،
وللذاهب الهدامة والجماعات للمتطرفة .

وتحكم الأيديولوجيات الضارة ، في سلوك الشباب ، وتوجه الرأي العام
الشبابي ، طبقا لقيم ومعتقدات شائعة تسيطر على النخيل السوسيولوجي الشاب
وتصوراته الروحية ، ويكون لها صفة القهر ، والضغط على أفراده فلا يكون
على سائر الشباب سوى ، الولاء والطاعة ، لمثل هذه الضلالات من أوهام
الأيديولوجيا السياسية أو الدينية أو العقائدية dogmatism (١) وللذاهب البراقة ،
ولما يدور حولها من أساطير العصر وأخايل الحروب والتخافة ، ويقوم د علم
الاجتماع الشاب ، بتحرير عقول الشباب من أوهام العصر ، وتنقية ما يدور
في اتجاهات الرأي بينهم ، والقضاء على التعلية والاستاتيكية والعبادات الفكرية
الضارة ، فلا تسيطر أو تحكم ، وهذه هي عملية التحرير الحقيقية التي يقوم بها
علم الاجتماع في هذه الأيام .

الروح المعنوية :

ولاشك أن الانسان الصناعي ، هو العلة للتحرك لعملية التنمية في اقتصاديات
الصناعة ، فالطاقة البشرية العامة ، هي أهم أداة ، أو عنصر ، من أدوات
أو عناصر ، التنمية ، التي تفتح مجالات الإنتاج في المصنع ؛
ولقد ثبت في قياس الروح المعنوية ، لمآل أن سمات الشخصية الناعمة ،

(١) لغتسى ؛ موريساك طبقا لبدأ أو منعب أو عتبه dogam ولتبدأ فاحدة
أو لتظيم فكري ؛ يعني بالاستاتيكية والتعلية والعبادات .

والذكاء وسعة الأفق ودرجة الليل للنبي ، ومستوى الثقافة والمعرفة والتدريب ، وكلها عناصر جوهرية ، قد تدخل في التركيب الدينامي لشخصية العامل .
كوحدة أو كتصنيف جشعالية متكاملة الأبعاد .

ولقد ثبت من إحصائيات الحضور والغياب أن زيادة معدلات الانتاج وارتفاع الروح للمعنوية ، إما تؤثر جميعا في خرائط ورسوم العملية الانتاجية .
بمعنى أن هناك معامل لإرباط بين ارتفاع الانتاج وزيادة الروح للمعنوية تكشف عنها خرائط سير إجراءات الانتاج Flow process charts وعملياته ورسومه البيانية ، فلقد قلت معدلات التمارض وانخفضت مؤشرات الغياب ود معدلات استهلاك التالف من المواد الخام ، أو غير للمعنوية بمعنى أن هناك معاملات إرباط قوية بين الروح للمعنوية والانتاج . تكشف عنها بوضوح كل الرسوم والخرائط الخاصة بعملية الانتاج . Operation process charts .

ومع انخفاض الروح للمعنوية بين العمال تنخفض درجة التماسك ، ويزداد التحلل والانهيار بين الجماعات الانتاجية ، مما يؤثر على شخصية العامل وإنتاجه ، حين ينظر إلى علاقات اللودة والانسجام كرتبة ثانية بعد الاهتمام أولا بالعمل والانتاج .

وبينا تثار الروح للمعنوية فهو لاصنع ويتأثر العوامل الانسانية المختلفة ، والعمود بالظلم ، تنذب الروح للمعنوية وتقردد مؤشرات الزيادة والتحسن في معدلات هذه الروح للمعنوية طبعاً لمحو البناء الصناعي من الصراعات والتخلف ، مما يميز عن الروح العالية ويرفع من درجة التماسك في العلاقات بين أعضاء الجماعات الصناعية .

بحسب تقديره من الروح المعنوية إنما لا يستند حسب للمراس حدية تتعلق
 بطريق العمل بقدر ما تستند إلى شعور الياكل بالرضا النفسى الذى يفتح عن
 فلاعراق بشخصية العامل واحترامها في كل للمواقف والمجالات . ولاشك أن
 فكرة العامل عن الادارة هى للقياس الحقيقى لقياس الروح للمعنوية عند العامل ،
 وعن طريق تصورات العامل وفكره من د السلام الصناعى ، وانسجامه مع إدارة
 للصنع واستماع شكره ، أو ترحيحه بالعمل ، وبخاصة عند ترفيته ، فيزداد
 شعوره بالانتماء والاتحاد . هذا الشعور الذى يؤدى بدوره إلى رفع الروح
 للمعنوية نظر الوحدة الهدف والمساراة في الحقوق والواجبات والأجور ، مع
 الازدياد المستمر لمستوى الطموح Level of Aspiration .

ولكن ماذا نقصد بالروح المعنوية ؟

لذلك أن القدرة على الإنتاج والإقبال على النشاط ، بدافع حب العمل وحافز
 Incentive الأجر ، كلها ظواهر تمهد لنا طبيعة الروح للمعنوية ، وهى الطاقة
 الكامنة وفيها وراء العمل ، وحسن توزيعه والقيام به .

وتعمل دراسات الروح للمعنوية ، على استمرار نمو الدوافع التى تعميل
 على ارتفاع د كفاءة العامل الإنتاجية ، وتنمية قدراته بالاضافة إلى أن تحسب
 ظروف العمل ، وهى ظروف د انسانية ، و د مادية ، إنما تعمل جميعها على تنمية
 الروح للمعنوية وانماشها ، كما أن شعور العامل بالازدياد في مستوى الأداء ، إنما
 يشجع قوا الأجر على زيادة إنتاجه ، الأمر الذى يفتح له أمل بدوره على الحصول
 على Promotion .

وربما كانت الظروف الانسانية ، أكثر أهمية من الظروف المادية ،
 تلك التى لا يصعب علينا تحقيقها في سهولة ويسر ، حتى يمكننا انشباع حاجات

العامل النفسية ووقف دوسهم للضرورة ، "أ" الروح التي تعرف بالفانغ الرئيسي
التي يدفع العامل نحو حرمه على زيادة الانتاج وحبه وانه في أداء العمل
تدفع مستوى الأداء .

وتزداد الروح المعنوية بالطبع ، عند وضع نظم يحسن المعايير ، وحينما
يشعر العامل بالأمن Security والأمان من المستقبل . حين يستفيد العامل من
مدخراته الناتجة من أجوره وأرباحه ، وحوافره التشجيعية ، ومكافآته النقدية ،
وكلها جوانب تتبع في الحال الحاجات المادية ، تلك التي قد يحفهم إلى تحقيق
واشباع حاجات أخرى معنوية Moral ، زيادة التأمين على الحياة والاستئجار ،
والادخار ، مع الاستفادة بالعائد المجرى وللشعب .

وقد يرجع العامل إلى تحسين ظروفه الاجتماعية باستغلال مدخراته وتحسين
علاقاته بالإتجاه إلى النواحي الاجتماعية والادارية ، كما قد يلجأ العامل أيضاً إلى
رفع مستواه الثقافي فيعلم نفسه ، قراءة الكتب واكتساب المهارات ، وزيادة
المعلومات التكنولوجية . وذلك لرفع مستوى العامل المادي والمعنوي والتعليمي لتنمية
خبراته التي تؤدي بالطبع إلى توسيع وتعميق علاقاته وملائته ، ورفاهته
والجسمانية في نفس الجماعة الدينامية ، وهو نفس الفئس الصناعي الذي يفعله
العامل في إطاره .

علم الصحة الصناعية :

وتهدف علوم الصناعة دوسوبولوجيا إلى Sociology of Occupation ،
إلى محاولة خلق التوازن والصحة النفسية للإنسان الصناعي ،
بالإبقاء على التوازن الجسماني بالامر المادي ، وإنباءه إلى صميم وعصب
الامر لازم وضروي للحفاظ على أمن الإنسان وحراكم طاقاته النفسية وتزويده

الاجتماعى واتسجانه للنفس ، فى ضوء انشائه إلى *Organisation* ،
ومعاملة التحرك نحو فئات أكثر أجراً ، أو طبقات أكثر مكانة وأعظم سلطة
ومهابة . فيترقى الانسان الصناعى للممتاز ، طبقاً لمستوى الخدمة والأداء والسلوك
الصناعى للتفريط ، ونزولاً لالتزامات المهنة الفنية والحرفية .

ويدرس علم الصحة الصناعية *Industrial Hygiene* كل الظروف والسبل
أو الطرق التى توصلنا بسهولة إلى تحقيق سعادة العمال الحصول على معدلات أكبر
للانتاج وتحقيق ارضاء *Satisfaction* العامل بالتركيز على الصحة النفسية
للانسان الصناعى ، مما يتيح الفرصة السهلة والسريعة لتحقيق التوازن النفسى ،
ويعلم قواعد العمل ، حين تترقى الحركات ، وتتهذب ، بينما يقل الجهد مع
اقتصاد الحركة والوقت .

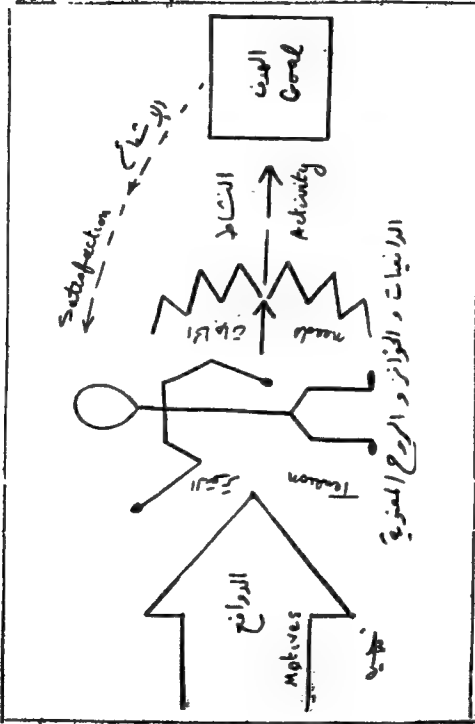
ويبنى بصدد التوازن أن تميز بالضرورة بين « التوازن الاستاتيكي » الجامد
والتوازن الديناميكي للتحرك ، فالأول عقيم ولا ينتج أما الثانى فضرورى وحيوى
ونافع له دوافعه *Motives* الداخلية وخوافره الخارجية .

الدافئيات والخوافر والروح المعنوية :

لا شك أن التوترات *Tensions* هى الدوافع الحقيقية التى تجمع من مشكلات
خارجية أو داخلية . وتدفع هذه التوترات نشاط الانسان وسلوكه للنفس سواء
فى الحقل أو للصنع أو للدراسة أو للكنيسة ، نحو بلوغ هدف *Goal* محدد بالذات .
ويقبل هذا الهدف فى وجود غاية ، يراد تحقيقها ، كامل يتحقق ، أو قد
يكون الهدف هو إزالة الصراع والتوتر وحل المشكلة واشباع الحاجة الانسانية
الرائدة ، لأن حالة الاشباع *Saturation* هى الطريق الذى يوصلنا إلى حالة
الارضاء .

وفى مبادئ السياسة والاقتصاد والصناعة والادارة ، وراء كل سلوك دافع ،
 تقليدى أو قيمي أو اجتماعى ، أو واجب أخلاقى أو دينى . ونتج هذا السلوك
 منها تنوعت مصادره نحو طريق واحد هو : لإرضاء الحاجات لبولوج الثبات ، .
 وهو سلوك ناجم أيضا عن حالة التوتر ، فيصدر كسلوك قهرى أو نزوع ارادى
 مندفع نحو تحقيق رغبة أو قضاء حاجة ، وعندما يكون الاشباع ؛ مع زوال
 التوتر ثم العودة ثانية الى حالة التوازن Equilibrium (١) . كما يبين الشكل الآتى
 كوسيلة للعرض والايضاح .

(١) : Wilson, Michael, Human Relations, Longmans London 1937,



من هذا الشكل يبين لنا كيفية اشباع الحاجة كوسيلة من وسائل رفع
الضغوطات، لأن السعادة التي يحققها الانسان في اشباع حاجاته النفسية
إنما هي وسيلة حيلة، ولا يمكن أن تحقق السعادة بمعناها الحسي، كل ألوان
ومناذج السعادة بمعناها الروحي والنفسي (١).

وهناك طوائف أخرى من السعادة، قد تراها أقرب بين الحال، حين تفصل
القيم بعض الأفكار أو الشائعات، ويحدث التفكير وعدم التكامل الذي قد يطور
إلى الصراع، فالعنف، فهناك اليأس واليسار، والديمقراطية والautoritaire
ولكن يحدث التوازن بين مختلف القوى يبنى أن يسود التخليق للخلق حتى
يشقى الانسجام بينهما ولللائمة بين الفكر والواقع، ولحل هذه المشكلات الإدارية
الصعبة اهتمت دراسات العلاقات الانسانية، بعمليات التقارب بين وجهات النظر
لاحداث التكامل وإعادة التنظيم على نحو مفيد وبناء، الأمر الذي مهّد أدت هذه
الدراسات التنظيمية إلى التمييز بين نوعين من الجماعات، جماعات، لا إنسانية،
عددية Aggregate groups وجماعات، إنسانية عضوية Organic groups،
وانتهت الدراسات الحديثة والسيبرولوجية والسيكولوجية وافقت جميعها على
أن الجماعات العضوية أكثر إنتاجاً وتفاعلاً ونشاطاً من الجماعات العددية، لأن

(١) تتصل السعادة بالبيئة، بالحياة والزينة المحيطة بالحب حسب ما يرى المؤجروا
النفسيين واستشارة واستشارة، وبإسطة مية، فهي كل ما حولها ومناحها من السعادة
الطبيعية والثالية، إلا أن ظهور الصراع النفسي والنفوس والرعب الدائم من القلق والقلق في
مع ما يفسد هذا العالم - مشكلات الميزان لا تقتصره، كلها عوامل اجتماعية ونفسية تحقق التوازن
من دونها، بين الإنسانية، وهو شكلان مفرق ومتربعين من حصولهما، وعلى الأقل
أن التفكير والواقع الذي يحقق في «فيلسوف» أو «فيلسوف» أو «فيلسوف» أو «فيلسوف» أو «فيلسوف»
في تحقيقه، وهو وجه واحد في تحقيقه، تكون السعادة بالتي قال في امر بهد الله.

الأولى متناحية ومتألفة ، والثانية : مفككة ومنقسمة وموزعة ، فتشلت جهودها الإنتاجية وتقل مهاراتها الفنية . وقامت فلسفة العلاقات الانسانية ، على زيادة الانتاج بقصد تطوير العمل وتمية العامل ، وزيادة الألفة بين العامل والآلة ، مع التجاوب والتألف بين المالك والادارة دون قهر أو اجبار (١) .

وبالنسبة لادارة والتنظيم ، كشف د ماري فوليت Mary Follet ، عن الصناعات السيكلوجية ، ودافع الحجة في البناء الصناعي ، وأشادت إليها في كتابها : التنظيم الصناعي Industrial Organization ، واهتمت هذه الباحثة الأمريكية برفع مستويات العمل ، وتمية شخصية العامل وتطوير علاقات العمل والانتاج ، وبخاصة فيما يتعلق بالسلطة أو الادارة ، وفي هذا للمي تقول د ماري فوليت : : ينبغي ألا نتعلم أين تضع السلطة ؟ بل أن نعرف فقط كيف نمارس السلطة ؟ ومن هنا بدأ الاهتمام بدور العلاقات الانسانية ، بدراسة سلوك الانسان الصناعي وحل التناقض بين العمال والادارة ، وتخفيف التوترات داخل التنظيمات الصناعية وقرب وجهات بين أجهزة التخطيط والتنفيذ ، وعلى الرؤساء والملاحظين أن يدرّبوا العمال على اتخاذ القرار ، بالمشاركة الفعلية مع السلطة والادارة . ومن هنا تحمل عقدة الاغتراب ، ويتمثل الإداري الاسلوب الديمقراطي ويشعر الفكر الإداري برمته ، ويصبح العامل أكثر حرية في تفكيره وديموقراطية في علاقاته ومساواة (٢) .

(1) Friedman, C. Industrial Society The Emergence of Human Relation of Automation Glencoe 1964.

(2) Follet, M.F. . Freedom and Co-Operation Management Publication Trusts London 1949.

الباب الرابع

مشكلات التنمية الاقتصادية

- ماذا قصد بالتنمية ؟
- معايير التنمية
- التنمية والتخطيط
- الصراع بين الإيديولوجيات
- وظائف الصناعة وخدمة المنتج
- التكنولوجيا وتغير أنماط الحياة
- كيف حددت الحاجة إلى التنمية المجتمع ؟

تمهيد :

إن العلوم للسيطرة ثقافيا واقتصاديا ، على أيديولوجيات عصرنا المتغيرة
هي علوم الاقتصاد والتكنولوجيا والصناعة والإدارة والاجتماع ، وكلها علوم
تجريبية وعملية وإنسانية ، تمتد على علوم متخصصة كالهندسة والفيزيولوجيا
والالكفرونات ، إلا أن علوم العصر متعددة النتائج والخدمات ، والأدوات ،
وإنك قد تمتد على علوم فرعية أو أصلية ، بحيث تتأثر فيما بينها ، وتبرز جميعا
بأنها متخصصة تستند برمتها إلى تخصصات أكثر دقة وعمقا .

كما امتازت علوم العصر الشمولية والتكاملية ، وبالتفاعل والتساند ، بالاحمال
والتأثير للتبادل ، حتى أصبحت كلها علوم تقارب فيما بينها في وحدة للنهج ،
وتصب في وحدة الطبيعة ، كما تشابه في ميادين التجريب والاكتشاف والتطبيق
الحقل والميدان ، سواء في تجارب الصناعة أم للتكنولوجيا أم التربية ، وتنمية
الثقافة .

وتمايز علوم العصر بأنها مستعرضة ، تعالج الكثير من المشكلات للتشابه ،
ولذلك اعتمدت على علوم العصر على وحدة للنهج ، استنادا لوحدة الطبيعة ،
وموقف الإنسان الاقتصادي منها . فتعاونت علوم العصر على حل مشكلات
العصر ، فيه ، من تكنولوجيا وتصنيع وتنمية .

كما يكون له خيلته وردة فنية في ذبليكا علوم الاقتصاد والتكنولوجيا
والإنتاج والإدارة والسياسة ، وهذا هو السبب الذي من أجله أجزبه مثلا
للاطلاع على طبيعة وأثر الاتصال بوجوه من علوم التنشيط القيمية ، التي
تتمحور حولها مختلفات الإنتاج والتكنولوجيا علوم البيولوجيا الحديثة والتكنولوجيا
بالإضافة إلى مظهر آخر من مظاهر الانتماء إلى الانتماء إلى الدولة .

الصراع نحو التنمية :

وتحقق عمليات التنمية عن طريق إعلان الحرب على التخلف ، حتى يتحقق
العبء الاجتماعي ، يفتحل السياسة القومية التحديا للقيم ، والافتاق القوي ، وكلها
عوامل اقتصادية ضرورية تسجل من التنمية وتحقق الرفاهية في الزواج الاقتصادي
طبقا لسياسة محددة ورشيحة في الاستيراد والتصدير ، توجه مجتمعنا وجماعاتنا
الكادحة والمتطلعة نحو عالم أفضل .

ولاحظ أن العبارة السياسية الثالثة بوضع ، الرجل الصحيح ، المكان الصحيح
أو المنتج والمرجع . هي عبارة تنظيمية لحما ودما ، كما تدخل في إطار نتائج علوم
الإدارة والتنمية ، والاقتصاد والثروة . بل وتؤكد هذه العبارة على « الدور
القيادي ، للإدارة في عملية التنمية ، كما تدل هذه العبارة أيضا على قيمة « الدور
التنظيمي ، في كل تنظيم سياسي أو إداري ، اقتصادي أو صناعي .

ظهور الصراع بين الأيديولوجيات :

وبعد مشروعات التنمية لإرضت الصيحات ، وزادت حدة المناقشات التي
دارت حول « التحدي الاجتماعي ، الذي يطرح ، مع قياس مقداؤه ومداه من وجهة نظر
المدرسة الماركسية الجديدة ، وعندها التقليدي المتبدد ، ضد تهميد Abstraction
المدرسة الباثية الوظيفية ، من حيث الارتباطات مع التحليل التاريخي للواقع
الاجتماعي ، تمحضر من « الخصائص الباثية » التي تدعم النشئ System
عن طريق تحقيق التوازن equilibrium . وهذه نظرية تنظيمية بيئية ،
وايديولوجية عاقلة لا تقوم على الحرية ، عطفك تار حداثتي ديولوجيا على
نظرية بارسونز parsons التي تصور لنا النسق الاجتماعي المتوازن المعويط ،
الذي فرضته نظرية Education والتنمية الاجتماعية Specialization .

أن يفهمنا د. بارسونز، كيف يحدث التغير في التاريخ؟ إذا ما عايننا اللاسلك
 جبهة في « جهاز » يحكم عليه بالتوازن، وكأنه « سجن » مفروض مسبقاً
 الإنسان دخوله إلى الإبداء . منه في الأيديولوجية المبادئة للأيديولوجية
 الباطنية ، التي يعني أن تنظر لل حركة التاريخ وتقيم العناصر التغيرية والحوالات
 الحضرية Urban ، التي أحدثت في الواقع الاموركي وباسم التكنولوجيا للحاضرة ،
 وتغيرات مجرية ، بفضل وسائل الاعلام القوية ، وفي ضوء التخطيط
 والتنظيم ، وظهوره النقابات للساحة بالم والخبرة . وفي الواقع يعني أن
 نجد بين نوعين من الصراعات conflicts هناك صراع تنظيمي بناء ، وصراع
 فوضوي حدام . الأول ضروري ومطلوب في إعادة التوازن ، في كل تنظيم
 بيروقراطي أو صناعي . والثاني « صراع انهزامي » لا يهدف لل توازن .
 الأول نظامي وقدي وضروري من أجل بقاء « النسق » واستمرار « التنظيم » ،
 و دوام « التجديد innovation » . والثاني صراع انحرافي ، لا يقصد التكميل
 بل هو « صراع صناد لتكامل ، والتوازن والتنظيم .

ويحرص الاتجاه للاركي للحاضر . كما يشتمل في اليسار الجديد ، (١) ،
 على تشجيع « التمرد » والرغبة في تغيير « المعايير Normes » ، لعدم الإلتزام لل
 الواقع ، والتفكير وتزايد الصيحات للعداوة للواقع ، وللتأدية بتمهده .
 وللتفكير يكون « التمرد تنظيمياً » ، إذا كانت الأهداف تدعو نحو الانعقاد يعوق
 التنظيم أو الممارسة التنظيمية . وقد يكون « التمرد مرضياً » ، إذا كانت أهدافه

—————

(١) « اليسار الجديد » يمر عن ثمرات غامضة في اليقين القيراني للحاضر ، وفي مبادئ
 التوجهات الكلاسيكية ، كما يمر اليسار الجديد أيضاً عن الاتجاه للاركي للحاضر وتفرعه
 إلى التجهيز « الجغرافي » ، في نظام التخطيط « الجغرافية » ، بين « طريق التبدل » وتحتفل التكنولوجيا
 وتغيرها « الجغرافي » .

قضية بومقلبة ولا تمدعو إلى بناء الجديد ،، وهنا ، يصبح التمرد حركة
 إنزامية وانحرافية تقع تحت طائلة القانون . ولقد ظهر هذا « اليسار الجديد »
 واضحا في كتابات علم الاجتماع المعاصر ، كما ظهر بين معظم علماء الاجتماع
 الفلبين ، الذين قادوا حركات التمرد الطلابية في قلب باريس وفي جامعة
 كولومبيا . وذلك بقصد تغيير للنهج الجامعية ، ومن أجل المطالبة بالمساواة
 والحرية والتغير ، أما الاتجاه اليميني التقليدي فيحترم الواقع ويتمسك بالنظام
 والتوازن والتضامن . وعنه كلها حجج المدرسة الوظيفية Functionalism
 في علم الاجتماع والاندروبولوجيا الاجتماعية . فالوظيفية يخترع النظام ، ولا يقبل
 الصراع والتمرد ، بينما يهاجم اليسار الجديد « التفكير الجماعي والعاطفي والملاذ ، .
 وإذا كان بارسونز Parsons ، وهو شيخ للمدرسة الوظيفية في أمريكا ،
 يأخذ بنظرية النظام والنسق في إطار « بناء متوازن » (١) . تحكمه ميكانيزمات
 التناجيم الاجتماعية والضغط الاجتماعي . فلا شك أن هذه نظرة متعسفة
 يتمتع منها تحقق الحرية ، بل وتخلع عن الإنسان أم ما يميزه وهو « العقل ،
 الذي لا يتوقف عن محاولة إستكشاف الجديد ، والتخطيط ، كما يقتبأ بحدوث
 التغيرات خلال التاريخ . فإن كانت « مشكلة الحرية هي مشكلة تنفيذ » ، فإن
 « مشكلة العقل هي مشكلة تخطيط » . ولا يمكن أن توجد الحرية دون عقل أو
 « نظام » ، وإلا كانت الفوضى الضاربة ، فإذا كان العقل هو الذي يخطط للمستقبل ،
 فإن الحرية هي التي تصنع القرار في الواقع الراهن . الحرية الآن التنفيذ والعقل
 غذا ، .. « النظام والتخطيط » وهذا هو الاتجاه السوسيولوجي اليساري الجديد .

(1) Merton, Robert., Social Theory and Social Structure.,
 Enlarged Edition, New York. 1963,

معايير التنمية :

تعدد معايير التنمية مع تعدد المداخل والمناذج والتجارب ، طبقاً لاختلاف المذاهب والأيدولوجيات والسياسات الاقتصادية الرأسمالية منها وغير الرأسمالية. ولا شك أن للمعيار الأساسي للتنمية في الاقتصاد الرأسمالي هو ، تحقيق الربح ، التوصل إل أكبر « كسب » ، أو « عائد » ، يمكن ، يضاف إلى رأس المال للشروع الاقتصادي . وعلى العكس من ذلك يكون للمعيار الأساسي للتنمية في الاقتصاد الاشتراكي هو التوصل إلى « أكبر قدر ممكن من الاشباع » لحاجات المواطن .

وفي البلاد النخلفة يقوم جوهر التنمية على توفير ميكل الانتاج ، من أجل تيسر نمط « تقسيم العمل الاجتماعي » ، فمن الخطأ أن تبقى البناءات والمناذج التقليدية الاقتصادية والثقافية ، هي هي دون أي تغيير واضح ، في سائر المجتمعات الاشتراكية ، التي تمتاز بالخوف والامية من جهة ، وبالسلعية والسكون من جهة أخرى .

ولقد جعلت الثورة العلمية والتكنولوجية بتنمية الصناعة حين أخذت بعملية التصنيع ، وبضخم المحركات وبمبدل أو نقل الحركة ، كما أخذت أيضاً ، بتطبيق العمليات الأوتومية Automation والاعتماد على الخناصات الجديدة ، من موارد البحار والمحيطات ، لصناعة التمرير الصناعية ، وما تحمسه الكيمياء الحديثة ، من عضوية وغير عضوية ، في صناعة المنظفات ، مع التصيب للترايد في الصناعات التحويلية ، واستيراد المواد الرخيصة لمعالجة التلوث (١)

(١) د. محمد الامان سيطرته على الآثار الجانية لنظم التكنولوجيا ، في جيلنا الحديث .

وإنتاج معدات لتطهير الجو والنبات والمياه ، مع تقدم صناعة البروكريات والالكترونيات ، وحسن استخدام الطاقة الذرية في الصناعة ، وتكنولوجيا الطب ، وتطوير علوم الهندسة في ميادين الفيزياء والكيمياء والكهرباء ، للاستفادة منها في مشروعات تنمية الزراعة وتكجير الصحراء ، حتى تستفيد ومشروعات الزراعة النامية من جهود تكنولوجيا الطاقة والأتمتة الحديثة .

وإستناداً إلى كل ذلك واجهت عملية التنمية في المجتمعات التقليدية والنامية ، الكثير من المشكلات الاقتصادية ، كالرغبة الملحة في الحصول على رأس المال الذي ما زال يصدر البلدان للتخلفة ، الحصول على موارد مالية إضافية ، من أجل شراء التكنولوجيا ، واستيراد الخبرة التنظيمية والإدارية ، والأسراع في التنمية الصناعية .

ولكن ما هي المفومات الحقيقية لتختلف ؟ وما هي المعايير الأساسية للتنمية ؟ .

== تهديد البيئة بالقات ، وما يشوهها من بؤايا وقرائنات المصانع والكيمويات ، مما يؤدي إلى التلوث Pollution وإلى استنزاف المال في بيئة مشترقة ، الأمر الذي يحث على الحد ما يدعم البيئة بالتنمية Ecodvelopment ، بجمايتها عن طريق التحكم فيما يحدثها ، من زجاجة ، ولعبادها إصداً يتواءم مع مبرومات التقدم التكنولوجي من جهة أخرى . فليس أن نتجه إلى تكنولوجيا Ecology البيئة الطبيعية ، لكي تتواءم مع ما تتطلبه التكنولوجيا المصنوع ، من مياه وكهرباء وحرارة وصوت وصفي ، وخطوط سلكية ولاسلكية . لكي تتجمع مبرومات التنمية ، مع كل التكنولوجيا الجديدة ، والاحتباس من الصناعات « القوية للبيئة » ، والأنماط نحو التكلفة الأقل حين تستخدم تزامناً مع التكنولوجيا « الأقل قوة » . وتهديداً للبيئة . وينظر المختصون الآن إلى مشكلة « التلوث البيئي » ، وما يتبعه من تدمير البيئة من طريق تدهورها ، « ينظر إلى كل ذلك على أنه مسؤولية عالمية » .

لأنك أن التخط هو حركة تاريخية موقرة ، ، معبر عن التكرار لل
 الزمان ، ولأنه أن التخط إنما يحدث في قرأخ ، وإنما يتحقق في مجتمع وفي
 تاريخ ، فاهو الخط الذي توقف خلال حركة التاريخ ، فاعتبرناه بالنسبة للتقدم
 والتخلف عكسا ٢٤ وما هو التقدم الذي سار فحسا ، فاعتبرناه بالنسبة للتخلف
 الأضائي ٢٥ ، نمو ، أو تنمية ، ٢٦ ، وما هي عتف الأساليب والطرق والنتائج
 التي يليها أن تستعمل لكي تحقق ، النمو ، المطلوب ٢٧ ، وما ينبغي أن يتعامل خبراء
 التحية والتخطيط ، من أم العوامل التي تساعد على التحليل بتتبع مالم يتحقق
 بطبيعته ٢٨ .

في الرد على كل هذه المسائل والتساؤلات ، يرى اليساريون الجدد ، من خبراء
 التحية ، وم أبحاث وجهة النظر للاركية الحديثة أن ، النمو ، إنما يحدث على نمو
 طبيعي وتاريخي وفصلا ، حين تنقل المجتمعات ثقافيا من النمط الانعكاسي إلى
 النمط الرأسمالي ، وهذا هو السار الموضوع لسبلة التاريخ وود فعلها المباشر
 في ، أحدا المجتمع الانعكاسي ، الذي كان يعمل بطور عديم ، وعناصر تطوره
 وعقيدته ، لكي تنمو في أسفاته ، ملامح الرأسمالية الجديدة .

فالتاريخ عند اليساريين الجدد ، هو العامل الحاسم ، في دفع عمليات النمو
 الطبيعي لاضطراد التقسيم الاجتماعي ، والانتقال من طور الزراعة إلى مجال
 الحرف اليدوية ، ومن الهارات والقدرات ، إلى مرحلة إستغلال الآلات
 والأدوات الآلية والأوتوية ، وبخاصة بعد تحول رأس المال من خدمة مزارع
 وتوليد أساليب الإنتاج إلى تسخيره في ميادين الصناعة والتكنولوجيا واستثمارات
 غير موزونة البطالة في الصناعة ، هناك على أهمية إعطاء سلبيات جديدة للنمو إما
 التبادل المادي أو حتى التبادل التقني ٢٩ ، حين ينفرد ، سلبا ، بالسيطرة ، ويبلغ
 حدا ، أو مميزات سطحية غير إستراتيجية ، قد يمنحها أسواق الخارجية أو المصالح ،

ولكننا نساءل عما تعنيه ونقصه بالتخلف في عالم التنمية ؟ وهول في الرد على هذا السؤال ، إنه من الملحوظ في عالمنا الثقافي ، بشورته التكنولوجية الراهنة أن معظم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، ما زالت قائمة دون تعديل أو تغيير . فظلت النظم تعمل على نحو استاتيكي ، فلم تتغير سائر البناءات والأنماط الثقافية البدائية . وظلت أعداد كبيرة من جماعات البشر تصان من الجوع والمرض والامية ، ولا تجد للأوى ، تعيش على الطبيعة أو الفطرة ، بين أكواخ وسحاب ، بل وبين الجبال والكهوف ، وكلها شعوب وثقافات ما زالت غافية في عالم السحر والحراقة . .

فالثقافات المختلفة ، هي تنظيمات استاتيكية ، تقوم على تقسيم العمل البدائي ، الذي يمتاز بالتضامن الآلى *La Solidarité mécanique* ، على حد تعبير د. إميل دوركايم *Durkheim* .

ويقوم جوهر التنمية ، على تغيير نمط تقسيم العمل البدائي ، إلى نمط تقسيم العمل الراهن ، وعلى التخلف أن يلحق فوراً بتكنولوجيا العصر ، وهي تكنولوجيا الإنتاج ، التي تدور حول ثالوث : الآلة والحرك ونقل الحركة ، كل ذلك من أجل التحكم الأوتوماتيكي في الحركة والسكون ، وبخاصة في إنتاج وتشغيل وإدارة الورش والمصانع .

ولكن كيف يحدث النمو *development* ، في بلدان ما زالت تعيش حتى الآن في عصور العلم والتكنولوجيا ، وهو عصر الرأسمالية الرعيل ، بنفس الأنماط التي كانت قائمة في عصر ما قبل الرأسمالية ، ولها ذات المكنة من المجتمعات والثقافات المختلفة ، تعيش في مشاكل المجدب والتنمية ، وعلى هذا

(١) *Durkheim, Émile, De La Division du Travail Social, Alcan, Paris, 1920. pp. 91-98.*

الأساس من الاستغلال ، يبدأ التوجيه من أجل أن التخلف هو عبارة عن نتيجة طبيعية تؤدي إلى تجزئة عمليات النمو ، بمعنى أن يكون المقصود من التخلف هو القيام بعمليات وإجهاض لكائنات اقتصادية ، ما زالت في طور الاجتهاد ، في بطون أمهاتها ، فتولد مشورة لأنها لم تستكمل بعد ، عناصر نموها الاقتصادي الطبيعي .

وعلى هذا الأساس ، يكون معنى التخلف ، هو عبارة عن تحويل نمط ، ما قبل الرأسمال ، إلى الاندماج في السوق في بنية الاقتصاد الرأسمالي ، وهذه هي النتيجة ، ولا شك أن النتيجة هي أول علامة اقتصادية وسياسية من علامات التخلف .

وتم عملية النمو على نحو تلقائي وطبيعي ، أما عملية التنمية ، فهي عملية وإحداث تغيير ، أو تحديث Modernization حضارى عن طريق التدخل الرأسمى لإحداث التنمية ، وتحديث الحضارة . فلا توجد على الإطلاق أية تنمية تم تلقائياً ، وعلى نحو طبيعي ، فهذه عملية « نمو » . وإنما تم عملية التنمية ، بتدخل الدولة ، بالتخطيط والتنظيم والإدارة ، بقصد توجيه الاقتصاديات ، بما يتفق ومصلحة المجتمع الكادحة .

وتنفي التنمية من وجهة نظر المدرسة الماركسية الجديدة ، القيام بتوفير سائر الظروف الطبيعية المكثفة ، والمخططة والمرسومة ؛ بقصد تنمية نمط التقييم الاجتماعي للعمل ، وتحقيق المجتمع لتأني لمشروعات التنمية الآل الثقيل والخفيف ، من أجل وزيادة الإنتاج السلمي ، ، بحيث يتم التصنيع للتصدير ، ، ومن ثم يكون التصنيع هو جوهر التنمية ، والحرك الطبيعي لعملياتها .

لأن الإمبراطورية الرأسمالية عملية التنمية ، هو شرط التحرر من الهيمنة الاقتصادية . القضاء على التخلف في عصر جاره ، بتحقيق أفضل نتيجة يمكن للفردية المستوى

الإغلبية الساحقة من جامعي دول العالم الثالث ، عن طريق التكيف مع التوسع
الاقتصادي ، ونقل التكنولوجيا لللائمة ؛ مما يؤدي إلى زيادة الطلب على المنتجات
المصاحبة للتصدير من البلدان والتمويل النامية .

السياسة الجديدة لاعتراتيجية التنمية :

إن نقطة الضعف الشديدة التي تعاني منها وجهة النظر القديمة التي كانت سائدة
لدى خبراء التنمية والتخطيط ، إنما تتمثل في عبارة إحلال الصناعة ، محل
الاستيراد ، ولذلك ظنت وتوهمت بيوت الخبرة في الماضي ، أن التصنيع هو
الاجراء الوحيد ، وأن الصناعة هي الحل ، وهي مفتاح التنمية .

ولقد كانت سياسة التوسع في التصدير هي البديل لسياسة التوسع
في الاستيراد . ولقد تفهم خططوا التنمية أيضا ؛ ضرورة الاقبال على شروط
النمو الزراعي السريع ، وهذه هي الاجابة الوحيدة رغم بطء أو تباطؤ النمو
في ميدان هذا النوع من التنمية .

في قطاع الزراعة ، تبطل عمليات التنمية والتحديث المجاري ، نظراً
لبطء التنمية ووقف النمو والتطوير ، على العكس من إمكان إحداث التنوير
الثوري السريع بالتنمية العلمية ، وبفضل تدخل وتخطيط الدولة . فلا يتعين
الاضطرار للكأن كل ، إستراتيجيات التنمية ، في القطاعات الصناعية والزراعية ،
ومن هنا تبدأ فواعد الجماهير الفقيرة ، من الاستفادة والحكسب من
عمليات التنمية المركزة بفضل الجهود الذاتية ، أو تدخل الدولة
بالتخطيط المثل ، والربط المستمر بين أجهزة التخطيط والمتابعة والتنفيذ ،
مع تيسر الاتصال فيما بينها ، مع ضرورة الالتفات إلى عظمة خبرات من

شروط التنمية المعاصرة ، وهو الشرط القائل بضرورة بناء التنمية حول الإنسان ، ولا بناء الإنسان حول التنمية ، مع ضبط سياسة توزيع العمالة في استراتيجيات تنمية للوارد البشرية ، ومدى طلب السوق عليها .

وقد نكون « التكنولوجيا الوسيطة » ، هي التوسع البديل الذي يحل في الجلاء النامية ، محل التكنولوجيا المستخدمة شرقية كانت أم غربية . فكان الاختلاف الأمريكي بتكنولوجيا الصين ، ففتحت أمامها الأسواق ، وازدهرت إمكانيات الصين ، إقتصاديا وصناعيا وتكنولوجيا ، بتطوير طاقتها ، وتصدير السلع والمنتجات التكنولوجية الصغيلة إلى معظم مجتمعات العالم الثالث حتى يتناقص الفقر في العالم ، ويقلص ضررنا « ثمار التنمية » ، بعد استاتيكية ونمطية ونحيف ، ولذلك اتجهت المجتمعات النامية ، مثل الهند وباكستان ، إلى الصمود كجسم باردة صمدت منذ منتصف الستينات وهي تسبح في فلك إقتصاديات العالم كله . مما زاد الانشغال في الانشغال بها والالتفات إليها بالانفتاح الاقتصادي وبالشرائط المخرية . فقد دخلت مجتمعات العالم الثالث ، وهو نفسه العالم الثامن ، دخلته التاريخ من أوسع أبوابه ، بعد أن أكنث نفسها ووجودها فقد ظلت « البقايا الإنسانية » تعيش وكأنها في عصر ما قبل التاريخ Prehistory يعيش فيها الحيوان بلا تميز أو تميز أو تدين ، ولذلك نظروا إلى المجتمعات البدائية ، على أنها « متاجف بشرية » متحركة ، بل ولم تقترض بعد ، بل تعيش في ثقافة تحفظ في يدانية ، ونمطية وبدائية وتأخر ، ثم بدأت « حضارة التكنولوجيا » في غزو « أيديولوجيات المجتمعات النامية » ، وثقافتها البدائية .

ولعل الدرس القاسي الذي تعلمته المجتمعات النامية كلها ، هو توصيلها جميعا إلى المفهوم الحقيقي للتنمية ، بالتخمين الثوري وهو مفهوم دينامي للأجداد على النفس . .

التكنولوجيا الوسيطة واليسار الجديد :

يتكون اليسار الجديد من غالبية الراديكاليين الاجتاهين من أصحاب أيديولوجية الإصلاح وم معظم طبقات «اليمين المعتدل» التي خرجت على كل قيم اليمين للتطرف . ولذلك تسود أوروبا مبادئ اليسار الجديد بين الأحزاب وتقابات العمال ، وبخاصة في إنجلترا وفي فرنسا . باسم « الاشتراكية التعاونية تارة ، أو الاشتراكية الممتدة تارة أخرى .

كما ذاعت مبادئ اليسار الجديد ، في قلب الفكر الأمريكي نفسه ، وما يحتويه من صراعات وتناقضات نجمت عن حضارة التكنولوجيا وثقمة التصنيع وبين دول آسيا وأفريقيا والهند ، إنتشرت بل وإنتصرت « تجربة الصين » ، « بعدما نجحت تجربة الهند وباكستان ، بعد حروب فتنام وكوريا ، مع تعاليم « ماو » و « موشى » منسمة ، مع البدايات الأولى للملاح « الصين الجديدة » التي تبعد عن التجربة التطبيقية لفكر اللاروى وتطوره ، بعد « سياحة الوفاق » الأمريكي والتقارب السوفيتي ، بحيث تتابع الصين بعد « ماوتسى تونج » مسارها مع التغيرات العالمية الجديدة .

ويتماد اليسار الجديد على كل من يخرج على جود اليسار اللاركسى للتطرف ، ويستند إلى خطابا مضادة للبراسات الكلاسيكية ، مؤنعة بالتكنولوجيا والتقدم ، فتنتج على أسواق المجتمعات التقليدية والمتخلفة والثمانية فيتمتع مسترعى الميعة لدى « الإنسان الافر وآسيوى » .

والتكنولوجيا الوسيطة ، هي التي تقوم بالتخصص في صناعة البديل ، لكي تحمل مختلف معكلات الصراع بين تكنولوجيا الغرب والشرق . وهذا هو

النسب الذي من أجله تزحج تكنولوجيا الصين ، بنزو أحوال العالم الثالث عن طريق تصدير ما يدفع من حيلة التنمية ويعمل بها .

وقد مرت دول العالم الثالث ، بخارب مريرة مختلفة ، بعد دخولها في ميدان التنمية ، جعلتها تنسلك مبدأ الاعتماد على النفس ، بالاستخدام الرشيد للوارد المتاحة ، وإمكانيات التكنولوجيا المحلية ، عن طريق عازلة تحقيق الرشيد الإتقاني ، وبأفضل استخدام ممكن . مع عدم التوقع من يمسر المساعدات الخارجية إلا في التذليل ، أو بلوغ الحد الأدنى ، وهذه هي الحقيقة المرة سياسياً واقتصادياً ، بل وستكون أكثر من مرارة حين تطبق هذه الحقيقة بصدد الخدمات والمساعدات على المستويين الثقافي والحضارى .

هل الرغم من ضرورة إحداث التقارب ، والوفاق بين دول العالم الثالث ، وهذا هو الحل الوحيد ، لإزاء سياسة الرفاق ، الذي بلغ حد التقارب بل والاتلاح بين المصالح العليا السوفيت والأمريكان . ومنه المصالح للشوكة نفسها ، هي السبب المباشر ، في إثارة الكثير من المشكلات وللتناب الادارية والتكنولوجية في ثقافات ودول العالم الثالث ، ومدى حاجته إلى الخبرة الادارية والتكنولوجية والثقافية ، وعلى أطراف الفكر والعلم والثقافة في سائر الجامعات العالم ، الراسل والشيرى ، أن يشجروا والتبادل الثقافى ، والبعثات وتبادل الخبرة والتعامل والمساعدات ، حتى تظهر على الأقل جاشه التنمية ، وطلائع الرقابة مع نجاح عمليات التحديث الحضارى ، والاسراع في صف القاد .

دور الثقافة بين ثورة التكنولوجيا ، ونسق القيم والتظيم :

تشابه التظيم والقيم وتعتقد وتوقع ، بحيث يتوافق الكل ويترب

ويتناسق فيحدث التوازن *Equilibrium* (١) في بناء المجتمع وتطويع أبعاده وتسانده نظمه ، بعيداً عن سائر الضوابط واليكانيكيات المفروضة ، عن الثقافة *culture* هي عملية بناء مستمر ، وتنمية دائمة لانساق موجودة وتطويعها نحو حالة أفضل . وقد تحدث الحركة الثقافية البيئية ، فتتو الثقافة في جانبها البيني ، أو في جانبها القوي ، كما قد تتضمن الثقافة وتزداد أشكالها التقنية لثقفاً ، إلا أن الالتزامات والارادات ، قد تتنوع مع تعاقب الأزمان والصور .

ولاشك إن إلزام القيم هو إلزام خلقى *Moral* ، أما إلزام التنظيم *institution* فهو إلزام إجتماعى . وكل إلزام منها ، هو إلزام مفروض ، إيمان الذات *Ego* ، أو الامساك بالازام الخلقى ، وإما يصدر عن المجتمع كالازام الاجتماعى .

ولنسق القيم ضوابط عامة بالسلوك ، كما أن القيد للنظام للازام ، هو دور مفروض مقدما ، حين يصدر القيد الملزم في التنظيم ، عن كبت التنظيم الجبرى ، وخطط الانساق القهرى ، وكلها أدوار ملزمة ، تسود لبناء الاجتماعى ، يكرس الصورة الأساسية لنسق القيم ودوره في النهج الاجتماعى (٢) .

وقد يكون للقيمة وظيفتها وصداما في بيكانيزمات النظم ، ونسق الضوابط والجراءات الاجتماعية *Social Sanctions* (٣) في النظم البيئية ، تسود القيم

(1) Ganshman, Alvin, *Modern Sociology, An Introduction to the study of Human interaction*, U.S.A 1963.

(2) Marton, Robert, *Social Theory and Social Structure*, Enlarged Edition, New York. 1968.

(3) Radcliffe-Brown A.R., *Structure and Function in Primitive Society*, Cohen & West 1966. p. 205.

الخاصة ، تلك التي تغدو كلها حول القداسة ، وتجبل المقدسات وتغرف المقوسات
والصلوات ، وتقديس كل ما هو ديني . وللقدس ، هو أمر مرغوب فيه دينياً ؟
إيجابياً الخصب أو الحبس ، فيضهر للدين بالفرح السليم ، وهو فرح صادر عن
الحب العقلي . L'Amour intellectuelle ، لساناً للقدسات الدينية ، وقيمتها
أعلى المزمعين بها وبقتاستها .

والنظم السياسية قنبلاً الخاصة التي تتصل بالسلطة والقيادة والحرب
وشعاراته ، والدولة واقتصادياتها ، والشعوب وآمالها وأحلامها . وتدور القيم
السياسية حول ما هو مرغوب فيه على نحو جمعي وقوي . مع التخطيط العلي
للمراج والمشرحات التي تقدم الحلول العاجلة ، وانتظام للشكلات الراهنة ، التي
تقل لكل الدولة الاقتصادي ، ما يحقق في النهاية أهدافاً قومية .

٦ وفي عالم الاقتصاديات ، يمكننا أن نميز بين القيم والنظم ، فندرس القيمة
الاقتصادية السائدة في البناء الاجتماعي وأجهزته ونظمه وشوابه ، وميكانيكياته
حيث يمكن أن نفصل بوضوح بين القيمة الاقتصادية ، والنظام الاقتصادي ،
فالأولى أمر مرغوب فيه اجتماعياً ، أما الثانية فهي أمر مفروض مقدماً ، ونحن
نحاول أن نخطط لإنتظام للشكلات والازمات ، وتقديم ما ينبغي نحو التسجيل
على نحو طريق مرفقة لتحقيق مشروعات التنمية .

لورة التكنولوجيا :

لقد ميز نصف الثاني من القرن العشرين ، بالثورة التكنولوجية ، وبخاصة
في وسائل التقبل والاعلام والاتصال Communication ، مع ظهور
الالكترونيات الحديثة ، ودخول الراديو الصغى الحجم إلى القرى والكترو ، ليكن .

ينقل دون إستغلال أى خيار كهربى ، سائر البرامج من شتى قطاع العمومية ، ويأخذ
للخطة دون نظر إلى فروق جصرية أو حراجى لونية .

ومناك فروق هامة وعيقة بين سائر دول العالم ، ففيها : ففيها : وفيها : وفيها :
حيث بلغ متوسط دخل الفرد في بريطانيا ، ما يعادل عشرات أضعاف دخل الفرد
في الهند ، على الرغم من أن بريطانيا ، ليست من الدول النامية أو للتنمية (١) .
ومناك أكثر من ثلثي الكتلة البشرية يحيط بها ستار من الفقر ، ولا يجد فيها الإنسان
للتخلف ما يقيم الأود .

الأمر الذى يقتضى منا الاتجاه نحو تخطيط أنسب إستراتيجيات التنمية
الاقتصادية ، الدول ذات الاقتصاديات التقليدية أو للتخلف .

التنمية والتخطيط :

ومن الأخطاء الشائعة عند تخطيط إستراتيجيات التنمية الإيمان بالأرقام
والكلام الاحصائى الذى يستعمل لغة العدد ، ويفتن بناتج الاحصائيات على
الرغم من أن الأرقام والنسب ، والاعداد والاحصائيات إنما لا نوصلنا إلى
الحقائق البقية المؤكدة ، وإنما نوصلنا فقط إلى حقائق تقريبية . كما أن منه
الحقائق الزقية ، لا يمكن الاعتماد عليها في كل - نماذج قياس الاقتصادى - .
فقد تكون الأرقام صادقة بالنسبة إلى نموذج معين ، ولكنها لا تصبغ في أحكام
كلية وهامة . بالنسبة لبناء الاقتصادى وما يتصل به من قنرات سياسة وإدارة
ومناخية وتدريبية .

ويرتكب تخطيط التنمية خلل آخر : إلى جانب الأخطاء التى تستخدم

(١) عبود الحلى ، ستار الفقر ، خيارات أمام العالم الثالث ، ترجمة أحمد فؤاد طبع
من سلسلة الكتاب - الراحة والتنمية - والى سجلها الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله .

الاحياء والأرقام ، وهي إشتغالهم بالضوابط وإتخاذهم نحو البيروقراطية Bureaucracy^(١) . فالضوابط البيروقراطية ، هي وهم من أوهام التنظيم ، يصد تنظيم النشاط الداخلي في عمليات التنمية الادارية والاقتصادية .

ولقد أثبتت التجارب أن بيروقراطية الضوابط الادارية ، قد أدت إلى زيادة العوائق ، قرداد الطيريه ، وتعقد الأمور ، كلما أفرطنا في الضوابط التي تمنع سيولة الحركة ، قرداد مشكلاتنا الاقتصادية ونحكم بنا ونستبد ، كل إدارة بيروقراطية معوقة للتنمية ، قرداد الأمور تعقيداً وتعرقاً . فالإفراط في الضوابط ، هو إفراط في الجور والاستايقية والبطء . الأمر الذي يفرض حل كل خطة من خطط التنمية عدم التزامها البيروقراطي ، أو إفراطها في الضوابط التي تسبب الاغلال ، قتل حركة الأنشطة الاقتصادية ، ونصاب بالخل وعمليات التصدير والاستيراد ، والشحن والنقل والتفريغ ، والاعلام والتسويق . وكلها حركات اقتصادية نشطة بغضل دينامية الانتاج والاستثمار ، ولا ينبغي لهذه الحركة الدينامية أن تتوقف أو أن تعاقبها الضوابط البيروقراطية ، والقرارات الادارية . بل ينبغي حل العكس ، وهو أن تخفف العوة من هذه الضوابط البيروقراطية ، لكي نحل محلها الحوافز الاقتصادية للشجعة ، بتخفيض الضوابط على الاستيراد ، مع التشجيع والاعفاء ، في تشريع الضرائب

(١) وهذا هو بالضبط موقف حكومة باكستان في المختبرات بصد عمليات الصناعات والاستيراد ، في حال العرب الأجنبية ، فأحلت كل تلك الأجهزة الضرورية بغير وضوابط غير مشبعة . ثم حاولت باكستان في السنين أن تخرج من مرارة الضوابط ، فخفضت السكر من القيود ، وتم تبسيط نظام التراخيص ، مع تسهيل الرسوم الجمركية ذات الصلة والتكامل ، وعدم الاعتماد على مستويات الاستثمار وحدها ، وعوائده رؤوس الأموال المحلية والمبادرة في البلدان النامية .

التركيز على الخدمات الروحية ، مع توطيد نظام المراكز الصناعية ، لتشجيع الإستثمار في مجال التنمية الصناعية ، دون إغفال المستثمر ، مع توطيد الإجراءات وتكوين بترك خاصة للاتقن والتنمية ، وأخرى للاستثمار الصناعي ، بما يقتضيه من حركة الصادرات والواردات بمعنى أننا ينبغي إحلال نظم الجوافر والإستثمار بالتشجيع المجرى ، بدلا من نظم الرقابة ، ، والضوابط الإدارية والمرونة المزدوجة (١) ، وردود أفعالها على سعات الشخصية ، ونظم الحرية والتنسيق في نظم البرقية والديمقراطية .

ومن أم استراتيجيات التنمية والتخطيط ، النظر إلى رأس المال على أنه
والحدود المجرى ، لحركة التنمية حيث تدور بفضله صحة الاقتصاد ، وهذا
يفنى التنشيط من عناصر إنتاجية ماعلة ، لزورس الأموال غير العامة ،
والاستثمارات الزائدة في مائر المجتمعات الفقيرة والتنمية ، كما يفنى ألا تضارب
أجهزة التخطيط المسيرة من ، الارصة الرأسالية ، مع أجهزة وزارة المالية
للسيرة من ، التفتات الجارية ، . فلا يحدث الازدواج بين التخطيط والاضاق
الرشيء ، بل يفنى توجيه الاذعان نحو استخدام العلاقات الكلمة بشرية كانت
أم إنتاجية أم تعدينية .

وتتضمن سياسة التخطيط الرشيدة، المساعدة السليمة الاستهلاكية، وتوفير
عليها للمساعدة التكنولوجية، في إقامة للشروط، واستخدام الطاقة الانتاجية،
والإقبال على التصنيع والتصدير، والتحكم في الانضمار التكاثر، وقد نجحت
في تجربة الصين، رغم موارد البنية التحتية، في نقل المهارات التقنية
والعلمية، ويترتب لتعليم الأولاد إلى كل قرية الصين، مع التركيز على

(4) FRU, 1981, The Sociology of Public Administration, London, 1972.

« التدريب الوطني ، التصدير الأمد ، بدلا من « التطعيم البيرالي ، الطويل الأمد ،
والذي يأخذ ببرامج التدريب الشامل .

والذنب الذي لا يمتنع بالنسبة لمخططي التنمية ، هو محاولة الافتتان بمعدلات
النمو المالية في الناتج القومي الإجمالي ، وينسون في نفس الوقت ؛ الهدف الحقيقي
من التنمية ، وهو التقارب فيما بين الدخول ، والماء التفاوت الشديد ، لمواجهة
مشكلات المجوع والحرمان والبطالة ، ووضع حد للتخلف والفتور النسبي والمطلق
والحد من الثروات الهائلة لصالح « أقلية انتهازية متميزة » ، مع الالتزام بفلسفة
اشتراكية للمو « ملتزم بكل مشاكل الجماهير على نحو رشيد ، وبأفضل استغلال
يمكن « للوارد المتاحة » .

الفصل العاشر

الفساد الاجتماعي في التاريخ

المهيد :

- الفسق الاجتماعي في التاريخ
- تطور القوى الاقتصادية في التاريخ
- مناهج الفكر عند مانهايم Mannheim
- التخطيط ومنهج التفكير المنطقي
- Planned Thinking
- علم الاجتماع السياسي والتخطيط

تصميم .

١ - إذا ما انتقلنا إلى كتابات مؤرخ أنثولوجي مثل د. جوردون تشيلد ، Gordon Childe حين يمرض ويسجل لنا ويحلل ، كل ما يتصل بماضي الشعوب والمجتمعات القديمة ، لوجدناه يحاول تقسيم تطور الثقافات والمجتمعات مختلف تاريخ الحضارة البشرية ، فيقسم هذا المسار التاريخي تقسيماً اقتصادياً استناداً إلى قياس « درجة التطور الحضارى » مع بداية ظهور التغيرات الاقتصادية الهامة التى تطرأ على حياة المجتمعات (١) .

الثورات الاقتصادية :

وفى كتابه للمتع و الإنسان حين يصنع نفسه *Man Makes Himself* ، أشار جوردون تشيلد ؛ إلى ما أسماه بالثورات الاقتصادية *Economic Revolution* تلك التى كان لها رد فعلها فى محيط الإنتاج والمسل ، وتؤدى بالناس إلى التغيرات الاقتصادية والسياسية الهائلة .

ولقد كانت الثورة الصناعية الأولى ، تتمثل فى محاولة الإنسان ، لإنتاج الطعام *Food Production* ، وبداية الاستقرار باكتشاف الإنسان لكيفية استزراع الأرض ، واستنباط البساتين ، بطريقة صناعية . وبذلك تحولت المحاصيل الزراعية بفضل تدخل العامل البشرى ، من « منتجات برية » إلى « صولات » و « منتجات صناعية » نظراً لتدخل فكر الإنسان واستخدامه للمنتج لإكائه وتعديل سلوكه ، وبمعدل أنماطه للسيرة . وبدأت الثورة الاقتصادية الثانية مع حجرة فلاح من قرية إلى المدينة ، ويسمى « تشيلد » ، بالثورة الحضرية *Urban Revolution* ، فانتقل التو الإنسان وبدا ، ثم تطوّر

« حالة البداوة ، وترقى إلى الحالة الحضرية Urbanism ، ومن هنا نشأت المدن في عصور « الحجر والبرونز والحديد » ، وكلها عصور « ذات طابع ومضمون إقتصادي » .

وبتبع هذا التقسيم ويعتمد عند « تشيلد » على أساس الطاقة الاقتصادية التي تمكن الإنسان من اكتشافها ونخبها والاستفادة منها ، نتيجة لكفاحه المستمر مع البيئة ومحاولة التغلب عليها والمداينة للسيطرة عليها وحل كنوزها .
أما « الثورة الاقتصادية الثالثة » ، فلقد إنطلقت مع تبشير الثورة الصناعية الحديثة في إنجلترا منذ أواخر القرن الثامن عشر حين توصل الإنسان إلى « كيفية استخدام البخار كقوة محرّكة للآلة » ، ومنظمة الحياة الاقتصادية المنتجة .

وكأن اكتشاف الذرة Atom ، وهو بمثابة الثورة الاقتصادية الرابعة التي نجمت عن القوة النووية بتفتيت الذرة وتفجير اليورانيوم ، وتحويل « المادة » إلى « طاقة » تمثل في « أضواء » وحرارات وإشعاعات وتفاعلات أخرى يمكن إستخدامها في ميادين الصناعة والزراعة والطب والخدمة .

ب — ولقد رفض الأنتروبولوجي الأمريكي « ردفيلد Redfield » نظرية الأركيولوجي « جوردون تشيلد » ، تلك التي تأخذ بفكرة للراحل ، أو « الثورات الاقتصادية الأربع » ، وزعم ردفيلد إلى أن الحياة في المجتمع هي إما « مدنية civilized » وإما غير مدنية uncivilized ، وإما سابقة على الحالة للندنية precivilized ، ومع ظهور المدن أو نشأتها ظهرت « للندنية » وهي بمثابة مرحلة الانتقال الكامل نحو « الاستقرار الاقتصادي » ، والتنظيم الاجتماعي والسياسي (١) .

(١) « ليست « تفوق » الحقيقة بين الناس ؛ كما يذهب « ردفيلد » ، هي « فؤاد » يولوجية حرة وإلا تمثل في ذلك التباين القائم بين تصورات ومفاهيم الناس ، وأوصافهم » .

والمرحلة السابقة على المدنية ، ، هي حالة بدائية ، لم تحصل بعد إلى درجة الكتابة ، حيث كان المجتمع آمياً لا يفرق الكتابة Præliter ، وذلك المرحلة التي تسمى بمرحلة المشائر Folk society حيث لا يبدأ التسجيل والتدوين ، وهي حالة اجتماعية لم تحصل إلى مرحلة المدن ود التنظيم الحضري .

ويميز « ديفيلد » بين مفهوم « الثورة Revolution » ، وبين مرحلة الانتقال transformation ، فالثورة تتضمن عنصر المفاجأة ، أو هي تغير فجائي بسيط وعريق ، على العكس من حالة « التقييد » أو مرحلة الانتقال ، فتوراة إنتاج الطعام Food production ليست ثورة لأنها لم تكن حالة فجائية ، أو تغير جذري حثيف ، وإنما مهدت لها بالضرورة بعض المراحل الاقتصادية للسبق . ، تلك التي ساعدت على التوصل إلى اكتشاف أو ابتكار الطرق الجديدة لتخزين أو « إنتاج الطعام » .

وإستناداً إلى هذا الفهم يقول « ديفيلد » يستطیع الفيلسوف أن يبدأ فلسفته بالكتابة عن أرسطو ، كما يبدأ البيولوجي بالآسيا ، أما الأنثروولوجي فإنه يأتى من الأندمان Andaman (١) .

النمو الاقتصادى فى التاريخ :

أ. - ولا شك أن الظواهر الاقتصادية إنما تدور أصلاً حول حاجة الإنسان

== وبالمعنى الذى اعتمدناه ، ويطلق عليه ، ويؤثر فى تصرفاتهم ، محمد خير الدين ، وتخصصهم الشخصية ، أنظر فى هذا الصدد :

ليتون بروس : الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الشاذلى ، مكتبة

السورية ، بيروت ١٩٦٧ ص ١٢١ .

Alty., Social Anthropology, Theory and Practice Cairo
1964, p. 284

وقيه يظروقه ونظرة إلى الحياة ، بالإضافة إلى معرفة كيفية اشباعه لحاجاته
عضوية كانت أم سيكولوجية الامر الذي مهتم الاقتصاديون بظواهر الاستهلاك
وعمليات الانتاج Production ، وذلك مع دراسة التقنية الاقتصادية (١) الخاصة
والعامة ، ومن أجل تحقيق الرفاهية بأقل قدر ممكن ، من الاتفاق والتضحية
للأدية .

ومن أجل حل هذه للمشكلة ظهرت للمذاهب الرأسمالية وللاركية والتعاونية
والعامة ، ومع ظهور الرأسمالية تمقنت الآلة وتطورت التكنولوجيا وازدادت
حركة التسويق ، وظهور التجار المخاطر ، الجري ، و الوسيط ، الذي يشتري
من المنتج كي يبيع إلى المستهلك ، وانتقلت الاهمية الاقتصادية ، وللكافة الاجتماعية
من مجرد ملكية الارض ، إلى أهمية و وظيفة رأس المال .

ومع بداية الثورة الصناعية في إنجلترا ، تطور الفكر الاقتصادي بشكل
ملحوظ بعد انتهاء القرن التاسع عشر ، فلقد ساهمت حركة التصنيع الآلى إلى
صاحبها وتجمعت عنها ظهور مختلف الازمات التي اجتاحت أوروبا ، حيث تراكمت
وازدادت البطالة ، الظاهرة وللتقنة بين جماهير العمال وظهر الفراغ Vacuum
المائل الذي فصل فصلا كاملا بين صاحب العمل ، ومساعديه وغلثانه ،
وازدادت بل وتمقنت المسافة الاقتصادية ، كما تنوعت وتمايزت العلاقات بين
سائر الطبقات .

ب — ونظرا لوجود هذه الازمات ، شجرت الصراعات ونجمت الكراهية

(١) يعرف الاقتصاديون « الانتاج » بالمعنى العلمي ، بأنه محاولة « خلق » اداة أو
زيادة منتفعا . وذلك عن طريق الاضافة أو « تحويل مادة أولية » غير قابلة للاستعمال إلى
مادة قابلة للاستعمال أو للاعيان وقد يكون العمل للنتج عبارة « عن مجرد خلق أو ذكالي
أو لى » كالتاج الفيلسوف والأديب ، ويجرود عن الفنان وخبرة الطبيب .

وعقدت العلاقة بين مختلف المئات المنتجة ، وحين تضخمت جاراتها شرفت .
 المنتجات ، وتعددت مصادر الانتاج عبر الاسواق ، خضعت تجارها الى المبالغة
 قانون المرض والطلب ، وأصبحت المآلة مهددة في ورقها ، فظهرت مشكلات
 الأجور wages ؛ وضاعت قيمة الإنسان .. وتحت وطأة التصنيع ، نجحت
 للطاقت الجديدة ، وظهرت التكنولوجيا للتقدمة ، والموارد للتعددية ، كما
 ازدادت قيمة العلم ، وتعدت المعرفة التجريبية مع الاهتمام بالمنتج العلمي وتطبيقاته
 فازدادت معدلات الموليد وتلت أو خفت حدة معدلات الوفيات حين تقدمت
 علوم الطب العلاجي والوقائي مما أدى إلى التضاخم في أعداد السكان .

النسق الاقتصادي في البناء القطاعي :

١ - القطاع هو النسق الاقتصادي الذي ظل سائداً طوال القرون الوسطى ،
 كما ارتبطت الأسواق القطاعية بسيادة السلطات المركزية وبالحقوق والامتيازات
 التي تمسك بها كل قطاعي ، وهي سلطات وحقوق سياسية ، ظهرت وانتشرت
 وتعددت في القطاعات الإقليمية ؛ كما انفرد كل قطاعي بسلطانه في كل إقليم محدد
 تحديداً مكانياً ومنبوذاً .

وكانت الحروب هي السبب المباشر في ظهور الأنساق القطاعية ، ونظم
 الرق وتجارة العبيد واستغلال الإنسان لآخره الإنسان ، كما يسجل التاريخ الاجتماعي
 للاقتصاد السياسي ، حين يكشف عن نتائج حروب القرون الوسطى ؛ فلقد
 ازدادت أهمية الإقطاع ، ورجال الحرب ، وضعت شوكة الحكوم ،
 فنحوا هؤلاء الإقطاع مختلف القطاعات الضخمة تقدراً وفكرهما لما
 قاموا به في الحرب من شجاعة وإقدام .

وبذلك بدأت الحقوق القطاعية ، بمنح المقاطعات والامتيازات ، والاعتراف

بالأشراف والتتبع كافة سلطات حقوق الإقطاع ، تلك التي ظهرت بهذه ذك
 لك « حقوق مشروعية الملكية التامة ، للأرض ومن عليها .

ومن هنا سيطر رجال الكنيسة على مساحات شاسعة من الأراضي للخدمة من
 الضرائب ، ولذلك كانت حقوس ، طبقة اللاهوت والكهنة القديمة كما تمثل
 في مجمع الكرادلة وكبار رجال الدين ، تعبر عن أهم ، سمات عناصر الطبقة
 الاجتماعية ، . ومن هنا صدرت « استرقاطية الإقطاع ، تلك التي تحصر مبادئ ،
 الشرف والصدق وترفع من الهدايا ، وتمجد البطولة والنبالة والإسالة .

ومحصر الإقطاع على الاحتفاظ بآرائه وتقاليد ، ونمط الحياة وأسلوبها
 الثابت الذي يمتاز بالبساطة . بمعنى أن النسق الاقتصادي الإقطاعي هو نسق
 « ثابت نسبي ، لا يتجدد أو يتبدل ، ولا يشجع على تنوير أسلوب الحياة ، وإنما
 يتوقع الانقراض ويتحول في عالم ضيق لا يفتح على العالم الخارجي الواسع ،
 الأمر الذي معه تتجدد القيم الإقطاعية قوالب بينها ، فلا يخرج الإقطاع عن
 قيمة الأخلاقية المتوارثة ولا يشجع على « تبليغ الخير والعلم ، وإزدياد سعة
 الأفق والمعارف ، عن طريق الاحتكاك بالآخرين .

ب ... وفي سائر المجتمعات التقليدية والقروية ، وفي كل المجتمعات ذات
 الثقافة البدائية ، نجد ظاهرة محددة بالذات ، هي « إخفاء حالة من القداسة ، على
 ثروات للأرض بأبعاده ، وذلك على حساب الواقع الاجتماعي الراهن ، وتوقعات
 المستقبل القريب .

ولذلك نجد في المجتمعات ، كانت الاقتصاد الإقطاعي ، تلك الجوانب التي
 تحبس الثابت ، الذي مضى ، مع رفض الجديد والتجديد ، عاكسة على التكرار
 القديم . يوليئان مكسب نظم الإقطاع الخاصة بالتورث وتوزيع الثروة

« وانتقال الألقاب من الأسلاف والأجداد ، فتمسك الاقطاعى بعبادة للأمنى ، وتقديس الأسلاف والأبطال ، ومن هنا ينتم الفكر الاقطاعى بالترتم وصيق الأفق وعدم اللروة بما يكون له رد فعله فى مجال الفكر وجروح الخيال ، حيث لا يسمح الاقطاعى بالتفاوض والتناقض ، وإنما يأخذ فقط ييقين العقيدة الثابتة ، فى منطق الاقطاع ، لم ينضج الوعي بعد ، ولم ترق القدرة على التصور والجدل أما ، التعارض والتضاد والتناقض ، فى مبادئ غريبة ينهار معها التسق الاقتصادية للاقطاع ، ولذلك كانت مبادئه للشك والجدل الديكباتية والمجبية ، هى أول الأفكار التقدمية فى الفلسفة الحديثة ، التى أدت فيما بعد إلى ذلك حصون الاقطاع ونسف قلاعه . »

التكنولوجيا وتغير أنماط الحياة

وعلى غرار أوجست كورت ، يميز كارل مانهايم ، بين ثلاث مستويات لتطور المعرفة وتغير الفكر ، حيث أن هناك اتجاهات معينة على هديها يسير العقل (١) وبفضلها يتجه الفكر ، وتصل هذه الاتجاهات عند مانهايم ، بمراحل فكرية ، أولها مرحلة المحاولة والتخطأ ، أو منهج الاكتشاف بطريق المصادقة chance discovery ، ثم يتجه الفكر نحو ، الاختراع invention ، وأخيراً يصل العقل إلى مرحلة التخطيط planning . »

ومعنى ذلك أن كارل مانهايم ، كغيره من فلاسفة التاريخ ، يضع اتجاهات عامة يسير فيه الفكر ، ويحاول أن يفسر لنا كيف تخلق الحاجات الإنسانية ،

(1) Mannheim Karl Man and Society in An Age of Recon-struction
trans. From German by Edward Shils Kegan Paul London 1 42

نوعاً من التفكير ، وكيف يرتبط الفكر في حذوزه الأولية بالجات الإنسان الفيزيائية ، فإن من يتبع الفكر في هذه التاريخية النظرى ، للسند إلى ضرورات التنجى الاجتماعى ، وأن من يشاهد الأشكال الأولى للتعرف ، فسوف يجد أنها قد صدرت عن طبيعة الملاحة بين البيئة الفيزيائية ، بين الإنسان القديم ، غمط فكرة البدائية .

ولقد تمخضت الحضارة ، عن تلك الملاحة التى ربطت الإنسان بالبيئة ، وأنبش عن ذلك الاحتكاك الإنسانى والكر البدائى ، فى ذلك المحيط البيئى الصارم ، ان طرقت أول مناهج الفكر الإنسانى الساذج ، ألا وهى صدور مناهج المحاولة والمطأ ، أو الاكتشاف عن طريق المصادفة ، .

إذ ان التكيف الامتاق والاحتكاك المستمر بالبيئة الطبيعية ، يولد نوعاً من السلوك أو موقفاً بدائياً ، يقفه الإنسان حيال قسوة البيئة ، ويستند ،وقف الإنسان وسلوكه إلى ما يفرضه المادة وإلى ما يضمنه التقليد ؛ وتخضع كل من المادة والتقليد إلى منهج الاكتشاف عن طريق المصادفة ، أو ما يسميه مانهايم بما يشهد اليه الاسطلاح الألمانى Finden (١) .

فى تلك المرحلة التى تتميز بالكفاح من أجل الحياة ، وبالصرار للبشر بالبيئة ، وبالاحتكاك المستمر بالطبيعة يكتشف الإنسان أنماطاً من السلوك ، ويستلم عدد من ردود الأفعال المختلفة التى يتسلح بها ، لمقاومة الطبيعة فى عظم مرمر من الكفاح والصراع ؛ كما يكتسب فى الوقت ذاته بعضاً من الامكانيات ، التى تمكنه من مواجهة للوائف الجديدة ، وفى مساعدته لى التكيف النتائج ، لإله نتيجة قاسية .

ولقد قصد ما نهيم بذلك المثال الذي ألفت إليه ، ليحبر به عن تخرج الحقيقة الاجتماعية الأولى ، التي صدرت معها أشكال الفكر البدائية ، و« دور دور المعرفة الأولية » ، إنما قصد بذلك تلك المرحلة التي تتصلق بالبعد وتتميز بجمع العلماني ، والتي تسمد إلى نوع من « التنظيم الاقتصادي والاجتماعي » ، وترتكز إلى أسلوب بدائي من أساليب الحياة ، تصاحبه أولى مناهج الفكر التي امتازت بالمحاولة والخطأ

وبعد انتهاء مرحلة الاكتشاف عن طريق المصادفة ، ، صدرت للرحلة الثانية من مراحل التطور التاريخي والنتيجة الفكرية في أساليب المعرفة الإنسانية حيث حدث تطور هائل في البناء الاجتماعي ، وطأ على المجتمع تغير جذري في نظمه وأسلوبه فصاحب ذلك التطور التاريخي ، والتغير الاجتماعي تقدم واضح في مناهج الفكر وفي طرق المعرفة ، فقد حدث هذا التغير وظهر هذا التقدم ، حين استخدم الإنسان مختلف الأدوات والنظم التي يفضاها يستطيع أن يحقق بها أهدافا ومن هنا ظهرت تلك المرحلة النظرية الرئيسية ، التي أسماها ما نهيم « بمرحلة الاختراع » (1) Erfinden .

وفي تلك المرحلة الثانية ، يتجه الفكر الإنساني نحو تكوين الأهداف المحددة ، ومن ثم يفكر الإنسان أثناء تقدمه وتطوره ، في كيفية توزيع مناهجه الفكرية ، لتحقيق تلك الأهداف ، وهو في ذلك لا يفكر في موضوعات اليشة للباشرة ، بل يفكر في أشياء لا تقع تحت بصيرة أو سمع ، أي أنه جدا يفكر « فيما وراء » الموضوعات ، و« فيما وراء اليشة » .

ولقد نتج عن تلك المرحلة الهامة من مراحل الفكر في رأي ما نهيم ، ذلك

تتطور التكنولوجيا للمال ، ونجم عن الاختراع تلك التقدم الآلى ، من أبسط الأشكال التكنولوجية ، وأكثر الأدوات بدائية ، إلى تلك التي أكثرها تعقيداً ، وأشدّها تركيزاً ، فتطور مثلاً استخدام الحيوان ، و « المحراث » ، إلى استخدام « البخار » ، و « الكهرباء » ، وما يتصل بها من اختراعات ومنافع تحقق أهدافاً رئيسية في حياة الإنسان والجماعة .

التخطيط وضيج التفكير المخطط :

ويرى كارل مانتايم — أن « الشدة » و « التوتر » الذي يتجان عن « مرحلة الاختراع » ، وما يصاحبا من قوى متعارضة . إنما تفرض علينا وعلى فكرنا ، أن نمر بمرحلة ثالثة ، تلك التي يسميها مانتايم « بمرحلة التخطيط » (١) .

أو ، مرحلة التفكير المخطط Planned Thinking .

وتجلى مظاهر تلك المرحلة حين يتقدم الإنسان ، ويتخطى الفكر الانساني مرحلة الاختراع ، ويتعداها نحو مرحلة التخطيط Plannen ، حيث يتقدم المجتمع حين يتخطى عن تلك التطلعات العشوائية ، التي كان الفكر الانساني يستعين بها في مراحله البدائية الأولى .

وفي مرحلة التخطيط — تظهر إلى الوجود الاجتهادى أعماط جديدة من المعرفة حيث تتعدد أبعاد تفكيره بولوجه درجة عالية من التطور ، بحيث تتداخل ميادين التفكير ، في عالم الاقتصاد والسياسة ، حين تتعد أساق البناء للاجتهادى ، وحين يتحول المجتمع من « بناء استراتيجى بدائى » إلى بناء « ديناميكى متغير متعدد الأبعاد » (٢) .

1 - Ibid : p 162

2 - Ibid : p 153

ومن ثم اهتم مانهايم بمرحلة التخطيط ، حيث ظهرت في علم الاجتماع المفاهيم
عملية ونزعات تكنولوجية ، تهدف إلى تكوين د تكنولوجيا ، لو ومنذمة اجتماعية ،
بالاستناد إلى دراسات التخطيط العلمي والاجتماعي .

وأصبحت عملية التخطيط عند مانهايم ومن نحا نحوه من سائر الفاربعين -
عملية ضرورية و لتنظيم التغير الاجتماعي ، على اعتبار أن التغير هو الحقيقة الأولى
في الوجود ، وأن التطور هو د الحياة و جوهرها .

واستناداً إلى ذلك الفهم - فإن التغير الاجتماعي والتعاقي والاقتصادي ، يجعل
من د التخطيط أمراً ضرورياً ، لا مفر منه لمواجهة تلك التغيرات الهائلة التي
تصيب الأسس الجوهرية . في البناءات والأنماق الاجتماعية ، والتي تلقى بالجوانب
الرئيسية في صائر المجتمعات المعاصرة .

ويعتقد أصحاب الخط - كما يقول مانهايم : وأن مهمتهم الرئيسية إنما
تقوم على تحطيم المبادئ الفكرية القديمة والكشف عن الوسائل الجديدة التي
تؤدي إلى فهم هذا العالم للتغير .^(١)

وينتضح لنا من هذا القول - كيف تحولت النزعة الانهايمية باهتماماتها فالتحقيق
نصوص الفكر السياسي ، وأشادت بدوره الخطير ؛ إلى الدرجة التي أصبح فيها هذا
الفن من التفكير السياسي ، مصدراً هائلاً من مصادر المعرفة .

حيث يربط الفكر السياسي بين النظرية ، و د التطبيق .^(٢) ، لأنه يفتش
من واقع د التجربة الرسمية تاريخية ، كما يتصل بالمصالح الجمعية من جهة ،

1 - Ibid: P. 33.

2 - "Max Weber, 'Kritik, Ideology and Utopia' Kegan Paul London, 1940 p 185

وبصفة فهو العمل والانتاج من جهة أخرى، وبذلك استلقت وجهات النظر السياسية، وبمايت اشكلها أحيانا من اتهامات ديموقراطية، و «إبرالية»، أو نوعات اشتراكية، و ديموقراطية، في اغلب الأحيان.

ولعلنا نلتفت جميعاً عن طيبة التجربة اليابانية، وحديث من الواقع والأوضاع الاجتماعية السائدة. إذ أن الفكر الياباني، إنما يرتبط في الواقع بحقيقة الوضع الاجتماعي والطرف التاريخي.

ومن ثم تعدد الفلسفة السياسية، من تجربة المجتمع ومن سياق التاريخ، فلا تفكر السياسة جذورها البعيدة الكامنة في «روح العصر» و«نسيج التاريخ» و«تربة الفكر الاجتماعي»؛ بل اعتبار ان المجتمع والتاريخ، هما المهيمنان الوحيدان لكل «فكرة» أو «إلهام» أو «مذهب» من مذاهب فلسفة السياسة.

ولعل ما نأمله - في تأكيده على الفكر السياسي ، ودوره في التخطيط والتنمية
والعرفه ، إنما يجمع عن إيمانه بالترجمة التاريخية وبالانجازات العملية في علم الاجتماع
وذلك بتحويلها إل ، أداة قوية في أيدي السياسيين وأصحاب التخطيط .

وخاتماً - في ضوء استعراضنا لمساهمات ماهام في حوسبولوجية السياسة نجد ان اتجاهاته السياسية والتاريخية ، قد تأثرت إلى حد بعيد بالترزات المعجبية وللاركية التاريخية (١) ، مما كان لها اكبر الاثر في تشكيل الفكر للتلاميذ وتكوين اتجاهاته النظرية في مسيولوجية التاريخ والسياسة والفرقة : استادا إلى « نسية الفكر » و« المواقف التاريخية » ، ولاخذ بالترزات ، والبنائية ، والوظيفية في كل من التاريخ والتحليل الاجتماعي .

1. *Ann. Raymond, C. L. Sociologie Allemande, Contemporaine, Félix Alcan, Paris, p 82-83*

الفصل الحادي عشر

ولاء الكتروليرها والتحديث

- تمديد
- محنة التصنيع
- الخبرة الصناعية وروعة التحديث
- طيبة الاساق والتطبيقات الصناعية
- عيوب الزخمة الوظيفية في التنظيم

تمهيد:

١- ليس النشاط الإنساني ، سواء كان زراعياً أم صناعياً ، ظاهرة فردية وإنما تعد ظاهرة اجتماعية وجماعية . ولا تعمل الآلة وحدها في ميدان الصناعة فهي في حاجة إلى ماهر كما من « جهود وطاقات بشرية ، منتجة وعمركة الآلات ، فالصناعة ظاهرة اجتماعية . والطاقة البشرية ليست كما هي « كما عدديا عشوائيا ، وإنما هي « قوة جماعية موجهة » ، عن طريق تضافر الجهود والحاس والمناخ وللنفاة من أجل زيادة الانتاج .

وتعتمد الصناعة على تقدم التكنولوجيا ، فإذا كانت الآلات البدوية والمخفية (١) كالمنبور والشادوف قد خلقت المجتمع الاقطاعي ، قد خلق ظهور « الآلة البخارية » نمطا تكنولوجيا جديدا في الانتاج ، ومع انتشار التصنيع وتطوره وظهور عصر الصناعة التتية حدثت التغيرات الهائلة التي طرأت على البناءات والتنظيمات الاجتماعية ، قد بدأ « رأس المال الصناعي » في تدمير بيوت العمال بانتشار الاستغلال والاحتكار والبطالة ويتلون « رأس المال » بلون « الطبقة » و « شكل الانتاج » ونوع الاقتصاد للوجه وغير الوجه فهناك رؤوس أموال « إقطاعية » و « دوجولزية » وأخرى « صناعية » شيعية كانت أم رأسالية .

(١) ان الأدوات الخفية التي تدار باليد تعطينا البتات الإستاتيكي ولكن حين اخترع « جول سمى » آلة نسج عام ١٧٣٣ ثم اخترع « ادكرايت » عام ١٧٦٩ آلة القزل للنسر ، دخلت الآلة كمنصور تكنولوجيا في تطوير الصناعة . وتحت وطأ : الصناعة طرأ على سطح « البند الاجتماعي » التكميل من التغيرات . حيث تعدت القمم فوعتدلت وتوالت تخرج تسمى *division of labour* « لأن الآلة تخرج بانفصال الوقت وتوالت البند وتخرج الأعداد الهائلة من العمل » .

ب - ومع تراكم رأس المال، يتراكم شقاء الإنسان، فكلما ازداد الاستغلال واستغاضت العروة، وتراكت في جيوب الرأسمالين، كلما ازداد الفقر والثقافة بين صفوف العمال، لزيادة عِزهم على طلبهم، فقل الأجور، وتبهار القيم الخلقية، وتتهير أنماط الفكر وتفككت سمات الثقافة، كما هتز وتحتل البناء الاجتماعي مع هذا التطوير الصناعي التكنولوجي. واستناداً إلى ما طرأ على سطح المجتمع من ظواهر التحلل والتفكك، ضاعت قيمة الإنسان. وإذا ما عقدنا للمقارنات بين هذه الظروف والشكليات المعقدة، وبين المقدمات الأولى للصناعة، لوجدنا أنه في بداية تصنيع، ظهر شكل العمل الصناعي أولاً في الورشة، حيث ظهرت فئات العمال الصناع وتطورت مهاراتهم التقنية وصناعاتهم اليدوية والآلية التي يقوم بها العامل الماهر التخصص، وكان «الأسطى Artisan» في مبدأ أمره سيداً، ورئيساً على أعوانه من صغار الصناع، من طلاب المهنة. وكان هؤلاء الصغار ينظرون إلى رئاسه «الأسطى» نظرة روحية كنظرة الطالب إلى أستاذه، ومثل نظرة المتدين إلى «آباء الكنيسة»، حيث يتلقى الصغار من كبار العمال للمهنة أسرار المهنة وفنونها، ويسرشدون بإرشاداتهم. ونظراً لوجود علاقات المحبة واللؤنة التي تربط «الأسطى» بصغار العمال، ونظراً لصغر حجم الورشة، وقلة حجم القوى العاملة، وبساطة التنظيم الصناعي. لعدم تعدد الأدوار والمراكز، نشأ ما يسمى «بالنشاء الإيديولوجي Vêtement Idéologique»، كرابطة روحية وثقى تربط بين الأسطى وعماله.

وإذا كانت الورشة هي أول «نمط صناعي» يصاحبه تنظيم بسيط يربط بين «الأسطى» و«صبيان»، فلا شك أن «الورش الصناعية» هي بمثابة المدارس الصناعية الأولى، التي يخرج منها صغار العمال، وهي «التوتة» الأولى

في إنشاء الصناعات كلها ، وعلينا أن نجتمع فيام « الورش الصناعية » المحدودة لها
 المصدر الحيوى الذى يفرخ ويختلف و متوسطى للهاذة . من أصحاب الذين والحرقة ،
 حيث أن هذه للدارس الصناعية الأول ، كانت موجودة كورش قائمة بخلقها ،
 ثم أخذت تفتنى وتتلأهى ، وخاصة بعد ظهور الصناعات الزامانية للكبرى . وتتم
 الإدارة الصناعية للماصرة ، بما يسمى بالكفاية الاتاجية . وبالتلذة الصناعية ،
 فأخذت للؤسسات الصناعية الكبرى قيم نظاماً تعليمية جديدة ؛ تربط بين
 « التلذة الصناعية » و « ورش الاتاج » القائمة بالنقل ، داخل تطلق للشروع
 الصناعى ؛ فيلتقى . التليذ الصناعى apprentice علومه ودراساته التى تتركز
 جميعا حول مشكلات صناعة ومناهج تعليمية وثقافية ؛ يثلقاها فى زوايا المصنع
 وبين جدرانه ؛ فتزداد معارفه وخبراته عمقا واتساعا بين حركة الآلات وصعج
 الورش .

هذه هى سيات الصناعة كما صدرت فى الصور الوسطى ؛ حيث كان منع
 « حرية الركاب للاقتصاد » يحتاج إلى عسدد من المهن والصناعات اليدوية حين
 تنعاضف جهود الحداد ، و « عامل الزجاج » وصانع العجلات و « النقاش » ومع
 تطور الطاقة الاتاجية بظهور تكنولوجيا الصناعة . إنتقل المجتمع لقرنى من
 نطاق « الورشة الصغيرة » . حيث قفر قفرة صناعة هائلة ، فظهر المصنع الكبير ،
 وما فيه من بناء وتنظيم وتقسيم ليعمل ، استناداً إلى توزيع للمهن والخصصات
 حين تساهم مختلف فئات المال فى عملية الإنتاج الكبير .

محنة التصنيع :

ثم « وظهر الحصر الآلى للبكاينكى » . خفت للهارات اليدوية القنبة .
 وخرجت « الآداة » التى كان يستند عليها العامل للعمل للتصنيع ، لىكنى يحتل من

يد العامل ؛ ومستقر وثلاثم في جسم « الآلة » التي تعمل ذاتيا وتنتج إنتاجا هائلا في وقت قصير ؛ فكان للآلة آثارها للبشارة على سيكولوجية العامل ؛ وتآلقها السوسولوجية على مختلف فئات العمال . حيث اختصرت الآلة للكثير من حركات العامل ؛ كما أدت الآلة إلى إعفاء الكثير من العمال ، وقادم عصر التكنولوجيا تلك المهارات الذكية ، ونحلت الآلة الخدوات البدوية ؛ التي كان يتميز بها العامل القديم . ولقد ارتبط التقدم التكنولوجي وتطوير التصنيع وإنتشاره ، بتغيير الأنماط القروية ، وظهور الأنماط الحضرية .

فقد ظهرت للندن ، والحوضر ، حول المصانع ؛ وارتفعت الأجور وزادت دخول الأفراد ، وأصبحت المدينة مركزا من مراكز الحلب ، ، للأعداد الهائلة من القرويين الذين يتدفقون نحوها هربا من ظلم الانقطاع . فبدأت الهجرة من القرية إلى المدينة . وقامت بانتشار التصنيع للشروعات الصناعية نظراً لتراكم رأس المال وخص الأيدي العاملة .

ولا شك أن ظهور العلم الحديث بمكتشفاته في ميادين الطبيعة واليكانيكا . قد أدت إلى تقدم البحث التكنولوجي والاهتمام بالصناعة والتصنيع . الأمر الذي جعل « سان سيمون Saint Simon » يطن نهاية طبقة الثبالة ويؤكد على حتمية التطور . حين ينتقل المجتمع من « نظام حكم الإنسان Gouvernement des Personnes إلى نظام السيادة أو التسلط على الأشياء L'Administration des Choses » .

د- وفي عصر التكنولوجيا ازداد الاهتمام بتكثيف الانتاج إلى يدوية استخدام رجال الصناعة وأصحاب المصانع لمجرد العلم والخبرة في علم النفس الصناعي Industrial Psychology من أجل إبتكار مختلف الطرق

والأرباح التي تزداد بمساهمة الإنتاج. ومن ميل للتأخر، إنشكر، لا يجوز، طريقة إنتاجية، تقلل إلى حد كبير من عدد الحركات التي يقوم بها العامل أثناء قيامه بالعملية الإنتاجية. وإذا ما قلّت عدد الحركات التي يتطلبها العمل، قلت معها قيمة الجهد المبذول في العمل (١).

والحقيقة أن خبراء النفس في مجال الصناعة ، من أمثال « تايلور » و« جيلبرث » لم يقللوا الحركة ولم يعضوا نسبة التعب أو المجهود ، جدياً العامل ، ووجهة في تخفيف أعبائه ، بقدر ما كانوا يرغبون في استخدام علوم النفس والاجتماع والفسيولوجيا Physiology في ميدان الصناعة لخدمة رأس المال وأصحاب مشروعات التصنيع في الشركات الكبرى .

وقد غلّ خضلا عدة الحركات العنيفة ، ونجس التجارب ، ولكن كان على السامع أن يقرم بانتاج أكبر قدر ممكن ، بمعنى أن الهدف كان يقتصر فقط على ازدياد ناتج العمل ، سواء تكيف كم العمل ، الذي يفترض على السامع فرضا . وعلى الرغم من تلك المناوئة السيكلوجية في تحليل حركات العمل . إلا أن صاحب التشروع الصناعي ، هو الإنسان نفسه جميع ، ولا يرتاح له بال ، ولا جهد له حال ، إلا بازدياد كم العمل الذي ينبغي

(3) اهتمت حركة الإدارة العلمية التي قام بها « فردينانك تيلور » « وتايمينه » « فوكلر » « جيلبرت » « بولايه » عنصر الإنسان وسلكه والآلات . وواصلت حركات التaylor في « الجيولوجيا » من طريق دراسة « فسيولوجيا العمل » Physiology of Work « وتلوي نسبة لوجود حركات مماثلة لتفويض نسبة العمل أو الجهد الى أقل حد ممكن . أطلق هذا عليه : *Gilbreth, F. B. Motion Study, Aimed for increasing efficiency of workmen 1911.*

على العمل إنجازها في أقل وقت ممكن . وهذه هي مصلحة رجال الصناعة التي تنادي بشعاره : تكثيف العمل وزيادة الأرباح .

الحبرة الصناعية ووظيفة التصنيع :

وما ينبثق من كل ذلك هو التركيز أولاً على تطور التصنيع والمليكة Automation ؛ وما نجم عنها من تحولات جوهرية في البناء الاجتماعي ، نتيجة لاستخدام الآلة وتحول رقيق الأرض إلى صناعات ، خاضعت للحرق وتصفحت القنون ، مع ظهور الاجراء والصناع وعثفت طبقات وفتات الهيال .

ولا يفوتنا في هذا الصدد ؛ أن تؤكد ردود الأفعال الحاسمة بغاية التنظيم الاقتصادي ، وصداها في طلم القن والآداب والابداع ؛ في صور الانقطاع راجعت القنون والآداب ؛ وقد عكست أشعار وقصائد فيكرور هوجو Hugo حين كشف عن شقاء الإنسان ؛ وكتب عن آلام البؤساء ؛ وما يعانيه

(١) الحبرة دورما وأصوتها في ميدان الصناعة والاقتصاد ودللتنا على ذلك هو دليل مادي ملموس . حيث يزداد أجر الانسان كلما ازدادت خبرته ، فأجر الطبيب للخصم أو الجراح ، إنما ينطبق على أجر الطبيب للمريض ، وكذلك فإن أجر العامل للماهر يزداد بزيادة خبرته ومهارته ، ونظراً في زيادة الطلب على « الحبرة الصناعية » في هذه الأيام ، كلها تنمو وتنتشر ، ويزداد من الحبرة كلما ازدادت خبرة الحبرة ، فتنمو في ظلها قيمة اقتصادية .

ومن السور الفنية الحبرة الصناعية ، أنها في بدايتها البدوية والفنية ، حين كانت « حرفة » جامدة لا تتبدل ، ونظراً لأنها بسيطة وجزئية فهي خيرة حاجة « لا تتطور » ، نظراً لنقص أفق الفاعل وحاصلها ، ولا تطور الحبرة أو تنمو ويكتسب إلا إذا امتلأ من رغبته ؛ بالممارسة والتدريب والقرآن ، بالإضافة إلى اكتساب الثقافة والفرصة ما يزيد ويسقى من الحبرة ، فزاد إنتاجها وتخصصها ودقة .

وبحسب الحبرة الفنية البسيطة منها أو المعقدة ، فإنها جزئية ومزيجية ، حيث تنفع في ميدان سكة الإنتاج والتصنيع ، فحرفة « نقل الحبرة » لأنها عمود وحلقة ومكتوبة .

من فقر، وانخفاض مستوى المعيشة وهبوط الأجور في النسق الإقتصادي الإقطاعي، كما وسجل لنا صورة عن البؤس، في أشعاره وكلامه، بحيث صور وروى في أدبه كل ما يدور حول «قيم الاقطاع»، كالشجاعة والبرورة والقروية، حيث تمجدت أخلاقيات التباهة والبطولة، والوفاء والرجولة.

ويعني ذلك أن لقطاعات القرون الوسطى كان لها صدامها في تشكيل روح، العصر، التي تميزت بالخصوبة والخيال، فكان الإقطاعي يشجع الفنانين والرسامين، فظهرت عباقرة النحت والتصوير والعمارة وسائر الفنون التشكيلية التي انجبت نحو الانتصار للكامل لقيمة العقل.

وسرعان ما تيرت فنون وآداب ما بعد الاقطاع، فبرزت على السطح «فضايا جديدة»، تستشف أحماق الإنسان وتكتشف ضميره وأناه، كما تهتم باحساساته وسيكولوجيته وإبراز فضايه الوجدانية. ففي الاقتصاد الإقطاعي إنجبه الفكر نحو الإيمان بقواعد الدين والتزاماته، مع تهديس النظام واحترام الملكية وتجيل ما هو عام، مما أدى إلى سيادة النمط السياسي للستور.

وعلى العكس من ذلك، أدان «الفكر الرأسمالي»، قد أخذ يتجه نحو ما هو خاص، مع إبراز الجوانب الشمورية والابعاد السيكلوجية والاهتمام بالعنصر الذاتي أو الفردي.

طبيعة الانساق والتنظيمات الصناعية :

١- يمكننا أن نسأل: ملهى طبيعة النسق الاقتصادي؟ هل هو حقيقة إستراتيجية ثابتة؟ وهل هناك تماثل عضوي متكامل، يصل داخل الانساق الصناعية والاقتصادية؟ أم أن هناك حالة من «عدم التوازن»، الديناميكي تمثل في قلب البناءات الصناعية؟

في المرحل على هذه المسائل، حارح الم اجتماع المصاعى، كما أشغل علماء الاجتماع الاقتصادي، واقسموا فيما بينهم إلى مدارس، أو مذاهب، ذكرنا عدلوس ومذاهب الفلسفة حيث يرى فريق، أن الأساقو التنظيمات في البناء الصناعية والاقتصادية، هي أنساق ثابتة تتواءم كائنات هيكلة ومكاملة، وهذا هو فريق المحافظين التقليديين، بينما ذهب فريق آخر إلى أن الصراع قائم في باطن النسق المصاعى، حيث يعمل ولا يهدأ، في حركة متغيرة دائية، وهذا هو السبب الموسيولوجى في عملية تقدم الديناميكي للإنسان، ذلك التقدم الذي لا يتم إلا بعد أن يمتوى بناء النسق التنظيمى، شيئا من التفكك والاضلال، الذي يقبى بعد ذلك حالة من إعادة التوازن في التنظيم. ويذهب هذا المذهب في طبيعة التنظيمات الإجتماعية، أصحاب التيارات الماركسية الثورية.

فلقد ذهب المحافظون من أمثال دوركايم و رادكليف براون، Radcliffe-Brown إلى أن البناء الاجتماعى المصاعى، إنما يتميز بالتضامن Solidarity، وللشاركة Participation من جهة، وبالتفكك والاضلال، من جهة أخرى.

ولقد أعلن المحافظون التقليديون، أن هناك الكثير من العوامل التي تعيق البناء، والتي تبقى في نفس الوقت على تماسك واستمراره ودوامه. وكان أول هذه العوامل، هو عوامل تماسك، والتنظيم الاجتماعى Social Organization نظرا لوجود عنصر المشاركة القليلة بين مسائر أعضاء التنظيم الاقتصادى أو السياسى، سواء داخل البناءات الاجتماعية في المصانع، أو من خلال بنامات القوة والسلطة، التي تشمل في قة الاشكال المرمية لآثار التنظيمات السياسية والاجتماعية.

وبالإضافة إلى وجود عامل تماسك التنظيم - أو بنى الوحدات الجمعية *Collective units* ، نظراً لثبات القوة والتأييد والمصالح المشتركة من جهة ، وتوافر مبدأ التضامن والتعاون *Cooperation* من جهة أخرى . وبكل هذه عوامل جوهرية تؤدي إلى تكامل التفاعل *System-Integration* واستمراره ، . نظرياً لموجود الاعتماد الوظيفي *Fonctionnel interdependence* بين المراكز البكرات الداخلية في التنظيم أو المركبات العظمى في البناء ، بحيث أن ثبات الحياة الاجتماعية واستمرارها وتكاملها ، إنما يعتمد بالضرورة على وجود التماسك والمشاركة في المصالح والقيم ، التي تدعم لنا كل البناءات والتطبيقات ، كما تؤدي إلى تماسك سائر الأنساق الاجتماعية في هذه البناءات الكلية .

ب - هذا من مزايا المحافظين التقليديين ، ولكن القائلين بالتنوير الثوري الكلي أو الفاجيء ، والقائلين أيضاً بالتطور الجزئي أو المرحلي ، - فقد إنشغلوا جميعاً بعوامل التطوير والتغيير وبدوافع التمرد والثورة ، وفسروا وجود الصراع *Conflict* وعدم التكامل *Malintegration* بأسباب تتعلق بالتكيف والتفاعل الثقافي من جهة ؛ وبعوامل تكنولوجية *Technological* وإقتصادية كالبناء الأسفل ، وقوى وعلاقات الإنتاج من جهة أخرى . بالإضافة إلى عوامل فكرية *Ideational* ، تؤدي إلى تجديد التنمية بنظر الوجود والتخلف الثقافي *Cultural Lag* ، القائم بين داهم التكنولوجيات وتأخر الأيديولوجيات . كما يؤثر هذا التخلف بالطبع على صيرور البناءات الاجتماعية ، ومكوناتها - وأنساقها من جهة ، وعلى سبلها وعناصرها ومركباتها الثقافية من جهة أخرى .

وبمنهج أي فرد في المجتمع من طائفتين متضادتين له السعي والوجود ،

أن يعرف طبيعة البناء الاجتماعي ومكوناته . ومعنى تحكمك أو تحكم هذه المكونات والأجزاء . وسوف يدرك فوراً أن البناء الاجتماعي وهم ما ينعبره من تغير وما يطرأ عليه من تحكم ، له وظائفه الضرورية ، التي تتصل بالتكامل وتجميع القطع ، من جهة ، وبالتكيف وتحقيق الأهداف من جهة أخرى . وعلى هذا الأساس حاول د.الكوت بارسونز ، أن يؤكد في نظريته البنائية الوظيفية ، على الجوانب السلوكية والبيكولوجية ، وذلك بالتركيز على « بناء الفصل الاجتماعي » .

وفي تلك النظرية البارسونية ، تنقسم 'عماط السلوك الاقتصادي والسياسي والديني ، طبقاً لتقسيم البناء الاجتماعي أصلاً إلى ، مجموعات أو أنماط ، اقتصادية وسياسية ودينية وخلقية وثقافية ، تقوم فيما بينها ، بعلاقات بنائية ، . وحين يطرأ التغير على أية من تلك الأنماط للتكامل ، فإن ذلك يسبب بالضرورة تغيراً مصاحباً ومماثلاً في سائر الأنماط الأخرى . بمعنى أننا نجد نوعاً من الترابط الوطني والالتحام للتضامن بين مجموعات الأنماط ، وذلك هي فكرة الوظيفة البنائية . كما تجعل في كل نسق إستاتيكي ثابت ، بحيث يتكامل في حالة « العناصر Coexistence ، ودوامه مع سائر الأنماط الأخرى في علاقاتها الكلية ، ومن هنا يمكن دراسة أعماط السلوك ، من خلال فهم المواقف والعناصر الاجتماعية بانفصالها من ذلك الكل التي هي جزء فيه ؛ والذي يعطيها أيضاً معناها ومبتناها .

وفي هذا الاتجاه البنائي الوظيفي نفسه ، أكد د.ربرت مرتون Merton على أن الأفراد إنما يستجيبون لمواقف معينة ، تعود للنسق كله ، ثم يقومون بتجميع هذه الاستجابة تبعاً بالنسبة لكل للمواقف والظروف للتعليقية ، كما

يعلم د ميرثون ، أن التغيير الذى يطرأ على سمات الشخصية إنما يتأثر بما يطرأ على النسق أو البناء الاجتماعى من تغيرات (٢) .

فالشخصية ، مثلاً تعبر فى الواقع عن علاقة ثابتة بين منبئات من جهة ، واستجابات من جهة أخرى ولقد اهتم د ميرثون ، أيضاً بفكرة الضبط فى النسق الاجتماعى ، كما اهتم أيضاً بهذا التيار الجديد ، أخذ الذين تلبذوا على د ميرثون ، فتأثر به فى كتاباته تأثراً واضحاً ، وأضى به دالتن جولدر (Gouldner) (٣) ، حيث أكد الأخير على أن وظائف الضبط إنما تحدث التوازن equilibrium بين سائر أجزاء النسق أو البناء الاجتماعى . ولا يرجع ذلك التوازن إلا لتحقيق التكامل بين د ميكانزمات الضبط ، القائمة فى النسق الاجتماعى ، الأمر الذى معه يودى للنسق وظائفه بطريقة ديناميكية فعالة .

ووفقاً لآى تصور أو خيال سوسيولوجى لآى فرد من أفراد المجتمع ، يكون «العنصر السيكولوجى» هو العامل الأساسى والحاسم فى دراسة «الاعطاء والأنساق الاجتماعية» ، تلك التى تستند إلى وظائف «الرجال» و«الواقف» و«ميكانزمات القوى الدافعة» بالإضافة إلى فهم البناء والنظم وماضى الثقافة ، بهيئتها المختلفة التى تضم القرائن والتقاليد والمعايير والقيم .

٥- والتقدم الحاد الذى يوجه لنظرية باروسوتر الوظيفية ، إنما يشمل فى أنها نظرية لا تقوم على «فرضيات» ، ولا تقدم لنا أية تنبؤات ، وإنما هي

(١) C. J. H. Percy., Modern Social Theory. London-1968.

(٢) (Gouldner, Alvin Modern. Sociology., An Introduction to the Study of Human Interaction, U.S.A. pp. 1963. 107-122.

نظرية سرديّة ووصفيّة بحثية ، وليست بالنظرية التفسيرية للشكالة (١) .

ومن الانتقادات للوجهة إلى النزعة الوظيفية البارسونية ، أن كل نسق اجتماعي كما يذهب الإطيقيون هو موجه بالضرورة توجيهاً هادفاً ، حين يتجه نحو إشباع حاجاته ، وتدعيم وجوده . فأكد إيسنرازه ، وهذا يعني في نفس الوقت أن كل أجزاء النسق لا تلائم بالضرورة مختلف الحاجات التي يسمى النسق إلى إشباعها .

ومن الخطأ أن نقول مع الوظيفيين ، أن تساند الأجزاء هو أمر مطلق ، فالتمسك أو التمسك ليس أمراً مطلقاً ، حيث أن هناك بالضرورة درجات مختلفة لأنماط التمسك الوطني .

وحين يوصف أي نمط من الأنماط بأنه وطني ، لأنه يسهم بصفة عامة في تدعيم النسق ككل ، فإن مثل هذا الوصف يعتبر من قبيل « التفسير Tautology » . ذلك لأن كل أجزاء النسق مساندة ، وتسهم في تدعيم الكل ، وهذا لا يقدم لنا شيئاً جديداً (٢) ، حيث أن هناك اختلافات واضحة في درجة

التمسك « degree of interdependence »

عقوب النزعة الوظيفية في التنظيم :

ومن الانتقادات للشبهة للنزعة الوظيفية هي أنها « نظرية أيديولوجية » ، تتمسك على منبج البحث في الدراسة السوسيولوجية ، حين تطبق وجهات النظر المحافظة Conservative فحسب ؛ مع استبعاد الجوانب الثورية والتنموية

(١) الدكتور محمد طالع بحث الرأب النظري في علم الاجتماع المعاصر دار الكتب العلمية ١٩٧٨ ص ٢٨

(٢) أنظر الانتقادات التي ستعاملها في النظرية الوظيفية د. بارسونز في الفصل الثاني من كتابها « تطورات مستمرة في علم الاجتماع » الميك للنسبة طبعة ١٩٧٩

لأنها « جوانب غير مرغوب فيها » بالنسبة للأفهام الوطنية المحافظ ، الذي يتوكل فقط على ذلك الانسجام السائد في العلاقات ، والتضامن الظاهر بين سائر الانساق الاجتماعية . ولعل النقد الحاسم للنظرة السوسولوجية البنيائية ، إنما يتمثل في أنها « اتجاه كلي النزعة Holism » ، ، وتلك نظرة فلسفية وإفراض « لاعلى » واتجاه نظري لا يستند إلى مصادر تجريبيه أو شواهد حقلية .

د - وختاماً ، هناك بعض الانتقادات المتعلقة بمسائل الصراع *Conflict* ، والتغير *Change* ، وذلك في مقابل ثبات المعايير *norms* وآلية أو عضوية التضامن *Solidarity* ، حيث تؤكد النظرية الوظيفية على وجود التضامن والثبات ، وتظل كلها من أهمية الصراع والتغير الاجتماعي ، وذلك لأنها نظرية « يمينية محافظة » ، تبني من قيمة التسامك والانسجام والتناغم *Harmony* ، من أجل تحقيق التضامن والتماسك بين سائر الانساق والنظم والعلاقات السائدة في البناء الاجتماعي . الأمر الذي أخفقت معه « النظرية الوظيفية » إلى حد كبير في تفسير ظواهر التفسير والصراع والتفكك ، تلك التي ينظر إليها الوظيفيون (١) على أنها ظواهر مرضية أو غير سوية *abnormal* ، لأنها تعيب البناء الاجتماعي بالاجتهال والاعتلال فتصبح من الظواهر المرضية للمجتمع المضاد للتضامن والتماسك والانسجام . القائمة حل نحو مسبق ودائم في البناء الاجتماعي (٢) .

ولقد أثبتت الدراسات السوسولوجية المعاصرة أن كل عظيم من التغيرات الاجتماعية . ليس استاتيكاً ثابتاً وإنما هو « تنظيم دينامي » حافل بمساخات

(١) *Geertz and Modern Social Theory.*, Heisenmann, Englewood, 1968, p. 58

(٢) *Ibid* : P. 56

من تهتات ، كما ينشب الصراع ويسود في بناء التنظيم من حين إلى آخر ، مما يؤكد على مدى حاجة كل تنظيم إلى تلك الصراعات والتوترات التي تعمل في أحشائه ، فيصبح الصراع تنظيما ، كما يكون التوتر هو الآخر حاجة ضرورية من حاجات التنظيم الداخلي لأي بناء اجتماعي ، يخضع لظروف اقتصادية وعسكرية وثقافية من خارجه . كما يخضع داخليا لواقع تنظيمي دينامي متغير طبقا لتوزيع القوة أو السلطة ، داخل إطاره نفس الاقتصادي ، أو تنظيم ديني ، أو بناء ثقافي ، أو تطوير سياسي ، فوري أو ثوري (١) .

وإذا ما عدنا ثانية إلى النظرية الوظيفية وبخاصة عند بارونز ، فلسوف نلاحظ فوراً مدى تأثير النزعة البارسونية بمواقف وتفسير علم النفس ، ولم يضع « بارسونز » في اعتباره ذلك « الكل للتكامل » الذي يؤلف بين حالات الفرد ومعايير المجتمع ، ولم يلتفت إلى ذلك « التركيب الفريد » الذي يجمع بين الانسان ومجتمعه . فليس الانسان كائناتاً منعزلاً ، وكأما ألتي في هذا العالم ، وإنما يعيش الانسان في أسرة ، ويخترط في زمرة ، وينتقل مدفوكاته ، من خلال احتكاكه بالآخرين .

وقد خلط « بارسونز » إلى حد كبير بين أنظار ماكس فيبر ، و « كارل ملوكس » ، في تركيب متناقض ، يؤلف بين حكم قيمة Value ، ودور الصراع ووظيفته ، حيث جمع « بارسونز » بين حالة القسر والاجبار والاقترام ، وبين حالة التنهد والتفرد والثورة ، وقد يكون « التنهد مرضيا ومثلا » حين

(1) Weber, Max, The Theory of Social and Economic Organization trans. by Henderson and Parsons, Glencoe 1967. p. 120

وتؤرخ الاعترافات بانتشار جرائم العنف العنصرى ، ويسود القتيب وهضم
الاضباط . أما التنوير التطبيعى ، فهو تنوير ديناميكى محلى وهضمى ، يعمل على
« تنمية التنظيم » ، وتطوير البناء ، وتطهير جيوب الاعتراف ، وتطهير جيوب
القيم وتسيب الضوابط .

وقد كشف « رالف دهرندورف » (Ralf Dahrendorf) (١) فى كتابه :
« الطبقة والصراع الطبقي فى مجتمع صناعى » Class and Class Conflict in an Industrial Society من أوجه القوة والضعف فى نظرية پارسونز ، وتناقشته
الطبقة النشطة والقوة فى ضوء الكتابات الماركسية ومن زاوية بدلة لمواقف
« ماكس فيبر » Weber ، أما « جون ريكس » John Rex ، فى كتابه : « للشركات الرئيسية
النظرية السوسيولوجية » (٢) فقد وجه للكثير من الانتقادات والاعتراضات ازاء
النظرية البارسونية ، وأشهرها أنها نظرية تصدق فقط على المجتمعات الصناعية
دون غيرها من سائر المجتمعات والثقافات للثبات (٣) .

(١) « مرجعون ذكر كتابه هنا تحت عنوان : Key Problems of Sociological theory »
وله كتاب إلى أمة القوية الدكتور محمد الجوهري وآخرون

2- Ibid, P 197

٢٩٧) خذنا (مرفوضون) فى كتابه « عناصر من مجتمعات ما بعد الرأسمالية » ونجأ بالفرقة
السياسية ، وقد انخرطت فى « conflicts » إلى صفتها نظامياً ، « صفة الصانع الطيبة »
ومن صفة « بين الطبقات » ، تبدأ بذلك « فى العالم » « نهاية الأجلية ليد » - « بسندنية
الرجل الذين « جعلوا » « الخصائص الرأسمالية داخل إطاره » « أحوال ربحية » « كمال
القيمة الملموسة » « وتطابقها » « وهو » « من » « ما » « استمر » « وهو » « أعزب كبرى
القيمة الملموسة » « الخصائص الرأسمالية » « صناعية » « أمراً ضرورياً » « فى » « وأخيراً » .

فلقد لفتت «بارسونز» إلى دور «الصراع» داخل إطار المجتمع، وخاصة الصراع الطبقي Class Conflict و يتحقق هذا النمط الاجتماعي إلا في المجتمعات الصناعية، حيث توجد الطبقات الاجتماعية التي تجمع فيها بيننا أهداف جمعة Collective goals، تصدر عن مجموعة للشاعر والأمال التي تعبر جميعاً عن ثقافة مشتركة Common Culture. «يعني أن السمة الرئيسية للنسق الاجتماعي في المجتمعات الصناعية، هي وجود ظاهرة للصراع البناء Structured Conflict. أو «الصراع التنظيمي»، فقد يكون للنسق في مسير الحاجة إلى التغير في سائر تركيباته وأجزائه، وهنا يصبح «التنظيم» تطبيقاً يقوم بوظيفته الضرورية داخل إطار تنظيم النسق الاجتماعي فقد يكون «الصراع» مرضياً مثلاً، حين يعمل على تفكك البناء، وتحلل التنظيم، وتغاضل النسق الاقتصادي. أما «الصراع التنظيمي»، فهو «صراع جيد» أو رشيد، يعمل على فضايل التنظيم، بتطوير مراكز التنظيم القديم وتغيير أدواته وعلاقاته. يعني أن الصراع يكون تنظيمياً من أجل «تتبع» التنظيمات القديمة، وتطويرها بدخول الأشكال التنظيمية الجديدة.

ومن الناحية التنظيمية، نجد أن إدارة التنظيم، هي جهاز جبري ضروري

«وتحارب طبقة الثقل «الهيرجيز» بالتصراع البروجوازية والشيعة أمام سيكها الثغافية، واليهج بكل مكنه، والبلديات للتوسط في محضات لوجيا». تتابع «مختبرات» اجتماعات الطبقة وطوبى لهم ولتسكن لوجيا وارتفاع مستوى المعيشة والأجور - الأمر الذي يفرض ضرورة المساهمة بالتأثير وتوسيع لقواته الديمقراطية؛ بعد أن خفت حدة الصراع». بفضل طائفة المعرفة في هفت أثناء نمو التكنولوجيا أو المكنج الحضري، حين يصبح لكل منها سائر المهام التي تقرأ على البناء الاجتماعي الصناعي، من تمسك وإعزل من تفتت وانفهاد وتكامل من ناحية أخرى.

حيث يساعد التنظيم الناجح على تطوير الانتاج وسرعة التنمية ، كما أن تعظم التنظيم وانفلاجه إنما يؤدى بالضرورة إلى تدهور وانخفاض الانتاجية بضياع الطاقات (١) . ولذلك يجب أن تعمل على تحرير الطاقات وانطلاق القوى من أجل دفع عجلة الانتاج . وعن طريق حل التناقض بين متطلبات التنظيم ، وبين امكانيات وطاقات الأفراد ، فهناك صراع أو تعارض بين « تنظيم حازم » ، يبنى للتوصل إلى دغايات انتاجية ، أو يريد أن يحقق أو يمتق نوعاً من الخدمات ، وبين أهداف الأفراد ومكوناتهم وطاقاتهم الانتاجية . قبل يخدم التنظيم تلك الغاية الانتاجية للشوذة ؟ ، أم أننا نحاول أن نصمم تنظيمًا يحقق احتياجات الأفراد ، بما يتناسب وقدراتهم ، حتى « ولو كانت هزيلة أو هشة » ، تمرقل الانتاج وتزوجه من أساسه . في الواقع لابد من التوفيق بين التقيضين ، ورفع التعارض ، وحل الصراع ، بين أى « تنظيم إدارى » ومدى كفاءة أفرادهم وقابليتهم .

ومن أجل هذه للشكلات الاقتصادية الخاصة بالتغير التكنولوجى ، وبما يصيب التنظيمات للصناعة وما يطرأ عليها من صراعات قد تمرقل من الانتاج صدرت الحاجة إلى علم سوسىولوجى خاص ، بالتنمية ، ويقوم بحل مشكلاتها بتقديم ما يمكن من برامج واستراتيجيات ، لدفع عملية التطوير الاقتصادى ، وترشيد الافئاق وعلاج ماقد يطرأ من مشكلات لدى القنبوات الاجتماعية . و « الثغرات الثقافية » .

(١) دكتور عل السلى : الادارة المصرية ؛ رؤية جديدة المبة المصرية العامة للشكل

الفصل الثاني عشر

كيف صرنا الدابة إلى عالم التنمية ؟

- تمديد
- مشكلات التنمية
- ما هي أم معوقات التنمية
- بلاء التنوير
- الطعام لكل فم
- تنمية دول العالم الثالث
- تصنيع الدول النامية
- عاصمة

تمهيد :

لقد وقعت الدول الصنيرة والمجتمعات الفقيرة ، في حيرة ، حين حاولت في ممة وعزم تطوير ابيئها الاقتصادية . فظهرت الأزمات ، وتعقدت ولتحتكت مع تهمدم التكنولوجيا ، ووطأة التصنيع ، وظهور مشكلات الصناعة برما يجهم عن كل ذلك من عرء عاتقة ، وضغوط قاصمة النمو . . بالإخافة إلى تلك الأزمات التي تمنع من انطلاق الطاقات الذكائية . وقد يروق ، والفقر ، وانقصار البعالة نوبة للزلازل موضح التحول ، حين يجد كل ذلك من قدرات الانسان على التطوير والتفوق والفاعلية . ولكل هذه الأسباب الاقتصادية والوسيلولوجية والتكنولوجية ، ظهرت الحاجة إلى علم تنمية المجتمع . .

فلقد حدثت التغيرات الاجتماعية الهائلة ، التي كشفت عن تناقضات حادة وواضحة لكل ذي عينين ، والتي متأصلا من تلك النتائج التكنولوجية المريعة ، والتطورات الاقتصادية ذات القفورات الضخمة ، كتيبة حتمية لذلك التحول الصناعي للذمل ، نظراً لادبوع حضارة التصنيع ، والانتشار للبكرة *Automation* وتهمدم الآليات ونشأة المجتمعات المتحددة التي أخذت بالتنظيم الصناعي ، وصاحبها في نفس الوقت تنهيات جومرية ، طرأت على عتلب الخدمات ، في ميادين الصحة والتعليم والإسكان .

وكان لا يتعلم عناصر صناعية حديثة تنزرو ثقافات تقليدية رد فطلياً الايديولوجي الحاد ، كما كان لدخول وطأة تكنولوجيا متقدمة وأساليب تقنية لآلترسم ، في أبنية إجناعية بسيطة ، مداعفا في ختلة تنظيمات لصناعية والاقتصادية ، وفي تنوع الممارات الرأي بين الناس ، مع تحول أصحاب الفكر ،

وتبدل طرق الحياة ، الأمر الذى معه تهتز اساق الثقافة ، ومضطرب الجوانب البيولوجية ، وتزعزع عادات فكرية ومعارف قديمة ؛ مما يؤدى الى النهاية الى تدمير شامل للمواقف الاجتماعية بمرتها وما يدور فى مختلف مجالاتها من أنماط السلوك ، كنتيجة مباشرة لما قد ينشأ ويظهر من المشكلات الجديدة التى قد تعجز عن إعادة التنظيم الاجتماعى والصناعى ، بشكل يتناسب ويتكامل مع دقرو العناصر التكنولوجية الجديدة .

وبدخول التكنولوجيا والتوسع فى التصنيع ، تنهد مظهر للعادات والتقاليد . مما يؤدى الى تبدل وتحضر الانسان القروى والبدوى ويكون لذلك جذبه فى حجم الأسرة ، وارتفاع مستوى الثقافة ودرجة الفهم ، بفضل نشر التعليم ، وقلة الأفكار النبية ، وازدياد الإيمان بالعلم واستخدام الأجهزة والآلات وظهور التنظيمات الجديدة التى تحدد المراكز والأدوار وتضع المهام والمسؤوليات ، وتفرض السلطة وتظم العمل على نحو رشيد متكامل ، حتى يتخلص المجتمع من هبوط مستوى الحياة ، حين يزداد الانتاج ، بالقضاء على التخلف الاقتصادى وإنهاء حالة التبعية الاقتصادية .

وفى ضوء هذه المقدمات كانت المجتمعات التقليدية فى ميس الحاجة الى التنمية ، development والبراسات التنموية فن « أجعل إعادة بناء المجتمعات » ، ظهر علم اجتاع التنمية ، حتى يتمكن علماء الاجتماع وخبراء النفوس من أن يدرسوا الآثار الجانبية للتصنيع ، عن طريق مشروعات وبرامج التنمية فى كل مجالات التكنولوجيا الحسنية والتقوية ، بالانتفات إلى السكافية الانتاجية ، وتمرينات العمل واعداده مراكز للتدريب ، لدراسة مختلف التخصصات فى كافة المهن والأعمال .

كل هذا من أجل مواجهة الزيادة السريعة في إقوال الصناعات والسكان
والاجتماعي ، إلى جانب تعدد مشكلات التنظيم في البناءات الصناعية والاقتصادية
القائمة في المناطق الحضرية والقرية ، حيث يؤدي التطوير الصناعي أو للزراعة
الاقتصادي إلى تنهات صاعدة داخل بناء القيم واتجاهات الرأي العام ،
فتتهدد أنماط السلوك وتبدل النظام العائلي ، وتفكك العلاقات الاجتماعية .
فنحن من أجل رفع مستوى المعيشة في حاجة إلى تنمية اقتصادية والجدد
من وطأة التكنولوجيا ، ومن أجل حل مشكلات التصنيع في حاجة إلى تنمية
اجتماعية .

بمعنى أن " التنمية " على المصوم ، هي " برنامج عمل " من أجل التكافل
الاجتماعي ، وهي " مخطط منظم لحماية المجتمع من اضطرابات التغيرات الاقتصادية
ومشكلات التطوير الاجتماعي .

وهنا يتحتم علينا أن نقاسم ، عن الفروق الجوهرية التي تميز التنمية
الاقتصادية ، عن التنمية الاجتماعية ، وعن طبيعة العملية التنموية ... ماهي ؟
وكيف تكون ؟

في الرد على هذه السائل نقول ، إنه نظراً لوجود مشكلات اقتصادية ،
مثل عجز الانتاج الزراعي ، وهبوط مستوى الحياة ، وتناقص الدخل
القرية ، ومع ازدياد التضخم السكاني الرهيب ، تضاعفت نسب الاستهلاك
ومستلزمات على نمو الانتاج واضطراب سرعته . فلماذا فعل " حين تتعدد الأزمات " ؟
التي تتطلب العلم ، بينما الأيدي عاجزة ولا تعمل ؟ وهذا هو السبب الحقيقي
في تعطل نمو الحضارة ، وتدهوره ومن هنا نحضر الحاجة إلى عملية تنمية
الاجتماعية .

ومن أجل إشباع الحاجات الاقتصادية وتطوير الجهاز أو لنسق الاقتصادي، لتحقيق عملية التصنيع، انتهت الأذهان نحو رفع مستوى المعيشة عن طريق الصناعة إلا أن التصنيع عنة لها وطأتها إلى مما تخلخل الاتفاق الاجتماعية، فتحول والتبدل، وهذه النتائج القوية ظهرت حاجة أخرى ماسة إلى خطة أخرى لاحقة، لعملية التنمية. فالأول تنمية اقتصادية، والثانية تنمية اجتماعية.

ولحل مشكلات التنمية عقب الاقتصادي والاجتماعي، ظهرت الحاجة إلى علم تنمية المجتمع، يتم بكل مشكلات التنمية على العموم. ويحاول أن يضع البرامج وللشروعات الاقتصادية والاجتماعية الخطة، لاستثمار للوارد الطبيعية والبشرية من جهة، ولتطوير حياة أفضل طبقاً لثقافة اجتماعية هادفة، ونظم تربية مقصودة، من جهة أخرى.

ولكن... هل الصناعة هي غاية وهدف لكل تنمية؟

في الرد على هذا التساؤل، نستطيع أن نسوق مثالا واضحا من دول العالم الثالث، فبالنسبة إلى هذه الدول التي حصلت حديثاً على استقلالها القياسي؛ أصبحت التنمية هي هدف مشترك بين سائر هذه الدول، ولقد بقيت المجتمعات الزراعية البحتة، التي قدر لها أن تعتمد فقط على زراعة المحاصيل الأولية، لكي تقوم بعدما بعملية تبادل تجاري، بالحصول على سلع استهلاكية أو حتى صناعية، هي مجتمعات متخلفة، وتحتل دائماً مركز التنمية الاقتصادية، في النسبة لغيرها من الدول النامية والمتقدمة.

ولقد كان التصنيع، هو الحل الثابت والملمس للمشكلة، إلا أنه أصبح مصفاً معوقاً، يتحقق على حساب القرى والمناطق الزراعية. مما أدى إلى اختلال

أوضح في خطط التنمية الزراعية وعلى الرغم من أن الصناعة التي تقوم على أقاضى الزراعة ، هي صناعة خاملة وقاشلة .

يقتضي نجاح « بناء مصنع » وسط منطقة قروية متأخرة إلى الكثير من الشروط الخاصة بقيمة البيئة . *Espdevelopment* : وإعداد هذه المنطقة القروية ، لكي تصبح مؤهلة أو معدة ، لاستحداث التصنيع ، وقبول أى منتج اقتصادي أو تطوير اجتماعي لاحق (١) . ولا يمكن أن تتجشع مشروعات الصناعة الناشئة في منطقة من المناطق ، إلا بعد فترة طويلة من التنمية وتجهيز اللايكولوجية للبيئة ، وذلك لتطوير هذه المنطقة وإعدادها - وإلا فشل هذه المشروعات الصناعية ، وظلت هذه المناطق مختلفة عن الركب ، وبقيت على قرحها لأنها بدأت بعملية فوق طاقتها . فلا بد من أن تسبق المشروعات الصناعية والاقتصادية ، برامج سابقة لتنمية المنطقة ، حتى تحل نتائج هذه المشروعات من مخاطر ونفقات لتبديد الطرق ، وتيسير وسائل النقل ، وتسهيل للاتصالات السلكية واللاسلكية من أجل « بناء كيان إتصالي وصناعي ناجح » .

وعلى الرغم من ذلك فقد أثبتت التجارب والدراسات أنه بدون أساس وراعى متين ؛ لن تتمكن الدول النامية من ضمان تنفيذ نفسها وإعداد صاقلتها بالموارد الأولية . فقد ثبت أن التنمية الصناعية المروية التي وقعت في البرازيل ،

(١) هناك مسح قبلية للتنمية - *Survey before development* ؛ وهي ضرورة لإعداد المنطقة لمشروعات التنمية ، وهناك مسح أخرى مبدئية للتنمية ، وغرضها التفتت باستخدام عمليات الوصف والملاحظة وجمع المعلومات وتسهيلها لمرقة نوع ومصادر التطوير الاقتصادي ، ودراسة حجم التبع التي طرأ على البناء الاجتماعي . بالإضافة إلى وجود مسح هدية ، ونمري حتى فترات مبكرة ، لمرقة مدى تقدم أو تضرع للزروع ، مع فهم المخاطر القروية المتوقعة اممكالات التي قد تلتها .

كانت مضمومة بأعمال الزراعة التي يعمل فيها ما يبادل ٧٠٪ من السكان لتنمية
منظم إقتصادياتها (١).

ولذلك تم عملية التنمية على نحو رتيب منظم، وفقاً لبرامج صلبة، وخطوات
خامسة. ولعل أكبر للذلات التي تواجه كل الدول للتخلفة والتقليدية والثابتة
والثابتة. والثابتة هي مشكلة التضخم السكاني، التي لا يتوازن مع موارد
الاتاجيل والمصادر للدخل القوي، الأمر الذي يفرض على هذه الدول تنشيط
للذخائر، وتجميع، يترك الفرصة لابتلاع مخدرات الريف وأعمال نظام
التأجيل على الحياة، ورفع مستوى الكفاية بين موظفي البريد والبنوك، وتشجيع
الفتح على ترشيد الاتفاق، وإقلاعه عن عاداته الاقتصادية السيئة في إغناء
نومه، وإكتناز مخدرات (٢). ثم تحويل هذه للذخائر إلى مشروعات
للاستثمار والتضخيم، فالأعمال هو أساس الاستثمار، وهو أساس التنمية، وتدريب
رأس المال اللازم للتنمية الاقتصادية، ولايجاد عمل لكل من لا يعمل، وتدريب
الأبدى العاملة وغير للدوبة، ورفع الكفاية الاتاجية بالاهتمام بالمهارة الفنية
للشخصية.

وبهذه الطرق للتنمية الضرورية يمكن خلق القدرة الذاتية وتطوير
جوهرها من أجل خلق موارد وقوى ومصادر للاستثمار والتنمية داخل

(١) جانسون، أ. م.: للمشروع العام والفنية الاقتصادية، ترجمة عبد أمين إبراهيم
مراجعة الدكتور نواز حليم عوض، دار المصرية للطباعة والترجمة - وجبة ١٩٦٥
ص ٢٦.

(٢) أن فكرة « بنك القرى » التي انبثقت في جمهورية مصر العربية، تحق ولها
اقتصاديا بين أفرع الفلاح من مخدراته، جعله رقبوس أموال الملاكين إلى طاعة عامة
ومعركة وبلا من سكوتها وغيرها.

للمجتمع ، عن طريق الاستخدام الرشيد لطرق الكفاية والتدريب والتعليم بقصد ،
تغيير جوانب تقليدية ، ، وتطوير ما هو قائم ، باستغلال الامكانيات والطاقات
واستحداث القيم الجديدة ، وصنوع الأبعاد والأنساق الاجتماعية ، خلق
للناخ الثقافي الذي يشجع على الجديد ودعم الجديد ، تنمية الشخصيات
والكوادر ، والقدرات الابتكارية الخلاقة (١) . كل ذلك من أجل القضاء على
أسباب التخلف الاقتصادي ، وإزالة موقات الترو الحضري ، عن طريق مد
والتهجوات الاجتماعية والثقافية ، ، مع خلق البرامج للواجهة التعليمية ،
لما قد ينجم من مشكلات أو يظهر من موقات جديدة . وعلى هذا الأساس ،
صدرت برامج التخطيط من أجل إعادة بناء المجتمع وتجديده ، ومن أجل دعم
النسق التكنولوجي وتطوير أساليب الإنتاج ، مع توافر القدرة الذاتية على اكتساب
الجديد ، والتكيف مع ما واکب الإنتاج ، مع ترشيد كل إنتاج ونفقة . فمن
أجل حياة أفضل ، صدرت برامج للتنبيه في المجتمعات للكتابة بغايات بشرية
منهم ، لإعدادها بإمكانات اقتصادية لرفع المستوى للمعيشة والاجتماعي
والثقافي .

ولقد صدرت برامج التخطيط والتطوير والتوجيه والارشاد ، من أجل
تحقيق التكامل ، وتخفيف حدة التنميع ، وآثاره السيكولوجية والاجتماعية ،
نحيث يظهر التمازج واضعاً بين قيم ومعايير مجتمع تقليدي مختلف ، ومجتمع
ضامن متقدم أو مستحدث فلا يحدث التوافق من طريق الاحتكاك الثقافي
cultural contact وبفناء التنسك وعدم التكامل ، نتيجة لصراع القيم
وتعارض أنماط السلوك . وتبين أساليب التفكير . الكبر الذي يتجسد بها

(١) د . نبيل الجاوي . الثانية وتحدت الحضري . طبعة الجيلاري ١٩٨٥ في د

صاحبه قديمة ، لكي تظهر إلى الوجود الاجتماعي ما يمكن أن يتكيف معه من
الجديد من القيم والمبادئ (١) .

ويؤدي التصنيع إلى زوال أو تحطيم أندق تقليدية بأسرها ، حيث يبدأ
الاضلال ، ويسهل التفكك في غلبه التنظيمات الاجتماعية Social organization
كما يطرأ عدم التكامل في سائر «البناءات Structures» (٢) .

مشكلات التنمية :

لا شك أن هناك الكثير من المشكلات التي نجمت عن تطوير

1 - Schneider, Engene, Industrial Sociology, Mc Graw
Hill New york 1957.

(٧) هناك تريبلاز وثيق يربط بين «البناءات structures» و «التنظيمات
organizations» إلا أن البناءات تدعى بالتنمية والاستراتيجية . أما الثانية فقد يتغيرها التغير
ويعود فيها الصراع « وقد يكون التغير من أجل التنظيم والحلله ، ومن ثم يصبح التغير
تطلباً ، وقد يكون الصراع أهدافه التكاملية من أجل إعادة التوازن .

أما الفرق الحاسم بين «البناء» و «التنظيم» فيتمثل لنا حين يكون «البناء» هو مجموعة
من العلاقات والماهير للنظمة لملوك الأخصار ، كملفه الموجع بزوجه ، أو مثله ذلك أو الحاكم
وعاين إلى القضي بالقيم . أما «التنظيم الاجتماعي» فيتمثل بترتيب النشاط الأشخاص
وأدوارهم roles داخل التنظيم . فداخل بناء للمنتج هناك تنظيم organization
للأدوار يقوم به المدير والمفتد والملاحظ والممثل . ويتم « الجيش » من حيث هو « بناء
structure » إلى قايي « و فرز » - لواءات - و « كتاب » و « جامعات » . أما الجيش
من حيث هو « تنظيم organization » فيتم إلى عدد من الأدوار Roles التي تقوم بها مختلف
الوحدات العسكرية . وترتيب أوجه التماثل التي تقوم بها « حاشا الجيش » حواسيد و « ملقيم »
و « إرائه » وهي رتب مميزة لأدوار كافة الضباط والجنود ، ولأداء مناسط مهمة سواء في
الحرب أو السلم .

الاقتصاد والتنمية والتكنولوجيا ، فصدت الحاجة التي أدت إلى ضرورة قيام علم تنمية المجتمع ، نظراً لوجود الكثير من المواقف التي اعتادت عمليات التنمية الاقتصادية ، وما يتبعها من مشكلات ، أو ما قد يصاحبها أحياناً من توترات تحتاج إلى عمليات أخرى تتعلق بالتنمية الاجتماعية .

والأساس هو التنمية الاقتصادية وبرامجها السابقة ، ثم تبعها تنمية اجتماعية وبرنامج لاحق ، نظراً للتغير الاجتماعي الناجم عن التطوير الاقتصادي ، حيث أن التنمية التي يطرأ على المجتمع ، هو بالتنمية ثمرة نمو اقتصادي ، ونتيجة حتمية لاستراتيجية خطة التنمية الاقتصادية .

ولذا كانت التنمية الاقتصادية ، تهدف أساساً إلى زيادة الانتاج ، بتوسيد الاتفاق ، ورفع معدلات الدخل الفردي ، وإستغلال فائض الاستثمار بأفضل الطرق الممكنة لزيادة الدخل القومي ، فلذا فلنخطئ أن التنمية الاجتماعية ، إنما تختلف تبعاً لآثارها نتيجة لاحقة لخدمات سابقة ، ترتبط بالتقدم الاقتصادي من جهة ، وزيادة الدخل القومي ، الذي يؤدي بالطبع إلى ارتفاع معدلات الدخل الفردي ، من جهة أخرى .

ولذا أن العامل المؤثر في نجاح أو فشل التنمية الاقتصادية ، لا يستند كثيراً من تحقيق هذا النظام ، إلى اقتصادي بل مجرد زيادة الدخل الفردي للفرد ، حيث ينبغي أن تشمل خطط أجرة الدولة ووسائل الاعلام على تطوير العامل والفلاح ، عن طريق تحسين وزيادة الوعي ، حتى تفرق شخصيته ويتذب سلوكه ، بما يسيل على الفردية ووجه الإنتاج وترشيده إلى أفضل نفقة ممكنة . وحتى يستطيع أن يتفق العامل أو الفلاح دخله الخاص عن طريق ، أفضل اتفاق ممكن .

ومن المشكلات الأساسية في عمليات التنمية ، ردود الأعمال الاجتماعية الحاجة

• والتصنيع ، واضرار التكنولوجيا حيث يحدث الخلل وعدم التوازن في غيط الأسرة ، ويفشل الضحك في المائدة ، كما يبدأ الاحملاق لتسرب إلى كافة التنظيـلات الاجتماعية . بالإضافة إلى الاعتـراب *alienation* ، حيث تمثل الآلة ومعدات الانسان ، وتدمر طاقاته الابداعية ، كما تؤدي نظم التصنيع والبيكة *automation* إلى تفعيل الأعمال الآلية ، مما يؤدي إلى القضاء على للمهارات اليدوية ، وانتشار البطالة ، وتلوث البيئة *pollution* ، كالتلوث والبحار ، حين تنخلص التكنولوجيا من بقاياها ، فتفرز إفرزاتها وفازاتها كـ سمم الجو وتهدد المواء (١) .

الأمر الذي صدرت منه دراسات خاصة بتـمية البيئة *Ecodevelopment* من أجل حل مشكلات التكنولوجيا ، ووضع الخطط والبرامج ، من أجل التناقص والتكيف ؛ وإيجاد حالة صحية رشيدة من والتوافق بين الانسان والبيئة الصناعية ؛ بإزالة كل العناصر السامة من التلوث ، في التجمعات الحضرية والمناطق الصناعية .

ولكل هذه الأسباب مجتمعة ، يخطط علماء البيئة *ecologists* من أجل تنمية الرشيدة بتطوير البيئة ، وتحسين المرافق ، ونظم الصرف الصحي ، والأمن الصناعي ، - يمكن المجتمع من مواجهة مشكلات التكنولوجيا بطريقة صحيحة ونظيفة ورشيدة .

ويجلب التصنيع اعدادا هائلة من عمال القرية ، من طريق ومركبة العمل *Labour mobility* ، الذي يمثل في تلك الحركة للتسيرة والقفزة للمناعة

(١) د . د . امجد سليم ميدانة ، نمو نظام المصايد مالى جديد (في دراسة لثانياً التنمية والصندوق الاقتصادي ، والمجلات الدولية ؛ يونيو ١٩٧٧ .

من مناطق الدفع القروي ، إلى مناطق الجذب للقطري والصناعي . نظر الاقتصاد
الأجور ، وتوافر الخدمات ، يقوم هذا الحراك الدائم ، لعين العمل وفقاً
لاحتياجات الأفراد وللصانع والسبب الجوهرى في عمليات الدفع والجذب هو
سبب اقتصادى ، يتلوه في « ارتفاع الأجور وتوافر الخدمات » ، مما يؤدي إلى
الإنتاج amalgamation ، بين تجمعات ثقافية متباينة . وقد تجسم عن ذلك ،
عمليات إجتاهية مضادة كالصراع والتعارض وعدم التكيف ، وقد تصاحبها عملية
أخرى ، تسمى في علم الاجتماع الثقافي بالتهيش Marginalization الذى قد يطرأ
على سائر البنيات التقليدية للمستعدة ، والذى يحدث عن طريق الاحتكاك الثقافي
للمستمر ، ولما ينجم عنه بالضرورة ، من ظهور « البنيات الهامشية Marginal

٢ - Structures

ومن هنا صدرت الحاجة للامساك إلى عمليات التثنية للمستمر من أجل التكيف
وسرعة الاندماج ، وتطوير الفلاح ، وتثنية المجتمع الريفي ورفع مستواه .
ونظراً لتعدد مشروعات التنمية الصناعية في جمهورية مصر العربية ، ظهرت الكثير
من المناطق الهامشية ، التى تسمى بالحضرية (١) Urban تلك التى تنتشر على
هامش المناطق القروية الناحية لقطاعات الصناعة ، كما هو الحال في كفر الدوار ،
والخطة الكبرى .

(١) الحضرية Urban : اصطلاح استحدث اصطلاحاً ، إذ لم أجدهم في المصطلحات العربية
ما يناسب أو يطابق الكلمة الانجليزية Urban ، التى تنجم إلى تلك الجينات التى هيئت على
حاشى القري والمواقر . وذلك لما لفت عليها اسم الجينات « الحضرية » وربما كانت
مشتقة أصلاً من اصطلاحها الانجليزية Urban . من عملية دمج كلمتي « urban » و « حضر »
حضر . وكلمة « حضر » تعني زعيم : فكل من حضر هذا المصطلح استعمله كلمة حضرية
وهي كلمة مشتقة من عملية دمج كلمتي « حضر » و « قرية » .

ماهى أهم هوقات التنمية ؟

لقد كان د إميل دور كايم ، يردد القول بأن علم الاجتماع لا ينادى أو يحطج إن ساعة واحدة من الغناء ، إذا لم يساعد على حل للمشكلات الاجتماعية . سبق كثير من المجتمعات هناك حاجة ملحة إلى التنمية ، لحل مشكلات اقتصادية واجتماعية . وذالك حين تنخف تكنولوجيا الزراعة ، وتسلط نظم الادارة ، بينما تتركأ نظم التربية ، وتفتقر عملية التعليم ، ومع بداية نمط الحياة وحياته ، يعم الكساد بما يمنع أو يقلل من إنتاجية الصناعة . ومع تخدم التعداد البشرى ، يظهر الفقر ويطوى التوس نفوس الأفراد ، وتنخفض الأجور ، وتفتقر البطالة ، بينما تقل للوارد وتتهبط معدلات الدخول ، كل هذه مشكلات أساسية تواجه عملية التنمية .

ولا تقتصر مشكلات التنمية على الدول الصغرى والمجتمعات التقليدية والمتخلفة ، فهناك مشكلات التنمية أيضا ، خاصة بالدول الغنية والكبرى فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا نهند إختلافا واضحا فى معدلات التنمية ، تبعا لاختلاف الولايات الأمريكية نفسها . طبقا لطبيعة الموقع واقتصاديات الية ، ومن المعروف أن ولايات الجنوب تلك متخلفة إقتصاديا لفترة طويلة ، عن ولايات الشمال ، وبخاصة بعد أهوال الحرب الأهلية فانتقلت أوضاع الجنوب وتختلفت عن إقتصاديات الشمال . إلى الدرجة التى معها أثبتت نتائج إستببارات وألغاء القنى أجراما الجيش الأمريكى ، كما سجلت الجداول الخاصة بمذكرة ركس York's Memoir ، على فوق بعض فئات من ذنوج ولايات الشمال ، على بعض فئات البيض من ولايات الجنوب (١) .

(١) ليدون ، ولاب جالانروبولو جالو أزمة عدم صيرت ، ترجمته محمد عبد الحليم
السكنية نصرية ، يربوب ١٩٧٧ م ١١٧

ولقد فسرت نتائج حقوق السود الشماليين في ولايتي أوماها وأيداهوا ، على البيض الجنوبيين في ولايتي كنتوكي وميسوري . بالرغم من ذلك ، فإن التناقض الكبير في الأراضع الاقتصادية ، ومستوى الأجور والمعيشة بين ولايات الشمال والجنوب .

ولقد أكدت الدراسات على وجود فروق كبيرة في التكلفة أو ، النفقة التعليمية ، الخاصة بالطفل الواحد ، بين مدارس السود والبيض في ولايات الجنوب . فهناك عوائق ثقافية فرضتها ولايات الجنوب كي تحب كعبة كاداه في وجه الطفل الأسود . كما أن الطفل الأبيض الجنوبي أقل حظاً في النفقة التعليمية ، من الطفل الأبيض الشمالي . على الرغم من أن البيض الجنوبيين أكثر حظاً في الرعاية من السود الجنوبيين .

ولقد قدر معدل أو متوسط النفقة التعليمية للطفل الأمريكي الواحد ، في سائر الولايات المتحدة ، بنحو ٧٤ دولاراً ، وذلك في عام ١٩٤٦/٢٥ . وفي نفس السنة بلغ متوسط النفقة التعليمية ١١٥ دولاراً للطفل الواحد في ولايتي نيويورك وكاليفورنيا ، بينما بلغت أقل من ٣٠ دولاراً في ولايتي ألاباما ولوكسماس .

هذا بالنسبة لبيض ، أما بالنسبة السود ، فبلغ متوسط النفقة التعليمية للطفل الأسود الجنوبي ١٧٠.٤ دولاراً في حين بلغت نفقة الطفل الأبيض التعليمية في نفس الولايات الجنوبية ٤٩٣ دولاراً . بينما قلت هذه النفقة إلى حد كبير في ولايتي جورجيا وميسوري فبلغت ٩ دولارات فقط للطفل الأسود .

ومن هذا المثال البسيط ، يتضح لنا الفرق الهائل بين مستوى التعليم

النال والجنوب اقتصادياً ، بالإضافة إلى وجود تميزات عنصرية ، وفروق في لفقة الطلبة بين البيض والسود في كل مدارس الأطفال ، كما أتت نتائج الدراسات أن نماير الطلبة ، ود حاجر اللون Colour Bar ، وقيمة الدخل الاقتصادي . كل هذا كان له رد فعله في تحديد حاصل ذكاء الطفل . بمعنى أن الوضع الاقتصادي للتلف قد يساعد إلى حد ما إلى انخفاض في القدرات الذكائية . وفي تقرير من قناة زنجية قدمت لإختيار ستافورد - وهي في سن ٩ سنوات وأربعة شهور . فأحرزت تفوقاً عارفاً في درجة الذكاء التي بلغت مدافق القيمة . وفُسرَت أسباب هذه النتائج بوجود مستوى طبق وفاق مرتفع تنبئ لقناة الزنجية ، في إبنه لأب أستاذ جامعي ، ولأم مدرسة في إحدى المدن الكبرى ، وهذه الحالة للتفوق ذكائياً . تؤكد لنا إلى أي حد تؤثر الطبقة الاقتصادية ، والرعاية التعليمية حين تدخل كل منهما وتتضافر كموامل مساعدة في رفع مستوى التحصيل الدراسي ، وزيادة القدرات الذكائية ، ونمو القدرات الفكرية . الأمر الذي أدى إلى ضرورة حل المشكلات الاقتصادية في ولايات الجنوب ، مع محاولة إنعاش وتنمية هذه الولايات اقتصادياً . ورفع معدلات الأجور . وزيادة لفقة الطلبة في سائر مدارس ولايات الجنوب .

وهذا مثال بسيط ، من أمثلة للمشكلات الاقتصادية والتعليمية ، التي تواجه الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . حين تقوم بعمليات تنمية الضرورية في مجالات تربية ، حتى يحدث التوافق الاقتصادي وعادة التوزيع في اقتصاديات تنمية والقرية ، بين سائر الولايات الأمريكية . هذا فيما يتعلق بمشكلات التنمية في سائر ولاية تكساس ، ويمكن إبرازها في ما يلي من الفقرات

التقليدية المختلفة في الدول النامية المعزى ، حين نقابل عن أسباب بطء التنمية ؟ وما هي أهم مشكلات الدول النامية ؟ فكيف نحلّ بالتنمية بتقديم الحلول وللتقدمات المحسنة ؟ وفيما يتعلق بأسباب بطء التنمية ، يمكن تحديد أهم مشكلات الدول النامية في النقاط الثلاث الآتية :

١ - بطء التغيير :

من الظواهر المألوفة في كل عملية تنموية لتطوير نمط إقتصادي متبع . ظهور أو انبثاق قوى أيديولوجية معادية ، لتعوق التغيير ووقف التطور . والامثلة على ذلك كثيرة من المجتمعات النامية والمتخلفة ، وحتى في الدول المتقدمة نفسها . ففي الاتحاد السوفيتي مثلاً ، قاومت نظم الملكية الخاصة ، وحوافز Incentives الانتاج ، ونظم الثروة . وكل ما يسود البناءات الأسيوية والمائتية من قيم وعصوبات وأعط . قاومت كل هذه الأوضاع القديمة وتعمدت ، ووقفت عية كأداء في وجه «قوى التغيير الثوري» ، لكي تتأول تعوق عمليات التطوير الثوري . تلك التي صدرت من قيادات ديكتاتورية ، وسلطات مستبدة ، فرضتها الدولة الشيوعية الناشئة (١) حين ظلمت روسيا نحو فرض القوة بطريقة استمت بالصرامة والقسوة . كما واشتهرت باستخدام أساليب عنيفة عرفت بالشدة والنصف ، عن طريق فرض الضغط والتعذيب لدفع عمليات التنمية الاقتصادية بفضل تحريك قوى هائلة وطاقات جبارة . وبالرغم من وجود هذه القوى الدكتاتورية المضاعفة والحركة ، كان التغيير الاجتماعي والاقتصادي بطيئاً منذ البدايات الأولى ،

(١) Fisher , Alex, Social change in Soviet Russia, New

مثل اليابان وفرنسا وحتى إيطاليا نجحت، بعد حرب جميعاً أشد حمة، ومضت،
 قد عانت هذه الدول وبذلك الكثير من الجهود من أجل تنمية تكنولوجية
 هائلة ومتقدمة، كما أنها سرية وعيقة ومستعرة. إل الجديدة التي ترفع
 معها قيمة، التي الياباني وللك الألمان، بصورة ملقة وواضحة في أسواق
 للال والتجارة. كما وتنافس في نفس الوقت الاقتصاديات اليابانية وللتجات
 الألمانية، أكبر معاقل التكنولوجيا للقدمة التي نرضها الأسواق الاقتصادية
 الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية، بما تنتجه مصانها ومؤسساتها المنفعة
 في كافة ميادين الإنتاج الصناعي والزراعي، بكل أشكاله كالإنتاج الثقيل والخفيف
 والمتوسط، بالإضافة إلى تراكم السلع في المجال الاستهلاكي، مع التقدم الهائل
 والتطوير المستمر في مجال الخدمات.

ب. ومن عوامل بطء التنمية في المجتمعات للتخلفة، انتشار الأمية والجهل
 وتخلف نظام الزراعة، وضعف وسائل النقل، ووجودة الطرق، وانخفاض
 مستوى الخدمات في ميادين الصحة والتعليم، وفي مرافق الإضاءة والمياه والكبارى
 والتلفونات وكافة وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية.

وكثيراً ما لا تتلام التكنولوجيا للستوردة، مع طبيعة الدول للثانية
 وظروفها. فتقف الأيدولوجيا كعقبة لإزاء. تكنولوجيا مضادة، لواقع
 المجتمع للتخلف، فليس كل ما هو متقدم فنياً وتكنولوجيا، يمكن استيراده،
 بل يجب ترشيد عملية الاستيراد، من طريق انتقاء أفضل تكنولوجيا ممكنة،
 تتناسب مع ظروف المجتمع، وتكيف مع ما يصلح له بانتخاب الأفضل، طبقاً
 لظروف البيئة وخطوات للتقاء. فن الأخطاء العائقة في استيرادية للتنمية،
 عدم استيراد الأفضل للمجتمع، حين تتطلع دول العالم الثالث، لتقدم نحو

«تكنولوجيا خضعت ومتقدمة» دون نظر إلى ظروف وإمكانيات «البناء الاجتماعي»
أو فهم القيم والقومات الاجتماعية الوطنية .

- ونظراً لوجود كل هذه للموقات والمشكلات التي ترضى إلى بطء التغيير
في نسق الاقتصاد ، ونقص وسيلة التنمية والانتاج والتطوير ، بدأت «الحجرات
التقنية الوطنية» في الهجرة ، وهي ظاهرة عامة وواضحة في سائر الدول النامية ،
حيث نجد عاملاً جديداً ينادي أيضاً على بطء التنمية ، ويشمل هذا العامل الجديد ،
في هجرة الخبراء والعلماء ، من العلماء والأطباء ، كما ويشأثر البناء الاقتصادي
بالضرورة ، ويصنف مستوى الاداء والخدمات ، بهجرة تقنيين وأصحاب الحرف
من الصناع والعمال للهجرة . فقد عمل «السلطان سليم» حين حاول تخريب
الاقتصاد المصري ، على قتل أصحاب الحرف ولهن اليدوية من الصناع وتقنيين
للمصريين إلى القسطنطينية . ونحن في مصر وفي كل الدول النامية ، ينبغي أن نضع
حداً لهذا «التخريب الاقتصادي» ، بالتخفيف من هجرة العقول والخبرة والأيدى
التقنية ، تلك التي تسمى في الدراسات التنموية ، بهجرة التكنولوجيا النينة
Soft-technology ، فينبغي أن نوقف هذا النوع من الهجرة باستئثار كل
الطاقات الوطنية والخبرات المحلية ، بدلاً من بذل الجهود والأموال للضائفة
لاستيراد مثل هذه الطاقات والخبرات . فالتكنولوجيا النينة أو الناعمة لها
ضرورتها وتطورتها في عملية التنمية ، وتقوم بوظائفها تماماً كما تعمل
وتتوظف التكنولوجيا الصلبة Hard technology ، في الاسراع بعملية التطوير
والتنمية .

ومن المشكلات المشددة التي يعانيها «خبراء التفرغ» في ميادين الصناعة
والتكنولوجيا ، مشكلة «الفترة الثقافية» حيث يحاول علماء الاجل

الصناعي والثقافي مد هذه التجربة أو الثغرة ولا ملامتي لاشهر الإنسان بالاعتراف
 allocation وعلاج ماينجم عن وطأة التصنيع ومحنة التكنولوجيا ، باقامة منظمة
 ثقافية ، تربط بين الإنسان وقبسه من جهة ، حتى يتوازن ، في عالم سريع التغير ،
 من جهة أخرى .

٢ - الطعام لكل فم :

علينا أن نأخذ مبدأ « الطعام لكل فم » ، وهذا هو أروع ملجأ به « الفكر
 الاشتراكي » ، كما أنه « مبدأ اقتصادي » ، يعتبر من أهم الأهداف التي بشرت به
 للدرسة للباركية الجديدة « في برامج تحديث المجتمعات وتطورها » . ولكننا
 ينبغي ألا نكم أفواه الناس بالطعام ، فيصبح الإنسان عبداً عاجزاً لتفتت
 وشوائه .

ولما كانت مشكلة « الحصول على الطعام لكل فم » ، مشكلة جوهرية ، تعاني
 منها مجتمعات متخلفة وتقليدية ونامية ، فقد أصبحت عملية « التنمية في ذاتها » ،
 عملية اقتصادية أصلاً تستهدف تطوير « التقليدي » ، والمتخلف ، في دنيا الثقافات
 والمجتمعات ، وتغيير طرق الإنتاج ووسائل المعيشة عن طريق « التصنيع
 والتكنولوجيا » . حيث تكمن المشكلة الحقيقية في تنظيم العلاقة التبادلية المتناقضة ،
 بين كثافة بشرية متزايدة تميز بها سائر المجتمعات التقليدية والمتخلفة ، وبين
 ندرة وصول الطعام لكل فم ، بانسحاب حلقات الإنسان الضرورية ، وبإعلان
 « الحرب ضد الجوع وبالكشف عن جيوب الفقر » ، وإزالة « جيوب المجتمع » ، الكلمة
 قديمة فوس الناس « ، ولا يحق كل ذلك إلا بتجديد إنتاج « السلوك » وتغيير القيم
 وال« إيديولوجيات » القائمة ، حتى تتحول النظرة إلى الحياة ، ويؤيدل مستوى التطور
 . level of aspiration

وهذه هي اللكسب السيكلوجية للتنمية بشقيا الاقتصادي والاجتماعي ،
 بالتنظيم للنظم وللوجه لكل ملعو مدروس ، حتى لا نعالج مشاكلنا

الاقتصادية بطرق إرجمالية ، أو تركبا سدى ، دون دراسة الظروف الطبيعية ؛
فهيها نتيجة أن « تخيير سيحدث طبقا لقانون التطور الطبيعي » . وهذا منطلق
يريد محكمة الحصول على الطعام مقيدا . ولذلك تواجه هذه المشكلة فحلاقة التخطيط
الاقتصادي ، لتقديم الحلول الملية والقنوية ، لذلك التعارض القائم بين زيادة
الإنتاج ، حين تتفوق عليها معدلات الاستهلاك ، الأمر الذي يتطلب حل هذه
« للمادة الصعبة » .

أ - فن أسباب « التقرء » والمجوع ، وه التلطف الاقتصادي ، حدوث نمو غير
متوازن في الاستهلاك على حساب الإنتاج ، حين يشجع « الإنسان الاقتصادي »
رغباه وحاجاته في نعم ، وما زال « الإنسان العربي » يقوم باستهلاك للمستورد
من السلع كالتبغ والطور ، وللتنتجات البسيطة كأدوات الطبخ والإبر
والسامر ، دون أن يبذل جهدا ، أو يقابل كل ذلك الاستهلاك بعمليات إنتاجية ،
بالرغم من وفرة الأموال الناجمة عن البترول المستخرج ، مما يعوق تطوير التنمية
ويستل التجهيل بها ، فيصاب البناء الاقتصادي بالخل .

ومن هذا المثال السابق ليس الإنتاج للعمل التصنيع ، بأسرع في حله وقوته
من استهلاكها كما أن عائد الكفاية للعمل لحركة النمو الاقتصادي ، لا يتوافق أصلا
نمط حياة لهم في إشباع الحاجات ، دون تخفف أو تخفف ، حين يطبع للإنسان
الاقتصادي تضيقه ويحقق رغباه الاقتصادية . ولا غرابة في أن تقوم - تنمية
غير متوازنة ، في المجتمعات المتخلفة ، نظرا لشدة الطلب والاستهلاك . ونظم قلة
للعروض .

« وعيظي » دالة التجهيل ، كي تتحدد تحت الأضيق والاستهلاك ، حين - يوصى

التفضيل الاجتماعي إلى الرائدة في الطلب على سلع جديدها، والميليات في استغلال
 التفاعلات والعلاقات، حثاها الاقتصادية وتفضيلها الخاصة. وليس
 التفضيلات الجمية هي مجموع التفضيلات الخاصة بالأفراد، بل يتأثر التفضيل
 الشخصي أو الفردي إلى حد بعيد، بتفضيل آخر اجتماعي، أو «طبق»،
 ويتسلسل نسق التفضيل بين «الضروري»، و«الكمال»، طبقاً لنوع الثقافة،
 وتدرج الطبقات. وسوف يصاب البناء الاقتصادي بالخلل، إذا ما اقتصرنا
 على تفضيلنا وإشباع رغباتنا، باستهلاك المستورد والاستمتاع بالسلع الحديثة.
 حيث أن النتائج من التفضيلات الصناعية، وما ينجم عن للشروعات الاقتصادية،
 بالإضافة إلى عائد رؤوس الأموال والكفاية الفنية والعملية، كل هذا لا يمكن
 تقديره بدرجة أكبر أو أسرع أو أقوى من تحقيق رغباتنا ومطالبنا
 وتفضيلاتنا.

ب — ويقول الاقتصاديون إن هناك علاقة توازي صارمة بين اقتصاديات
 الإنتاج والاستهلاك، نظراً لتضخم المستمر في تعداد السكان، ويمتد رؤوس
 الأموال، الأمر الذي يؤدي إلى ضعف أو ميوط معدلات الإنتاج. وتحتل
 مهمة الفكر الاقتصادي، في تنظيم العلاقة وإيجاد التوازن بين كنفى الاقتصاد
 الانتاجي والاقتصاد الاستهلاكي.

فللكفاءة البشرية العالية التي تتميز بها المجتمعات المتحضرة والحديثة، فخصايح
 بالضرورة إلى زيادة التركيز على التخصصات في مختلف ميادين الصحة والتعليم

الولايات المتحدة: حسن الباشا، الدكتور لوجيا والمجمع، وأطروحة دراسة في التطوير
 الدكتورون إبراهيم حلي عبد الرحمن وإمام سليم، في المؤتمر المقود في القاهرة ١٨ —
 ٢٦ نوفمبر ١٩٥٩ حيث كان لجهود الدول العربية واليونانكو. طارئة ١٩٦٢

والأسكن ، بالإضافة إلى خلق فرص العمل ، وإتاحة للشروات " ، بالاعتماد
 للحصول على الطعام ، وعبر توفير وصوله إلى كل الأفراد ، حيث ينتج الانفجار
 السكاني كل زيادة إنتاجية ، فتصبح الجهد يسدى .

وينضبط ، التخطيط للنظم ، معدلات الإنتاجية والاستهلاك ، ويحدد بين
 الجهد المشترك ، حتى لا تضيق ثمرات التنمية دون جندى . فالزيادة البشرية وقلة
 زورس الأموال وهبوط الإنتاج ، كل هذه مؤشرات تؤكد ضرورة الحاجة
 إلى القيام بعملية تنمية ، والتجديد بالتطوير الاقتصادى ، حتى نحل مشكلات
 البطالة والكساد وهبوط الأجور ، فيتحقق بالزواج الاقتصادى الرخاء ، ويضمن
 الإنسان حياة كريمة في ظل الرفاهية .

٥ - ولا شك أن حل هذه المعادلة الصعبة التى تنظم العلاقة بين الإنتاج
 والاستهلاك ، هو علاج لمشكلة عويصة ، من أهم مشكلات التنمية ، فى مسائل
 المجتمعات والدول النامية التى تعمل على دفع عجلة التطور الاقتصادى لحل مشكلة
 الجوع ، فكيف يمكن التوفيق بين أيدى خاملة عاطلة ، ولا تعمل ، وأقواء جائعة
 ، تطلب الطعام ١٤ .

فا فائدة أن يتج الإنسان الاقتصادى كل ما يستهلكه ، أو يلتمه ويستهلك كل
 إنتاجه ، هذه مشكلة تقود إلى العجز والبطالة ، وعدم تناسب الأجور مع
 الأسعار ، ثم أن تلك للمرضى من اللزاد الاستهلاكية ، يفرض بالضرورة
 لاستيراد السلع لمواجهة الضرورات للحياة ، مما يحتم علينا تغيير سياسة الاستهلاك
 بضبط النفس وبالتشف والتخف ، والادخار بأشكاله ، والاستثمار بطرقه
 المباشرة وغير المباشرة ، بالإضافة إلى زيادة الشعور بالتضامن والتكافل
 والإتقان .

ومن أجل التجميل بالنسبة الاقتصادية ، يبنى المزارع بنية الإنتاج في أسواق التجارة ، حتى تتخلص من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، فكيف من « للشروع » و « غير للشروع » من الكسب والمخل الاقتصادي بالقضاء على « المخل العقيلة » و « الكسب الحرام » في أقوات الشعب ، من طريق الاستفادة غير للشروع من « الخزون العلمي » من أجل الاستغلال والاحتكار . أو تضارب وتلاصق من أجل زيادة الأسعار ، ثم الانتفاع برفع قيمة السلع الخروقة .

ويمكن انشاء الركود الاقتصادي ، بالنسبة والتصنيع ، وترعيد استخدام التكنولوجيا واستثمارها ، من أجل دفع عجلة التطور ، بقصد التوصل إلى أكبر معدلات ممكنة للإنتاج الصناعي والزراعي ، وبقدرة فوق بكثير ، بل ويصلون إلى أكبر حد ممكن حين يزيد على معدلات الاستهلاك - حيث يجب أن تتوافق اقتصاديات الإنتاج مع اقتصاديات الاستهلاك ، وذلك هو أقل تقدير في التصور والتوازن الاقتصادي ، حين تساعد في معية *regression* متوازنة . إذ أن زيادة الدخل القومي ، ولو تضاعف مستوى الدخل ، بالإضافة إلى الزواج والانشاء ، كل ذلك ضمن حياة كريمة للجميع تطبيقه وأفراجه ، مع جبرية الاضطرار إلى ترشيد النفقة الجبرية ، حتى تكامل عمليات تنمية اقتصاديا واجتماعيا في وقت واحد .

٣ - تنمية دول العالم الثالث :

من الجدير علينا أن نضرب مختلف دول العالم ، سواء في عضائها قداماخرى لمعرفتها بالوضع والاحتياج إليها كالإقليم الأفريقي دولة « غنية » و « متخلفة » (١) .

أو منظمة كولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتي ، بينما تعيش دول أخرى مستقلة ، ودائمة ، وتكفح جميعا من أجل الحياة (١) .

أما ومن تلك علاقات تنظما قواعد وقوانين دولية ، وبفرضها تنظيم اقتصادي دول بين دول متقدمة ودول نامية ، حيث تقوم بالضرورة بعمليات اقتصادية بين دول متقدمة *advanced* صناعات جزائرية ، وأخرى كإحدى ثم تستكمل بدورها الاقتصادي والاجتماعي . ولكل من هذين القطاعين التآزر آماله ومشاكله . ولقد صدر علم اجتماع التنمية ، من أجل حل للمشكلات ، ومن أجل تحقيق الآمال .

فالتنمية للتنم يزداد ثقله ، ويقرا كم كسبه وقيض إنتاجه ، ويزيد حائد رؤوس أمواله ، وقد يواجه للمشكلات العروسة التي تصل بتحديد قيمة الأجور وتثبت الاستثمار ، وتحت البطالة وانتشار الكساد وتضارب البورصات . بينما يعاني الكادح للكافح كثيرا حين يتطلع نحو حياة أفضل ، وهو محل دأب ومستمر من أجل تنمية بنوعها الانمصاص والاجتهاد .

ومن أجل حل للمشكلات الناجمة عن الفقر للدفع والنقي التماسك ، تحاول الدول للتنمية الكبرى أن تقوم بمساعدة الدول للتخفيف عن طريق دمجها ، أو دعامات ، أو مساعدات تقنية أو تكنولوجية تتم في شكل د ممولات

من التنمية في دخول الأفراد ، كتيبة تنمية لنمو الاستيعاب القومي ؛ تنزلاً نحو المرد في المدخلات ؛ بحيث يصبح معدل الاسماء في الدخل القومي *Per capita income* ؛ هو معدل يقوى النمو القوي العديجي .

(٢) هناك أطول للتنمية اقتصاديا من فائض قدره حالي ؛ مع $\frac{1}{2}$ الألف ومربوط الإنتاج ؛ وعدم توافر رأس المال ؛ ومن أجل تنمية هذه الدول اقتصاديا واجتماعيا ؛ بحسب أن تقدم إليها الدولت للاستهلاك والتنمية والتكنولوجيا عن الدول التنمى فائض إنتاجها .

التنمية ، وهي منوات اقتصادية غير رادفة ، تقدمها الدول الكبرى إلى مجتمعات العالم الثالث (١)

ب - وتعمل معظم دول العالم الثالث جاهدة ، لكي تحقق لنفسها تنمية اقتصادية ، فتضع البرامج والشروعات ، وتحاول استخدام التكنولوجيا المتطورة . لتعديل د أنماط الحياة ، وتبديل مستوى الطموح Level of aspiration ، وتعديد أساليب الرعاية الاجتماعية ، وتطوير التربية الأساسية بتغيير الأساليب القديمة ، واستخدام وسائل الإيضاح السمعية والبصرية ، وتعليم الكبار ، وهو الأهمية بالإضافة إلى هذا الجهود نحو تعديد الأنماط الثقافية ، وتغيير معايير السلوك ، بتبديل القيم أو تعديلها ، وإزالة ما أضحى عليه الدهر ، من نماذج سلوكية جامدة وتصورات وأفكار متبعة وبالية ، تعمل جميعا على إطفاء التريث والتنمية ، وخطط التطوير الاقتصادي والاجتماعي .

وقد أشرنا إلى أن الكثافة السكانية العالية ، إما تشكل حاجلا خطيرا في إقامة التنمية ، حيث يواجه المجتمع بكل أفرادها مشكلات الخدمة الصحية ، والثقافة التعليمية . وتطور المرافق وتحسين مستوى الخدمات ، مما يتطلب الامكانيات

(١) يضم العالم ثلاث محاور ٧٠٪ من تعداد سكان الارض ولا يصدر إجمال دخله من ٣٠٪ من الناتج العالمي . ويأتي نصف سكان العالم الثالث من الدول الجبلية والامية ولا يجد عيشا أذناك مكانة في المدارس . ويعتبر عشرات الآلاف كل عام جرحا في سائر بلدان العالم الثالثة كما تحصل الدول الثابتة ورغم كل ذلك على ما عليه ٤٪ من قروى البنك الدولي ولم يبلغ معدل انتاج العالم الثالث سوى ٧٪ من الانتاج العالمي .

أنظر هذا المصدر :

د . أساميل ميري صيدان : نحو نظام اقتصادي عالمي جديد ، نشا إلى دراسة التنمية والتحصير الاقتصادي في المؤسسات الدولية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ صفحات ٤٦٤ ، ٤٨٦ ، ٤٩٧

التكنولوجية الصنعة ، والمجهود البشري المكثف ، وذلك لتحديث أو حتى ترشيد التنمية ، من أجل تطوير إقتصادى سريع ومستعرض (١) .

وينبثق من كل عملية من عمليات التطوير في التنمية الصناعية ، أن يتحول الانتاج الاستهلاكى ، فيقترب شيئاً فشيئاً الى انتاج ما يسمى بالتكنولوجيا الصلبة Hard Technology ، كالمعدات والآلات الجاهزة ، والصناعات الثقيلة وثقبة الثقيلة ، بالإضافة إلا محاولة بذل الجهود للشركة نحو تصنيع هذه التكنولوجيا الجديدة وإدخال التحسينات عليها ، ثم تقوم بتصديرها الى العالم الخارجى بعد استكفاء الحاجة بتحقيق أقراض الأسواق المحلية .

التكنولوجيا والتصنيع في الدول النامية :

من الشروط الصناعية لمراجع الاقتصادية التي اشتهرت بها الدول النامية ، صناعة الأدوية والأسمدة ، ومواد البناء ، الأمر الذى يؤدى بالقطع الى إمتصاص الأعداد الكبرى من الأيدي العاملة ، وارتفاع الأجور ، حيث أكدت نتائج الدراسات التنموية ، وأثبتت أن انخفاض معدلات الادخار ، قد نتج عن هبوط مستوى الأجور ، وضعف أوقلة المخزون المخرجة .

أ - ولا شك أن كل دولة نامية ، طريقتاً العامة بالتنمية الصناعية ، طبقاً لظروفها البيئية وسياساتها الاقتصادية التي تنظمها ، طبقاً لما تواجهه من مشكلات

(١) دكتور نيل سالونى : التنمية والصنعة - المختار من مجموعة الجليليات

تحتاج إلى حلول سريعة وناجحة ، عن طريق عمليات ، وكتيبة ، والتطوير في
سائر ميادين الانتاج والخدمات .

ب - ولا يؤدي التصنيع في المجتمعات التقليدية والنامية إلى نفس النتائج مجيد:
لاينجم عن التصنيع تغييرات بنائية متشابهة ، إذ أن المجتمعات لا تتطور صناعات
نحو متجانس . فتختلف طبيعة النتائج الثقافية والنهات الاقتصادية التي تطرأ على
بنية مجتمع صناعي ، إذا ما قارناها بنتائج تغيير عامل يطرأ على بنية مجتمع آخر
حيث يتوقف كل د تغير اجتماعي ، في ميادين التكنولوجيا والاقتصاد والصناعة ،
على عوامل بنائية وظروف بيئية وإيكولوجية خاصة بالمجتمع موضوع الدراسة ،
حين نحاول أن نلقى ضوءاً على تاريخه وتراثه ، ونفهم قيمه ونظمه ومبادئه ،
بالإضافة إلى تحليل وتقييم القواعد المحلية ، والمبادئ الوطنية ، والكشف عن موارد
المجتمع الاقتصادية لتحديد نوع الثروة ، ومعرفة الثروة الطبيعية ، واستخراج
للعادن ، والمواد الخام من المناجم ، ومما في جوف الأرض ، من طبقات
جيولوجية .

وتتمثل المشكلة الحقيقية والكبرى في كل الدول النامية والمتخلفة ، في
وجود قاطع بشري هائل ، تعاني منه ، نظراً لقلة الموالد وسدرة دؤوس
الأموال ، والمشروعات الصناعية ، الأمر الذي يؤدي إلى هبوط أو انخفاض
في معدلات الدخول الفردية ، إذ أنها مجتمعات تستهلك الكثير ، بينما
نتيج القليل .

وإذا كانت هذه المشكلات ، هي أهم قاطع الضعف التي تعاني منها مجتمعات
التنمية الصناعية والاقتصادية في دول العالم الثالث ، فإن هناك مشكلات أخرى
مماثلة تواجهها الدول التنمى الكبرى ، بالرغم من تميزها وتقدمها في بعض

اقتصاديا واجتماعيا ، نظراً لكثرة ما فيها من الملل والأمراض ، وما ينتشر أو يسود من العيوب الاجتماعية .

فأجهت الدول الكبرى ، بما تعانيه من مشكلات غناها المتخيم ، نحو دراسة الصعوبات الناجمة من الجوع والفقر من جهة ، حتى تحاول تلك الدول الكبرى ، من جهة أخرى ، التخلص من فائض إنتاجها ، حين تتقدم بمعونات اقتصادية وفنية لتنمية الدول التقليدية والثانية . وليس الدافع هنا دافعا إنسانيا بحتا ، من أجل المساعدة والتنمية بتقديم المعونات الاقتصادية ، وإنما هو دافع اقتصادي بحت ، دفع مثل هذه الدول الثنية الكبرى إلى أن تعمل مشاكلها الانتاجية الخاصة ، بالتخلص من الفائض الاقتصادي كبراج للتنمية ، ومشروعات صناعية ، ومعونات اقتصادية ، تهم ككل أو بالتدرج إلى دول العالم الثالث .

د - وإزاء مشكلة الزيادة الهائلة في انتاج السلع . والتنافس القائم في أسواق التجارة العالمية ، تسمى الدول الكبرى بفائض انتاجها نحو الدول الفقيرة والثانية ، حتى لا تحدث الميزات الاقتصادية العنيفة التي تؤثر على انخفاض الأسعار العالمية ، بالإضافة ، إلى زيادة عرض المال ، والبطالة بأشكالها الظاهرة والكامنة ، وانخفاض الأجور ، وانقراض الخود والساد ، نظرا لإستخدام الحركة ، مع ثبات وتوافر الركود أو السكون الاقتصادي ، وإلا أنه من أجل الحركة وإحلال الرواج الاقتصادي ، ومن أجل حل هذه المشكلات العويصة وطبقا لمضادة قانون العرض والطلب ، وصوتا للسعر العالمي للسلع للتنمية ، تحاول الدول الكبرى أن تقدم فائض إنتاجها ، في شكل معونات اقتصادية ، كما يحدث بالنسبة لمشروع جيل شاليد الأمريكي ، حيث العرب

العالمية الثانية، لتنمية المشروعات الاقتصادية لدول غرب أوروبا، على ثلاثين عاماً.
أوروبا بأسرها.

وكانت أسواق الدول النامية والمجتمعات التقليدية التي تحتاج إلى تطوير أو تنمية نظراً لبساطتها وبدائيتها، هي محط أنظار الدول الثنية الكبرى، وذلك بحجة تطوير مشروعاتها الاقتصادية، بتقديم «معونات» كانت في الأصل وسيلة إنتاجية أدت إلى «فائض» فاقمه هذا الفائض الذي يهدد في وجوده وكثافته الدول الثنية، نحو تنمية الدول الفقيرة، حيث أن للفقر والجوع والمقاومة إنما هي ظواهر اقتصادية مفرقة، تهدد رخاء العالم.

وقد تشترط الدول الكبرى من أجل اللواقعة على تقديم هذه المعونات، بعض الشروط السياسية، التي تعملها على الدول الفقيرة والثنية. وقد ترفض هذه الدول الثنية رغم قهرها قبول هذه المعونات الاقتصادية للشروط السياسية، إلا أن انتشار مبادئ الحرية وذبوح الأفكار الليبرالية، قد غيرت جميعاً تلك النظرة الاستعمارية لهذه الدول التي نظروا إليها على أنها بدائية أو «متخلفة» Underdeveloped،، فأطلقوا عليها اسماً آخر هو «الدول الثنية» developing countries.

وقد أكد ميثاق الأمم المتحدة، على ضرورة حل المشكلات الاقتصادية والإنسانية في الدول الثنية، وقد تعاونت الدول الصغرى، وتعمل على تبادل المعونات فيما بينها، وتحتل الأسواق المشتركة، وتعمل على تمويل برامج التنمية مجتمعة ذاتية، أو بالاعتماد الكلي أو الجزئي على الدول الكبرى.

وقد تظهر المشكلات الاقتصادية الجديدة كنتيجة للرباطة المتخذة في:

إنتاج السلع ؛ ومهدير التكنولوجيا والعدات ، إلا أن هذا الفائض المتزايد لن يستمر على الإطلاق ، - حين تقل أو تتوقف أو تكتفى الدول لتنامية ، فلتحتاج إلى مثل هذا الفائض ، حين يبلغ حد الاشباع ، فلا تطلب أسواقها شيئاً جديداً ، من إنتاج الدول الكبرى .

٥ - الأمر الذى تواجهه الدول الكبرى « مشكلة فائض إنتاجها ، للتزايد بدون أسواق لتصديره وبفرض تراكم هذا الفائض غير المصدر ، على الدول الكبرى إعادة النظر فى سياستها الانتاجية ، وتعديل نظم التصدير والاستيراد فيها ، عن طريق التوازن Readjustment ، بحيث يحدث التقارب بين الإنتاج والاستهلاك ، الأمر الذى يفرض التكيف مع الظروف الاقتصادية والانتاجية الجديدة .

الباب الخامس

حلل مقترحة لشكل الإدارة والتنمية

- كيف نعمل بالتنمية ؟
- التخطيط واستراتيجيات التنمية
- التخطيط الصناعي
- التنمية الادارية ونورة التخطيط
- الادارة كنسق اجتماعي
- ترشيد الاتاق

مجهيز : .

لا أحب أن أكرر ما قد نشر من قبل ، أو أعيد ما كنا قد استخرجناه من أم للمشكلات الخاصة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، حين لاقتنا في كتابنا وظم الاجتياح الاقتصادي ، معظم العوامل الرئيسية التي تؤدي إلى الإبطاء في التنمية ، كما أشرنا إلى أهم مقومات التطوير والتغير ، التكنولوجيا منها والايديولوجية^(١) . فتكلمنا عن عوامل : ١- التغير ، مثل العامل الديموجرافي ، والكثافة السكانية ، وإنتشار التخلف والفقر والمادة ، وإزداد الطلب على السلع الاستهلاكية ، مما يحذر معه وصول الطعام لكل فم ، ، بالإضافة إلى عامل ثالث وجرهري ، وهو عامل سياسي يتعلق بموقف الدول الفنية والمتقدمة من دول العالم الثالث وتنمية مجتمعاتها ، وكيف تعيد الدول الكبرى النظر حين تتضمن مشكلاتها الاجتماعية ، فتعمل على إعادة التوازن Needadjustment ، بين سياساتها في التصدير والاستيراد من جهة ، واقتصادياتها الاجتماعية والاستهلاكية من جهة أخرى .

ومشكلة التنمية ، أصبحت عالمية ، وأصبحت الحاجة إلى تنمية دول العالم الثالث ، حاجة ملحة ، إلى الدرجة التي معها بدأت الدول المتقدمة تقول في العالم العربي : أن مبدأ النظر في برامجها الاقتصادية والاجتماعية ، بدأت الاهتمامات الآن بتنمية البداوة ، وما يسمى بالتنمية الريفية *rural development* حيث تحتاج الصحراء ، ومناطق الرعي إلى عمليات خاصة لرفع مستوى هذه البيئات المختلفة ثقافياً وحضارياً واقتصادياً ، وإقليم بمشروعات التحديث *Modernization* ، وبرمجة *Programming* البرامج العلمية لتنمية الثقافة الصحراء ، واستزراع أكبر مساحة ممكنة ، من أجل تحقيق الأمن الغذائي ،

(١) أنظر في هذا الصدد ، الأبواب والوصول الاخيرة من كتابنا علم الاجتماع

باستخدام الثورون المائل من المياه الجوفية . وعن طريق تنوع ، وتبعية مصادر المياه Water resources development ، ، اما باستخدام « اللعاقات الذرية » أو « الأمطار الصناعية » .

وتحدث مع « انحصار البداوة ، وانتشار « الحضرية urbanism » ، ظواهر التغيير ، وبوادر التحديث الحضارى ، بفضل البرجة العالية لمبانيات التنمية الضرورية . كما ويتحقق انحصار البداوة ، وينجلي في جانين ، الأول وهو « جانب سوسيولوجى ، ويتصل بالانحصار الاجتماعى للبادية ، عن طريق « التوطن Concentration » ، وانتقال للكتل البشرية أو انجذابها نحو مناطق بينها لها جاذبيتها الاقتصادية .

والثانى ، وهو « جانب إقتصادى » ، يتصل بظاهرة إيكولوجية صحية ، حين تتغير ملامح البيئة حضارياً وإيكولوجياً Ecology ، بانحصار المراعى ، واستزراع الأراضى البور ، وتشيير الصحراء واستغلال الطاقة الشمسية . وفى إطار ترشيد مشروعات الرعى ، إقامة مصانع العلف ، والتوسع فى مساحات المراعى ، للزيادة الكمية والكيفية للأعلاف ، والاعتماد بزراعة القوتل ، والرسم الحجازى . ولاشك أن للمشكلة الأساسية فى كل دولة نامية ، هى مشكلة تضرر urbanization ؛ لأن التضرر على حد تعبير « ماك جى Me Goo » هو النايه النهائية التى تهدف إليها دول العالم الثالث (١) .

وليس عملية « التوطن » ، عملية تهجير ، بل ينبغى أن نظر إلى التوطن ، كعملية « إنشائية » ، لأن التوطن ليس مجرد نقل السكان من مكان الى آخر ، ولكن عملية التوطن ، إنما تشتمل على تكيف العمالة ، فى مراكز إستقرار تربط بموارد إقتصادية دائمة ، وغير قابلة للتضوب . بمعنى أن التوطن ، هو

(1) Me Goo, T.G, The urbanization Process in the Third World, London, 1971.

عملية لفرع منطقة من سكانها ، تحت ظروف جاذبة قوية من علو جبال (١) .

ولم نكافأ إلى هذا القسم ، تستند عمليات التوطن ، والتحديث الحضارى ، في ثقافة الصحراء ، وتنمية نمط البدابة nomadism ، إلى برجة العراج في مجال التنمية الاقتصادية ، التي ينبغي أن تمشي في نفس الوقت مع برامج التنمية الاجتماعية ، مع دراسة للوارد للمكنة وللثروة ، إستادا لنظم والسلوكية ، و الحيازة ، وبخاصة ملكية الآبار والراعى ، أو حيازة الأراضي للزراعة طيعيا ، إما لسقوط للطر أو السيول السنوية ، ولما قربها من الواحات ، أو باستزادها بالتين والزيتون والمخضر والمواخ ، باستخدام السدود والخواتم والعيون ، مع محاولة تغيير الأنماط التقليدية traditional patterns إلى أنماط جديدة في مجال الزراعة ، وتنمية الثروة الحيوانية ، وتشجيع الثنائيات ، وتأمين الأثمان ، وتنمية للراعى ، وتربية العجول ، وتصنيع الأعلاف ، والاعتماد باستغلال طاقة البترول عمليا ، والائانات إلى مجالات اقتصادية أخرى تنطلق بالزراعة والتجارة والصناعة ، وكل ما يتصل بها جيعاً من أنشطة ، يتراكم معها العمل ، ويزداد ناتج الثروة ، وينتشر القامض من دوران رأس المال ، مثل عائد الربح Profit ، أو الربح Rent .

ومع تطبيق برامج التنمية ، والتحديث ، ود التوطن ، بدأ عملية التضرر ، ويزداد عمليات النمو الحضارى بمعنى أن التوطن ، هو بداية التضرر في مجتمعات الصحراء ، وفي كل أنماط البدابة ، لأن الاستقرار ، هو علامة

(١) أكلير هالاند بولتون ، David Boulton ، وكاتلين بيكت Kathleen Pickett

إلى هنا للمعي : كاتينا :

المجرة والمجتمع الأجهامى

Migration and Social Adjustment Liverpool Univ. Press , 1976

والتركيز، الذي يبدأ مع توقف القبية عن الحركة، والترحال، سعيًا وراء
للأمان والكلا، حين تصل كل أقطابها وتصوراتها التقليدية، حين يبقى أبنيتها
الثقافية والاجتماعية ثابتة ولا تهدم، رغم دوام السي، واستمرار التنقل،
وبعد عمليات التوطن، والتركز، والاستقرار، تبدأ عمليات أخرى تهدم
مها كل الأبنية وتتوزع كل التصورات، مع غزو الثقافة الجديدة، والتكيف مع
تصورات أخرى قد تتعارض مع نمط البداوة، فيحدث الصراع مع البيرو
الثقافي، الذي يؤدي حتمًا إلى التجديد innovation والتطوير والتحديث.

وبمع استقرار القبية البدوية في الأرض يبدأ عمليات التجيئير
acculturation، حيث يحصل الاستقرار كل سمات التجيئير المادية وغير المادية،
وتعتبر مرحلة التكيف adjustment من أيام مراحل عملية التوطن للسمات
الرعوية nomadic، وشبه الرعوية semi nomadic لأن عملية التكيف، هي
أخطر مراحل التوطن، حيث تشمل مرحلة التكيف في ذاتها كل أو معظم
وسائط التحضر والتحديث، وعلى كل ما تواجهه عملية التحضر من مشكلات،
وكل ما يتعرض له التوطن الرشيد، من صعوبات.

وتحاول معظم دول البترول، العربية، في هذه الأيام، أن تستخدم كل
الوسائل والبرامج التي تعمل على إنهاء مرحلة الرعي والبداوة والترحال إلى مرحلة
أخرى أكثر تحضرًا وأرق ثقافة، هي مرحلة الاستقرار والترواحة، واستغلال
موارد الصحراء، مع تطوير وصنع وتبعية هذه الموارد.

ومن الخطر الفلم: بأن تنطلق دول البترول، العربي، كما هي حوزة قبية.
ومن القلق للملم: أن يتوهم الواعم، أن مناطق البترول، وكثرة إنتاجها حثيقتن
أبدًا ودائمًا كمصادر لصنع النفط، فليسوف يجيب هذه الأملير ما ما، فيترقب

منع أول استخراج البترول، في «آبار» جديدة الكية من اللوار الحام، وليس مجرد «عين» البترول، كند النفط، لكي تغطي بلا حدود، ويبدو واضحاً أن «قائض البترول» هو الأساس المادي Material Substratum الذي يزول كل دولة من دول البترول العربي، حيث يعيش سكانها الآن، في مستوى من المعيشة مرتفع . ولا شك أن «منخ البترول» ليس عملاً إنتاجياً، له عائد اقتصادي، وإتمام عملية مؤقتة وليست دائمة، فليسوف ينتهي منخ النفط قطعا . الأمر الذي يبدو معه أن «العمل الاتجاعي» أو الاقتصادي أو التصنيعي، لا وجود له في دول البترول . وهنا يكن الخطر الهام يوماً . فالكمل مستهلك في دول البترول العربي، حتى الآبار نفسها إنما يقل ما فيها من بترول نظراً لما يستهلك منها وبشراهة، من ملايين أطنان البترول الحام، والكمل في دول الخليج وصحراء العربوليا، بعمل من أجل التجارة والخدمات . وتعتمد كل هذه الدول «اقتصادياً» و«تكنولوجيا» على النفط؛ فظهر في العالم العربي؛ وبوضوح مجتمع «الاستهلاك والخدمات»؛ ويستند هذا المجتمع، وهذا أخطر ما في الأمر، إلى «مورد اقتصادي» قابل للتضروب؛ تماماً كمن يعتمد على «منجم» من المناجم؛ ولا يضع في اعتباره أن اعتياده هذا على المنجم؛ سوف ينتهي في فترة أو مرحلة من مزال التاريخ؛ حين يتحول «المنجم» إلى كهف فقد قيمته الاقتصادية؛ بعد أن تم استنلاله تعديفياً وجيولوجياً . وهكذا يكون أمر «دول البترول العربي» حين تنضب الآبار؛ وهذه مسألة خطيرة، ينبغي أن يواجها الخبراء في سرعة تخطيط وفعالية .

ويمكن استنلال «قائض البترول الحالي»، واقتاذ ما يمكن إقناذه في تمويل مشروعات اقتصادية؛ أو «مؤسسات إنتاجية» يمكن الاعتماد عليها في المستقبل؛ كتراعد إنتاجية حقيقية وثابتة كالصناعة والزراعة والرعى، بدلائل مجردة للاعتماد على «قائض طبيعي» سوف ينضب، أو عائد بترول، سوف يتوقف .

ومحارل ، الحكومة السعودية ، الاضداد على اقتصاديات الرضى : - وعزينة
 الإختام وتسميتها : فاضلك جالمراض ، وزيادة الثروة الحيوانية ، كما اهتمت
 للملكة السعودية أيضاً ، بتوزيع الاراضى البور على البدو ، وقد تقرر توزيع
 نصف مليون دونم فى منطقة دهبوك وحدها ، وبلغ عدد المستفيدين نحو ١٩٨٥
 أسرة عام ١٩٧٠ (١) .

وبالنسبة للصناعة ، فلم يحدث فى السعودية النمو المطلوب رغم النمو الحضرى
 المتزايد فى مكة للكرمة ، وللدبنة للثورة ، وفى ينبع وديوك ، نظراً للزيادة فى
 استثمارات رؤوس الأموال ، التى توجه نحو قنوات غير انتاجية ، بل توجه
 نحو تجارة الاستهلاك وحركة البناء ، وللشروعات التى تحقق دورة الريع السريعة ،
 ويبدو الإحجام واضحاً فى السعودية عن النمو الصناعى ، نظراً لثة الأيدى العاملة ،
 وقلة الكوادر الفنية ، وانعدام المهارات الإدارية managerial skills ، بسبب
 القصور الواضح فى تسق الحرف وللمن ، وأثره على الأنشطة الاقتصادية فى
 والملكه العربية السعودية .

(١) الدكتور عمر الحاروق حين رجب : اتجاهات تنمية الاقتصادية فى المنطقة العربية
 «بالسعودية» ، وأظهر أيضاً فى هذا السدد .
 لقط والفتلات الماصرة لتنمية العربية ، الدكتور محمود عبد الفتيل ، مجلة دراسات
 الخليج والجزيرة العربية ، أبريل ١٩٨٠

الفصل الثالث عشر

ولكن كيف نمضي بالنسبة ؟

- تمهيد
- التخطيط واستراتيجيات التنمية
- التخطيط الصناعي
- التخطيط التربوي

يقيم المخطط الاقتصادي ، وزناً للإنسان الذي يقوم بعملية التنمية ، بخلاف يمكن أن تصور برنامجاً صناعياً أو حشروياً اقتصادياً ناجحاً ، دون النظر إلى الدور الإيجابي للإنسان الذي يقوم به . فلا يصبح دور الإنسان مطلوباً داخل إطار التنمية ، ، وهي عملية إنسانية لحاً ودماً ، فلا بد من إعادة النظر إلى دور الإنسان الحضاري وقيمته وفاعليته ومكوناته الثقافية ، وهل تساعد هذه الامكانيات والعلاقات ، على تطوير البناء الاقتصادي ١٤ أم أنها قد تقوق المشروطات ، وتفسد مبررات الحطة وتزعزع التخطيط ١٥ بمعنى أننا ينبغي أن ننظر قبل القيام بأي عملية من عمليات التخطيط في سائر القطاعات والميادين ، إلى دلالات البشرية والذكائية والاقتصادية والحضارية ، وكلها عناصر لا تنطبق للمادة وحدها ، وإنما هي سمات الإنسان ديناميكي متطور . ولذلك يعمل خبراء التخطيط الاقتصادي ومحاوّل أن يخطط ، ويستخدم التكنولوجيا بقصد الإسهام بالتنمية وتطوير الإنسان التقليدي وتغيير أسلوب حياته .

وتنود المصراعات في مختلف الثقافات المختلفة والمجتمعات النامية ، حول ، صور أو نظم الملكية والأجر والضرائب والأسعار ، كما قد تجتمع للشركات المربحة حول الانتاج والاستهلاك . الأمر الذي يفرض علينا ضرورة الالتفات إلى الحلول العملية الناجمة لمشكلات التنمية ، عن طريق ربط الأجر بالانتاج ، ورفع معدلات الدخول الفردية ، وترشيد الاتفاقيات .

بالإضافة إلى ضرورة حل مشكلات التنظيم الإداري وما يتربى من مصراعات واضطرابات في نظم الجور والفساد ، مثل بطلان البيروقراطية والفساد الأمر الذي يكون له صدام في محيط الأسرة والمجتمع ، دور فيه في تحديد النظرة إلى الإدارة والتنظيم .

ويغسل التخطيط الاقتصادي بالضرورة ، دراسة كل ما يصل ينظم الإنتاج والاستهلاك ، حيث يتطلب التخطيط إلزام القوة بالتدخل لحل للمادة الصعبة القائمة بين الإنتاج والاستهلاك ، عن طريق تنمية الادخار ، وزيادة الاستثمار investment ، ورفع الأجور ، ومقاومة التضخم أجنبي الذي يستهلك كل ما لديهم ، ويلتهم كل ما تنتجه بل ويريد . كما يجب أن يأخذ المخطط الاقتصادي في إعتباره أن مجرد قيام مشروعات اقتصادية وصناعية جديدة ، يفنى أن تكون له مقدماته ودراساته للسبقة ، مع تقدير النفقات والمخاطر ، وتقديم الحلول والمقترحات .

ب - ولا يفوت المخطط الاقتصادي أن يأخذ في إعتباره أيضا ، أن إستراتيجية التصنيع ، هي إستراتيجية موجهة لتصدير export oriented ، كما تهدف في نفس الوقت إلى تحقيق إنتاج بدائل الواردات import substitution ومن أجل حماية الصناعة في الدول النامية ، يقترح « جونار مودال Gunnar Myrdal » ، ضرورة التوازن بين العرض والطلب ، حتى لا يفرض إنتاج جديد ، ليتحول بدوره إلى إنتاج ساكن ولا يتحرك دون طلب ، فيزيد العرض وتخفض الأسعار وتزداد بطالة العمال . كما اقترح « مودال » تشجيع الاستثمار وزيادة للذخائر مع زيادة الفوائد ، ورفع الأرباح بنفس مفرية . وذلك لتفكيك وتطوير الاقتصاديات الخارجية . بالإضافة إلى ضرورة وجود لقيادة المستمرة في الأيدي للدولة والخبرة الفنية (١) .

ج - ولا تم الدراسات المخططة من أجل برامج التنمية ، في فراغ ، وإنما تبدأ من أرضية الواقع الاجتماعي ، وتستند إلى خطة الثقافة والقيم والمعتقدات .

(١) مانسون ، أ . : للمجموع العام والتنمية الاقتصادية « ترجمة محمد أحمد إبراهيم »
مهاجدة الدكتور فؤاد حاشم عوض ، الدار المصرية بوليه ١٩٦٥ ص ٣٧ .

السائدة في بنية المجتمع . فيبغي أن يواجه المخطط ظروف ومشكلات المجتمع ويضعم جواربها للمادية وغير المادية . فالتمتية ليست عملية اقتصادية ومادية فحسب ، وإنما هي عملية تشمل أيضاً بامتر أساق ونظم المجتمع ، حين تلتمع عملية التمتية مثلاً بالنسق الأيكولوجي و«تمية البيئة ecodvelopment» ، كأنتمصل اتصالاً وثيقاً بالنسق التكنولوجي ؛ وما تلحقه من الأفكار الخاصة بقضايا المال وأصحاب العمل ، وما ينظم هذه العلاقة من نظم الضبط والتشريع ، وعن أمور تتمصل بالنسق الثقافي ؛ وقد تحدث ودود أفعال أخرى ، في أساق الثقافة والأيدولوجيا ، إل جانب ما يترى بالنسق السياسي من تغيرات . تهدف جميعاً نحو هدف واحد ، هو تهيئة «إجماعات الناس» وتطوير نظراتهم ونفسياتهم . وهناك جوارب متعددة لسياسات التخطيط في مبادي الزراعة والصناعة والقرية ، وحيط موازين الانتاج والاستهلاك ، وحمية البيئة ، بالإضافة إل تمتية الجوارب السيكلوجية والتمية ، ولا يتحقق كل ذلك إلا بإبلاج المشكلات القائمة ، من وظائف الصناعة ومحة التصنيع .

وفيما يتعلق بسياسة التخطيط الزراعي ، وإستراتيجية تمتية القرية المصرية مثلاً ، يلتفت المخطط الزراعي إل إستعداد أفضل تكنولوجيا يمكنه . وإستخدام الآلات الحديثة لتطوير معدلات الانتاج الزراعي كماً وكيفاً . هذا ويقيم المخطط أيضاً بتنظيم عمليات الارشاد الزراعي ، للإستخدام الرشيد للبند المينة وتمهينها من بناء المرحلات الخمسة وتعمل على التثري وتطويرة ، حتى يراكم إستخدام الآلات الحديثة ، وترويه الملات وتمهيتها ، أو تسبيتها ، لتحسين الانتاج الميراثي وتصنيع الزيف ، بإدخال مشروعات التمتية الزراعية . وكصناعة الجبن والزبد ، وتربية الحقل ، وتليب الحمواكه والخضر .

بالإضافة إل هذا المجهود المشترك لزيادة رفقة الاراضي الموزعة بالزرايع

المجروح، وإستصلاح الاراضى الجرد وزيدة غلة القدان ، وتوفير الكميات وتوزيع المنتجات ، وإستخدام الادوات . ولا يتم ذلك إلا بتربية جماعية الفلاحين ، وزيادة قدراتهم ، حل التكيف للتاجح ، مع توجيه وإرشاد القروى وزيادة قدرته على مواجهة للمشكلات وحلها بالمجهود الذاتية لأجل القرية وروحم التخطيط فى قطاع الزراعة ، تحرير قلاخ من القروض والديون ، برفع مستواه الإقتصادى ، وترشيد إنتاجه لمتنظف للمطاميل .

ويتطلب التخطيط الصناعى . إستغلال قاعض الزراعة وتصنيعه : بتنية الصناعات الرفيعة ، أو تسمية الراف صناعياً ، بالإضافة إلى تحسين ظروف الحياة ، ورفع مستوى أجور العمال ودخولهم ، لتجميع وتنية القدرة على الاداء ، ورفع الكفاية الإنتاجية ، وتوطين الصناعة ، وبناء الوحدات الصناعية وتشجيع للشروعات الإقتصادية ، ورفع مستوى الأداء بالنسبة للأيدى العاملة للتدربة الفنية ، مع الإهتمام بالمعاملين الإداريين داخل التنظمت الصناعية والإقتصادية .

د - وإذا كنا نخطط إقتصادياً وإجتماعياً من أجل الإسراع فى التنية ، ورفع مستوى النضات ، حتى تولد معرفة القو . الأمر الذى يفرض علينا كمنطقتين أن نعمل دائماً وبإستمرار ؛ على تنية الإستثمارات ، بزيادة حجم للدخرات ، ورفع معدلات الإنتاج ، لكي تقابل الزيادة للمسترة فى معدلات الإستهلاك ، حيث أن الدول المتقدمة صناعياً وإقتصادياً *developed countries* إنما تجزعا الزيادة للمسترة فى دخول الأفراد ، كنتيجة حتمية لقر الإنتاج القروى . نظراً لوجود زيادة دائمة فى للدخرات ، بحيث يرداد الدخل لنفسوى *per Capita income* حين يتفوق معدل الإضافة فى للدخرات والاستثمارات على معدلات القرو للمضى وزيادة التدرجية . بمعنى أن الزيادة المستمرة فى الاستهلاك إنما يجب أن تقابل بزيادة أخرى فى معدل الاداء والاستثمار .

نوعاً فجرة مشهورة ، تنف بين الاستثمار والإدخار ، وتعتبر هذه الفجوة ، من إنتاج أو خيوط المدى بين إمكانيات الاستثمار ، وجهد المدخرات ، وتسمى « بفجوة الاستثمار investment gap » فهناك تناقض سيكولوجي بين رغبة المستهلك ، وأمل إدخاري ، حين يفت هذا التناقض التباين التكنولوجي المتكاثف بين حاجات راحة ، وتطلعات مستقبلة . حيث تتناقض طاعة المستهلك الفردي والعامل مع الرغبة في الإدخار ، على الرغم من ضرورة توافر الالتزام الفردي والجماعي لتحقيق وتقبل التوازن المطلوب بين الإنتاج والإستهلاك ، بزيادة الإستهلاك والمدخرات ، بحيث لا ننتج ما نستهلكه ، ونأثم كل ما ننتجه ، فيجب ألا نتمسك بزيادة الأخذ « كل العطاء » ، بل ينبغي أن نحتفظ « دائماً بجزء معين ودائم من الدخل » ، من أجل طوارئ المستقبل المجهول وأخطاره ونفوقاته ، فهناك « قيم إستهلاكية تفرق التخطيط والتنسبة » . وهي قيم ثقافية أصلاً ، تتصل بالتفصيل الإجمالي ، ومن أجل تحقيق إنضباط السلوك الاقتصادي ، ومن أجل التجنب بالتنسبة والرخاء ، ينبغي أن يقلع الإنسان عن التهم الإستهلاكي الواضح ، والتبذير على حساب مزايا الأسرة ، كما قد يفقد الإنسان الاحساس بقيمة العمل الاقتصادي ودوره في عمليات التنمية وزيادة الإنتاج ، كما ينبغي ألا نسمع طبعاً سيكولوجية ضارة ، كالبهاة وإدعاء الكرم ، فهي عناصر تتناقض أي تقدم في نحو الفلسف الاقتصادي .

٥ - ولا ينبغي من المخطط الإجمالي ، أن يعمل على تنمية المناخ الاقتصادي ، حين يتأثر الجو التجاري وبعد إصداراً قانونياً لمنع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وإعلان الحرب على الكسب الحرام ، وزيادة الرقابة على المشروعات والمخزول والاستثمارات غير المشروعة ، تلك التي تخلف « مرحاً أو يرداً اقتصادياً

خياراً ، (١) في المجتمع وتتمس طفيليات غريبة بقضية رؤوس أموال غير مشروعة ، مع ظهور طبقة بورجوازية طفيلية *Lumpen bourgeoisie* ، تلك التي ظهرت كقضية حتمية لاستغلال المستهلك ، والتجارة ، في قوت الخصب ، أو احتكاره . وتجريته ، الاستفادة من هذه السلع الضرورية ، في كافة عمليات التخارب والتلاعب . والتهريب ، عن أجل الربح وزيادة الأسعار .

وقد تظهر هذه الطفيليات غير المشروعة عن طريق التسبب والتحايل . والسمسرة ، وتهريب السلع ، أو التهريب من الضرائب ، وذلك هي المصادر غير الشرعية لما يسمى « بالتبعية الطفيلية *Lumpen Développement* » ، وهي ديجول وردت بطرق جانبية من مشروعات غير اقتصادية ، بل وقد تكون « بمشروعات وهمية » ، غير قائمة أصلاً في الواقع الاقتصادي .

فالدخول الطفيلية ، دخول « لا أخلاقي » ، لأنها ليست بالدخول الاقتصادية المشروعة إجتاهها ، وليس لها أي عائد مشروع عن طريق إستغلال رؤوس الأموال ، أو القيام بعمليات منتجة أو حتى خدمات . وإنما هي دخول غير إجتماعية ، وليست مشروعة اقتصادياً ، لأنها صدرت من عمليات تخلف ، القزوه بطريقة غير قانونية . ، وليس المهم ، هو « خلق القزوه » ، بل إن المهم هو إيجاد المفروض الاقتصادي الناجح في ميدان التبعية أو الانتاج أو الخدمات ، بنزعه الحصول على عائد اقتصادي مشروع ، ، ومقبول إجتماعياً ، ولا يقع تحت طائلة القانون .

(١) هناك جيوب أو أرائين اقتصادية ، تسبب أضراراً رأسمالية ، وهناك أيضاً جيوب طفيلية تسبب بالتبعية ، تظهر طفيليات بورجوازية ، بفشل منتجات جانبية ، أو بمشروعات وهمية : أنظر ل هذا السند : الدكتور إسحاق صبرى عبدالله : نحو نظام اقتصادي عالمي جديد ، المطبعة العامة للحكامة ، ١٩٦٧ من ١٦٤ .

.. ولقد صدرت في هذه الأيام ، مجموعة من القرارات أصدرها مجلس الوزراء في جمهورية مصر العربية ، وهي قرارات منظمة العمليات الاقتصادية . إذ أنها مجموعة متكاملة من القوانين التي تحارب وتمنع من وجود مثل هذه الدخول الخفية للحكومة من القانون والضرائب ؛ بتوقيع الجزاء على صاحب كل مشروع زومني . الفرض منه خلق ثروة غير مشروعة ، كما يقع تحت طائلة مثل هذه القوانين كل من يهرب من مواجهة القانون أو دفع الضرائب للمستحق .

التخطيط الصناعي :

١ - حين نخطط من أجل الصناعة والتصنيع ، علينا أن نساوئ أولاً وقبل كل شيء : ماذا ننتظر من ثقافة بدائية أو متخلفة ، في السامرة في مفروقات النسبة الصناعية ؟ وكيف يقف من هذه للشروط إنسان لايسبها أو يسترحبها ؟ وماذا نعمل كخبراء التخطيط الصناعي مع الإنسان البدوي ، أو القروي أو حتى البدائي Primitive ؟

في الواقع ينبغي أن تتشعب مطالب الحاجة ، وأهداف التخطيط مع إمكانيات وطاقت الإنسان ، فتتفق مع ثقافته وتقاليد ؛ ومفاهيمه الدينية وقيمته الأخلاقية ؛ بحيث تتلامس مع الثقافة وعناصرها مع برامج التخطيط الصناعي ، دون أي عائق . وإن كانت هناك سلبيات ، فعل خبراء التنمية وقادة الفكر وعظمى الثقافة ، وأجهزة الإعلام ، تقديم المقترحات والطول لمعالجة مختلف للموقات الناجمة عن سلبيات ، وودت من بنية الثقافة السائدة . فتحاول أجهزة الإعلام ، أن تسمى في الأفراد الوعي والفهم والادراك ، تحصل على إحداث حركه قسبية ، تتشعب وتتكيف مع حركه تكنولوجية ، وتعلم الفجوة الثقافية القائمة بين الأيديولوجيا ، و التكنولوجيا ، بين إنسان ومتخلف وآلة متقدمة ، ، وبالتالي يصل

الأعلام (١) على منهج آفاق وتطلعات الأفراد، وتطوير طموحتهم وبالتالي تنمية أنماط قديمة، ويتطور المجتمع التقليدي Traditional وبدأ عملية التنمية دورها الاقتصادي والاجتماعي.

ب - وعملية التنمية في ذاتها هي استراتيجية مضادة للتخلف، وعقبة التخطيط الصناعي والا، حاج الاقتصادي وتطوره، مع ترشيد الاتفاق ومنهج نظم الإدارة، وينبغي أن يأخذ المخطط الصناعي في اعتباره أن استراتيجية التصنيع إنما تتميز باستهداف أفضل تكنولوجيا مكنة، فلا ينبغي مثلاً أن نستورد ما لا يتفق وأوضاعها الاقتصادية والثقافية (٢)، وأن ندفع الكلفة لأدوات ومعدات متقدمة ولا نستخدمها، كما لا ينبغي أن نستورد تحت ضغط ظروف أيديولوجية أو سياسية معينة، حين نستورد كرهاً ما يهوق عمليات التنمية الصناعية، فنقع المجتمعات النامية في حمة بين أسواق شيوعية وأخرى رأسمالية؛ وتردد بين أسواق معادية وأخرى صديقة، مما يفرض عليها نوعاً معيناً من التكنولوجيا، قد لا يتماشى مع طبيعة تطوراتها الاجتماعية والثقافية وعملياتها التنموية، حين يفرض عليها السوق الإقتصادي الصديق، تكنولوجيا بعينها، قد لا تراكب التخطيط الصناعي.

فينبغي ترشيد الإستهداف، فلا يطلب المخطط الصناعي سوى ما يتفق والأوضاع الاجتماعية والظروف الاقتصادية، طبقاً لإحتياجات نابعة من عملية التنمية والتخطيط الصناعي، ومصادرة عن مطالب وضرورات إقتصادية وإنسانية لها.

(١) ذكرورة جيهان أحمد رضى: نظم الاتصال، الاعلام في الدول النامية - دار المحكم للفرق الفنية الأولى ١٩٧٢ ص ٤٠ -

(٢) ذكرورة نبيل الساموطي: علم اجتماع التنمية، دراسة في إحتياجات العالم الثالث، الفنية للطباعة ١٩٧٢ صفحات ٢١٠ - ٣٦٠ -

منه. وقد تكون عملية التنمية الصناعية، عملية صعبة أو مستحيلة، إذا ما انحصرت المخطط الصناعي على تصنيع صناعات مفردة. ولكن التفرع الصناعي يصبح ممكناً ورشيداً إذا ما تناول المخطط الصناعي، عدداً متساوياً ومتنوعاً من الصناعات المتكاملة، ومن أجل التوصل إلى تخطيط على التنمية الصناعية الرشيدة، وتحقيق التفرع الاقتصادي للتكامل والتوازن، ينبغي على المخطط الصناعي أن يتخطى مصاب السوق المحلية وحينها مع مواصلة العمل على إزدياد أسواق جديدة لتصدير، مع تركيز الجهود المخططة صناعياً واقتصادياً لتفرع اقتصاديات متكاملة، تلحظ بفروع صناعية ووحدات إنتاجية تصب في النهاية في إطار اقتصادية وصناعية متسافدة ومتعاونة، لصالح البناء الاقتصادي بمرته، الأمر الذي يفرض ضرورة توافر الأيدي العاملة والمواد الخام وذيؤوس الأموال، والذي يلتزم بإزدياد الأسواق، وبالساسة الاقتصادية والإنتاجية التي تسهر على عملية الترفيق بين اقتصاديات الإنتاج واقتصاديات الاستهلاك، وتحقيق مطالب الدولة ورغبات الأفراد، والتفريب بين سياسة الصالح العام، ومطالب فئاس ورفضاتهم، مما يدفع إلى تحقيق تخطيط صناعي إستلاكي، يستند على قيام صناعات إستلاكية، كصناعة الجبن، وتعليب الحورم والمخضر والفواكه، الأمر الذي يخلق أيضاً الحاجة إلى صناعات وسيطة، أو تحويلية قد تحتاجها صناعات أخرى متكاملة ونهاية.

د- وقد أمملت دول العالم الثالث، وكافة المجتمعات النامية ذلك القور الحضارى والثقافى، حين ثلثت هذه الدول والمجتمعات وتوهمت أن عملية التنمية تقتصر فقط على الجرايب للادبة والاقتصادية فحسب فن الخطأ الجسيم أن نتصور مع اللاوكسين أن الانسان لا تحكمه سوى للاددة وحدهما، وأن الفلسفة وقانون والفن والأدب، هي بنية فوقية *Super-structure*، لا تقوم لها قاعة، ولا بيلة.

لنأشئ من قضاة دوليات مادية عرساء ، فكيف يكون الامم الجوف مبنيا
لنوعا الخجاري والفكري ١٤

وقد أنتك معظم مشروعات التنمية الاقتصادية في مجتمعات الشرق الأوسط
طبقا لخطه النظرة للمادية والكية في التنمية الاقتصادية ، دون الالتفات إلى ما هو
أم وأعظم ، وهو تنمية وتخطيط الجوانب الثقافية والحضارية وتنمية الخبرات
التكنولوجية ، والذوقية والفنية - وكلها عناصر ضرورية في عمليات التنمية
الاقتصادية ومشروعات التخطيط الصناعي .

٥ - وينبغي أن يأخذ الخطط الصناعي في اعتباره أيضا ، تلك الأبعاد النفسية
والاجتماعية ، حيث أن عمليات التنمية الاجتماعية ، هي الأخرى في مهس الحاجة
للخطط من نوع آخر ، يتفق مع التخطيط الصناعي للوضوح ، وذلك
لمواجهة المشكلات والأذكار والظروف وللذباب الاقتصادية والتبادلات
الأيديولوجية . الأمر الذي يفرض ضرورة التوفيق بين نمط التخطيط الاجتماعي
والتخطيط الصناعي في تكامل وتوازن ، مما يتطلب توافر الجهاز الفني
والتنظيم الإداري الدقيق لدراسة ظواهر والتكنولوجيا والتنمية الاجتماعية
Technology and Social change ، (١) عن طريق رصد مؤشرات التغير
وأحراه واتجاهاته وتوقعاته ، كما يحدد نماذج وأشكاله وسرعته سواء في تقدمه
أو تكمسه .

ومما فحركات ثقافية وتاريخية ، تعاقبها كل الدول القامية والمجتمعات
التقليدية ، ينبغي ألا تنيب عن أذعان خلاصة وخبراء التخطيط الصناعي . وإذا
حاصلنا أن نمعد طبيعة هذه التغيرات ودورها ، لوجدنا أن التنمية الأولى

(1) Wilkins, Michael, Human relations. Longman
London 1967.

تاريخية واقتصادية ، حيث كانت معظم المجتمعات التقليدية منطوية على أمرها ، ومقموعة سياسياً ، وعاشمة لكل ألوان الاستعمار ومذاهبه . كما كانت وظيفة العائد التالى قبل أوائل السبعينات ، هي تصدير المواد الخام ، كالمعادن وكافة مصادر القوة الطبيعية وإمداد الدول الغنية الكبرى ، بما يستخرج من باطن للتاجم من ذخائر وقروات طبقات الأرض ، على أن تستورد المجتمعات للقفورة ، سلعا مصنعة من الدول الغنية . ويتنازع للمواد الخام والموارد الطبيعية بأسعار زهيدة بتجديدها . الدول الكبرى للمشترية ، فإنها تشتري في نفس الوقت سلعا غالية الثمن ، كما يفرض سائر الدول الصناعية الكبرى قيوداً على تجارة الدول النامية .

هذا وتمثل حاجة الدول النامية إلى القروض ورؤوس الأموال الضرورية لتحويل خطط التنمية ، فجوة أخرى تعمل على تسويق التنمية والتخطيط الصناعي . بالاحاقلة إلى وجود هو متزايدة بين إمكانيات الدول الصناعية الكبرى ، ودول صغرى فقيرة ، وتزداد هذه الفجوة وتوسع كلما إزداد تقدم التكنولوجيا الحديثة بتحسين الصناعة . وتطوير التصنيع وتمديده بإدخال الجديد ، مما يربط من حد التعقيد التكنولوجي ، الأمر الذي يشكل فجوة ثالثة من الفجوات الثقافية التي ينبغي أن يعالجها ويخطط لها خبراء الصناعة ، وعلماء الاجتماع الثقافي .

التخطيط القريوى :

- ١ - التربية Education ، هي نظام إجتماعى له تنظيماته وميكانيكاته من سائر المجتمعات والدول ، وله أيضاً وظائفه حين ننظر إلى التربية « كعملية قروية » ، ويركب هذا القوم ما يدور أو يطرا من « تغييرات » في بنية المجتمعات ، وما يمتدح من ظواهر مجتمعة عن « تطوير سريع » في سائر الثقافات والدول التي تلكه خوضنا من المناورة والفنى والتقدم .
- القادية عند فلاحه التخطيط القريوى ، هي « تنمية النفوس والعقول » ،

حين تهدف إلى التأييم بعملية التطبيع الإجتماعى : Socialization ، وحين يكون هذا دورها في « نقل التراث الثقافى ، بقيمه الإجتماعية ، وأبعاده التاريخية ، وألفاظه السياسية ، التى صدرت في بنية المجتمع . بمعنى أن القيم قد ولدت في جوف المجتمع ثم انطلقت في مسار حركة الزمان الإجتماعى .

ومن عملية التربية والتعليم ، يتلقى الإنسان الفرد دروسه الأولى في آداب السلوك ، ويتلقى في طفولته المبكرة والمتأخرة ، سائر القواعد والأغاط السلوكية في خطوطها العامة ، كما يتكسب الطفل السيات الأولى للثقافة ، حين يشرب مع « لبن أمه ، الأساليب الكلامية والصور القلبية الأولية ، حيث يحاكى مع نموه النمى المبكر ، نماذج معينة من الكلمات والعبارات والأمثلة التى تنيه على معرفة العالم من حوله .

والمدرسة التى يرادها الطفل ، هى « قطعة من الحياة » ، ففى مجتمع المدرسة يتكيف الطفل ويتطبع ، ويتفهم معنى القيم السلوكية الأولى ، حين يلقن « قواعد لضبط الاجتماعى ، مع مبادئ الأخلاق والدين .

فالتربية هى عملية سوسولوجية ، تهدف في النهاية إلى « التطبيع الاجتماعى ، و« التكيف الثقافى ، حين يتلقى المدارس ويلقن ترويضاً ، المفهومات الأولى للقيم المجتمع ، ومبادئ الدين ، وأغاط السلوك الخلقى . « ويفضل التربية الفنية ، واستخدام الرسائل السمعية والبصرية ؛ يعلم الطفل القواعد التى تحدد الخطوط الفعل لموسم القيم الفنية والجمالية ، ويفضل التربية « الدواجن ، « ويتجسد التربية الوادية ، بتحويل الطفل شيئاً فشيئاً ، إلى معرفة وترقية ماله قيمة اقتصادية . وبالتالي يتلقى المدارس التربوى بنفسه مفهومات مختلفة تبعاً إلى ثقافته حول القيم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فإذا كانت القيمة الاقتصادية تدور حول « المال ، و« الجهر المتوالى ، فالحدا

القيمة الاجتماعية ، تنقسم بالتبوتل الاجتماعي ، وترداد وتنقص تلك القيمة الاجتماعية ، مع لزيادة أو نقصان درجة التبول الاجتماعي ، وبخاصة لما هو مرغوب فيه اجتماعيا . بينما تدور القيم الدينية حول « موضوعات » ذات قداسة تمام حولها طقوس وشعائر أو عبادات وصلوات . أما القيمة الفنية فغالبا حول ما هو جميل ، وما هو قبيح ، ؛ مستحسن أو مستهجن ، فترقى القدرات الفنية بالتنمية الفنية والجمالية .

وتقاس القيمة السياسية ، بمدى الاتصال الجماهيري ، وبدرجة إستقطاب الناس وتحميمهم حول شخص « زعيم » ، أو تألفهم حول « قادة » لهم أدوارهم الكبرى في ميدان من ميادين الخدمة العامة .

ب - ويمكننا أن نقاسل بصدد التخطيط التربوي ، حل توافيق برامج التعليم وظروف وإمكاناته ، مع مطالب التنمية الاقتصادية ؟

في الرذل هذا التساؤل ، نقول إن برامج التعليم في جمهورية مصر العربية ، مازالت مبرقة لبرامج التنمية الاقتصادية والصناعية ، فهي برامج تعليمية قاصرة ، ولا تتلاءم مع حاجات الفسق الاقتصادي ، فلقد إصمت الهوة بين ما يدرسه الطالب في للدرسه ، وبين ما يتحقق بالفعل ، فحدث التمارض ، بين ما يدور في العقل ، وبين ما يراه في الواقع للشخص ، الذي لشامده في تيارحياتنا . فليجنى أن علا ذلك الفراغ القائم بين النظرية ، و « التطبيق » حتى نحارس بالفعل ما نفكر فيه ، وترجم تافقتنا إلى سلوك . ومن هنا يقترب « ما هو في العقل » إلى « ما هو في الواقع » ، وتلك هي العملية التربوية الناجحة . فخلد لاحظت ولاحظ الناس جميعا ، تلك الحركات العطلائية للتمذمة التي اجتاحت معظم جامعات « أورتانيا » فخلد ممالص الصبغات التي تردود صلاها مديونا « رغبة في تغيير المناهج » ، فبرامج المبرسة لا يكتفي ، وحقرواات الجامعة ، لا تنهجن بمكات الطالب ، ولا تلتجتمد

تقبل على « إجهاد الذاكرة » ، وإستهلاك عقل الطالب في عمليات الحفظ والتفكير
وعقل المعلومات . فينبغي أن تعلم كيف تفكر *Low to think* ، دون أن
تثبت بما كنا تفكر فيه *What to think* ، فنضع لمادات فكرية صارمة .
وبأخذ فلاسفة التخطيط التربوي ، في إضبارم أثناء وضع برامج ومثيرات
تنمية القرية ، أن مجتمعات العالم الثالث تتميز ببطء التنمية وسوء التغذية ،
وأن خطوة التعلم لا تنفصل في أميتها عن مواكبة حاجات أخرى ضرورية
للجتمتع في ميادين الاقتصاد والسياسة . فنحن بالتخطيط التربوي الناجح السليم ،
لستطيع أن نتأجل للشكليات والأخطاء . حين يحقق أصحاب التخطيط « الطموح
الاجتماعي » ، بخلق الأجيال على أسس رشيدة وسليمة ، وفي إطار عقل متفتح ،
حيث أن « القرية من أجل التنمية » ، هي في ذاتها عملية تنمية للجتمتع ،

وتسقت القرية كعملية ديموقراطية ومنتحلة ، إلى القيم والقضايا وإحترام
للغاية ، القائم على الفكر الحر الخلاق ، والمناقشة الراحية ، والأخذ بنماذج تربوية
وعصرية ، حين نرفض تماما تلك الأنماط التقليدية الجامدة في القرية القائمة على
الحفظ أو التلقين البيئوي ، والحصول الآلي غير الواعي ، مما يخلق صورا
استاتيكية واحدة لأشكال عقلية متشابهة . وأنماط فكرية متجانسة ، وشخصيات
متكررة بنفسها ، أو نماذج بشرية غائبة ، وذائقة السيرون ، تدافع وتتناكر ،
وقد خفقت القناعة والخلق والابتكار .

حركات القرية بالتلقين هي سرقة لذلك ، ونسبة البصيرة ، ومصادرة عقل
الفكر والحرية . وهناك تخطيط لعمليات القرية والتعليم ، جنبه البرامج التقليدية
حيث تتجلى البيئات في هذه الأيام من أجل القرية المجددة *Reconstruct*
Education نسويين ضروريين للتعليم المستمر والقرية المتحدة والتخطيط للتعليم
البيئي المنظم ، وكلها عناصر أساسية وضرورية في « عمليات التنمية والقرية » ،

والتنوير . كما وتهدف كلها إلى نحو الأمية . وزيادة نسبة تعليم الكبار ، ورفع المستوى الثقافي والاجتماعي للفلاح والإنسان البدائي و « العامل الكادح » ، في سائر المجتمعات التقليدية والمتخلفة . وبذلك تعمل لآرية على تحقيق أغراض تعليمية وإقتصادية ، باستخدام شعارات « الحرية وتكافؤ الفرص » ، التي صدرت مع عصر التنوير .

الحرية وشعارات عصر التنوير :

أ - لقد قيل إن البروجوازية الفرنسية ، قد سجلت بظهور عصر التنوير Enlightenment ؛ الذي هو « عصر العقل ، والاستنارة ، حيث أثيرت في هذا المناخ الفكري الحصب ، أفكار الحرية ، كما نادوا بالديمقراطية ، وشجعوا طبقة الهالك على الوقوف ضد تحالف الرجعية المتش في سلطان الملوك والانتفاع العيني . ومع شيوع فكرة التقدم Progress ، وإنتشار مكتشفات العلم الوضعي ، وذيوع أفكار البروجوازيين وآملهم في النجاح والسيطرة على « المادة والصناعة والاقتصاد » . فقد ساعدت فلسفة التنوير على ظهور وبطوة الأفكار التقدمية التي تتناقض مع الأرستقراطية والنبالة ، والتي تهدم في نفس الوقت تصورات رجعية ، صدرت في العصور الوسطى ، منذ سادت فيها قلاع الإقطاع وهذا هو برنامج التحرير والاستنارة على ما فعل إثنان من كبار فلاسفة وكتاب فرنسا المشاهير من أمثال « فولتير ، Voltaire و « جان جاك روسو Rousseau » . - حين أعلن بداية عصر الايمان بالعقل والحرية ، والتأكيد على إحترام حقوق الإنسان ، للأمر الذي جعله ينفذ الكتيبة ، إنتقاداً لأخلاق ، كما سخر من الانتفاع ، ولأصل التفكير القهري ، إضداداً لأيدولوجيا ، للاتعات إلى ما يتفق في دبورج فريسلين أمراض إجتماعية ، كما به الأذمان نحو التجميل بقيام الثورة الفرنسية .

لما « جان جاك روسو » عقد نظروا إلى كتابه الأشهر عن « العقد الاجتماعي ،

على أنه « إنجيل الثورة » ، حيث هاجم طينيان ملكية الفرد ، واستبداد الاقطاع واعتبر « الملكية هي أصل الشرور » ، ونادت فلسفة التنوير بالأخاء والمعاداة والمساواة .

ب - ولقد صدرت « الحرية » Freedom ، مع مبادئ القرن الثامن عشر وهي الحرية التي صدرت أصلاً عن « عصر الاستارة » الذي تبلور مع ظهور حركة الفيزيوقراط ، physiocrate ، وتعاليمها التي تبارك التنافس الحر ، والتي تؤكد النظرة الطبيعية إلى الأشياء ، والتي تقلل من سيطرة المجتمع ، تطبيقاً لبداً الاقتصادي القائل دعه يعمل ، دعه يمر Laissez faire laissez Passer (١) .

ومن هذه النزعة الاقتصادية ، قلت حدة الصراع بين الفرد والمجتمع وهناك صيغة أخرى « مضادة للمجتمع anti-Society » . أطلقها « جان جاك روسو Rousseau » ، حين أثار هذا الفيلسوف الكثير من القضايا التي تؤكد « العودة إلى الطبيعة Back to nature » ، على اعتبار أن المجتمع ، هو مصدر الشرور والآثام ، والخراب والافساد ، وبميت الانحلال : إذ أن كل شيء جميل مادام من صنع الخالق ، وكل شيء يلحقه الدمار إذا ما مسه يد الإنسان

Everything is good as it comes from the hands of the Author of nature, everything degenerates in the hands of Man,

تلك هي الكلمات المشهورة التي افتتح بها روسو كتابه الحساسيل Emilie ، حيث هناك روسو يقول هذا الكتاب حجاب المجتمع ، ومنع من تعاليمه التي هي ميتة القلق وأصل الضرر . فهاجم روسو انظم الاجتماعية النقية ، إذ أن روسو لا يؤمن أصلاً بالمجتمع أو بمبادئه ، فكانت فلسفته

١ - Wolf, Kurt, The Sociology of Georg Simmel. 1934

القبو به ومضادة للمجتمع ، فلقد خلق الانسان طاعرا وبرئا ، ثم تدنس بمخاطبا للمجتمع ، وهذا هو السبب الذي من أجله ناضى روسو د بالعودة إلى الطبيعة ، .. حيث الحبر والحرية ، والطهر والبقاء ... وحيث يستطيع «إميل» أن يستحق إنسانيته ، وأن يؤكد ذاتيته ، حين يتربى في أحضان الطبيعة .

وفي ميدان التربية *Pedagogie* ، يصبح روسو ، معلنا سخرته للاذعة وتهكمه على سائر اللربن ، فيقول : « سهرنا عندما أتم عليه حملوا إلى التبحر ، ودا بعدوا الكتب عن الأبطال قريبا لئلا الطفولة ، كما يقول روسو في هذا الصدد : « نحن لانطمش من الطفولة ، وكلمنا سرنا في تربية الأطفال ، ونحن على جبل بطيئة الطفل ، كلما لاذدنا تورطاً في الأمر ، وبدأ عن الصواب .

« - ومن هنا كان روسو هو فيلسوف التربية الذي يؤكد العودة إلى الطبيعة ويعلن صيحة الحرب على المجتمع . كما يكشف عن تدمره وسخطه ، ويسجل لنا منهجا تربويا . يدخل في صاب فلسفة أو دراسة «البيداغوجيا» على اعتبار أنه يمر عن لون كلاسيكي ، من ألوان التربية ، وفي خاص من فنون التعليم .

ولذلك كان روسو هو رسول الحرية وفيلسوف التربية في العصر الحديث ، وكان كتابه « انجلا الثورة » ، كما ولقد حققت ثوره فرنسا كل معالم روسو في التربية . حيث يقول : « خلق الإنسان حرا ، وهو مستعبد في كل مكان ، وكانت هذه الكلمات من مطلع التور ومبحث الحبرية ، حيث انسحبت بقول الظلمة التي ترخصنا مع تراجع أو إحصار مصورات الضور الوسطى ، ثم تفتن الصباغ ، ومطعت شمس الحرية ، وتنهزت حلقة الليل البهيم .

الحرية والإدارة المدرسية :

١ - يمكننا أن نسأل : كيف نربي الطفل؟ وإلى أي حد يمكننا التوفيق بين التربية كنظام *Oreder* اجتماعي مفروض ، وبين التربية كنسج *Moldes* يستند على

الحرية؟ حرية الفكر والخلق والابداع ، وهل يمكن أن تقتصر الحرية على خلق وتكوين الانسان ، التاجح اجتماعيا ؟ أم قد تدخل الحرية كـ *System* من أنساق الثقافة ، حتى تملأ تلك الثغرة القائمة بين الانسان ونفسه ، حيث أنه على الرغم من نجاح الانسان فإنه بائساده عن نفسه ، قد يشعر بالاغتراب والاضطراب ، نظراً لما قد يورقه شعورياً ، من مشكلات قد تمرقه ؟

وفي الواقع قد يكون النجاح هدفاً اجتماعياً واقتصادياً ، يسهل إليه الإنسان ويكاد ولكن هذا النجاح الصغوي الذي قد يلبسه الإنسان نحو الصغرة ، حين يلتمس اجتماعياً واقتصادياً ، قد يحدث فجوة بينه والنجاح ، وده نفسه ، فهو أثناء كفاحه واستمراره ، في نجاحه الاجتماعي وللأذى ، قد يعتمد عن نفسه ومشكلاته الذاتية ، التي تروق حياته العامة ، حين يبقى بلا حل .

والنجاح متصل بقيم وأهداف اجتماعية ، ولكتنا نطالب أيضاً بالرضا ونحقق الأمن الذاتي والسكينة ، لضرورات سيكولوجية تؤكد التوازن حيث يتحقق بالرضا *Satisfaction* والأمن والطمأنينة ، ذلك التوازن الديناميكي القائم على التوفيق بين قوى نفسية متصارعة ، بين الواقع والوهم ، بين الشهوة والنجوح ، والألم والطموح .

... فإذا كان النجاح أمراً حادى ، فالرضا أمر منزوى ، وإذا حقق النجاح هدفاً اجتماعياً ، فإن الرضى والسكينة والتمتع بالأمن والأمان والسعادة هي أمور تحقق مطالب نفسية ، كما وتتمتع بالسكينة ، غايات أو أهداف ذاتية ذات طابعاً نوعياً أن نعرف كيف تقرب بين الذاتيات ، واللمنويات بين المجتمع والصحة النفسية ، فقد يبلغ الإنسان لظهوره ، ويحقق ما يسعى ، ويكاد ينجو لتحقيقه ، إلا أن هذا الإنسان للكفح ، حرق نجاحه وسعيه وكفاحه ، وأثناء طموحه وتحقيق آماله ورفاهيته ، إنما يراجه عوالم ممرته ، وعناصر سيكولوجية أخرى

تبعده عن نفسه ، فيشعر بالانقراض ، وهو للقيم بين أهله وعشيرته . حيث أن إحلال النجاح كحالة ضجائية ، إنما يتطلب إحلال حالة من التوازن حين تقول علينا السكينة فتحقق لنا فوراً « حالة الرضا عن النفس » معنا تكن سعادة الإنسان الحقة ؛ التي ينبغي أن تهدف إليها كل عملية تربوية ناجحة ؛ حين تعمل « التربية بالرضى ، ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ؛ على تحقيق سعادة الإنسان ؛ حين يحدث التوازن بين « الواقع ، و« المثال ، وحين يتم ملائمة بين « الإنسان ونفسه ، فيحقق النجاح والرضا ، حيث أن هدف التربية النهائي هو تحقيق الذاتية Self-Realization الراضية ، حين تكتسح المخاوف الكامنة في أعوار نفوسنا . فتصبح شخصية كل فرد منا « راضية مرضية ، آمنة من الخوف ومن الجهول .

ب - ويقول برتراند رسل Bertrand Russell « إن الخوف هو الداء Fear is the enemy ، فلا يمكن أن تعد الأطفال لمواجهة عالم مجهول ، وكل ما هو مجهول هو مخوف ومخوف بالمخاطر ، ونحدث الطمأنينة بالتكيف ، كما وتقول السكينة ، ويتحقق الرضى ، كلما ازدادت ساحة أو مجال المعلوم ، وضائق نطاق المجهول ، الأمر الذي معه يفتح الذهن ، وتنفتح القسدرات العقلية ، وتكتشف الطاقات الكامنة . وتقوم الحرية الحقة ، على الحركة الإيجابية ، والتناطلية والديناميكية ، ففي التربية ، إنبساط لا انقباض ؛ سيادة لا استبعاد ، قوة لا ذلّة ؛ تطوير لا جود قبولاً بوس . وهذه هي الأسس الحقيقية لتربية للتحرر من الإدارة التربوية المعاصرة .

• ولكن الحرية ليست هي الدعاة الوحيدة لتربية ، فهناك « النظام Obedience ، و« السلطة ، و« الضبط ، وتعملها جميعاً « لإدارة المدرسة » . وهنا ينبغي أن نؤكد أن التربية « المناهضة للسلطة » ؛ فيها لمة الانسانية ، قبل التربية تطوّر الجماعات ، وبالتربية الديناميكية الحقة تتقدم الثقافات ، « فالتربية على العالم

الوحيد ، على حد تعبير الرئيس الأمريكي « إيزنهاور » .

وفيما يتعلق بنظام الإدارة في القرية ، يقول « ماري فوليت » Follet ،
« يجب ألا تتملأ عين بضع السلطة » ، بل كيف نمارس تلك السلطة ؟ ، وفي هذا
المعنى نفسه ، يقول المشرع الانجليزى « آكون Acon » ، إن السلطة مفسدة
والسلطة للسلطة تفسد إطلاقاً Power corrupts, absolute Power corrupts

• absolutely

ويتضح لنا من تلك الكلمات التى تجعل الكثير من المعاني ، التى تؤكد على
« ديموقراطية الإدارة » ، فلا شك أن التربية للامركزية الحرة ، إنما تخلق شخصية
نامية متطورة ، متحررة رافعة الرأس . والانسانية زاخرة بنماذج لقيادات
ناهضة وناجحة لأنها صنعت التاريخ . فينبى أن ينظر الشباب إلى هؤلاء القادة
والزعماء والعلماء . وكبار الأدباء والكتاب ، الذين خلقوا لنا تراثنا ثقافياً ،
وشرروا للبائس . والتعاليم التى تجعل « حق الحرية مساوياً تماماً لحق الحياة » .
هو — فلقد نهض « جاليليو » ورفع رأسه أمام طغيان الكنيسة ، وأثبت أن
الأرض تدور رغم أنف الكنيسة ، ومارتن لوتر Luther ، انفصل بكنيسته عن
البابا ، وصرخ في وجه الكنيسة ، وأنكر استاتيكية الكاثوليك ، وحمل على حكوك
النفوس ، وأنكر قشرة العفوس . فالذين موافق صوفى خالص ، بين العبد وربّه ،
دون هياحه من شعار جماعية ، وطقوس مرسومة . حيث ينظر العبد إلى أسيبائه
وعلى وحده ، ك موضوع حبة objet d'amour تاجيه سبحانه ، دون قلة أو
سجابه ، ويدافع من التجرد الخالص والمحبة العميق (١) .

ولقد تحرر « إيسن » Eisen ، فأخرج الناس من الجود وكرم المرأة بيروباياها .

(1) Le Sennelancé, Traité de Morale Générale, press-univers Paris
1949 p 312.

ومسرحياته، وقصدت أن تحريراً مائلاً بروايت « بيت البعثة » ، « Doh's House » .
ومن هنا حرر المسرح والأدب للترويجي للمرأة، بأنزعها من الأنوثة إلى الأنثانية .
ولقد صاح « برناردشو » صيحة حرة قوية، وهناك عرض الاستهلاك سائراً . وهناك
الكثير من حلة المشاعل الذين « أيقظوا » أهمهم من وقدة العدم ، وهم نماذج بشرية
و « قادة كليرية » Charismatic leaders ، بالمنفى الذي قصده « ماكس فبر »
وتعمل كلها على تحقيق الخيرات وتربية الأمم وتوجيه العالم (١) . وهم حيلة
حرية حرة وخلافة . وعلينا أن نؤمن بالحرية وأن نخلق الأحرار ، وأن نحرر العقول
المستتقة .

فالحرية ضرورية حتمتها نتائج علم النفس ، وفقه التاريخ ، وفلسفة البحث
العلمي ، ففيها تأكيد لذاتية ، وفيها ما يدهم الناس ذكائياً واجتماعياً واقتصادياً
فلفرض كل « تربية أو تفرطية مريضة » ، ولترفض كل ديكتاتورية مستبدة
ومستتقة ، تؤدي إلى الشعور بالهوان ، عن طريق « الإدارة للدرسية »
للإنسانية ، وأساليبها المضاعفة الكابتة ، التي تؤدي إلى « مرض التوهين » .

فليس أحسن حالاً ، ولا أسفه سفاهة ، من أو تفرطية معوقة . لننوه ، ومن
كفاية خائفة قاذبة ، مما كان حظنا من القدرة والإدارة والسلطة . لأنها إدارة
تتناق نمر الجاعة ، بل وتعمل الجاعة الإنسانية العضوية Organic ، إلى جماعة
ولا إنسانية ، عديدة aggregate . كيقولاً تكون Action للشرح الانجليزي التريوي .
د - وعلى كل إدارة مدرسية ، أن تفهم الحرية الضابطة أو الضبط الحر .
والتأمين المشاع . وفي هذا التأمين « ضبط فائق مثالي خالص » ، لأن الجماعة

(1) Weber, Max. The Theory of social and Economic Organization,
Glencoe 1967 p. 358.

هي التي تخلق الضبط المتعارف ، كما أن الجماعة هي مصدر القانون والحكم الذاتي .
والحرية هي التي تخلق النظام ، فلنأخذ مثلاً النظام . ولكن الحرية تجعل منا دائماً
« سادة لنظام » ، علينا ألا نفكر في أبية وضع السلطة ، بل ينبغي فقط أن نفكر في
كيفية ممارسة السلطة . « لا نتنا إذا ما وضعنا السلطة في مكان ما ، فلا بد وأن يكون
هناك « ضابط » ، ومضغوط ، فيتولد عن ذلك « الخوف » ويستشري « الغفاق » .
والغفاق سرقة للذكاء ، لأنه يغلط القوي ويمتاق القيادة ، ويقضي على « كواكب
الإدارة » ، ويهدد بالإنتاج ، كما يقتل « الغفاق الجماعي » سائر الملكات
والقدرات .

ففي الحرية يتفصح المجال للتربية ، بالإدارة الرشيدة والحقة ، وفي مناخ ديمقراطي
صحى يتحدد « دستور الشخصية » في العقولة للبكرة ، وخاصة قبل أن « يتحجر
أسلوب الحياة » وتتجسد أنماط السلوك ، فالعقولة هي الأرض الطيبة والحصة التي
تثبت فيها وتثمر ، بذور الصحة النفسية ، وينبغي أن نبعدها تماماً « جرثومة
للرض » ، تلك التي تخلق لنا الشخصية « غير السوية » .

التربية والمدرسة والطفل ؟

١ - يقول « جون ديوي John Dewey » شيخ للربين الأمريكي :

We must teach the child how to think, not what to think

« ينبغي أن نعلم الأطفال ، كيف يفكرون ، وليس ما يفكرون فيه » .

وهذا قول حق ، فلا شك أن كيفية التفكير ومناهجه ، وطريقته وأدواته .
ومناهجه ، هي أمور ضرورية ، بل وأكثر عمقاً وحجاً من « مادة التفكير »
وفهمه .

حينئذ نفس هذا المعنى يقول « ألفرد نورث وايتهيد Whitehead » ، يجب أن
نعلم الطفل كيف لا يفكر ، الطريقة لا التساج ، السبل والمنهج لا التقنيات .

والتأني.

We must teach the child, the how not the what, the process not the Product, the method of attack and enquiry not belief and Conclusions.

ويتضح لنا من هذا الاتجاه ، أن هناك ضرورة تربوية تفرض على المربين تنمية وترشيد مناهج الفكر ، في المدرسة ، حتى تترقى الممارك ، وتمو قدرات الأطفال ، كلما اتسع نطاق المنهج ومداه ، فلا ينبغي أن تقتصر على مجرد حفظ المادة وتلقينها ، فليتنا أن نحترم والنهج والكيف والطريقة ، وهذا ما تؤكد مائر الاتجاهات المعاصرة في التربية وطرق التعليم ، وليسكن الطفل هو نقطة البداية وهو المحور وهو الغاية من عملية التربية وهذا ما يقوله « جون ديوى ، في كتابه : Education to day حين يبر بكتابته « Let the Child be the starting point the centre, the end of any education ».

فالمدرسة إعداد للحياة ، والتربية هي الحياة نفسها ، وعلى المدرسة أن تقدم الطفل كل ما ينصل بشرائح الحياة ، كحقائق مبسطة وحية ونسبة . فنخلق التربية في الطفل ذاتية وفردية الأصيلة . فليتنا مشر المربين أن نحقق ذاتية الأطفال ، بصرية رشيدة وهادفة ، وبطريقة ديناميكية وخلاقة .

ب- والتربية أمر نسبي ، يختلف باختلاف الباحثين والعلماء ، فهناك تربية دينية وأخرى فنية ، وثالثة علمية ، ورابعة ثقافية . وإذًا تعددت مداخل التربية مع تعدد المربين ، من علماء دين ، وبيولوجيين وسيكولوجيين ، وفلاسفة واجتماعيين . فيعرفها البيولوجي بأنها « تكيف وملائمة » ، بينما يراها السيكلوجي « أنها طرق التعلم المتعلق » : كما يفسره الفيلسوف « أينشتاين » للتربية « مهنة اجتماعية توجه فلسفة خاصة » ، وفي هذا الصدد يقول عنه *Plato*

لشعب الألمان Address to the German people « إن فن الحرية لن يصل
إلى درجة الوضوح للطلق دون مساعدة من الفلسفة ، فالفلسفة موجه أساسي
وجوهري من موجبات التخطيط في ميدان الحرية والتعليم .

وقد يرى طالب « علم الاجتماع التربوي Educational Sociology » أن كل
هذه الوظائف البيولوجية والبيكولوجية والفلسفية ، قد تدخل في صلب عملية
الحرية . وهذه هي نسية الحرية من خلال منظورات مختلفة ، كل يعرفها وقصاً
لنوع الثقافة وقيمهم وطبيعة الإدراك والتخصص . ولكن الحرية عندى هي عدة
لأمة ، لكل ما يدور في بنية المجتمع والتراث والثقافة ، وهي عدة لاقعة لكل
القيم ، السائدة والاتجاهات الشائعة . كما حلت الحرية ووسعت وعمقت الكثير
من المفاهيم والمبادئ ، بل وغيرت وطورت الكثير من القيم والتقاليد البالية .

فالحرية عملية « هادقة وتطورية وخلاقة » ، فهي تهدف إلى خلق ونمو الفرد
للتنحدر في عالم سريع التغير ، كما أنها تظن في الإنسان فردية ، وتتمى ذاتية
الأصيلة ، بالحفاظ على كل سمات شخصيته « الفريدة Unique » ، دون أن تضدها
بالدخل ، أو تشكها حسبما تريد ، حين نصيب الدولة في القالب الذى تشبه .
ولكن يجب أن تعمل « هندسة التخطيط الإنسانى » في الحرية والتعليم ، على خلق
الشخصية للنسجمة مع نفسها ، بحيث يصبح الإنسان كائناً متجاً متحرراً ، ديناميكياً
يسعى نحو الجديد والتجديد ، سعيداً قائماً وراضياً Satisfied . وذلك حين رفض
التقاليد الآفة ، والنظم الآسنة للثيقة ، وبذلك يتحرر المجتمع بالترقية الفلسفة ،
من قيود الماضى وقوالب الثقافة ، وغبار التقاليد الثيقة ، التى لا تتفق وروح
العصر الجديد .

« فربما هو خلق بحرية للفعل بالذات ، بنحى أن تكون قائمة على الحقيقة
وتصبح التأمل « والابتكار ، والقدرة على التكيف مع المواقف الجديدة ، حين

يقع الطفل في مشكلات بسيطة ، وحين يطالب بحلها باستخدام الذكاء والتفكير والتدبير . فيجب أن تقوم التربية ، على تنمية قدرات التفكير وتطوير الذكاء ، وتهديب التصورات ، عن طريق الرعاية الفكرية والثقافية . فالتفكير هو أعظم ملكة ، وأعظم عملية ، ويقوم بأهم الوظائف . حيث أن الفكر هو الشراع الحلاق ، الذي يكون معنا على الدوام . في كل موقف ووراء كل سلوك . وعلى المرين أن يخططوا لفكر الطفل وثقافته ، حتى ينضج عقله ، وترداد معارفه ، حيث يقوله بوانكاريه *po s care* . إن وقائع الطبيعة لا تهدى شيئاً ، كما وتبقى غير مشورة ، إذا لم نجد العقل الذي يفضها والفهم الذي يفسرها ويسبر غورها (١) .

ويتغير معدل الذكاء مع اتساع حجم الخبرة ، فيحدث التعلم والتكيف ، حتى يصبح العالم من حولنا طبيعياً ومألوفاً ، مقبولاً لمقولنا وأفهامنا ، بازدياد مجال العلوم ، واضمحلال ساحة للجهول وضيقها ، كلما اتاحت للذكاء فرصته للتكيف والتعلم وازدياد الخبرة .

والتعليم وظيفته البيكولوجية لتحقيق التلازم بين الإنسان وبيئته ، وإزالة عدم التوازن Imbalance الناتج عن القلق والتوتر ، وكلها ظواهر بيكوسبولوجية صدرت عن عدم التكيف Maladjustment حيث يحقق التكيف التناجم عن الخبرة والعالم والصواب حالة من التوازن equilibrium (٢) .

ولاشك أن القرصة المتاحة الصغير ، هي أهم سكتة مما يجب أن نفسه ونتيجة الكبير حيث تقل الحاجة إلى الرعاية النفسية والتطعيمية ، بازدياد سنوات

(١) Poincaré Henri. Science et Méthode, Flammarion, Paris 1927 pp. 22-23

(٢) Lundberg George, Foundations of Sociology, New, York Macmillan 1916 pp. 307-314

العمر، وهذا هو سر الاهتمام البالغ بمدارس رياض الأطفال، حيث يوسع المجال الاجتماعي حين يسهل وينكشف الذكاء، ويتبين للبول؛ وتتفتح القدرات الكامنة، وبخاصة في تلك السنوات المبكرة بالذات، حيث يرداد بعدها الذكاء إنشاعاً مع إلتساع وعمق الخبرة التي تزداد على مر الأيام.

وهذه كفة موجهة إلى السادة المخططين في ميدان التربية والتعليم، فللطفل وحقوقه وطالبه، التي ينبغي أن تمكنها له أسرته ومدرسته، عن طريق الرعاية والحنان، والتوجيه وال ضبط، مع الحرص والحذر، خوفاً على ثقافة الطفل، المبكرة، التي ينبغي أن تنمو باستخدام الأجهزة والوسائل التكنولوجية السريعة والبصرية، حتى تصبح ثقافة رشيدة وصحية وخسبة. وعلى كل اللذين أن يحققوا هذا الرجاء، حتى نراه كحقيقة واقعة بعد تخطيط تربوي، منظم ومادق.

• • •

د - وجهة القول، فإن خبراء التربية وقادة الفكر والثقافة، حين يخطئون من أجل الأجيال القادمة، إنما يحققون أهدافاً حضارية، تنبع من طرق التعليم القديمة، ولا نستورد طرقاً فرنسية أو إيطالية، لاتفاف مع مصيرنا وظروفنا كما لا يتسع بها أيضاً العلم، والوجه، وناظر المدرسة، وكل من يقوم بتطبيق للتأهيل، من أجل تحقيق أهداف المصلحة.

وعلى غول المثال لا الحصر، لقد واجهت طريقة الرياضيات الحديثة، الكثير من الصعوبات، وصادقها اللغاب، فلم يقتنع بها المدرس المصري، بل وقد راجعت عنها الكثير من الدول للتقدمه حضارياً كالسويد والولايات المتحدة. ولذلك يجب أن يضع المخطط التربوي المصري خطة تعليمية نابعة من واقع مجتمعه وقيمه الأصيلة. وهذا ما أعلنه وزير التعليم في جمهورية مصر

القرية في مؤتمر عقده لجنة التعليم للنيقطة من الحزب الوطني الديموقراطي ، وحضره رجال الجامعة والوزارات العلمية والتربوية ، وذلك لمناقشة خطة تطوير التعليم (١) .

هذا عن التخطيط في ميدان القرية ، وعناكب ياديين أخرى التخطيط الاقتصادي والسياسي ، بالإضافة إلى ميدان تخطيط آخر لتنمية البيئة ، حيث يجب أن يلتفت د التخطيط الاقتصادي ، وينتبه إلى تعدد الحاجات والمشكلات ، حتى يحدث التكامل المطلوب في تنمية سائر نواحي الحياة بتنسيق الجهود للمشركة د من أجل للتابعة الشمولية والمساومة المتكاملة ، مع الاشراف الفعلي على كافة المرافق والخدمات . وفي ميدان د التخطيط السياسي ، يمكن تنمية للتنظيمات السياسية ، تطوير مفهوم د السلطة ، وتغيير نظم الاشراف ، وخلق الأدوار والمراكز الجديدة في التنظيمات والاناساق السياسية ، مع ادخال صور متطورة للرقابة ، وتعديد الاشكال البدائية والتقليدية في نظم د الضبط الاجتماعي ، بتطوير الانساق التقليدية والقواعد المنظمة للعرف والنماذج ، مع تغيير د بناء القوة ، في المجتمع ، والاتجاه نحو قيم وتنظيمات سياسية جديدة ، مضي لما جوانب أخرى لمفاهيم جديدة في د العدل السياسي ، و د العدل الاجتماعي ، و د الحكم المحلي ، ، بتعديل الانساق السياسية القديمة ، التي كانت تدور حول مفاهيم د السلطة ، و د الحكم ، و د الصالح العام ، ، وذلك بتدعيم د الرقابة الشعبية ، ، لأن الشعوب والامم والمجتمعات ، وهي صاحبة المصلحة الحقيقية ، ومصدر السلطة ، ولذلك نشأت في جمهوريتنا المصرية د أشكالاً جديدة من التنظيمات الانموية ، تفرض الرقابة وعامرة السلطة ، مثل د مجالس القرى والمدن والأقاليم والمحافظة ، ، بحيث توظف في كل هذه المجالس د لجان خاصة بقطاعات الزراعة والصناعة والخدمات .

أما فيما يتعلق بتخطيط تنمية البيئة *Reodevelopment* ، فيكون ذلك بالتركيز على تطوير أنماط الحياة ، ومجيد الطرق ورصفها ، وفتح الترع وإقامة الجسور . وحفر للمصارف في المناطق الزراعية وذلك من أجل تنمية البيئة القروية ، أما بالنسبة لتنمية للندن والبيئات الحضرية ، فينبغ إعداد وتنمية البيئة حضارياً من أجل إدخال مشروعات إقتصادية أو صناعية ، وذلك بتطوير وسائل النقل وللواصلات السلكية واللاسلكية ، وبناء الأتفاق والكبارى وللطارات ومد الخطوط الحديدية .

وختاماً ، من أجل التجهيل بالتنمية ، والاسراع بتنفيذ خطط التطوير الاقتصادي يجب ، أن يكون التخطيط مرناً ، ومعتمداً على أوعية تهريرية صلبة من البحوث العلمية والدراسات المحلية ، والمسوح الدورية لواقع الاجتهاد والاقتصادي ، حتى توافق عملية التخطيط مع طبيعة مشكلات المجتمع ، محل التخطيط .

هـ - وإذا ما نساء لنا عن مختلف الأسباب والهداف التي تساعد خبراء التخطيط والتي تجعل بالتنمية ، وكيف تضافر هذه الدوافع في استراتيجيات التخطيط الاقتصادي والاجتهاد ؟

نقول في الرد على هذا التساؤل ، إن التباين والقرى والمناطق البدائية ، هي مجتمعات تقليدية مختلفة ، ومن خصائصها ، وجود ظواهر الاستاكية والقبائل والولاء والعصية ، في مجتمع يقوم في علاقته على المركز *Scetus* ، كما تشابه فيه أنماط السلوك الاقتصادي ، وتقليل وتنعدم فيه حوافز زيادة الانتاج والادخار والاستثمار .

إلا أن تطويع هذه المجتمعات التقليدية الثابتة ، وتحويلها إلى مجتمعات ديناميكية *dynamic* متبدلة *Civilized* ومتعلمة ، وتقوم العلاقات فيها على

العقد Contract كما يظهر الطموح ambition والولاء للمجتمع ككل (١) .

وتتجسد معظم دوافع التطوير الحضارى ، فى وجود أسباب خارجية ، مثل الاعلام وأثره فى تسهيل اتصال المجتمع التقليدى بمجتمعات أخرى متقدمة . وقيام حكومات مركزية قوية ، تدفع عجلة التطوير الاقتصادى ، وتساعد على هدم القديم ، وإنهار القيم التقليدية . كما يؤدى انتشار مبادئ العدالة والمساواة ونظم الإصلاح الزراعى فى معظم الدول النامية إلى تغيير علاقة الفلاح بالأرض . أما عن الأسباب الداخلية التى تعمل على نجاح التخطيط فى د سيكولوجية وسوسولوجية ، من جهة ، كما أنها د يئية وايكولوجية ، من جهة أخرى ، فلا شك أن الصراعات الداخلية والتغيرات التورية ، إنما تؤدى بالضرورة إلى إحلال لقانون عمل العرف ، والتقليل من هبة مائه قيمة ، أو مائدة تقاطع مائه من قداسة ، حتى لا تقاطع على عقول الناس معدادات فكرية جامدة ، أما عن السبب الايكولوجى فيتصل بتنمية البيئة ecodevelopment مثل تبييد الطرق وبناء الكبارى ، وتوسيع للباساتى ، وتشييد للندن ، وربط للندن بالقوى ، مع الاكثار من الاسواق حتى يزداد حجم ومعدلات التبادل التجارى والرواج الاقتصادى ، وهذا هو الهدف الحقيقى من د كل استراتيجيات التنمية والتخطيط .

(١) دكتورة جهان آدم - رشتى . نظم الاتصال ، والاعلام فى الدول النامية دلف الله شكرى

الفصل الرابع عشر
التنمية الإدارية وثورة التخطيط
• نموذج من التنمية السياسي

- تمديد
- التخطيط والتنمية
- الثورة الإدارية ومكونات التنظيم
- الإدارة كفن اجتماعي
- ترشيد الاتفاق

تمهيد :

لقد كان النظام الإداري القديم ، هو نظام « البصمة والتخمين Rule of Thumb Method » ، ويقوم النظام الثوري الحديث على الأسلوب الموضوعي وللنتج الوضعي ، فتصبح الإدارة عالية ، مما يؤدي قطعاً إلى ضرورة إحداث ثورة في الفكر الإداري ، وتغيير جوهرى في أنماط الفكر الإداري القديم ، نحو الفهم والوضوح والحقيقة ، مع السرعة وتحسين الفعالية ، وإحلال الرونة والتفاعل فكانت « الإدارة العلمية » ، المعاصرة بمثابة « الثورة الفكرية » التي نهجت عن « الثورة الصناعية » . الأولى تنظيمية وإدارية ، والثانية إبتكارية وفنية ، فكانت للرابضة بين فن الإدارة والتنظيم ، والقدرة على خلق صناعات ذات إنتاجية عالية وباستخدام تكنولوجيا متقدمة .

ملبغات التخطيط وإبراج التنمية :

تعمل إبراج وفلسفات التخطيط فى الدول للابية ، على تطوير التخلف ، وتحديث التنمية ، وتغيير « الأمر الواقع » . وهناك شرط ضرورى وجوهري يتعلق بعملية التنمية . وهذا الشرط يفرض علينا « تنمية التحديث Modernization » لا « تنمية التخلف development of underdevelopment » . وتبنى الأولى نميئة الظروف وإتاحة الفرصة لاستحداث وخلق فرص التنمية . أما الثانية فهي محاولة استمرارية لبقاء التأخر واستمرار التخلف بخلق الظروف التى تسبب على إطالة التمدد ، وتمسح دول ثقافة الفقر والتخلف (١) .

وفى تنمية التحديث . نجد الرغبة الملحة فى استخدام التكنولوجيا والتدريب على أفضل تكنولوجيا ممكنة . بحيث تتناسب مع ثقافة المجتمع محيل الدراسة

(١) Myrdal, Gunnar, An International Economy. New York, Harper and Brothers. 1958,

والتطوير . وفي تنمية التخلف ، تتمركز على للشروعات ، لعدم احترام التخطيط العلمي ، باستيراد ما لا يتفق ونمط الثقافة ، واستخدام الأدوات الباهظة التكاليف ، مع التخلف الواضح في البنية التقني ، و د ضياع للال العام ، بشراء ما لا يلزم من أدوات ، وما لا يتفق من تكنولوجيا ، والدخول في مشروعات غير مبرجة ، واستخدام البرامج غير المخططة ، والأدوات غير المناسبة .

نماذج من السياسات الاقتصادية المخططة :

وتبنى الدول النامية ، سياسات اقتصادية مختلفة ، ذات منظورات ونماذج متعددة ، طبقاً لظروف كل دولة نامية ، فها من يطبق أساليب الاقتصاديات الاشتراكية ، ومنها من يعمل بمبدأ حرية العرض والطلب ، ومنها من يزاوج بينها فيحتل منزلة من الموزعين . وتدخل كل هذه النماذج وللنظورات الاقتصادية تحت مظلة واحدة ، يستغل بها انسان العالم الثالث حيث تهدف جميعها نحو تحقيق حلم التنمية والتجديد بتطورها ، وهذا هو هدف « التخطيط الاقتصادي الرشيد» .

ولقد تأثر مفهوم التخطيط ، بكل ظواهر التقدم الحضاري للانسان ، وتطور هذا المفهوم منذ كان غزواً بدائياً ، يعتمد في معيشته أساساً على صيد الحيوان ، بذكاؤه وفطنته ، دون غالب أو أنياب ؛ فاصطاد الانسان الأول فريسته بمختلف أساليب القنص ؛ ولا يمكن أن ينجح في صيده ؛ إلا باستخدام « طريقة » وتخطيط « كفية » ، واحتراف أسلوب غطط لمساكن الصيد والقنص .

ولقد أصبح الانسان « كائناً مخططاً » ؛ منذ بدأ يستقر في « مجتمعات القرية » ، بعد اكتشافه الزراعة ، واستقراره في مجتمعات قروية ، زراعية كانت أم تجارية لها عاداتها وتقاليدها ، وهذا هو التخطيط بمعناه البدائي التقليدي الذي قصده « كارل مانهايم Karl Mannheim » ، والذي أطلق عليه اسم « منجز الاكتشاف

بطريق « المصادفة chance discovery » (١) .

ولقد دخل التخطيط بمناه « المعاصر » ، إما لحل مشكلات التنمية الشاقة من ثروة التكنولوجيا ، وإما لضبط التوازن بين « اقتصاد السوق الحر » ، من جهة و « الاقتصاد الموجه dirigé » أو « المخطط planned economy » ، من جهة أخرى . وقد يتعلق التخطيط ، حين تتعالى الصيحات مع الدعوة للاقتصاد والمهوم على الاسراف . وتنمية كل فروع الانتاج ، واستغلال كل الأيدي العاملة ، وللاوارد الاقتصادية والمدنية ، وللمصادر الطبيعية .

ولقد ذاك « الفلسفة الاقتصادية » التي كانت سائدة أيام « التنازعين Merchantalist » و « الفيزيوقراط Physiocrate » ، بعد أن كانت ثروة الأمم تهدر بالذهب والفضة (٢) ، و « جم التجارة » ، ما أدى إلى « بذخ إقطاعي » تبذر مع أساليب انفاقه غير الرشيد ، كل « تراكم قومي » لاقتصاديات قامت أبغيتها وأساقها ، على « تهديس ميتافيزيقي الفردية Individualism » ومبادئ الأخلاق النفعية utilitarianism ، ثم بدأ الاقتصاد الرأسمالي بعدما في الظهور على أجنحة الفردية والنفعية ؛ فأخذ يسمى فهو تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، وبأقل نفقة ممكنة .

(١) Mannheim, Karl, Man and Society in An age of Reconstruction, trans. from German by Edward Shils, Kegan, Paul, London, 1942, p. 163.

٢ - مدونة الفيزيوقراطيين ، هي أول مدونة اقتصادية ، اعتمدت على تنمية الثروة wealth بالتجارة ، ثم مدونة الفيزيوقراط ، على أساس أن التجارة ليست هي السبيل الحقيقي للثروة ، بل هنا تعدد أنظر كتابنا في علم الاجتماع الاقتصادي ومشكلات الصناعة والحداثة - منشأة المعارف - ١٩٨٠ .

ولكن كيف تخطط الدول المتخلفة من أجل التنمية ؟

تعتبر الجمهورية العربية السورية من الدول الأقل نمواً *underdeveloped* ، وذلك إذا ما صنفنا دول العالم الثامى ووجدنا ، ما بينها من تفاوت شديد بين مستوياتها ، واختلاف درجة النمو لدى كل منها .

وحول ثقافة المجتمع السورى ، اجتمعت الأسباب وتراكمت الطلء لكن تفسر لنا الأسباب الحقيقية للتخلف ، وكلها أسباب سياسية وثقافية واقتصادية ، بدأت قبل مقتل الإمام السورى ، واستمرت بعد اغتياله ، نظراً لصلابة الرجعية ، قتلاه ولله الإمام اءءءء بعد فشل انقلاب ١٩٤٨ ، الذى كان يهدف إلى الثورة على رجعية السورى ، وتحريرها من حكم دكتاتورى متأخر ، يتميز سياسياً بأنه متحيز ومستبد ؛ بالإضافة إلى أنه قتل وتقليدى فى نماء ثقافته كما يتميز نظامه الاجتماعى بالبيروقراطية البذنية للتخلفة ، التى تبقى فى رجعية ، وتستمر على حال واحدة ، فىبقى فيها الإنسان ، ويظل كما هو ، ويعيش ثم يموت ، دون أى تطوير أو تغيير ، ولقد هبت رياح التغيير على السورى ، بعد أن فتح الإمام اءءءء بعض النوافذ التى أدخلت الضوء على نظم متخلفة وعتيقة ، وذلك بعد ثورة مصر التحررية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، من جهة ، كما واجهت وأطلت قلاع الرجعية البنية فجأة وبدون مقدمات ، على مطلع النصف الثانى من القرن العشرين ، من جهة أخرى . وبفضل وجود قوى التحرر السورى ، وخوفاً من إثارة العن ، وتحرير زعماء حركة الأحرار السورىين ، عقد الإمام اءءءء اتفاقية عام ١٩٥٧ مع الاتحاد السوفيتى ، لتسييد جناءء المديدة ؛ طبقاً لأحدث التصميمات الحديثة . ومن أجل الإصلاح أيضاً ، اتفق الإمام اءءءء مع الصين الشعبية ؛ على تسييد الطريق بين المديدة وصنماء ؛ كما زود مصر ، عاصمة حكمه بالمياه النقية ، بدلاً من استخدام الآبار العظيمة ، والمياه الملوثة .

وبعد إءراء هذه الإصلاحات أخذت ثقافة السورى ، فى التخلل عن أعماط

تقليدية ووجعية ، وبعد أن نختلف وأخر ، وعاش عمره التناق في عظام الجماهير ،
فبدأ الانسان العيني يفتن من تأثير الاستهلال والكسل ، وتعديل القات ، وهو
المخدر العيني للصور (١) .

وفي عام ١٩٦٢ ، قامت ثورة اليمن للشهيرة ، وبدأت بعدها مشروعات
التنمية والتخطيط ، ودخلت اليمن بعد نجاح الثورة ؛ عصر الكهرباء والقطار ،
ثم بدأت بعدها عملية التحديث Modernization ، الحضارى تخطو خطواتها
للتنمية الأولى ، من أجل إعادة بناء الانسان العيني .

وعلى ارضى برامج التنمية ، وخطط التطوير الحضارى في اليمن . أن
يتجهوا . الى ما هو خطير بصدد قتل التكنولوجيا . فليس لهم هو عملية النقل
الحضارى . فحسب . وإنما لهم هو تطويع هذه التكنولوجيا بالنسبة لقط
الثقافة السائدة في البناء الاجتماعي العيني ، مع تهيئة التكنولوجيا الخاصة باليمن .
وإعداد ما يلزم لها . بالنسبة لتنمية البيئة ecodevelopment في المجتمع العيني .
كما هو الحال تماما بالنسبة لتكنولوجيا الهند . وتكنولوجيا الصين الأولى متطلبة
وصاعدة . والثانية متقدمة ومتنشرة في معظم دول العالم الثالث . وهي ما تسمى
أحيانا بالتكنولوجيا الوسيطة وهي تكنولوجيا خاصة يحل مشكلات التنمية في دول
آسيا وإفريقيا .

الأمر الذي معه . تمعد الآمال لوضع الخطط وبرمجة البرامج ، لتدريب الشباب
العيني للعاصر على مختلف فنون الادارة وتطوير الصناعة . وتحديث النظم والقيم
بتمهيد التنظيمات التقليدية والاستفادة من الخبرات في ميادين الصناعة والطب
والتكنولوجيا المتوفرة . حتى تستفيد كل القطاعات السياسية والادارية والاقتصادية
بدخول هذه التكنولوجيا الجديدة . فيمزج الدخيل بالأصل original .

(١) هناك مادة عينية ووجعية واستعمارية لشهرية السلوك الطبقى الناتج ، وهي
شروع تطلق القات ، التي اعاد العيني هل « تعزيت » وكلمة « تعزيت » هي الكلمة العينية
المأخوذة الى قتي استخدام « القات » وتناوله من طريق الفم واحسنه أو كسطلاب رحبه
ثم يلقط بعضها ، من جهلها ، بهاها الهلابة

وربما تختلف في الاصطلاح وتأخذ النظرة التقليدية طعناً في كل فكر ، وعطرق كل عقل ، مع تحديد « الاندماج amalgamation » ، فلا يهدم الجديد كل قديم ، ولا تؤثر القيم المدخلة على القيم الأصلية ، ويصبح الانسان البني سيداً لنظام ، لا عبداً خاضعاً لأوضاع وتقاليد أغنى عليها الدهر .

٢- الثورة الادارية ومفوقات التنظيم :

أ - تحتاج كل الدول والمجتمعات النامية إلى ثورة ديناميكية في كل الأجهزة والتنظيمات الادارية ، حيث تمتد عملية « تنظيم الانتاج » ، وزيادة وروج السلع والخدمات أو تسويقها إلى عمليات وخدمات إدارية ، بمعنى أن الفكر الاداري ، إنما يكون له وظيفته وردفله في خدمة وتنشيط وترشيد العمليات الانتاجية ، حيث يعتبر الجهاز الاداري ، نفسه بمثابة جزء لا يتجزأ من البناء الانتاجي كله .

فالصليّة الادارية بدورها هي عملية انتاجية ، ، إلا أنها لا تؤدي إلى « نتاج » مادي أو خدمات عينية منظورة ، فالإدارة الرشيدة لا تنتج سوى « نتاج تنظيمي » لا مادي ، حين تقوم على أساس على من العلاقات الانسانية التي تخلق « الجو الانساني للنتج » ، وتنظم العلاقات للربحية ، كما تعمل على خلق « الكوادر الفنية » وتكوين للراكر والأدوار ، وتعمل أيضا على احداث التطوير والتنفيذ في بنية كل تنظيم وفي إقرار كل مشروع من المشروعات الاقتصادية والمهتاجة وعلى العكس من ذلك ، فإن سوء الإدارة : *dismenagement* إنما يؤدي بدوره إلى هبوط الانتاج وضعف مستواه .

وقد تؤثر الفلسفة السالبة السائدة ، على نوع التنظيم الاداري ، إن كان إستبداديا وديكتاتوريا ، أم ديمقراطيا وحرًا . حيث يشارك العمال في كل تنظيم إداري ، ويساهمون على نحو ديمقراطي في ادارة للشروعات ويختارون

الانتخاب الحر مجالس الإدارة .

ويذهب د ريمون آرون *Aron* ، إلى أن هناك استعانة في إدخال الديمقراطية الإدارية ، والحرية الانتخابية ، في قلب الإدارة ، بحيث يشعر العامل بأنهم يتصرفون هم بأنفسهم كل ما يحتاجه والتنظيم الصناعي ، و قد للتشروع الاقتصادي ، من كفاءات ومطالب . فلم تثبت حتى الآن صلاحية هذه الكفاءة الإدارية العالية ، وذلك لأسباب خاصة بسيكولوجية الوعي العليق العامل ، وانجاعاتهم للمسؤولية ، وعدم رغبتهم الأصلية في المساهمة في إدارة العمل ، لأنهم سيكولوجيا وسوسيولوجيا ، لا يشعرون كأفراد أو كجماعات بأنهم يعملون من أجل أنفسهم ، في سائر للمصانع والمؤسسات .

ولاشك أن التنظيم الإداري الديمقراطي الناجح ، في كل مشروع ، ومن أجل كل عمل ، وعلى رأس كل تخطيط أو برنامج ، هو أكثر كفاءة وفعالية من التنظيم الاستبدادي القهري . ومن هنا يسم في كل تنظيم إداري عدد محدود من المشرفين والمديرين القنين بكل ما عندهم من روح ديمقراطية خلاقة في الإدارة والتنظيم ، وفي كل الدول على اختلاف فضاءاتها السياسية وتنظيماتها الإدارية .

فالمشكلة الأساسية في كل تنظيم إداري *managerial Organization* هي مشكلة سيكولوجية أخلاقية وسوسيولوجية ، تؤكد العدالة وتدعم الشجيرة والتضامن ومن هنا تنبأت الأذهان نحو ضرورة الاهتمام بتحقيق « الانسجام والتكامل » بين العامل والإدارة^(١) ، الأمر الذي مه ، تملك علوم العلاقات الإنسانية *Human relations* ، والصناعة في أمريكا في عشرينيات تحقيق أكبر انسيان يمكن

(١) أدون ، ريمون ، ٢٠٠٠ ، المجمع الصناعي ، ترجمة الدكتور بلال عبد الوهاب ، منشورات

داخل التنظيم الإداري ، ، حتى يتحقق أكبر كم يمكن من الإنتاج (١) .

ب - إذا كانت الإدارة المتخلفة ، هي عائق من معوقات التنمية ، فلا شك أن تحديد النظم الادارية ، قد أصبح يشكل حاجة ملحة وحسورية ، في المجتمعات النامية وفي كل مجتمع صناعي . مستحدث ، وذلك لقضاء على مشكلات أساسية ، تخلف عن بقايا صعوبات روتينية ، صدرت عن أنماط بيروقراطية قديمة ، ، معوقة وقاضة لنمو ، ولذلك أصبح من الضروري أن تعمل إدارياً على إزالة كل المعوقات التي تهدس الشكل دون المضمون ، ، وتطبق الظاهر دون الصوري .

والادارة جهاز أو نظام ، يتأثر بكل ما يدور في بنية المجتمع من أجهزة ونظم . ويتحقق وظيفة الادارة كجهاز حيوي ، يعمل كنسق له بناؤه وتنظيمه حين يحقق الترابط ، والانسجام بين سائر التنظيمات والأجهزة . حيث يتولف للنسق الإداري بالقيام بعملية ضبط وتنسيق الأعمال الإدارية ، ووربط سلطات التخطيط والرقابة ، بسلطات أخرى تشريعية وتنفيذية .

وتحقق الادارة الناجحة ، في أي تنظيم اقتصادي أو مشروع صناعي ، غايات إنتاجية كمية وكيفية ، عن طريق التوفيق بين ، فئات الإشراف ، وفئات العمل ، حين يعمل الجميع بروح الفريق للتعاون ، لتحقيق الأهداف البعيدة تختلف التنظيمات وللشروعات .

الادارة كنسق اجتماعي :

أ - كنسق إداري ، كالنسق السياسي ، يستمر من الانساق الاجتماعية الضرورية ، حيث يقوم بعملية تجميع لأوضاع شتى ، كما يضع نسقا مختلف

(1) Willhard Michael, Human relations Longmans, London, 1967.

الملاقات التي تربط التنظيمات القوقية ، ودهنات النحية ، كالمجتمع القانوني الإداري سائر القواعد والنظم التشريعية التي يفرضها القانون الإداري ، فرضاً وعلى نحو تنفيذي ، بينما يدعه أيضاً للنظام السياسي المجتمع . كما يضع « التفكير الإداري » القواعد الادارية للشريعة سياسيا ، ويحدد القوانين والقوانين للنظمة للملاقات بين سائر أجزاء التنظيم في كل عمل أو مؤسسة أو مشروع . بمعنى أن التنظيم الإداري إنما يتساند مع القانون والتشريع ، ويتعاين مع نظم السياسة والحكم ، فالقانون والسياسة والاقتصاد ، هي دعائم كل تنظيم إداري ، بمعنى أن الإدارة ، كنسق اجتماعي ، هي إستراتيجية راقية ، لنظم أولية وصور بدائية ، وحقوقية كانت تفيض بالقسوة الظلم ، فالإدارة تقدمية قدم الحضارة ، فهي تحمي مأساة الإنسان الاجتماعي ، وتحوى تاريخه وصراعه ضد الطبيعة وضد أخيه الإنسان ، ثم تطورت الإدارات وتخصصت في أشكال أرق ، حين تحققت والتحت بأنساق القانون والسياسة والاقتصاد . ومع تطور قضايا الحرية والعدالة والمساواة ، صدرت أشكال جديدة من التنظيمات الادارية ، طبقاً لمبادئ تحرير الإنسان من الظلم والظلمين .

ب - ولما كان للإدارة تاريخها ومآخيا والتحامها بأنساق القانون والاقتصاد والسياسة ، فإن التنظيم الإداري نفسه ، إنما يشتمل في طبيعته على معنى التنظيم Order بمعناه القانوني ، والنسق system بمفهومه البنائي ، كما وتحوى مفهومات سياسية تضمنها كلمة Regime . بكل ما فيها من « قهر » أو تسلط أو إجبار .

والإدارة بمعناها الواسع ، هي ترتيب الأعمال Orders ، والنسق العلاقات systems ، وفرض الأحكام Regime والقواعد ، التي يخضع لها التنظيم الإداري بمرته . بمعنى أن الإدارة كظاهرة اقتصادية أو سياسية ، إنما تتضمن عناصر « تنظيم » ، والنسق ، كما تتضمن أيضاً ككل ظاهرة اجتماعية

عناصره الضخمة ، أو « القهر » والجزاء Sanction (١) .

.. وللادارة مهمة خاصة وضرورية في استراتيجيات الدول والمجتمعات النامية تمثل في إزالة كل ما يوق النظام والتنظيم ، بتحطيم « الروتين » ، وبالتمنية للمسترة الفكر الادارى ، وارشيد الخبرات الادارية ، كهدف مطلوب في كل عملية تنمية اقتصادية واجتماعية .

٣ - وتقوم الادارة الناجحة بحل التناقض القائم بين « متطلبات التنظيم ، وأهدافه ، وبين « إمكانات أفراد التنظيم ، وتحقيق فعاليتهم واستغلال طاقاتهم على نحو يحد من الاسراف في الطاقة البشرية ، ويعمل في نفس الوقت ، على إنهاء الأسلوب الادارى البيروقراطى التقليدى ، بانقضاء على تلك النمطية القائمة في سائر القطاعات ، فكل تنظيم ظروفه وأهدافه ، فلا ينبغي مثلاً أن يحطط تنظيماً إدارياً واحداً لسائر التنظيمات الادارية ؛ فلا تلجأ إلى تنظيم إدارى واحد بعينه ، كي يطين في قطاعات متبايزة إقتصادياً ؛ كقطاع الانتاج أو قطاع الخدمات .

ولما كان ذلك كذلك ، تعمل الثورة الديناميكية الادارية ، التي تحتاجها المجتمعات النامية ، على إزالة التخلف الواضح في الفكر الادارى . وعلى إلغاء كل ما هو ثابت وقبلى Apriori في سائر التنظيمات القديمة . كما تعمل الثورة الادارية على تفتح للشروعات الامانية ، واقتصاديات التنمية الصناعية ، حين تساعد على فتح نوافذ الاقتراح ، وتزيل كل ما يوق النظام ، وهذا هو اتجاه الفكر الادارى في جمهورية مصر العربية في هذه الأيام (٢) .

1 - Durkheim, Emile, *Division du Travail social*, 1928, Paris.

٢ - علي السامى ، الادارة المصرية رؤية جديدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩

وهناك عمليات موجبة نحو كتابة وتحديث الإدارة ، كحركة حضانة الطفل عن طريق بذل الجهود المشتركة من أجل تطوير الفكر الإداري ، و تنمية الخبرة الإدارية وترشيد كل نظام وأساليب الأداء ، بإتباع الأشكال الناجمة ولللائحة وإعداد الدلائل الإدارية *Managerial skills* ، واستخدام التكنولوجيا الإدارية وتطوير أساليبها التقليدية بتغير أدواتها التقنية .

د - ولا شك أن أعباء الإدارة من إشراف وتخطيط ، ورقابة ومتابعة ، هي أكثر بكثير من أعباء نتائج الإنتاج ، حيث يتطلب الإشراف الدقيق للتجهد مضاعفاً ، قد يفرق الجهد للبذل من السكادحين من يشاركون في عملية الإنتاج . ويحتاج الإداري الناجح ، إلى طاقة عارقة ، وإلزمة فائقة ، وإلى جهود غير عادية ، بالإضافة إلى خصائص الحزم والبرورة والذكاء والمهارة والتفاهة ، وكلها أبعاد ضرورية ينبغي أن تتوفر كصفات عامة لشخصية الإداري الناجح . ولقد بذل الإنسان الياباني ، الكثير من الجهود الإنتاجية ، وضى بالآجر المرصع ، واحترم الزمن الاقتصادي ، واتجه نحو ترشيد الانساق بالإدخال والاستثمار ، الأمر الذي معه سمحت التجربة الاقتصادية اليابانية إلى حد بعيد في استراتيجيات التنمية والتخطيط والإدارة ، نظراً لارتكازها إلى أرضية إيديولوجية صلبة من الأسس السيكولوجية ، واكتساب القيم الاقتصادية ، مع سيادة الانضباط الاستهلاكي ، والالتزام بقواعد التنسبة باكتساب المعارف ، وإجراء التجارب لتحسين الإنتاج كما وكيفا .

فالجوانب الإيديولوجية والسيكولوجية والخلقية ، هي عناصر إنتاجية من الدرجة الأولى ، ولها دورها الحاسم في التخطيط والتنظيم والإدارة ، فلا تتطرق طامعت الإنتاج بالاستخدام الرشيد للألة دون إعمالها قسنتك قبل إتيساء الزمن للفروض أو السر الطبيعي لتشييدها . خلافاً وليس لألة هي التي

الأول 'The First Producer' ودعونا أن نتجه نحو تأهيله ومكتمله ، واستيعابه التكنولوجية ، فلا بد من إعادة النظر نحو بناء الإنسان ، بالاتفات إلى مكوناته الحضارية والثقافة ، وتحت أنماط السلوكية ، تهذيبها وتنميتها حتى نعيد لعملية التنمية الاقتصادية فعاليتها ودورها في تغيير الإنسان ، وتطوير طموحاته وآماله وأحلامه ، ينير من أسلوب ونمط الحياة .

٥ - والتجربة اليابانية التي أشرنا إليها منذ قليل ، هي تجربة رائدة في علوم الاجتماع الصناعي والاقتصاد والثقافة ، كما أتت في علوم التنظيم والإدارة والتنمية والملاقات الإنسانية . وذلك بسبب احتفاظها بنظام إداري ، وأساليب تنظيمية ، تنبع من القيم اليابانية نفسها .

وبالرغم من استيراد الياباني للمواد الخام نظراً لاعتماد الاقتصاد والصناعة في اليابان على استيراد التكنولوجيا الصلبة *Hard Technology* ، فقد أصبحت الإدارة فناً يابانياً أصيلاً في أساليبه وقواعده التي يشرها الياباني وتسمى في دمه حيث تنبع من القيم اليابانية نفسها ، كالأحاساس بالزمن الاقتصادي ، واستغلال الخبرات والطاقات . فأصبحت الإدارة في اليابان هي أسلوب الحياة اشتهر بها الياباني كطريقة المعاملة في حياته وعلاقاته ، وفي تطوير أعماله ومشروعاته (١) . كما تعلمنا التجربة اليابانية أيضاً عدم التزامنا ضرورة باستيراد النظام الإداري ، لأن تنظيمات الإدارة ، ينبغي أن تتشى مع انشاق المجتمع وقيمه ، حين تتكيف ونفسهم مع سائر أنظمتهم التشريعية والاقتصادية والسياسية ، بحيث يصدر كل تنظيم إداري ، عن واقع البناء الاجتماعي والثقائلي الحضاري ، المجتمع موضوع الدراسة .

(١) الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ، نحو نظام إقتصادي طلي جديد ؛ دراسة في
الهيئة التنموية ؛ المطبعة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧

٣- ترشيد الافاق :

أ - هناك بين سائر الدول والمجتمعات ، نماذج غنية في مواردنا ، ينبغي فقيرة مختلفة في مبادئها وعاداتها الفكرية والثقافية ، فهي في ميسر الحساسة إلى ما ينمينا حضاريا ، يتماجد دولاً فقيرة للوارد ، توابك أرقى ما في الحضارة من أنماط . ولقد شرع الحكومات في المجتمعات للتخلفة في القيام بمشروع صناعي أو انجاز برامج اقتصادية ، دون الالتفات إلى عناصر الثقافة وأنساق الفكر وقوى القيم المحلية . ومن هنا يبدأ التعارض ، ومن هنا يبدأ الترشد والتنسيق . وقد لا ينجح أى جهد مع التعارض بين « إمكانية الثقافة » ، وتخطيط اقتصاديات التصنيع ، ، مما يحقق معه كل أمل من أجل التنمية للمادية ، دون أن تولد أو أن تعمل على رفع « إيديولوجيات عتيقة جامدة » ، وتحرك « ثقافات بدائية » ، بـ « غافية في غيباتها » ، لأنها مستويات حضارية مختلفة ، يجب تنميتها برضا من المضيق شيئاً فشيئاً حتى تتخلص من مخلفها ومبطلها . وتوائم في عملية التخطيط والترشيد كل وجهات النظر الاقتصادية والسوسولوجية والسيكولوجية والقيمية ، حيث يحتاج التحجبل في عملية للتنمية أصلاً إلى تلك الجهود للشعرك من علماء النفس والاجتماع والسياسة ، بالإضافة إلى تضافر جهود رجال الدين وخبراء الاقتصاد . لدراسة ترشيد الافاق ، بالتركيز على السلوك الاستهلاكي والإستهلاكي والادخاري ، في ضوء دراسة التفضيلات الاجتماعية ، وفهم القيم وموجبات وسلوك السلوك . ، فإذا نفي ترشيد الافاق ؟ وكيف نحقق أفضل ثقافة ممكنة ؟ .

في الواقع ، لقد فاض المخاطر ، بفيض من الحواطر ، التي تدافع في قوة كـ - تخفى إلى أن السوق بصدد ترشيد الافاق - مثالا بل من أشد من الاقتصاد القرآني العظيم ، تهدف جميعها في روعة ، إلى ضرورة تحقيق أفضل ثقافة ممكنة .

حين يقول للول سبحانه وتعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى يديك ، ولا تبسطها كل البسط » ، (١) ، وفي قوله : « إن للبذرين كانوا إخوان الشياطين » ، (٢) ، ويقول في سورة التوبة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (٣) .

ففي الآية الأولى يستنكر الاقتصاد القرائي « الاسراف » ، وينهاانا للول ببارك وتعالى عن التقتير . وفي الآية الثانية تحذير من التبذير ، حتى لا يستر الانسان تبذيرا ، وإلا سقط في الشرور والآثام ، وصار من اخوان الشياطين ، وأصبح ملوما محسورا . ففي التبذير « سفه » ، ويهيج « القانون » ، الحبر على أموال السفهاء من الناس بتميين « ولي أو حارس » لا ينفق إلا بقدر معلوم .

فالاسراف « مرض » ، تنكره الأديان ، ود سلوك « يرفضه العقل » ، ود سفه « يستنكره القانون » : أما الشح أو البخل ، فهو سلوك إقتصادي متطرف ، ومضاد لحرر والعرف والتبذير ، بل هو أشد فتكا ، وأكثر وبالا .

ولا ترفض الآية الثالثة ، موقف من يكنزون الذهب والفضة ، لإستنكار البخل في ذاته ، بل تعبر الآية الكريمة عن مفهوم اقتصادي عميق ، فالانسان الناجح ، ليست مهمته جمع وتكديس الثروة ، ولكن « مانعجب به » وتقدره حقاً ، ليس لملك الخوون ، أو الثروة للمكدسة ، وإنما « ماوراء الثروة » ، من أعمال ومشروعات ناجحة صدرت عن قدرات شخصية ذكية وشجاعة ، كما وتوصي في نفس الوقت إلى تنمية الثروة ، كما يبرأكم حباً رأس المال ويتضاعف . وبذلك توجه الآية الكريمة أنظار الناس نحو ضرورة عدم تخزين المال ، بالافراج عن

١ - سورة الاسراء ، الآية ٢٩ .

٢ - سورة الاسراء ، الآية ٢٤ .

٣ - سورة التوبة ، الآية ٣٤ .

للكدس من الثروات المخزونة ، حتى يتحول رأس المال ، المخزون الحامل ، إلى رأس مال ، متحرك عامل وديناميكي ، يخلق الثروة ، وينمي حجم التبادلات التجارية ، ويريد من معدلات الانتاج الصناعي . وما يؤكد تشجيع الاقتصاد الاسلامي لحركة رأس المال وعدم تكديسه ، وزيادة قيمة الزكاة للمخزونة على الودائع ، والمصرفات والمجموعات والاحجار الكريمة ، كالاس والوقود ، بينما تقل معدلات الزكاة على رؤوس الأموال العامة ، وتزداد معدلاتها على رؤوس الأموال الخاصة ، أو للكدسة .

وعلى هذا الأساس ، يرفض الاقتصاد الاسلامي ، مبدأ كثر المال وتكديسه كـ رأس مال راكد ، ويستنكر موقف كل من يكنز الذهب والفضة ، ولو كان كرمياً خفياً ، ومن ثم تبشر الآية الكريمة كل من يكنز للمال بالعذاب الليم ، بمعنى أن الاقتصاد القرآني إنما يردى مبدأ تكديس المال ، ويرفض هذا التراء الكرمي الذي لا يعمل .

ولاشك أن بناء مصنع ، أو تشييد فندق ، أو إقامة مدرسة ، أو مستشفى ، كلها مشروعات ومواقف تعبر في الاقتصاد الاسلامي ، عن معنى والتفقه في سبيل الله . حتى لا تتكدس الثروات دون أن تتحرك بالعمل كخفة في سبيل الله . فينبغي توجيه رؤوس الأموال من أجل العمل ، ومن أجل ما ينفع الناس حتى يعكس الخير في الأرض . وبطالنا الاقتصاد الاسلامي بتبعية كل للوارد وللطاقات الاقتصادية للاقتصاد وترشيده . فلماذا لا يعمل رأس المال العربي ، المخزون في بنوك وأمريكا ، ودسوسرا ، ودانطورا ، من أجل تنمية وتطوير دول البترول نفسها ، وهي في سبيل الحاجة إلى مشروعات إنمائية يستلزم رؤوس الأموال ، بفضل برامج مخططة إقتصادياً وصناعياً ، تستوعب كل الأيدي العاملة . والمجبرات البرية والتقنية والعلمية .

والآمال مقودة فهو إنعاش السوق العربية للشركة ، وتحقيق الاندماج Amalgamation أو التكامل Integration الاقتصادي ، وإنشاء بنوك التنمية العربية والإسلامية (١) وسوف تتكامل إقتصاديات الدول العربية ، إذا ما تضافرت الجهود للشركة ، وتدقت رؤوس الأموال ، ومن أجل تخطيط مشروعات وإنشاء مؤسسات للإنتاج الثقيل والخفيف والاستهلاك .

وإذا ما تضافرت رؤوس الأموال وتدقت ، وتوافرت الأيدي العاملة الرخيصة ، وللشروعات الإنتاجية ، فسوف يفيض الإنتاج ويتراكم ، وقد يعود فائض الإنتاج كمخونات اقتصادية وفنية ، من دول عربية منتجة إلى أقطار عربية شقيقة في حاجة إلى ما ينسبها وينشأ إقتصاديا ، كما هو حادث الآن بين الدول الفنية الكبرى في أوروبا وأمريكا ، وبين دول أفريقيا وآسيا وبجتمعاتها للتخلفة إقتصاديا . وهنا يصبح الإقتصاد العربي في خدمة الإنسان العربي ، حل السموم من المحيط إلى الخليج ، فالذين يكتزون الذهب والفضة من أثرياء العرب إنما يقومون بإجراء إقتصادى مضاد للتنمية ، بينما يحتاج العالم العربي كله ، إلى مخونات إقتصادية ، وإلى مشروعات صناعية ، وإلى رؤوس أموال عربية غلصة تندفق من أجل تطوير الوطن العربي ، برمه .

ولقد فوجئت حين تطالع في الصحف عن الاسراف الواضح الذى يعيشه أثرياء العرب ، وبخاصة في مناطق البترول الثنية باتانجا ؛ إلى الدرجة التى معها دفع أحدم ما يقرب من ١٥ ألف دولار ثمنها لمكالمة تليفونية ، حتى ينقل لولده الذى يشغل في أمريكا وصفاً إذاعياً كاملاً لمباراة رياضية ، لأحسدى التواضع التى يتبنى إليها ولده ، وسواء أكلن الخبر الصحن صادقاً أم كاذباً ، فإن حرية الإنسان

١ - دكتور عبد الكريم صادق بكات ، إقتصاديات الدول العربية ، الإسكندرية

في إضاق أمواله أمر طبيعي ، وحق أساسي من حقوق الملكية . إلا إن هناك
 حايصاً ، بترشيد الانفاق ، الأمر الذي تباركه الأديان السماوية ، وتحركه
 للذاهب الاقتصادية حيث تقتطم ضوابط السلوك الاستهلاكي ، فتجبه الأذهان نحو
 التخصف وعدم الاسراف . وفي الواقع إن يذير للال وإنفاقه المحسوم ، دون عمل
 أو عائد ، يحصل من للال نقمة لائسة ، حيث أن الانفاق في سفه دون ناتج أو
 جهد ، ودون ترشيد ، هو الجسيم بينه وفي هذا المعنى مثل « برناردشو » ، من
 تعرف الجسيم what is the definition of the he ؟ فأجاب على القور
 بكلمات ذكية ورائعة ، إنها أجازة أبدية لا نهائية ، مع للال الوفير ، وبلا عمل ،
 Everlasting holiday, with plenty of money and nothing to do.

د _ وهذا هو السبب الذي من أجله ، كان العقيدة البروتستانتية ، التي حلت
 بالتدريج مع شعارات « مارتن لوتر Martin Luther » محل التراث التقليدي
 للعقيدة الكاثوليكية ، صداماً في ظهور للذاهب والإجماعات الرأسمالية . فلقد
 أزاح الروح البروتستانتي تلك الموراثي الاستاتيكية التي طالما وقعت في العصر
 الكاثوليكي حائلاً دون الرغبة في الملكية ، فشجعت البروتستانتية على التفكير ، مع
 تأكيد روح الادخار والاستثمار ومشروعية دافع الربح ، ونظرت إلى العمل
 والسمل وترشيد الانفاق ، من أجل زيادة الدخل ، على أنها جميعاً من الأمور الدينية
 للقعدة التي تباركها الإرادة الالهية .

فالافراط في القرف والسرف والتبذير ، كلها أمور تنهى عنها سائر الديانات
 أما الاستخدام الرشيد للقوة ، فهو من الأمور المستحبة التي يدعو إليها سائر
 العقائد والشرائع الدينية ، الأمر الذي معه تمجعت البروتستانتية لترشيد الانتاج
 وتكوين رؤوس الأموال اللازمة لتمويل للتصريفات ، وفي ترشيد الانفاق من أجل
 التنمية الاجتماعية أو من أجل تجميع الأذهان نحو تحقيق مستويات اقتصادية

أفضل ، مع تجميع الرزج وزيادة الثروة ، عن طريق نمو الإنتاج ونموه .
وعذا هو السبب الذى من أجله حملت الفلسفة البروتستانتية على طسفات أفلاطون
وأرسطو ، وكل النزعات والمذاهب التى تحتقر الأعمال اليدوية ، وترددى الحرف
والهن . كما وتمردت القيم البروتستانتية الجديدة على السلبية ، وانقضت ورفضت
قيم « التواكل ، والتكاسل ، والاسترخاء وكلها قيم أرسقراطية لا يتقدها سوى
الكسالى والخاملين ، وهى قيم « غير عملية » ، ولا تتفق مع مبادئ وقواعد المذهب
البروتستانى .

ومن خصائص النظام الرأسمالى ، إحترام للسكينة الخاصة ، مع الاعتراف
بحرية الانسان فى العمل حين تتوافق وتتوازن للصحة الفردية ، مع للصحة
السامة ، ولا يتحقق ذلك إلا باتاحة « سوق اقتصادى مفتوح » ، ومنافسة إقتصادية
حرة ، كل ذلك من أجل الرزج للزيادة ، وحوافز العمل القائمة على قانون العرض
والطلب .

وإذا ما عقدنا المقارنات بين الانساق الرأسمالية والإشتراكية ، لوجدناها
تتركز حول تقريب القوارق الشاسعة بين سائر طبقات المجتمع ، وتحقيق السعادة
والرفاهية لأكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع ، مع عدم إغفال لتوافق ، بين
الحاجة للسمة إلى زيادة الإنتاج ، والرغبة للسمة فى الاشباع والاستهلاك ، طبقاً
لقيم التفضيل الاجتماعى ، مع ضرورة تغيير القيم الاستهلاكية ، بالاتينات إلى
قطاعات الخدمات ، والعمل على الانتفاع للزيادة من إنتاج قطاعات التصنيع
والزراعة ، من أجل مجتمع ترفرف عليه الرفاهية ويسوده الرضاء ، على أرضية
صلبة وثابتة من الإنتاج الاقتصادى .

د - ولئن كانت هذه هى حسنات النظام الرأسمالى ، فلا شك أن من عيوبه
عدم توجيه الرشيد لموارد الإنتاج ، وإساءة توزيع الثروة نظراً لتضخم رأس

للال ولزيادة الفروق بين طبقات المجتمع ، ولأفكار البطالة ، واضطراب الأحوال الاجتماعية ، وهناك الأمرة ، بالإضافة إلى حدة التقلبات الاقتصادية ، كما وتزداد الرأسمالية حثا إلى التوسع والحروب والبحث عن الأسواق والاستثمار الأجنبي في الأسواق.

ونظراً لتعدد هذه العيوب ، فقد نبأ ماركس « باند حار الرأسمالية » وبشيوع الاشتراكية التي هي بمثابة تحرير الإنسان من الاستغلال ، وتقديس الملكية الخاصة للشعنة ، داخل نظام ديمقراطي ، مع إنتاج موجه لاشباع حاجات المجتمع ، وتوزيع الثروة والأرباح طبقاً لمبادئ المساواة والعدل الاجتماعي ، مع ضرورة توافر الإدارة الفعالة ، باستخدام أساليب معاصرة في ميدان العلاقات الإنسانية Human Relations وفقاً لنتائج علوم التنظيم والإدارة في تخطيط السياسة الإنتاجية وتحقيق أكبر إنتاج ممكن ، مع الارتفاع المستمر لمعدلات الدخل ، وللخدمات والاستثمارات ، مما يؤدي حثا إلى تغيير جذري في مجال التنمية الاجتماعية .

ويذهب « جونار ميردال Gunner Myrdal » إلى أن عمليات التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، إنما تساعد لترشيد الاتفاق ، وتحقيق عائد دائم يحتاج إلى عملية ترشيد آخر للإنتاج والاستهلاك^(١) . ومن أجل الإسراع بالتنمية ، ينبغي الالتفات إلى العوامل الأيديولوجية والثقافية التي تساعد على التطور الاقتصادي وهذا الصدد يذهب « ألكس إنكلز Alex Inkeles » إلى أن الملكية الخاصة ونظام التوروث ، ونظم الاقتطاع وأنماط الثقافة وطرق الإنتاج قد قاومت جميعها ، قوى التغيير الجارية التي صدرت عن سلطة الدولة القائمة في روسيا الشيوعية . مما أدى بالطبع إلى بطء التغيير الاجتماعي في جمهوريات روسيا السوفيتية^(٢) .

(1) Myrdal, Gunner, ' An International Economy. New-York Harper and Brothers . 1958

(2) Inkeles, Alex. Social Change in Soviet Russia New York 1964.

ولا شك أن صيحات الترشيد المكتومة التي يرددتها خبراء التنمية لا يكاد ينفصل بها أحد، فيجب أن يسيطر الإنسان على سلوكه، وحينئذ استهلاكه، وتغيير دأمة التفضيل، عنده، واستبعاد الضرر، وإحياء النافع، بحيث تتلاحم عناصر التكنولوجيا والأساليب التقنية، ونظم الإنتاج والإدارة، مع الجوانب الحضارية للإنسان الاقتصادي، ومكوناته الثقافية. فالمسألة ليست بسيطة أو هينة، وإنما تحتاج إلى تضافر جهود خبراء التربية والتنمية، وعلماء النفس والثقافة والاقتصاد والصناعة؛ بالإضافة إلى مجهودات رجال الدين والإعلام والسياسة وقادة الفكر والفن والأدب.

فمشكلة التنمية، هي في أصلها مشكلة « ترشيد وتحضير وتحديث »، ترشيد للاتفاق، وتحديث للتربية والتعليم، وتحضير للثقافة، وتطوير للاقتصاديات من حالة أولية بسيطة؛ إلى حالة أكثر تطوراً وتقدماً...

الفصل الخامس عشر

النظيم والإدارة

- تحييد
- الملوك التنظي
- ولكن ما هو التنظيم للناس؟
- تنظيم للناس وحسن العمل
- دينانية التنظيم

تصنيف :

يقال إن التنظيم ، هو شكل متعدد الصور والسطوح والاضلاع ، فيتميز مفهوم التنظيم ، طبقا لاختلاف موقف الباحث ، بمعنى أن يكون التنظيم معناه الخاص ، عند الاقتصادي والسياسي ، كما يتغيره صدق « التنظيم » ومفهومه ، طبقا لكون الثقافة والادراك ، بحيث يدرك رجل الدين من « التنظيم الديني » ، مالا يدركه خبراء النفس والصناعة ، وعلماء الاجتماع والتنمية ، عن مفهوم « التنظيم الصناعي » ، أو « التنظيم الاقتصادي » .

وهنا ينبغي الإشارة إلى قصة طريفة من قصص الأطفال ، وهي قصة « العميان والقبيل » ، حين يدرك كل منهم جزءاً من جسم القبيل ، فيصوره كل منهم على نحو لا يتصوره زميله ، نظراً لضخامة حجم أو هيئة القبيل وشكله الخارجى ، مما يثير التصورات التمايزة ، فلا يتفق الكل ، على تصور واحد ، نظراً لتعدد الروايات ، واختلاف الجوانب حول البنية الهائلة لميكال القبيل ، فلا يكاد يدركها أى تصور جزئى أو بسيط .

وهكذا حال التنظيمات ، هناك أشكال منها متعددة ، لا يكاد يدركها تصور واحد ، فليس لكل التنظيمات تصور كلى متحد ، نظراً لاختلاف مضامينها ومضامها ووظائفها وأهدافها .

فالتنظيم معناه البيروقراطى ، عند الإدارى ، ومعناه السياسى عند « رجل الدولة » ، ومعناه الصناعى أو الاقتصادى ، عند خبراء الصناعة والتنمية الاقتصاد كما وقد نضج على التنظيم مفهومات « سيكولوجية » ، « تصورات » و « سيولوجية » ، ومثل : « تربوية » ، و « فلسفية » ، يتردد صداها بين مدارس الفلسفة ، و « قضايا علماء الاجتماع ودراسات علوم النفس وخبراء التربية والتعليم » .

السلوك التنظيمى :

السلوك التنظيمى ، هو سلوك رسمي Formal ، كما أنه ذو معنى Informative

ولاشك أن كل سلوك بيروقراطي هو سلوك تنظيمي ، لأنه لا ينصل بالعلاقات الشخصية ، ولا تنطب المواظف . وإنما يقوم السلوك البيروقراطي على أساس للنطق والعقلانية Rationalization . لأن التنظيم البيروقراطي الرسمي ، لا يتعلق بأشخاص ، كما هو الحال في العلاقات غير الرسمية .

ويتوافق كل تنظيم إداري ، مع التنظيم الاجتماعي ، بحيث ينشئ التنظيم الإداري فوراً ، إذا لم يتوافق مع البيئة الداخلية للتنظيم الاجتماعي أو الصناعي . وهناك وسائل للاتصال في كل تنظيم ، يحققها السلوك البيروقراطي خلال قنوات مشروعة ، ومحددة . ولذلك كان للاتصال Communication دوره الخطير في كل تنظيم ، فالإداري لا يعمل في فراغ ؛ وإنما يتحرك كل سلوك إداري ، من خلال مراكز وأدوار ووظائف ، وكلها عناصر إنسانية تعمل في كل تنظيم بيروقراطي .

بمعنى أن السلوك البيروقراطي ، هو سلوك رسمي لا يتم في فراغ ، وإنما يتم في تنظيم إنساني . فلا تنجز الأعمال ، ولا تنفذ القرارات ، دون احتكاك إنساني ، أو اتصال تنظيمي بين سائر أجزاء وأقسام وقطاعات المؤسسة البيروقراطية ، ولا شك أن مرونة الاتصال وسهولة حركته ، كلها أمور مطلوبة في كل تنظيم بيروقراطي . ويمكن تقسيم الاتصال إلى قسمين ، رسمي وغير رسمي ، أو مخطط وغير مخطط ، والاول داخلي مثل التقارير والتطبيقات الدورية ، أما الثاني فيتم في مناسبات معينة ، وطبقاً لظروف شخصية وعلاقات خاصة ، بمعنى أنه اتصال غير مخطط ولا يتم في قنوات رسمية ، كما لا يمكن أن يستقوى الإداري التناجح عن الانهماك بأنماط الاتصال الدائرية .

وهناك صعوبات واضحة تعيق حركته لزيادة كل اتصال فعال ووسيد ، مثل

صعوبة اللغة ، التي قد لا يفهما الإداري . بالإضافة إلى وجود مصطلحات تقنية
وطبية ، قد لا يفهما غير الاقتصاد أو عالم الاجتماع . وإلى جانب اللغة نجد أن العمل
بين مراكز الاتصال ، إنما قد يسبب صعوبة أخرى ، ويترتب على هذا البعد الوطني
عزلة أجهزة التنظيم وانفصالها وتباعدها عما يحق الحركة ، ويؤدي ذلك إلى تفكك التنظيم ،
بمعنى أن كل تنظيم بيروقراطي ناجح ، إنما يحتاج إلى عملية تنظيم ويرجع
Programmaton ، للاتصال الرشيد عن طريق التخطيط ، وإزالة العوائق ،
وتيسير خطوات العمل ، وسهولة الإرسال والاستقبال ، إما عن طريق الوسائل
المكتوبة أو الشفوية .

مفهوم التنظيم البيروقراطي :

يقول د راييموند ماك « د جون بيز » في كتابهما الضخم المتسع ، « علم
الاجتماع والحياة الاجتماعية » ، أن « برقطة » أو بيروقراطية الحياة الاجتماعية
Buraucraticization of social life ، هي مبث للممارسة اليومية ، ومصدر
التنظيم في السلوك الاجتماعي ، وتواتر أسلوب الحياة (١) .

فالبيروقراطية أسلوب إداري ونمط سلوكي ؛ وممارسة محددة ، يفرضها
القانون ، ويدعمها بناء القوة Power structure ، الذي يحدد لنا نوع
التنظيم وشكله . ففي كل مؤسسة صناعية ووظائف ومراكز ومستويات من
الاختصاصات مختلفة ، كما تتوزع للمسؤوليات لاتخاذ القرار ، على أساس ،
« هيرواركي » ، مع ضبط شبكة الاتصال بين سائر أجزاء التنظيم ، طبقاً لتحديد
المسؤوليات والاختصاصات ، وتوحيد القواعد ، مع تفويض السلطة من أجل
تحقيق اللامركزية Decentralization ، وتسلل القيادة ، وسياق الأوامر
Chain of Command ، طبقاً لمدى اتساع أو ضيق نطاق الفعل

(1) Mack, Raymond & John Pease, Sociology and social
life, Van Nostrand Company, 1973.

span of control فانظمة هو الرقابة Organization is control ، ولذلك
امتاز كل تنظيم بمكانيزات الضبط البيروقراطية وعناصر القسطن النظامية
.institutional

ومهمة « السلطة التنظيمية » تنسيق جهود الأفراد وتضافرها. استناداً إلى مبدأ
التخصص لتحقيق هدف أو تنفيذ خطة متكاملة ، مع ضرورة التوازن والتكامل بين
السلطة والمسئولية ، وتمييز الأعمال ؛ ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ،
مع استمرار الرقابة ، وتبسيط الوظائف والأعمال ، في كل تنظيم بيروقراطي
مرن ودينامي .

وعلى « القائد الإداري Administrative leader » يقع الجانب الأكبر من
مهام « الفسيق » ، توجيه الأوامر ، وإرشاد الرؤوسين ، وإشعار من يعملون
معهم بالحب والتضامن والثقة ، فينفذون ما يطلبه ، بطريقة فعالة ومنتجة ، على أن
تتم بلا مصراعات ، أو عن طريق التعطيلات المتضاربة ، بل توضع وتتخذ وتنفذ
الأوامر على نحو رشيد .

ويرى علماء الإدارة ، أن « السلطة حق وقدرة authority is right
& Power » ، وينبغي أن توضع البرامج في كيفية ممارسة السلطة ، كحق وقدرة .
فقد تكبرن السلطة مفسدة Power corrupts ، كما أن السلطة المطلقة مفسدة على
الأطلاق absolute Power corrupts absolutely على حشد قول « لورد
آكتون Acton » ، للشرع الانجليزى المشهور . فينبغى ألا تفكر في أبغية وضع
السلطة ، وعليها فقط أن تعلم كيف تمارس السلطة كما تقول الباحثة الأمريكية
« ماري فوليت Follet » ، في كتابها « الإدارة الدينامية
«Administration

وكل إنسان محب للسلطة والسلطان ، وقد تأتيه السلطة بسميه وتديره ، وقد
تأتيه بمصادفة ومصرحاً ، وقد تأتيه بكفاح وعرق جبينه ، وهذا هو أروع أشكال

والقيادة والسلطة . فلا شك أن السلطة قد تسمى على نحو ديمقراطي أو
 روتيني إلى من يستحقها ويتولاهما ، حين « تجذب نحو الرجل القوى » ونحو كل
 من يقوى ويقدر ويستطيع authority gravitates to any Powerful Man
 والقائد الإداري ، حق الاشراف ، وحق تقدير العمل ، ومدى إضاقه مع
 توجيهات السلطة ، بالإضافة إلى حق الإزاحة displacement والحلول والاحلال
 بالتجديد المستمر ، وتغيير عناصر التنظيم القديمة ، فيحل البعض محل الآخر وتغير
 القيادات في المستويات الأدنى في كل تنظيم جزئي .

ولاستناداً إلى هذا الأساس ، تقوم السلطة أو القيادة ، بوظائف الإدارة ،
 و « الإزاحة » و « التوجيه » ، حتى يتحقق التنظيم البيروقراطي الأمثل ،
 والسلطة الإدارية الرشيدة ، فلا تتضارب الأوامر ، وتضطرب الرؤية الصحيحة
 المطلوبة في عملية التنظيم الإداري ، التي تحتاج أصلاً إلى « الطاعة » و « التبعية »
 وحسن الأداء .

والسلطة هي قوة تتخذ إلى العائون ، وتقوم على أساس فكرة الحق ،
 و « الواجب » ، والولاء والالتناء ، الذي يربط بين الرئيس والمرؤوس ، في نموذج
 هرمي يشمل للمؤسسة كلها . وتحتاج كل المستويات إلى سلطات ، وتمنح السلطة
 لتحقيق أهداف أو غايات ، كما وتوزع المسؤوليات طبقاً لخطة مرسومة أو تخطيط
 مسبق ، أو وفقاً لأعداد مشروعات « مبرمجة » أو « مبرمجة » Programming ،
 وليست السلطة هي غاية في ذاتها وإنما هي وسيلة لتحقيق غاية ، أو تنفيذ
 مهمة ، أو لتحمل مسؤولية ، فيكون للوظف هو صاحب السلطة ، المكلف
 بأدائها ، وهكذا ترتبط للمسئولية بالسلطة ، وعلى كل موظف تحقيق أفضل أداء
 يمكن لما هو مسئول عن أدائه .

والخطة ، هي إما تقليدية بدائية ، ترتبط بالمسكنة والسكناء أو مصلحة كوزنية
 كسلطة القائد الكارزمية charismatic leader ، لها من قوة غائبة ،

كثالث أو كبطل أو زعيم . أما السلطة الرشيدة Rational Power ، فهي السلطة العقلانية للجنية على القانون ، والتي تستند الى نظرية الحق الطبيعي ،

وقد تبرز أركان السلطة ، إذا ما صدرت الأوامر للتضاربة ، والتوجيهات الغامضة ، التي لا تتفق مع فلسفة التنظيم ، وتتناقض مع تحقيق الأهداف ، فتعثر ولا تنفع ، ويتعرض التنظيم الإداري الى الانهيار ، فتتبع للواقف والادوار ، وتبرز السلطة الادارية ، حين يلج الضرر مصالح الأفراد ، أو أهداف التنظيم ، ومن هنا يكون التنظيم البيروقراطي ، الناجح ، هو التنظيم الديمقراطي الحر ، الذي يحصل كل موايا للامركزية ، بحيث يكون السلطة الادارية وظائفها التي توجيها لاقتصاد الوقت ، وتنمية القدرات ، وتربية الكوادر ، مع السرعة والمرونة ويسير الاتصال .

ولما كان ذلك كذلك - فتحقق كل الأجهزة البيروقراطية أهدافاً ، وتجه السلطة الادارية نحو إنجاز عدد ، حين تصبح السلطة ، هي للممارسة اليومية وإدامة لحسن انتظام سير العمل المنتج ، ورفع مستوى الكفاية والأداء ، بالنسبة لائتر قطاعات التنظيم الصناعي أو للمؤسسة البيروقراطية .

ويتمثل الشعور بالمسؤولية في الامثال Compliance ، وفرض الطاعة Obedience والرضا والقبول Consent ، مع إيجاد درجة من الاعتدال للتبادل dependability ، بين مختلف الجهود والانشطة التي تبذلها وتقوم بها كل الجهات للنتيجة .

التنظيم والادارة :

غالباً ما يسأل من تقع على كاهله مسؤولية تحقيق أهداف الانتاج ، وهي مسؤولية كل فرد يمتثل بحمل مشموله عن التنظيم الاقتصادي أو الصناعي في كل مؤسسة ، وغالباً ما يكون للشئول هو ه مبع ، أو شخص أو قد يكون على رأس المؤسسة .

أو قمة التنظيم ، « مجلس » ، أو « إدارة » . واقع مسئولية تحقيق أهداف الإنتاج والتنظيم ، على عاتق « الرئيس » ، أو « مجلس الإدارة » ، المسؤول ، وقد يمد « الرئيس » بعض مهامه إلى مرؤوسيه ، فيؤدون واجبه بعد أن يعطى للرؤوس من الرئيس « سلطة » تهریف الأعمال الادارية والشئون الفنية ، مثل إنهاء أوامر التشغيل job order ، كما هو الحال في التنظيم الصناعي .

وقد تصدر من رؤساء العمل من « خوى البلاطى السوداء » ، قرارات ثانوية ولهم الحق في التفتيش والمتابعة ومراجعة الأعمال . ولما كان « رئيس » التنظيم لا يستطيع أن يشرف على كل كبيرة وصغيرة في سائر أقسام البناء الاقتصادى ، أو المؤسسة الصناعية لذلك تقسم الرئاسة إلى أقسام للإشراف Control والتخطيط والادارة management والتنفيذ ، ولأقسام الإشراف فرضت « الادارة المتوسطة » ، كما فرضت فئات العمال والهندسين ؛ كطبقة إنتاجية متخصصة لادارة العمل وتشغيل المصانع ، و « يوفى » رئيس « التنظيم بين كل الأقسام من إدارة أو إشراف ، وينسق الجهود في مجال الفعل والعمال والتشغيل من جهة . ومجال التخطيط والمتابعة من جهة أخرى .

وبين « رئيس التنظيم » فوق كل إدارة أو قسم مسئول يعمل تحت إدارته مكتب من الموظفين ، ويشرف على قطاع من قطاعات المؤسسة الصناعية ، ويضع على نحو مباشر لرئيس التنظيم « ويفضل تعاون الرئيس والرؤوس بعمل التنظيم بروح الفريق » فتتحقق الأهداف الإنتاجية والكفايات التنظيمية .

التنظيم بين الصراع والتوازن :

ينبغى أن يكون التنظيم الصناعى مرناً ومتغيراً ، حتى يتوافق ويتكيف كل تنظيم مع ظروف الجديد « فلا يصح أن يتخلف التنظيم الصناعى فيصبح جليداً » .
 Hawthorne حيث يتقبل « التنظيم » الحق كل ما هو جديد ، فيتبدل ويتبدل مع تغير

السياسات والظروف والنظم ، كظهور وظائف جديدة بانشاء أو حسم أو عزل إدارات ووصل ما يتجانس منها ، وفصل ما لا يتجانس ، الأمر الذي يحتم حدوث التفاضل ، ونمو الجديد ، في قلب نسق الإدارة القديم ، وبفضل التغير الداخلي في جوف كل نسق ، ينبثق التنظيم الجديد ، وبأدوار وأقسام أكثر فاعلية وحركة وبأساق وقطاعات أوفر دينامية ، وأغزر إنتاجاً .

وإذا كان « بارسونز Parson » قد استبعد أو أغفل أبعاد التغير والصراع في التنظيمات الصناعية ، وأكد فقط على الثبات والتكامل والتساند . فان « ميرتون Merton » قد أكد على وجود التغير الذي يفرض نفسه وينبثق من داخل التنظيم عن طريق التقدم التكنولوجي ، كما أكد على وجود الضغوط التي تفرض على التنظيم من الخارج عن طريق تدخل الدولة والحكومة ، أو بتأثير تبدل مواقف واستراتيجيات ومتغيرات التنظيم الدول ، ومؤثرات «ميزان القوى» الذي يتذبذب ويتردد بين البين واليسار ، مع تأثير « التوازن الدينامي » الذي يحقق التبادل بين الضغوط الخارجية وما ينبثق من الداخل من قوى جديدة قديمة ، ومن هنا يحدث « النمو » بفضل التغير الخارجي ، وانبثاق الجديد من للطالب التي تحقق « توازن التنظيم » من جهة أخرى .

ويؤثر التنظيم البيروقراطي على سمات الشخصية بالنسبة لأعضاء التنظيم حيث يتأثر كل إنسان بما يفرضه كل تنظيم بيروقراطي من ضغوط ولوائح ، حين يؤثر « نوع التنظيم » أو شكله إن كان أوتوقراطياً مستبداً . أو ديموقراطياً متحرراً على الشخصية الانسانية فهناك عوامل كاملة في البناء البيروقراطي للتنظيم ، تترك بصماتها على سمات الشخصية بين سائر أعضائه . فتأثر بنية الشخصية Personality بشكل السلطة ، وقوة التنظيم ، وبهذا الكمون Latency القائم واثره في البناء البيروقراطي للتنظيم .

ولقد رفض ميرتون Merton نموذج « ماكس فيبر Weber » ، للتأثير . وهذا

أن اكتشف ما فيه من قصور أو ضمور ، ونظراً لصرارته العسكرية ، ووظيفته الرسمية والمقايمة (١). وبخاصة حين تبط القواعد الرسمية ، التي تصف دائماً بمبدأ عصر فخر وبأبعده ، بأهم قواعد ضاغطة ، تصف بالجمود ، عما يعوق وظيفة التنظيم البيروقراطي ، وهذا هو السبب الذي من أجله يتصف البناء البيروقراطي بالقصور والضمور ، نظراً لسكونه المستمر وانعدام الحركة فيه .

والتنظيم البيروقراطي الرشيد ، هو شكل أو نمط من العلاقات الاجتماعية الرسمية ، التي تتم على نحو هندسي وفق شكل منطقي وهيراركي ، يربط بين سائر الفئات التوقية والتحتية من العاملين في إدارة ، أو هيئة ، أو مؤسسة ، أو قطاع ، ولا يتكون التنظيم البيروقراطي من علاقات سلوكية ثابتة أو آلية لا تتغير إلا ببطء ، فهناك ديناميكية واضحة وفاعلة داخل كل تنظيم . بحيث لا يقتصر التنظيم على عنصر « التوازن » والثبات ، وإنما ينبغي أن تعمل أيضاً عناصر الحركة والتضاد والصراع ، فتنبثق في قلب كل تنظيم « القوى المضادة الجديدة » التي تعمل على تغيير وتطوير الشكل للسبب للتنظيم القديم .

ويستند كل تنظيم بيروقراطي ، من أسفله إلى أعلاه ، إلى مبادئه التأسيسية والتدرج الهرميراركي الذي يشمل التنظيم من القاعدة إلى القمة ، طبقاً لتخصصات دقيقة ، أو وظائف ومهام متخصصة .

ولكن ماهو التنظيم الصناعي (٢) ؟

لكن مشروع صناعي أو إنتاجي أو اقتصادي تنظمه الخاص ، ومن المميز

(١) التنظيم « البيروقراطي » ما يدعمه من قوة القانون وسلطة تنظيم رسمية ، ويرى جولدر (Gouldner) ، أن هناك ما يصدر من قواعد البيروقراطية ، التي يفرضها التنظيم ، لا الحما من وظيفة عضلية ، تفرض على من يخرج عن القواعد حكيماً «ات Sanctions» أو ضوابط ، تصبح في مكانها التنظيم البيروقراطي .

(٢) قد سبب الوباء الأخير من القرن التاسع عشر « مولاتان الإحراق هاهنا » ما =

أن يتفق تنظيم موضوعان مشروعين متباينين ، حيث ينبغي كل تنظيم من نوع للشروع وطبيعت وظروفه ، والتنظيم الصناعي هو بمثابة « الجهاز العصبي » الذي يعمل داخل البناء الصناعي ، لتنسيق العمل وضبط الجهود ، وتيسير الاتصال ، وربط العلاقات ، ورفع الروح المعنوية ، ولذلك يستند كل تنظيم ناجح إلى أساس موضوعي هو « الالتزام » و « المسؤولية » و « الجزاء » ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، بحيث تكون البساطة هي أساس كل تنظيم ، حيث يخلق العقيد سائر الصعوبات والعقبات أمام مراحة التشغيل ودقة الأداء ، مما يؤثر بالطبع على عمليات الصيانة ، ويقلل من معدلات الانتاجية .

أهداف التنظيم الصناعي ووظائفه :

ويعني كل تنظيم نحو التكامل ، باحترام التخصص ، واقتصاد الوقت والجهد ، ودعاة عناصر وأجزاء العمل ، في ضوء قياس وضبط وتحليل الزمن والحركة ، مما يقضي إلى مرونة التنظيم والتنسيق بين عناصر المشروع وإدارة الانتاج ، وتعاون الأفراد ، وتكافؤ الفرص ، وتشغيل الآلات ، وإتاحة الفرصة للترقية ، ورفع أجور العمالة .

والتنظيم الصناعي Industrial organization دوره ووظائفه في تطوير

— كان له دوره في ظهور « الانتاج الضخم Mass production » . ولم تكن هناك « صناعة بالمعنى الصوري » قبل نهاية القرن الثامن عشر ؛ ففتحات حنطة وحشيرة ، بفضل جهود فردية متفرقة ومحاولة ؛ وبدأت « الصناعات اليدوية » في المنازل ؛ ثم ظهرت المنازل فبدأ « التطور الصناعي » منذ منتصف القرن التاسع عشر ؛ في إنجلترا ثم فرنسا ثم أمريكا في الفترة ما بين عامي ١٧٦٠ حتى ١٨٦٠ وفي إنجلترا نشأت الصناعة مع ظهور الماكينات البخارية ؛ ولعل ثورة النسيج والأوتار الآلية ؛ ثم ظهرت الصناعة الحديثة عام ١٨٦٠ في الاتحاد السوفيتي « روسيا البيضاء » ؛ وفي عام ١٨٧٠ بدأ التطور الصناعي في ألمانيا .

عمليات الانتاج ، ورفع معدلات الانتاجية *Productivity* وتطوير التنمية الاقتصادية ، وإذا ما استعملنا أن نميز بين هذه العمليات الثلاث لتنظيم الصناعي ، لوجدنا أن عملية الانتاج ، هي العملية الأساسية والكلية الناجمة عن كل للنشاط والقوى التي تعمل في البناء الصناعي ، من إدارة وعملية وتشغيل *operation* ، وترشيد *rationalization* وكفاية .

هذا عن الانتاج كعملية أو هدف ، أما عن الانتاجية ، فهي ميار أو مقياس ، يمكن تحديده وضبطه ، عن طريق معرفة الناتج الكلي ، لسائر القوى المنتجة في البناء الصناعي . ثم قياس متوسط انتاج الكل في الساعة ، ثم استخراج متوسط إنتاج الفرد في فترة محددة ، بقسمة كمية الانتاج على عدد العمال . إلا أن علماء الاجتماع الاقتصادي ، قد أكدوا على أن هذا للمقياس الخاص بالانتاجية ، هو مقياس تقريبي ، وليس مقياساً دقيقاً ونهائياً ، وإنما يعطينا هذا للمقياس صورة تقريبية للانتاجية ، بالنظر إلى الملاءمة ، دون الالتفات إلى عوامل أخرى إنتاجية ، مثل رأس المال والإدارة والتنظيم ، وأدوات الانتاج ، وكلها عناصر ضرورية في العملية الانتاجية ، وتدخل عملية تحديد وقياس الانتاجية ، كأهم عملية من عمليات التنظيم الصناعي .

والوظيفة الثالثة للتنظيم الصناعي ، هي محاولة تطوير وتنمية المجتمع ، بقصد وإعادة بناء المجتمع ، عن طريق مشروعات وبرامج ، تسجل بالتنمية ، وتخفف في نفس الوقت ، من حدة التصنيع ووطأ التكنولوجيا ، باستخدام أنسب برامج التنمية الاجتماعية ، حيث تتحطم مع سحنة الصناعة ، أنساق تقليدية *traditional systems* ، كما يبدأ الانهلال ويسفل التفكك في مختلف التنظيمات الاجتماعية ، ويقوم علم تنمية البيئة *Ecodevelopment* ، بأعداد المجتمع وتنويع البيئة الاجتماعية وتطويرها وتنميتها ، عن طريق مختلف البرامج الاقتصادية ، ودخل المشكلات الناجمة عن عمليات التنمية الصناعية .

ترشيد الصناعة والتنظيم :

يقصد بعملية ترشيد الصناعة rationalization of industry محاولة تطوير أسلوب وإبراج العمل ، من أنماط تقليدية إلى أنماط أكثر تقدماً ، الأمر الذي يستوجب إلغاء كل تنظيم صناعي قديم ، وإعادة التنظيم الجديد على نحو مباشر ، وبطريقة مفروضة وإجبارية . بقصد العمل على إزدياد الانتاج كما وكيفا ، مع رفع معدلات الانتاجية .

وبما أن ترشيد الصناعة ، تماماً كما قصده ، مبادئ الإدارة العلمية ، يحدد نسبة الكفاية الانتاجية فلا تمنع عملية الترشيح الصناعي . مع مانتدع فلسفة الكفاية ، وإنما تقصد بالترشيح الصناعي ، ترشيد التنظيم نفسه . وإعادة بناؤه على نحو جديد . وشكل يؤدي إلى علاج مشكلات كانت قائمة في التنظيم القديم ، وحل مشكلات التنظيم الجديد . لخلق ظروف صناعية أفضل ، وتحقيق أكبر انتاجية ممكنة ، بفضل استخدام تقسيم العمل .

ويمكننا أن نستبدل عملية تقسيم العمل . بعملية تكامل العمليات ، وهي مهمة ضرورية ووظيفة إنتاجية خاصة بضم مختلف الأعمال والأنشطة ذات الطبيعة الواحدة ، وربطها بعضها بعضاً حتى تتمكن عمليات التشغيل الآن للتكامل ، من تخفيض الوقت واقتصاد العمل . كما توفر الآلة ما كان يقوم به العمال من مجهودات ، حين تحمل في جسم الآلة مجموعة من العمليات الانتاجية ، فتحل الآلة محل الحرف وللهارات اليدوية القديمة .

ولقد أنشأ د آدم سميث Adam Smith ، في كتابه ثروة الامم Wealth of nation ، إلى ضرورة الأخذ بتقسيم العمل الصناعي ، وتسمية للهارات الفنية وزيادة الكفاية . ولعل أهم وظائف تقسيم الصناعي ، هي اختصار العمل وتسهيله ، عن طريق الاختراع وتطوير الآلات . وتقليل استخدام الأيدي

العاملة ، بقصد اقتصاد التكلفة والوقت والجهد . وتطوير للوارد التقليدية التي تتدخل في عملية الانتاج ، وهي المصادر الكلاسيكية للمرونة في علوم الاقتصاد كالارض والادوات والخدمات ومركز رأس المال . فقد يكون السبب في ازدياد نسبة انتاجية العامل ، هو عامل التنظيم والادارة وقد ترددا لانتاجية استنادا لتضافر عوامل أخرى، مثل عامل الأمن Security ، أو نسق العلاقات الانسانية Human relations ، وقد ترجع الى علو درجة السكناية الانتاجية ، أو زيادة الخبرة الفنية ، عن طريق برامج التدريب وتوجيه الخبرة ، ومتابعة الصيانة ، استناداً الى نوع التخطيط . هذا ما قصدناه بترشيدها لصناعة ، وتخفيض تكلفة العمل مع الالتزام بالأجور الرخيصة .

التظيم الصناعي وتقسيم العمل :

لكل وحدة اجتماعية ، مهما بلغت درجة بدائيتها أو تحضرها ، ومهما بلغت في حجمها من الصغر أو الكبر ، تنظيمها الخاص ، طبقاً لنوع تقسيم العمل ، ووفقاً لحجم الوحدة ، ومبدأ التخصص ؛ ومدى بساطة أو تعقد التنظيم الذي يؤثر بالتالي في بساطة تقسيم العمل ، وقلة الحاجة الى التخصص النقيض . ويتحكم كل تنظيم صناعي . في كل الوحدات الاجتماعية الانتاجية . في سائر الأقسام والادارات والتجمعات . كما تتحكم أيضا في نسق العلاقات القائمة بين أفراد التنظيم . كإخضاع ميكانزمات ، وموجبات السلوك فيه .

ويمكن لنا تاريخ الحضارة في سجل لنا ويكشف ، عن نماذج مشهورة من التنظيمات القديمة ، كالنموذج الديني والسكري والسياسي ، قامت جميعها لكي تقوم بمختلف الأنشطة ، مثل التنظيم الديني وأدواره ووظائفه وأنشائه الداخلة فيه ، ومناشئه وطقوسه ومراتب التسلسل الهرمي في تركيب البناء المورفولوجي ، لقنات ومناصب الكرافة والتسامية من رجال الدين ، مع ضبط صور العلاقات التي تربط بين سائر هذه المناصب التي تتوزع في بنامهم واحد يربط بين سائر المياكل الدينية الجبرية . كما

نجد أيضاً في سائر التنظيمات العسكرية والسياسية ، مختلف الأدوار *Roles* التي تدور في كل تنظيم ؛ حيث يشرف « التنظيم السياسي » على الوحدات السياسية ، ابتداء من القاعدة الأساسية للجماهير ، حتى تصل إلى أعلى مستويات القيادة السياسية العليا .

وهناك تحولات تنظيمية طرأت على البناء الاجتماعي ؛ وأصبحت ، ظاهرة واضحة ، في الوقت الراهن ، حيث صدرت التنظيمات الصناعية ، مع تمعد وتباين أشكال التنظيمات الاجتماعية *Social organization* ؛ كالتنظيمات الليبروقراطية والصناعية والإدارية والفنية ، بالإضافة إلى وجود تنظيمات أخرى « مورفولوجية *Morphological* » ، كالتنظيم الديني ، والتنظيم السياسي ، والتنظيم الاقتصادي ، وكلها أشكال مورفولوجية (١) ، وتنظيمات تتعلق بأنشطة اجتماعية تقوم بها « مؤسسات » كالدولة والكنيسة والحكومة . أما الدولة فهي تنظيم سياسي له دوره ووظائفه في تحقيق الأهداف القومية . والكنيسة تنظيم ديني ، يربى العلاقات والطقوس والشعائر ، ويربى المشاعر والروابط الدينية ، فالدين هو الرابطة الروحية للمقدسة ، التي تربط بين سائر أفراد المجتمع ، ويخلق بينهم تياراً شعورياً وفكرياً واحداً . والحكومة هي تنظيم إداري وتنفذي ، يقوم على عاتقه تحقيق أهداف الدولة القومية ، والسهر على مصالح الجماهير .

ومع تمعد الظواهر الصناعية والاقتصادية والانتاجية ، وما ينطق بها جميعاً من أدلة وكفاية وتوجيه ، وتدريب مني ، ظهرت أهمية « التنظيمات الصناعية » في سائر المؤسسات والشرعات . ولا شك أن هناك اختلافات واضحة بين « التنظيمات » ، و « اللطيمات » ، فالمنظمة تختلف كلية عن « التنظيم » ، حيث تتضمن

(١) Halbwachs, Maurice *Morphologie Sociale*, Collé
A. Cofin. Paris, 1948.

كل منظمة تنظيمياً يحكم ظواهر الإدارة ويضبط نسق العلاقات ، الذي يفرضه القانون ، فيصبح التنظيم ، ملوماً ، ومفروضاً .

ويمكننا أن نميز في بساطة ويسر بين التنظيم الاجتماعي ، من جهة ، و التنظيم المجتمع ، (١) من جهة أخرى ، فالتنظيم الصناعي ، هو شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي ، يرتبط بتحقيق الخطة وأهداف الادارة ، طبقاً لمعايير اقتصادية ، كالكسب والحسارة . أما التنظيم المجتمع ، فيصل بتنسيق الخدمات وللنشاط على سائر الخدمات وتطوير مرافق المجتمع ، حيث يمتد تنظيم المجتمع ، إلى التضامن والتعاون ، واحلال روح العمل ، وغرس الديمقراطية ، فالانسان هو أساس التقدم والتنمية . والأرصدة الانسانية أكثر أهمية من أرصدة العملات الحرة ، ولا يمكن إطلاقاً إقراض الشعوب روح للتأيرة والعمل ، وللشاركة ، دون أن تبدأ أولاً ببنية اجتماعية وإنسانية لهذه الشعوب .

التصور الذاتي للتنظيم : Inertia of organization

هناك خصائص ومعايير ، تتخذ كمحكات Criteria تقاس بها التنظيمات الاجتماعية ، ولعل أهم هذه الخصائص والمعايير حالة التوازن equilibrium ، التي يتميز بها كل تنظيم أو نسق بمعنى أن بناء التنظيم ، يتميز بمخاض الاستمرار والديموم ، وهذا مانع بالصور الذاتي للتنظيم ، الذي يوجد ويتوارف في كل الأشكال للتنظمة . وبفضل هذا التصور الاستاتيكي ، أو التوازن الذاتي ، يصل كل تنظيم على الاحتفاظ بشكله وانتظام مضامينه وفحواه . بحيث يكون كل جسم منظم في حالة متوازنة وثابتة .

ويحاول الانسان أن يتوازن ، ويسارع جسمه ، إذا ماحدث مايعطل توازنه واثباته ، أن يتكيف مع الممر القاطط والبرد الشديد ، وذلك للظلمة التي ماينتهي بحكمة

(١) ذكره أحد كبار ، تنظيم المجتمع ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

الجسم *Wisdom of the Body* على حد تعبير الليولوجين والاطباء ، حين تشبه كل الاجسام في الطبيعة نحو التوازن ، كما يعود للتوازن دائماً إلى « جسم الانسان » كلما صادف الجسم ، تنهراً خارجياً مفاجئاً .

وفي عالم التنظيمات الاجتماعية ، هناك الجديد الذي يهاجم التنظيم من الخارج ، ويهدد الشكل التنظيمي ، ويثور على ما إنتظم فيه من « أنماط الفكر والتصور » ، وما إستقر من أنساق الفلسفة وأشكال الأهداف ، فيغير التنظيم الجديد من الأدوار *Roles* ويحدد من الوظائف *Functions* ، ويقطب هذا « الغزو » الخارجي الجديد ، كل أمور وقواعد التنظيم القديم رأساً على عقب ، فتتغير أنماط السلوك والفعل الانساني . ومع انهيار التنظيم القديم ، يتهدم البناء البيروقراطي وتغير النماذج المثالية *Ideal Types* ، التي تسلط وتتحكم وتسد ، وتصدر المهام والقرارات والاجزء المهيمنة الجديدة ، التي تتولى القيادة والسلطة والاستلام . ولذلك لا تربط كلمة البيروقراطية ، بمفهوم سائد ، هو مفهوم إساءة استعمال القوة أو السلطة ، وهذا مرض من أمراض البيروقراطية حين تفول « القرارات » في شكل أو تفرط مستبد ، وتبسط الأوامر من أعلى التنظيم ، كجلود صخر حله السيل من عل ، وهذا هو الاستبداد بعينه ، حين لا يشارك الناس في عملية صدور القرار ، بالمناقشة والحوار الواعي ، فالحوار هو أكبر معلم ، لأنه يربط دائماً بين سائر الاجيال والطبقات والمستويات الهرقية والحتية ، وبذلك يبنى أن ثور على البيروقراطية القديمة ، وأن نعدم « تضاياعلم النفس البيروقراطي للمعاصر » ، الذي ينظر إلى كل تنظيم على أنه « محتوى إنساني » له دوره ووظيفته وأهدافه .

ويمكننا أن نوجه سائر الانتقادات الى طيبة « التنظيم البيروقراطي » ، بحيث لنزداد من غرور مثل هذا التنظيم الرسمي « مما يجعله يبدو كأنهراً لقصاه » ، تعمل في

لأسبابها وانتظام ، في حركة ميكانيكية وآلية دقيقة . ولعل السبب في ذلك ، هو أن د ماكس فوبر ، قد أحمل الجوانب الانسانية في التنظيم ، فأكد على الجانب الموضوعي ، وغاب عنه الجانب الانساني ، حيث لم يتوخى ، كضابط في الجيش الألماني ، في طبيعة الانسان البشرية ، وتوافقه وضعه ، فحاول فيرأن يطبق نظامه البيروقراطي ، كي يضبط جموح النفس الانسانية وطموحها ، حين بدأت الافهام تتخلل بالاحتفال بميلاد قوى الثورة الصناعية الجديدة .

ولقد استفاد د ألتن جولدر Alvin Gouldner بنظرية ماكس فوبر في البيروقراطية ، وألقى عليها أضواء جديدة ؛ ومزج البيروقراطية بالجوانب الانسانية والعلاقات غير الرسمية ، ولقد تغير المفهوم الأكاديمي البيروقراطية ، وظهرت أمراض وهيوب البيروقراطية ، كالمركزية ، واستغلال الفسوذ ، والبطء ، والازلام حرفية القواعد (١) .

نظرية التنظيم :

في نظرية التنظيم كشف د سملزر Smelser عن عناصر د التنظيمات الرسمية Formal organizations ، ومصادرها ، وطبيعة كل تنظيم (٢) . فكتب عن الادارة والمسئولية Responsibility ، ونسق السلطة Authority System

(١) وهناك عبارة ثورية وثاقبة ألحقها وصاحبها الدكتور محمد نيل جلع ، أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة الاسكندرية ، حين بحث الفرضية البيروقراطية لقرن الثامن عشر . الالتزام بالقوانين ؛ ولا يبدى استعدادا لكن تخضع للنفس الخفية منها . يطلق على هذه الفرضية اسم « عبادة البيروقراطية » أو « الفرضية البيروقراطية Bureaucratic Paganism » وهي عبارة طريفة ودقيقة وسيرة أثار كتاب « لنفتح في علم المجتمع » مار الميخويات الجديدة ١٩٧٣ صفحات ٢٣١-٢٣٤ .

(٢) R. Smelser, *Formal Organizations: An Introduction*, Indianapolis, 1950.

في سائر قطاعات الحكومة ومجالس الإدارة ، وفي « طيعة المسؤولية الإدارية » ،
 لذلك كتب « فريدريش فريدرش » *Nature of administrative Responsibility* كل هذه القطاعات الحكومية والرسمية
 ولذا كتب « فريدريش فريدرش » « وتعالج مشكلة المسؤولية ، وذهب ، سملور ،
 إلى أن التنظيم البيروقراطي ، هو تنظيم حكومي ومفروض ، حيث أن البيروقراطية في
 ذاتها هي عملية وشيعة مصدر من الإدارة العليا ، وذلك من أجل التخطيط ، ووضع
 نظام للرقابة *Routine Supervision* والرقابة لمتابعة الأعمال وللإشراف على
 وظائف وأدوار الإدارة للتوسعة وبخاصة أسلوب الرئيس المباشر *Immediate Superior*
 وكيفية معاملة مع مؤوسبة . على اعتبار أن « البناء البيروقراطي
Structure of Bureaucracy ، إنما هو نموذج مثالي *Ideal Type* لكل تنظيم
 رسمي ، على حد تعبير « روبرت ميرتون » ؛ في كتابه الممتع عن « النظرية
 الاجتماعية والبناء الاجتماعي » .

وفي ميدان « التنظيم والإدارة » كتب « سلزنيك » *Seiznick* ، عن الوظيفة
 الرشيدة ، والدور التنظيمي لكل من « القيادة والإدارة » *Leadership and Administration*
 ونشر « سلزنيك » هذه الدراسة في مجلة *American Sociological Review*
 وفي نفس هذه المجلة ، كتب « سلزنيك » ، أيضا ،
 عن « أسس نظرية التنظيم *The Foundation of the theory of organization* »
 وكتب « وايت » *Whyte* ، في نفس هذا المعنى عن الإداري الناجح هو الذي يدرج
 التنظيم *Organization Man* ، وهي التسمية التي اشتهر بها « وايت »
 « *William Whyte* » ، كما كتب « ماري فوليت » *Follet* ، وساعدت في هذا العدد
 بكتابتها عن « الإدارة الدينامية *Dynamic Administration* » .

دينامية التنظيم :

إن النظرة التقليدية القديمة لتنظيمات للتالية ، هي « النظرة المغلابة الوحيدة » ،

التي أكتسبت مصورية ، ماكس فيبر Max Weber ، عن الأنماط الرسمية وللوضوحية
 المحايدة التي تمتاز بالصرامة والمجرد ، والتدرج الهررى ، وسيادة القواعد ،
 واستمرار الضوابط ولليكانيزمات القائمة في كل تنظيم بيروقراطى رشيد ،
 مع ضرورة عدم إغفال تركيز السلطة ، وفرض الواجبات ، التي تصدر من أعلى
 للتنظيم ، فلا يكون على الأفراد والأعضاء سوى الامتثال والتبعية ، والخضوع
 والولاء ، نظراً لسلط التنظيم البيروقراطى ، فتلاشى الشخصية تحت منوط
 البيروقراطية ، وهذا ما يؤكده روبرت ميرتون Merton ، في كتابه الضخم
 عن النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى ، ، وما أشار إليه أيضا في كتابه
 « البناء البيروقراطى والشخصية Bureaucratic structure and Personality » .

ولقد إلتحق « هربرت سيمون Simon » ، مع « روبرت ميرتون » ، في
 رفض النمط التقليدى للمثال عند فيبر Weber ، لأنه اقتصر على ضروره وضع
 القواعد لتنظمة لسلوك الإدارى Administrative Behaviour . وفي كل تنظيم
 أهمل فيبر ، محتوياته الاجتماعية والسلوكية ، وأكد فقط على صرامة ،
 جوانبه للمادية والاقتصادية .

وليس « التنظيم » شيئا جامداً inerte أو نسقاً ثابتاً على ما توهم « فيبر » في
 مصورته العسكرية ، التي تأخر بها بحكم عمله وعارسته لوظيفة في تنظيم الجيش
 الألماني ، في التقاليد البروسية الصارمة التي وضعها الاباطرة منذ « فردريك
 الاول وثاني » ، والتي امتدت حتى « بيسارك » و « دفون مولكته » .

هذه هي النظرية التقليدية ، التنظيم للسلط الذي يفضل تماما كل مقدمات ونتائج علوم الاجتماع والنفس والادارة ، والصحة النفسية Mental Hygiene . أما التنظيم بمعناه العلمي المعاصر ، فهو تنظيم ديناميكي متطور ، يحقق النائية ، ويشجع تنمية وتدريب كوادر العمل على المساهمة والمشاركة ، في وضع واتخاذ القرار وتنفيذه .

فليس التنظيم أمر صوري Formal بحيث ، وإنما نلاحظ وبوضوح ، ان محتوى الانسان ، في كل تنظيم ، وعلى نحو واقعي أو « تجريبي » ، ومشاهد . فالتنظيم هو بناء دينامي متفاعل الاجزاء ، وهو « مجال سلوكي » له علاقات للتبادلة التي تتكامل وتساعد وتتفاعل ، فليس التنظيم « صورة مجردة » فارغة عن مضمونها الانساني الحى ، أو منفصلة عن محتواها الديناميكي ، وما يدور فيه من أنماط إجتهادية وسلوكية ، تحكم وتنضبط سائر العلاقات بين مختلف الأدوار والوظائف وإنما تظهر لنا ظواهر « الصبغة التنظيمية » في وحدة جغرافية ، تنبع عن خصائص التنظيم في تكاملها وتساؤها ، حين يعبر « الشكل عن المضمون » ، وحين يكشف للمضمون عن طبيعة الشكل .

وهذه هي النظرة للموضوعية والواقعية لكل تنظيم معاصر ، يمتاز بالوحدة والتكامل ، كما تدعمه في نفس الوقت « هيئة إعلامية » يلعب بها مكتب العلاقات العامة ، ويكون له كفايته ووظائفه ، في سائر عمليات الاتصال وتقسيم العمل ، والمشاركة والتعاون بين سائر القطاعات ، وسهولة نقل القرارات إلى سائر أفراد التنظيم ، مع رسم وتخطيط وتحديد ، نوع وأسلوب العمل ، وطريقة تنميته أو تبسيطه .

وقد تظهر في تحديد مفهوم النمط السلوكي للتنظيم الدينامي - أهمية قيم Values ، ووجود الدوافع Motivations في مجال العمل والحركة ، بمعنى أن

النظرة للحاصرة التنظيم ، إنما تؤكد لنا دائما ، وتميز قيمة وأهمية الدور الذي تلعبه « القيم » فيما وراء السلوك ، ودخل كل تنظيم ، أو مؤسسة بيروقراطية . ومن هنا ينظر « خبراء الاقتصاد » وسوسيولوجيات التنظيمات ، بين الاعتبار إلى التنظيم كوحدة أو كشكل مفسد ، يعمل « ككل دينامي » يجمع بين الشكل والمضمون ، ويربط بين الفوق والتحتي ، أو يصل بين السلطة والادارة من جهة والقاعدة الإنتاجية العاملة ، من جهة أخرى (١) .

فإذا كان التقليديون ينظرون بعين الاعتبار إلى « دور المضمون » للمغير المحصب ، على اعتبار أن التنظيم ليس « شكلا » كاتليا صوريا Formal وقارعا ، أو نمطا « فريبا تقليديا traditional » وثابتا ، وإنما نجد في كل تنظيم « مضمون إنساني وتاريخي ومتحرك » لأنه ببساطة مضمون دينامي متغير ، بمعنى أن فعوى كل تنظيم أو مضمونه ، هي العلة الحقيقية التي يفضلها بعمل التنظيم ويحيا ويدوم ويتحرك . فليس التنظيم نقا جامدا ، وإنما هو « نسق دينامي » وتنظيم إنساني له حاجاته وضروراته ومغوياته التي يبنى الالتفات إليها .

ويحمل باطن كل تنظيم مضمونه الثنوي المتفجر الذي يحوى عناصر تهديده ، كما يشهد « تومسون Thompson » في مقالة عن « البيروقراطية والتجديد Bureaucracy and innovation » الذي نشره في مجلة العلوم الادارية Administrative Science quarterly العدد الماشر ، الدورية الخاصة بعلوم ١٩٦٤ .

وبعبر لحوى كل تنظيم عن « طاقات بشرية » وإمكانات إنسانية ، لها دورها الديناميكي الفعال في مستقبل كل تنظيم ، بمعنى أن يكون التنظيم هو إطار

(١) Smolow, Neil, Sociology. An Introduction, India, London 1967.

والفكر أيضا في هذا العدد :

Neelke, Sol, P., Christopher K Vanderpool, Comparative Studies in Science and Society. U.S.A 1974.

يتحرك داخله محتوى انساني ، أو هو شكل موزى ، يدور فيه د فعوىة
أو مضمون دينامى .

فالتنظيم هو هيكل الادارة ، الذى تدور فيه سائر اناسك الوظائف والادوار
والعلاقات الوظيفية فى نمط رسمى ، وصور إحصائية ، وحركة تعاونية تضامنية ؛
توحد بين سائر الجيود لتوصل إلى هدف أو غاية ، وهذه هى فلسفة كل تنظيم
بمعنى أن يكون الافراد هم المنصر الجوهري فى كل تنظيم تقوم بداخله علاقات
رسمية وأخرى غير رسمية ، ويبنى الاعتراف بدور تلك العلاقات فى التكامل ،
وروابطها بين الجماعات الصغيرة الداخلة فى كل تنظيم لإنتاجى أو صناعى ،
ويمثل كل تنظيم نمط التعاون البشرى ، فى شكل رتيب وموحد ، وتحت ضغط
كيان تنظيمى صارم ، يمارس السلطة ، ويقوم بالرقابة والتنسيق ، ويسهر الاتصال
بين سائر القطاعات استناداً إلى بذل الجهود وتنظيمها وتوحيدها وتركيزها مع
تقسيم الوظائف والاعمال طبقاً لنوع التخصصات وأنواع الوحدات الانتاجية .
ولذلك أن نقطة الضعف الشديدة التى تعاني منها سائر التنظيمات ، إنما هى تعدد
الرياسات ونسوب الصراعات وتضارب السياسات ، وتؤدى جميعها إلى التفكك
Disorganization . كما أن « أوتوقراطية الاداره » ، والخوف والكرهية ، كلها
حوائل تحول دون تكامل التنظيم أو تحقيق أهدافه .

البيروقراطية والتنظيم :

يقول د روبرت ميرتون Merton ، إن البيروقراطية ، هى نموذج مثالى
Ideal type لتنظيم رسمى formal organization (١) ، ولقد صدرت
« البيروقراطية » كنظرية ومنهج وأسلوب ، عن عتف أشكال ، التنظيمات الصناعية ،

(1) Merton, Robert, Social Theory and social structure, Enlarged
Edition, 1936 P. 242.

التي «اصرها عالم الاجتماع الألماني وماكس فيبر Weber» وشاهد آثارها الإيجابية واضحة في نمو المؤسسات البيروقراطية الألمانية الصاعدة ، والتي كان لها صداها في تدعيم صرح الصناعة الألمانية ورد فعلها في تركيب وتكوين البناء الاقتصادي للدولة ، ثم إن خبرة «ماكس فيبر» كضابط في تنظيم عسكري ألماني صارم ، جعلته يعرف طبيعة الإدارة ، وضرورة نجاح التنظيم الاقتصادي المدعم بالتنظيم الإداري والبيروقراطي ، والذي يستد في نفس الوقت إلى قواعد الضبط Control ، والامثال لكل ما يفرضه القانون ، مع احترام إرادة الدولة ، وهذه هي وظيفة التنظيم البيروقراطي ، في «إدارة الدولة» وتحقيق إرادتها ، في إطار نظام اقتصادي موجه ، وتنظيم سياسي صارم .

ولقد صدرت البيروقراطية ، ك مفهوم سياسي وإداري ، كنتيجة حتمية لتطور الصناعي ، الذي أحدث ثورة في المفاهيم الحديثة للدولة ، ود السلطة ، والتنظيم ، وهي مفاهيم سياسية لها ودما ، كما أنها مفاهيم سوسيولوجية للتصور ، جماعية المحتوى ، تتصل بمعنى الحكومة ، والحزب ، والوزارة ، كمؤسسات سياسية من الدرجة الأولى ، وكلها ظواهر يدرسها ويرصدها علم الاجتماع السياسي . ولاشك أن البيروقراطية ، هي حمزة الوصل التي تربط بين الحكومات والوزارات والمصالح ، تلك التي تتصل فيما بينها عن طريق «إدارات» وأقسام ، ومكاتب ، . والعملية الإدارية ، هي عملية بيروقراطية تتم كنتيجة حتمية للاتصال وسهولة الإشراف ، وتيسر الحكم الإداري الذي ينفذ عن طريق حلقة إدارية متتابعة ، تربط بين مكاتب الإدارات ، ذات الاختصاصات والقطاعات للتقاربة ، فالبيروقراطية ، هي وسيلة الحزب أو الدولة أو الإدارة ، أو الحكومة ، وهي «وسيلة إدارة حاجلة» تميز في «قنوات وظيفية منظمة» تربط بين فئات إدارية فرعية ومتحدة ، تستظم العلاقات بين سائر أجهزة التنظيم ، كما تحقق سهولة

ويسمى الاتصال بين الإدارة والتنظيم، ومظم الأعمال المكتبية الروتينية Routine bureaucratic Tasks (١) التي تتواتر وتعمل، حين ترد أو تصدر طبقاً لنظم يديرها على محدد، ينفذ كإجراء إداري، أو كعملية نمطية.

وهناك أحوال للتنظيم لرأسي والوطني، تنبأ فيها أشكال السلطنة والادارة من النمط للمركزي الصارم، إلى النمط اللامركزي في الاشراف والادارة، ففي حالة ما إذا كان التنظيم رأسي، تكون السلطة متركزة في يد المدير، أو في لشرف على التنظيم، وذلك بقصد تيسير التنفيذ والسيطرة، ووضوح للمسئولية وسرعة الاجراء والتصرف (٢)، ومن حيوب التنظيم الرأسي، الصرامة وعدم اللزوجة، وامداد د غير المستطاع، مما يعوق تنفيذ الاوامر، ويعمل أفراد التنظيم ما لا طاقة لهم به. كما يستخدم كل تنظيم رأسي، عدداً من الخبراء والمستشارين، يشتركون في وضع البرنامج وتصميم الخطة، كما يقدمون للرئيس أو للمدير، مختلف المقترحات أو التوصيات.

أما النظام اللامركزي في التنظيم والادارة، فيحدد لكل قسم عدداً من المشرفين، فيكون التنظيم وظيفياً يأخذ بلامركزية الاشراف والادارة، ويحدد الوظائف الخاصة بالتفصيل والصيانة، واعداد النماذج، وتصميم الرسومات، والتخطيط والتابعة والتفتيش على خط سير الانتاج بشكل دوري ومنظم.

ويمكن الجمع بين مزايا التنظيم الرأسي، والتنظيم الوطني، وعلاج حيوب كل منها، لانتاج النمرة للكوادر الانتاجية الجديدة، وبوفر الخبراء، ويقى

(1) Mack, Raymond, John pease., Sociology and Social Res., fifth Edition, Van Nostrand company 1973.

(2) Smoler, Nell, Sociology, An Introduction India, 1970.

حل التداخل بين التخصصات ، وتعدد السلطات ، ويعين بين ما هو استشاري ، دون سلطة ، وما هو تنفيذي ، دون تخصص ، بالقضاء على كل ما يبطئ عمليات الإنتاج ، وتضارب الأقسام ، والرئاسات والتخصصات ، فالتماهي في الأمر كزفة ، إنما يؤدي إلى الاضطراب والارتباك وعدم الانضباط (١) .

واستناداً إلى هذا الأساس ، ومن أجل ضمان عدم تفكك التنظيم ، وعلاج عيوب التنظيم الرأسي والوظيفي ، يوجد ما يسمى بالتنظيم الرأسي الاستشاري والوظيفي ، وتنقسم فيه السلطة والإدارة ، بين رئيس التنظيم ورؤساء الإدارات والأقسام والجان .

ضرورة التنظيم :

ولا يمكن أن يعمل الناس تلقائياً ، أو دون توجيه ، وإنما ينبغي تسيق العمل وضبط الجبرود ، وهذه هي ببساطة عملية تنظيم النشاطات activities والوظائف Functions والأدوار Roles ، كما يجمع التنظيم بين الاتصال والمراقبة Control ، وفقاً لنقطة هادفة ، يخطط لها التنظيم ، لكي يتخذ أو يحقق مختلف أدواره ومناشطه ، أو حتى يجري عملية من عمليات التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية ، وذلك بأسرع وقت ، وأقل تكلفة ، استناداً إلى مبدأ التخصص specialization والالتزام بالقواعد التي تضمنها إدارة التنظيم ، على نحو حازم وفعال .

واستناداً إلى هذا الفهم ، يكون التنظيم ، هو بناء صوري ورسمي Formal

(١) يقصد بالأمرسكزية الرأسية طريقة إدارية وظيفية وصناعية ؛ تطبق في شركات الولايات المتحدة الأمريكية ؛ واشتهرت باسم « نسق الفجاجة وأفرادها Hen and chicken system » حيث تمثل القروم بالأشرف على جزئيات مختلفة من العملية الإنتاجية ، بحيث تتكامل وتتجمع في مركز رئيسي ؛ يقوم بإعدادها ونسجها أو عملها ؛ « لكن تصبح الجزئيات شيئاً جاهزة لتسديده في السوق المتنامي » .

والادارة هي «النصر البنائي الحى» ، فى كل تنظيم ، بمعنى أن يكون التنظيم هو صورة الادارة ، والادارة هي «مضمون التنظيم» .

وإذا كان التنظيم ، كبناء صورى ورسمى ، يهتم بفرض الشكليات ومطابق الرسميات ، فإن الادارة كعملية تطبيقية تفيض بالحياة ، إنما تهدف إلى تنفيذ لإرادته التنظيم وتحقيق أهدافه ، وإذا كان التنظيم هو نسق من العلاقات والوظائف الرسمية فى بناء بيروقراطى ، فالادارة هي عملية توجيه وإشراف وتفتيش ، فالتنظيم صورة والادارة أداة ، للتنظيم حالة استاتيكية ، والادارة حالة ديناميكية ، والتنظيم شكل ، والادارة فاعلية ، وإذا كانت الادارة « مشخصة Concrete » وواقعية ، فالتنظيم هو أمر « مجرد Abstract » ، كل تنظيم هو تنظيم صورى أو غير مشخص ، ولا يتحقق التنظيم فى الواقع الاجتماعى ، إلا فى إدارته تعمل وتحقق وتنفذ .

فالتنظيم قائم وخالد . بدوام « القانون » ، أو « المؤسسة » ، أما الادارة فهي واقعية تفيض بالحياة ، لأنها تعمل وتصح ، وتتوقف وتنتهى ، فالتنظيم أمر لا يتخضع للزمان ، لأنه حلقى ، أما الادارة ، فهي أمر واقعى وتاريخى ، لأنه يتحقق فى الزمان . بمعنى أن التنظيم والادارة ، هما للادة والروح ، والصورة والهيولى بالمعنى الارسطى . والاطار والفحوى ، أو الشكل والمضمون بالنسبة لكل مؤسسة أو مشروع صناعى أو إقتصادى .

ولا تكفى عملية التنظيم بذاتها ، ولا تعمل وحدها ، فليس هناك تنظيم بلا إدارة ، لأن الادارة ببساطة هي «روح التنظيم» ، ومبعث الحركة الدينامية خلال أساقفه وأدواره ، بمعنى أن الادارة فى الحقيقة ، هي أداة كل تنظيم ، وبصدر فاعليته ، ومبعث الحركة فى مضمونه ودينامية فحواه .

ولقد بدأت الامتيازات بالتنظيم والادارة ، منذ اكتشاف « تايلور » ، أن أعمال

(1) Smelser, Neil Sociology, An Introduction, India 1970

الصلب يخطئون في عمليات التشغيل، فيطرقون الصلب بطرق خاطئة. فحاول من طريق، برامج التشغيل والتدريب، أن يتوصل إلى طريقة واحدة ومشالية *One ideal way*. وباستخدام الطرق الأولية في نظم الإدارة التطبيقية وبرامج الكفاءة الانتاجية، وبعد الحقائق المتحددة والفائدة تنقص الخبرة، أعلن دايلور، عن ضرورة الالتفات إلى تحقيق ما يدعم الخبرة وتدريب العمال، الأمر الذي يكشف لنا بوضوح أهمية التنظيم الإداري، أو شدة الحاجة إلى «إدارة منظمة *Systematic management*»، عن طريق تحقيق أو تطبيق منهج إداري منضبط ورشيد. فوضع دايلور، فلسفة جديدة للإدارة العلمية، تقوم على الاختيار السليم للأفراد، واختيارهم، مع التحديد الملمى لمظم بل كل أجزاء العمل وعناصره، كما رسم سياسة لتقسيم العمل، ووضع البنات الأولى التي إليها يستند كل تنظيم صناعي، يقوم على الإلتزام بمبادئ الإدارة العلمية، فحاول دايلور، ولأول مرة في تاريخ العلاقات الصناعية، أن يلتزم بمبدأ جديد وهو الإلتزام بقواعد التعاون الرشيد، بين العمال والإدارة.

ولا يتم «التنظيم» بأفراد، بل بوظائف وأدوار «*Role*» وأعمال مراكز، كما يفصل التنظيم بين عمليات الإنتاج والتمويل والتسويق، ويضع لكل عملية منها تخطيطاً يربط مراحل جزئية، وأجزاء مرحلية، وخطوات لكل عملية.

خاتمة

سنحاول في هذه الفاتمة أن نستعرض مختلف منجزات ونماذج علم الاجتماع السياسي في ميادين التنمية الاقتصادية ، حيث وجدنا أن ماضي هذا العلم الاجتماعي غني وحافل بالتراث المكري، كما أن تاريخ الفكر الاقتصادي نفسه إنما يتميز بالسخام ووفرة المادة السوسيو إقتصادية التي أخذت تترى وتتراكم منذ فترة ، تريد على قرن من الزمان .

ولعل دهربرت سبنسر (Herbert Spencer) ، وتحليله للمجتمعات العسكرية Military والصناعية Industrial ، قد ألقى ضوءاً على فكرة التطور الاقتصادي للمجتمعات ، وكيف تؤثر فكرة التطور Evolution أو التقدم progress ، « بين تفاعل وتداخل في الظواهر الاقتصادية ، فتتحوّل من مستوى الاقتصاد اللاتجانس Heterogeneous ، (١) إلى مستوى الاقتصاد اللاتجانس Homogeneous ، بالإضافة إلى أن للبدا الذي يفرضه تسيطر تكامل المجتمع في حالته العسكرية هو مبدأ « التعاون المفروض أو القهري Compulsory Cooperation وهو شكل من أشكال التضامن الجبري يتميز به التكامل الاجتماعي Social Integration بما يتضمنه من أشكال اقتصادية ، وصور عامة يتميز بها النشاط الاقتصادي .

ولكن للتكامل الاقتصادي الذي يتعلق بالنظم الصناعي ، إنما يتأثر تماماً عن المجتمع في الحالة العسكرية ، بحيث نجد أن « النشاط الصناعي Industrial activity ، إنما يستند أصلاً إلى نظام الضبط السياسي Political Control وقواعد الانتاج وقوانين العمل ، وأسس توزيع الثروة وحدود التمتع بحق

1 — Spencer. Herbert. The Principles of Sociology,

London 1885.

لللكية ، وكلها أساليب مشتقة من أصول ومصادر اقتصادية (١) .
ثم إن للبدا الذي سيطر على البناء الاجتماعي ، في حالته الصناعية ، هو مبدأ « التعاون الاختياري أو الارادي Voluntary Cooperation » ، وهو شكل من أشكال التضامن الحر ، الذي يتميز به النمط الاقتصادي في المجتمعات الصناعية الرأسمالية . وهذا هو للظهور التطوري للاقتصاد ، كما وصفه سبنسر في كتابه « مبادئ علم الاجتماع Principles of Sociology » ، أما « إميل دوركايم Durkheim » ، وبخاصة في كتابه « تقسيم العمل الاجتماعي Division of Labour in Society » ، فقد عالج الظاهرة الاقتصادية على نحو مختلف تماما ، حيث ميز دوركايم بين الظاهرة الاقتصادية : في المجتمعات البدائية وبينها في المجتمعات للتحضرة ، حين وضع بعض الشروط التي يمتاز بها للجمع البدائي ، من ناحية « التضامن آلي Mechanical Solidarity » ، حين نشأه وتجانس أنماط السلوك الاقتصادي في المجتمعات البدائية ، أما للجمع الحديث فيتميز بالتضامن العضوي Organic Solidarity حين تتحد وتنوع ظاهرة تقسيم العمل ، وبالتالي تصبح أنماط الاقتصاد في المجتمعات الصناعية أكثر تركيا وتعقداً من تلك السائدة في المجتمعات البدائية .

وما ينبغي من كل ذلك ، هو أن الظاهرة الاقتصادية . إما هي ظاهرة من نوع خاص ، حيث صدرت بصدها الكثير من الكتابات ، وهولجت عند الكثيرين من طلبة الاجتماع ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، من أمثال « سبنسر » و « دوركايم » ، و « ماكس فيبر Max Weber » ، و « كارل ماركس Karl Marx » ، كما عالجها عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطاني ،

(١) Ibid. pp. 12-13.

درايموند فيرث Raymond Firth ، وبخاصة في كتابه «عناصر التنظيم الاجتماعي» Elements of Social organization ، وحين نظر إلى المجتمع نظرة خاصة ودرس البناءات الاجتماعية ، لا من زاوية «القيم» ، و«صور التنظيمات الاجتماعية» Forms of social organization ، على ما فعل رادكليف براون Radcliffe- Brown (١) ، لا من زاوية الأنساق الاستاتيكية الثابتة القائمة في البناءات السياسية وما يدور فيها من علاقات سوسيو مكانية وسوسيو زمانية ومسافات بنائية structural distance ، تنظم هذه العلاقات ، على ما يقول ليفانز بيرتشارد Evans-Pritchard (٢) . فلم يدرس درايموند فيرث ، البناء الاجتماعي في «نيكوبيا» Tekopia ، من زاوية صور العلاقات والتنظيمات ، ولا من زاوية البناء السياسي والنشاط الأيكولوجية ، وإنما درسه من زاوية البناء الاقتصادي ، وما يقوم فيه من نظم التخصص للبنى ، وما ينجم عنها من المراكز والراتب وأشكال المكانة Rank والاختلاف الطبقي ، والأدوار الاقتصادية بين مختلف فئات الجنس Sex ، والسن age و«الموطن» و«القربة» .

هذا مثال من الاقتصاديات البدائية ، أما بالنسبة لمسائل الاقتصاد بأنماطه الحضرية والصناعية ، فقد تعرض «ماكس فير» Max Weber ، لمسائل النقود Money وعلاقتها بمشكلة السوق Market وبخاصة أسواق التجارة وللال في عمليات البيع والشراء ، والربح . وكشف فرع من مفهومات اقتصادية

(1) Radcliffe-Brown, A R, Structure and Function in Primitive Society, Cohen and West, London. 1956. p. 193

(3) Evans-Pritchard, E.E., The Nuer, Oxford 1940 P. 261.

خافضة ، مثل « قيمة الاقتصادية » أو المنافع الاقتصادية *Economic utility* ، مثل السلع *goods* ، أو الخدمات *services* ، كحجرات طيبة أو إنسانية تحقق منفعة ، كما كشف عن « الاحتكار *Monopoly* » والاستغلال ، وناقش مشكلة الاقتصاد الحر والاقتصاد الموجه ، مما فتح الباب على مصراعيه أمام مسائل الإدارة ، و« التنظيم » ، و« البيروقراطية *Bureaucracy* » ، و« الاشتراكية *Socialism* » ، و« الرأسمالية *Capitalism* » و« حرية الملكية *Freedom of Property* » (١) .

ويصدد التركيبات الاقتصادية في المجتمع ، يستعمل ماكس وبر ، قطبة تركيب إقتصادي يدور بين جماعات من الناس حول مصالح خاصة لتحقيق منفعة أو زيادة دخل *income* ، وبخاصة في تلك القصر التي يتيحها العمل وظروف السوق .

موقف علم الاجتماع السلي :

أ - يمكننا أن نحدد في كلمات سهلة وبسيطة ، خلاصة موقف « علم الاجتماع السياسي » من مشكلات التنمية ، فنقول في بساطة : إذا كان « التخلف » يعني الركود الاقتصادي ، وانخفاض متوسط الدخل الفردي ، وميول معدل المدخرات ، فالتنمية الاقتصادية ، هي عملية تهدف بالضرورة إلى زيادة الدخل الحقيقي للمجتمع بالعمل المستثمر . الجانب على رفع الكفاية الانتاجية ، مما يؤدي بالتطلع إلى مضاعفة حجم الانتاج ، والقضاء على « التخلف » ، وزيادة معدلات النمو الفردي ، ورفع

(1). Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization, trans. By Henderson and Parsons, Glencoe, 1937, pp. 301.

حجم الإستثمارات والمخدرات (١).

ولذا كان «خبراء النفوس» يبحثون عما هو «عام وشائع» في طبائع البشر، حتى يمكن علاج ما هو «شاذ» أو «غير مألوف»، «على غير» الاقتصاد والتنمية دراسة ما هو «عام وشائع» في «اقتصاديات المجتمعات النامية والقرى المتقدمة»، حتى يمكن التوصل إلى عدد محدد من الأحكام والتنمية الاقتصادية، «حين تشابه الظروف والأوضاع الاجتماعية»، وبالتالي يمكن علاج ما هو «تقليدي»، أو «متخلف» في ميادين الثقافة والإقتصاد.

وعلى هذا الأساس، تصبح التنمية الاقتصادية على العموم، هي عملية التوصل بالموارد المتاحة، واستغلالها إلى أبعد حد ممكن، لمواجهة الحاجات الجديدة. فالتنمية إذا هي تنمية الموارد الاقتصادية، وهي «محصلة الجهود الذاتية والمساهمة للمستخدمة لتظيم الأنشطة الحكومية، وتشجيع الجهود الذاتية والرقابة الشعبية»، مع تنظيم «النشاط الأهلي»، وتنمية المجتمع يتكيف برامج المساهمة أو للمشاركة الأهلية، من أجل تعبئة الموارد وفقاً لتخطيط مدروس. فالجهود الجماعية وتنمية القيادات، مع الإيمان بالتخطيط العلى للرن والمنظم، بالإضافة إلى التركيز على ضرورة التطوير، بتنمية الإحساس بالزمن الإقتصادي، والشعور بالحاجة إلى التغيير، وكلها عناصر سوسيولوجية وسيكولوجية، أساسية وضرورية، في عملية التنمية الاقتصادية.

ب - وهناك فوارق بالطبع بين والتنمية الاقتصادية، و«الانعاش الاقتصادي»، حيث تحتاج تنمية الاقتصادية إلى عمليات وبرامج ومشروعات في

(١) دكتور عبد الكريم صادق بركات «اقتصاديات القرى النامية» - الإسكندرية

التنمية الثقافية والمضاربة والبيكولوجية . أما عملية الانماش ، فهي عملية مادية
 ممتدة لإعادة البناء الاقتصادي ، إلى مسيرته الاول ، والعودة إلى حالة أفضل .
 مضطرا وانقضت ، حتى تستعيد كل موقفا ووضع اقتصادي ، قد انقضى ، لكي يحدث
 التوازن للطلب ، والتكيف للأول ، مع الأوضاع الاقتصادية الجديدة ولاستند
 اقتصاديات التنمية ، على مجرد القروض واستعادة التكنولوجيا ، واللعونات
 التقنية والاقتصادية ؛ بالنظر إليها على أنها وسائل دفع ، تنمية والتجديد بها .

وهذه نظرة خاطئة في علوم تنمية المجتمع ، فالقروض والتقدم والديون ،
 واستعادة التكنولوجيا ، واللعونات التقنية ، ينبغي أن تنظر إليها جميعا على أنها
 نتائج للتنمية ، وليست بالتنمية في ذاتها . فالقروض والتكنولوجيا ليست
 بمثابة مقدمات للتنمية ، بل إن التكنولوجيا هي مخلوق تراكمي ثقافي واجتماعي ،
 وليست التكنولوجيا كالم ظاهرة عالمية ؛ بل هي عملية اجتماعية ، لأن التكنولوجيا
 هي إفراز اجتماعي ، وليست بالمخلوق المادي « كأشياء أو سلع تقنيها » .

وهذه المساعدات المادية والقروض ، قد تبقى أشياء ، وقد تشيد لنا « بناء »
 ونقيم للمشرعات والصناعات ، ولكنها للأسف الشديد « لا تبني أو تقيم » إنسانه
 فمن السهل بناء « كوبري » أو « نفق » ، ومن الصعب « بناء إنسان » . حيث أن
 الاعتماد على مجرد القروض واللعونات التقنية ، إنما يضر بعملية التنمية الاقتصادية
 حيث تصبح الديون هي « أعباء » تنوء تحتها الدولة . ومن أجل التنمية تمتد
 لدول النامية على عرق أبنائها ومواطنيهم وعلمهم ومختراتهم ، وحرمانهم
 وتقتسمهم . فليتنا أن نسير « تقديرات ونطلق الطاقات ، وننشط المعلم من أجل
 زيادة الانتاج ، والتقليل من الاستهلاك ونشجع الحاجات ، وننقلها من أجل شراء
 الكياليات . فما أخرجتنا إلى العمل النافع ، والتخفيف بالتخفيف ، وبالتجديد من

استملاكنا ووضيلانا .

وفيا يتعلق بالتنمية الاقتصادية ، و تنمية النظم الادارية ، فيمكن النظر إلى الادارة من وجهة نظر علم الاجتماع الادارى ، على أنها نسق اجتماعى ، يتغير مع تغير النظم الاجتماعية . كما ويطرأ عليه سائر ما يطرأ على النظم الاجتماعية الأخرى من « ظواهر » . فهناك إدارة « رجعية » ، أو متخلفة ، ، وإدارة أخرى « تقدمية » ، و « متحررة » ، طبقاً لما يسود البناء السياسى والنسق الاجتماعى ؛ من سور ومضامين ونظم سياسية واقتصادية .

ومن هنا تتأثر الادارة « بروح العصر » ، كما تتطور مع تطور العصور ، فنظم الالزام « إدارة » ، والسخرة « الجباية » وإدارة . . . بمعنى أن نظام الادارة يتأثر ويؤثر في طبيعة الحياة الاجتماعية وما يسودها من أنماط ثقافية عامة .

وقد تتأثر الادارة أيضاً ، بنظم اقتصادية فهناك ادارة اقطاعية وإدارة صناعية وإدارة اشتراكية ، مما يؤكد لنا بوضوح مدى التماسك بين شكل الادارة ونمط الاقتصاد السائد . فيبغى تنمية أنماطنا الاقتصادية حتى يكون لها صداها في فن ادارة المجتمع والتنمية الادارية .

٢ - وتطور المجتمعات بالتنمية ، من مجتمعات تقليدية Traditional إلى مجتمعات انتقالية Transitional ، يعيش فيها الانسان على هامش ثقافتين متباينتين ، أحدهما ثقافة التقليدية الأولى أو القديمة ، والأخرى ثقافة صربية جديدة يتطلع إليها . وهذا يصبح « انساناً هامشياً » Marginal Man ، بمعنى أن صير له شأن يميزه « - زمنية - » تقليدى هديم ، ولذلك يعيش الانسان الهامش على هامش عالم خاص « يسكنه أغراب عنه يتخيلهم ، ويعلم ويرى في تخيل أشبه غير حقيقية . - فقرب - » دنسا أخرى ، لا يراها أقرانه ، لأن واقعهم هو واقعهم صورى

متخيل ، كما يعيش ويتصرف في عالم خاص به وحده لأنه عالم « غير واقعي » ، يشهد كثيراً عن « وجوده الاجتماعي المحسوس » .

وعندما طبقات انتقالية وهامشية ، تخرج الأدنى بالأعلى وتخطيّن أسفل المجتمع بأعلاه ، حيث تتداخل الثقافات والطبقات ، فيعيش فيها من كان ينتمى إلى طبقة أقل أو أدنى ، ثم شاءت الظروف الاقتصادية ، أن تتغير أحوالهم وترقى طبقتهم ، فيدخل في دائرة ثقافة أخرى أو طبقة أعلى فيصبح هامشياً مغرباً ومضطرباً ، لا ينتمى إلى طبقة بينها ، ولا يعيش ثقافة بالذات ، وإنما على هامش طبقتين ، فلا يستطيع أن يتكيف مع الطبقة الأدنى ، لوجود أصول طبقة تؤسس طبقة الأدنى ، وتتوحد مع ذاتها الأصلية ، فيقع في الحيرة والتردد والقلق ، بصدد طبقة أعلى ودخيلة .

هذا عن الإنسان الهامشي ، وتصوراته ومدرّكاته ، أما الإنسان للتخضر ، في مجتمع حديث متحرك mobile ، فلا يشعر بمثل هذا القلق أو التناقض الوجداني Ambivalence حيث يمتاز الإنسان العصري ، بالتقمص الوجداني ، حين يتصور الأشياء على نحو موضوعي ؛ فيتنهم لباس ويتوقع سلوكهم ؛ بل ويعود هذا السلوك حين يضع نفسه دائماً في مقام الآخرين ، ويتوحد بهم ، ويفسر كل سلوك من خلال ظروف الآخرين . وبذلك يختلف أسلوب الحياة عند الإنسان للتخضر ، ويمتاز بالقدرة على التقمص ، وسرعة التكيف مع مجتمع صناعي متطور (١) .

د - أما عن النذج العلمي التجريبي ، الذي يمكن بفضلُه أن ندرس عقل الثقافة وانجتماع . وأن نمالج - لموك الناس إنما ينصب على معرفة فهم وفهم أسلوب الحياة style of life . ودراة أنماط الفعل الاجتماعي social action

(١) : كثرية ج. ان و. في : علم الاتصال ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ، ص ٢٢٢

وصلة هذه الأنماط بالثقافة أو الطبقة موضوع الدراسة بالقائه لخصوه على السلوك
الفعل، وبالتأكيد على دور الفاعل الاجتماعي .

ولقد أكد « بارسونز » و« فير » على أهمية دور الفاعل وبنية الفعل الاجتماعي
كما أثار فير فكرة « الفعل العقل *Rational Action* » حيث ركز على أهمية دور
الافكار، في فهم وعظم الثقافة . وبفضل عملية النموذج المثالي *Ideal type*
Procedure ، يمكن فهم توقعات السلوك . وردود الافعال الاجتماعية في
مواقف الحياة اليومية . فالأبعاد الفكرية والعقائدية في السلوك الانساني هي التي
تتفهم فعوى ما يدور من وقائع وظواهر وأحداث .

وبعد ما يقع أو يظهر أو يحدث يعتبر « القصد » أو « الافعال التصديقية
Intentional acts » عند « فير » *Weber* ، من أهم عناصر الفهم وتفسير الظواهر
والوقائع والأحداث . وبذلك نظر « فير » إلى « منجز الفهم » على أنه الطريقة
للمثل لدراسة التاريخ بأحداثه ووقائعه . وعلم الاجتماع هو الذي يحاول في فهم
« فير » ، تعديد الفهم التفصيلي *explanatory understanding* ، للكشف عن
طبيعة مواقف السلوك وأنماط العمل الاجتماعي ويصبح « الفعل » اجتماعيا .
إذ كان « معناه الذاتي *Subjective meaning* » مرتبطا بالانساع الاجتماعي ،
حين يأخذ في اعتباره الأشكال المختلفة لأنماط السلوك السائدة والعامية . ويضم
« للفهم الذاتي » في علم النفس المعاصر ، ويعرف بأنه يتضمن اتجاهات ومقاصد
لاشعورية *unconscious intentions* ، كما وقد يتضمن « الفعل الاجتماعي »
بالضرورة ، بعض الجوانب والاتجاهات العقلية الشعورية (١).

(1) Weber Max., Basic concepts in Sociology trans
by H.P. Sasser Peter Owen, London 1962.

إلا أنما مع ذلك ، نستطيع أن نقصد ما كس فبر ، حين حاول أن يفسر الحقيقة الاجتماعية في حدود الدوافع الفردية individual factors وحدها ، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى اضطراب الحدود الفاصلة بين علم الاجتماع وعلم النفس .

ولقد أنكر د فبر ، غلبة الانحماضات الاقتصادية وسيطرة المصالح والقرص والمنافع على توجهه القيم والافكار والايديولوجيات . فرض للوقف للادى الماركسي وتحدها ، في ضوء تحليلاته للمقارنة للجماعات الحضرية ، وفي ضوء تنظيماتها السياسية والاقتصادية ، فاكشف الرابطة الوثيقة بين الدين والاقتصاد ، وكيف يكون الدين عاملاً مورياً وتغيرياً ، بالنسبة لقيم المجتمع وعصرواته بل وأماطه الاقتصادية . فالأسمالية هي ، نتاج الروح الدني البروتستانتى ، بأخلاقها وقيمتها ، ومعتقداته وعبادته . حيث تشجع الديانة البروتستانتية على الادخار والاستثمار ، وتقديس العمل ، وترفض التواكل والتكامل ، وتفرض الحركة والكسب واحترام للمهنة ، وإتقان ما يكلف به العامل من حرف أو أعمال .

فربط فبر بين الاقتصاد وقيم الدين ، وحاول أن يجعل من الدين عاملاً تنمياً ، في الأنساق الاجتماعية ، وبخاصة في دراسة للشهوة البناءات القروية Rural structures في الصين والتي نشرت في كتابه الضخم ، ديانة الصين The Religion of China ، فكشف عن كيفية إدارة المقاطعات ، وموقف القهانون والحكومة في التنظيمات القطاعية (١) . وفي قسم آخر من الكتاب كشف د فبر ، عن أثر تعاليم كونفوشيوس Confucius في تقييد نظم

(1) Weber, Max., The Religion of China, trans. from German by Hans Gerth, Glencoe, 1962, P. 83.

الاقتصادية الصينية المتينة. كما عقد للقارنات بين الديانات القديمة، والديانات
للنزه، فقد لعب الدين الاسلامي دوراً في تغير أنماط إقتصادية كانت سائدة
في عصر الجاهلية. ثم أمر الاسلام بالصلاة والزكاة، ونهى عن شرب الخمر
ولعب اليسر (١) ولذلك يكون دور الدين الجديد هو عامل ثوري تغير دوره في المعاليق
هكذا تنظمت إقتصادية قديمة، بظهور القيم الدينية الجديدة، والتي تحتاج
بدورها إلى تنظيم إقتصادي جديد، يمتص الجهد الانساني والنشاط البشرى.

ويربط دفر Weber في دراساته في التنظيم Organization بين علوم
الاقتصاد والنفوس والادارة والاجتماع الاقتصادي حيث يحدد التنظيم
الاجتماعي، دور الأفراد ووظائف الجماعات وينظم أفعالهم ومناشطهم، ويصطب
أنماط سلوكهم. فالأفراد ليسوا في النهاية إلا نتاج لتنظيم يحدد أسلوب الحياة
وطريقة العمل. كما يربط الأفراد في كل تنظيم بأدوار Roles ومراكز
يحكمها سياق محدد من الأفكار وبفنى خاص من القيم والمصطب والسلوك،
وفرض للمعايير المنظمة للأفعال وردود الأفعال داخل التنظيم، سواء في
الاشكال الرسمية Formal أم غير الرسمية، وفي الجماعات المفتوحة أو الانساق
للمغلق Closed Systems.

ومع تقدم أنماط الحياة الاقتصادية، ووظيفة التكنولوجيا وإزدياد درجة
التوتر tension، والأزمات الانسانية الناجمة عن عنة التصنيع، كالتفر
والبطالة مصدرت دراسات للسوح الاقتصادية التي بدأ بها، تشارلز بوث
Charles Booth، لدولة مال لندن، وهي دراسة أبحاث نشره بوث، قصص
هو ان Life and Labour of the People of London فيصنفهم إلى أحياء

(1) Weber, Max, The Sociology of Religion, trans by
Ehrhard Fischhoff, London: 1968 P. 102.

إلى طبقات عليا ودنيا ، ودرس مشكلة الطبقات والعمليات الأيكولوجية والحراك الاجتماعي في مستويا ، الأفقية والرأسية ، ثم طلع علينا د مالتس Malthus ، بدراساته ذاتمة الصيت عن السكان وتعدادهم ، وكيف تزداد الثروة بتوالي حماية ، يشهد ' يزداد الناس على نحو يبشر بالجوع ، ويهدد المجتمع الدولي كله ، حين يزايد البشر بتوالي هندسية . وكذلك حفرنا ما ألفى من الانفجار السكاني ، ونهبنا إلى ضرورة التنمية وزيادة الانتاج والثروة وتحديد النسل وتنظيمه ، حتى يحدث Readjustment ، بين الاناج والاستهلاك ، ويزول عن العالم شبح البؤس والحرمان .

وفي الاقتصاد الحضري ، قام د راونترى Rowntree ، بدراسة الظروف الاجتماعية التي أحاطت بالطبقات الفقيرة والمعدمة ، واستخدم Bowley منهج المسح : طريق العينات Samples لدراسة الطبقات العاملة ، من ناحية الحالة المعيشية ومستوى الأجر ونسبة الدخل لمختلف فئات للقوى العاملة .

وما يميننا من كل ذلك - هو أن الدراسات الاقتصادية في علم الاجتماع كانت تتقدم وتعمو ، مع نمو وتطور الظواهر والعمليات والتنظيمات الصناعية والاقتصادية ، حيث إزدادت جهود الانسان في قطاعات الزراعة والصناعة والتجارة ، وقدمت وسائل التدوين واللواصلات والنقل ، التي عملت على رفع معدلات الانتاج وإعاش مشروعات التنمية .

ومع تعدد للناشد الاقتصادية ، يميز سيميان Simian بين نظام الانتاج وصوره Form فالاول يتصل بحركة العمل والعمالة والتشريع وإدارة العمل من أجل زيادة الانتاج .

هذا عن نظام الانتاج ، أما صوره فترتبط بالشروط التقنية والتكنولوجية

وحجم العمليات الانتاجية طبقاً لطريقة الليكنة Automation ومداها . فظهرت الرأسمالية بفضل صناعة النزل والتسيج Tissage ، ونظراً لقلة كثافة السكان ، وتطور الصناعات اليدوية والنزلية ، إلى الانتاج الواسع في بنساعات وتطبيقات صناعية معقدة . حيث بدأت الصناعة أولاً داخل جدران البيوت ، ثم انتقلت إلى الورش والمعامل الصغيرة ، ومع تقدم التكنولوجيا ظهرت المصانع ، كتطبيقات قائمة بذاتها . فهناك شروط ووظائف تكنولوجية يحددها النسق الاقتصادي ذاته .

وتنشأ المخاض الكبير بالقرب من مناجم الفحم وآبار البترول ، ومراكز الصناعة الواسعة في المدن الصناعية الكبرى ، حيث نشطت حركة البيع والشراء ويتوافد مختلف أصحاب المهن والحرف ، فيزداد حجم المدن ببرامك العمالة وازدياد الكثافة السكانية ، ومن هنا يزداد التقيد شيئاً فشيئاً حين يطأ على مختلف التنظيمات والبنساعات الصناعية .

وقد تدخل العوامل الديموجرافية نفسها في تحديد طريقة الانتاج ومداها وفي تنظيم وتدخل عملية الحراك الاجتماعي ، فن المدينة الصناعية إذا ما زاد عرض العمال على طلبهم ، يظهر شبح البطالة الذي يفرض علينا الاعتراض على الهجرة إلى المدينة والافتقار من درجة الاقبال ، حتى تضغط ظواهر الانتاج مع عرض العمال ، ويحدد نظام الأجور ونقل الفوارق المسافة بين الدخول والطبقات ، ويقترب أبناء الطبقة الفقيرة من الطبقة الوسطى ؛ تلك التي تتطلع دائماً إلى الأخرى إلى طبقة أكثر ثراءً وغنى .

ومع ذلك - فلا شك أن دماكس فير ، قد ساهم بهم وافر ، في ميدان علم الاجتماع الاقتصادي ، حيث كتب عن مشكلات التنظيم ، والبيروقراطية ،

كما أشار إلى الصراعات ودور القيادة الرشيدة ، الأمر الذي يكشف بوضوح عن موقف دماكس فيبر ، من للشروعات الاقتصادية ، والمشكلات التي تتعلق بالإنتاج ، مع بداية ظهور الاهتمامات بتقسيم العمل الاجتماعي ، حتى تتحقق أفضل إنتاجية ممكنة ، وحيث تسرع عجلة التنمية الاقتصادية ، من أجل تطوير الصناعة .

هـ - وإذا كنا في ميدان التنمية الثقافية ، تتخلف عن الركب حين ننظر أو ننمو في بلد ، بينما تلته وتنتقل في ميادين الصناعة والتكنولوجيا ، حين تتغير في سرعة هائلة ، فقد تزداد الفجوة الثقافية cultural gap ، ويحدث مايسميه « أوجبرن Ogbern » في علوم الاجتماع الثقافي والصناعي ، باصطلاح والتخلف الثقافي cultural lag ، حين يحدث تحت ضغط الصناعة ووطء التصنيع ، ومع إردباد حدة التغير التكنولوجي . وعلى علماء الاجتماع والنفس ورجال الدين والثقافة . أن يعملوا بلا إنقطاع على زيادة وتكثيف الحركة بدفع عجلة الثقافة ، وتنمية الإنسان والقضاء على تخلفه ، بدنامية علوم الاجتماع وتقدم علوم النفس ، وتطوير علوم الأنثروبولوجيا الحضارية . حتى نراكب على الأقل هذا التقدم التكنولوجي السريع ، فنقل وطء التكنولوجيا وتخفف عنه التصنيع .

وقد تنجح خطانا وتسرع ، حين يزرع مسعانا نحو المزيد ، ن تقدم علوم الاجتماع الثقافي ، والنفس الصناعي ، والأنثروبولوجيا الحضارية ، حتى تتحضر الفنون ، وتتطور آداب ، وتتأكد أصول الثقافة ، وتتركز مصادر الفلسفة ، حين تعامل مع هذه الدين وضوابط القانون والأخلاق ، وغيرها من سائر القيم التي ترض أتماط السلوك التي تتكيف مع الوجود الاجتماعي الراهن .

فلينا أن تثبت من الزمن ومن التاريخ ، وننتهض بالأرض ، حتى نثبت القيم ، ونثبت في المحيط الاجتماعي ، ونثبت الأسس للوضوعي لفكر والتصورات

حين تمتد الجذور ، وتنتشر الأصول ، بعيدة في أرضية الثقافة . ومن هنا يظهر لنا « تأصيل القيم » ، وتحقق مصادر القواعد الدينية ، والأصول الخلقية للرعية التي ينبغي أن يلتزم بها « الإنسان الصناعي للعاصر » ، الذي يجمع بين « الفكر والعمل » ، ويعزج بين « النظر والتطبيق » ، وهذا هو نمط الفكر العمل البراجماتيكي ، الذي يساير عصرنا التكنولوجي في تقدمه السريع وتغيره الهائل .

ولا شك أن هذا التغير الاجتماعي للزجاج ، ينبغي أن نخطط له تخطيطاً دقيقاً ، وإلا انحرف المجتمع الصناعي ، نحو المادية فقد (١) أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فلقد اجتذب الإنسان ككاش طحنته التكنولوجيا المعاصرة قوه ظلمات في بحر لحي يشاه موج من فوق موج من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يحمل الله نوراً فاله من نور » (٢) .

فعلينا أن نخفف الوطاء بعد أن كنا نلهث منذ قليل ، وراء المادة والتكنولوجيا ، فلنلتقط أنفاسنا ، ولنبداً نفوسنا وعقولنا ، حتى نرداد حضارتنا عمقا وأصالة ، وعلينا أن نعمل على تخفيف الآلام وتهدة الخطى والخواطر ، ونحبط النفوس ، وتديه العقول ، ونحذير الإنسان بتنميته وتطويره ، حتى تثبت أقدامنا ، وتمتد جذورتنا ، في سلب التاريخ ، و« تثبت أصولنا في بنية الثقافة » ، وتؤكد قواعدها ، « على أرضية صلبة من القيم » .

ويبدو أن « دفعة العمل » هي عجلة الحياة ، ولا أقول مع برجسون Bergson « دفعتها الحيوية Élan Vital » . فكلما ازدادت كثافة العمل ، كلما تهركت وأسرعت عجلة الحياة ، حين تفرى وتطلق ، بكل حيويتها وقوتها ،

(١) من سورة الفجر الآية ١٠٩ .

(٢) من سورة الفجر الآية ٤٠ .

معتقدات ومعتقدات وشجرة - والمالكات - آية العمل ، هي غاية متحركة ليكن تحقق
 أهدافا حيوية واقتصادية ، فهي غاية نشطة ومرغوبة ، وهي كحركة ديناميكية
 دائبة ، نجدها عاملة ومستمرة قبل وخطرة ، وقد ذهبوا بما على أعظمه في الإنسان ،
 وهو « عقبرته » ، يد أن تكون قد سيطرت تماما على « أعماط سلوكه » ، كما يعمل
 في آية مدمرة وعلى ضياع كل سمات الإنسان ، فتقضي على طاقاته وحياته ، ويأديبه
 أخلاقيات ، ويجعل أو ينجف قيمه وتحل أو تلاشي منه العليا . وفي هذا المعنى
 يقول د . T. S Eliot « في قصيدة المشهورة » الرجال الحارون
 « Hollow men » ، ونحن الرجال الحارون ، السكينون يمشون فارغ ، نرعى
 كما نرعى حبة مثقلة بالقش ، وبذلك يصف « إليوت » الحواء حين يتأذى
 « بتلك القيم » ، وينهار « نسق التل العليا » ، حين تتكف الحجب للادية على الروح
 الانساني ، فتصبح عارية من التل والجوانب الروحية العليا .

وهذا هو نموذج « إنسان التكنولوجيا » في مجتمع العصر للبروف وراسرأب ،
 حتى أصبحت نفس غرابا ، وروحه فارغة ، فهو شكل بلا مضمون أو حتى
 نظم ، وظل بلا لون . أما كلماته فراكدة بلا علم ، تراها قد فقدت للنفس ، لأنها
 قبض الريح حين تهب على هشيم ، وهذا هو « الحواء » (١) كحقيقة هيئة مزعجة
 فينبئ أن يملأ حواء التخطيط والإجتهاد رجال الدين والفتنة عن أخطار
 « عصر الآلة » التي ستحت كل شيء ، وتقتضي على الإنسان ، وتدمر قدراته وممتلكاته .
 ونشأنا - في ميدان تنسية الاقتصادية للإنسان الحال ، لقد سمعنا في قديم علم
 الاجتماع الصناعي وعلوم تنمية والإدارة والتخطيط الكثير من الدراسات والتقارير

(١) « كوكبة محمد زك العبدوي » : الأدب وفن الحياة العاصرة ، الجزء الأول ، الطبعة

مثل علم الاقتصاد نفسه ، بالإضافة الى جهود وغيره علاقات العمل
 وLabour Relations ، والأنثروبولوجيا الثقافية ، وللورولوجيا الاجتماعية ،
 وعلماء الاجتماع الصناعي ، وعلماء النفس الصناعي industrial psychologists
 وعلماء الأنثروبولوجيا الاقتصادية Economic Anthropology . وهناك
 دراسات أخرى فرعية ساهمت في تطور علم الاجتماع الاقتصادي ، مثل علم
 الديموجرافيا Demography ، ودراسات شغل أوقات الفراغ Leisure ، التي
 تبض بدراساتها علوم متخصصة ، مثل « سوسيولوجيا العمل » Sociology of
 Work ، و« سوسيولوجيا أوقات الفراغ » Sociology of Leisure ،
 و« سوسيولوجيا المهنة » Sociology of occupations ، و« سوسيولوجيا
 المنظمات الرسمية » Sociology of formal organizations و« سوسيولوجيا
 التنمية الاقتصادية » Sociology of Economic development .

وتدور كل هذه الدراسات والعلوم الجزئية ، حول تلك العلاقات العديدة
 Causal Relations التي تربط بين ما هو اقتصادي Economic بما هو غير
 اقتصادي non economic ، في سياق أو تيار الحياة الاجتماعية .

والأسئلة المطروحة في هذا الصدد ، تبدأ بالسؤال عما نحتاجه ، والبحث عما نحاول
 أن نعرفه في ميدان التخصص والتنمية ، بصددهم الاجتماع السياسي ، وما هي النتائج الرئيسية
 في هذا الصدد ؟ وماذا نحاول الآن أن نعرف ؟ . وما هي تلك المكتشفات النهائية
 التي جعلت بإمكان علماء الاجتماع السياسي والديني والصناعي ؟ . وهل تتقبل
 تلك المكتشفات على أنها قضايا يقينية ، لا تقبل للنقطة والمجدل ؟ .

هذه هي المسائل الرئيسية التي يشتمل بها علم الاجتماع على العموم ، في
 حلولهم لتوصل إلى تلك القوانين السوسولوجية العامة ، ، التي تحكم مسار
 التطور الصناعي ، والتي تكشف عن بعض القضايا المجهولة في إقتصاديات علم
 الاجتماع ، والتي تحيط التام في نفس الوقت ، عن بعض المواضيع والمجالات التي
 قد تكون مبهمة ، فما زال في علم الاجتماع الصناعات الكثير من المجالات غير
 للطرقة ، ، وقاط البحث التي يحيط بها الغموض والابهام . فهناك العديد من المشكلات
 الاقتصادية والمسائل التي تكتنف غير المعروف unknown في نظرية البحث الاقتصادي
 علينا أن نتطرق إليها ، باقتحام ماقابها ، وغزو ميادينها المجهولة ، حين تسلح
 باستخدام منهج العلم ، وبأداة قضايا النظرية الاجتماعية ، ، وباتجاه طرائق
 القرض والملاحظة والتجرب . إلا أننا مع ذلك ينبغي ألا ندرس المجتمعات
 وثقافات على أنها مجرد أشياء ، يمكن دراستها من الخارج ، وإنما ينبغي أن
 أن نفتح باب دلتهم ، واسعاً لضم عنوانات المجتمع والثقافة . . والله أعلم ؟

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

ملحق للراجع والمحتويات

للتراجع العربية :

• آرون ريمون ، صراح الطبقات ، ترجمة عبد انيد السكاك ، منشورات
عبدات بيروت ١٩٦٥ .

• آرون ريمون : المجتمع الصناعي ، منشورات عبدات ، بيروت ١٩٦٦ .

• الدكتور السيد بدوي ، علم الاجتماع الاقتصادي ، منشورات جايعة
مقريوس ، بنغازي ١٩٧٧ .

• أوسبورن ، للاركية والتحليل الفسي ، ترجمة د. سعاد الشرفاوي ،
مراجعة الدكتور مصطفى زيور ، دار المعارف ١٩٧٣ .

• بورر ، كارل : عدم للذهب التاريخي ، ترجمة الدكتور عبدالمجيد صبرة ،
منشأة المعارف ١٩٥٩ .

• بوسكيه وقانيه ، الانسان في المجتمع المعاصر ، ترجمة مصطفى كامل فودة ،
مراجعة الدكتور راشد البراوي دار للعروة ١٩٦٩ .

• دكتور حاتم الكبي ، الطبقة الاجتماعية عند كارل ماركس . فصحة من مجلة
والاستاذ ، التي تصدرها كلية العربية بجامعة بنغازي - المجلد الثاني ١٩٦٣ .

• دكتور حسن شحاته سخان ، دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي معبد
للبحوث والدراسات العربية للطبعة العالمية ١٩٧١ .

• الدكتور حسن الساماني ، تكنولوجيا والمجتمع ، مطبعة للمرة ١٩٦٣ .

• دكتورة جيلان وشي ، نظم الاتصال ، الجزء الأول ١٩٧٧ .

• جيلان ، نبويج ، علوم الفكر السياسي ، الكتاب الثاني ، ترجمة الدكتور
راشد البراوي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ .

• ستالين ، جوزيف أسس الشيوعية ، حول مسائل الشيوعية ، الشركة اللبنانية
للكتاب بيروت .

• سول ، جورج : للمذاهب الاقتصادية الكبرى ، ترجمة الدكتور راشد
البراري ، النهضة ١٩٦٥ .

• سيجموند ، بول ، ايدولوجيات الأمم الآخذة في النمو ، القمار القومية
للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤ .

• جان ، مينو : مدخل إلى عالم السياسة . ترجمة جورج يونس ، منشورات
هويدات ، بيروت ١٩٦٧ .

• حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، للطبعة الاميرية ١٩٤٩ .
• دوفرجيه ، موديس ، في الدكتاتورية ، ترجمة الدكتور هشام متولى ،
منشورات هويدات ، بيروت ١٩٦٥ .

• دكتورة عائدة بشارة : دراسات في بعض مشاكل تلوث البيئة ، الهيئة
للمصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

• دكتور صوفي حسن أبو طالب ، الوجيز في القانون الروماني ، دار النهضة
العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .

• د . صلاح حداد : الطب الصناعي وأمراض العمال ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٧٣ .

• دكتور محمد الجليل الطاهر : علم الاجتماع بين التبيينولوجيا والتفسيرية ،
مستل من مجلة كلية الآداب العدد الرابع - آب ١٩٦١ مطبعة لبنان ١٩٦١ .

• الدكتور: محمد للنعم شوقي: في الادارة للتنفيذية وأثرها في أداء الخدمة العامة: للنظرة المالية لحرية الصحافة، للشركات الادارية، دار المعارف القاهرة ١٩٥٩.

• الدكتور عبد الكريم درويش وليلى نكلا، أصول الادارة العامة ١٩٦٨ -
• دكتور عبد الكريم صادق بركات، إقتصاديات الدول العربية، اسكندرية.

: ١٩٦٩

• دكتور عبد المحسن صالح: القطر والحياء، دار القلم للقاهرة ١٩٦٤.
• دكتور علي عبد الرازق الجلي، دراسات في علم اجتماع الصناعة، دار المعرفة

الجامعة ١٩٨٠.

• مارتى تونج: مقتطفات من أقوال الرئيس مارتى تونج، القاهرة: الطبعة

الثانية، وكالة الصحف العالمية ١٩٦٧.

• محبوب الحق: ستار الفقر، خيارات أمام العالم الثالث، ترجمة أحمد بلبع،

تقديم الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧.

• د. محمد ثابت القندى: الطبقات الاجتماعية، دار الفكر العربى ١٩٤٩.

• د. محمد رشاد الطوبى: صراع مع البكروب، دار القلم للقاهرة ١٩٦٤.

• د. محمد زكى الشاوى: الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة

للكتاب: الطبعة الثانية.

• د. محمد عاطف غيث: للوقت النظرى في علم الاجتماع المعاصر، دار الكتب

الجامعة ١٩٧٧.

• دكتور محمد طه جيزى: المنهج في نظم الحياة: طبعات كلية التجارة

الاسكندرية ١١٧٩

• الدكتور كمال دسوقي ، سيكولوجية إدارة الأعمال ، التخطيط السيكلوجي
للمجتمع الصناعي ، دراسات في الخدمة البشرية و تنمية الأفراد ، الانيطر ،
١٩٦٠ .

• كلود ، جورج الابن ، تاريخ الفكر الإداري ، ترجمة الأستاذ أحمد حمودة ،
مكتبة الوحي العربي ، القاهرة .

• كولبرج جورج ، نشأة الفنون الانسانية ، ترجمة عبد ثلث التلثف ، بيروت
١٩٦٥ .

• لتون ، رالف ، الانثربولوجيا العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف
للمكتبة المصرية - بيروت ١٩٦٧ .

• لينين فلاديمير ، المختارات ، الجزء الأول : المجلد الثاني ، دار التقدم ،
موسكو ١٩٦٠ .

• د . نويل السباطي ، التنمية والتحديث الحضارى ، طبعة الجبلالوى ،
١٩٧٥ .

• نجيب غنول ، وابن طفيل ، بيروت ١٩٦٢ ،

• هامبسون ، نورمان ، التسايرخ الاجتماعى الثورة الفرنسية ، ترجمة فؤاد
أندراوس ، ومراجعة الدكتور محمد أيس ، وزارة الثقافة ، القاهرة .
• خاتسون ا . ، المشروع العام لتنمية الاقتصادية ، ترجمة محمد لجن
إبراهيم ، مراجعة الدكتور فؤاد عاشم حوض . المطبوعة القومية لتأليف والترجمة
١٩٦٥ .

• موريتز ، أصول فلسفة الطبقة الوسطى في عصر التنوير ، ترجمة الدكتور
عبد الجليل الطاهر ، مطبعة الرابطة - بغداد ، ١٩٦٠ .

• مقتطفات من أقوال الرئيس مارتى مونج ، وكالة الصحافة الإسلامية ،

القاهرة ١٩٦٧ . .

• المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، العدد السابع والثلاثون ،

السنة العاشرة ١٩٧٩ اليونسكو .

• موسوعة الامن الصناعي للدول العربية ، الجزء الاول والثاني والثالث

١٩٧١ .

• للتوسعة الفلسفية المختصرة ، راجعها وأشرف على نقلها من الانجليزية إلى

العربية ، الدكتور زكي نجيب محمود ، سلسلة الآف كتاب ٤٨١ مكتبة الانجلو

المصرية ،

• يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف بمصر .

الراجع القرآنية

1. Blondel, ch., Introduction à la Psychologie, Collect. A. Colin. 1932.
2. Fouglé, Caléstin., Essays on the Cast System. trans by Pocock. Cambridge, 1971.
3. Brunschvicg, Léon, Le progrès de la Conscience., Tome Second Paris. 1963.
4. Caseneuve. Jean., Sociologie de Marcel Mauss, Press univers de France Paris 1938.
5. Comte, Auguste, Cours de Philosophie Positive., Tome Premier 5e Edition. Paris 1907.
6. ——— : Système de Philosophie Positive, Edition Commemorative Paris 1942.
7. Davy, Georges., Emile Durkheim. Collection Louis - Michaud. Paris 1927.
8. Descartes, René., Discours de la méthode, Hachette. Paris. 1967.
9. Durkheim, Emile, Les Formes Elémentaire de la Vie Religieuse, Félix Alcan. Paris. 1912.
10. ——— : Les Règles de la Méthode Sociologiques. Edition Paris. 1927.
11. ——— : De La Division du Travail. Félix Alcan, Paris. 1922.
12. Duvignaud, Jean., Sociologie de l'art., press Univers. de France Paris. 1967.

13. Gurvitch Georges, *Essai de sociologie*, Annales Sociologiques Fasc. 4.
14. ———, *Le Vocation Actuelle de la Sociologie*. press. univers. de France. paris. 1963.
15. Halbwachs, Maurice, *Les Cadres Sociaux De la Mémoire*. Nouvelle. Edition, Paris 1935.
16. ———, *La Morphologie Sociale*, Collec. A. Colin [Paris. 1948.
17. Mauss, Marcel, *Sociologie et Anthropologie*., Press. univers. Paris. 1950.

الراجع الانجليزية :

18. Appleby, Robert., *Modern Business Administration*, Printice Hall, 1969.
19. Anderson, Nels., *Urban Community*, Routledge & Kegan Paul, London. 1960.
20. Bengel, Eugene, *How to manage for to - morrow ?* U.S.A, 1975.
21. Bergel, Egon Ernest, *Urban Sociology*, Mc Graw-Hill 1955.
22. Booth, Charles., *Life and Labour of the people of London*, Macmillan. 1902.
23. Borgatta and Meyer, *Sociological Theory*, New York, 1966.
24. Bottazzare, T.B., *Sociology. A Guide problems and literature*, London. 1963.

25. Ruedieu, Pierre., The Attitude of Algerian Peasant toward Time, Article from Mediterranean Country men, Monton, 1963.
26. Poskin, Joseph, Urban Racial Violence in the Twentieth century, Second Edition, Glencoe, 1937.
27. Box, Steven and Stephen Cotgrove, Occupational Choice and Selection, Article from, Restivo, Sol, Christopher, L Vanderpool, Comparative Studies in science and society, USA 1973
- 28 Burns, Tome, Sociology of Literature & Drama, Penguin, USA 1973
- 29 Childe, Cordon, Man Makes Himself, Fontana 1966
- 30 Cicourel, Aaron V, Method and Measurement in Sociology, Free Press of Glencoe, London 1964
- 31 Cohen, Percy, Modern, Social Theory, Heinemann London 1968
- 32 Corbett, Patrick, Ideologies, Hutchinson, 1965
- 33 Dansiger, K, Ideology and Utopia in the South Africa, The British Journal of Sociology, March 1963
- 34 Durkheim, Emile, Sociology and Philosophy, Trans By PF Pocock, London 1953
- 35 Deverger, Maurice, Introduction to the Social Sciences, trans, by Malcolm Anderson, London 1961.
- 36 Ellenson, Ann, Human Relations, Printice-Hall, 1973

- 37 Emmet, Dorothy, Alasdair Macintyre, Sociological Theory and philosophical Analysis, Macmillan, 1970.
38. Ergels, Frederick, Dialectic of Nature, Progress Publishers, Fourth Printing, Moscow 1966
- 39 Evans-Pritchard, E E, Essays in Social Anthropology, Cohen & West, London 1952
- 40 Fayol, Henri, General and Industrial Management, trans by Storrs, Pitmeir Paperbacks 1969
- 41 Firth, Raymond, Human Types, Thomas Nelson, New York 1943
- 42 ———— Man and Culture, Routledge London 1957
- 43 Follet, M, P, Freedom and Co-ordination Management Publication, Truste, London 1949
- 44 Friedman, C, Industrial Society, The Emergence of Human Relation of Automation, Glencoe, 1964
- 45 Gillbreth, F B, Motion Study, A Method for Increasing Efficiency of Workmen, 1911
- 46 Goode, William J, Methods in Social Research, Mc Graw Hill London 1952
- 47 Goold, Williams, J, The Family As An Element in the World Revolution, in Rose Peter (ed) The Study of Society, Random House, inc-New York 1967
- 48 Coakner Alvin, Modern Sociology, An Introduction to the Study of Human interaction USA 1963

49. Gurvitch, Georges., *The Twentieth Century Sociology*
The Philosophical Library, New York, 1945.
50. Handy, Rolo., *Philosophy's neglect of Social science*,
article from *philosoph of Science*. April, 1958,
51. Harlow, Eric, and Compton., *Practical Communication*
Vol : 2 Longmans. 1967.
52. Hayek, F.A., Von. *Scientism and the study of society*,
Economica Vol X 1943.
53. Heap, James, and Philip Roth., *On Phenomenological*
Sociology, *American Sociological Review* 38
(June 1973).
54. Hill, Michael, *The Sociology of Public Administration*,
Michael Hill 1972.
55. Homans, G, *Social Behavior, Its Elementary Forms*,
Harcourt, New York 1961
56. Inkeles, Alex, *Social Change in Soviet Russia* New
York 1964
57. ———. *The Modernization of Man, in Modernization*
dynamics of Growth, edited by M Weiner New
York Basic Books 1966
58. ———. *What is Sociology?* prentice-Hall 1964
59. Issa Ali A, *Social Anthropology. Theory and practice*
Cairo 1964
60. Kluckhohn Clyde *Culture, and Personality*, reprinted
From the *American Anthropologist*, Vol 46-1944

61. ~~Evans~~, Ari Transcultural Psychiatry Penguin 1972
- 62 Kardiner, Abram & Edward Preble, They Studied Man
Mentor New York 1963
- 63 Keesing, Felix, Cultural Anthropology, New York 1960
- 64 Kerr, Clark, Productivity and labor relation, Sydneys
Anoxis Robertson 1957
- 65 Kuhl, Herbert., The age of Complexity, Mentor 1965
- 66 Krech D and Crutchfield, Theory and Problems of
Social Psychology, 1948
- 67 Lee, Dorothea., Freedom and Culture., Prentice-Hall,
Harvard 1959
- 68 Lenin., Selected works Vol : 1 Progress Publishers
Moscow 1967
- 69 Lindenfeld Frank., Radical Perspectives on Social
Problems USA 1969
- 70 Linton, Ralph, and Harry Holjer., An Introduction to
Anthropology, Macmillan Second edition New
York 1959
- 71 Lowie, Robert., The History of Ethnological Theory
London 1938
- 72 Mack, Raymond & Johnpase., Sociology and Social
Life, Van Nostrand Company 1973
- 73 Marx, Karl., The Poverty of Philosophy., Moscow, 1966
- 74 Marx, Engels, Selected works Vol : 1 Moscow 1962

75. Lundberg, George., *Foundations of Sociology*, New York, Macmillan, 1956
76. Lundberg, George., *Social Research*, Longmans. 1947.
77. Marcuse, Herbert., *Reason and Revolution*, Boston 1960.
78. Martindale, Dore., *The Sociology, Nature and Types of Sociological Theory*, Routledge and Kegan Paul, London 1961.
79. Mannheim Karl., *Essays On The Sociology of Knowledge*, Trans By Paul Kecskemeti, Routledge & Kegan Paul, London 1952.
80. ————, *The Sociology of Knowledge, The Twentieth Century Sociology*, New York 1945.
81. ———— *Essays On Sociology and Social Psychology*, Trans. by Paul Kecskemeti London 1953.
82. ————, *Ideology and Utopia*, Kegan Paul Trans. by Louis Wirth and Edward Shils. Second Impression London 1940.
83. ———— *Man and Society in An Age of Reconstruction* Trans. From The German By Edward Shils Kegan Paul London 1942.
84. Merton, Robert, *Social Theory and Social Structure*, Revised and enlarged Edition The Free press of Glencoe The Fifth Printing. New York. 1962.
85. Meyer, Edgar Sociological, *Theory Present Day Sociology from the past*, New York 1956.

86. Mill, John Stuart, Utilitarianism, The Fontana Collins
1964.
87. Mills, Wright, Power Politics and People, Howitz. First
Published 1959.
88. Mills, Wright White Collar., New York 1951.
89. Myrdal Gunnar. An International Economy., New York
Harper 1958.
90. Myrdal Gunnar., Volume., in Social Theory Routledge and
Kegan Paul London 1968
91. Naess S.F, Foundation of Social Anthropology, London
1953
92. Parsons, Takott., Structure of Social Action Free Press
1948
93. Piddington, Ralph., An Introduction to Social Anthr
opology Vol I Oliver and Boyd Third Edition
1960.
94. Plamentaz, John., Ideology Macmillan 1971
95. Popper, K.R The Open Society and Its Enemies
Routledge Vol I II London 1945
96. Popper., K.R The Poverty of Historicism Routledge
Kegan Paul London 1957

97. Radcliffe - Brown A.R - Andaman Islanders, Free Press 1948
98. ——— Methods in Social Anthropology, Selected by Srinivas The University of Chicago Chicago 1958
99. ——— Structure and Function in Primitive Society, Cohen & West Second Impression London 1956
- 100 Restivo Sol P Christopher K Vanderpool, Comparative Studies in Science and Society USA 1974
- 101 Riley Matilda White., Sociological Research A case Approach, New York 1961
- 102 Roche, Maurice., Phenomenology Language and Social Science, Routledge & Kegan Paul 1973
- 103 Schneider Eugene., Industrial Sociology McGraw Hill New York 1967
- 104 Service Elman R The Hunters., Printice Hall 1966
- 105 Smelser Neil., The Sociology of Economic Life, Printice Hall 1963
- 106 ——— Sociology An Introduction., Pakistan London 1987
- 107 Sorokin Pitrim., Contemporary Sociological Theories, New York London 1928
- 108 ——— Society Culture and Personality. Their Structure and dynamics Harper & Brothers publishers New York & London 1947
- 109, Spencer Herbert., The Principles of Psychology, Third Edition Vol I London 1884

- 110 Stogdill RM Individual Behavior and Groups Achievement
University of Oxford press 1959
- 111 Stark Werner., The Sociology of Knowledge Second
Impression Kegan Paul London 1960
- 112 Timasheff Nicholas., Sociological Theory Its Nature and
Growth, Fortham University New York 1955
- 113 Tiryakian Edward Existential Phenomenology American
Sociological Review 30 october 1960
- 114 _____ Sociologism and Existentialism Prentice Hall
1962
- 115 Tonhies Ferdinand., Community and Society trans by
Loomis Hurper New York 1963
- 116 Vogt Evon The Automobile in Contemporary Navaho
Culture. Article from A Reader in Culture Change
Vol 1 2 by Ivan Brady and Barry Isaac
Cambridge 1975
- 117 Weber Max., The Theory of Social and Economic
Organization trans by Henderson Glencoe 1947
- 118 _____ Basic Concepts in Sociology trans by Hp
Secher Peter Owen London 1962
- 119 Wellin Edward Water Boiling in a Peruvian Town
Article in A Reader in Culture Change Volume
1 2 by Ivan Brady and Barry Isaac Cambridge
1975
- 120 White Leslie., The Agricultural Revolution, article A
Reader in Culture Change by Ivan Brady and
Barry Isaac Cambridge 1975

- 121 Whyte William. The Organization Man, New York
Anchor Book 1956
- 122 William Michael., Human Relations Longmans, London
1967.
- 123 Wolf Kurt., The Sociology of Georg Simmel Free, Press
Paperback 1934.
- 124 ————— Essays on Sociology and Philosophy. Harper
1964

محتويات الكتاب .

تقديم

تقديم ٩

الباب الاول

البيدات الاولى لتفكير السياسي ١٥

الثورة كجربة سياسية ١٨

فلسفات طوباوية ٢١

الفصل الاول

مفاهيم السياسة ٣٩

تفكير الشرق القديم ٤٢

الفلسفة اليونانية ٤٤

القانون الروماني ٤٨

أوغسطين . Augustin . > في ملك الله ٥٠

تفكير السياسي في الاسلام ٥١

عبد الرحمن ابن خلدون ٥٤

صهر النهضة في أوروبا ٥٥

السير توماس مور Moore ٦٠

ماكياڤلي Machiavelli ٦٢

مباحثه بالأمم وأهدافه السياسية ٦٥

مبدأ الفصل بين الدين والدولة ٦٥

صفحة

٧٠	توماس هوبز Hobbes
٦٣	مونتسكيو Montesquieu

الفصل الثاني

٧٩	قواعد للتج في علم الاجتماع السياسي
٨١	مصادر السياسة الوضعية ومبادئها
٨٩	التوافق والتضامن والنظام
٨٨	الأميرة والدولة والجنس
٨٩	ولكن ماذا يدور علم الاجتماع السياسي؟
٩١	السلوك السياسي
٩٥	الجمال السياسي وتوازن القوى

الباب الثاني

١١٣	للتجربة السياسية بين التجربة والوعى
١١٥	أبشاق النظرية السياسية للعاصرة
١١٧	الفكر السياسي بين التنظير والتطبيق

الفصل الثالث

١٢٣	لتجربة السياسية
١٢٤	ولكن هل «البطل» هو محرك التاريخ؟
١٢٥	هوى الجماهير والمجماعات السياسية
١٢٦	سياسات الدولة الفرنسية
١٢٦	التجربة في نظام القيم

منه

الفصل السادس

- ما هي الأيديولوجيا ؟ ٢٥٣
- الأيديولوجيا ووظائف التصنيع في المجتمعات البدائية . . . ٣٦٥

الفصل السابع

- الهجمات على الرأي العام ٢٦٩
- الإشاعة Rumours والرأي العام ٢٧١
- الدعاية Propaganda ٢٧٣
- استراتيجية العلاقات العامة ٢٧٦
- وظيفة العلاقات العامة ٢٨٢
- صور العلاقات العامة ٢٨٦

الفصل الثامن

- ثقافة ذوي الباقات البيضاء ٢٩٥
- ثقافة الإدارة الصناعية ٢٩٨
- أعمال من ذوي الباقات البيضاء ٣٠١
- صفوة القوة Power Elite ٣٠٢
- الأحزاب السياسية في الدول النامية ٣٠٥
- هشاشة الإنسان في العالم الثالث ٣٠٧
- دور المنظمات الثقافية للضاد ٣١٤
- التكامل ود البثائية ، ود الشمولية ٣١٢
- أدوار ومسؤوليات ذوي الباقات البيضاء ٣١٥
- التمسك البشرية ٣١٨

منه

٣١٩	• • • • •	موقف الادارة من ذوى الباقات الزرقاء .
٣٢٢	• • • • •	بنية المجتمع الصناعى .
٣٢٣	• • • • •	Bureaucratic Influence التأثير البيروقراطى .

التصل التاسع

٣٣٠	• • • • •	شغل الفراغ .
٣٣٣	• • • • •	الفراغ والطبقة الاقتصادية .
٣٣٥	• • • • •	الاشياء والفراغ
٣٣٥	• • • • •	افتراح غلط .
٣٤٤	• • • • •	Leisure time إقتصاديات شغل الفراغ .
٣٤٨	• • • • •	الابديولوجيات الضارة وتنظيم الفراغ .
٣٥٦	• • • • •	Morale الروح للمنية .

الباب الرابع

٣٦٧	• • • • •	مشكلات تنمية الاقتصادية .
٣٦٨	• • • • •	القطع نحو التنمية .
٣٧١	• • • • •	مناير التنمية .
٣٧٢	• • • • •	السياسة الجديدة لاستراتيجية التنمية .
٣٨١	• • • • •	ثورة التكنولوجيا .
٣٨٢	• • • • •	التعب والتعب .

ملحق

الفصل العاشر

٣٨٧	•	•	•	التنسيق القطاعي في التوزيع
٣٨٩	•	•	•	الثروات الاقتصادية
٣٩١	•	•	•	النمو الاقتصادي في التاريخ
٣٩٥	•	•		التكنولوجيا ونمير النمو
٣٩٨	•	•		التخطيط ومسيح التفكير

الفصل الحادي عشر

٤٠١	•	•	•	وظائف التدوير والتحديث
٤٠٥	•	•		مخاطر التنمية
٤٠٩				طبيعة التنمية والتحديات المعاصرة
٤١١				حروب الغزو أو طعمه و تسطير

الفصل الثاني عشر

٤٢١	•	•	•	كيف صدرت الحاجة إلى علم التنمية
٤٣٠	•	•	•	مشكلات التنمية
٤٣٤	•	•	•	ما هي أهم مبررات التنمية ؟
٤٣٧	•	•	•	١ - بناء القدرات
٤٤١	•	•	•	٢ - العلم لكل فم
٤٤٥	•	•	•	٣ - تنمية دولة العلم الثالث
٤٤٨	•	•	•	٤ - التكنولوجيا والصناعة في الدول الصناعية

الباب الخامس

طول مقترحة لمشكلات الإدارة والتنمية ٤٤٥

الفصل الثالث عشر

ولكن كيف نمجّل بالتنمية ؟ ٤٦٣
 التخطيط واستراتيجيات التنمية ٤٦٥
 التخطيط الصناعي ٤٧٢
 التخطيط التربوي ٤٧٦
 الحرية وشعارات عصر التنوير ٤٨٠
 الحرية والإدارة المدرسية ٤٨٢

الفصل الرابع عشر

التنمية الإدارية وفورة التخطيط
 نموذج من التحديث السياسي ٤٩٥
 فلسفات التخطيط وبرامج التنمية ٤٩٧
 نماذج من السياسات الاقتصادية المخططة ٤٩٨
 ولكن كيف تخطط الدول المتخلفة من أجل التنمية ؟ ٥٠٠
 الثورة الإدارية ومعوقات التنظيم ٥٠٢
 الإدارة كنسق اجتماعي ٥٠٤
 ترشيح الاتفاق ٥٠٩

التفصل الخامس عشر

٥١٧	• • • • •	التنظيم والادارة
٥٣١	• • • • •	مفهوم التنظيم البيروقراطي
٥٣٤	• • • • •	الفروق الجوهرية بين التنظيم والادارة
٥٣٥	• • • • •	التنظيم بين الصراع والتوازن
٥٣٦	• • • • •	دينامية التنظيم
٥٤٦	• • • • •	خاتمة
٥٦٥	• • • • •	ملحق المراجع والمحتويات
٥٦٧	• • • • •	للمراجع العربية
٥٧١	• • • • •	للمراجع الاوربية
٥٨٣	• • • • •	فهرس ومحتويات الكتاب

رقم الايداع ٤٠٥٠ / ١٩٨٠ الترخيم الدولي ٥ - ١ - ٨٧٣٢ - ٩٧٢ ISBN

مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina



0344267